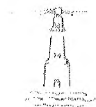
محمد حسنين هيكل

في منزل الوحي



دار المعارف

فِي مَنْزِلِ الْوَحْيِ

فى منزل الوحى

بقلم

محمد حسين هيكل

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

للمؤلف

قصص مصرية		الطبعة الثانية ١٩٧٤	الطبعة الأولى	١٩٦٩
الإيمان والمعرفة		الطبعة الثانية ١٩٧٩	» »	١٩٦٤
بين الخلافة والملك : عثمان بن عفان		الطبعة الثالثة ١٩٧٨	» »	١٩٦٤
الشرق الجديد		الطبعة الثانية ١٩٧٩	» »	١٩٦٣
الحكومة الإسلامية		الطبعة الثالثة ١٩٧٩	» »	١٩٦١
هكذا خلقت		الطبعة الرابعة ١٩٧٤	» »	١٩٥٥
مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الثالث			» »	١٩٧٨
مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الثانى			» »	١٩٥٣
مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الأول			» »	١٩٥١
الفاروق عمر	الجزء الثانى	الطبعة السادسة ١٩٧٨	» »	١٩٤٥
الفاروق عمر	الجزء الأول	الطبعة السادسة ١٩٧٨	» »	١٩٤٤
الصديق أبو بكر		الطبعة السابعة ١٩٧٩	» »	١٩٤٢
فى منزل الوحى		الطبعة السابعة ١٩٧٩	» »	١٩٣٧
حياة محمد		الطبعة الرابعة عشرة ١٩٧٩	» »	١٩٣٥
ثورة الأدب		الطبعة الرابعة ١٩٧٨	» »	١٩٣٣
ولدى		الطبعة الخامسة ١٩٧٨	» »	١٩٣١
تراجم مصرية وغربية		الطبعة الرابعة ١٩٥٤	» »	١٩٢٩
عشرة أيام فى السودان		الطبعة الثانية ١٩٤٩	» »	١٩٢٧
فى أوقات الفراغ		الطبعة الثانية ١٩٦٨	» »	١٩٢٥
جان جاك روسو	الجزء الثانى	الطبعة الثالثة ١٩٧٨	» »	١٩٢٣
جان جاك روسو	الجزء الأول	الطبعة الثالثة ١٩٧٨	» »	١٩٢١
زينب		الطبعة السابعة ١٩٧٤	» »	١٩١٤
دين مصر العام – بالفرنسية			» »	١٩١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

تقديم الكتاب

ثلثمائة مليون من المسلمين أو يزيدون تهفو قلوبهم جميعاً إلى منزل الوحى ويهزهم الحنين إليه ، يولون وجوههم شطره خمس مرات كل يوم أينما أقاموا الصلاة ، وإلى البيت العتيق تهوى أفئدتهم رغبة فى أداء فريضة الحج ، وإلى قبر الرسول النبى العربى يحثهم الشوق ابتغاء زيارته . ومنهم من يود لو يقف عند كل مكان وقف فيه الرسول ليتمتع ماوسعه المتاع بما توحيه هذه المواقف من جلال روحى خُلُقى وإنسانى يأخذ بمجامع النفس . ومنهم من يدعوه تطلّعه العلمى إلى البحث عن أسرار هذه البيئة العربية التى اختارها القدر فجعل منها منزل الوحى بالتوحيد إلى محمد عبد الله ورسوله فى أكثر صور التوحيد سمواً وصفاء : ماذا كانت قبل الرسالة ؟ وكيف كانت حياة الرسول؟ وإلام صارت على توالى العصور ؟

بلاد ذلك مبلغها من عناية العالم بها جديرة بأن تتعلق بها أفئدة الكتاب والشعراء والمؤرخين والعلماء ، تتلمس أسرارها وتستلهم من روحها . وهى لاريب وقد استوقفت منهم كثيرين من أهل الأمم المختلفة ، بل لقد استوقفت كثيرين من غير المسلمين فى مختلف العصور وفى عصرنا الحاضر . على أن ما تحتفظ به من تُراث دائم الجدة ، بالغ غاية الدقة فى تشعبه خلال التاريخ واتصاله بأرجاء العالم المختلفة . قد حال بين طائفة من الأدباء والشعراء والباحثين وبين التنقيب فى كنوز هذا التراث ؛ وذلك لما لها فى نفوس الباحثين المسلمين من قداسة روحية تصدهم عن الغوص فيها إلى غاية أعماقها ، ولما يغيب من أسرارها عن غير المسلمين بسبب هذه القداسة الروحية ذاتها . هذا إلى أن ما صارت إليه بلاد العرب منذ قرون طويلة من تأخير واضمحلال قد لوى الكثيرين عنها ومال بهم عن التفكير فى أمرها ، شأن الناس إذ يرغبون عن كل ما انطفأ بريقه وإن حوى فى طياته أثمن النفائس . ومن ثم قل ما كُتب

عن بلاد النبي العربي فى القرون الأخيرة مما له قيمة علمية تكشف الغطاء عن حقيقة هذه البلاد واختيار القدر إياها للوحى والرسالة على نحو يُقنع تفكير هذا العصر ، وكان ما كتبه العلماء الأجانب بعيداً عن تناول الظاهرة الروحية التى تغير لها وجه التاريخ منذ أربعة عشر قرناً ، والتى ستظل عاملا خالد الأثر فى حياة العالم ما كان للقوة الروحية فى توجيه العالم أثر وسلطان .

ولقد حرصت على أن أقف ما استطعت عند البحوث التى تناولت بلاد العرب من هذه الناحية منذ بدأت أكتب السيرة وأنشرها تباعاً فى فصول كتابى « حياة محمد » . ولقد وفقت لبعض ما أردت فى الكتب العربية التى كُتبت فى العصور الإسلامية الأولى ، وفيما كُتب بالعربية من بحوث فى هذه العصور الأخيرة ، كما وفقت لناحية أخرى منه فيما كتبه علماء الغرب ورجال الرحلات فيه . لكننى شعرت آخر الأمر بأننى سأظل ينقصنى جوهر ما أبحث عنه إذا أنا لم أذهب إلى بلاد النبي العربي بنفسى ، ولم أقف حيث وقف فى أدق ما مر به أثناء حياته ، ولم أمهد لذلك بأن أحيط فى حدود الطاقة بالبيئة العامة التى نشأ فيها . وإنما كنت أفكر فى هذا لأتم به بحوثى فى السيرة . فأما أن أجعله موضوع كتاب مستقل فذلك ما لم يدر بخلدى بادئ الرأى . فلما ذهبت إلى الحجاز وتجولت فيه تبينت أن ما قمت به من بحوث يتعدى السيرة إلى عصرنا الحاضر ، لذلك رأيت من الخير أن أطالع القرّاء بكتاب مستقل يتناول ما رأيت ويتناول ما أحسست به حين كررت بالزمن راجعاً إلى عهد الرسول ، وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين فى عهدهم الأول ، ثم ما أصاب البلاد الإسلامية المقدسة بعد ذلك إلى وقتنا الحاضر ، مع الإشارة الموجزة إلى ما أرجو أن يكون القدر قد خطه فى لوحه لهذه البلاد العربية يوم ينصر الله دينه على الدين كله .

وهذه الإشارة الوجيزة التى يجدها القارئ فى بعض فصول الكتاب هى مع ذلك أول ما تحركت له نفسى منذ فكرت فى الرحلة إلى الحجاز حتى استقر بى العزم عليها . من يومئذ جعلت أسأل الذين سبقونى إلى الحج عن الحال فى

بلاد العرب ، وعما يروى من الأنباء عن الوهابيين فيها ، وعن مذهب ابن عبد الوهاب وما ينطوى عليه ؛ أبتغى بذلك التهيؤ للبحث فيما يستطاع عمله لخير هذه البلاد العربية ولخير المسلمين الذين ينزلونها . وإنما عالجت هذا البحث لما أعرفه من أثر الفوارق المذهبية بين أهل الدين الواحد فى مختلف البلاد والأديان والعصور . أفيبلغ الاختلاف بين الوهابيين وغيرهم من المسلمين مبلغاً يجعل العمل المشترك والتعاون عليه أمراً غير مستطاع ؟ أم أن جوهر العقيدة الإسلامية فى هذا المذهب كجوهرها فى سائر المذاهب الإسلامية واحد لا يتغير : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ؟ أما الجوهر فى المذاهب الإسلامية جميعاً فهو التوحيد ، أما وكتاب الله هو كتاب المسلمين جميعاً ، فالرجاء عظيم فى تعاون المسلمين على إصلاح ما يتصل بشعائرهم وعقائدهم فى بلاد البيت العتيق والقبر النبوى وفى متابعة هذا التعاون على الزمن حتى يقضى الله بأمره ، ويتم على الناس نوره .

ولقد استغرق التفكير فى هذا الأمر كل انتباهى منذ بدأت رحلتى : جعلت أفكر فيه حين ركبت الباخرة ، وحين نزلت جُدّة ، وأثناء الطواف والسعى بالعمرة بمكة ، وعندما ذهبت أتم فرض الحج فى عرفات وأختم شعائره فى مِنًى . ولم أعجب حين رأيت الكثيرين من زملائى فى الحج يشاركوننى فى هذا التفكير . فقد رأوا جميعاً حاجة مناسك المسلمين إلى الإصلاح ، فتحركت لذلك نفوسهم وعقدوا الاجتماعات يلتمسون وجوه الرأى فيه . أما أنا فقد وضعت مقترحات لبعض ما رأيت من الإصلاح ودفعت بها إلى رجال الحكومة العربية . ولعل من بين الذين سبقونى إلى الحج من صنع صنيعى راجياً ما أرجو أن يوفق الله المسلمين لغاية الخير .

على أننى لم أتبسط أثناء هذا الكتاب فى بيان ما رأيت وما أرى الآن من وجوه الإصلاح ؛ لأننى لم أجعل هذا الغرض غايتى الأولى من وضعه ، ولأن شؤون الإصلاح تتطور فى تصويرها تبعاً لما تقضى به حاجات العصر . ونحن فى زمن تسرع فيه الأشياء إلى التحول ، حتى لترى ما كان صالحاً أمس قد

أصبح اليوم عتيقاً ، أن حدث بعده ما هو خير منه وأدنى إلى الفائدة . لكنى تبسطت فى بعض فصول الكتاب فى نقد ما رأيته موجباً للنقد من أحوال بلاد العرب الاجتماعية ؛ وفى بيان الأسباب التى أدت إلى تدهور البلاد العربية والإسلامية ، لاقتناعى بأن النقد فاتحة الإصلاح ، وبأن تحرّى الأسرار التى أدت إلى الضعف تشخيص للمرض يسهل معه وصف علاجه .

ومع وقوفى موقف الناقد من بعض الشؤون الحاضرة فى البلاد المقدسة لقد وجهت أكبر عناية إلى آثار الرسول الكريم فيها ، وجعلت جلّ همى أن أسير حيث سار : ألتمس ما فى حياته من أسوة وعبرة ، وأرجو أن أقف على شىء من السر الذى هيأ هذه البلاد لتكون منزل الوحى إلى النبى العربى خاتم الأنبياء والمرسلين . ولم أتقيد فى تفكيرى وتأملى أمام شىء مما رأيت بغير منطقى وعقيدتى الذاتية اللذين كوّنتهما الطريقة العلمية الحديثة . فأنا لا أسلّم بالعقيدة الموروثة إذا لم يكن لها أساس غير ما وجدنا عليه آباءنا ، ما لم أمتحنها وأمحّصها وما لم أصل من أمرها إلى الإيمان بأنها هى الحقيقة كما يُسيغها عقلى ويطمئن إليها ضميرى . وأنا لا أحسب الذين يدينون بعقيدة ما لغير شىء إلا أنهم وجدوا عليها آباءهم مؤمنين حقاً . بل أرى واجباً على الإنسان لكرامته الإنسانية أن يحاول ما استطاع فهم ما يُلْقَى إليه ، اتصل ذلك بالعقيدة أو بالتشريع أو بالعلم والفن . فإن اهتدى إلى الحق فيه فذاك ، وإلا فليلتمس الهدى عند أهل العلم وليطالبهم بإقناعه . والعالِمُ الجدير باسم العالِم هو من أقنع سامعه بالحقيقة التى اهتدى إليها عن طريق المجادلة بالتى هى أحسن . فلا إكراه فى الدين ، ولا يمارى فى الحقيقة متى تبين الرشد من الغىّ إلا من أضلّه هواه .

ولقد جعلت السير فى إثر الرسول غرضى من يوم أتممت مناسك الحج . فقد كنت شديد التوْق إلى هذا السير من سنوات ومذ كنت أتابع الرسول خلال الكتب أبحث فيها سيرته ، وكنت أحسب السبيل ميسرة وأنى سأجد عند كل موقف من مواقف الرسول أثراً يدل عليه ويشهد به . ولم يزعزع من ذلك فى نفسى ما علمته من هدم الوهابيين القباب التى أقامها من حكموا

الحجاز فى العصور التى سبقتهم . فالوهابيون إنما استقرّوا فيه لعشر سنوات خلت . وهذا زمن لا يتيح للنسيان أن يجنى على آثار خلّدتها أربعة عشر قرنا متعاقبة . هذا إلى أن القباب ليست كل ما يمكن أن يقام من الآثار . وإذا كنا نحتفظ فى مصر بآثار ناهضت الدهر خمسين قرناً متوالية فما أحرى المقيمين ببلاد النبى العربى أن يحتفظوا بآثاره وهى أقرب من ذلك عهداً ، وأبلغ دلالة ، وأبقى على التاريخ ذكراً . والوهابيون هم بعدُ مسلمون ؛ إن أنكروا القباب فلا ينكروا ما سواها من دواعى الذكر والأسوة .

والحق أنى لم أجد مشقة فى تعرُّف الآثار التى هدم الوهابيون قبابها . فالأسف على ما صنعوا قد جعل الذين يخالفونهم فى الرأى أشد ذكراً لها وحرصًا على إشهاد الناس ما حل بها . ولقد شاركت هؤلاء فى أسفهم من ناحية لا يفكر أحدهم فيها . فقد كان بين هذه القباب التى هدمت آثار بارعة فى الفن لم يكن يجمل بيد تقدّر الفن أن تمتدّ إليها بسوء . لكنى إنما وجدت المشقة فى الاهتداء إلى آثار لها فى تاريخ المسلمين الأولين أثر بالغ ، ولا ترضى أمة تقدر تاريخها أن تذرها للنسيان يعبث بها ويجنى عليها . من ذلك اختلاف الأقوال على موقع حُنَين حيث كانت الغزاة التى تركت فى تاريخ الإسلام أثرا قل كمثله أثر . ومنه اختلافهم على موقع عكاظ سوق العرب جميعًا فى الجاهلية وفى صدر الإسلام . وإنما سوّغ الجهل الذى خيم على بلاد العرب من عصر العباسيين هذه الجناية النكراء ، كما سوّغ أمراً لا يقل عنها نكراً . فقد أقيمت آثار لحوادث وقعت وليس فى التاريخ ما يدل على أنها وقعت حيث تقوم هذه الآثار ، وأقيمت آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من أمرها شيئًا . وتحقيق ذلك كله وبيان قيمته العلمية أمر جدير بكل من يريد الحقيقة . وقد حاولت من ذلك ما استطعت . لكن هذا التحقيق يحتاج إلى أضعاف الزمن الذى قضيته بالحجاز ، ويحتاج مع الزمن إلى بحوث ينقطع لها صاحبها ليقابل بين ما جاء فى الكتب المختلفة ، لعله يبلغ من المقابلة إلى ما تستقيم به النتيجة التى يتوخّاها . وليس يخامرنى ريب فى أن هذا العمل لو قامت به بعثة

جامعية لوجدت فيه من الفائدة ومن المتاع العلمى ما تهون معه كل مشقة .

وكان حديث الآثار الصحيحة التى وقفت عندها كلَّه البلاغة فى التعبير عما تدل عليه وتوحيه إلى النفس من آى الجلال والعظمة . فجبل حراء والغار فى قمته ، ومسجد عدّاس بالطائف ، ومسجد العقبة وجمرتها ، وجبل ثور ومختبأ رسول الله وأبى بكر بالغار فيه ، والطريق الذى سلكه النبى إلى المدينة حين هجرته من مكة ، ومسجد قُبَاء ، والمسجد النبوى والآثار الكثيرة المختلفة بالمدينة ، وميدان بدر حيث وقعت الغزوة الأولى بين قريش والمسلمين . هذه المواقع وما إليها كانت تثير أمام ذهنى ذكريات مليئة بالحياة كأنما حدثت بالأمس ، وكانت توحى إلىّ معانى الإكبار والإعظام وتزيدنى إجلالاً لهذه الأماكن فى صمتها العميق لم يغير منه توالى القرون . ولقد كان ما أوحته هذه الأماكن مما حاولت تصويره فى هذا الكتاب أبلغ من كل ما استطاع قلمى أن يصفه أضعافًا مضاعفة .

ولقد كشفتْ لى هذه الآثار عن صورة لبلاد العرب حين بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق تختلف أشد الاختلاف عن صورتها فى الوقت الحاضر ، وتختلف عما وقَر فى نفس الكثيرين من صورتها فى آخر أيام الجاهلية . كانت بلاد العرب يومئذ ذات حضارة لا شىء يشبهها فى شبه الجزيرة اليوم ؛ كانت مكة وبعض بلاد الحجاز مدنًا تجارية عامرة مزدهرة ، وكانت الطائف ذات الخصب موضع عناية من أهلها بحسن استغلال خصبها وبصيانة سلامتها ، وكان أهل تهامة وأهل الحجاز أولى ثقافة وحكمة وأدب ، وكان العرب على اتصال بالعالَم ينقلون تجارته بين الشرق والغرب مما زادهم علمًا وزادهم براعة فى التجارة وأساليبها ؛ لكنهم كانوا يحيون حياة سياسية أشبه بحياة اليونان القديمة وبحياة بعض بلاد الغرب ، ومنها إنجلترا ، منذ قرون قليلة . كانوا قبائل ومدائن تحتفظ كلٌّ منها بوحدتها وبسلطانها وتدفع عن حياضها كل من يحاول الاعتداء على سيادتها أو على ثروتها . فلما بعث الله النبىّ العربى داعيًا إلى التوحيد ، ألفى فى هذه القبائل قوة فى الجدل وصلابة فى الاستمساك بعقائدهم ونُظُمهم .

فلما هدى الله الكثيرين من أهل يثرب إلى الإسلام وهاجر النبى إليهم وانتصر بهم وجمع كلمة العرب تحت لواء الدين الجديد ، استطاعت هذه الأمة الفتيّة المستعدّة بحضارتها للنهوض أن تثب إلى حيث وثبتْ وأن تبثّ فى العالم حضارة هذا الدين الذى اختارها الله لتكون وطنه الأول .

كشفت لى هذه الصورة عن جانب من السر الذى كنت ألتمسه والذى كان خفيًّا علىّ حين كنت أتصوّر بلاد العرب كلها ، كما يتصوّرها الكثيرون وادياً غير ذى زرع لا تصلح مقرّا لحضارة يضىء نورُها العالم . كان أهلها شديدى المحافظة على عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا ذوى بأس وقوّة فى هذه المحافظة . وقد كانت عقائدهم الوثنية تمسكهم دون الوثوب إلى دعوة العالم المفكك الأوصال يومئذ ليستظل بحضارة أجدر بالإنسانية مما كانت تدعو إليه بزنطية وفارس . فلما هدى الله العرب إلى الإسلام كانت تعاليم هذا الدين منارة الهدى للعالم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم الأسوة والمثل بأدبه وخُلُقه وقوّته على الحياة لنشر هذه التعاليم وإحياء الإنسانية بروحها السامى . وهذه الأسوة هى ما تحدّث به آثاره فى بلاد العرب حديثها البليغ الذى تهتزّ له النفسُ وتسمو به الروح إلى مراتبها العليا حيث تشرق الأرض بنور ربها ويرى الإنسان فيها فضائل الكون مجتمعة .

والواقع أن ما توحيه آثار الرسول من هذه المعانى بالغ غاية القوّة . وأنت تستطيع أن تجمع هذه المعانى فى عبارة موجزة : تكريس الحياة لمثل أعلى يوجه الإنسان إليه جهوده فيبلغه أو يموت دونه مستشهداً فى سبيله . وحسبُك أن تقف عند كل واحدة من كلمات هذه العبارة لترى الجلال والقوّة والسموّ على الحياة متضافرة كلها إلى خير غاية . فالمثل الأعلى فى الإسلام ما هو ؟ رضا الله بالبرّ والتقوى ، وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه . صوِّر هذه المعانى النفسية صورة ماديّة واجعل منها مثلك الأعلى الذى تكرس له جهود حياتك . هذا التصوير وحده عظيم شاق يقتضيك مجهوداً جسيماً . أنت تريد الغنى مثلا أعلى لك . فليكن ! لكن يجب أن تبتغى به رضا الله وأن تكون فى تحصيله

بـرًّا تقيًّا ، وألا تعامل الناس فى تحصيله إلا بما تحب أن يعاملك به من أراد منهم مثل غايتك . وذاك يرى جاه الحكم مثلا أعلى له . فليكن ! لكنه يجب أن يبتغى بالحكم رضا الله وأن يكون فيه برًّا تقيًّا لا يعامل غيره إلا بما يحب أن يعامله الغير به إذا ولى أمره . فإذا صوّر المرء مثلـه الأعلى وجب عليه أن يسعى إليه غير وانٍ يوجه إليه كل جهوده وأن يستهين فى سبيله بكل تضحية وإن كانت بالحياة ، ولا عليه إن أصابه مكروه ما دام رضا الله مبتغاه ، فكان لذلك برًّا تقيًّا مؤمنًا بالأخوة الإنسانية ، محبًّا لإخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه ، راجيًا لهم الخير وأن يبلغ كلٌّ من مثله الأعلى ما يودّ هو أن يبلغه من المثل الذى جعله نُصْبَ عينيه وغرض حياته .

لكن الأمثال العليا تتفاوت تفاوتًا عظيمًا . وأسمى الأمثال لا ريب ما بعث الله به نبيه هدًى للناس ونوراً . ولقد بلغ من إيمان العرب فى الصدر الأول بهذا المثل أن جعله كل منهم غرض حياته ، وأن أخضع له كل ما فى الحياة من غرض دونه ، وأن كان الاستشهاد فى سبيله أملاً يتمنّى أن يجعله الله نصيبه . فهذا الذى اتخذ التجارة حرفة له فى الحياة ووقف لها جهوده كان يجعل فى تجارته حظًّا معلومًا للسائل والمحروم ، وكان يهب نفسه لله يوم يدعو الداعى إلى الجهاد فى سبيله . ذلك لأن الدين الجديد علّمهم أن الأمة يجب أن يكون لها ، كما يجب أن يكون للفرد ، مثل أعلى ، وأن المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة لكل منهم على الآخر ما للأخ على أخيه من حق ، فيجب أن يكونوا يداً واحدة فى سبيل الله يتحابون بنوره بينهم ، ويبذلون فى سبيله مُهَجهم وأرواحهم . يعلّمون الناس بذلك أنه لا إله إلا هو ، لا يغيب عنه مثقال ذرّة فى السماوات ولا فى الأرض ، وأنه جلّ شأنه برأ الناس ليتعاونوا على البر والتقوى حتى يبلغوا بالإنسانية كمالها ؛ فإن بغت طائفة منهم فقد وجب عليهم جميعًا أن يقاتلوا الباغى حتى يفيء إلى أمر الله .

هذه المعانى السامية هى تعاليم النبى العربى وتعاليم الإسلام ، وهى ما توحيه آثاره صلى الله عليه وسلم إلى من يقف عندها فى بلاد العرب . ولقد كان من

أثر هذه التعاليم أن صارت بلاد العرب محطّ أنظار العالم كله فى حياة الرسول وبعد اختياره الرفيق الأعلى . امتد الفتح الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر إلى بلاد الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، ثم تخطاهما إلى ما وراءهما من أنحاء العالم شرقاً وغرباً حتى بلغت الحضارة الإسلامية فيما دون المائة من السنين ما لم تبلغه حضارة غيرها فى قرون متعاقبة . كان الرجل فى أقصى الصين يذكر فتح العرب بلاد المغرب والأندلس ، وكان المسلم فى مصر وفى بلاد المغرب يتحدث مفاخراً بفتح جيوش الإسلام بلاد البوذية والكنفشيوسية . وحيثما امتد الفتح رفرف لواء الإسلام وشهد الناس أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأخذوا بتعاليم الدين الجديد وتفقّهوا فيه . وأبناء العرب فى هذه الوثبة الأولى يتيهون فخراً بما يتم على أيديهم كل يوم من معجزات لم يتأت لغيرهم فى مختلف العصور أن يأتوا بمثلها ويكادون يحسبون أن الله قد نصر دينه على الدين كله منذ هذا العهد الأول .

وأقبل أهل شبه الجزيرة على الفتح وجعلوا يزدادون منه ثراء ويزدادون بأنعم المال متاعاً . وخيل يومئذ إليهم أن العهد الذهبى الذى فتح الله لهم أبوابه لا نهاية له وأنهم ناهلون من ورده هم وأبناؤهم وحَفَدَتهم أبد الآبدين ودهر الداهرين حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ولم يَدُرْ بخلد أحدهم وهو يعبّ من هذا النعيم أن للزمن دورته ، وأن لكل يوم غده ، وأن الله مغير ما بقوم يوم يغيرون ما بأنفسهم .

ولقد غيَّروا ما بأنفسهم فغير الله ما بهم ، حتى صاروا إلى حال تبعث الحسرة إلى النفس . أنت اليوم تقطع عشرات الأميال ومئاتها فلا ترى لحضارة بل لحياة مظهراً . وفيما خلا المدن القليلة ، لا أعرف منها غير مدن الشاطئ وغير مكة والمدينة والطائف ، أنت لا تقف على الطريق المأهولة إلا عند نجع هنا ومُخَيَّم هناك . ما بالك بما سوى الطرق المأهولة مما تترامى به البادية الفسيحة ! إنك من ذلك فى مَهْمَه لا يعرف غير الأفق حدّاً . وكلما أغذذت السير أو انطلقت بك السيارة تطوى الأميال إثر الأميال تراجع الأفق أمام ناظرك ولم

يكشف جديداً . فإذا مرّ بك سانح من الطير أو ضارب فى البيداء وراء بعيره سَعِدتَ بهذه المصادفة من الحياة سعادة راكب البحر شام سفينة تمخر العباب على مرمى النظر . وليس فيما يصادفك من ذلك إلا ما يزيدك حسرة على ما هوت إليه هذه البلاد من درك الهمجية ، وهى التى وثب بها الإسلام تلك الوثبة فأضاء العالم بحضارة ظل ينعم بها قروناً عدة متوالية ، نقل المسلمون أثناءها آثار التفكير الإنسانى فى اليونان القديمة وفى الهند وفى فارس ، فمهد لهذه الحضارة الحالية التى ينعم العالم اليوم بها ؛ ثم يُتَّهم هذا الإسلام بأنه السبب فى تأخر بنيه والذين يدينون به .

وقفت غير مرة إزاء هذه الظاهرة أسائل نفسى وأسائل غيرى عن سببها . ولم يكن الاهتداء إلى السبب عسيراً ؛ فهؤلاء العرب الذين وثبوا الوثبة الأولى على عهد النبى وفى صدر الإسلام قد أقام الكثيرون منهم فى بلاد غير بلادهم . ولئن لم ينس الكثيرون منهم تعاليم دينهم لقد نسوا الغرض الأسمى الذى يدعو هذا الدين إليه ؛ تفتحت لهم كنوز الأرض وتدفقت عليهم خيراتها فشُغلوا بها وبتنظيم شؤونها ، وبذلوا فى ذلك من الجهود ما حسبوه يساوى تثبيت دعائم الإيمان الصادق فى نفوس الذين دانوا للإسلام . اكتفوا بأن يُعلّموا الناس فروض هذا الدين دون أن يفقهوهم فيه ، وجعلوا غاية الفقه تنظيم علاقات المال فى الحياة وفيما بعد الحياة . أما الإيمان الصادق الذى أضاء العالم ووثب بجزيرة العرب فقد اختص بالنظر فيه أهل الكلام وعلماؤه . من ثَمّ شغل المسلمون بالحياة الدنيا عن الآخرة ، وبالعَرَض عن الجوهر ، وبحكم الناس عن سياسة أمورهم فى دينهم ودنياهم . ولذلك كثرت الثورات وكثر الانتقاض وعم الاضطراب ، واتخذ الملوك من العلماء والفقهاء ألسنة دعايتهم للدفاع عن ملكهم ، كما اتخذهم الثائرون ألسنة دعايتهم لتسويغ ثورتهم . وإذ كان ما فى بلاد العرب من ثروة لا يغنى غناء ما فى الشام وفارس ومصر والأندلس ، فقد انتقل مقرّ الملك من المدينة إلى دمشق وإلى بغداد وإلى القاهرة وإلى قرطبة .

من يومئذ بقيت بلاد العرب يحكمها من تؤول إليه الخلافة وإمارة المؤمنين .

ولقد حرص هؤلاء الملوك فى العهد الأول على استرضاء العرب وإغراقهم فى الأعطيات وفى الجاه . كذلك فعل بنو أمية ، وكذلك فعل الأولون من بنى العباس . ولم يكن لهم محيص من أن يفعلوا وبلاد العرب كانت بعدُ ذات حضارة لم تقوض دعائمها ، وأبناء العرب كانوا بعدُ أولى الأمر فى المملكة الإسلامية . فلما اشترك الفرس والتتار فى بلاط بنى العباس ونازعا العرب الحكم ، بدأ المال ينقبض عن أهل شبه الجزيرة باعتباره حقًّا من حقوقهم ، وبدأ الملوك والأمراء يُنعمون عليهم بألوان من الإحسان مختارين مشكورين ، ولم يُعْنَ أهل بلاد العرب بالتفريق بين الحق والإحسان بعد أن نزح الأكثرون من أبنائها الأصليين عنها وحلّ الأجانب من رقعة المملكة الإسلامية محلهم فيها ، وزاد فى عدم عنايتهم بالتفريق أن بدأ الجهل يخيم عليهم كما بدأ يخيم على غيرهم من بلاد المسلمين . على أن بلاد العرب كانت أسرع من غيرها انحداراً إلى هاوية الجهل بعد أن فقدت بهجرة أبنائها العنصر الأساسى من مقوّمات الحياة القومية ، وبعد أن نزح العلماء والفقهاء والأدباء إلى العواصم التى بعدت عن بلاد العرب حتى صارت العلوم والفنون جميعًا غريبة عنها .

ولم تنهض البلاد الإسلامية المقدسة من بعد ذلك إلى يومنا الحاضر ؛ لأن الدولة الإسلامية هوت إلى حضيض الجمود والجهل . فأما اليوم فى بلاد العرب توثُّب إلى نهضة جديدة تكاد تضارع ما فى غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى .

وقفت عند هذه الظاهرات غير مرة أحاول تحليلها ، لكنى لم أقصد من هذا التحليل إلى تفصيلها . فالتفصيل يتناول تاريخ الأمة العربية الإسلامية ، أو الأمم الإسلامية إن شئت ، خلال ثلاثة عشر قرنًا متوالية ، وهذا جهد عظيم لا يتسنَّى لفرد أن يقوم به ، وميدانه ما يزال بكراً فى حاجة إلى تنظيم علمى دقيق . والغاية التى أبتغيها من وقوفى عند هذه الظاهرات لا تتناول من هذا الميدان إلا جانبًا عامًّا يتصل ببلاد العرب وأسباب تأخرها على القرون منذ العهد الإسلامى الأول إلى زمننا الحاضر . ثم إنى لم أرد فيما ابتغيته من ذلك

سرد تاريخ العرب وهجرتهم من بلادهم ، أو ذكر من حل محلهم فيها . إنما اكتفيت بالإشارة إلى ذلك لأبين أن التأخر مرجعه إلى أسباب سياسية واجتماعية لا أثر للعقيدة ولا للدين فيها ، وإلى أن العقيدة والدين تأثرا ، كما تأثر العرب والمسلمون ، بهذه الأسباب السياسية والاجتماعية ، وأن من اليسير لذلك أن يعود العرب والمسلمون سيرتهم الأولى . وحسبهم أن يغيروا ما بنفوسهم ليغير الله ما بهم .

ليس هذا الكتاب إذن مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ، ولا شىء فيه من تقويم بلاد العرب . إنما هى وقفات وقفتها فى بلاد الوحى ومنزله أستوحى فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله . وهناك فى هذه المواقف تجردت نفسى وسمت روحى وكررت بالعصور والقرون أطويها ورحت أتمثل هذا الهادى الكريم وأتمثل المسلمين من حوله ألتمس فى ذلك الأسوة والعبرة آملا أن أشرِكَ فيهما إخوانى المؤمنين بالله وبما جاء من عند الله . لم أتقيد فى هذه المواقف بما جاء فى كتاب غير كتاب الله الكريم ، ولم أخضع تفكيرى لحكم غيرى . وما كان لى أن أخضعه وقد كنت أحس فى كثير من هذه المواقف أننى بين القوم أسمع وأرى وأتمنى لو كنت أجاهد معهم فأفوز فوزاً عظيماً . وما كان لى أن أفعل ثم أخدع نفسى فأزعم أننى إذ أحدّث الناس إنما أقصّ عليهم ما رأيته وما أحسست به ، فى حين لا أقص إلا ما رآه غيرى وما سبقنى إلى تسطيره . لقد تركت نفسى على سجيتها ، تتوجه بوحى روحى وتستلهم الحق مما حولى ، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلى وتقدير ضميرى ؛ ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغى به إلا رضا الله وحسن ثوابه . فليقل هذا أو ذاك من كتاب المسلمين أو غير المسلمين عن أىّ من هذه المواقف ما شاء ، وليستند فى حكمه أو رأيه إلى أى سند يطيب له أن يستند إليه . إنما ذلك قول له عندى احترامه ما اطمأننت إلى حسن القصد فيه ؛ لكن لحكمى المكان الأول من الاحترام عندى . وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير

جدير بمفكر يحترم عقله ، فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن ينتحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه . ومن الجمود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيعه من الحق فيها .

وأقف هنا لأدفع زعماً حسب الذين زعموه أنه مَغْمَز غمزونى به بعد تأليف كتابى «حياة محمد» . حسب هؤلاء أننى انقلبت بكتابة السيرة رجعياً ، وكنت عندهم قبلها فى طليعة «المجددين» . وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد جعلت القرآن حجتى وما جاء فيه عن السيرة سندى ، ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمى ! . وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبى العربى جماعة المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين ! . وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعم أمامهم فى «حياة محمد» ، وأن أزعم اليوم هاهنا أننى طليق من القيود ، عدو للجمود ، نصير للبحث العلمى الحر ، وأننى أومن بحرية الرأى وأعتبرها الأساس ، لا أساس غيره ، لمن يريد معرفة الحقيقة . هم يرون ذلك خداعاً يأباه العلم والبحث الحر . وأنا بعدُ عندهم رجعى انقلبت إلى الجمهور أتابعه ابتغاء رضاه ، وكنت قبل ذلك أتقدمه أريد توجيهه وهدايته .

وأقف لأدفع هذا القول . وما أتلمس فى دفعه سبيلا غير مواجهته . لا أقول إن قوماً غمزونى بنقيضه وزعمونى خارجاً عن الإجماع والتمسوا الحجة لتأييد قولهم ؛ وليس يستقيم فى المنطق أن يغمزنى هؤلاء وأولئك . لا أقول ذلك وأنا ما كتبت أبتغى رضا قوم أو أتقى سخط آخرين ؛ إنما كتبت للحق أبتغيه وحده . لكنى أسائل أصدقائى أحرار الرأى عن غايتنا جميعاً حين نُنتج : ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال ؟ ! فالعالِم يبتغى مزيداً من العلم ومن الدقة فيه ، ورجل الفن يبتغى سمواً فى الفن وفى إلهامه ، وطالب الحقيقة يريدها أجلى سناً وأعم نوراً . ومن الناس من يحسب أنا نحاول من إنتاجنا أن نبلغ السعادة لأنفسنا وللعالم . ومنهم من يعتقد أن السعادة لفظ

مبهم يصور الوجدان مدلوله على هوى صاحبه ، وأنّا إنما نحاول من إنتاجنا أن نزيد فى معارف الإنسان القليلة الضئيلة حين تقاس إلى هذا العالم الذى لا يعرف الزمان ولا يعرف المكان له حدًّا ، لنطوّع للإنسان أن يزداد بالكون اتصالا . وأنا بين هؤلاء ، أرى رأيهم ، وأعتقد كما يعتقدون أن التماس المزيد من المعرفة والطموح من ذلك إلى أبعد غاية هو وحده المطمح الخليق بالجانب الإنسانى فينا .

وإنما مطمعنا حين نلتمس المزيد من المعرفة أن نسمو بهذا الجانب الإنسانى فى الأفراد والجماعات . ولقد طالما التمسنا فى شرقنا الأدنى أسباب النهوض بعلمنا ، لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة لا ينكس الخجل رءوسنا ولا يحزّ فى نفوسنا ذلك الشعور الممضّ بأنا دون الغرب مكانًا . ولقد خيل إلىّ زمنا ، كما لا يزال يخيّل إلى أصحابى ، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلُنا إلى هذا النهوض . وما أزال أشارك أصحابى فى أنّا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله .

فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسىّ على ما أقرّته « البابوية » المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقى الشرق بريئًا من الخضوع لهذا التفكير ، بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظامًا كنسيًّا أهول الحرب ، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً . بذلك بقى الشرق مطهّراً من الأسباب التى أدّت إلى اضطراب الغرب الروحى وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب ، وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق فى جوار المسلمين فى طمأنينة لا يصْلَوْن من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم فى الغرب . كان الخروج عن الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلانًا للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين يُبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه ، وينقضون ما يشاءون نقضه . أمّا والإسلام لا يعرف الكنيسة ، وأقرب الناس فيه إلى الله

أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية فى الشرق حرّة طليقة لم تقيّد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الإسلامى قيداً لحرية الفكر ما كان صاحبه برىء القصد يبتغى برأيه سبيل الحق . ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ! . لا مفر إذاً من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا .

هذا كلام واضح بيّن ، ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم علىّ . ولكن لا عجب ، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات كما لا يزال خفيًّا عن كثيرين منهم . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعًا هدى ونبراسًا . ولكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . ورؤّأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو . ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خِصْبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين .

والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد فى الإيمان بالله تنزع فى ظلال حرية الفكر إلى وحدة الإنسانية ، وحدة أساسُها الإخاء والمحبة . فالمؤمنون فى مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام . وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالَمنا

الحاضر من تقديس القوميات وتصوير الأمم وَحَدات متنافسة يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه . ولقد تأثرنا معشرَ أمم الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ فيها روح القوة نحسب أنا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلّنا ؛ وخيل إلينا فى سذاجتنا أنّا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية . ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها . وزادنا ما خيم علينا من سُجُف الجهل إمعاناً فى هذا النسيان . على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه ، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل ، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها . من ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقاً بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجودنا ، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية مع حرصه على نقل علومه وصناعاته . والحياة المعنوية هى قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب . لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذلّ ، ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه .

لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية . ومصدرُ الحضارة سنا الأرواح المضيئة ، وقِوامُها وثبة النفوس القوية . والأرواح تضىء ما اتصلت بروح أقوى سلطاناً وأبهر سناً ، كما يضىء سلك البلاتين إذ يصهره تيار الكهرباء . وكم فى ماضينا من أرواح ذات سناً باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خَلْقاً جديداً ، كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية الحديثة . ومحمد بن عبد الله هو النور الأول الذى استمدت هذه الأرواح منه ضياءها ، وهو الشمس التى أمدت كل هذه

الأقمار بسناها . لذلك جعلت سيرته موضع دراستى فى « حياة محمد » وجعلت مواقفه « فى منزل الوحى » مصدر إلهامى لما تنطوى عليه من تعاليم أوحاها الله إليه كلها السمو والقوة والجلال والعظمة . فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماساً لرضاه .

يقول الذين يغمزوننى : لك رأيك ! . فمالك لم تقف عندما آخذ به المستشرقون محمداً ومالك جعلت القرآن سندك الأول فى السيرة وسندك الأول فى هذا الكتاب ، دون أن تمحص ما فيه تمحيص العلم وتنقده نقده ؟ إنما فعلتَ لأنك خفت الجمهور فجاريته ، وخشيت الناس فتَملقتَهم ، ولم تخش العلم ولم ترع حقه . غفر الله لكم أيها الصحب ! وبم آخذ المستشرقون المنصفون النبى العربى ؟ وما الذى نقدوا القرآن به ؟ لست أريد العود إلى ما ذكرته عن ذلك فى « حياة محمد » وفى تقديم طبعته الثانية . وحسبى أن أقول : إن ثلاثة عشر قرناً انقضت وتنصف القرن الرابع عشر منذ وفاة النبى ولم تستر هذه المآخذ من ضيائه إلا ما يستر كَلَفَ الشمس من ضياء الشمس ، ولم يغير هذا النقد من سلطان الحق فى كلام الله إلا ما تغير الرياح من سُنَن الطبيعة . وها هم أولاء علماء العالم يعود اليوم أقدرهم وأكثرهم يعترفون بعجز العالم ، ويقولون ربنا لا علم لنا إلا ما علّمتنا . فإن يكن ذلك مبلغ العلماء من العلم فأخْلِقْ بالذين يتحدثون عن النقد العلمى إذ يذكرون القرآن أن يكونوا أكثر تواضعاً ، وأن يخشَوا الله أكثر من خشيتهم غرورهم وأن يذكروا أن ما فى النفس الإنسانية من قوى يتوسّمها العلم، ولمّا تزل خفيّة عليه يَعدل أضعاف ما كشف العلم حتى اليوم عنه ، وأن ملايين الشموس والكواكب المنثورة فى فضاء هذا العالم أضخم قوة وأخفى . وإنى إن تحدثت عن شىء من هذه القوى التى لم أبلغ من العلم بها بعض ما بلغ العلماء فليس ذلك متابعة للجمهور ولا خشية منه ، ولكنه الإقرار بالضعف والعجز ، وبأنا إذا وجب علينا أن نجاهد ما استطعنا لنبلغ من العلم ما يؤتيه الجهد ، فواجب كذلك علينا أن نقر بأنا لم نبلغ من العلم ما يطوع لنا كل هذا الغرور .

أوَ يجد أولئك الأصحاب — عفا الله عنهم — ما يفسرون به كيف استطاع « ماركونى » وكيف استطاع « أديسون » أن يكشفا فى عصرنا ما اكتشفا مما لم يستطعه غيرهما ، وأضرابُهما فى العلم والمعرفة كثيرون ؟ ما هذه القوة التى أرتهما ما لم يرهغيرهما ؟ ولماذا لم ينسج أضرابهماعلى منوالهما كما ينسج الصانع على غرار الصانع والزارع على غرار الزارع ؟ وهل يجدون ما يفسرون به لماذا ظل أرسطوطاليس وأفلاطون أئمة فى الفكر وقد تقدم العلم بالإنسانية نحو ثلثمائة وألفى سنة ؟ وما قولهم فى الظاهرات التى يسجلها العلم اليوم ولا يجد لها فيما اهتدى إليه من سنن الكون تأويلا ؟

لا يسعك إذ تقف أمام هذه الأسماء والظاهرات إلا أن تقف موقف تواضع وإكبار . ولكن أين هذا من موقفى أمام آثار الرسول الكريم فى منزل الوحى ! ما كان أعظمه فى تحنثه ! وما كان أعظمه فى دعوة قومه إلى الهدى ، وفى صبره على أذاهم ، وفى تأديبه المسلمين بأدب القوة على الحياة ! وما كان أعظمه فى هجرته وفى غزواته ، وفى عفوه وحلمه ، وفى تقواه وعدله ! . نعم ! ما كان أعظمه فى كل صفاته وفى كل أعماله ! . لكن هذه العظمة التى لا تدانيها عظمة تصبح أمراً إنسانياً إذا ذكر الوحى وذكر اتصاله بربه وما رأى من آياته الكبرى ؛ وهنا يبلغ السمو إلى حيث لا تدرك الإنسانية منه بعض المدى ، ولا يسع الإنسان إلا أن يكرر قوله تعالى :

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ما ضَلَّ صاحِبُكُم وَما غَوَى . وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَه شَديدُ القُوَى . ذُو مِرَّة فاسْتَوَى . وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِه ما أَوْحَى . ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأَى . أَفَتُمارُونَهُ عَلَى ما يَرَى . وَلَقَد رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَة المُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّة المَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى . ما زَاغَ البَصَر وَما طَغَى. لَقَدْ رأى مِنْ آياتِ رَبِّه الكُبْرَى ». وهنا

يحاول العقل أن يسمو فوق نفسه ليدرك هذا الأفق الأعلى . وهيهات أن يدركه والعلم ما يزال إلى اليوم محدود الأفق قاصراً دون تفسير الكثير مما يقع عليه الحس . أفرجعية أن يقف الإنسان فى منزل الوحى يحاول السمو إلى أن يفهم كيف كانت صورته ؟ أم رجعية أن يقف الإنسان عند آثار صاحب الوحى يلتمس فيها الأسوة والعبرة ؟ ! إن يكن ذلك ظن أصحابى فأحبب إلىّ بها رجعية أستسيغها .

وأدع الإشارة إلى محاولات قام بها السلف ولا يزال العلماء من أهل عصرنا يعالجون القيام بمثلها ابتغاء الاتصال بالعالم فى وحدته التى تشتمل الزمان والمكان ، وإلى محاولات غيرها يبتغى العلماء بها تفسير هذا الاتصال على الطريقة العلمية الحديثة . وأدع الإشارة كذلك إلى أن المذاهب الفلسفية ترمى كلها إلى تصوير الكون بدءاً وغاية ، وإلى أنها تستمد هذا التصوير من وحى الحياة ما كان منها وما يكون ، ما كشف عنه العلم وما يزال مطوياً فى سر الغيب . وهذه المذاهب تقتتل ويتهم بعضها بعضاً بقصور وسائله عن دَرَك الغاية ، أو بنزوع وسائله منزعاً لا يقف فى حدود العلم وطريقته ، بل ينحو نحو المنطق التجريدى « الميتافيزيقى » المتَّهم فى نظر الواقعيين بالرجعية . فلو أننى حاولت هذه الإشارة لطال بى الاستطراد إلى ما لا يتسع له هذا التقديم ، ثم لرأى القارئ أمثال « برجسون » صاحب نظرية الإلهام والتطور المنشئ يُغْمَزون برجعية كالتى أُغْمَزُ اليوم بها . وحسبى عزاء أن ما غمزوا به لم يحل بين الجمهور المثقف والعناية بمذاهبهم ، حرصا من هذا الجمهور على اجتلاء الحق الذى تنطوى هذه المذاهب عليه . بل إن هذا المغمز بالرجعية ليزيدنى غبطة بما لقيته بحوثى هذه من عناية القراء والباحثين بها عناية كانت الشهيدة على ما حبانى الله من توفيقه فى التحدث إلى الناس حديثاً يرونه جديراً بالاستماع له .

على أن هذه الرجعية التى زعموا قد أتاحت لى أن أقوم فى مواقفى هذه بالبحوث التى أشرت إليها عن شؤون من بلاد العرب اختلفت الآراء عليها

فى عصور الإسلام المختلفة . وإذا لم أكن قد تعمقت فى هذه البحوث ، لأننى لم أقض بالحجاز إلا ستة أسابيع ، ولم أنفق للبحث بعد ذلك من وقتى إلا ما قضت به الحاجة لتأليف هذا الكتاب ، فلشدّ ما يسرنى لو يمهد مجهودى لبحوث جامعية أدنى إلى الدقة فى تصوير الحقيقة ، بعد إذ بلغت أنا منها حظًّا أغتبط له فى مسائل شتى خالفت رأى الجمهور فى بعضها . وإنى لأترك الحكم على هذه النتائج لمن اختصوا ببحث هذه الشؤون، كما أترك لهم تقدير ما خالفت الجمهور فيه بعد أن رجعت إلى مصادر البحث العربية والأجنبية التى أتيح لى الرجوع إليها، وبعد أن استعنت فى ذلك بمن أمدونى بمعلوماتهم ومن عاونونى فى تقصّى المراجع المختلفة .

وليس يسعنى وقد ذكرت من عاونونى ، دون التنويه فى هذا التقديم بما كان لمعونتهم من فضل جدير بأطيب الثناء . وشبان الحجاز هم أول الأعوان الجديرين بشكرى، والحاج عبد الله فلبى ، أو سانت جون فلبى ، حقيق بمثل هذا الشكر .

ولقد كان لرجال القسم الأدبى بدار الكتب المصرية من فضل معاونتى فى كثير من مراجعاتى ما يستحقون من أجله أطيب الثناء ، أما دقة الفن فى طبع الكتاب فترجع إلى أولى الأمر فى مطبعة دار الكتب ، والقارئُ يشاركنى فى شكرهم عليها .

وسأظل أذكر ما حييت ما بذله الشيخ عبد الحميد حديدى أحد رجال مكة ذوى الفضل والعلم من معاونة صادقة كان لها أبلغ الأثر فى اتجاهى . كان مُضيفى بمكة الشيخ عباس قطان أمين العاصمة قد أحدث التعارف بينى وبينه ورجاه أن يصحبنى ، فصحبنى الرجل فى تجوالى بمكة وبادية الطائف وذهب معى إلى المدينة ولزمنى حتى ودعنى مسافراً من ينبع . وقد كان فى صحبته رفيقًا ذكيًّا ودليلا محيطًا بتفاصيل المواقع فى مكة ، عارفًا بما فى الطائف والمدينة . وقد أعانه السيد صالح القزاز والشريف حمزة الغالبى فى رحلة الطائف ، وأعانه

الأستاذ عبد القدوس الأنصارى أعظم العون فى رحلة المدينة . ولقد حرصت على الإشارة أثناء فصول الكتاب إلى ما قام به هؤلاء الإخوان الأجلاء من جهد فى معاونتى جدير بكل تقدير وحمد .

أما ما كان لجلالة الملك ابن السعود ولوزير ماليته الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان ورجال الحكومة العربية من فضل فى معاونتى فذلك ما لا يفى الثناء بتقديره .

وإنى لأستغفر من نسيت ذكرهم من أولى الفضل ومن كانت لهم يد فى معونتى ، والله يجزيهم عنى أحسن الجزاء .

ويزيد فى تقديرى لهذه المعاونة وفى ثنائى على الذين أسدوها إلىّ بما هم أهله أنها طوعت لى أن أقف أنا نفسى عندما وقفت عليه من قبل فى بطون الكتب وأن أصف هاهنا ما كان لهذه المواقف من أثر مباشر فى أطواء روحى . وإنى لأعتبر هذه الحرية فى الشعور فضلاً من الله عظيماً . فنحن فى حاجة إلى أن نرى الأشياء فى كل عصر بعين أهله ، وأن نحكم عليها بما بلغنا فيه من تقدم أو تطور فى العلم والحضارة . فأما أن نتقيد بما شهده السلف فذلك الجمود الذى لم يرضَه الإسلام مذ بعث الله به نبيه ، وذلك ما يجب أن نتنزه عنه . ولهذا قدمت أننى لم أتقيد أمام شىء مما رأيت بكتاب غير كتاب الله ، ولم أجعل لى فى التقدير إماماً إلا ما رضيه العقل وطابت به النفس ، ولم أخش إلا الله وإلا ضميرى فيما أفاضه الحس على القرطاس . فليغمزنى من شاء بالرجعية ، وليتهمنى من شاء بمخالفة الإجماع ، وليقدر هذا المجهود من شاء بما يشاء ؛ فإنما أبتغى به الجزاء من الله يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا يعرف حميم حميماً . والله وحده عليم بذات الصدور .

وأختم هذا التقديم راجياً أن يثمر هذا العمل من تقدير قومى ما يدعو جامعات الشرق العربى وما يدعو الكتّاب إلى مزيد من العناية بهذه البلاد الإسلامية المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة ، وما يدعو

المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد ، وليتخذوا من مكة أم القرى مقرًّا لعصبة أمم إسلامية . ألا لو فعل هؤلاء وأولئك ليكونن عملهم أعظم فوز لهذا الكتاب ، وليكونن فتح الله يومئذ للمؤمنين مبينا .

محمد حسين هيكل

الكتاب الأول
فرض الحج

عزم السفر

« وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » .

فى هذه الكلمات الحكيمة تمثّل شعور الكثيرين من أصدقائى منذ أعلنت عزمى على الرحلة إلى الحجاز حاجًّا حتى ودّعونى مسافراً . وفيها كان يتمثل شعورى لو أن أحداً حدثنى عن هذه الرحلة قبل خمس سنوات من قيامى بها . فلما كانت سنة ١٩٣١ وبدأت أكتب « حياة محمد » شعرت بعد التقدم فيها بالرغبة المُلِحّة فى الذهاب إلى الحجاز . ولما سيرت شركة مصر للملاحة البحرية باخرتها الأولى « زمزم » إلى الأماكن الإسلامية المقدسة فى سنة ١٩٣٤ ، علمت أن فى نيتها تسيير هذه الباخرة فى أكتوبر من تلك السنة كيما تطوّع لمن شاء قضاء العُمرة فى شهر رجب . إذ ذاك لم أتردد وصمّمت على انتهاز الفرصة لتنفيذ ما اعتزمته . لكن قلة الإقبال على هذه الزيارة الرجبية لم تسمح بتسيير الباخرة فلم تتم الرحلة . وأسفت لفوات الفرصة وبقيت على عزمى أن أزور الحجاز وبلاد العرب وأن أقوم فيهما بكل ما أستطيع من الدراسات .

ولئن أسِفت على فوات هذه الرحلة لقد أسفت كذلك لإضاعة فرصة عرضت من قبلُ ، ولم يدُر بخاطرى يوم أضعتها أنى سوف آسف عليها . تلك فرصة السفر إلى الحجاز مستهل الشتاء من عام ١٩٣٠ ، حين دعت الحكومة السعودية الصحافة المصرية إلى الحجاز لحضور حفلة التتويج للملك ابن السعود . فقد دُعيت إلى هذه الحفلة ، وكنت أود إجابة الدعوة لولا إقبال مصر يومئذ على المفاوضة لعقد الاتفاق بينها وبين إنكلترا . ولمّا تكن كتابة سيرة النبى العربى قد تمكنت من نفسى لتربط بينى وبين بلاد العرب بصلة تجعلنى حريصًا على أن أتعجل زيارتها ؛ لذلك لم يكن ما يحفزنى إلى المفاضلة بين المُقام بمصر ومغادرتها فى وقت كانت أحوال مصر تدعونى للقيام

بواجبي القومي كاملا . من ثم رجوت صديقي وزميلي الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني فسافر إلى الحجاز ممثلا جريدة السياسة بالنيابة عني . ولو كُشِف لي يومئذ من الغيب ما يسرتني الأقدار له لما عدّل بي عن السفر إلى موطن النبي العربي أيّ اعتبار . ولكن ! « ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً » .

أقمت على عزمي أن أزور الحجاز وبلاد العرب ، وآثرت أن يكون ذلك أشهرَ الحج ، لأؤدي فرضه وأدرك إدراكاً ذاتيًّا كل حكمته . ووطد عزمي ما عرفت في فرائض الإسلام الأربع الأولى من حكمة بالغة يدرك سمو جلالها وجليل نفعها كل من يؤديها بنفسه أو يعيش بين أهله وإخوانه الذين يؤدونها . ألا يجمل بي أن أقف بنفسي بين الحجيج بمكة ومنى وعرفات ، ومع الذين يزورون قبر النبي بالمدينة ، لأؤدي فريضة الحج فأستبين حكمته ، ولأقف على ما يدركه المسلمون اليوم من هذه الحكمة ، ولأرى كيف يؤدون هذا الفرض !

أمَا فُرض الحج ليشهد الناس منافعَ لهم ، وليذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، ولتتيسر لهم بالاجتماع لأداء الفريضة فرصة التعارف والتفاهم ؟ فليكن الوقوف على مبلغ تقديرهم لهذه الحكمة بعضَ ما أشهده في الحج من منافع .

وبدأ التفكير في السفر للحج يساور نفسي ويشغل حيزاً من ذهني . ولم أطالع بهذا التفكير بادئ الرأي أحداً ، إذ كانت شوائب التردد ما تزال تشوبه . فقد انتشرت أمام ذهني في الأيام الأولى منه صورة غير مشجعة لما قد يقوم في سبيل هذا السفر من عقبات ، فما عسى أن تكون الحياة في بلاد العرب لرجل تقتضيه عادات الحياة ما لا يتيسر هناك !.. وما عساي أفعل إذا مرضت ! ولي ابن عم مات على عرفات ودفن بمكة من عامين لعله لو أسعف بالعلاج والطب لما تيتم أبناؤه . وإذا استطاع الإنسان التغلب على مخاوف المرض وحاجات الحياة في غير أشهر الحج فكيف يغالبها حين يختلط حابل المسلمين بنابلهم بمكة ، وحين تكون الأماكن المقدسة معرضة للأمراض

الوافدة إليها من الهند ومن جاوة ومن مختلف أقطار الأرض . هذا إلى ما تقضى به نُظم مصر الصحية من احتياط بالوقاية الطبية قبل السفر ، وحَجْر صحى فى العودة .

والإحرام: التجرد من الملابس كلها ، والاكتفاء بمئزرين غير مَخيطين يلتف الإنسان بهما ويبقى عاريَ الرأس ليلَه ونهاره أياماً عدّة ! ! كيف يحتمل الإنسان ذلك كله فى الحجاز ، وهو — فيما يصفه الواصفون — بلادٌ بادية لا تعرف من صور الحضارة ما تطمئن إليه نفس أحد ممن أصبح جِوارُ الطبيب والصيدلية بعضَ ضرورات حياته ! .

ولئن نسيت هذه الاعتبارات وجعلتُ لى فيمن سبقنى إلى الحج أسوة ، أأنسى هذا الاضطراب الدولىّ القائم بسبب الحرب الناشبة بين إيطاليا والحبشة ! . لقد ألّبت إنكلترا الدول المشتركة فى عصبة الأمم على عاهل « رُومِيَة » وحشدت فى البحر الأبيض المتوسط وعلى حدود مصر من القوات ما يُنذر بالحرب بين عشيّة وضحاها ؛ حرب يكون البحر الأحمر وطريق الحجاز فيه بعض ميادينها . فإذا أنا سافرت ثم وقعت الحرب فكيف لى أن أعود إلى وطنى وأهلى وأبنائى ! .

مرّ ذلك كله فى خاطرى فزاد فى ترددى . ولقد حاولت الاطمئنان إلى رأى فيه بسؤال أصحابى الذين زاروا الحجاز عن نوع العيش هناك ، وبسؤال المشتغلين مثلى بالسياسة عما يتوقّعونه من أثر الخلاف بين إيطاليا وإنكلترا . على أننى لم أتجاوز السؤال إلى ما قد يفهم منه عزمى على السفر . فلو أنهم فهموا منى ذلك العزم لأقدمت وسافرت غير عابىء بالنتائج . ذلك مزاجى ؛ ولعله مزاج من يغلب عليهم الحياء فى اتصالهم بالناس . يجازفون مخافة أن يقال خافوا ! ولم أتلقّ من أصحابى بادئ الرأى جواباً أطمئن إليه . فبينا كان قوم يهوّنون علىّ أمر العيش بالحجاز كان آخرون يصفون لى من عُسره وشدته ما يَطير معه اللب شعاعاً . ولقد أوجب بعض الأطباء أن يأخذ المسافر معه من صناديق المياه المعدنية ما يكفيه اتقاء تلوث مياه الحجاز ، ورأى آخرون

أن يحمل المسافر معه كل ما قد يحتاج إليه من طعام وشراب .

لم يكن الأمر على هذا التصوير سفراً إلى بلاد قريبة يذهب الإنسان إليها ويقضى مناسكه بها ويعود منها فى أسبوعين أو نحوهما . فالعُدة للطواف حول الأرض أو السفر إلى القُطْب لا تزيد على ما يذكرون . أيّةُ عزيمة لا تتضعضع إزاء هذه المخاوف ولا تردّ صاحبها عن عزمه ؟ !

صحيح أن أكثر الذين زاروا الحجاز وحجوا البيت وزاروا المدينة هوّنوا علىّ الأمر وجعلوه فى صورة من اليسر لا يبقى معها موضع للتردد . بل أضاف بعضهم أن هذه الرحلة جميلة محّببة تثير فى نفس المثقف من الإحساس والصور الشعرية والفنية السامية ما لا تثيره الرحلات إلى المصايف أو بلاد الآثار فى مصر والغرب. لكن كلام هؤلاء المشجعين لم يمحُ من نفسى أثر كلام المحذرين ؛ فقد تصورتهم متأثرين بعاطفتهم الدينية أكثر منهم بالواقع ، وأنهم يخشون إن ذكروا المشقة ، أو ذكروا نقص أسباب الراحة والصحة بالحجاز ، أن ينقص أجرهم عن حجهم وعُمرتهم . ولولا أن منهم علماء ومثقفين لما بلغت أخبارهم من نفسى أن تغالب أخبار المحذرين وأن تجعلنى أديم التفكير فى أمر السفر .

وكان الخوف من الحرب وخطر الطريق أبلغ فى نفسى أثراً . ولم يقنعنى مَن سألتهم رأيهم فى الأمر بما يزيل هذا الأثر من نفسى . فبينما كان بعضهم ينفى احتمال الحرب بين إنكلترا وإيطاليا قبل أن تتضعضع قوات إيطاليا فى الحبشة ، كان آخرون يؤكدون اقتراب الحرب ويكادون يضربون لوقوعها موعداً . وكان من بين الذين استشرت مَن اعتزم الحج منذ العام الماضى . فلما استنجزتهم عزمهم اعتذروا بما طرأ من أحوال قد تجرّ إلى حرب تشترك مصر فيها ، وتكون الأراضى المصرية أو المياه المصرية ميدانها ، ويتعرض أبناء مصر وتتعرض ثروتها من جرائها لما تجرّه الحرب وراءها من الدمار والهلاك . ولهذا الاحتمال ثارت مصر تطلب إلى إنكلترا أن تعقد معها معاهدة مودّة وتحالف كانا قد انتهيا من قبلُ إلى نصوصها . وأجابت انكلترا بعد لأى أنها على استعداد للمحادثة من جديد على ضوء ما سمته الأحوال المتغيرة للشؤون

الحربية الحديثة . وقبلت مصر عرض إنكلترا وجعلت تعدّ العُدة للمحادثات فالمفاوضات . وبهذه المفاوضات اعتذر بعض الذين نذروا السفر إلى الحجاز من قبل ، وحاولوا أن يُلقوا فى رُوعى أن السفر فى مثل هذه الأحوال يعتبر تنحياً عن أداء ما للوطن من حق على أبنائه . وربما كان موقف مصر من هذه المفاوضات أدعى إلى إرجائى السفر من موقفها سنة ١٩٣٠ ، حين اعتذرت عن تلبية الدعوة إلى حفلات التتويج لابن السعود .

فكرت فى هذه الأمور ملياً ، على أن استشارتى أصحابى جعلت غير واحد منهم يسألنى : أمسافرٌ أنت حقاً لتؤدى فريضة الحج ؟ ! . وكان جوابى منذ ألقى هذا السؤال علىّ لأول مرة : إن شاء الله . ومع أن مشيئة الله يتعلق بها إرجاء السفر كما يتعلق بها السفر ، فقد كنت أحس كلما قلت هذه الكلمة كأن دافعاً أقوى من تفكيرى يدفعنى إلى عدم الإرجاء ، وإن أمسكنى ما قدمت من الاعتراضات فى دائرة ترددى . وتركت الأمر معلقاً بمشيئة الله وإن لم يمنعنى ذلك عن ذكره وتفصيل الحديث فيه كأنه أمر لا محالة واقع .

ومن عجب أنى رأيت بعض أصدقائى يزداد حرصاً على صدىّ عن السفر كلما رآنى أشد إقبالا عليه . وكان بعضهم يلتمس من أسباب الإرجاء ما يراه مقنعاً . قال أحدهم : إن تيسير المواصلات لأداء فريضة الحج يطرد سراعاً ، فخير لمثلك أن يرجئ أداءها حتى تكون غير مرهقة إياه . أما إن كان مقصدك فى السفر استيفاء البحث فى سيرة محمد وعصره فالخير أن تذهب فى غير أشهر الحج . فالبحث التاريخى والعلمى بحاجة إلى الهدوء والطمأنينة ليؤتى ثمره . ومكة فى غير أشهر الحج هادئة ، يعاون سكونها على البحث من غير عناء بحثاً أعوَدَ بالفائدة وأدنى إلى الدقة العلمية . فلا تغامر الآن حتى تطمئن إلى سلامة البحر الأحمر ، وحتى تنتهى مصر من مفاوضتها إلى موقف حاسم فى أمر الاتفاق مع إنكلترا .

على أننى لم أعدم تشجيع قوم استهانوا بمشقة السفر وبخطر الحرب وأكبروا عزمى واستحثونى على تنفيذه . قال أحدهم : إنك سترى فى الأماكن الإسلامية

المقدسة تاريخاً يمكن التثبت منه والقطع بصحة وقائعه ؛ وذلك على خلاف تاريخ المسيحية فى فلسطين ، حيث تحجب الأساطير كل ما يمكن أن نسميه تاريخاً بالمعنى العلمى . وقال آخر : إذا كانت المفاوضات المصرية الإنكليزية هى التى تدعوك إلى البقاء فأنا الكفيل بأن تسافر وتؤدى فريضة الحج وتحقق ما تشاء تحقيقه ولمـّا تقطع المفاوضات مرحلتها الأولى . وقال ثالث : هَبِ الحرب شبت وتعرضت الملاحة فى البحر الأحمر للخطر ، فى مقدورك أن تعود بالسيارة من طريق سيناء . ولن تَضمن مصلحة الحدود المصرية عليك بالمعونة كى تعود . ولو أن ذلك حدث لكان لك فيه من الحظ أن ترى من الأماكن المقدسة المتصلة بسيرة النبى العربى ما لا تتيسر لك رؤيته إذا عدت بالبحر والبحر آمن .

وأفضيت إلى زوجى بذات نفسى ، فكانت أكبر مشجع لى على السفر . قالت : إنك تفكر فى الحج وفى السفر إلى الحجاز منذ عام أو أكثر من عام . فسافر على بركة الله وتوكل عليه ما دمت قد عزمت ، وسترى فى الحجاز لوناً جديداً من الحياة يريح مرآه الأعصابَ وتطمئن له النفس. وقد شغلتَ نفسك حتى انتهاء مُقامنا فى الصيف بالشام بالدرس والبحث ، فروح عن نفسك بهذا السفر منهما .

كان حديث زوجى وتشجيع أصدقائى حريـّين بالقضاء على كل أثر للتردد فى نفسى . لكنى ظللت أفكر فى العقبات وتذليلها ، جاهداً لتغليب جانب العزم على جانب الإرجاء . وإنى ذات ليلة لَمُشتَغِل بالأمر أقلبه على وجوهه وأستخير الله فيه ، إذ سمعت حديثاً كأنه الإلهام قضى على ترددى قضاء مبرماً ؛ فقد عدت إلى دارى بعد انقضاء عملى الصحفى منتصف الليل وجلست إلى جانب أداة « الراديو » وجعلت أدير شارته على محطات مختلفة حتى كانت عند « بودابست » عاصمة المجر . و « بودابست » تعزف فى مثل هذه الساعة من الليل ألحاناً موسيقية تطرب لها النفس . فما كان أشد عجبى حين سمعت الإذاعة فيها غير موسيقية ، وحين سمعتها محاضرة باللغة الإنكليزية . وكانت أول

عبارة تنفست عنها الإذاعة قول المحاضر : « وسط هذه الجموع الحاشدة حول الكعبة جعلت أسمع : الله أكبر . الله أكبر : فلما انتهيت من الطواف ذهبت أسعى بين ربوتَى الصفا والمروة . . » وانطلق المحاضر يتكلم عن الحج وشعائره ومناسكه وما كان له فى نفسه من أثر عميق . ولم يخامرنى ريب من أول وهلة فى أن المحاضر هو صاحبِى الأستاذ المجرى « جون جرمانوس » الذى أسلم وتسمى باسم عبد الكريم ؛ والذى جاء إلى مصر منذ عام فزارنى غير مرة ، ثم ذهب من مصر إلى الحجاز فقضى بها أشهرُ الحج وعاد فلقينى وقص علىّ شيئا مما مر به أثناء رحلته . فلما أتم إذاعته من « بودابست » أقفلت أداة « الراديو » وقد علانى الوجوم ، وقلت فى نفسى : أوَ يكون هذا الأستاذ الأوربى الحديث العهد بالإسلام أصدق عزماً منى فى زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة ؟! وهل تراه يطيق من مشقة الحج ما لا أطيق ؟! وشعرت بما فى ترددى من تجديف يجب أن يتنزه عنه إيمانى بالله وثقتى بنفسى . إذ ذاك نضوت عنى كل ما علق من قبل بإرادتى ، ولم أرْتب لحظة فى أن الله قد عزم لى بهذا الحديث من « بودابست » بعد أن استخرته مخلصاً واستعنته صادقاً .

فلما اطمأن عزمى وقرّت إرادتى عدت ألوم نفسى على ما كان من مخاوفها . وكيف أخاف اليوم وعهدى بنفسى أعظم ثقة بالله من أن أحْجم دون ما أعتقده الحق أو الخير ، أو أرجع عن أمر تعلقت به نيتى . وما البحر الأحمر واحتمال مخاوف الحرب فيه إذا قيس إلى سنة ١٩١٤ ! لقد كنت إذ ذاك محامياً بالمنصورة ، وكنت قد عقدت العزم مع صديق لى أن نقضىَ بعض الصيف بلبنان . وحددنا اليوم الثانى من شهر أغسطس موعداً لسفرنا على إحدى البواخر التى تبرح بور سعيد إلى بيروت . وبينما كنا نستقل القطار صبيحة ذلك اليوم من المنصورة إلى مرفأ سفرنا طالعتنا الصحف بأن الحرب شبت بين النمسا والصرب وروسيا وفرنسا بعد أن عجزت السياسة عن تسوية حادث «سيراچيڤو » بما يصون السلم ويحقن الدماء ، وقدرت وصاحبى امتداد الحرب إلى عرض البحر الأبيض ، ودار بخاطرنا أن نقضى أسابيع رياضتنا فى بور سعيد . لكنى مالبثت حين داعبنا هذا الخاطر

أن دفعته بأن فى مقدورنا أن نركب الصحراء فى عودتنا من لبنان إذا خيف البحر وتعذر ركوبه . وركوب الصحراء يومئذ كان معناه امتطاء ظهور الإبل ، فلم تكن سكة الحديد قد مدت لفلسطين ، ولم يكن السفر بالسيارات مألوفاً ، وسافرنا إلى لبنان ؛ فإذا تركيا تحشد جنودها ، وإذا الأنباء تَتْرى بعد أيام بأن البواخر الذاهبة إلى مصر اضطربت مواعيد سفرها . مع ذلك لم تتغير ابتسامتى للحياة وبقيت وصاحبى حتى أقلتنا باخرة جمع عليها المصطافون من مصر جميعاً فحشروا فوقها زُمَراً .

ها هى ذى أكثر من عشرين سنة انقضت منذ هذا الحادث وما أزال سعيداً بذكره راضياً عن إقدامى ؛ فكيف أخشى اليوم احتمال حرب فى البحر الأحمر لا يزيد على أنه احتمال قريب أو بعيد ، ولم أكن أخشى يومذاك أن تمتد إلى البحر الأبيض حرب شبّ بالفعل أوارها . أو بلغ من تقدم السن بى أن أضعف عزمى! أم أن الأولاد مَجْبَنَةٌ لى اليوم ولم تكن لى مجبنة يومئذ ! أم أن إغراء الشباب بالمغامرة الرخيصة ليس فى شىء من حكمة الكهولة وأناتها فى تدبرها الأمور وتقديرها ! . ليرجع ترددى من خوف الحرب فى البحر الأحمر إلى أى من هذه الأسباب أو إليها جميعاً ؛ فأنا ملوم فيه . فما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله . وكل نفس ذائقة الموت كتاباً مؤجلا . ولقد رأيت الموت بعينىّ غير مرة ، وهأنذا مع ذلك أضرب فى الحياة وما أزال أجاهدها ؛ سقطت من أعلى دارنا بالريف فى سنة ١٩٠١ ، فلو لا قَدَرٌ عفا عنى لكنت اليوم فى جوار الله . ومرضت فى سنة ١٩٢٤ مرضا خيف منه على حياتى . وصدمتنى سيارة فى سنة ١٩٢٨ صدمة قضى مثلها على حياة كثيرين غيرى . وانقلبت بى السيارة فى سنة ١٩٣٢ فلم يؤذنى انقلابها . وتصادمت ومعى أولادى فى سنة ١٩٣٥ تصادماً أزعجنا ولم ينلنا بأذى . ودون هذا وما إليه ما يودى بالحياة إذا حُمّ الأجل . وكم مات أقوياء أصحاء فجأة بلا مرض ولا حادث . فليكن بعض إيماننا بالله أن نقبل على أداء واجبنا فى الحياة مطمئنين غير هيّابين ولا وَجلين ؛ فإن بلغنا من أدائه ما نرجو فذلك فضل الله وحسن

تيسيره ، وذلك هو الفوز العظيم ؛ وإن اخترمتنا المنون أثناء قيامنا به مخلصين ، فذلك مجدنا فى الحياة ورجاؤنا فى الله . وأى مجد فى الحياة كأداء ما نؤمن بأنه الواجب ! وأى رجاء فى الله أكبر من الاستشهاد فى سبيل الواجب !

وخجلت وأنا أحاسب نفسى حين ذكرت ما تخيلت من مشقة الحياة بالحجاز . فما المشقة ! ثم ما قيمة عيش لا مشقة فيه ! . وأين المتاع بالحياة وجمالها إذا نحن قضيناها على نَسَق مطَّرد يشابه فيها كل يوم ما قبله ، لا يهزّنا فيها جديد ولا تفجؤنا فيها فجاءة سارة أو ممضة ! . وكيف نروض أنفسنا على ما قد يمر بنا فى الحياة من شدة ، وكيف نعرف الصبر فى البأساء وفى الضراء وحين البأس ، إذا أفزعنا شبح المشقة وانخلعت قلوبنا هلعاً لتصورها! أوَ لسنا نقبل عن طواعية واختيار على فنون من الرياضة فيها من الجهد والمشقة ما لا يقاس إليه كل ما فى بلاد العرب مما نتصوره من جهد ومشقة ! ؟ أوَ لا يتسلق جماعة منا جبال الألب بسويسرا معرّضين أنفسهم لقسوة الزمهرير فى قُنَنها ولأخطار السقوط أثناء تسلقهم إياها ! بل إننا لنحمل أنفسنا أحياناً على ألوان من الرياضة أشد إجهاداً للقوى وأشد تعريضاً للخطر من تسلق الألب ، ومتاعنا بهذه الألوان من الرياضة خير ما يلذّنا من أيام حياتنا ، حتى لنجد فى ذكره من العذوبة ما يجعل العود إليه حلواً سائغاً . وإنى لأذكر من مخاطرات الصبا ومن جولاته بأوربا وغير أوربا أياماً قضيتها فى مثل نسك الزاهد وخشونة صومعته ، فأجد لهذه الذكرى لذة ونشوة لا يشبهها فى شىء ذكر أيام الدعة والنعيم ، وأستعيد بها صورة مشاهد فى الطبيعة مما خلق الله أو نظم الإنسان قل لمن لم يعرف الخشونة أن يشهد مثلها . فمالى لا أغتبط لما عسى أن يكون بالحجاز من مشقة أثاب عنها بما أستمتع به بعدها من جمال ذكرياتها العذاب ؟ ! وهل الحياة بنعيمها وبؤسها إلا ذكرى ! . ومالى لا أسارع إلى طلب هذه المشقة أستعيد بها ما عرفت فى ماضى حياتى من شئون العيش ، وقد كان التقشف خير أستاذ يدرك مريدوه مغزى هذه الكلمة القوية العميقة : «إخشوشِنوا فإن النِّعم لا تدوم» .

نضوت إذن ترددى ، ولم أرتّب لحظة فى أن الله عزم لى بحديث « بودابست » . وعمدت منذ الغداة أستشير السابقين إلى الحج من أهلى وأصحابى فى أهبة سفرى . وهوّن بعضهم الأمر ، وهوله آخرون . هونه الشيوخ والذين ينعمون بالضراء ابتغاء مغفرة الله لمن حج بيته . وهوّله من ليسوا أقل إيمانًا وإن كانوا أشد على طمأنينتهم وصحتهم حرصًا . كان من رأى هؤلاء أن المياه فى موسم الحج مخوفة ، وأخوفها ماء منى ، وأن الاحتياط لقسوة البرد أثناء الإحرام يقضى بلباس خاص مع مئزريّه . وسألت بعض الأطباء رأيهم فى ماء الحجاز ووسيلة اتقاء تلوثه . وهوّن بعض الأطباء الأمر وهوّله آخرون . وكان ما يلائم جو الحجاز وتقاليد العيش فيه من أمر الملبس موضع خلاف كذلك . وقدم لى صديق من الأطباء جَعْبة من الدواء لإسعاف المسافر ، وأكملتها بما يتفق وحالى الخاصة . وانتهى بى التفكير فى الاحتياط الطبى إلى الاكتفاء بهذه الجعبة تاركًا ما سواها مما نصح به الأطباء إلى موجبات الحاجة أثناء السفر . ولعله السأم لاضطراب رأى الأطباء هو الذى حملنى على هذا الاكتفاء . أما اللباس فأخذت من ألوانه كل ما نصح الناصحون به ؛ وقد شغل ما يقتضيه الإحرام وحده من عياب المتاع حيزاً عظيمًا .

لست أذكر أنى ساورتنى مثل هذه الحيرة فى أهبة السفر إلا صدْر الشباب حين كنت مسافراً فى سنة ١٩٠٩ لإتمام دراسة الحقوق بأوربا ؛ فقد صحبت منها يومذاك ما عرفت من بعد أنى فى غير حاجة إليه . فأما فى هذه الفترة التى انقضت بين سفرى الأول إلى أوربا وسفرى الأول إلى الحجاز ، والتى تزيد على ربع قرن من الدهر ، فقد كنت أتخفف من الأهبة أثناء أسفارى ما استطعت . وما أسفت يومًا على هذا التخفف . سافرت مرات إلى أوربا ؛ وسافرت إلى لبنان والشام ، وسافرت إلى السودان ، ولم أكن فى أسفارى هذه جميعًا أحمل من الثّقل إلا ما أشعر بمسيس الحاجة إليه ، ثقة منى بأنى واجد ما ينقصنى حيث أنزل ، وكيف لا أجده وأهله يعيشون ويجدون حاجاتهم فيه! ، وكان حتما علىّ أن صنع هذا الصنيع فى السفر إلى الحجاز ،

وأن أذكر أنى واجد فى كل بلد ما تقضى به حاجات العيش فيه . لكنى نسيت هذا الأمر ، وما أنسانيه إلا كثرة ما سمعت ممن استشرتهم ، ولعلى إنما طاوعتنى نفسى إلى سماع الكثير مما قالوا لقلة من يسافرون لأداء فريضة الحج من الطبقات المستنيرة من المسلمين ، ولكثرة ما يقال عن الحجاز والحالة الصحية فيه . وأغلب ظنى أننى لو قمت بهذه الرحلة فى غير موسم الحج لجريت على عادتى ، ولتخففت من أهبة سفرى ما استطعت .

ونزلت على حكم الإجراءات الرسمية التى تجب على من يفرض الحج ، فقدمت بذلك طلباً إلى الحكومة ودفعت نفقات السفر ، وأسلمتُ نفسى للتطعيم ضد الجدرى والحقن ضد الكوليرا والتيفويد ، وحددت موعد سفرى على الباخرة « كوثر » التى تبرح السويس يوم الثلاثاء ٢٥ من فبراير سنة ١٩٣٦ . من يومئذ اتجه تفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه ، وجعلت أصور لنفسى ما أنا ملاقيه فى ترحالى وما سأشهده بالبلد الحرام والبلاد المقدسة . أما أصحابى الذين حاولوا من قبلُ أن يصرفونى عن سفرى فقد جعلوا يسألوننى عن شعورى إزاء هذه الرحلة وإزاء فريضة الحج ، مشفوعاً سؤالهم بأصدق الرجاء أن أتم الفريضة والرحلة وأن أعود إليهم بخير ما يرجونه لى من صحة وعافية .

وهرع آخرون من أصدقائى ومعارفى يهنئوننى بما عزمت ، ويؤكدون لى أنه آية فضل الله علىّ ورضاه عنى . وشكرت لهم تأكيدهم مغتبطاً به ثقة منى بإخلاصه وصدق النية فيه . وكيف ترقى إلى إخلاصه شبهة وأصحابه من أشد المسلمين تمسكاً بدينهم واطمئناناً إليه ، وأكثرهم ضليعون فى علومه واقفون منه على ما لا يتسنى لغيرهم الوقوف عليه بعد إذ قضوا السنين الطوال فى دراسته وتمحيصه والتدقيق فى متونه وشروحه ! . وغاية ما رجوت أن يجيب الله دعاءهم فيقبل منى حَجّى وعُمرتى ، وييسر لى ما قصدت إليه من سفرى .

اتجه تفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه ، وجعلت أصوِّر لنفسى ما أنا ملاقيه فى هذه المناسك وما أنا مشاهده فى البلد الحرام . وسرعان أن ملأ

هذا التفكير نفسى هيبة ورهبة ؛ فقد عدت بذاكرتى إلى حجة الوداع ، وتخيلت أمامى النبى العربى يؤديها على رأس مائة ألف أو يزيدون ، فطأطأت رأسى لهذا المشهد إكباراً وإجلالا . ما أعظم الفرق بين ما كان يومئذ وما نحن عليه اليوم ! . كان المسلمون يتحرقون شوقاً إلى أداء الفريضة وهم لا يعلمون متى كتب لهم أن يؤدوها مع رسول الله . فلما أذن مؤذنه فى الناس بالحج أقبلوا إليه من كل فج وهرعوا من كل حدب ينسلون . وأقاموا بالخيام التى ضربت حول المدينة ينتظرون يوم الرحيل وقلوبهم فياضة بالبشر وكلهم الغبطة والمسرة . واستنفرهم المنادى فقام جمعهم وراء الرسول الكريم إلى ذى الحليفة بظاهر المدينة ، وقد امتلأت من خشية الله قلوبهم ، وقد فاضت من هيبته عبراتهم ، وكلهم إلى بيت الله هوى ، وفى سبيل دينه الحق اندفاع ومحبة . ونزلوا ذا الحليفة وباتوا ليلتهم بها ؛ ثم أصبحوا فتطهروا وأحرموا وأعلنوا إلى الله أنهم نسوا الدنيا فى سبيله ، وأنهم نووا الحج إلى بيته يبتغون وجهه . وسوى الإحرام بينهم جميعاً فلم يبق منهم غنى وفقير ولا قوى وضعيف ، ولم يبق منهم من يفكر إلا فى رضا بارئه جل شأنه تعنو له الجباه ، ولعظمته يخر من فى السماوات ومن فى الأرض إلى الأذقان سجداً . وانطلقوا من ذى الحليفة فى طريق مكة يفكر كل منهم فيما قدم من عمل صالح ، وينادون جميعاً بصوت رجل واحد ملبين : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك » . وتجاوبت الأودية بصدى هذا النداء فحملته إلى بقاع البادية وإلى فسحة الصحراء . ونزل الجميع حين جن الليل ؛ فلما تبسم الفجر عن تباشير الصباح صلوا ولبوا ثم انتشروا وساروا يحدوهم الإيمان ويدفعهم إلى بيت الله شوق ومحبة . وظلوا فى طريقهم إلى مكة اثنى عشر يوماً ، إذا جنهم الليل نزلوا ، فإذا أضاء لهم الصبح قاموا متوجهين بقلوبهم إلى الله مصلين ملبين ناسين عرض الدنيا مؤمنين بأن لا فضل لأحدهم على صاحبه إلا بالتقوى . فلما بلغوا مكة دخلوا المسجد الحرام يؤمهم محمد وطافوا سبعاً بالبيت العتيق ، ثم سعوا سبعاً بين الصفا والمروة .

طافوا جميعاً معاً ، وسعوا جميعاً معاً ، وهم جميعاً فى إمامة محمد تسرى إليهم من قُدْس روحه نفحات روحية لم يعرفوا ، ولم يعرف أحد قبلهم ، ما يشابهها سمواً وقوة . وآن لهم أن يرتقوا إلى عرفات ليتموا حجهم ، فاتبعوا النبى إلى منى يوم التَّرْوية ثم ارتقوا الجبل معه . وأقاموا فوق عرفات فى مساواة الإحرام يهلِّلون ويكبرون ويلبون حتى مالت الشمس إلى المغيب . إذ ذاك استمعوا إلى خطاب النبى ، ثم أفاضوا إلى المَشعر الحرام فذكروا الله عنده ، وهبطوا منى فأتموا بها المناسك ، وعادوا وقد طهر الحج قلوبهم إلى حياة جديدة بقلوب أكثر طهراً ، ونفوس أجابت داعى الحق وعاهدت الله أن تُجيبه كلما دعاها .

ارتسم أمامى هذا المشهد الذى يملأ النفس رهبةً والقلب إيماناً ، ورأيت نفسى مقبلاً على مثله فى ألوف اجتمعوا من أقاصى الأرض ، لا من جزيرة العرب وحدها ، للفريضة التى اجتمع إليها الأوّلون الذين اتبعوا محمداً من نَيِّف وأربعين وثلاثمائة وألف سنة خلت ، فازدادت نفسى لليوم القريب الذى أقف فيه هذا الموقف مهابة وإكباراً . قلت لنفسى : « هأنذا بعد أيام سأركب البحر قاصداً بيت الله حاجّاً . فإذا بلغتُ رابغاً ، ميقات الإحرام ، أحرمت وأحرم المسافرون للحج كما أحرم النبى وأصحابه ، ونادى ركب الباخرة جميعاً : لَبيك اللهم لبيك ؛ وامتلأت النفوس جميعاً هيبة والقلوب إيماناً . ربِّ أية شعلة من نورك الذى أضاءت له السماوات والأرض ستشتمل هذه الباخرة فى اندفاعها تمخر العباب إلى بيتك المحرم يلبى ركبها كلهم دعاءك ، وتتجه قلوبهم كلها إليك صادقة القصد عامرة بالإيمان . لن تكون هذه الباخرة فى تلك الساعات القدسيَّة مطيَّة أجسام تجرى فوق الماء ، بل قبساً من ضياء الهدى ونور الحق أفَضْتَه على عبادك فعادوا به إليك مهلِّلين مكبرين مستجيبين إلى ندائك القدسى الأطهر ، باعك كل منهم نفسه مجاهداً فى سبيلك ، ونسى كل منهم هذه الحياة الدنيا فانياً فى جلال جنابك ، لك الجلال جلّ شأنك ، وبك العون على الجهاد فى سبيلك . وسأكون أنا واحداً من هؤلاء الفانين فيك ، الصادقين فى توجههم إليك ، كلنا عبادك ، وكلنا نلتمس غفرانك

وعفوك ، فاعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا . اغفر لنا ولوالدينا ولمن دخل بيتنا مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ، واهدنا اللهم صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين» .

امتلأت نفسى بهذا المشهد ، كلّه الجلال والرهبة ، وبلغت منها مهابته أن لم يبق فيها موضع لشئٍ سواه . وأجبت الذين سألونى عن شعورى نحو رحلتى وبينهم جماعة من غير المسلمين ، عما يخالج نفسى مما أرى أمامى ، فرأيتهم تمتلىء قلوبهم منه هيبة وله إكباراً وإجلالا . وأىّ مشهد أدعى إلى المهابة الصادقة من هذه الصيحة المؤمنة المنبعثة من أعماق القلوب ، تنفرج عنها شفاه عشرات الألوف من الواقفين بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة ، يُلبّون داعى الله ، متجردين من كل زخرف الحياة ، عُراة الرءوس ، متشحين بمآزر الإحرام ، معلنين التوبة عما مضى من هَنَات الحياة وخطاياها ، مُنيبين إلى الله ليطهّر نفوسهم كى تعود إلى الحياة فى مثل براءة الطفولة ، لتكون من بعدُ مثال النزاهة والفضيلة والجهاد الحق فى سبيل الله جهاداً يهوّن من كل صعب ويهوّن الموت بل يحلو فى سبيله .

وتعاقبت الأيام ؛ ينسخ الليلُ النهار ويمحو النهار آيةَ الليل . فلما كنا من موعد السفر على يومين جاء أهلى من الريف يهدون إلينا تحية الوداع ، وكلهم مطمئنو النفوس كبيرو الرجاء فى الله ، وكلهم يطلبون إلىّ ما طلبه قبلهم كثيرون غيرهم أن أقرأ لهم الفاتحة عند بيت الله وعند قبر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن أدعو لهم الدعوات الصالحات . فلما كان الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ٢٥ من فبراير ١٩٣٦ ذهبنا إلى محطة « كوبرى الليمون » لنستقل قطار « الديزل » الذى يشق الصحراء إلى السويس . ولقيَنا المودّعون بالمحطة يرجون لنا حجًّا مبروراً وذنبًا مغفوراً وسفراً موفقًا وعوداً حميداً . وانطلق القطار يشق الصحراء براكبيه الذين اختاروا آخر باخرة من بواخر الحج . وبلغنا السويس ، وأخذنا أوراق سفرنا ، وأقلتنا السيارات إلى بور توفيق وإلى مرسى الباخرة « كوثر » . وعلونا الباخرة ولما يكن الزوال قد آذن . وجعلت أطوف فى أرجائها ألتمس مَن

أعرف من المسافرين معى عليها . وألقيت نظرى على مياه البحر الأحمر فى خليج السويس ، فذهب خيالى مع الأمواج يتقلب بعضها فوق بعض ، فخلتها آتية من جُدة تحيينا وتعلن إلينا أنها فى انتظار تحركنا إلى مرفأ البيت الحرام ؛ وبقى خيالى مع موج البحر حتى نادانى من أصحابى جماعة جلست وإياهم ، وجعلنا نتحدث فى انتظار طعام الغداء وفى انتظار سير الباخرة إلى الأرض الإسلامية المقدسة .

ياعجباً ! أىّ خاطر هذا الذى يجول الساعة بنفسى وأنا أسطر مشاهدى ! إن هذه البواخر تقوم بحجاج المسلمين من السويس إلى جدة لتصل بين مرفأ سيناء حيث كلم الله موسى ، وبين مرفأ مكة حيث نزل الوحى على محمد . والذين يؤمنون برسالة محمد يؤمنون بإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين من قبلُ لا يفرِّقون بين أحد منهم وهم لله مسلمون . تبارك الله ذو الجلال ! إن كل ما فى الحياة ليوحى اتصال الوجود كله فى الزمان والمكان فى وحدة هى الحجّة البالغة على وحدة بارئ الوجود جل شأنه . وسنرى من مظاهر الوحدة الروحيّة فى سفرنا هذا وفى مهبط الوحى على محمد ما يزيد المسلمين إيماناً وتثبيتاً .

فلأنتظر مطمئنًّا ، فعمّا قليل تجرى بنا الباخرة باسم الله مجريها ومرسيها إن ربى على كل شىء قدير .

بين المرفأين

كانت الأميرة خديجة حليم قد فرضت الحج عامنا هذا واختارت السفر على « كوثر » آخر باخرة تدركه . وكان برنامجها أن تغادر مكة طائرة إلى المدينة فى اليوم التالى للوقوف بعرفة ، مكتفية بالفداء عن فرائض الحج ومناسكه جميعاً .

ولقد أحدث صعودها وصعود حاشيتها إلى الباخرة هرْجاً بين الذين سبقوهم إليها ؛ ولم أجد لهذا الهرج مسوغاً إلا فى كثرة المودّعين الذين كانوا أضعاف المسافرين إلى الحج عدداً . هؤلاء أقاموا على ما طبعتهم الحياة الحاضرة فى نفوسهم من تقديس ذوى الجاه والإمارة . أما الذين فرضوا الوقوف بين يدى الله بالأماكن المقدسة فقد وجب أن تبرأ نفوسهم من كل تقديس لغير الله ما دامت قد فرضت أن تبرأ من الحوبات والأوزار جميعاً .

وشُغلت إدارة الباخرة بالأميرة وما تختاره من الغرف لنفسها ولمن معها . فلما فرغت من ذلك أذنت للخدم فى دعوة الناس للطعام . وجلس طلعت باشا حرب مدير شركة مصر للملاحة البحرية إلى مائدة تتوسَّط غرفة الطعام ، ودعانى إلى الجلوس معه كما دعا آخرين منهم محافظ السويس وحكمدارها الإنكليزى وربّان كوثر . ودار حديث اشترك فيه الربان بالإنكليزية تارة وبالفرنسية أخرى . وما كنت لأشير إلى هذا الحديث لولا ما أصاب الباخرة ساعة وصولها إلى جُدة . وتركنا الربانُ وما نزال على المائدة ، فذكرت لزملائى عليها أن إنكليزيته وفرنسيته تدلان على أنه ليس إنكليزيًّا ولا فرنسيًّا . قال طلعت باشا : بل هو إيطالى . إذ ذاك توجَّهت إلى الحكمدار الإنكليزى وقلت مبتسماً :

ــ ذلك خير . فلئن أصبح البحر الأحمر ميدان حرب بين إيطاليا

وإنكلترا أثناء سفرنا لنكونن فى حمايته الإيطالية .

وسارع طلعت باشا إلى التعقيب على عبارتى هذه بقوله :

ـ لقد دعوته منذ نشأت الأزمة الدولية الأخيرة ونبهته فى حزم إلى احتمال وقوع حرب يشتبك وطنه فيها ، وسألته : مايكون موقفه يوم ذاك ؟ فأكد لى بشرف البحار أنه يخدم بإخلاص العَلَمَ الذى يُظل الباخرة التى يقودها كائنة ما تكون الأحوال التى تحيط به .

وأردف الحكمدار الإنكليزى بهذه العبارة العميقة المغزى :

ـ قد تكون الحوادث أحياناً أقوى من كل ما نُقسم به .

ونهضنا وغادرنا غرفة المائدة إلى حيث جلسنا نتحدث ونشهد تقلُّبَ الموج . وتناول حديث بعض الحاضرين زميلتنا فى الحج إلى بيت الله ، الأميرة خديجة حليم شقيقة عباس حلمى خديو مصر السابق وأرملة الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم فى تركيا فى أخريات حكم السلطان الخليفة محمد رشاد . ودار الحديث حول تصوّر الأمراء للحج وما يلتمسون أثناءه من مغفرة الله لهم . وإنا لفى هذا الحديث إذ أقبل علينا الأمير محمد عبد المنعم ابن الخديو عباس حلمى وولىّ عهد مصر السابق ، وكان قد جاء يودِّع عمته بالسويس . وانتقل الحديث لمجيئه إلى موضوعات أخرى كان من بينها فيلم « وداد » السينمائى الذى أخرجته المغنّية أم كلثوم فى شركة مصر للتمثيل والسينما ؛ وكان مدير هذه الشركة فى مجلسنا ، وكان حريصاً على أن يسمع رأى الناس فى هذا الفيلم قال الأمير عبد المنعم :

ـ إنما ألاحظ على هذا الشريط صورة المسجد فيه والنداء للأذان به .

ولاحظ الأمير صمت الحاضرين وعدم إبدائهم الموافقة على ملاحظته فقال :

ـ صحيح أن المناسبة التى ألقى فيها الأذان من فوق مئذنة المسجد حسنة جدًّا ؛ فقد كان الناس يختصمون ، فلما سمعوا الأذان انصرفوا عن الخصومة وولّوا وجوههم شطر بيت الله . لكن السينما تنتقل من بلد إلى بلد . ولا عجب أن يعرض هذا الشريط فى أوربا . والغربيون يستهزئون حين يسمعون الأذان

وحين يسمعون القرآن . ومن الواجب علينا ألا نعرّض ما نقدسه إلى استهزاء الغير به .

ودار حول رأى الأمير حوارٌ دل على أن كثرة الحاضرين لا تؤيده وإن اختلطت عبارات هذا الحوار بكثير من ألفاظ التبجيل والاحترام . وتنقل الحديث من بعد فى مسائل شتى تركنا الأمير على أثرها ليقيم سويعة مع عمته قبل سفرها . ولعله تركنا غير راض عن الذين خالفوا رأيه عن الأذان فى السينما .

ولم أشترك فى حوار الذين حاوروا الأمير ، ولم أرد أن أذكر ما ورد فى القرآن عن الذين يستهزئون حين يسمعون كلام الله وأن الله يستهزئ بهم ويردّهم فى طغيانهم يعمهون ؛ فما كنت لأثير جدلا حول أمر يتصل بعقيدة صاحبه ، وليس من اليسير أن يصرفه الجدل عن رأيه أو يحمله على المصارحة بالعدول عن عقيدته فيه .

على أنى لم أعجب لهذا الرأى من شاب نشأ فى أسرة مالكة ، وكان يوماً ولىّ العهد لعرش دولة لها مكانتها فى العالم الإسلامى كله . فهؤلاء يبالغون فى الحرص على تقديس ما يعتقدونه مقدّساً ليبالغ غيرهم فى تقديس الدين وما يصدر عنه . وهم لا يؤمنون كما يؤمن أبناء الشعب بصوت الشعب وأنه من صوت الله ، وإنما يؤمنون بصوت الملك وأنه من صوت الله . فإذا حجوا ليستغفروا أو يطهروا ، كفاهم أن يرتقوا إلى عرفات ولهم فى سعة مالهم من أسباب الفدية ما يحسبون أنهم يفتدون به كل الأوزار والخطايا . وإن منهم من لا يرضى أن يحرم يوم عرفة لأنه لا يؤمن بالمساواة ، فهو يريد أن يفتدى منها كأنما يفتدى من عذاب يوم عظيم .

وإنما عجبت أن لم يذكر أحد من الذين جادلوا رأى الأمير ما سمعته غير مرة من أن الأذان بصوت حسن كان مما حمل كثيرين من غير المسلمين على أن يدينوا بالإسلام. ولقد عرف هذه الحقيقة من أقاموا من قبل فى تركيا حين كانت تختلط فى عاصمتها زُمَر الأمم المختلفة الأديان . والحق أن كلمات الأذان البسيطة العذبة جديرة حين ترتل ترتيلا يؤدى معناها بكل قوته

أن تنفذ إلى أشد النفوس صلابة وأشد النفوس استكباراً . وهل أقوى من قولك الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله حى على الصلاة حيّ على الفلاح الله أكبر لا إله إلا الله ! .

وغير المسلمين يسمعون إلى آى الذكر الحكيم حين يقصد من ترتيله إلى حسن فهمه بإجلال وإكبار كإجلال المسلمين وإكبارهم . فلا عجب أن يحرص المسلمون على أن يذاع القرآن ويذاع الأذان بكل وسائل الإذاعة . ولا عجب أن يحتج المسلمون من أقطار الأرض كافة حين يسمعون أن محطة الإذاعة فى مصر ستعدل عن إذاعة القرآن أو تقلل من تلاوته .

وآن لكوثر أن تتحرك ، فتركها المودّعون بعد أن ألقوا على المسافرين كلمات الأمل الطيب وحسن الرجاء فى حج مقبول وعود حميد . وانتقل المسافرون إلى ناحية الشاطئ يحيّون مودعيهم التحية الأخيرة قبل السفر ، فإذا جمع من ألوف الناس على رصيف المرسى لم يلبثوا حين سمعوا الموسيقى تصدح أن تعالى فى الجو هتافهم للإسلام وللحج وللوطن هتافاً حارًّا صادراً من حبات القلوب ومن أعماق الأفئدة . ما أبلغ أثر هذا المنظر فى النفس ! . فهذى الألوف الذين جاءوا لتحية المسافرين إلى بيت الله لا يعرف أكثرهم أحداً من هؤلاء المسافرين ، وإنما جاءوا يودعون إخوانهم فى الدين بقلوب عامرة بالله والوطن . لقد كانت مشاعرى تهتز أيّما اهتزاز كلما علا نداء هذه الجماهير فى الجو . فهذه أمة تلتمس التوجيه الصالح إلى حياة تريدها حياةَ مجد وعظمة ، وتلتمس هذا التوجيه بصدق وإخلاص ، وتلتمسه فى كل مظهر من مظاهر الحياة المصرية ، يملؤها الأمل من اقتراب هذا اليوم الذى يفتح فيه باب الرجاء فتندفع إليه متفانية فى سبيله ، كلها التضحية للعقيدة ، وكلها التضحية للوطن .

وتحركت الباخرة ، فعدت إلى ناحيتها الأخرى أشهد أمواج خليج السويس المصرى ، وأشهد من ورائها مخازن شركة البترول الإنكليزية القائمة فى الأراضى المصرية ، وأعود بتفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج وإلى ألوف المسلمين

الذين يؤدون هذه الفريضة فى كل عام لأنهم يستطيعون إليها سبيلا .

وشُغِلت بخليج السويس ومياهه وأمواجه حتى انحدرت الشمس إلى مغيبها . ولما تناولنا طعام العشاء أسرعت إلى مخدعى ، علىّ أجد فى النوم ما يعوّضنى عن مجهود نهارى ، وبعض ما يعوضنى عن مجهود الأيام التى سبقت .

واستيقظت مع الصبح واستنشقت هواء البحر ، ما أرقّه وأعذبه وأصحّه ! . وشكرت لله أنعمه وأنا فى خلوتى المبكرة فوق سطح الباخرة أشهد شواطئ خليج السويس التى لم تزل قريبة منا . فلما آن ليقظة النهار أن تجمع أصحابى معى كى نتبادل من الحديث أطرافه ألفيتُنى فى رفقة لم آلفِ منها أحداً فيما سبق من أسفارى ، وإن يكن منهم من سافر من قبلُ إلى أمريكا وأوربا ، وإن يكن منهم من يقيم فى باريس أكثر وقته . قال صاحبنا هذا :

ــ أوَلا تُعجبكم هذه السكينة التى غمرتنا على البحر منذ غادرنا السويس ! ولو أن « كوثر » كانت مسافرة فى رحلة الصيف إلى أوربا لسمعنا الموسيقى على العشاء ، ولشهدنا فِلماً من أفلام السينما المسليّة إن لم تحرك الموسيقى شجن ذوى الشجن إلى الرقص . أما وهى مسافرة إلى بيت الله بالذين يريدون وجهه فقد نَسيتْ ما ألِفَت من ألوان المسرَّة الساخرة واتشحت برداء من الحكمة هو وحده الجدير بوجهتنا . ولست أخفى عليكم أنى ابتسمت مساء أمسِ حين ذكرت ما كان على الباخرة التى أقلّتنى من أوربا منذ أسابيع من مرح شدّ ما كنا نستطيبه . واشتد بى الشوق أن أسمع إذاعة من مصر على الأقل أتداوى بها من ملال السفر على الماء . فلما جنَّنى الليل واشتملت الباخرةَ سكينته ولم أسمع إذاعة ولا موسيقى ، تداويت عن طمأنينة العاطفة بطمأنينة القلب ، وادّكرت ما أنا مقبل عليه ، فطابت إلى سكينة القلب نفسى ، وجعلت من ذكر الله وتلبية دعائه أنيسى ، وتذكرت أن الأقلين من أوتوا مثل حظى فداولوا فى أسابيع بين النهل من ورد باريس وعلمها ومسارحها ومتاحفها ومجتمعاتها الحافلة بأسباب الأنس ، وورد المنهل العذب للحياة الروحية بمكة عند بيت الله الحرام وبالمدينة

مثوى قبر رسوله عليه السلام .

وبهت بعض الحضور لهذا القول فتبادلوا النظرات بينهم هنيهة خيّم أثناءها الصمت ، ثم قال أحدهم موجهًا الكلام إلينا جميعًا :

ـ إئذنوا لى أن أقدم لكم كتيباً جمعتْ فيه مناسك الحج وأركانه لعل لكم فى تلاوته بعض ما ينفعكم فيما أنتم مقبلون عليه .

وأخرج من جيب قفطانه عدة كتب صغيرة وزعها علينا جميعًا . عرفت إذ أجلت النظر فيها أنها تلخص مناسك الحج على المذاهب الأربعة . ولم ينجه هذا التلطف من أن يوجه إليه أحد الحاضرين بعد أن استوى الكتيب فى يده قوله :

ـ وهل ترك مطوّفو مكة لأحد فى الحج قولا ! إنهم ليوجّهوننا فى كل دقيقة وجليلة من شؤون حجنا وإن استوى لأحدنا من العلم بهذه الفريضة ومناسكها ما لا علم بعده .

قال صاحب الكتيِّب :

ـ الذنب على الحاج لا على المطوف . فلو أنه عرف فروض الحج وواجباته وسننه لما كان لمطوف عليه ما تذكر من سلطان .

ومرّ بنا الخادم فطلبنا إليه قهوة ما كان أشهاها والباخرة تجرى بنا فوق لُجّ صاف ونسيم رقيق منعش . وأقمنا نتحدث أن لم نجد غير الحديث ما يسلينا فى هذا السفر . فلما نودى لصلاة الظهر قبيل موعد الطعام ذهبت مع القوم إلى حيث يؤمهم فقيه منهم فى صلاة الجماعة . وعجبت حين رأيتهم يتخطون بـَهْوَ الدرجة الأولى ؛ فليس وراء هذا البهو فى كوثر إلا « البار » ، ولم يدر بخلدى يومًا ما أن يكون بار من البارات مسجداً . لكن عجبى لم يمنعنى من مشاركة القوم حين رأيتهم اتخذوا من بار كوثر مصلى ! وما لهم ألا يتخذوه وقد طُهر أثناء رحلة الحج من أمهات الكبائر وأمهات الصغائر وفرش بالحصير الطاهر ! وكان هذا المصلّى أبلغ آية على أن العمل الصالح يخلع قدسيته على كل مكان يحلّ فيه ، وإن شهد هذا المكان قبل ذلك من الوزر ومن اللهو

ما يجعله إذ يشهدهما مثابة لهو ومهد متاع .

وتناول المسافرون طعام الغداء ، وقال منهم من اعتاد أن يقيل ، وأدّوا فريضة العصر فى مصلاهم ثم انتظموا جماعات يتحدثون . وجلس فى جماعتنا شاب عرف الحجاز ونجداً وقضى بهما سنوات اتصل أثناءها بابن السعود ورجال حكومته . وكان يرتدى « جلابية » من السكروته وعباءة من صوف دقيق شف لدقته عما وراءه ، وقد طرّز ما حول العنق والصدار منها بالقصب ، وتدلت من حاشية الصدار « كراريت » مكسوّة بالقصب كذلك . وسأله أحد الحاضرين عن هذه العباءة ، فقال : إنها لباس أهل الحجاز الرسمى كالجلابية سواء ، أما غطاء الرأس عندهم فالطرحة والعقال ، وحذاؤهم النعال . وهم يسمون العباءة « المِشلح » . وسئل عما يقصونه عن النجديين وشدة تعصبهم لمذهبهم فقال :

ـ كان ذلك أول فتحهم الحجاز وانحدارهم من نجد إليه . فقد دُفعوا يومئذ إلى الغزو والفتح عقاباً للأشراف أصحاب الحكم فى الحجاز على استهانتهم بدين الله وارتكابهم المعاصى ، وقيل لهم إن أهل الحجاز قد أقاموا من القباب أوثاناً فهم على عبادتها عاكفون . لذلك كانوا يحطمون القباب أينما ثقفوها ، كما كان المسلمون الأولون يحطمون الأصنام ، وكانوا يبالغون فيما يسمونه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى كانوا يعتدون على المدخنين وعلى غير الملتحين . أما اليوم فقد استقرت الأمور إلى نصاب وسط تواضع عليه القوم ، وكان للحجاج من البلاد الإسلامية المختلفة أثر بالغ فى تقريره . وما أحسب مسلماً يرى هذا النصاب الوسط اليوم عنتاً . فالإخوان « النجديون » حريصون على أن يسيروا حيث وَلّوا الأمر على حكم كتاب الله وسنة رسوله . لذلك يُجزى كل من جَهَر بمعصية بالحد الشرعى ، بذلك اختفى ما كان بادياً قبل توليهم أمر الحجاز من استهتار ومجون ؛ فلم يبق من يعاقر جهرة الخمر ، أو يغازل جهرة غلاماً . وتطبيق الحدود على الجرائم هو الذى أقرّ الأمر فى

نصابه ، حتى صار الحجاز يفاخر بحق أكثر الأمم طمأنينة وأمناً . والفضل فى هذا النصاب الوسط يرجع إلى ما بدأوا به من شدة وتزمت .

« وإنما أدّى بالحكومة الحجازية إلى العدول عن بعض ما كان أهل نجد يشتدون فيه كشدتهم فى إرخاء اللحية وقص الشارب وعدم التدخين وما إلى ذلك مما يبيحه غير المذهب الحنبلى من المذاهب الإسلامية ، ما حدث غير مرة من أهل نجد وأهل المذاهب الأخرى من المسلمين أثناء أشهر الحج مما كان له أثره فى الحج وفى الحالة الاقتصادية فى البلاد . ولو ذكرتم أن التسامح فى مسألة التدخين يرجع فى كثير إلى تأثر إيراد المكوس (الجمارك) الحجازية بسبب منعه لعلمتم ما للحالة الاقتصادية من أثر كبير فى العقائد والعادات » .

بينا كنا نستمع لصاحبنا يتحدث عن الحجاز وما صنع به أهل نجد ، مر بنا جماعة ليسوا مصريين لبسوا لباس الإحرام . وإذ كان بيننا وبين ميقات الحج برابغ يوم كامل فقد فسّر أحد الحاضرين سبْقهم إلى الإحرام بأنه تعجل لمغفرة الله واستزادة من ثوابه .

وأوينا بعد العشاء إلى مضاجعنا ، فلما أصبحنا كنا على ساعات من ميقات رابغ وعلى ساعات كذلك من إعلان النية بالحج والعمرة والإحرام بهما . لذلك لم يكن للمسافرين جميعاً طيلة الصباح حديث غير حديث الإحرام. بعد هذه الساعات إذن يتطهر المسافرون جميعاً ويصلون بنية الحج والعمرة ويحرمون ، وبعدها يكررون التلاوة لقوله تعالى : « الحَجُّ أشْهُرٌ مَعْلومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ فى الحجِّ ». ثم نلتقى جميعاً على سطح الباخرة وقد تغير لباسنا وتغيرت تحيتنا وتغير حديثنا جميعاً : نلبس غير المَخيط ، ونحيي بالتلبية ، وننسى من شؤون الحياة كل شيء سوى الحج ومناسكه . يالرَهبة الموقف وروعة جلاله ! . يجب أن ننسى كل شيء إلا أننا جند الله لبَّينا دعاءه ، ويجب أن يكون كلامنا طاهراً وقلوبنا طاهرة وأعمالنا طاهرة ، وأن يكون كل وجودنا خالصاً لله وحده ، خالصاً إخلاص صدق لا تشوبه شائبة ولا ترقى إليه ريبة من أوهام

هذه الحياة الدنيا . أى سمو بالنفس كهذا السمو وأية مرقاة هذه المرقاة التى نروض أنفسنا على الارتفاع بها لإدراك هذه الغاية ! ما أبلغ هذه الحكمة الأولى من حكم الحج! وما أعظم هذه الرياضة الروحية للنفس رياضة تبلغ بالإنسان إلى عُليا درجات الإنسانية ؛ إلى الدرجة التى يقرب عندها من الأنبياء والصدّيقين والأولياء المقرّبين ، والتى تطوّع له أن يفنى حقّا فى جلال الله ذى الجلال والإكرام ، لُيقـَوى بهذا الفناء ضعف نفسه ، وتزول بهذه القربى كل عوارض أهوائه . لقد تضاعفت هيبة هذه الصورة فى نفسى منذ أحسستها قريبة كل القرب منى ، فامتلأ قلبى بجلالها أضعاف ما امتلأ من قبل حين كنت أصورها لنفسى قبيل السفر .

وتناولنا طعام الغداء ، وأويت إلى مخدعى وأوى الآخرون إلى مخادعهم وإلى غرف الاستحمام نتهيأ كلنا للإحرام . ودلفت محرمًا إلى بهو الباخرة أتقى به هواء البحر ، فإذا من بالبهو جميعًا محرمون . وألقيت عليهم السلام فكان جوابهم أن تنادوا وأنا معهم : لبيك اللهم لبيك . . . هأنذا الآن تنطق شفاهى وأسمع بأذنى ما كان يتصوره ذهنى . وهأنذا يخفق فؤادى لهذا النداء نجيب به داعى الله صادراً من قلوب ملئت بالله إيمانًا . ويقبل علينا قادم محرم فتعلو بالتلبية أصواتنا جميعًا فى شىء من الترتيل لا يذهب بمعناها وينتظم نغمها . فإذا انقضت فترة لم نشغلها بالتلبية تحدّث الحاضرون فى الحج أو قصّ أحدهم طرفا من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام . فلما آن للشمس أن تغيب قام فقيه فنادى مؤذنًا بصوت جَهْوَرى سمعه أهل الباخرة أو أكثرهم ، ثم أمّ المكان الذى اتخذناه مُصلى فنادى فيه للصلاة . وسرعان ما انتظمت الصفوف . ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين نظموا صفوفهم ، بل نظمت السيدات صفوفهن من خلف الرجال وقمن معهم بصلاة الجماعة فى خشوع وإنابة ، واستغفرن بعد الصلاة كما استغفروا وطلبن عفو الله كما طلبوه . وخرجت من البهو إلى سطح الباخرة أجتلى فى مُوليات النهار تقلب الموج وألتمس أشعة القمر الناصع ما تزال متألقة فوقه . وإنى لأسير إذ لاقيت رفيقًا يمشى الهوينى

فمشيت معه . ولم يكن رفيقى يخفى من آرائه حرصه على حجاب المرأة وعدم اتصالها بغير ذى رَحِمٍ مَحْرَم من الرجال ، ولا يخفى اعتقاده أن فى التقاء الجنسين ، وإن فى مجمع حافل ، محرِّضًا على الفساد . ولكنه إذ رأى هذا الاجتماع للصلاة يحضره الرجال والنساء فى طُهر وإنابة لم يلبث حين سرت معه أن قال :

— أرأيت هذا الاجتماع الذى ضم الجنسين معًا للصلاة ؟ إن طهارة القلب والقصد وسموّ الغاية كفيلة بأن تزيل كل خوف من اختلاطهما . ولو أن أخلاقنا صلحت وغاياتنا فى الحياة سمت لما تمسك بالحجاب أحد .

وأقررت رأيه ولم أذكر له أن إقبال السيدات المصريات على الاشتراك فى صلاة الجماعة على الباخرة إنما شجَّعهن عليه ما نلن فى السنوات الأخيرة من حرية طوّعت لهن الاتصال بالرجال فى تجارة الحياة ، وأنهن لو بقين كما كُنّ رَهْن خدورهن ، يراهن الرجال عورة ، ويولّين من منظر الرجال فراراً ، لما تركت إحداهن مِخْدعها ولا تناولت طعامها بالباخرة فى غرفة المائدة لا يفصل بينها وبين الرجال إلا ستار رقيق ، ولظللن حبيسات المخادع حتى يخرجن من الباخرة محمولات إلى مركباتهن ، ثم إلى مِحَفّات الطواف والسعى .

أقبل المساء وبدأ الركب يتحدثون فى وصول الباخرة بُكْرَة الصباح إلى جُدّة ، ويتساءلون : أيتيح لهم الحظ فرصة النزول إلى الشاطئ والذهاب إلى مكة لإدراك صلاة الجمعة فى الحرم ، ولأداء طواف العمرة وسعيها بعد الصلاة كيما يحلّوا إحرامهم إحلال التمتع ليُحرموا بعد ذلك للحج . واشتركت وإيّاهم فى هذا الحديث ؛ فلما خلوت إلى نفسى عجبت لهذا الإحرام الذى لا يدوم يومًا كاملا ، والذى يتحدث أصحابه فى التحلل منه بعد سويعات من ارتدائهم إياه . فما بين رابغ وجدة أقل من اثنتى عشرة ساعة فى الباخرة ، وبين جدة ومكة ساعتان أو نحوهما فى السيارة . وما بين ذلك من إجراءات النزول إلى جدة وما بعده من الطواف والسعى لا يستغرق أكثر من

أربع ساعات أو خمس . أين إذن أسْوَةُ المسلمين بالرسول وأصحابه في هذه الفريضة ! . إن ما بين المدينة ومكة على الإبل ليستغرق عشرة أيام أو أكثر يظل الحجيج محرمين أثناءها ملتزمين ما فرض القرآن أن لا رَفَثَ ولا فسوق ولا جدال في الحج . وهذه الأيام المتوالية لها أثرها في رياضة النفس الروحية وفي تهذيبها هذا التهذيب الرواقي السامي . وإنما فُرض الإحرام في رأيي لهذا التهذيب وهذه الرياضة . ولذلك يلتزم الإنسان أثناءه آدابًا في التلبية وفي التوجه لله وفي الرغبة عن أهواء الحياة الدنيا . فكيف تتم هذه الحكمة بالتجرد أربعًا وعشرين ساعة لا يمتنع الإنسان خلالها إلا عن القليل من عاداته ! . إن رياضة هذا كل أمدها غير جديرة بأن تترك في النفس أثراً يذكر .

وأفضيت بخاطري هذا إلى بعض إخواني بالباخرة ؛ فكان جواب أحدهم : الدين يُسر لا عُسر ، والميقات مكان لازمان . ولو أنك أحرمت من رابغ ثم طرت إلى مكة في ساعة أو دونها لكنت قد أدّيت الواجب الديني المفروض عليك.فأما الرياضة الروحية فليس الإحرام بممهد لها ، ولا التحلل بمانع منها من أرادها .

ردّني هذا الجواب إلى التفكير فيما حسبته من حكمة الإحرام ، وتساءلت :

ـــ فيم إذن هذا التجرد من المخيط إذا لم تكن له حكمة تسوّغه ؟ أوَ يكفي أن يتساوى الناس سويعة في مظهرهم وهم يعلمون ما بينهم من عظيم التفاوت! . ولم أرد أن أمعن في هذا الحوار مخافة أن يكون الاعتراض على رأى الغير أو التفكير في قيمته جدالا فيه، « ولا جدال في الحج » ، وأنا جدّ حريص على رياضة نفسي هذه الرياضة السامية التي وردت في القرآن .

وأوينا إلى مضاجعنا وكلنا الشغف أن يطالعنا الصبح بشاطئ جدة بعد سفر بالغ البحرُ أثناءه في اللطف بنا ،حتى لودِدنا لو نظلّ وإياه أيامًا لولا شغفنا ببلوغ البيت العتيق . وتنفّس الصبح عن جو صاف ونسيم عذب ويقظة للوجود مستبشرة ضاحكة . وقمنا إلى متاعنا نُعِدّه للنزول ، وأخوف ما نخافه

أن تضيق بنا السويعة الباقية عن إتمام إعداده . وأزفت الساعة السابعة صباحاً وتبدّى الشاطئ بشيراً بأم القرى . وإنا لنفكر فى النزول إلى جدة وفى الرحيل منها وفى إدراك الجمعة بالحرم إذا « كوثر » تهتز هزة عنيفة وكأنما زلزلت زلزالها ؛ هزة رُجّت منها مفاصلها جميعاً ، واضطرب لها كل وجودها . وبعد هنيهة من هذه الهزة التى لم تتسع لأى تفكير منا فى أمرها وقفت الباخرة لا حراكَ بها وكأنها جسد هامد . وفى أثر وقوفها سَرَتْ إلى مخدعى من بهوها أصوات المسافرين ترتفع مرتلة : « باسم الله ، الله أكبر ، ولله الحمد » فملبية فى حماسة فيها إيمان وتقوى .

ما هذه الهزة العنيفة يعقبها وقوف مفاجىء ؟ ! لم يدر بخَلَدى أن فى الأمر ما أخشاه . وما عسى أن أخشى وهذا الشاطئ على مقربة منا قد رأيناه رأى العين ! وكل ما توهمته أن رُبان الباخرة أدارها نحو الشاطئ فى عنف نشأت عنه هذه الهزة ثم وقف بها انتظاراً لشرطة المرفأ ورجال الصحة به . وآية ذلك هذا الحمد لله من جانب المسافرين . وازددت انهماكاً فى إعداد متاعى كيما أسبق غيرى إلى الزوارق فأسبقهم إلى الشاطئ . وضغطت الجرس أبتغى فنجاناً من الشاى أتناوله قبل أن يبغتنى الوقت . فلما أجاب الخادم جرسى طلبت إليه الشاى ، وسألته عن هزة الباخرة ما كانت ؟ فأجاب :

— لقد شحطت على جزيرة من الرمل ، وعما قريب تعود سيرتها إلى جدة .

شحطت على جزيرة من الرمل ؟ ! لم تكن الهزة المزعجة إذن لفتة من الربان فيها عنف ، بل كانت صدمة بجزيرة من جزر البحر وشِعْب من شعابه . الأمر أجلّ إذن من أن أقف عند متاعى وإعداده ؛ فلأذهب لأتبين جليّته. وتناولت الشاى دراكاً وأسرعت إلى بهو الباخرة فى لباس إحرامى ، فألفيت المسافرين مجتمعين كأنهم يتداولون . وخلوت بأحدهم وسألته فقال :

— لقد اصطدمنا بشعب من شعاب البحر الأحمر الناتئة بجدة ، هذه الشعاب المعروفة للملاحين جميعاً . لذلك لا أدرى كيف دفع الرُبان السفينة إليه فى يقظة النهار وضوء الشمس . وقد قيل لنا : إن الربان بعث رجاله

فامتحنوا موضع التصادم من قاع الباخرة واطمأنوا إلى أنه لا خطر على الباخرة ولا خطر علينا . ولست أدرى ما الله صانع بنا من بعدُ ونحن فى وسط البحر بين صخوره وشعابه .

واشترك معنا فى الحديث زميل حاج من رجال التلغراف اللاسلكى فقال :

— لقد صعدت إلى الربان ساعةَ حدثت الصدمة ، لأننى أعرف فى هذا المكان شعباً يدعوه أهل جدة « شعب السامرىّ » وتُثبته الخرائط الأوربية باسم « شعب سانت مارى » . ولم تدر بخاطرى ريبة منذ حدثت الهزة فى أننا اصطدمنا به . وذكرت للربان أننى من رجال اللاسلكى الرسميين . وعرضت عليه خدمتى ، فشكرنى وذكر لى أن عنده رجل اللاسلكى الذى يعمل بالباخرة وأنه لا يخشى خطراً .

وساد الباخرة صمت رهيب بعد ضجة التكبير والتهليل التى اعقبت الصدمة .فقد نسى المسافرون الإحرام والتلبية . ووقف تفكيرهم عند هذا الحادث وأثره . وكان جل تساؤلهم عن مبلغ الخطر وهل يوشك أن يدهمنا . ولم تهدأ وساوسنا بعض الشىء إلا بعد أن علمنا أن الشعب الذى ارتطمت به الباخرة شعب أملس يميل متدحرجاً فى هُون إلى الارتفاع ، وأن ميله وملوسته وتدرّجه طوّعت لها أن تزحف عليه وأن تستقر فوقه . ولولا ذلك لتحطمت عليه ولكُنَّا منذ وقوع الحادث بين يدى الموت يرحم من شاء ويختار من شاء . وقال الذى نقل إلينا هذا التفصيل :

— لعلكم علمتم أن الماء دخل من نوافذ الحجرات الواقعة عند مؤخر الباخرة واضطر رجالها إلى إقفال الأبواب الحديدية المتصلة بهذه الحجرات . ذلك أن الباخرة حينما زحفت فوق الشعب ارتفع مقدّمها وانحدر المؤخر فهوت نوافذ حجرتها فحاذت الماء فتسرّب جانب منه إليها قبل أن يحكم إقفالها . ولولا أن وقفت الباخرة حيث وقفت بعد أن تقدمت فى زحفها بضعة أمتار ، لجرّها مؤخرها إلى الماء فابتلعها وابتلعنا معها .

انطلق المسافرون يعلقون على هذا الحديث كلٌّ بما عنّ له . ولم يأب

توثب الخيال على بعضهم أن يذكر أن الربان تعمَّد وقوع الحادث . وكيف لا يكون تعمده فى تصورهم وهو قد وقع فى وضح النهار وفى مكان يعرف كل من مارس البحر الأحمر ما به من شعاب . ولم يعدل هؤلاء عن تصورهم أن أبسط منطق للعقل يأباه ؛ فلا مصلحة للربان الإيطالى فى وقوعه ، وأيسر نتائجه يؤذيه أبلغ الأذى . والعقل يأبى أن يعرض إنسان نفسه للأذى بلا فائدة ولا مقابل . لكن منطق العقل ليس المنفرد بالسلطان علينا . وكثيراً ما يغلب خيالنا منطقنا بتسلط تصورنا على حسنا . ولقد كنت أشد الناس اقتناعاً بهذا المنطق وحرصاً على إقناع المسافرين به ، مع ذلك ذكرنى وقوع الحادث وخوض الناس فى تفاصيله بما كان من حديثنا عن الربان فى غرفة المائدة قبيل السفر وقول حكمدار السويس الإنكليزى : قد تكون الحوادث أحياناً أقوى من كل ما نُقسم به .

وعدت وعاد المحرمون إلى الخوض فى الحادث وكيف وقع ؛ هذا الحادث الذى لم أحسبه أول الأمر ذا بال ، وها هو ذا يتجسّم الآن خطره ويزداد جسامة رويداً رويداً فى نظرى ونظر المسافرين جميعاً . فلما أدركنا جسامة الخطر على حقيقتها ازددنا شكراً لله أن وقفت الباخرة حيث هى ، يمسكها الشِّعب وإن مالت إلى جانبها بعض الميل . وامتلأت نفوسنا بالشكر وفاض عنها ، فترجمنا عن فيضه بالإمعان فى التلبية مكررة قوية صادرة من قلوب زادها تصور الخطر إخلاصاً وإيماناً ، إن صح أن تزداد قلوب قصدت إلى بيت الله ملبية نداء ربها إخلاصا وإيماناً .

وكان رجال الباخرة الرسميون فى مثل ارتباك المسافرين للحادث ، حتّى لقد اختفوا عن الأنظار ، ولم يقف منهم إلى جانب المسافرين من يهوّن الأمر عليهم أو يبعث الطمأنينة إلى نفوسهم . ولم يعاودهم من الطمأنينة ما يذكّرهم واجبهم إلا بعد أربع ساعات من الحادث ، إذ ذاك أصدروا بلاغاً قيل فيه إنه لا خطر منه والحمد لله على « كوثر » وركابها ، وإن الباخرة « زمزم » الراسية بمرفأ جدة ستجىء لمعاونتها .

تلقّى المسافرون هذا البلاغ بنوع من الاطمئنان لم يكن منه مفر ، وزادهم طمأنينة سكينة البحر وصفاء الجو ورقة النسيم من حولنا . والشمس ساطعة يبعث ضياؤها إلى الأفئدة دفئًا يُنعشها ويزيل كل مخاوفها أن يصيبها من غدر البحر سوء . وهل يغدر البحر بمن أتوا إلى بيت الله حاجين معتمرين ! .

وتناولنا غداءنا ولم تكن « زمزم » قد ظهرت فى الأفق . ومع لطف الله فى قضائه لم تطاوع أحدنا نفسه أن ينزل إلى حجرته يقيل بها ، بل بقينا نحدق إلى ناحية الأفق منتظرين الباخرة المنقذة . وقبيل الساعة الثالثة بعد الظهر ، أى بعد ثمان ساعات من الحادث ، تبدّت « زمزم » مقبلة ، فشدت إليها أبصارنا وبقيت معلقة بها حتى وقفت على مقربة منا تختار مكانًا يهيئ لها القيام بالمهمة التى نُدبت لها حتى يتم انتقالنا إليها بسلام لإيصالنا إلى المرفأ . ذلك ما جاء فى بلاغ رجال « كوثر » ، وهو ما دار بخاطرنا . لكنا بقينا ساعة كاملة ننتظر هذا الانتقال ثم لم نر من بوادر التهيؤ له ما يبشر به. وسألنا فى ذلك فقيل لنا : إن التفكير منصرف إلى أن تسحب « زمزم » « كوثر » من مكانها إن أمكن لتدخل الباخرتان جدة معًا . فيسدل ذلك على الحادث ستاراً ينسى مَن علم بأمره فى مصر وفى غير مصر أنه وقع .

أقرّ كثيرون هذا الرأى حرصًا منهم ألا تشوب سفرة « كوثر » شائبة . وكاد هذا الرأى يسود لولا أن قال أحد الحاضرين :

ـــ فإذا فرض أن بكوثر عيبًا يستره التحامها بالشعب ويبديه سحبها فتتعرض بسببه حياتنا للخطر ، فما عسى أن يكون الرأى ؟ . أليس الأحكم أن ننتقل أولا إلى زمزم ثم تجر زمزم كوثر ، فإن سحبتها من الشعب وعادتا معًا إلى جدة تحقق الأثر الذى تبتغيه الشركة ولم يتعرض المسافرون لخطر ، وإلا عادت زمزم بنا إلى جدة قبل أن تضيع علينا فرصة الحج ولم يبق على الوقوف بعرفات إلا ثلاثة أيام ؟!

وسمعت السيدات هذا الحديث وكن منتحيات جانب البهو المقابل للرجال .

فلما بدا لهن خوف الخطر إذا سحبت زمزم كوثر ونحن بها تقابلت نظراتهن فى لمح البصر ، ولم تلبث إحداهن أن اندفعت معبرة عن شعورهنّ جميعاً تقول :

ــ لن تتحرك كوثر ونحن بها . فلينقلونا أولا إلى زمزم لنكون بمأمن على ظهرها ثم ليفعلوا ما شاءوا . وإذا وجب علينا ، لأننا مصريون ، أن نحرص على نجاة كوثر وسلامتها فواجب على الشركة أن تكون أشد حرصاً على أرواحنا .

كذلك قالت ، ثم حدّقت بنا معشر الرجال بنظرة الآمر ، وأضافت :

ــ هذا رأينا ، وعليكم معشر الرجال أن تتشاركوا فيه وأن يبلغ للمختصين من رجال الشركة .

ألقيت هذه الكلمة فى حزم تجلت فيه كل مظاهر الإرادة الصلبة التى لا تلين ، وأيّدت السيدات قول زميلتهن فى حزم كحزمها. وكان الرأى ظاهر السداد ، فلم يكن إلى التردد فى تنفيذه سبيل . وأجابنا ممثل الشركة بأن الأمر استقرّ كما أردنا وأن تنفيذه يبدأ من فجر الغد ؛ فقد أرخى الليل سدوله وسادت دولة الظلام .

شهدت ثورة السيدات قبل اليوم غير مرة وفى غير بلد؛ شهدتها فى إنجلترا ، وفى فرنسا ، وفى مصر . لكنها كانت فى هذه المرّات كلها متصلة بمطالب سياسية أو قومية ، فكانت العاطفة التى تدفع إليها تشوب قوّتها رقة ويشوب عنفها فنّ يتصل بها اتصال الرقة بسجية الأنوثة . أما هذه الثورة التى بدت فى أعين السيدات مذ شعرن بالخطر يهدد حياتهن وحياة بعولتهن أو ذويهن فلم تشبها رقة ولم يسر فيها شىء من روح الفن، بل كانت كلها عنفاً وقوة وحزماً وصلابة . وهذا طبيعى ؛ فالثورة القومية أو السياسية يمكن أن تنتهى إلى صلح إن لم يحقق أغراضها كان فيه شئ من حفظ الكرامة . أما ثورة من يدفع الخطر عن حياته وحياة من يعزّ من ذويه فلا صلح فيها إلا بالتسليم والنزول على إرادة هؤلاء الثائرات حفاظاً على كيانهن وكيان ذويهن . وكذلك كان .

اطمأنت النفوس إلى الانتظار فى كوثر حتى الصباح . وزاد فى طمأنينتها

أن بقى الجو فى صفوه والنسيم فى رقته ، فلم نكن نخشى عاقبة تتأثر الباخرة بها وهى ماثلة فوق الشعب تأثراً بالغ بعضهم أثناء النهار تقدير نتائجه . وجاء إلى كوثر قنصل مصر فى جدة وطبيب القنصلية بها ورجال الحكومة العربية السعودية منتقلين من زمزم إليها مع رجال شركة مصر للملاحة . فشعرنا لوجودهم بيننا ، كى يشاركونا مصيرنا ، كأن الباخرة رست وكأننا وإياهم فى أرض جُدة . وتناولوا وإيانا طعام العشاء ، واتصل بيننا وبينهم حديث فيمن سبقونا إلى موسم هذا الحج . وفى هذا الحادث ولطف الله بنا فى قضائه ، وفى حسن حظنا بوجود زمزم بجدة لتيسر انتقالنا فلا يفوتنا الحج . بهذا كله سكنت أعصابنا ، وأتيح لنا أن ننال بعض الراحة بالنوم فى أمن من انزلاق الباخرة إلى قاع اللُّج ، ممتلئين أملا أن ندرك مكة قبل مغيب شمس الغد .

وابتدأ انتقال المسافرين إلى زمزم فى بكرة الصباح . وكان الانتقال بطيئاً لعدم التعاون بين المسئولين عن سرعة إنجازه ، ولولا اندفاع المسافرين وانتقال طائفة كبيرة منهم فى زوارق النجاة لما تم طيلة اليوم ، وكمل المسافرون بزمزم فى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فتحركت بهن على هون حتى قاربت مرفأ جدة والنهار يولى . وبينما كان المسافرون فى ابتهاجهم بقرب نزولهم إذا قرار السلطات المحلية فى هذا الأمر يحيل ابتهاجهم تجهُّماً ؛ فقد خشيت هذه السلطات أن يصيب « السنابك » التى تنقل المسافرين من الباخرة إلى الشاطئ ما أصاب كوثر حين مرور هذه السنابك بين الشعاب فى ظلمة الليل ، فقرّرت مبيت المسافرين بزمزم . ولم يستثن من هذا القرار إلا الأميرة خديجة حليم وحاشيتها ، واستثنيت أنا منه لكونى ضيف وزير المالية العربية الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان . فتركنا الباخرة مع رسوله إلىّ ونزلت ومن معى إلى « اللنش » لينقلنا إلى الشاطئ .

وانطلق « اللنش » مخلفاً وراءه زمزم ومن بها ، وإنى ليتنازعنى ساعة انطلاقه عاملان : عامل الأسف لمقام إخوانى على الماء ليلة أخرى ، وعامل الغبطة لإدراك مكة والبيت الحرام ولقضاء العمرة طوافاً وسعياً . ولقد تنازع

هذان العاملان نفسي مذ علمت أني مغادر زمزم قبل إخواني . وكان عزيزاً علىّ أن أفارقهم أو أتقدّمهم وقد قضينا سفراً نعمت معهم فيه بخير رفقة . لكنهم رأوا الأميرة وحاشيتها يسبقونهم فشجعني بعضهم على النزول ، وكأنما رأوا فيه مظهر مساواة بين الطوائف ، أو شبهة مساواة على الأقل .

وجرى بنا « اللنش » بين الشِعاب قاصداً إلى الشاطئ والشمس وراء ظهورنا تنحدر إلى مغيبها . واتشحت اللجة الزرقاء الأديم بوشاح المغيب . فلم نأبه لها . وقد شغلنا عنها باستعجال غايتنا . ومررنا بباخرة محطمة . غرقت في الماء فليس يبدو منها إلا أعلاها . تلك هي الباخرة الفرنسية « آسيا » التي احترقت منذ سنوات أثناء وقوفها حيث هي اليوم من غير أن تصطدم بشعب أو يصادفها غير الأجل الذي سلّط ألسن النار عليها . وسرى إلينا نسيم المغيب فوق لجة الماء فأنعشنا وأنسانا بعض وصَب النهار . وتلوّى الزورق في انطلاقه متيامناً حيناً متياسراً حيناً محاذراً الشعاب مطمئناً إلى مهارة سائقه وإلى معرفته ما تحت الموج إلى قاع اللج معرفة يأمن معها الاصطدام بالسامريّ أو غير السامري من هذه الشعاب .

اقترب بنا من جدة وبدت لناظرنا دورها وعماراتها ، وازدادت وضوحاً على رغم نزول الظلام ، وكان مظهرها يغري بالظن أنها خططت تخطيطاً جميلا وبنيت على الطراز الحديث ، وذلك الشأن في كل ما يبدو للمقبل في البحر من مظاهر اليابسة ، فإذا اقتحمناه كنا كالجرّاح إذ يقتحم بمشرطه جسداً جميلا . وشاهدُ « نابولي » أو « مرسيليا » أو « بيروت » قبل أن ترسو الباخرة بها يرى جمالا أدنى إلى جمال المرأة في ثياب زينتها . وأحسب الذين لم يعرفوا من ذلك ما عرفت قد خُدِعوا بمظهر جدة . وكان من حقهم أن يخدعوا بهذه المباني التي تمتد أمامهم على الشاطئ أميالا عدّة في نظام زاده البعد اتساقاً وجمالا .

وأرسى (اللنش) على درج صعدنا منه إلى الشاطئ . ولم يُثر إحرامنا تطلّع أحد ؛ إذ كان الإحرام لباس عشرات الألوف الذين يفدون إلى جدة كل عام حاجّين . وتناول رسول وزير المالية جوازات سفرنا ؛ وتخطينا بناء الجمرك

ولا يكاد يرى الإنسان أثناءه طريقه لضآلة نور المصابيح المعلقة إلى جدرانه . وتفضّل رسول مضيفنا فأمر من تقدمنا بمصباح ذى نور أبيض . وأفضى بنا الجمرك إلى ميدان فسيح لولا نور القمر لتعذّر علينا أن نصل منه إلى جانب وقفت السيارات فيه وقد أعدّت إحداها لتقلنا إلى أمّ القرى .

الله أكبر ! هأنذا بالأراضى المقدسة ، بلاد النبي العربى محمد عليه الصلاة والسلام . وبعد سويعة سأكون فى الطريق إلى مكة . ما أكرمك ربى وما أعظم رحمتك ورضاك ! . قضيتَ أن نحج بيتك ويسّرت لنا سبيله ، فتقبّل ربنا حجنا وعمرتنا وهيئْ لنا من أمرنا رشداً .

العمرة بمكة

تخطينا جمرك جدة إلى الميدان الفسيح أمامه ، ووقفنا إلى جانب سيّاراتنا ننتظر مرور متاعنا بتفتيش الجمرك . ولم يطل انتظارنا ، بل أكاد أقول أنا لم ننتظر . فلم يكن بالجمرك ما يشغل رجاله عنا غير متاع الأميرة خديجة حليم وحاشيتها . ولم يتناول التفتيش هذا المتاع ولم يتناول متاعنا ؛ فمتاع الأميرة لا يفتّش لأنه متاع الأميرة . ومتاعنا لم يفتش لأننا ضيوف وزير المالية . . .

ولعل متاع الحجاج لا يفتش بوجه عام إلا لشبهة قويّة اعتماداً على أن من جاء بيت الله حاجّاً لا يذكر ما يقرره عن متاعه إلا صادقاً .

وإنما أوفد وزير المالية رسوله إلينا وكنت ضيفه لمناسبة أذكرها . فقد كنت عائداً من بيروت إلى مصر فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥ على الباخرة الإيطالية « أوزونيا » ؛ وكان وزير المالية قادماً يومئذ على هذه الباخرة من مصر إلى لبنان وتقابلنا بها حين رست ببيروت ، وجاء ذكر كتابى (حياة محمد) ، وسألنى أحد من حضروا المجلس : هل تعتزم زيارة الحجاز ؟ ولما أجبت أن ذلك بعض ما يدور بخاطرى منذ أعوام ، طلب وزير المالية أن أكتب إليه متى صح عزمى على السفر . وكتبت إليه قبيل سفرى ، فأوفد إلىّ رسوله فى مياه جدة يبلغنى أننى فى ضيافته .

وكان أول مظهر لهذه الضيافة أن أقلتنا السيارة بأمر الرسول إلى فندق جدة لتناول طعام العشاء فيه قبل ذهابنا إلى مكة . والفندق للحكومة أعدته لراحة الحجاج والمسافرين من أهل البلاد . لذلك كان التقشف فى عمارته وفى أثاثه وكل ما فيه .

ولم يطل مُقامنا به . فما فرغنا من طعامنا حتى نزلنا إلى السيارة نركبها إلى مكة . وكذلك كان الفندق كل ما رأيت من جدة . وانطلقت السيارة متمهلة فى طرق هذا البلد حتى وقفت عند مخفر الشرطة . ونزل السائق منها فى ردائه البدوى الخشن يؤشر من المخفر على (الكوشان) ، والكوشان جواز السفر

المحلى . فليس يجوز لأحد أن ينتقل داخل الحجاز من مدينة إلى مدينة بغير جواز خاص .

وتابعت السيارة طريقها إلى خارج جدة وإلى ما وراءها من فضاء . وكان الليل قد اشتمل هذه الأرجاء جميعاً فى صمته ورقة نسيمه . وأجلت بصرى فيما حولى وجعلت ألتمس صورة بلاد العرب المرتسمة فى دخيلة نفسى ، فإذا ضوء القمر يسعد الليل بلجته ويرسل تحيّة عذبة إلى صمت هذه الأودية قامت كثبان الرمل عن جانبيها ، وارتفعت جبال يحجب سقف السيارة عنّا قُنَنها . ولم يعصمنى لباس الإحرام من البرد فاتقيته متلفّعاً بردائى ولم ألبس مخيطاً . وكأنما انتقلت إلينا عدوى الصمت المحيط بنا فأمعنّا فى الصمت ، فلم تنفرج شفاهنا عن ألفاظ غير ألفاظ التلبية .

وبَعُدت السيارة عن جدة منطلقة فى البيداء وحيدة لا يُسعدها أنيس . على أنا لم نلبث أن مررنا بقافلة من الجمال تسير على هُون متجهة إلى حيث نتّجه . وخلّفناها وراءنا ، ثم أدركنا قافلة من الُحمُر أسرع منها سيراً . وتخطّينا قافلة الحمر ، ثم إذا بنا نسمع صوتًا يقترب منا ويردد الليل صداه فى خشوع وإكبار ؛ أولئك جماعة من الذين لم يجدوا دابة تحملهم فساروا على أقدامهم متوجهين إلى بيت الله بقلوبهم ، وإلى رب البيت بدعائهم : لبّيك اللهم لبيك . ومررنا بهؤلاء وصوتهم يدخل إلى قلوبنا بغير استئذان فيملؤها رهبة ومهابة . وكلما فُتنا واحدة من هذه القوافل أدركنا أخرى ، وكلهم فى إحرامهم يشتملهم ضوء القمر فى لجّته فيزيد بياضهم نصوعاً . والأودية تحيط بها كثبان الرمل وتحجبها الجبال عما وراءها تردّد تلبية الملبّين من أهل هذه القوافل وقد اتّشحت من جلال هذا النداء المنبعث من قلوب كلها الإيمان والإذعان بما ملأها خضوعاً وإذعاناً .

كم سمعت هذه الطبيعة المحيطة بى من أصوات هذا النداء خلال مئات سنين خلت منذ بعث الله محمداً نبيًّا وهاديًا ورسولا . أصوات لا يحصيها العدّ ولا يتناولها الحصر . وما يحدث فى الطبيعة لا ينمحى أثره . إذن فقد ارتسمت

هذه الأصوات هاهنا ونقشت على سفوح هذه الجبال . ولو أن لدينا إبرة تظهرها كما تظهر إبرة « الفونوغراف » الأصوات المسجلة على أسطواناتها لسمعنا عجباً : تلبية الملايين وألوف الملايين مرتفعة إلى بارئها فى إيمان يدك الجبال ويزعزع الرواسى ويخر له كل ما فى الوجود ساجداً ، لأنه أسمى من كل ما فى الوجود برهبوت جلاله وقوة عظمته واتصاله بمالك الملك ذى الجلال والإكرام .

كانت أمّ السَّلَم أول محلة مررنا بها بعد جدة . وقد وقفت السيارة عند مخفر الشرطة وقدم السائق إليه (الكوشان) كيما يتابع سيره . ومخفر الشرطة بدوّى فى بنائه ، لا شىء فيه من مظاهر نظام العمارة ولا يلفت النظر منه غير بدوِيَّته الساذجة ، وليس حوله مظهر عمران إلا بعض مبان من نوعه، وبعض عرائش من فروع الشجر اليابسة يستريح من شاء من الحجاج إلى ظلها ويجد فيها فنجاناً من الشاى الذى يقدم فى كل مكان . أما القهوة فدون الشاى حظاً ، وإن كنت تجد النجدية منها إلى جانب الشاى إن أردتها .

وعاودنا سيرنا نمرّ بمثل القوافل التى مررنا بها ، فنجتازها مسرعين حيث كان الطريق صالحاً ، مبطئين كلما أمسكت الرمال عجلات السيارة فحالت بينها وبين الإسراع . وبلغ من إمساك الرمال السيارة فى بعض الأحايين أن كانت تقفها عن الحركة ، وذلك حين تبتلع عجلاتها وتجعل دورانها عبثاً لا طائل وراءه . ولطالما وجدنا فى هذه الحالات عوناً من رجال القوافل إذ كانوا يسارعون إلى تلبية رجائنا فيرفعون السيارة ويدفعونها لتعاود سيرها .

لم تكن هذه المعونة تقتضى أكثرَ الأمر غير فترة وجيزة لا يكاد سائقنا ورجال القوافل يتبادلون أثناءها حديثاً ، لكنها كانت تطول حين يغوص بطن السيارة مع العجلات فى الرمل الناعم وحين يتعذَّر لذلك رفع السيارة إلا بتكرير الجهد . فإذا استراح القوم هنيهة تبادلوا الحديث ترويحاً عن أنفسهم . وكان الحديث كله يدور حول الحج والقادمين له . سأل السائق أحدهم عن قافلته فأجاب أنهم من الجاوة ، وأن زميلا له يسير بقافلة من أهل

فلسطين . أما الذين أعانونا من السائرين رجالا فقد بدا على وجه أحدهم أنه صينى ، ولم نستطع أن نعرف جنسية آخر ، لا من سحنته ، ولا من لهجة حديثه . وكذلك كانت هذه الجموع المُحْرِمة كلها ، المتوجهة كلها حاجّة بيت الله ، تجمع بين المسلمين من مختلف أقطار الأرض ممن استطاعوا إلى الحج سبيلا ، فجاءوا يحدوهم إيمان بالله تذوب دونه المتاعب وتصبح المشاقّ فى سبيله يسراً ومثوبة . ومن عليا السماوات أرسل القمر على هؤلاء السعداء بأداء الفريضة ، فما ينفكون ينادون ربّهم لبّيك لبّيك ، أشعةً رطبة ندّية تهون على الدواب السير وتبعث إلى نفوس المشاة فى إحرامهم أشعة أعظم منها ضياء ؛ تلك أشعة الأمل الصادق فى وجه الله وفى مثوبته وغفرانه ، أمل يتردّد فيما يتبادلونه من حديث الطواف والسعى والصلاة فى الحرم والشرب من ماء زمزم .

طبع هذا المنظر أعمق الأثر فى نفسى . فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو فى ربها الرجاء الأسمى . وهم جميعًا سواسية فى اتجاههم ، سواسية فى إيمانهم ، سواسية فى تفكيرهم . وهم جميعًا قد نسوا كل شىء إلا هذه الغاية الروحيّة السامية التى تندفع نحوها جسومهم ، وتطير إليها جوانحهم . وتزداد امتلاء بها أفئدتهم وقلوبهم . كلما ازدادوا قربًا من مهبط الوحى ومن بيت الله ، ليس يذكر أحدهم ما له من ثروة أو جاه أو ولد وإنما يذكر أنه وهؤلاء المسافرين معه إخوة فى الله ، وأنهم جميعًا قد أتوا قاصدين بيته ، ملبين داعيه ، ليشهدوه على أنفسهم ، وليطّهروا بين يديه مما قدمت أيديهم ، وليبدأوا بذلك حياة جديدة يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، ويُحسنون كما أحسن الله إليهم ، ولا يبغون الفساد فى الأرض . لهذا جاءوا من كل فج عميق ، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شىء إلا الله ، ولهذا أحرموا آية إخائهم ومساواتهم ، إيذانًا بأن أقربهم إلى الله أتقاهم ، ومَظْهَراً لميلادهم الروحىّ الجديد ، ليتخذوا من هذا الميلاد عُدّتهم لحياة جديدة ؛ ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم . وهم يعبّرون عن هذا الشعور

بالتلبية تنفرج عنها شفاههم فى حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته ، إنه يغفر الذنوب جميعاً . لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وبلغ من عمق هذا الأثر فى نفسى أن ازددت نسياناً لنفسى وفناء فى الله وفى إخوتى هؤلاء وقد قصدنا جميعاً وجهه مخلصين له الدين حنفاء . نعم ! نحن جميعاً إخوة ، وأقربنا إلى الله أشدّنا بهذه الأخوّة شعوراً . فأنا المصرىُّ أخ لهذا العربى ولهذا الجاوىّ ولهذا الصينىِّ وللمؤمنين جميعاً رجالاً ونساء شباناً وشيباً وأطفالا . وأنا الذى نلت حظّاً من العلم أخ فى الإيمان لمن نال من العلم أضعاف ما نلت ، أخ لمن لم ينل من العلم أى حظ ، أخ للبائس والمحروم إخائى للغنى وصاحب الجاه والسلطان . والبائس والمحروم من الجاه والسلطان والعلم أدنى إلى قلبى لأنهم أحوج إلى محبتى وإخائى . ذلك وحى هذه الساعة الفذة من ساعات حياتى ، والتى اتصلت فيها لأول مرة بمكان خطتْ فيه قدما محمد النبى العربى ، أكبر من دعا إلى المحبة والإخاء ، وأكبر من دعا إلى السعى والجهاد .

وفاض بى هذا الشعور فتندّت عينى وخفق قلبى وانفرجت شفتاى عن آى الحمد والشكر : لبّيك اللهم لبيك لبيك . . وسمعتْ أذناى الأودية والجبال والقوافل السارية بينها جميعاً يدوىَ فيها هذا النداء ، فازداد شعورى فيضاً ، وقلبى خفقاناً ، وازددت لله شكراً وبه إيماناً .

وقفت بنا السيارة عند بَحْرة . وبحرة هى المحلة الثانية فى طريق مكة . وهى تلفت النظر بالأضواء الكثيرة البيضاء المنتشرة فيها دلالة استعداد مقاهيها البدوية لاستقبال القوافل بها . ذلك أن قوافل الإبل تقطع الطريق بين جدة ومكة عندها تقضى ساعات الراحة بالنهار أو الليل فيها . أما السيارات فتجتازها كما تجتاز أم السَّلَم بعد وقفة عند مخفر الشرطة يطلع رجاله أثناءها على (الكوشان) وقد لا يأبى بعض راكبى السيارات أن يتناولوا فنجاناً من الشاى بها .

آخر محلة قبل مكة الشُّميسى . وكنت أعرف من قبل أن الشميسى اليوم هى الُحديبية على عهد رسول الله . وكنت لذلك أرجو أن أقف عندها لأتبيّن مواقع المسلمين الذين جاءوا حاجّين فصدتهم قريش ، وكادت الحرب تنشب بينها وبينهم لولا حكمة الرسول وأناته وجنوحه إلى السلم وحسن سياسته مما انتهى بينه وبين أهل مكة إلى عهد الحديبية وإلى إقرار قريش أن يزور المسلمون مكة معتمرين عامهم المقبل . ولكن أنّى لى أن أنزل المكان والليل قد انتصف وقد هدّنا الجهد وشاقنا الوصول إلى مكة ! . ولم أطلب إلى السائق أن يقف ، ولم أزد على أن سألته عما بقى بيننا وبين أمّ القرى . وظل هو فى انطلاقه يسرع كلما ساعفه الطريق ، ويبطئ أو يقف إذا أبطأه غوص العجلات فى الرمال أو وقفه .

وجعلت فى السويعة الباقية على دخولنا مكة أرسم فى ذهنى صورة أمّ القرى كما عهدتها على الخرائط . لكن القمر لم يجلُ أمامى الصورة التى خِلتُ . ولو أن الشمس كانت ساطعة لما زادت الصورة أمامى جلاء . فكيف يحيط النظر المحدود بما حوله من وهاد وجبال بكل ما هو مرسوم على الخريطة من مجموع هذه الوهاد والجبال ! . وكذلك تخطت السيارة بابًا فسيحًا قيل إنه باب مكة ، ووقعت العين على مبان قيل إنها مبانيها ، فلم نجد فى شىء من ذلك ما يلفت النظر إليه وإن أيقنا أننا صرنا فى حدود مناسك الله .

وكان دخولنا مكة منتصف الليل . دخلناها متعبّين مما مر بنا فى يومنا ويوم أمس وكانت ساعتئذ متّشحة برداء الليل ومولّيات ضوء القمر . فازدادت قداسة ومهابة . والسيارة تجرى فى طريق لا ينيرها غير هذه البقية من ضوء ساهر السماوات . وإنا لكذلك إذ نجمت أنوار كثيرة من الكهرباء لدار عند منعطف من الطريق ؛ تلك الدار بيت وزير المالية . وتخطينا هذه الأنوار إلى بقية ضوء القمر حتى كنا أمام أضواء ناصعة لمصابيح معلقة فى مكان وقفت السيارة عنده ؛ ذلك مقهى من مقاهى مكة . ونادى صاحبى من السيارة : يا شيخ إبراهيم ، فجاء المطوف وصحبنا إلى بيت مضيفنا أمين العاصمة الشيخ

عباس قطان حيث كانت تسطع أنوار الكهرباء سطوعها عند بيت وزير المالية .

كان الرجل فى انتظارنا . فلما صحبنا إلى الطابق الأول من داره أبلغنا تحية وزير المالية وسؤاله المتكرر عنا منذ تركنا جدة . وجىء بالشاى فشربنا ، وبالقهوة فتناولناها رغم انقضاء هزيع من الليل . وسألنى الرجل : أأوثر أداء شعائر العمرة لفورى أم أرجئها للصباح كيما أنال بعض الراحة من مشقة السفر ؟ أما أنا فآثرت الأداء ولم تمل نفسى إلى الإرجاء . ولعله الهوى إلى بيت الله وإلى حرمه وإلى الصفا والمروة حيث سعت هاجر المصرية سبعاً تلتمس الماء لابنها إسماعيل هو الذى دفعنى كى أسارع إلى أداء هذه الشعائر رغم الجهد والمشقة .وسألت : أيوجد إلى إتمام الطواف والسعى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل سبيل ، فقيل لى : إن الحرم مفتوح ليل نهار ، وإن الناس يطوفون ويسعون فى كل ساعة منهما . وخرجت فى لباس إحرامى مع المطوف وأقلتنا السيارة التى جاءت بنا من جدة إلى باب الحرم فى دقيقة أو نحوها.

وما لبثت حين تخطَّيت الباب والمكان المسقوف من المسجد بعده حتى تبدت لى الكعبة قائمة وسط المسجد وقد انسدل على جدرانها لباسها الأسود المطرز بوشى الذهب . تبدّت لى دون أن يلفتنى أحد إليها . وتبدّت وكأنى عرفتها وطفت بها قبل ذلك مرّات . ومالى لا أعرفها وقد رأيت كسوتها يطاف بها فى القاهرة منذ طفولتى ، وقد تبعت هذه الكسوة مرات عدة فى سنوات متعاقبة حين كانت تنقل من القلعة إلى بيت القاضى مارة بالمشهد الحسينى وسط الجموع التى كانت تسير مثلى وراءها فى هذا المشهد الدينى الحافل الرهيب !

تبدت لى الكعبة قائمة وسط المسجد ، فشدّ إليها بصرى ، وطفر نحوها قلبى ، ولم يجد فؤادى عنها منصرفاً . ولقد شعرت لمرآها بهزة تملأ كل وجودى وتحركت قدماى نحوها وكلى الخشوع والرهبة ، وقلت إذ وقع نظرى عليها ما ألقى المطوِّف علينا أن نقوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حيِّنا ربنا بالسلام ، فزادنى تحرك شفتى بهذه الألفاظ مهابة ورهبة . وأراد مطوفى ونحن

نتخطى إليها أن يحدثنى فى تاريخ المسجد وأبوابه وما أضيف إليه من عهد الرسول ، ثم أمسك حين لم يجد منى إقبالا على سماعه . وكيف لى فى هذه الساعة بالاستماع إلى حديث وقد ملك البيت على نفسى وجذبنى لأسرع إليه فاطوف به وأذكر الله عنده .

وارتسمت صورة البيت أمام بصيرتى منذ أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده مثابةً للناس وأمناً يقيمون الصلاة ويذكرون الله عنده . وبلغت باباً قائما وسط صحن المسجد . قال مطوِّفى : إنه موضع بابه فى عهد الرسول ؛ فاجلتُ طرفى بين هذا الباب والبيت العتيق . وذكرت ما حدث قبل مبعث محمد حين كانت قريش تجدد بناء الكعبة ثم اختلفت قبائلها أيها يضع الحجر الأسود مكانه ، وبلغ منها الخلاف أن كادت الحرب الأهلية تنشب بينها ، ثم أشار عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى أن يجعلوا الحكم فى خلافهم أول من يدخل من باب الصفا ، وكان محمد أول من دخل منه فارتضوا حكمه ، فجعل الحجر على ثوب رفعه رؤساء القبائل جميعاً من أطرافه ثم أخذه هو فوضعه مكانه . كان البيت يومئذ كما هو اليوم ، إلا أن كسوته لم تكن سوداء مطرّزة بوشى الذهب . أما المسجد فكان ضيقاً لا يبلغ العشر مما هو اليوم . وهانذا أتقدم نحو البيت الذى أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده ، والذى وضع محمد قبل مبعثه حجره الأسود فى مكانه ؛ والذى طاف به الأنبياء وطاف به الملوك والأمراء على كر الدهور وهم فى مثل ما أنا فيه من خشوع ومهابة ، وهم سواسية أمام الله مع من يرعونهم من عباد الله ، وقلوبهم تفيض ندماً وتوبة واستغفارا ، والذى طاف به ملايين المسلمين ، وربما كان أشدهم فقراً من هو أكرم عند الله من هؤلاء الملوك والأمراء ، لأنه أتقى منهم وأعظم بالله إيمانا . هانذا أتقدم اليوم نحو البيت أطوف به طواف العمرة وقد اجتمع هذا الماضى كله المهابة والجلال أمام بصيرتى ، فزادنى شعوراً بما بينى وبين الذين أقاموا قواعد البيت والذين تطوّفوا به من صلة يَمَّحى أمامها الزمان والمكان وتتبدى من خلالها وحدة الكون التى لا تعرف الزمان ولا المكان .

وسرت إلى جانب المطوّف مأخوذاً ، حتى إذا بلغت الكعبة اندمجت فى المئين الذين يطوفون بها وهم مثلى فى لباس الإحرام . وأعلنت نية الطواف ببيت الله المكرم سبعة أشواط طواف العمرة . وكان المطوف قد سبقنى إلى تلاوة صيغة النية ، فلما حاذيت الركن اليمانى وقف المطوف هنيهة فوقفت لوقوفه وقلت على أثره : الله أكبر الله أكبر ولله الحمد . واندفعت فى حماسة أسير مع السائرين وأعيد بعد المطوف قوله تعالى :

« رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنيا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَة حَسَنةً وقِنَا عَذَاب النَّارِ »

ثم وقفت كما وقف قُبالة الحجر الأسود لأقول كرة أخرى : الله أكبر الله أكبر ولله الحمد . واندفعت بعد ذلك أتم الشوط الأول وأنا أتلو فى حماسة صادقة أدعية الاستغفار والتوبة التى يلقى المطوف علىّ تلاوتها . وبلغت الركن اليمانى فوقف المطوف ووقفت ورفعت مثله اليد اليمنى وكبّرت كما كبّر وتلوت :

« رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار »

وحاذينا الحجر الأسود فرفعنا أيماننا وكبّرنا ثانية ، واندفعت أستغفر وأطلب إلى الله الهداية على النحو الذى يلقى إلىّ وإلى غيرى من الطائفين . وكذلك كنت أفعل كلما حاذيت الركن اليمانى أو الحجر الأسود . وأتممت الأشواط السبعة وأنا أكبر الله وأحمده وأدعوه وأستغفره ، وأنا مأخوذ بجلال هذا البيت العتيق ممتلئ النفس خشوعاً أمام تاريخه الروحى الرهيب ، يفيض قلبى إيماناً بالله الذى جمع فى هذه البقعة الضيّقة من الأرض كل هذا الجلال وكل هذه المهابة . والمئون من حولى يطوفون كما أطوف ، ويتلون من الأدعية ما أتلو ، وإن لم يذكر أحدهم ما أذكر من أمر إبراهيم وإسماعيل ومن تجديد بناء البيت قبيل مبعث محمد ومن طوافه به فى عمرة القضاء وحجّة الوداع .

ودلفت بعد الأشواط السبعة إلى مقام إبراهيم أصلى فيه ركعتين . ومقام إبراهيم يقابل باب الكعبة ويقابل الحجر الأسود وقد قام إلى جانب باب عمده وعقده من الرخام . والذين يطيلون المقام عنده قليلون ؛ لذلك أتممت عنده ركعتين واستغفرت ربى لى ولأهلى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات

ثم انتقلت إلى حِجْر إسماعيل . والحجر يقع قُبَالة جدار البيت الموازى للجدار الممتد بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، ويحيط به سور فى شكل نصف دائرة من الرخام . والمصلون فيه يزحم بعضهم بعضاً حتى لا يكاد الإنسان يجد بينهم مكاناً ؛ وذلك لما يذكر المؤرّخون من أن الحجر يقع داخل رقعة الكعبة كما أقام إبراهيم وإسماعيل قواعدها ، فثواب الصلاة فيه كثواب الصلاة داخل بيت الله . وأقحمت نفسى بين اثنين يصلّيان ورفعت يدى أنوى الصلاة ، إذ وقع بصرى على رجال أشداء أقاموا فى إحرامهم ورفعوا أيديهم إلى أعلى السجف من أستار الكعبة فتعلّقوا بها متشبثين لا يتركونها وقد ألقوا برءوسهم إلى وراء ، فشخصت أبصارهم إلى السماء تستغفر الغفور الرحيم . وذكرت إذ رأيتهم ما كان العرب يفعلونه من ذلك قبل الإسلام ، فيكون ذلك مجيراً لهم من عدوّهم ؛ وذكرت يوم الفتح حين عفا محمد عن أهل مكة جميعاً إلا أشخاصاً بأعيانهم أمر أن يؤخذوا وإن وجدوا متعلّقين بأستار الكعبة . وأقمت هنيهةً أنظر إلى هؤلاء المتعلقين أسائل نفسى عما صنعوا ليكون ذلك موقفهم منه ، وأنا مُعْجَبٌ بإيمانهم إذ لا يجدون ملجأ من الله إلا إليه ، ولا يجدون ملجأ إليه خيراً من التعلّق بأستار بيته المحرم . ونويت الصلاة وأتممتها ، ورفعت طرفى فألفيتهم ما يزالون فى تعلقهم بأستار البيت ، وما تزال أبصارهم شاخصة إلى السماء تلتمس من رب البيت المغفرة . وأقمت مكانى فى الحجر فإذا مَن حولى فيه لا يكاد أحدهم يتركه حتى يحلّ غيره محله ، وكأنما نسوا أن الليل انقضى ثلثاه أو أكثر من ثلثيه . وبقيت زمناً فى مثل نسيانهم مأخوذاً بما حولى مقدّساً إياه ، ملقياً وراء ظهرى ما عوّدنا التفكير الحديث من تعلق بالحاضر المحسوس وحده ، ومن مبالغة فى هذا التعلق إلى إنكار ما وراء المحسوس من معنى ينتظم الوجود ويسمو على الزمان والمكان . وزادنى موقفى توجُّهاً إلى الله ، فدعوته راجياً أن يستجيب ، واستلهمته الهدى إلى الحق والخير والفضل ، وتبت إليه من الآثام ، وأشهدته على نفسى إنه هو رب التقوى ورب المغفرة .

وفاض بى هذا الشعور فصرت من دعاء ربى إلى التسبيح بحمده والتقديس

له ، وإلى إكبار هذه الأخوة التى تصل بينى وبين المؤمنين به جميعاً فى مختلف أقطار الأرض ، أخوّة شعارها السلام ، ودعامتها السلام ، وغايتها السلام .
وظللت كذلك حتى جاء المطوّف ينبهنى إلى ضرورة مغادرتنا المسجد لنسعى بين الصفا والمروة كيما تتم شعائر العمرة . وما كنت أحسبنى مطيعاً إيّاه لولا حرصى على إتمام هذه الشعائر . وخرجنا من المسجد نبتغى المسعى ، وسرت إلى جانبه والنفس ممتلئة مهابة وتقديساً للواجب الذى أقوم به ويقوم به معى عشرات الألوف من إخوانى المسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم ، والذهن شَغِلٌ لذلك عن إطالة التنقيب فيما ينطوى عليه اجتماع المسلمين كل عام فى هذه البقعة المباركة منذ مئات السنين من غايات روحية واجتماعية وسياسية سامية .
ولعل ما أصابنى من الجهد فى اليومين الأخيرين فمنعنى حتى من السكينة والنوم ، ولعل مجهود الانتقال توًّا بعد ذلك إلى مكة ودخولها فى ساعة متأخرة من الليل ، ثم لعل المجهود الروحى الذى اقتضانيه الطواف ، ولعل هذا الجهد والمجهود قد زادا فى توجّهى الآلىّ وراء المطوف لإتمام شعائر العمرة . وكيف لى أن أصنع غير هذا وقدماى تسيران فى مكان لمّا تعهداه وإن ألفيته مرتسماً فى نفسى وكأن لى به كل العهد من قبل أن أولد . أم أن هذا العهد كان مبعث التقديس الذى امتلأت به نفسى لأنه ميراث الأجيال التى سلفت من أهلى وآبائى ؟. نعم ! لعل هذا أدنى إلى الحق ؛ فلقد سار هاهنا آبائى وأجدادى وأمهاتى وجداتى حقبةً بعد حقبة وجيلا بعد جيل ، ولقد طافوا جميعاً بالبيت كما طفت ، وسعوا كما أريد أن أسعى ، وتلوا بعد المطوف ما تلوت وما سأتلو . ولقد رأيت الكثيرين منهم وشاركت منذ طفولتى فى الاحتفال بخروجهم إلى الحج وعودتهم منه احتفالا كانت علائم الغبطة ترتسم أثناءها على أسارير الذين يودعون مَنْ حج ويلقون من عاد من هؤلاء الآباء والأجداد . فلا جرم قد انطبع فى نفسى هذا الميراث المتنقّل على الأجيال وجعلنى أخطو خلال المسجد وإلى المسعى بقدم مطمئنة كما أخطو فى بيتى وبيت أبى وأهلى ، ثم كان لهذا الميراث التليد من عمق الأثر فى نفسى ما زادنى حرصاً على الدقة فى أداء شعائره .

خرجنا من المسجد وأقلتنا السيارة إلى المسعى ، ثم مال بنا المطوف إلى ربوة الصفا وتخطى بنانحو درجها خلال الذين سبقونا إلى السعى محرمين . وتخطينا خلال هذه المئين من الناس يسير بعضهم فُرادَى ويسير آخرون جماعات متشابكة الأيدى وقد ارتفعت فى جوف الليل أصواتهم جميعًا مستغفرين فى ضراعة وإنابة . وعلونا بعض درج الصفا ثم استقبلنا المَسعى ورفعنا أيدينا وأعلنّا نيّتنا السعى سبعاً بين الصفا والمروة سعى العمرة ، ثم هبطنا الدرج وسرنا ونحن نتلو كما يتلو المطوف :

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ »

وانتقلنا من الصفا إلى المروة ونحن ندعو بما يدعو به مطوفنا ونستغفر كما يستغفر ، والمئون من الساعين يدعون كذلك ويستغفرون . وبلغنا المروة واقتحمنا صفوف الساعين إلى درجها ، واستقبلنا المسعى وسعينا وكبّرنا وعدنا إلى الصفا ندعو ونستغفر ، والناس من حولنا يصنعون صنيعنا يدعون ويستغفرون . ولقد كنت تسمعهم رافعى أصواتهم فى لهجات مختلفة منها البدوىّ النجدىّ الذى يعلو بنفسه عن أن يتخذ من مطوِّف إمامًا ، ومنها ما تشوبه عجمة تدل على أن العربية ليست لسان أصحابه الأصيل ، ومنها المتضرع فى انكسار وخشية ، ومنها هذا البدوىّ الذى لا يعرف الخضوع حتى فى خطابه ذا الجلال والإكرام . فلما أتممت أشواط السعى السبعة وقف بى المطوّف عند حلاق فى حانوت من الحوانيت التى تزحم المسعى قصّ لى بعض شعرات من جانب رأسى الأيمن وبارك علىّ أن أتممت عمرتى . وبذلك آن لى أن أعود إلى منزلى وأن أحُل إحرامى إحلال التمتع ، كيما أعود إليه بعد يومين حين أؤدى فريضة الحج الأكبر .

وأويت إلى مضجعى فى الثلث الأخير من الليل ألتمس فيه الراحة إن لم أسعد فيه بالنوم . وأطبقت أجفانى ، وذهبت على عادتى أستعيد ما حدث

منذ الصباح . فإذا بى لا أذكر منه إلا غبطتى بالطواف والسعى وتمام العمرة ، وإذا بى أشعر بيد محسنة يسرى إلىّ من مسها جسمى سعادة لم أعرف من قبلُ سعادة مثلها ؛ سعادة تنسينى كل شىء إلا ما كنت فيه من توجه إلى الله بالتوبة والاستغفار ، ومن رجاء فى أن يتقبّل توبتى واستغفارى . وانفرجت شفتاى فى ظلمة الليل عن ابتسامة طمأنينة ورضا استراح إليهما وجودى كله . وبقيت فى غبطتى بهما مسلمًا كل تفكيرى وإحساسى وعقلى وقلبى لمشيئة الله التوّاب الغفور الرحيم . ودخلت بهذه الطمأنينة فى عالم النوم ممتلئ النفس رجاء وأملا ، صادق الإحساس أن قد زالت عنى أوزار الماضى وأنّنى أصبحت قريبًا من ربى . ونمت سويعات استيقظت على أثرها وقد زالت عن صدرى أحمال لم أدر ما هى . وأغرتنى بكرة الصباح بالنزول إلى مكة أجوس خلالها ؛ لكنى لم أجد دليلا يرشدنى فآثرت أن أنتظر مُضيفى وأن أنتظر مطوِّفى ليرسما لى خطة يومى ويعاونانى فى إنفاذها .

وأتممت صلاة الإصباح ، ورحت أنتقل فى حُجَر ضيافتى أتمشى فيها طولا وعرضًا . وأستوحى ذاكرتى صورة هذه الدار الفخمة التى نزلت بها ، والطريق التى أدّت بى أثناء مكة إليها ، فلا تسعفنى الذاكرة بنافع . وما عسى أن تسعفنى الذاكرة به وقد تخطيت أمّ القرى بليل فلم أر من الطرق التى اجتزتها إلا القليل ، ولقد اجتزنا إلى دار مضيفنا أزقة ضيقة لم أتبين منها شيئًا . وبرزت السيارة من أحد هذه الأزقة إلى فناء فسيح بالقياس إليها هو أشبه الأشياء بصحن دار كبيرة تحيط به جدرانها الأربعة ، ويخرج منه زُقاقان غير الذى برزت السيارة منه . ويضىء هذا الفناء نور كهربى ينحدر من مصباحين معلقين على ناحيتين من جدرانه . ومن هذا الفناء وقفت السيارة أمام دار يتخطى النظر بابها إلى دهليز طويل تضيئه الكهرباء . ونزلنا وصَعدت بنظرى إلى باب الدار فألفيته رفيعًا معقودًا أعلاه بالحجر ، ويصعد الإنسان إليه بضع درجات تعلو به وبالبيت كله عن الطريق . وأقبل علينا حين وقفت السيارة رجل تطوّق ثغره ابتسامة رقيقة ، وصافحنا بشوق ومودّة . وسألنا عن سبب تأخرنا وما نكون قد لقينا

من مشقة الطريق ، هذا مُضيفنا الشيخ عباس قطان أمين العاصمة صاحب هذه الدار التى تبدو الفخامة على ظاهرها . لقد أقام بداره ينتظرنا ، فلما استقبلنا وتلطف بنا ما تلطف أنبأنى أن الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية قد سأله بالتليفون غير مرة عن مقدمنا بعد أن علموا من جدة أننا نزلنا من الباخرة إليها وغادرناها إلى مكة . وصعد وإيانا إلى الطابق الأول من الدار على درج أعاد إلى ذاكرتى منازل إيطاليا ؛ فهو محصور بين جدارين يصعدان إلى السقف ، فإذا استدار الإنسان إلى يمينه و إلى يساره عند منتصف الطابق ألفى نفسه من جديد بين جدارين يصعد الدرج أثناءهما إلى غرف الطابق الأول . ودخلنا إلى بهو عظيم فيه ومعنا مضيفنا ومطوّفنا . ولم نلبث حين جلسنا على مقاعد من طراز هذا العصر الحديث حتى جيء لنا بالشاى — أو الشاهى بلغة أهل مكة — فكان لنا نعم الدفء بعد برد الطريق . وتحدّثنا إلى مضيفنا وتحدّث إلينا ، وسرعان ما ذكرنى أنى تقابلت وإياه بالقاهرة وأننا تمنّينا لو نلتقى بمكة فى هذه الدار . وبعد قليل قمنا إلى المسجد الحرام فأتممنا طواف العمرة وسعيها .

هذا ما وعت الذاكرة مما رأيت بمكة حين دخلتها أثناء الليل . وهأنذا الآن أنتقل من غرفة النوم إلى البهو وأعود من البهو إليها ، وقد اتصلت بها دورة المياه فاصلة بينها وبين غرفة الطعام . لشدّ ما يثير هذا البهو وهذه الغرف فى النفس صورة البناء فى العهود العربية القديمة ! ولشدّ ما يثير أثاثها معانى النعمة والترف فى تلك العهود ! فهذا البهو الفسيح تكاد مساحته تبلغ ستة أمتار فى العرض وعشرة فى الطول ، تضيئه فى النهار وتهويه طيلة اليوم نوافذ تمتد من أقصى جدار عرض البهو إلى أقصاه ؛ وكذلك الأمر فى غرفة النوم المحاذية له . وهما الآن يضاءان أثناء الليل كما تضاء الدار كلها بالكهرباء ، تولدها « ماكينة » خاصة بالدار ؛ لأن مكة لا تزال إلى اليوم محرومة من نور الكهرباء ، ولايضاء فيها على حساب الدولة إلا الحرم الشريف . وإضاءة الدار بالكهرباء لا ترجع إلى أيام بنيت ، ولذلك يتدلى من سقف غرفها نجف فيه لعشرات

الشموع منازل مختلفة الألوان . والسجاجيد التى تفرش أرض البهو وغرف النوم ثمينة قيمة جميلة الرَّقْم كثيفة الخَمْل . وإحدى غرفتى النوم كبيرة تصلح لأن تكون بهواً عند الحاجة . والجدار المقابل لبابها نوافذ كله كجدار البهو الكبير . وقد أقيم إلى جانب هذا الجدار ، كما أقيم على الجدار العمودى عليه ، مصطبة متصلة فرشت بالمراتب المغطاة بأغطية موشاة بالقصب ومتكآت مغطاة بوشى القصب كذلك ، تريح الجالس عليها والمُتكئ إليها غاية الراحة . وفى الجدار الرابع دولاب يبدو منه بابه المطعم بالسن تطعيماً دقيقاً كتطعيم سقف الغرفة . أما غرفة النوم الأخرى فقد أعدت للنوم ولا تصلح إلا له ؛ وهى متصلة بهذه الغرفة التى تصلح لأن تكون بهواً ، بل هى مدخلها ، مفروشة كفرشها ؛ وبها (بوريه) مطعم كله بالصدف المختلف النقوش والألوان والذى تبهرك حقًّا دقته . فأما غرفة الطعام فيقابل بابها باب الغرفة الأخيرة ، وتفصل بينهما دورة مياه لاتزال على الطراز العتيق ، يتلوها درج يهبط الإنسان على سُلَّمتيه ليرقى مثلهما قبل أن يدخل هذه الغرفة . وهى أكثر من البهو ومن غرف النوم بساطة فى أثاثها ؛ لأنه أدنى إلى طراز عشرين أو ثلاثين سنة مضت من عصرنا الحديث منه إلى أثاث العرب أيام ترفهم ، مع اتساق بنائها مع بناء الغرف الأخرى من حيث النوافذ التى تتصل من أقصى الجدار إلى أقصاه ، والسقف المطعم بالصدف أو المموّه بما يشبهه ، والمصطبة القائمة إلى جانب النوافذ .

كان النهار ضحى حين جاء المطوف يسألنى عما أريد . وهبطنا المسجد الحرام لأرى منه فى وضح النهار ما أخفاه الليل وما شغلنى الطواف عنه . والمسجد الحرام يشبه صحن الأزهر من حيث إنه فناء مكشوف تحيط به من جوانبه الأربعة قباب قائمة على عمد كالقباب المحيطة بصحن الأزهر ، وتنتهى إلى جدرانه . لكن فناء المسجد الحرام فسيح جدًّا يزيد على بضع عشرات من ألوف الأمتار المربعة ، وهو ليس مفروشاً كله بالبلاط كصحن الأزهر ، بل مقسم أقساماً تتعاقب بعضها إثر بعض ، بعضها مفروش بالبلاط ،

وبعضها مفروش بالحصباء ، على تعبير أهل مكة . وفى وسط هذا الفناء الفسيح تقوم الكعبة بيت الله الحرام وقبلة المسلمين جميعًا فى صلواتهم . ويتصل بالكعبة حِجْر إسماعيل ، ويقوم على مقربة منها مقام إبراهيم . ومن حول الكعبة مبلغات أربع — ومكبريّات أربع على تعبير المكيين — لكل مذهب من المذاهب الأربعة واحدة منها . وعلى مقربة من هذه المبلغات ومن الحجر والمقام والبيت . يقوم بناء فوق بئر زمزم . وقد شيّدت هذه المبانى القائمة وسط فناء المسجد من أحجار متينة صلبة جىء بها من الجبال المجاورة لمكة ، كما جىء من هذه الجبال بالأحجار التى شيدت منها عمد المسجد وقبابه وما وراء العمد والقباب من جدران ومبان يسمونها مدارس لأنها كانت كذلك بالفعل يوم شيِّدت ؛ لكن الكثير منها يتخذ اليوم مأوى لبعض الطوائف ولا يتخذ أماكن للدراسة . وقباب المسجد وجدرانه بسيطة وفيها مع ذلك فن يتفق مع هذه البساطة . أما أبواب المسجد المؤدية إلى الطرق المحيطة به فأقل من قبابه فنًّا وأكثر منها بساطة خلا باب علىّ . وجدران المسجد من الخارج لا فنّ فيها ، بل تزورّ عين رجل الفن عن بعض جوانبها ازوراراً .

وخرجنا من المسجد إلى المسعى . وهو يقع على مقربة من باب الصفا . وكان المسعى إلى صدر الإسلام طريقًا مستقيما ينقص طوله عن الميلين ، ويصل بين ربوتى الصفا والمروة ، وكان متصلا بما حوله من فسيح الصحراء تطل عليه الجبال المحيطة بمكة ؛ أما اليوم ومنذ بضع مئات من السنين فقد أحيط بالمبانى والعمارة التى طغت عليه ، وقد أحيل كل من الربوتين إلى درج أقيمت حوله جدران تحجب بين الساعين وفسحة الجو وبهاء السماء . وقد بلغ من طغيان المبانى أن اعوج المسعى اعوجاجاً يحول دون رؤية الصفا من المروة أو المروة من الصفا . وتخترق المسعى طرق تسير فيها الإبل والدواب والعربات والسيارات . وقد كان هذا الطريق إلى سنوات مضت كله الرمال ؛ أما الآن فقد رصف بالحجر رصفًا غير منتظم .

عدت إلى الدار بعد هذه الزيارة القصيرة . فقابلنى مضيفى يخبرنى أن

وزير المالية ينتظرنى بداره قبيل الظهر ، وأن السيارة ستذهب بى وإياه إلى هذا الموعد . وذهبنا نخترق الطرق إلى ظاهر مكة حتى بلغنا غايتنا ونزلنا عند باب الدار . وليس يبالغ من يسمى هذه الدار قصراً ، فهى فسيحة وإن لم يكن لبنائها طراز ينسب إليه ، فخيمة وإن لم يسعد الفن فخامتها بتأنق أو روعة . تخطينا بابها الضيق إلى درج يؤدى إلى ممرّ من ناحية وإلى فضاء به زرع من ناحية أخرى ، واستدرنا فى الممر إلى حجرة تخطيناها إلى دهليز ، فغرفة أخرى ، ثم غرفة ثالثة هى التى كان وزير المالية ينتظرنا بها ، وهى غرفته الخاصة . وأحسبنى لو تركت لأعود وحدى إلى ظاهر الدار من خلال هذه الغرف والممرات لتعذر ذلك علىّ .

والشيخ عبد الله بن السليمان الحمدان رجل بدوىّ نجدىّ بكل معانى البدوية والنجدية ؛ نحيف القوام معتدله ، أسمر البشرة ، حاد النظر ، تلمح فى عينيه ذكاء وغضباً ممتزجين ، يدعو امتزاجهما فى حالة سكونه ودعته إلى مهابته والتفكير فيما وراء نظرته ؛ وهو إلى ذلك حلو الحديث رقيق النبرة مبتسم اللقيا . تبادلنا التحيّات ، ثم ذكرت له ما دار بخاطرى منذ غادرت مصر أن تكون مكة مقرّاً لعصبة الأمم الإسلامية ، كما أن « جنيف » مقر عصبة الأمم الأوربية . ووافقنى هو فى الرأى على أن نمحصه بعد انتهاء فرائض الحج واشتغال الحكومة بها .

وبعد الحديث والقهوة تركت الدار وآثرت أن أقوم بجولة بالسيّارة أجتلى بها صورة من بعض نواحى مكة . وما دمنا بِجَرْوَلَ عند مدخل مكة من ناحية الشميسى — أو من ناحية الحديبية إن شئت — فلأذهب إلى ناحية غير هذه التى دخلت منها حين مجيئى أمس من جدة ، ولأتبع فى تجوالى هوى نفسى وإرشاد مضيفى . فأما هوى نفسى فقد كان إلى فندق مصر التابع لشركة مصر للملاحة البحرية . وهل تهوى النفس شيئاً هواها لما له بالوطن اتصال! . وأما مضيفى فذكر أن على مقربة من فندق مصر فندقاً للحكومة الحجازية ، وأن مدير هذا الفندق هو مواطنى المصرى الشيخ عبد السلام غالى .

وزرت فندق مصر لماماً ، ومررنا بفندق مكة فلم نجد مديره ولم نقف عنده . وفندق مصر دار عربية فخيمة المدخل، حاول مديره أن يدخل إلى دورات مياهه شيئاً من النظام الحديث .

وعدنا إلى المنزل وفى نفسى بعد هذه الجولة صورة مبهمة من مكة ، كل دلالتها أن مكة اليوم هى مكة منذ مئات السنين ، لم يطرأ عليها تقدم إلا فى منازل بعض الأفراد الذين آثرهم الله ببسطة فى الرزق . وهو تقدّم نسبىّ لا صلة بينه وبين تقدّم فن العمارة الحديث .

وحال قرب المسجد من منزل مضيفى دون توغلى بمكة منذ اليوم الأوّل ، كما حال دونه ما أكرمنى به أهل مكة وزوارها من زياراتهم إياى حيث نزلت . وقد تبادلت مع هؤلاء وأولئك أحاديث شتى عن البلاد المقدسة كان لها أثر فى تكوين فكرتى عن العلاقة التى يجب أن تصل بينها وبين العالم الإسلامى .

غدُنا اليوم الثامن من ذى الحجة ، يوم التروية ، ويوم يصعد الحجيج إلى منًى وعرفات لقضاء فريضة الحج . وفى غد أغادر مكة بعد يومين اثنين من مقامى بها قضيت أثناءهما شعائر العمرة ، ولم أر خلالهما من نظامها وحياتها وآثارها شيئاً مذكوراً . فمتى أرى ذلك كله ؟ . . . بعد الفراغ من شعائر الحج . فلأنتظر إذن ، إن الله مع الصابرين .

وقفة عرفات

أصبحت يوم الاثنين الثامن من ذى الحجة ، يوم التروية ، أفكر فى عرفات والذهاب إليها محرمًا والمبيت بها ، وقضاء ما يجب من شعائر الحج فيها والنزول عنها إلى المَشْعَر الحرام بالمُزْدَلِفة ، وإلى الصخرات بمنًى لأتم بعد ذلك طواف الحج حول الكعبة وسعيه بين الصفا والمروة ، فأكون قد قضيت الفرض الخامس من فرائض الدين الحنيف . ولا يفكر الناس اليوم فى التروية ، وهى جلب الماء معهم إلى عرفة ليستقوا منه يوم وقوفهم بها . وهم لا يفكرون فى التروية منذ يسّرت عين زبيدة لهم من الماء ما يريدون .

وشتان بين ما اشتملنى أثناء التفكير فى الإحرام لعرفات من نعيم وغبطة ، وما كنت أخافه قبل مغادرة مصر من أثر الإحرام وقضاء المناسك على صحتى . لقد اشتملنى من فجر ذلك اليوم رضا عن الحياة وعن نفسى ، وشعرت بروحى فرحة وبقلبى مطمئنًا . أقبلت منذ بكرة الصباح أعدُّ لباس الإحرام وما يقتضيه المبيت تحت الخيام ، منشرح الصدر لكل ما أصنع من ذلك ، عميق الإحساس بجلال هذه الفريضة التى يسر الله لى أداءها ، موقنًا أنى سأشهد أثناءها من آيات حكمته فيها ما يزيد كل مؤمن إيمانًا وتثبيتًا . وصوّرت أمام ذهنى هذا الجبل المقدّس وقمّته الفسيحة واجتماع عشرات الألوف من المسلمين فوقه مهللين ملبين متوجهين إلى الله بقلوب طهّرها صدق الإخلاص من ماضى حوباتها ، وهداها الاجتماع المقدّس بإخوانها المؤمنين سبيل الخير ، وفتح أمامها أبواب حياة جديدة تسمو خلالها بفضل إيمانها وصدق توجهها إلى الدرجات العلا من مراتب الإنسانية السامية ، مراتب البررة والمقرّبين والأتقياء الصالحين الذين يخشون الله ولا يخشون غيره ، ولا يخافون فى الحق والخير والبر لومة لائم .

بقيت فى إعداد متاعى إلى ما قُبيل الظهر ، ثم انحدرت من الدار إلى قصر

الملك لموعد ألقى فيه جلالته . وقصر الملك يقع خارج مكة من الناحية الشمالية الشرقية عند مبدأ الطريق الذاهب إلى منًى . وهو قصر بنى حديثًا ليقيم ابن السعود به ما أقام بمكة قبل الحج وبعده . وهو فسيح الجنبات بسيط المظاهر . يجمع بين أبهة الملك وطراز العروبة القريب من البداوة . تلقاك أوّل ما تتخطى بابه حديقة فيها نباتات صغيرة، ثم تتخطى دهاليز فرشت بالحصباء إلى أبهاء بسيطة فى أثاثها وعمارتها على رغم سعتها وكثرة نوافذها . ويقابل القصر جبل زَرُود الواقع على مقربة من حراء، أو جبل النور كما يسمونه اليوم ، ذكراً لنور الوحى الأوّل الذى هبط على النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالغار عند قمّته . وتقوم فوق زَرُود قلعة تحمى مقرّ الملك أثناء مقامه بأمّ القرى . وقد لقيت فى ذهابى إلى قصر الملك وعودتى منه مشقة لم ألقها فى طريق مكة حين تجوّلى بها فى اليوم الذى سبق . فالطريق إلى قصر الملك هو كما قدمت طريق منًى ، وهذا اليوم هو يوم التروية . فيه يصعد الحجيج جميعًا إلى منى و إلى عرفات من هذا الطريق . وأكثرهم يصعدون على الإبل لأنها أيسر نفقة على الأكثرين ، ولأن الصعود عليها أكثر مشقة من الصعود بالسيارات ، وهو لذلك أعظم عند الله أجراً فى رأى طائفة من المسلمين . لذلك امتلأت طرق مكة يومئذ بقوافل الإبل : حملت من ركبوها فى ألوان مختلفة الطراز والوشى من الهوادج والشقادف ، وبعضها يسير إلى جانب بعض إذا انفسح الطريق ، ويتلو بعضها بعضًا فى الطرق الضيّقة . وطرق مكة ضيّقة كلها إلا قليلا ، لذلك كانت السيارة تقف فى الطرق ذات السعة أمام هذه الإبل المتراصّة حتى تفسح لها طريقًا ؛ أمّا فى الطرق الضيقة فكانت تُضطر أحيانًا إلى التراجع لتقف فى مكان يتسع لوقوفها ومرور القافلة بها بعيراً بعد بعير ، وتضطر أحيانًا أخرى إلى الانزواء فى طريق غير طريقها حتى تمر القافلة بها . والقافلة تمر بخطى الإبل المتئدة لا سبيل لها إلى أن تسرع فى هذه الأزقة الملتوية فى ارتفاع وانخفاض . وتمر القافلة وتسير السيارة بضعة أمتار ثم إذا قافلة أو بضعة جمال أخرى تضطرها لتلتمس مكانًا تقف فيه أو زقاقًا

تحتمى به . ولقد اقتضانا خوض هذا البحر اللجىّ من الإبل وسائقيها أضعافًا مضاعفة من الوقت الذى كنا نقطع فيه الطريق لو أننا كنا نسير فى غير يوم التروية أو أيام الحج .

وتناولت طعام الظهيرة ، واتّفقت ومضيفى على أن نستقل السيارة إلى عرفات بعد صلاة العصر . وتطهّرت لإحرام الحج ولبست لباسه بعد أن نويته وصلّيت ركعتين سنته . فلما صليت العصر أقمت أنتظر السيّارة . لكن المغرب اقتربت ولم تكن قد جاءت ؛ وخشى مضيفى أن أضيق بتأخرها ذرعًا . فهبطنا إلى حديقة صغيرة خلف الدار وفى حرمها ، نستمتع بما فيها من خضرة النبات وبهاء الأزهار . وإنا لكذلك إذ بدأ الرذاذ يتساقط . واحتملناه زمنًا فرحين آملين أن ينقطع بعد قليل ؛ لكنه استمر ثم هتن وابلاً لا سبيل معه إلى البقاء فى الحديقة ؛ واحتمينا بإيوان متصل بها ، وجلست بمقعد عند بابه أشهد منه عبث المطر بالزهر والشجر . وفكر بعض الحاضرين فى الترويح عنى بذكر سيول الحجاز التى تنهمر سويعة انهماراً يحسب الإنسان معه أنه لن يكفّ ، ثم إذا السماء أمسكت وعاد إليها صفوها ، وإذا رمال الأرض ابتلعت مياهها ، وإذا الجوّ أكثر صفاء ورقة . والمطر يهتن والبرق يخطف والرعد يقصف والرجاء فى مجىء السيّارة يذوى فى نفسى ، فأسائل مضيفى : أللصعود إلى عرفات فى هذا الوقت سبيل . . . ؟ ويجيبنى مضيفى مطمئنًا : إن الأمر لله ، والحج فرض الله ، ولابد أن ييسر الله للناس فرضه .

وبينا نحن فى حديثنا أمسكت السماء فجأة ، وذهبت الريح بما فيها من سحب ، وصفا الجوّ ، وعادت إلى الثغور ابتسامتها . وأقبل الخادم ينبئنا بأن السيّارة بالباب تنتظر . وركبناها وشققنا بها طرق مكة الضيّقة وهى تسير الهوينى تتخطى الإبل وهوادجها وشقادفها التى قاربت بنا قصر الملك . هنالك انفسح الطريق وعظُم أملنا فى الوصول عما قليل إلى عرفات . على أن السيارة وقفت هنيهة ليملأها سائقها بنزينًا . وفى هذه اللحظة رفعت بصرى إلى السماء فألفيتها صفوًا لم يبق لسحابة فيها أثر ، وألفيت القمر لمّا يكتمل بدراً قد

بعث إلى أرجائها من ضوئه الندى ما زاد فى صفاء صفحتها بهجة ونوراً . وسرّحت الطرف عن يمينى وعن يسارى وفيما أمامى فإذا لجة القمر تغمر سلاسل الجبال القائمة فى هذه الأرجاء جميعاً متتابعة فى اتصال لا يدع للناظر من خلالها فرجة تشف عن شىء مما وراءها . وبدت هذه السلاسل فى لجة الضوء أشباحاً ضخمة رهيبة جديرة بأن تبعث إلى النفس الخشية منها ومما يستكن فيها لولا تجرد النفس فى هذه الآونة من كل خشية إلا خشية الله ، ولولا سمو النفس فوق كل ما فى الحياة من آمال وآلام ومخاوف إلا عن الرجاء فى رضا الله عمن لبّوا نداءه ومن جاءوا من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ليطّوّفوا بيته ويتموا مناسك حجه .

وانطلقت السيارة فى طريق منًى تسايرنا جبال العقبة عن يسارنا وطلائع ثَبِير عن يميننا . وفى لحظة غابت الإبل ولم يبق يزحمنا منها قافلة ولا بعير . ذلك أنا خرجنا عن طريقنا إلى طريق آخر استحدثته الحكومة القائمة وخصّت به السيارات تنفيساً عن القوافل وعن السيارات جميعاً . والقمر فى كبد السماء الندية الزُرقة بضيائه يلقى على الهضاب الممتدة عن يميننا وعن يسارنا ضوءاً يبعثها إلى يقظة الحياة فى هجعة الليل . أما فيما أمامنا فقد غلب ضوء السيارة الباهر ضوء القمر الرطب الندى . وجعلنا نصعد فوق السفوح على هُون ، حتى طالعتنا أضواء كثيرة منتشرة عن يسارنا ؛ تلك أضواء سوق منًى يتأهب أصحابها لإفاضة الناس من عرفات بعد غد إليها . ثم مررنا بعد قليل بضوء أقل من ضوء منًى دلنا على أنا إزاء المزدلفة . وتابعنا التصعيد فى الجبل على هون بين هضاب ورمال انبسطت عنها أشعة اللجين من ساهر السموات . وحاذينا بناء ، ذكر أهل مكة أنه مسجد نِمَرَة ، بدت بعده أضواء قيل إنها سوق عرفات . ثم انطلقت السيارة فإذا بنا أمام سهل فسيح ضربت فيه مثات القباب وألوفها وتلألأت فيه مصابيح النور الأبيض . تلك بطحاء عرفات ، وهنا مكان الحج وملتقى الألوف من المسلمين الذين فرضوه على أنفسهم .

وقفت السيارة ، وسأل مضيفنا عن مضارب خيامنا . ومَنْ لك بالذاكرة

التى تحيط بمكان كل قبة من هذه المضارب التى يخطئها العدُ فى هذه الساعة من الليل ! بل مَنْ لك بهذه الذاكرة فى أشد ساعات النهار وضحاً ! وبدأ الغضب يأخذ من المضيف حين لم يسارع أتباعه إلى إجابة سؤاله . لكن جلال الموقف وعذوبة الهواء وصفوه ورقته هدأت من حدة طبعه . وانفتل شاب من ذويه من السيارة يلتمس منازلنا كى يهدينا إليها ؛ ولم يطل عنا غيابه .

وألفيت الخيمة التى أعدت لنا قد فرشت ببساط من السجاد ، فألقيت عليه فراش النوم ، وخرجت أسرّح البصر فيما حولى . خرجت فى لباس إحرامى خفيفاً فرحاً نشيط النفس ممتلئ الفؤاد حبوراً وجذلا . يا لرقة هذا الهواء وجمال هذا القمر وبهاء هذه الساعة الفذة التى سقطت فيها عن الروح كل الحجب وتجلى فيها أمام البصيرة نور الخالق العظيم ! لبّيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ... أوَلا يجمل بى أن أتقدم بين هذه المضارب لأرى ألوف المحرمين مثلى فأزداد برؤيتهم حبوراً . وأتحدث إليهم فيزيدنى حديثهم جذلا ، وألبى وإياهم فتتجاوب هذه الوهاد بأصداء عشرات الألوف من أصوات الملبين ترتفع على موج النسيم وأشعة القمر إلى عليا السماوات ! .

وأنىَّ لى أن أهتدى إلى مضربى إذا أنا ضللت بين هذه الخيام وليس لى من العلم بالمكان ما لأبناء مكة الذين يؤمّونه كل عام ! . ولكن أيضل ها هنا أحد وها هنا موضع الهدى وملاذ الملبى نداء ربه ، اللاجىء إلى فىء رحمته ! . وتقدمت خطوات إلى موضع توسط الخيام ، فتموّجت أشعة القمر أمام نظرى على رماله . ثم وقفت وأطلت الوقوف ، وبقيت محدّقاً بالسماء : مأخوذاً بصفو أديمها ، شارد اللب فى جلال هذا الكون المحيط بى وعظمته ، أناجيه وقد نضوت عنى زينة الحياة الدنيا فأحس به أبهى جلالا وأجل عظمة ! . كم طالت بى هذه النجوى ! ؟ لا أدرى ! وأرادت قدماى أن تتقدما بى لأتصل بمن أسمع هسيسهم من إخوانى المؤمنين . فتلفتُ أتعرف قبتى كيما أتخذ منها مناراً أهتدى به فى سيرى ، فلم أعرفها بين الخيام القريبة منى . إذ ذاك آثرت

العودة للبحث عنها والاحتماء بها من ضلة الليل ، فلما اهتديت إليها وقفت عند بابها ، ولم تطاوعني نفسي على أن أتخذ منها حجاباً بيني وبين السماء وقمرها الباسم الضياء ، وبيني وبين هذا العالم الروحي العظيم الذي اجتمع ها هنا في هذه البقعة من بقاع الأرض ، والذي يجتمع فيها في هذه الساعة من كل عام ، ناسياً كل شيء من زخرف الدنيا متوجهاً إلى الله أن يتم على الأرض كلمة الهدى ويوطد فيها الحق والعدل والسلام .

وجلست مكاني على سجادة صلاة سحبتها من داخل القبة ، وتركت لتصوري عنانه ، وقد ارتسم كل ما تشتمله السماوات والأرض حولي في دخيلة نفسي . وانتقلت بهذا التصور في هنيهة من بيئة المكان إلى بيئة الزمن ، وطويت القرون القهقرى إلى أكثر من ثلثمائة وألف سنة مضت ، وامتثلت النبيّ العربي محمداً هاهنا فوق عرفات في حجّة وداعه ، مُحْرِماً كإحرامنا ، ملبياً كتلبيتنا ، مستغفراً كاستغفارنا ، خاضعاً لله خضوعنا ، عبداً لله كعبوديتنا له . امتثلت هذا النبي العربي وقد تخطى السنين ، وقد فتح الله له فتحاً مبيناً . وقد أسلم لدينه أهل مكة الذين حاربوه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم ، وقد آن أن يكمل الله للمؤمنين دينهم ويتمّ عليهم نعمته . امتثلته واقفاً في هذا المكان على رأس مائة ألف من المسلمين بعد أن قطع إليه الطريق من يثرب إلى مكة محرماً طوال هذه الطريق ، سائقاً هَدْيه معه ، مقيماً على إحرامه أسبوعين كاملين . ملبياً والمسلمون من ورائه كل نهاره وطرفاً من الليل ، مسلماً كل أمره إلى الله لا إله إلا هو ، إليه يرجع الأمر كله ، وإليه تصير الأمور .

كم أقمت أذّكر فنفعتني الذكرى ؛ ثلثي الليل أو نصفه أو زدت عليه أو نقصت منه ؟! علم ذلك عند ربي . وشعرت بالسكون يمد رواقه حولي ، حتى لم يبق مما كنت أسمع نبأة أو همساً . عند ذلك دخلت إلى قبتي وأطبقت أجفاني ألتمس النوم .

أفنمت حقاً ؟ وكم نمت ؟ كل ما أذكره أنني كنت سعيداً وكنت ممتلئاً

نشاطاً حين طرق أذنى صوت المؤذّن لصلاة الفجر . طرق هذا الصوت أذنى فابتهج له قلبى وطرب له فؤادى طربه لأغنية عذبة ترتلها ملائكة السماوات . وفتحت عينى فرأيت بشائر الضوء تسرى من فرجات القبة . فقمت إلى الماء أتوضأ ، فإذا الحياة تسرى فيما حولى من المضارب ، وإذا الذين يلتمسون الماء لغيرهم ينتشرون ها هنا وهناك ، وإذا النداء للصلاة الأولى تتجاوب أصوات المنادين به فى مختلف أنحاء البطحاء ، وكلهم يلقى فى آذان الخليقة التى بدأت يقظتها : « الصلاة خير من النوم » . وفى نواح مختلفة من البطيح المترامى الأطراف سمعنا الذين قاموا يؤمون مَنْ معهم للصلاة ، ينادون : الله أكبر . وكلما أتم جماعة صلاتهم علت بالتلبية أصواتهم . وأقام الناس على ذلك حتى ذرّ قرن الشمس فوق الجبال إلى ناحية الشرق . عندئذ بدأوا يتسللون من خيامهم يرون بأعين النهار ما لم تسعفهم عين الليل على رؤيته من مكان الحج المقدس . فلما علت الشمس بدأت حياة النهار ضجتّها وتجارتها ، وبدأ الناس يلقون بعضهم بعضاً بالتحية والتبريك ، ثم ينتقلون بحديثهم إلى مألوف ما فى الحياة .

وتجارة الحياة فى عرفات تتصل بالحج وبالصدقات التى تهوى بها أفئدة الحجيج إلى الفقراء والمساكين ممن يطوفون بهم . والحجيج تهوى أفئدتهم إلى إطعام الجائع والبر بالمحروم . لذلك يسير الأعراب بقطعان من الغنم يبيعونها من يذبحونها لساعتهم ويتصدّقون بها على ذوى الحاجة من إخوانهم المؤمنين . ومنهم من جاء لأداء الفريضة من أقصى الأرض وهو لا يجد قوت يومه . وآخرون اتخذوا من البقاع المقدّسة مقاماً ومن الصدقة مرتزقاً . هؤلاء يطوفون بالمضارب يبتغون من ذوى الميسرة بعض ما رزقهم الله ، ثم لا يكفيهم ما ينالونه فيعودون يسألون الناس إلحافاً يستغلون بذلك إحسان من لا يُمسكون أيديهم فى يوم الحج عن الإحسان .

وخرجت من قبتى أتعرّف ما حولى ، وأشهد صنيع الناس يومَهم هذا وقد جاءوا إلى الله حاجّين متجردين . وإنى لأتلفت يمنة ويسرة إذ وقع بصرى على رجل لا شىء فى سيماه يدل على أنه من أبناء الشرق ، بل هو أدنى إلى أن

يكون من أبناء الشمال فى أوربا بطول قامته النحيفة وببشرته البيضاء المشربة حمرة وعينيه الزرقاوين وشعره الأصفر . وأخبرنى بعض أهل مكة ممن حوله أنه هولندى « مسلمانى » يقيم بجاوة ، وأنه جاء يؤدى فريضته . ودلفت إليه وألقيت عليه التحية بالفرنسية ، وتحدثت إليه بها ، فدلتنى لهجته على أنه ليس من أهل هذه اللغة وأن أغلب أمره أن يكون إنكليزيًّا . وسألته عن جنسيته فعلمت أنه أرلندىّ وأنه يقيم « بسَرَوَاك » فى بورنيو ، أكبر الجزر البريطانية فى أرخبيل الملايا ، وأنه أسلم من سنوات خمس ، وأنه جاء ليؤدى الفريضة ، فأقام بجدة سبعة أسابيع حتى أيقن رجال الحكومة العربية من حسن إسلامه وسمحوا له بما يسمح للمسلمين ، دون غيرهم ، من دخول مكة ومن أداء فروض الحج ومناسكه .

واتصل بينى وبينه بالإنكليزية حديث طويل ، ومع ذلك لم تطاوعنى نفسى على سؤاله عن سبب إسلامه . وعلى رغم ذلك أخبرنى أنه فى إقامته بسرواك بين المسلمين منذ أكثر من خمس عشرة سنة لم تطب نفسه بما دون التعمق فى درس حالهم الاجتماعية والأخلاقية ، والبحث ، بوصف كونه أرلنديًّا ، عن الأسباب التى أدت بهم إلى الخضوع لغيرهم . وكانت عقيدتهم الدينية بعض ما عُنى بدراسته . ولم يلبث حين بدأ هذه الدراسة أن شعر بحافز قوىّ يحفزه للإمعان فيها ولقراءة ما كتب فى اللغات المختلفة عنها وللتزيد من ذلك ولطول التفكير فيه . ولقد أخذت بساطة العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه . ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذى نزل على النبى العربى وبحضارة الأخوة والإباء التى يدعو إليها ، ويؤمن بأن الحضارة التى تنشر أوربا اليوم لواءها فى العالم باسم العلم ليست من العلم فى شىء ، وإنما هى اللعنة التى صبَّها الله على العالم ؛ فهذه الحضارة تتلخص عنده فى إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التى تكفل لهم سلامة التفكير وسموّ الغاية ، ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية فتضعف نفوسهم ويذلّوا . وأية صلة بين سعادة الرجل أو المرأة وبين منسوجات « لا نكشير » أو حرائر « ليون » أو عطور « باريس » أو ما إلى

ذلك من مواد الزينة والترف . وهذه مع ذلك هي مظاهر الحضارة الأوربية وهي السبب الحقيقي الذي تغزو أوربا العالم من أجله . إنما الصلة الحقيقية بين هذه المنسوجات والحرائر والعطور ، وبين الأموال التي تريد أوربا استنزافها من الشعوب هي إقناعها كذباً بأن الحضارة في الرداء والترف والزينة . أما الإسلام فيدعو إلى معنى هو أسمى المعاني ، إلى نبذ كل عبودية لغير الله . وإلى الاستهانة بالموت في سبيل الله وإلى البرّ والتقوى وإلى الرحمة والمغفرة . وهو يدعو إلى ذلك كله في بساطة وقوة لا حاجة بهما إلى منسوجات أو حرائر أو عطور ، ولو أن أهل سَرَوَاك وغيرهم من المسلمين أدركوا سر الإسلام إدراكاً عميقاً لهان عندهم ما يعرضه الغرب عليهم ، ولما خضعوا لحكم الغرب ولا ذلّوا لسلطانه ؛ فدينهم يربأ بمن يؤمن به عن الخضوع لغير الله ويجعل الموت في سبيل التخلص من هذا الخضوع موتاً في سبيل الله يُجْزَى صاحبه الجزاء الأوفى .

وأعجبت بحديث صاحبي « المسلماني » أيما إعجاب ، لأنه صادف موضع العقيدة مني ؛ فسألته عما جاء به إلى الحجاز وعن رأيه في حكمة الحج ، وكان جوابه على سؤالي كحديثه الأول حصافة ودقة ، قال : إنما فرض الإسلام الحج ليُشْهِد المسلم الله على نفسه أمام ملأ إخوانه المؤمنين جميعاً أنه نبذ ما اختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار . والله يغفر له ما صدق التوبة ، ليُولَدَ ميلاداً روحياً جديداً يكون بعده خيراً مما كان قبله من علم وبصيرة .

وخشينا أثر الشمس فصرنا نقصد مضاربنا . ولم نبتعد إلا خطوات وإذا صاحبي يدعوني أن أدخل معه إلى خيمته لنشرب فنجاناً من الشاي معاً فدخلت الخيمة معه ، فألفيت بها سريرين من أسِرّة الميدان جعلهما مضجع الليل ومتكأ النهار له ولزوجه . وزوجه امرأة مسلمة من أهل سرواك ، عرفها وأحبها ، فلما أسلم تزوجها وجاء بها تؤدي فريضة الحج معه . وكانت ساعة دخولنا جالسة إلى جانب من الخيمة وحولها رجال من أهل وطنها . وهي وسيمة غير بارعة . تبدو في جلستها أدنى إلى القصر منها إلى الطول ، قمحية اللون .

عريضة الأكتاف ، ممتلئة فى غير سمنة . اشتركت فى الحديث بلغة أهل وطنها فبدا صوتها عريضاً عرضاً لعله يؤذن بجماله فى الغناء . ولم تُناولنا أقداح الشاى على عادة الأوربيين ، بل ناولنا إياها أحد الجالسين حولها . وأعجبنى هذا الحفاظ على العادات الشرقية ، كما أعجبتنى الدقة الغربية فى إحضار أسرّة الميدان ، واعتبرتها بعض العُدة الواجبة للمسافر إلى الحج ، والتى تغنيه عن كثير مما يضيق به ذرعاً حين لا يجد بمكة السرير الذى يستريح إليه ، ولا يجد بعرفات ولا بمنًى بديلا منها يغنى عنها ويريح الحاج كما تريحه .

وعدنا إلى حديث طويل تكلم أثناءه صاحبى عن المسلمين وعدم إدراكهم قوتهم العظيمة بسبب ما تخدعهم به مزاعم الغرب . فهؤلاء المسلمون يزيدون فى آسيا وحدها على مائتى مليون ؛ ولو أنهم أدركوا مبلغ قوتهم وأدركوا قيمة حياتهم الروحية وعظمتها لاستطاعوا تجديد نشاط الإنسانية ، لكنهم متروكون إلى جهالتهم ليسهل خداعهم واستغلالهم ، قانعين لذلك بضعفهم وراضين عن هوانهم .

وعدت إلى قبّتى ، واستقبلت كثيرين من الأصحاب جاءوا يزوروننى ويشاركوننى الحديث فى الحج وما يجب لنظامه . وأذّن الظهر وجمع الناس بين صلاة الظهر والعصر ، وقاموا يلبون حين قيل لهم إن الخطيب قائم عند مسجد الصخيرات على بعيره يخطب الناس . لكن زحمة عرفات لم تدع لأحد أن يذهب لسماع الخطيب عند مسجد الصخيرات وفى مسجد نمِرة . ثم إن مثل هذه الخطب قد صارت خطباً تقليدية كخطب الجمعة فى مساجد مصر ، ألفت الآذان سماع ألفاظها ومعانيها التى أصبحت لاتتفق وروح العصر ، ولا تتفق كذلك وطبيعة الإسلام الداعية دائماً إلى التجدد فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه .

وكان الناس يفدون طيلة النهار إلى عرفات ليؤدوا فرض حجهم ؛ فالحج عرفة ، وساعة الاجتماع والخطبة هى الساعة التى يتم فيها فرض عرفة ، لذلك اكتمل جمعهم قُبَيْلها . فلما انتهت بدأوا يفكرون فى الإفاضة إلى المزدلفة ليذكروا الله عند المَشْعَر الحرام ، ثم يؤمون منًى ليقيموا بها ثلاثة

أيام النحر ، يرمون فيها الجمرات ، أو يرجمون فيها الشياطين الثلاثة على حد تعبير أهل الحجاز .

وإن الناس لفى تفكيرهم وتأهبهم ، مغتبطين بصحو الجوّ ، وجمال الهواء ، إذ اكفهر الوجود فجأة وهبت الريح عاصفة وثار النقع وتعالى الغبار فى الجوّ وخطف البرق وهزم الرعد ، وبلغ من شدّة ذلك كله أن نسى الناس أهبتهم وتفكيرهم واتجهوا بأبصارهم إلى مضارب الخيام يرون ما الريح صانعة بها . واقتلعت الريح بعض الخيام ، فأسرع أهلها إليها يطوونها خشية أن يمزّقها الإعصار العاصف . فأما النساء والضعفاء والأطفال فلجأوا إلى ما آنسوا فيه قوّة المقاومة من الخيام واحتموا بها . وبلغ من هزيم الريح أن كان يُسْمع لها شهيق وزفير يدويّان فى آذان اللاجىء إلى الخيام أكثر مما يدويّان فى آذان الفار منها . ولقد لجأت إلى خيمتى لحظة ثم تركتها حين رأيتها تميل فى مهب الريح وتهدّد مَن فيها بالسقوط عليهم . ووقفت ومعارفى من أهل مكة وتوجهنا إلى الله أن يصرف عنا وعن الناس السوء والبأساء . مع ذلك ، ومع ما كنا وكان الناس فيه من هذه الشدة ، لم تزايل القلوب غبطتها ، ولا برح الأفئدة ابتهاجها ، بل بقيت ابتسامة الرضا تطوّق ثغور أصحابى وبقيت ضاحك السن أرى فيما حولى بعض ما رآه الرسول عليه السلام فى خسوف الشمس يوم موت ابنه إبراهيم ، آية من آيات الله جل شأنه ، لا يغير سُنّته ؟ ويجب علينا أن نرى فى هذه الآيات مظهر قوته ، وأن نتوجه إليه تعالت أسماؤه بالابتهال والدعاء إكباراً وإعظاماً وخضوعاً وإسلاماً . كذلك فعلتُ وفعل أصحابى ، فانطلقنا نلبى ونكبّر .

وإنا لكذلك إذ تفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، هَمَى غير منذر برشاش أو مُؤذن برذاذ ، أين أين المفر ؟! طار أحد أصحابنا إلى حيث النساء والأطفال ، فألفاهم أحكموا أمرهم إذ لجأوا إلى سيارة كبيرة من سيارات « اللورى » ونشروا فوقهم قماشاً من الخيمة التى سقطت أثناء احتمائهم بها ، فوقاهم المطر والريح . أما أنا فكنت أسعد حظاً إذ آويت إلى السيارة التى

جاءت بى إلى عرفات . وكانت (ليموزين) محكمة الأقفال ، وأوى إليها معى مَن وسعته . والوابل هتون ، والرياح عاصفة تضرب زجاج السيارة كأنها سياط تهوى على جسم فيشتد منها أنينه . وكان زجاج السيارة ساعة اجتمعنا بها يحجب ما وراءها لكثافة ما علق به من الغبار ؛ أما بعد هذه السياط فقد شفّ عما فى لون الجو المكفهر القاتم من بقية الضياء .

وأقمنا زمنًا نرجو أن ينقطع المطر ، بعد أن زال ما أثارته الريح من غبار ونحن فى مثل ما كنا فيه من رضا النفس وضحك السن . فلما هدأ هتّنُه ثم انقطع عاد الناس إلى خيامهم المطوية فنشروها وضربوا منها ما يكفيهم السويعات الباقية على انحدارهم إلى المزدلفة ثم إلى منًى . ودلفت إلى خيمتى واستلقيت على بساطها ، وبقيت هنيهة مستجمًّا أمدّ بصرى تارة من خَصاص بابها إلى ضوء القمر المنبسط على الرمال . وأغمض أجفانى طوراً فأسعد بالنسيم الرقيق العذب الذى خلف العاصفة فأنعش نفوسنا وزادنا طمأنينة ورضا . ثم عدت أفكر فيما كنا فيه وفى رضانا عنه واغتباطنا به ، ولو كنا فى غير هذه الحال لثار سخطنا عليه ، واشتد برمنا به ، ولفررنا من ثورة الطبيعة مولين الأدبار لا نعقّب . وابتسمت لهذه الموازنة بين حالين نفسيتين ما أبعد البون بينهما ! ثم سألت نفسى : ما سبب تباينهما ، وأيهما أدنى إلى الحكمة وإلى موجب العقل ؟

وسبب تباينهما بدهى واضح ؛ فنحن اليوم فى تجرّدنا من الحياة وزينتها وفى توجهنا إلى الله تسمو أرواحنا عن أن نأسى لشىء من أمره . والطبيعة وظاهراتها جميعًا بعض أمره . وماذا بين ثورتها وصفوها ، وبين قطوبها وابتسامها ! وما لنا لا نستمتع بثورتها وقطوبها استمتاعنا بصفوها وابتسامها . إنا لنستمتع بالليل مثل ما نستمتع بالنهار . وهما نقيضان فيما يبدو لنا . وليس لنا اليوم ونحن فى إحرامنا ما نخافه من ثورة الطبيعة ؛ فلن تحول هذه الثورة دون مصلحة من مصالحنا ؛ ونحن لا نفكر فيها ولن يصيبنا منها أذى لأن حياتنا اليوم روحية سامية فوق المادة واعتباراتها . ولو أننا سمونا أبداً بالروح فوق

المادة لما ابتأسنالشيء ، ولكننا أبداً من الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . إنما نبتئس ونضيق ذرعًا بثورة الطبيعة حين تخضع أرواحنا لمظاهر الحياة التي تتأثر بهذه الثورة ، وحين نجعل سعادتنا وشقاءنا ونعيمنا وبؤسنا رهنًا بهذه الظواهر المحيطة بنا غير مستمدة من دخيلة نفوسنا وأعماق أرواحنا . فنحن نخشى المطر لأن ملابسنا تبتل به فيفسد ابتلالها هندامنا ، ولأننا نخاف أن يتسرب من ابتلالها إلينا ما يسوء أثره في صحتنا ، ولو أن ملبسنا كان في مثل بساطة الإحرام لما خشينا على هندامنا ولا على صحتنا . ونحن نخاف الزوابع أن تحول بيننا وبين مواعيد ضربناها لقضاء مصالحنا . ولو لم نكن أسرَى هذه المصالح إلى حد الخوف عليها دون الخوف من الموت لوجدنا في ثورة الطبيعة متاعًا نفسيًّا يعدل هذه المنافع أو يزيد عليها . والحق أن الناس إنما يشقون بالحياة حين يذلون لمادتها بدل السمو بروحهم عليها . ولو أنهم عالجوا هذا السمو وأدركوه لآمنوا بالمبادئ الإنسانية العليا ، وامتدت عدوى الإيمان منهم إلى غيرهم ، ولسمت الإنسانية بذلك إلى مقام غير مقامها الوضيع الحاضر .

فأما موجب العقل والحكمة في الحالين فأشدّ من سبب تباينهما وضوحًا . ألسنا جميعًا نبتغي السعادة ونطمع في بلوغ درجاتها ! . ولا سعادة في الخضوع لغير ما توجبه الروح الفاضلة . والإيمان بالمادة خضوع ، فأما الإيمان بالروح فسلطان . ولو أننا آمنا بالروح وازدرينا المادة لَعَنَت لنا المادة وأقبلت علينا تلتمس رضانا طائعة صاغرة . فأما ما خضعنا للمادة عن إيمان بها فنحن البائسون الأذلاء بحكمها ، يقتلنا الطمع فيها ونحن نحسب جهلا أننا نحيا به .

وأرخى الليل سدوله وظللت في تفكيري حتى نَبَّهَني الأذان للعشاء منه . فصلّينا وتناولنا طعامنا وأخذنا أهبتنا للإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام . . وطال بنا الحديث والناس من حولنا يُفيضون ؛ فقد كان أصحابي يؤثرون مذهب مالك من أن المقام بالمزدلفة وذكر الله عند المشعر الحرام يكفي فيه مقدار حط الرحال ، على أن يصل الإنسان إلى المشعر قبل أن ينتصف الليل . وتناول حديث أصحابي الحج ومناسكه وحكمة هذه المناسك . وأصحابي كما قدّمت

مكيوّن يحجون فى كل عام ، ولعلّ أكثرهم يعتمرون فى كل عام غير مرة . وهم لذلك مطمئنون إلى مغفرة الله لهم ، جريئون بذلك على تناول الحديث فى الأمور المقدسة ومناقشتها بحرية قد تصل بهم إلى ما يعتبره غيرهم إثماً وتجديفاً . قال أحدهم : إنما الحج ومناسكه أمور تعبدية تغيب عنا حكمتها ولا سبيل للعقل إلى فهمها والمسلمون يتمونها لأنها فرض فرضه الله عليهم . فما عرفات وما المشعر وما الجمرات إلا أماكن كغيرها جعلها الله للمسلمين مناسك لحكمة لا يعلمها إلا هو ويجب أن نؤمن بها وإن لم نفهم شيئاً عن حقيقتها وسرها . وقال آخر : بل الحج وسيلة تهوى بها أفئدة من الناس إلى وادينا الذى لا زرع فيه ، تلك حكمة الله . وآية ذلك ما جعل على مَن عجز عن أدائه أيًّا من مناسك الحج من فدية الدم ليطعم الفقراء مما رزق الله الناس من بهيمة الأنعام . وقال ثالث : ليس هذا كل حكمة الحج ؛ وإنما حكمته الأولى اجتماع المسلمين وتعارفهم وتعاونهم ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله . ومن يلبى دعوة التعارف والتعاون جدير بأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه ، لأنه آثر أخوة المؤمنين على نفسه وطمأنينتها ، فاحتمل مشقة المجىء إلى بيت الله يلقاهم عنده . وعاد الأول إلى الحديث فقال : هذه أقوال تسوّغون بها أمر الله فى الإسلام . فما مسوّغه أيام كان حج البيت فرضاً قبل الإسلام ، ويوم لم يكن من أديان العرب دين نزل للناس كافة ليكون فى المجىء إلى بيت الله من تجشم المشقة ابتغاء الاجتماع بالمسلمين ما يساوى مغفرة الذنوب . ولم يكن يحج البيت قبل الإسلام إلا أهل جزيرة العرب ، وهم ليسوا أكثر من أهل هذا الوادى يساراً ، فلم يكن فى هَوى أفئدتهم إلى بنيه ذلك الخير الذى نرتجيه اليوم ممن يحجون إلينا ؟ .

عجبت لهذا الحديث ولم آخذ فى شىء منه بنصيب . وكيف أشترك فيه وإن كثيرين ليحسبونه « هَرْطَقَة » يستعيذون بالله منها ويلعنون أصحابها وينصرفون عن السماع لهم ؟ ولست أخفى أننى دهشت لتناولهم إياه ، لم تنههم عنه حُرْمةُ المكان ولم يردهم عنه إحرامهم لله وتلبيتهم نداءه ، وكأنما نسوا قوله تعالى : « وَلا جِدالَ فى الحج » ، والتمست سبب جرأتهم هذه ، فوجدت

الجواب حاضراً ؛ إنهم يصعدون إلى عرفات كلّ عام ؛ وهم يغشونه فى غير أشهر الحج ، فلا يرون منه إلا السطح الأجرد لسلاسل الجبال القريبة منهم بمكة ، ويرون هذا السطح صفصفًا ليس يعمره إلا بعض البدو فى أوبارهم . ولطول ما تردّدوا عليه اختلطت صورته المادية بالمعنى الروحى السامى لفريضة الحج ؛ وذلك شأنهم فى إدراك المناسك بالمزدلفة وبمنًى . وإذا اختلطت الصورة المادية لموضع ما بالمعنى الروحى لأية فكرة سامية تتصل به ، طغت الصورة على المعنى ، إلا أن يكون المؤمن به بالغًا من الإيمان غايته ، أو كان من المهذّبين المثقّفين الذين يستطيعون التفريق الدقيق بين مظاهر المادّة الدائمة المور ، المختلفة الأطوار ، وبين الروح المتصل الخالد الذى لا تحدّه المادة ولا يعرف حدوداً للزمان ولا للمكان . ولقد كان الكهنة الأقدمون فى اليونان وفى مصر أشدّ الناس سخراً من إيمان المؤمنين بالأصنام ، وإن لم ينل هؤلاء الكهنة من التهذيب حظًّا يطوع لهم إقناع الناس بوحدة الله ، وبأن الروح من أمره ، وبأنه سام فوق المادة غير محدود بحدودها . ونقصُ تهذيبهم وما يؤدّى إليه هذا النقص من ضعف إيمانهم هو الذى كان يجعلهم يقصّون على الناس ما يزعمونه معجزات الأصنام ليفيدوا من أعطيات هؤلاء الناس ما ينفعهم فى حياتهم المادية . ولو أن إخوانى المكيين هؤلاء كانوا مع جماعة غير مثقفين لما تحدثوا حديثهم الذى قدّمت ؛ أو لنزعوا فيه ، أغلب الظن إلى ناحية أخرى . لكنهم أرادوا أن يُظهروا لى مبلغَ حرّيتهم فى التفكير لما يعلمونه من شدة حرصى على الحرية وإيمانى بأنها السبيل إلى الإيمان الحق . ولعلهم أرادوا أن أشاركهم فى حديثهم وأن أقصّ عليهم من رأيى ما لعله ينفعهم . فلما رأونى ممسكًا عن القول مكتفيًا بالإنصات لهم ، أثار أحدهم جدلا فى مناسك الحج فقال :

— لم يرد فى القرآن عن الحج وفرضه غير قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » ، والبيت هو الكعبة . فأين فى غير سنة الرسول ما يفرض الصعود إلى عرفات والقيام بما سواه من مناسك الحج ! .

ولقد ورد فى القرآن من تفصيل فرائض الوضوء والصلاة والصوم ما لم يرد مثله فى الحج إلا ما جاء عن البيت والطواف به .

وأجاب أحد الحاضرين بقوله :

— من المأثور عن النبىّ عليه السلام أنه قال : « الحج عرفة » . ولقد ورد فى القرآن ذكر عرفات والإفاضة منه بعد الوقوف به ، والمَشْعَر الحرام وذكر الله عنده ؛ فالقول بأن فرائض الحج لم ترد فى القرآن فيه تجاوز غير جائز .

وأدى هذا القول إلى التساؤل عن الجبل الذى نحن عليه ما اسمه الصحيح : أهو عرفة أم عرفات ؛ فالحديث أن الحج عرفة ، والقرآن يقول : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » ، ولجأ القوم فى تفسير ذلك إلى قواعد البلاغة العربية فى إطلاق الجمع وإرادة المفرد وإطلاق المفرد وإرادة الجمع . واطّرد حديث القوم والليل ينساب إلى ناحية منتصفه ، وجعلت أنوار المضارب فى البطحاء تخبو شيئًا فشيئًا ، ثم طويت الخيام وتحمل القوم مُفيضين . فلما كان من منتصف الليل على ساعتين أو نحو ذلك كانت بطحاء عرفات قد خلت من الناس إلا قليلا ، وكان ضوء القمر وحده هو الذى يمدّ على رمالها بساطه الوَضّاء . وما أجمل ضوء القمر منبسطًا على الرمال الممتدّة إلى حيث لا يعرف النظر غير الأفق حدًّا ! وما كان أجمله فى تلك الساعة بلغ صفو السماء وصفو الجوّ فيها من أثر المطر ما زاد ساهر السماوات بهاء ونوراً .

وقمنا يسعدنا النسيم الرقيق إلى سيارتنا لنُفيض كما أفاض الناس . وانطلقت بنا السيارة نحو المشعر الحرام ، وإن فى نفسى إلى عرفات لهوًى يدعونى إلى العودة إليه والمبيت فى مضاربه والوقوف به ملبّيًا شاكراً ، داعيًا مستغفراً . ذلك موقف لم أعرف مثله فى حياتى كلها روعة وسموًا بالنفس فى صدق وإخلاص إلى الله جل شأنه ، ولم أعرف مثله فى حياتى كلها دعوة إلى إخاء المؤمنين ليتحابّوا بنور الله بينهم .

أيام التشريق

يقف الناس إذ يفيضون من عرفات عند المشعر الحرام يذكرون الله عنده ثم ينحدرون إلى منًى ليقيموا بها أيام النحر ثلاثة أو أربعة يرمون أثناءها الجمرات . وكان العرب قبل الإسلام يسمون أيام النحر هذه أيام التشريق . ولم يمح الإسلام هذا الاسم وإن غلّب عليه أيام النحر . وفى المعجمات أسباب مختلفة لتسمية التشريق هذه . فبعضهم يذهب إلى أنها تطلق لأن الضحايا تنحر بعد شروق الشمس ؛ ويذهب آخرون إلى أنها سميت كذلك من تشريق لحم النحور أى تجفيفه . ومهما يكن السبب فى إطلاق اسم التشريق على هذه الأيام فقد بقى هذا الاسم لم يمحه الإسلام ؛ فما تزال كتب السيرة على اختلافها تذكر أن بيعة العقبة الثانية وقعت فى أوسط أيام التشريق ؛ وقد وقعت هذه البيعة بعد ثلاثة عشر عاماً من بعث الرسول ، أى قبيل هجرة المسلمين إلى يثرب .

وبيعة العقبة الثانية ، بل بيعتا العقبة الأولى والثانية ، علَم مضىء فى تاريخ الإسلام كغزوة بدر الكبرى . أما وكتب السيرة تُجمع على أنهما ، أو كبراهما ، وقعتا فى أيام التشريق فإنى أوثر أن أحتفظ بهذا الاسم ، وأن أطلقه على أيام النحر فى منًى ، وأن أجعله لذلك عنوان هذا الفصل من الكتاب .

أفضنا إذن قبيل منتصف الليل من عرفات يسعدنا النسيم الرقيق ويضىء لنا ساهر السماوات ما حولنا ويبهر نورُ السيارةِ الطريق . وبلغنا المشعر الحرام ، فنزلنا وذكرنا الله عنده ، ثم جمعنا جمارنا ، كى نرجم بها الصخرات بمنى . ورأيت على مقربة منا أنواراً عرفت أنها بعض المقاهى القريبة منّا ، وأن الحجيج الذين أفاضوا أول الليل يقضون ليلهم بالعراء عندها ليكونوا على أبواب منىً قبيل الفجر . أما نحن فقد انتظرتنا سيارتنا حتى أتممنا ذكر الله وجمع الجمار ، فلما كنا فى النصف الأخير من الليل أقلّتنا إلى منًى فكنا على أبوابها قبيل الفجر .

ولمنًى أبواب كالتى نعرفها فى الحضر ؛ فهى ليست بطحاء جرداء

كعرفات ، وليست مسجداً قائماً فى عزلة كالمشعر الحرام ؛ إنما منّى قرية بها مبان ومنازل ، ألا يكن أكثرها عامراً فى غير أيام الحج فبعضها مملوك لفخذ من قريش يقيمون به طوال عامهم ، ويؤجرونه أيام الحج لمن يأوى إليه ، وبعضها مملوك لجماعة من أهل مكة يقيمون به أيام النحر أو يؤجرونه لمن شاء من الحجاج أن يستأجره .

وقابلتنا عند أبواب منّى مخفر للشرطة وقفنا عنده ، وقدّم إليه سائقنا جواز مرورنا . فلما جاوزناه فى طريق فسيح تقوم المنازل على جانبيه قابلتنا صيحات عالية فيها ترتيل يسترعى السمع ؛ تلك صيحات الباعة الذين قضوا ليلهم فى انتظار الحجيج بعد إفاضتهم كى يعرضوا عليهم سلعهم من طعام وفاكهة ، ومن سُبَح وما إليها مما يتبرّك به قصّاد الأماكن المقدسة . ومرّت السيّارة بنا خلالهم حتى وقفت عند جمرة العقبة الكبرى . هنالك نزلنا فرجمناها ثم عدنا إلى منزلنا بمنّى ، وقد آن لنا أن نتحلل التحلل الأصغر . على أنى آثرت بعد أن فكرت مليّاً أن أبقى محرماً حتى أطوف وأسعى وأتحلل التحلل الأكبر . وسحبت من متاعى سجادة صلاة فرشتها وألقيت بنفسى إليها ألتمس إغفاءة تعدّنى لإتمام مناسكى . وما أحسب أحداً من الحجيج زار النوم أجفانه تلك الليلة إلا لِمَاماً ؛ فقد أقام الباعة يصيحون حتى ارتفعت الشمس فوق الجبال . ولعل الذين أووا إلى مضارب فى صحراء منّى لم يكونوا أسعد بالنوم حظّاً وإن كانوا عن صياح الباعة أكثر بعداً ؛ فقد نال أكثرهم إغفاءته بالمزدلفة ، فلما بلغوا منّى وأتموا شعيرة التحلل الأصغر كان النهار قد نشر فى الأرجاء نوره . وأنّى لإنسان أن ينام فى قبة يسرى الضوء فى فرجاتها ! وأنّى له أن ينام هذا اليوم ، يوم النحر والعيد الأكبر ، وقد بلغ مِنى ليصلى الفجر وليصلى العيد وهو فى غبطته ونشاط نفسه لقضاء الفريضة فى عرفات وذكر الله عند المشعر الحرام ! .

ومرّ بى مضيفى كيما أعُدّ نفسى لنهبط إلى مكة نطوف ونسعى . وكان رجاؤنا أن ندرك ابن السعود فى طوافه وسعيه . وأقلّتنا السيارة وانطلقت بنا على

هـُون بين قوافل الإبل ، فرأيت هذا الطريق من منى إلى مكة لأوّل مرة فى ضوء النهار . ولم أستبن منه كثيراً ونحن فى زحمة من هبطوا يقصدون إلى ما نقصد إليه من الطواف والمسعى ، وإنْ حرص مضيفى على أن يذكر لى أنه طريق جديد شقته الحكومة القائمة فى الجبال ، وأقامت إلى جانب قسم طويل منه سوراً يمنع السيول أن تطغى عليه . ولم يطل بنا السير حتّى كنا على مقربة من مكة ؛ إذ ذاك اجتمع هذا الطريق بطريق الإبل ، ولم يكن للسيارة بدّ من التمهل والوقوف أحياناً . فلما بلغنا قصر الملك لفت مضيفى نظرى إلى الجبل القائم عن يميننا بين جبال عدّة وكأنه منها فى عزلة الناسك ، وقال : هذا جبل النور . وصادف لفته نظرى وقوف السيارة لمرور قافلة أمامها ، فتوجهت ببصرى إلى هذا الجبل الذى اختاره النبيّ العربى ليتعبّد فوقه قبل أن يبعثه الله نبيًّا . توجهت ببصرى إليه فاسترعى كل انتباهى بهذه العزلة التى تفرّد بها عما حوله من الجبال ، وبهذه الاستقامة المخروطية فى انطلاقه إلى السماء استقامة تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان لغاية خاصة ، منه إلى جبل قائم بين عشرات من الجبال حوله ، لا يميزه عنها إلا الحادث الفذّ الذى جعله القدر نصيبه ، حادث هبوط الوحى الأوّل على رسول الله فوقه .

ودخلنا مكة وقصد مضيفى إلى دار أحد معارفه لنتوضأ قبل أن نطوف ونسعى . وكانت الدار فى طريق يجاور المسعى ؛ فلم يكن بدّ من أن نخترق صفوف الساعين إليها . وأجلت بصرى أتفرّس فى وجوه هؤلاء وأتحرّى أمر هذا المكان الذى يؤدّى المؤمنون اليوم فيه مَنْسَكاً كان إخوانهم يؤدونه فيه منذ مئات وألوف من السنين خلت . ولقد كنت فى حاجة إلى الدقة فى تعرّفه ؛ فلم ترتسم منه لدىّ صورة حين سعيت فيه سعى العمرة قبيل الفجر أوّل ما حللت مكة ، لأننى كنت فى شغل بالسعى والدعاء ؛ ولم أقف صبح الغد من ذلك اليوم على كل ما أردت منه . وألفيت وجوه الساعين فى هذا الصباح من يوم النحر أكثر طمأنينة وأصواتهم فى الدعاء أدنى إلى السكينة ، وكأنما شعروا بعد أن أتموا فرض الله بعرفة أنهم أدنى إليه ، فدعاؤهم إياه أدنى أن يستجاب .

ويحصرهم هذا المكان الظليل بسقفه المهلهل وبالمبانى الرفيعة القائمة على جانبيه فى غير انتظام رغم فخامة بعضها ، فلا يرون ما كان يراه أسلافهم من زرقة السماء وفسيح الصحراء . وهم يهرولون أوّل سعيهم أثناءه ثم ينبعثون سائره بخُطى مطمئنة ، ولا يفتّرون أثناء ذلك عن ذكر الله ولا عن التلاوة والدعاء .

وانعطفت وراء مضيفى فى زُقاق ضيق قذر متصل بالمسعى ، ثم صعدنا بعد خطوات فيه درجًا يشهد بأن الدور تقوم على ربوة قديمة . ودق مضيفى بابًا فتحه أهله واستقبلونا بالتحية والترحيب رغم مجيئنا على غير انتظار . وتناولنا القهوة وتوضأنا وصلينا ، ثم قصدنا إلى المسجد الحرام نطوف طواف الحج ، لنسعى من بعد ذلك سعيه . ودخلنا المسجد فعلمنا أن الملك سبقنا إليه فطاف وسعى من بكرة الصباح . وألقيت بنظرى أوّل ما دخلت إلى ناحية الكعبة فألفيتها نصف عارية من كسوتها ، وألفيت القسم الذى لا يزال مكسوًّا منها عليه ثياب بيض وضعت قبيل يوم عرفة إيذانًا بإحرام البيت العتيق . واليوم، يوم عيد النحر تنزع عن الكعبة ثياب العام الذى ودّعنا لتوضع مكانها ثياب العام الذى نستقبله وأبدى عُرْيُهَا أحجار الجرانيت الأسود الذى بنيت منه دالّة على صلابة وقوّة على الزمان . والناس يطوفون بها ، ومنهم من حل إحرامه فى منًى ، ومنهم من لا يزال محرمًا . وانبسطت أشعة شمس الصباح فى صحن المسجد الفسيح وأضاءت بنورها كل أرجائه ، والموكّلون بإلباس الكعبة كسوتها ينزعون عنها الثياب البيض ، ثياب الإحرام ، وينزعون كسوة العام الماضى ليُسدلوا مكانها كسوة هذا العام . ويفرغ الناس من طوافهم فينحرفون إلى مقام إبراهيم وإلى حِجْر إسماعيل يصلون فيهما . ثم يقصدون إلى البناء القائم فوق زمزم يلتمسون عنده شربة من مياه بئر إسماعيل . أما نحن فقد يممنا زمزم منذ دخلنا المسجد ، ودق مضيفى باب مقامها ففتحه لنا الموكلون بها ، فتوضأنا من مائها ولبسنا خِفَافًا وخرجنا نطوف بالكعبة . ولم يكن معى فى هذه المرة مطوّف أتلو من بعده ما يتلو من الأدعية . لذلك تركت نفسى على سجيتها تتجه إلى الله كما أفهم أنا كيف يجب أن يتوجه الإنسان إلى الله ، فإذا مررنا بالركن

اليمانى سمينا الله وكَبّرنا وتلونا قوله تعالى : « رَبَّنَا آتِنَا فِى الدنْيا حَسَنةً وَفِى الآخرة حسنة وَقِنَا عَذابَ النارِ » وعدنا إلى تسمية الله وتكبيره قبالة الحجر الأسود ، وانطلقنا بعده نتم الطواف ونحن ندعو ونستغفر والطائفون طواف الحج يسيرون سيرتنا يسمون الله كما نسميه ويكبرونه كما نكبره ويتلون من الأدعية ما يلقيه المطوِّف عليهم أو ما تجيش به خواطرهم وما يريدون الاستعانة عليه بالله فى أمرهم وفى أمر من يحبون من ذويهم وأهلهم .

وأتممنا الطواف وصلينا فى مقام إبراهيم وفى حجر إسماعيل ، ثم انتحينا إلى فىء قباب المسجد فجلسنا وتناولنا شربة من زمزم وصلّينا . وأقمت مكانى هنيهة محدقًا ببيت الله وبالطائفين به وبالركّع السجود . وإنى لكذلك إذ مرّت بخاطرى صورة الرسول الكريم عليه السلام فى عمْرة القضاء . يومئذ ظنت قريش به الظنون وحسبته وأصحابه فى عسرة وجهد أوهناهم وضعضعا من عزمهم . ألم يجيئوا ليعتمروا قبل عام من ذلك اليوم فلما صدتهم قريش عن مكة وحالت بينهم وبين البيت كفى محمداً أن يعقد معها عهد الحديبية وأن ينصرف إلى يثرب ! ولولا العسرة والجهد لما فعل ولما ارتضى أن يؤجل عمرته وعمرة المسلمين عامًا كاملا ، ذلك ما خيِّل يومئذ إلى قريش . فلما انقضى العام وأقبل المسلمون إلى مكة ومحمد على رأسهم وانصرفت قريش عنها إلى الجبال المحيطة بها ، أراد الرسول أن يريهم كيف وهموا فيما ظنوا من ضعف المسلمين ووهنهم ، فلم يلبث حين دخل المسجد ونادى بنية الطواف أن أخرج ذراعه اليمنى من ردائه ، وأن صاح بأصحابه : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ! » ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهرول ، وهرول أصحابه من ورائه ، حتى بلغ الركن اليمانى . هنالك مشى إلى الحجر الأسود مسبِّحًا الله مكبراً إياه . ثم هرول من جديد وأصحابه يهرولون حتى أتمو ثلاثة الأشواط الأولى ومشوا سائر الأشواط السبعة . ورأى المشركون من قريش كذب أوهامهم ، إذ رأوا محمداً والألفين من المسلمين معه أقوياء لم يصبهم نصب ولا لغوب . والمسلمون لا يزالون إلى اليوم يهرولون فى الثلاثة الأشواط الأولى اتباعًا لسنة الرسول ، وإن لم يعرف أكثرهم

حكمة هذه الهرولة ، وإن لم يدرْ بخاطر أكثرهم ما يدل عليه هذا المظهر من أن الإسلام دين بأس وقوة ونظام .

والمسلمون اليوم يطوفون لا يؤمهم أحد ، وهم لذلك تختلف أثناء الطواف صفوفهم ، لا يهرولون فى نظام ولا يتئد سيرهم فى نظام . وشتان فى ذلك ما بينهم وبين المسلمين الأوّلين . شتان ما أرى اليوم وما كان فى عمرة القضاء أو فى حجّة الوداع . كان محمد يؤمّ ألفين فى عمرة القضاء ، ومائة ألف فى حجة الوداع ، يسيرون كلهم سيره ، ويتبعونه ، فى نظام أدق نظام ، هرولة ومشياً واستلاماً للركن أو للحجر الأسود . وهذا النظام المتصل بروح الإسلام سبب من أسباب القوة ، بل هو مصدرها وملاكها . وهذه الإمامة يقوم بها رجل مطهّر يؤمن أصحابه بصدقه هى روح هذه القوّة وقوامها . ولو عاد المسلمون إلى الإمامة والنظام فى الحج وفى غير الحج ، ولو أنهم واءموا كما يوائم دينهم بين حرية تامة أساسها الإيمان بالله وحده وإباء الخضوع لكل من سواه ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وبين هذا النظام الكفيل بحرية الجماعة وحياتها — إذن لاستطاعوا أن يؤدوا فى العالم رسالة الإسلام كرّةً أخرى ، ولسعد العالم بهذا الدين كما يجب أن يسعد به .

مرّت هذه الخواطر بنفسى وأنا فى مكانى من فىء المسجد ، فانطلق ذهنى على أثرها يفكر فيما يجب أن تكون الإمامة والنظام فى العالم الإسلامى الحاضر ، وكيف يجب أن يكونا فى الطواف والسعى وسائر فرائض الحج ومناسكه . وإنى لفى تفكيرى إذ نبهنى مضيفى إلى القيام لنسعى . وأتممنا السعى بين جماعة الساعين يزحمنا هذا ويدفعنا ذلك ويعترضنا بين آن وآخر صف من النجديين شبكوا أيديهم بعضهم ببعض ، فإذا صادفهم ساع صاحوا به : طريق ! طريق ! وانطلقوا فى سعيهم ينادون ربهم بلغتهم : « رب اغفر . حتما تغفر . إن لم تغفر من ذا يغفر » وذكر بعض أصحابى أنه سمعهم يقولون : « رب اغفر . حتما تغفر . إن لم تغفر جنتك تصفر » . ويمر بين هذه الصفوف كما يمر بين صفوف الطائفين بالبيت ما بين حين وحين جماعة يحملون مِحَفّة عليها

شيخ أو عجوز أو مريض لم تستطع قدماه حمله ليطوف ويسعى . فطاف به هؤلاء وسعوا ، والمطوف يسير إلى جانبهم يدعو والمحمول فى المحفة يدعو معه .

وكما يسعى الناس رجالا وفى المحفّات يسعى بعضهم ممتطين جياداً أو مستقلين السيارات وهؤلاء يرون أن لا جناح عليهم وقد سعى رسول الله فى عمرة القضاء راكبًا بين الصفا والمروة ، وإن رأى بعض الفقهاء فى السعى على الأقدام مزيداً فى المثوبة . وكان الشيخ عبد الله بن بليهد عالم نجد يسعى ممتطياً جواداً . ولقد كان يحدثنا ساعة نزلنا معًا من منى أنه يريد السعى فى سيارة لأنه لا يطيق السعى ماشيًا ولا يحب السعى فى محفة . ولهذا العالم النجدىّ عذره ، فهو عالم تقدّمت به السن فتضعضعت صحته بعد أن لوّح وجهه هواء الصحراء فى أسفاره بين نجد والحجاز ، فهو أشعث أغبر . وهو رجل ناحل الجسم ، يعلو عنقه الدقيق رأس عريض الجبين ، ذكىّ النظرة تلمع عيناه ببريق لم تطفئه السنون ويدل على حيلة واسعة وبصيرة نافذة . وهذا الرجل خليفة محمد بن عبد الوهاب الحنبلى مجدّد المذهب فى نجد . والذى خلع اسمه على الوهابيين الذى اقتدوا به فى اتباع ابن حنبل . وابن بليهد هو لذلك روح الحركة الوهابية فى هذا الدور الحديث من أدوار حياتها وهو موضع التبجيل والاحترام من النجديين جميعًا . من مليكهم عبد العزيز بن سعود إلى أصغر صغير فيهم . وهو مع ذلك وعلى ما رأيته ، من أشدّ الناس زهداً فى الدنيا وزخرفها وغرور متاعها .

وأتممنا السعى سبعًا ، وآن لنا أن ننصرف وأن نتحلل التحلل الأكبر . على أنى وقفت هنيهة قبل منصرفنا أمام مقهى من المقاهى القائمة وسط المسعى وقلت لصاحبى : أفيليق أن تقوم أمثال هذه المقاهى والحوانيت على حافة هذا المكان المقدّس ؟! قال : إنها ليست على حافته . بل هى قائمة داخل حرمه . والذين أقاموها لم يتقوا الله ولم يرعوا حقه ، بل اعتدوا عليه عدوانًا مبينًا . والعجب أن منهم من اجترح هذا العدوان تبركًا بأرض هذا المَنْسَك ، ناسيًا أنه يؤثر بها نفسه ويحرم منها ملايين المسلمين على تعاقب الأجيال .

ولقد ثارت نفسى حقًّا لمنظر هذه المقاهى وهذه الحوانيت التى تتجر فى السُّبَح والمنسوجات وما إليها مما يتبرك الحجيج به ، وزاد نفسى ثورة منظر صيارفة النقود الذين يصكون الآذان بصرير ريالاتهم السعودية إعلانًا بها عن أنفسهم ! ما لهذا المكان الذى يتوجه فيه الناس إلى الله بالتوبة والاستغفار وصرف النقود والجلوس إلى المقاهى وتبادل التجارة ! وما لهذا المكان الذى ينسى الناس فيه تجارة الحياة ليتصلوا فيه ببارئهم وهذه الحماقات من تجارة الحياة ! أليس من الخير أن تظل لهذا المكان حرْمَته كاملة وأن تكون الحوانيت فى طريق غيره قريب منه ، إن لم يكن بد من أن ينصرف الناس بعد استغفار ربهم إلى شرب القهوة وشراء السبحة والمكحلة وإلى صرفْ النقود للتبادل .

وليس ذلك كلّ ما يثير النفس لحال المسعى ؛ فقد بلغ من إهمال شأنه وهو منسك من مناسك المسلمين ، حدًّا بعيداً . واجتياز بعض الطرق إياه ومرور الدواب والعربات والسيارات فى هذا الطريق بين الساعين بعض مظاهر هذا الإهمال . فإذا أنت تحدثت فى ذلك قيل لك : وما عساك كنت تقول من عهد قريب وقبل أن ترعى الحكومة الحاضرة هذا المنسك بعنايتها ؟ فقد كان حرمًا للكلاب تقيم فى ظلاله نهارها وليلها لا يُزعجها من مرقدها أحد وكأنها حمام الحمى .

لقد كان المسعى إلى صدر الإسلام طريقًا مستقيمًا يصل بين ربوتى الصفا والمروة متصلا بما حوله من فسيح الصحراء وهضابها وتطل عليه الجبال المحيطة بمكة ، أما منذ مئات من السنين فقد بلغ من طغيان الدور التى أقيمت فى حرمه أن اعوج اعوجاجًا يحول دون رؤية الصفامن والمروة أو رؤية المروة من الصفا كما حال سقفه بين الساعين وفسحة الجوّ وبهاء السماء ، وأحيلت كل من الربوتين درجًا أحيطت جوانبه الثلاثة بالجدران ؛ أما أرضه فقد رصفت بالحجر رصفًا غير منتظم .

تثور النفس لهذه الحال التى عليها المسعى . ولولا أن الناس يحسبونه كذلك منذ وجد ، ولولا أنهم إذ يرونه يشغلهم السعى عما سواه ، لقام بينهم من يدعوهم

إلى الثورة لإصلاحه ، ولإزالة هذا المساس بحرمة مكان يجب أن يحاط بكل تقديس وإجلال . ذلك كان شعورى ساعة منصرفى من المسعى . وما زال هذا الشعور يحزّ فى نفسى . فلعلنى أجد من يشاركنى فى دعوة المسلمين إلى إصلاح منسك من شعائر الله ، ولعلنى أجد من الحكومات الإسلامية استباقاً للخيرات وإجابة لهذه الدعوة .

انصرفت من المسعى إلى الدار بمكة ، فحللت إحرامى ولبست العقال والعباءة العربية — أو المشلح — كما يسمونها ، وأقلتنى السيارة عائدة إلى منًى ، ولا يكاد من يرانى يشك فى أنى عربى من أهل البلاد . فلما حاذت السيارة حراء استوقفت سائقها لأمتع النظر بهذا الجبل كرة أخرى ، فلقد شعرت له فى نفسى بهوًى أىّ هوًى ، ووددت لو استطعت أن أحيط خُبْراً بكل ما جلّ أو دق من أمره .

وبلغنا منًى قرابة الظهر ، وأويت إلى الدار فيها . ودور منًى غاية فى البساطة ، وليس بها من الأثاث إلا ما يحمله الحاج من مكة إليها . لذلك كان سرير الميدان من نوع ما رأيت عند صاحبى « المسلمانى » بعرفات ذا فائدة بها أكبر الفائدة . وهذه الدور بعدُ معدودة لا تسع من الحجيج إلا عدداً محدوداً . وهى تقع بين سلسلتى الجبال المتحاذيتين المارتين بمنًى ، ويمر من بينهما الطريق الرئيسى إلى مكة . فإذا كنت مقيما بإحداها رأيت من نافذة الدار المطلة على الطريق كل ما فى منًى من حياة أيام التشريق ، ورأيت الدور المقابلة لدارك مطمئنة فى أحضان الجبل الشامخ عليها ، ثم رأيت من النافذة الخلفية سلسلة الجبال الأخرى تحدّ نظرك عن تبين ما وراءها كما تحده سلسلة الجبال الأولى .

وقد خلع أهل الحجاز على جبال منًى من بهاء الأساطير ما لا يكاد يترك حجراً منها إلا جعل له قصة من الأقاصيص المتصلة بحياة الأنبياء . فهذا الطريق الصاعد فى الجبل هناك والذى نراه قُبالتنا من نافذة الدار ، هو مجرّ الكبش الذى ذبحه إبراهيم الخليل فداء لابنه إسماعيل . وهذا الحجر الناتئ فى الجبل المقابل له هو طاقية النبى حين اختفى يوماً من قريش أو غير قريش فلاذ بهذا

المكان . والطاقية هى هذه الفجوة التى دخل فيها رأس النبىّ إذ لان حجر الجبل لاختفائه فيه . وهناك هناك فى موضع لا يحدّده العرّافون من الجبل مكان أرادت الشياطين فيه أن تعبث بنبىٍّ من الأنبياء فانتهرها . وأكثر هذه الأساطير لا سند له فى كتب السيرة أو كتب التاريخ المحترمة . وأهل مكة يقرّون بذلك لمن سألهم عنه . والأذكياء منهم لا يسلمون بصحة ما يقصونه . مع ذلك يتبرك أكثر الحجاج من الأقطار الإسلامية المختلفة بهذه المواضع ويُروون ظمأهم الروحى بمشاهدتها . وما لهم لا يفعلون وكثير من هذه الأساطير مدوّن فى كتب متأخرة أراد أصحابها بها سحر الجماهير السريعة إلى تصديق الخوارق ، والتى لا تعنى من الروايات إلا بما يتفق مع هواها .

تقع دور منًى على جانبى الطريق الفسيح المؤدى إلى مكة . وتقوم فى هذا الطريق الصخرات الثلاث التى يحصبها الحجيج بجمارهم ، ولذلك صارت تسمى الجمار الثلاث . كبراها جمرة العقبة ، وعلى مقربة منها الجمرتان الوسطى والصغرى . وهذه الصخرات أو الجمرات هى اليوم قوائم من الحجر ناتئة من الأرض إلى ما فوق قامة الرجل الفارع الطول ، أحيط كل قائم منها بسور من الحجر يقف الناس عنده ويحصبون هذه الأحجار قضاء لمَنْسَك مِنًى . والجمار لا تلقَى يوم النحر ، إنما يحصب الحاجّ جمرة العقبة أوّل بلوغه من بعد الإفاضة من عرفات ليتحلل التحلل الأصغر . أما الجمرتان الوسطى والصغرى فترجمان فى اليومين التاليين ليوم النحر . فإذا تم هذا المنسك تم الحج ، وهبط الناس إلى مكة ليعودوا منها بعد طواف الوداع إلى أوطانهم أو ليذهبوا لزيارة مدينة الرسول . وأكثر الناس يهبطون إلى مكة ثالث أيام النحر ويهبط بعضهم رابعها .

ويطلق أهل الحجاز على هذه الصخرات اسم الشياطين . فإذا أراد أحدهم أن يدلّك على منزل شخص معيّن من منًى قال : إنه إلى جانب الشيطان الكبير ، أو على مقربة من الشيطان الصغير ، أو بين شيطانين معينين من الثلاثة . وترجع هذه التسمية إلى ما ترويه بعض الكتب عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأن الله بعث ملكًا يُريه مناسك الحج حين أمره أن يؤذّن فى الناس به .

وطاف الملك معه بالبيت وسعى به بين الصفا والمروة ثم صعد وإياه متجهاً إلى الجبل ؛ فلما كانا بمنًى تبدّى الشيطان لإبراهيم يُغويه فحذفه إبراهيم بالحصى فولى هارباً ، ثم تبدّى له كرة أخرى فحذفه فولى ، ولما حذفه للمرّة الثالثة ولّى مدبراً ولم يعقّب . وتذهب الرواية إلى أن الشيطان تبدّى فى كل من هذه المرّات الثلاث عند صخرة من هذه الصخرات الثلاث ، ولهذا أطلق أهل الحجاز اسم الشياطين عليها . وانطلق الملك بإبراهيم من منًى إلى المشعر الحرام وسار وإياه حتّى بلغا عرفة . هنالك قال له : الآن عرفت مناسكك . وسمى هذا الجبل عرفة أو عرفات لأن إبراهيم عرف عنده مناسك حجّه .

والجمرات مناسك منًى . والناس يرجمونها لأنها تتقمص الشياطين فيما يقول أهل الحجاز . وهم لذلك يرجمونها ناقمين عليها أشدّ النقمة . ولقد بلغ من نقمة أحدهم أن قذفها بحذائه ؛ وأطلق بعضهم على أحدها « مسدّسه » آملا أن يقتل الشيطان بقذيفته . أما وهذه عقيدة الناس فيها فليس طبيعيًّا أن يتلمسوا البركة منها ؛ إنما يتلمسون البركة من منازل الأنبياء والقديسين فيما ترويه الكتب ، كما أنهم يذكرون الله ويتلمسون مغفرته وثوابه فى مساجده .

وبمنى مسجدان يقعان فى سفح ثَبِير ، وأحدهما أقرب إلى طريق مكة من الآخر . فأما الأوّل فمسجد الكوثر ، وهو مسجد صغير يقوم فى مكان يروى أن النبى عليه السلام كان به حين أوحى الله إليه سورة الكوثر . والناس يتبرّكون لذلك بهذا المسجد ، ويؤمه كثيرون من الزَّمْنَى يتمرّغون فى ترابه ثقةً منهم بأنه يشفيهم من أمراضهم . أما الآخر فمسجد الخَيْف ، وهو أكبر مسجد بين مكة وعرفات بعد المسجد الحرام ، وكان أكبر من المسجد الحرام فى الصدر الأوّل من الإسلام .

ومسجد الخيف قديم العهد حتّى لتروى بعض كتب التاريخ أن أربعين أو خمسة وأربعين نبيًّا صلّوا فيه . ويذكر بعضهم حديثاً عن الرسول عليه السلام أن هذا المسجد هو الذى تبايعت فيه الأحزاب من العرب واليهود على قتال محمد والمسلمين بالمدينة ، وأن الأحزاب خرجوا منه لغزوة الخَنْدَق .

و بمسجد الخيف صلى رسول الله فى حجة الوداع حين مقامه بمنًى أيام التشريق . ولا يزال المسلمون يصلّون به يوم النحر وأيام الجمرات ، فهو وحده الذى يتسع لعشرات الألوف منهم إذ يجتمعون للعبادة والتعارف

وقلّ أن يصلى بمسجد الخيف أحد فى غير أيام الحج حين تكون الصلاة به سنّة يجتمع لها ألوف المسلمين وعشرات ألوفهم . وهو لذلك البساطة كل البساطة فى عمارته التى لا تزيد على جدران أربعة تحيط بمساحة فسيحة من الأرض ، تتوسطها مبلغة — أو « مكبرية » — لصلاة الجمعة أو الجماعة ؛ على أن الجانب المتصل منه بجدران القبلة مسقوف بقباب قائمة على عمد متينة من الحجر تتسع لما بين الألف والألفين من المصلين . وجدرانه الأربعة متينة البناء . وبابه الكبير معقود على عمد أربعة عقداً قويًّا يبعث فى الذهن صورة الآثار القديمة . وللمسجد أبواب أخرى يسلك المصلّون أثناء الحج طريقهم إليها ، لأن الباب الكبير لا يتسع وحده فى هذه الفرصة لألوفهم الكثيرة

وإن بمنًى لمكانًا يثير الذكرى ويستوقف النظر ، وإن لم يكن فى فسحة مسجد الخيف ولم تكن له عمارة كعمارته . والمسلمون يؤمون هذا المكان أوّل إفاضتهم من عرفات ، وقلّ من يذكر منهم حين وقوفه أمامه أكثر من أنه منسك من مناسك الحج تؤدّى شعائره ؛ ذلك مكان العقبة الكبرى حيث تقوم الجمرة التى يلقيها المسلمون ليتحللوا التحلل الأصغر . هذه الجمرة وعلى مقربة منها مسجد العقبة يثيران فى النفس ذكرى البيعتين اللتين تمتا بين أهل يثرب ورسول الله ، فمهّدتا لهجرته وكانتا بذلك مبدأ الفوز وأذانًا من الله بأن يفتح لرسوله وينصره نصراً مبينًا .

قلّ من المسلمين من يذكر هاتين البيعتين حين يلقى الجمرات على صخرة العقبة . أما أنا فوقفت عند العقبة وعدت إليها من بعدُ كما عدت إلى مسجد البيعة ووقفت عنده طويلا باحثًا عن الشّعب الذى احتمى الرسول والمسلمون من أهل المدينة به حين بايعوه . وإن من الواجب أن يذكر المسلمون يوم إفاضتهم وحين وقوفهم أمام جمرة العقبة هذا الموقف الفذّ فى التاريخ من مواقف

النبيّ العربى ، فهو من المواقف التى وجهت التاريخ وجهة جديدة ، والتى وجهت الإنسانية كلها إلى النور والهدى .

لا يؤدّى الناس أية شعيرة من شعائر الحج بمنًى طول يوم النحر ولا صبح غداته ؛ إنما يتزاورون يهنئ بعضهم بعضًا بالعيد ، ويفضى بعضهم إلى بعض بخلجات نفسه ، ويذهب كثيرون منهم فى صحوة الصباح من ثانى أيام النحر ليشتركوا فى تشريفة الملك ابن السعود وفى تشريفة كل من ولديه سعود ولى عهده وفيصل نائب الملك بالحجاز ووزير خارجية المملكة العربية وأمير مكة .

ولقد ذهبت مع جماعة من أصحابى نحضر هذه التشريفة للملك وولديه . وتشريفة الملك تقع فى قصر أقيم له بمنًى منذ سنوات قليلة . وفى نعت هذا المكان بالقصر شىء غير قليل من التجوّز ؛ فهو أبسط فى أثاثه وفى بنائه من أن يسمى قصراً وإن اتسعت أرجاء غرفه . والذين يذهبون لحضور التشريفة ينتظرون قبل الدخول على الملك فى خيام أقيمت أمام القصر . وليس فى هذه الخيام دفاتر يكتب الناس أسماءهم فيها ؛ ولا يسأل أحد من الجند ولا من حاشية الملك أحداً من الذين قصدوا إلى التشريفة عن اسمه أو جنسه أو أى شىء من أمره . ويقوم الناس من الخيام فوجًا بعد فوج دون اعتبار للطوائف أو لغير الطوائف . فإذا بلغوا باب القصر ارتقوا أربع درجات تؤدّى إلى باب هو باب الغرفة التى يستقبل الملك فيها . ويمر الناس به ويحيونه ، فيدعو ذوى المكانة منهم إلى الجلوس فى المقاعد المجاورة له . ولم يكن يرضى أوّل ملكه على الحجاز عن تقبيل أحد يده لما فى ذلك من مخالفة عقيدته الوهابية ، ومن مخالفة قواعد الإباء والشمم العربية . على أن أهل الحجاز أصرّوا على تقبيل هذه اليد ، فصار فى السنوات الأخيرة لا يحول بينهم وبينها ، أما النجديون فلا يزالون كما كانوا يهزّون يد عاهلهم ويسمونه باسمه ويحيونه بتحية الإسلام ، فيقول له أحدهم: كيف حالك يا عبد العزيز ؟ فإذا أرادوا المبالغة فى التحية أطلقوا عليه لقب « طويل العمر » . ويمرّ المهنئون بالملك ، ويشرب المقرّبون قهوته النجدية ، ويلقى بعضهم أمامه القصائد والخطب ؛ كل ذلك فى بساطة بدوية تطأطئ

أمامها الديمقراطية إكباراً وإجلالا .

أما سعود وفيصل فيستقبل كل منهما فى خيمة فسيحة لا مقاعد فيها . ويجلس كل منهما على فراش بسيط . فإذا دعا أحدهما بعضَ ذوى المكانة للجلوس إلى جانبه جلسوا على البساط المفروش فى الخيمة .

خرجت بعد التشريفة أطوف بمنًى لأرى بعض الصحاب وزملاء الحج . وخيمتا سعود وفيصل تتصلان بمضارب الخيام القائمة فى مسيل الوادى الفسيح بين جبلى منًى . وهذه المضارب أشدّ من مضارب عرفات تشابكًا ، لأن بطحاء عرفات أكثر فسحة . وحبال الخيام تلتق وتشتبك بعضها ببعض حتى ليتعذر على الإنسان أن ينتقل بينها دون مشقة . وما أدرى كيف يهتدى إليها أصحابها ولا كيف يُعلّمونها . على أن لإخواننا المصريين من اليسر فى ذلك ما ليس لغيرهم ؛ فهم يتخذون مضاربهم إلى جانب السبيل المصرى أو على مقربة منه ، فلا يتعذّر عليهم أن يجعلوا من هذا السبيل مناراً للاهتداء به .

والسبيل المصرى هو وحده الواحة الباسمة وسط هذه الجبال والرمال العابسة الجرداء . بنَتْه مصر فى عهد الملك فؤاد الأوّل بناء أنيقًا على الطراز العربى كبناء مساجد القاهرة أو دار الكتب المصرية . تراه من بعيد فيتعلّق به نظرك ، وتسير إليه فيلقاك سور محيط بحديقة فسيحة أمام البناء . تتخطى الباب فإذا أنت بين خضرة باسمة ونبات وزهر ، وإذا عن يمينك مجلس صفت على بسطه وسائد يستند إليها الجالسون فيه . ويستقبل الموظفون المصريون كلّ مسلمٍ قصد إلى السبيل فى أىّ من أيام العيد بكل إكرام وتجلة ، هذا وإن وجد أولئك القاصدون سبيل مصر فى المياه الصالحة التى يشربونها به غاية ما يطمعون فيه .

دلفت بعد التشريفة إلى السبيل ، فكان لنفسى مسرةٌ أىّ مسرة . إنه فلذة من وطنى قامت فى هذه البقعة المقدّسة فتحدثتْ عن وطنى خير حديث . إنه مصر تنتظر أبناءها الذين جاءوا ملبين ربهم ليكونن مثابتهم للقاء إخوانهم المسلمين ممن ينظرون إلى مصر نظرة تقدير ومحبة وإخلاص . إنه المأوى لمن شاء أن يتخذ من الحج فرصة اجتماع للتحدث فى شئون المسلمين كافة . كان به

ساعة دخلته طائفة من بنى وطنى ومعهم مسلمون أحدهم هولندى وآخر صينى من أقصى الشرق وبين هذا وذاك من مختلف الأمم ألوان شتّى . ولم يطل بى المقام ولا الحديث حتى رأيتنا جميعاً نحس إحساساً واحداً وتحركنا عاطفة واحدة هى عاطفة الأخوة الإسلامية الصادقة . فالهولندى الجالس إلى جانبى ، والمغربى الجالس قبالتى ، والجاوىّ الذى يجاورنى ، نحن جميعاً عباد رب واحد لا إله إلا هو ، لا نعبد إلا إياه ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دونه . فأرض الله أرضنا جميعاً ، وسماؤه سماؤنا جميعاً ، وما خلق جل شأنه فى السموات والأرض هو لنا جميعاً ، والله جلّ شأنه يورث ذلك من يشاء من عباده الصالحين .

سمعنا جميعاً فى خشوع وإنابة إلى قارئ يرتل القرآن ترتيلا حسناً بصوت جميل . ثم تناول حديثنا الحج وشئون المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . عند ذلك ذكرت قول رسول الله : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فازداد شعورى بإخاء المسلمين فى أقطار الأرض جميعاً عمقاً وقوة ، وجعلت أنصت إلى حديث المجتمعين معى بهذا السبيل المصرى وأنا أشدّ ما أكون تعلقاً بهم ومودةً لهم .

وتركت السبيل أبتغى زيارة بعض معارفى فى الخيام المتصلة به . وبعد لأى فى السير بين خيام يقصر الطرف دونها ألفيت أصحابى جلوساً بها تحت سقوف واطئة يَتَسَلَّظون بحرّ الشمس وما نزال فى الشتاء . تُرى ما حال أمثالهم إذا استدارت أشهر الحج إلى أيام القيظ وأرسلت الشمس من أشعتها شواظاً ولهباً ! أوَ لا يجمُل بأهل البلاد وبحكومتها أن يقيموا بدل الخيام مساكن قليلة النفقة يجد الحاج فيها من طمأنينة الحياة ما لا يجده فى الخيام! . وأفضيت بهذا السؤال إلى بعضهم ؛ فعجب منه وظن فيه تيسيراً لمشقة الحج يذهب بالكثير من ثوابه ، لأن الأجر على قدر المشقة . وعجبت لما قاله صاحبى وسألته : أفلا يشجِّع التيسير الناس على أداء الفريضة فيزداد عدد الذين يؤدونها وينالون ثوابها آلافاً مؤلفة ! .

وأويت إلى الدار ممتلئ القلب بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وشغل ذهنى أمر المنازل فى منّى حين الحج . أوَ ليس حقاً على الذين آتاهم الله من فضله أن يعملوا لمزيد من الطمأنينة لإخوانهم الذين يحجون البيت ، كما يفكرون فى طمأنينة أنفسهم ! لقد كان النبىّ وأصحابه يقيمون بالخيام أيام مِنًى لأن الخيام كانت منازل ذلك العصر فى شبه الجزيرة ، فلم يكن أحد من أهلها ليضيق بالخيام ذرعاً . أما اليوم فهذا عاهل شبه الجزيرة ابن السعود ، وهو بدوىّ شديد الولع بالبداوة ، وهؤلاء أبناؤه وأهله ووزراؤه وذوو اليسار من عشيرته ، يقيمون فى منًى بمنازل توفّر من الطمأنينة ما لا توفر الخيام ، وإن كانت البساطة كلّ البساطة ولم يكن فيها من الترف شىء . فمن الحق علينا لكمال إيماننا أن نوفر مثل هذه الطمأنينة لكل من نستطيع أن نوفرها لهم ممن يفرضون الحج ويجيئون إليه من أقصى الأرض .

عدتُ غداة يوم النحر من رجم الجمرة الوسطى ومعى صاحب يسألنى عن رجم الجمار ما حكمته وأية مثوبة فيه ؟ وتمثل لى وأنا أسمع لقوله صاحب عرَفات إذ يقول : إن مناسك الحج فروض نؤديها ولا نعرف حكمتها ؛ كما ذكرت ما يقوله أهل الحجاز من أنهم إنما يرجمون الشيطان بالجمرات حتى لا يعود فيوسوس إليهم ليردّهم إلى المعصية والإثم . لكن صاحبى لا يقتنع بهذا القول ولا بذاك ، وإنما يريد أن يعرف رأى المجدّدين من مفكرى المسلمين . قلت له : إن هؤلاء العلماء يرون فى إلقاء الجمار إعلانَ المشيئة على طرح ما فى النفس من زيف ، وصدقَ الإرادة لدوام طهرها بعد أن غفر الله بالحج ماضى حَوْباتها ، وإشهادَ ملأ المسلمين على ذلك كله . قال صاحبى : « هذا كلام أدنى إلى تصوّر العقل ، وإن يكن كلام أهل الحجاز أكثر اتفاقاً مع ما يقصّه الرواة الأقدمون فى بطون الكتب ، لكنى أحسب حكمة الله أبلغ من هذا ومن ذاك » .

وتداولنا الحديث فى الأمر ، وانتهينا إلى رأى لعله أكثر اتفاقاً مع ما جاء

فى القرآن من حكمة الحج . فأول اجتماع للمسلمين فى الحج بعرفات . وهم يومئذ يجتمعون مُحرمين ملبّين مستغفرين ربهم مستمعين إلى خطاب أمير المؤمنين أو من ينوب عنه . وفى ذلك كله ما يشغلهم عن التعرف والتشاور وشهود المنفعة المشتركة التى تربطهم بعضهم ببعض . لذلك وجب عليهم ، متى أفاضوا من عرفات ونزلوا منى ، أن يجتمعوا وأن يتعارفوا وأن يشهدوا منافع لهم . واجتماع ألوفهم المؤلفة ساعات معدودة لا يحقق هذا الغرض . لذلك فرضت أيام النحر الثلاثة ليُحسنوا التعارف والتشاور وشهود المنافع . ولإتمام ذلك بما يتفق وروح الإسلام وجلال موقف الحج سُنّت لهم مناسك يؤدّونها إلى الله لتظل نفوسهم نقيّة وأرواحهم طاهرة . وأى مَنسك خيرٌ من أن يشهدوا العقبة التى شهدها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يُلْقو بسواعدهم جمرات يعلنون بإلقائها أنهم على عهده فى بيعة العقبة ، ينفع بعضهم بعضًا ويذود بعضهم عن عقيدة بعض ، ويكفل الكل بذلك حرية العقيدة الإسلامية وحرية الدعوة إليها ، ويشهدون على أنفسهم إذ يلقونها أنهم على استعداد لإلقاء مثلها فى وجه عدوّهم إذا حاول فتنتهم عن دينهم أو حاول إخضاعهم وقهرهم .

لعلّ هذا الرأى أدنى من غيره إلى روح الإسلام وحكمة الله فيه . فهذا الدّين كله البأس والقوة على الحياة ، وكله النظام الذى يضاعف هذه القوة أضعافًا مضاعفة . ولقد جمع الإسلام بين النظام والحرية ما لم يجمع بينهما دين غيره . هو يصل بالحرية إلى غاية حدودها ، وبالنظام إلى غاية حدوده ؛ فلا عبادة إلا لله ، والأمير ورجل البادية سواسية فى التزام حدود الله . ومن يتعدّ منهم حدود الله فقد ارتكب إثمًا وبهتانًا عظيمًا . هم فى هذا سواء وإن تفاوتوا فى الثروة وفى الجاه وفى كل مظاهر هذه الحياة الدنيا . والحرّية أعزّ ما يحب الإنسان لنفسه ؛ ويجب أن تكون أعزّ ما يحب لأخيه إذا أراد أن يكمل إيمانه . وحُرية الفرد مِلاكها قوة الجماعة . ولا قوّة لجماعة إلا بالنظام يبلغ من دقته أن يكون كنظام جسم الفرد فى تألف ذرّاته وفى اتساق عملها جميعًا تمام الاتساق ، كلّ اضطراب فى هذا الاتساق يفسد حياة الفرد ويجعله

عُرضة للأمراض والعلل . وكل اضطراب فى نظام الجماعة يُضعفها ويجعلها عُرضة لتسلط الغير عليها ولتحكُّمه فيها .

ومظهر النظام فى الإسلام بالغ غاية الدقة من غير أن يجنى مع ذلك على الحرية أو أن يمسها . وهو يقوم على أساس من المساواة الصحيحة والتعاون الصادق . ذلك شأنه فى أركان الإسلام جميعًا . فى صلاة الجماعة ؛ وفى الصوم ، وفى الحج . ومظهره فى الحج أوضح جلالا وأعمق فى النفس أثراً . واجتماع المسلمين بمنًى وإلقاؤهم الجمرات ختامُ شعائر الحج بعد الوقوف بعرفة والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة . أما وغاية الحج اشتراك المسلمين من أقطار الأرض فى التفاهم على منافعهم واشتراكهم فى ذكر الله ، فيجب لنجاح هذه الغاية أن يبلغ نظامهم أثناء الحج غاية الدقة ، ويجب لذلك أن يكون إلقاء الجمرات والتعارف والتشاور خيراً مما هى اليوم نظامًا .

والمسلمون يشعرون اليوم بواجبهم فى تحقيق هذه الغاية أكثر مما كانوا يشعرون به من قبل . دعا الشباب العربى السعودى ذوى المكانة من الذين جاءوا يؤدّون فريضة الحج من أهل الأمم المختلفة إلى اجتماع بمنًى للتعارف والتشاور . وقد اجتمعنا فى الموعد المضروب ، وجاء مجلسى بين هندى وتونسى . وبادل الداعون ضيوفهم التحيات ؛ وأحدثوا بينهم من التعارف ما يُستطاع إحداثه فى مثل هذه الحفلة ، ثم دعوا بعضهم ليتحدثوا إليهم . وكم تمنيت لو كان بين من يؤدّون فريضة الحج من أهل المكانة والرأى والكلمة المسموعة فى بلادهم من يحضرُ مثل هذا الاجتماع ، لتتم حكمة الحج ، ولتكون مكة مقرًّا لعصبة الأمم الإسلامية تسمع كلمة أهلها ويكون لهم فى العالم رأى معدود . لكن ذوى الكلمة المسموعة ممن حضروا لم يكونوا يمثلون من العالم الإسلامى إلا أقله ، ولم يكونوا يقصدون باجتماعهم إلى غاية وراء الاجتماع . لذلك ضَعُفَ الرجاء فى أثر ما ألقوا فى هذا الاجتماع من أقوال لم تتعدّ الدعوة العامة إلى إخاء المسلمين وتحابّهم . ولو اجتمع ذوو الكلمة المسموعة لغاية يريدون تحقيقها لكان لاجتماعهم أثر يدوى فى العالم كله . .

أزمعت الانصراف عن منًى عصر اليوم الثالث من أيام النحر ، ومررنا بالجمرات فرجمناها ، ثم أقلتنا السَّيارة تؤمّ مكة . واسترعى « حِراء » نظرنا ساعة مررنا به ، وأذكرني تحنُّث النبيّ العربيّ فوقه ونزول أول الوحيّ وأول الرسالة عليه بعد سنوات من تحنثه . فلما أويت إلى الدار واشتملني مُخْدعي بها جعلت أفكر : لقد أتمّ الله لى فريضة الحج ، وهأنذا الآن بمكة مسقط رأس محمد ، أفأغادرها إلى المدينة لأزور قبره ثم أعود إلى وطني ؟ ! . . وأطرقتُ هنيهة إذ تمثّل لى حِرَاء ، وامتثلت محمداً فوقه فى عزلته ، ثم امتثلته يوم الوحى الأولّ عائداً إلى خديجة يقول : « زمّلونى زمّلونى » . ولمّا تمثل لى فى حياته كلها آليت على نفسى أن أبقى لأسير حيث سار ، ولأتبع خطواته قبل هجرته من مكة وبعد عوده إليها فاتحًا ، علّى أتزوّد من ذلك بما ينفعنى قبل أوبتى إلى قومى ، فإذا عدت إليهم عدتُ وفى يدى قبضة من أثر الرسول .

الكتاب الثاني

البلد الحرام

مكة الحديثة

أشرت لماماً إلى ما رأيت بمكة أوّل نزولى بها ، وذكرت دار مُضيفى ودار وزير المالية وقصر الملك وصورة عمارتها . ولقد حاولت أن أجد فيها ، وفى المنازل التى دُعيت أثناء مقامى بمكة لزيارتها ، والمنازل التى نزلت بها بضواحى مكة ، ما أستشفّ منه روح عصرنا الحاضر فى العمارة أو فى نظام الحياة ، فعدتُ من محاولتى مقتنعاً بأن مكة القديمة الخالدة ما تزال بريئة من هذا الروح ، وإن لم يبق فيها كذلك شيء من الروح العربى القديم مما تحدثنا به تواريخ مكة من عدّة قرون . وغاية ما يستشفه الإنسان من خلال الحياة فى أمّ القرى اليوم ، فذلك أن شبابها يصبو بكل وجدانه إلى الحياة الحديثة ، وأن هذه الصبوة لم تقم بنفسه إلا بعد أن انفصل الحجاز عن دولة الخلافة بالثورة التى أعلنها الحسين بن علىّ ، والتى يسمون ما تلاها عهد النهضة . لذلك لم يبلغ الشباب من أمانيهم شيئاً مذكوراً ، بل بقيت تمثل حياتُها خليطاً من حياة البلاد الإسلامية المختلفة فى المراتب البُدائية من هذه الحياة . ولا عجب ! فأهلها اليوم هم على الحقيقة خليط من أبناء البلاد الإسلامية قصدوا المدينة المقدسة حاجين ، ثم جذبتهم قدسيتها فأقاموا بها ، ومنهم من تيسرت له أسباب العيش ، ومنهم من ظلّوا يعتمدون فى عيشهم على الصدقات وعلى معاونة الحاجين فى أداء الشعائر .

وصَبْوة شباب مكة للحياة الحديثة قوية آخذة بنفوسهم تدفعهم إلى تَتَبُّع ما يكتب ويقال عن هذه الحياة وإلى التعلق بما يظنونه من صورها وأمثالها . ويبلُغ اندفاع بعضهم فى هذا السبيل حدّاً يكاد ينكره ماضى البلد الحرام فى العصور القريبة ، بل يكاد ينكره حاضره ممثّلا فى الجيل الذى تخطى الشباب إلى الكهولة . فهذا الجيل ما يزال يفكر تفكيرَ الآباء : يبالغ فى تصوير الإسلام لله مبالغة تنعدم معها الإرادة الإنسانية وينعدم معها الفكر الإنسانى ، ولا يرى

فى غير ما قاله السلف شيئًا يُحترم أو يعار التفاتةً ؛ بل يرى فى العلوم والفنون الحديثة أفانين من لهو الخيال لا تتصل بالحق أىّ اتصال جدير بأن يثير عناية الذهن .

كان الشيخ حافظ وهبه — ممثل الحكومة العربيّة السعودية لدى بلاط لندن الآن — مديراً للتعليم بالحجاز إلى سنة ١٩٣٠ . وقد أراد أن يُصلح التعليم بإدخال علوم الجغرافيا والرسم واللغة الأجنبية فى المدارس الابتدائية الموجودة دون سواها بالحجاز . لكن العلماء وكبار المشايخ من أهل نجد ما لبثوا حين سمعوا بأمر هذا الإصلاح أن ثارت ثائرتهم واحتجوا لدى الملك ابن السعود على هذا البدع المنكر . واتصل الشيخ حافظ بهم وحاول إقناعهم بأن لا بدعةَ فيما صنع . فأجابوه بأنهم أبدوا للإمام عبد العزيز الحجج التى لا تُنْقَض عما يترتب على هذه العلوم من فساد ؛ فالرسم هو التصوير وهو محرم قطعًا ، واللغات ذريعة للوقوف على عقائد الكفّار وعلومهم الفاسدة ؛ وفى ذلك الخطر على الأخلاق والعقائد . وأما الجغرافيا ففيها كُرَوية الأرض ودَوَرَانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف . ولقد استطاع الشيخ حافظ أن يتغلّب على عناد كبار المشايخ ، لا من طريق إقناعهم ، ولكن من طريق تأييد الملك إيّاه .

وهذا الذى يقول به علماء نَجْد هو ما يقول به أهل الحجاز ممّن سوَى الشباب . ولا عجب فى ذلك وقد بقى التعليم مهملا فى بلاد العرب إلى عصرنا الحاضر . يقول الشيخ حافظ فى كتابه (جزيرة العرب فى القرن العشرين) : « الأمية تكاد تكون سائدة فى جزيرة العرب . وربما كانت أول محاولة لتثقيف العقول والقضاء على شىء من الأميّة كانت من جانب السيد محمد على زين الرّضا فى الحجاز ؛ فإنه فى سنة ١٣٢٦ هجرية وما بعدها قام بإنشاء مدرستين : إحداهما فى جدّة والأخرى فى مكة . ومع ما وُضع فى طريقه من العقبات وما أحيط به مشروعه من الشكوك من الأتراك والأشراف فإن هذه المدارس قد قامت بنصيب وافر فى الحجاز . وربما كانت الشبيبة الموجودة فى

الحجاز اليوم هى من غرس هذه المدارس . وهذه المدارس ، وإن كانت تسير فى التعليم على الطريقة القديمة العتيقة التى تعتمد على الحفظ لا على التفكير ، كانت المدارس الوحيدة فى الحجاز . على أننا لا ننسى هنا بعض المعاهد التى أسسها الهنود فى مكة والمدينة فإنها قامت أيضًا بنصيب يذكر ، وكل ما كان فى الحجاز هو حلقات الدروس فى المسجد الحرام على نظام التدريس فى الأزهر قديمًا . ولم يكن العلماء يلمون إلا ببعض العلوم الشرعية واللغوية »

هذه الشبيبة التى يذكرها الشيخ حافظ هى التى تصبو بوجدانها للحياة الحديثة ويتعلق خيالها بما تظنه صورها وأمثالها . وشبيبة ذلك مبلغها من العلم لا تستطيع أن تحدث فى حياة بلد مقدس كمكة انقلابًا فى نوع العيش أو فى تفكير أهله . لذلك ما يزال الأمر فى التفكير إلى الأقدمين ، وإن كان النشاط العملى لهذه الشبيبة المتحركة المترامية المطامع والآمال . والتفكير هو الذى يصوغ الأشياء على غراره . فبيتك الذى تقيم به ، وغرفتك التى تكتب فيها ، ومكتبك وتنظيم الكتب عليه ، كل ذلك مظهر من مظاهر تفكيرك . وتخطيط المدن والعناية بالميادين فيها وتنظيم عمارتها هو كذلك مظهر لتفكير أهل المدينة . أما وتفكير أهل مكة ما يزال محافظًا على قديم لا هو بالعربى الصرف ولا هو بالإسلامى الصرف ، ولكنه خليط مما قدمنا ، فإن عمارتها وطرقها ومسالكها هى كذلك من هذا النوع ، لما يغزها التغير ولما تعمل فيها أيدى التجديد والبناء .

ولو جازت المقارنة لعدت إلى كلمة الشيخ حافظ من أن التعليم فى الحجاز كان على نظام التدريس فى الأزهر قديمًا . وحسبك أن ترجع إلى كتاب من كتب الأزهر القديمة وإلى نظام وضعه لترى صورة الحياة بمكة حتى فى التنظيم والعمارة . فأنت ترى المتن فى كتب الأزهر منثوراً خلال الشرح محاطًا بالحاشية وعليه إلى جانب ذلك التقرير ، مما يجعل هذا وذاك متداخلا بعضه فى بعض وما لا يدع فى فراغ الصحيفة بياضًا قط . القراءة فى هذه الكتب تطبع التفكير بطابع صورتها ، وتطبع الحياة بطابع هذه الصورة كذلك . وهذا ما لا تزال

تراه بمكة ، وما كنت تراه إلى عصر قريب جدًّا فى الأحياء المحيطة بالأزهر . وقد أزيل جانب عظيم من هذه الأحياء فى العهد الأخير من حياة مصر . لكنك إذ ترى ما بقى من آثار حين تخترق الأحياء التى ما تزال باقية على حالها كحىّ الكحكيين وما جاورها ، ترى فيها الأثر الواضح لهذا النوع من التفكير .

وإنما حدث هذا التجديد بالقاهرة وببعض مدن الشرق الإسلامى فى عهود متأخرة . أما إلى أوائل هذا القرن العشرين فقد كانت هذه المدن مخططة تخطيط مكة اليوم ويسودها تفكير كتفكير كهول مكة فى هذا الزمن الحاضر ؛ بل لقد كانت مكة أسبق إلى التقدم فى كثير من العصور فى عمارتها وفى لون الحياة عند أهلها . وهى من أقدم مدن الأرض برواية التاريخ الإسلامى . وقد ذكر أبو التاريخ « هيرودوتس » بيتها الذى تعظمه العرب . وهيرودوتس عاش بين سنة ٤٨٤ وسنة ٤٢٥ قبل الميلاد ؛ أى منذ أكثر من ألفين وأربعمائة سنة . لكن بيتها المعظم أحاطها بجلال جعل منها مثابة الرائح والغادى فى كل العصور . وجعل أحدث ألوان التفكير والحياة ترد إليها لا على أنها أجنبية عنها غازية إياها ، بل على أنها مقبلة فى إجلال وإكبار إلى دار السلام مقرّ الحقيقة فى أسمى صُوَرها . وأكبر ظنى أن يكون ذلك شأنها من حياتنا الحديثة فى زمن غير بعيد .

ولقد زارها الرّحالة السويسرى « بورخارت » الذى أعلن إسلامَه وتسمى باسم الحاج عبد الله فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحىّ — سنة ١٨١٥ — وكتب عنها طويلا فى مؤلفه (جولات فى بلاد العرب) . ومراجعة ما كتبه تؤيد أنها كانت موضع تجديد دائم يتم فى رفق وعلى هون ، ولا تبدو فيه مظاهر الثورة التى لا تتفق ومهابة البلد الحرام ووقاره . يقول « بورخارت » فى وصفه ما ترجمته : « الميدان العام الوحيد فى قلب البلد هو مربع المسجد الفسيح . وليس ثمة أشجار أو حدائق تبهج النظر . وإنما تدب الحياة إلى مكة أثناء الحج بما يملأ الحوانيت الكثيرة المنتشرة فى كل أنحائها من ألوان التجارة . وفيما خلا أربعة منازل أو خمسة يملكها الشريف ، ومدرستين صارتا مخازن للغلال ،

والمسجد بما حوله من المبانى والمدارس ، فلا فخر لمكة بأية عمائر عامة تقوم بها . وربما كان نقصها فى هذه الناحية أشد وضوحاً من مثله فى أىّ بلد شرقى آخر فى حجمها . فليس بها « خانات » لنزول السائحين بها أو إيداع البضائع إياها ، ولا ترى فيها قصوراً للعظماء ، ولا مساجد كالتى تزين كلّ حى من أحياء بلاد الشرق الأخرى . وقد يكون السرّ فى عدم وجود عمارات فخمة بها تقديس أهلها معبدهم تقديساً يحول دون إقامة بناء يُخْشَى أن ينافسه .

« وطريقة البناء عندهم شبيهة بطريقة البناء فى جدة ، مضافاً إليها نوافذ مطلّة على الطريق يبرز الكثير منها من الجدار ويحيط به إطارٌ متْقَن الحفر أو دقيق التلوين . وتتدلى أمام النوافذ أستار من عيدان دقيقة تمنع الذباب والبعوض وتُدخل الهواء النقىّ . ولكل بيت سطح مرصوف بالحجر فى ميل لطيف تنزلق عليه مياه المطر إلى ميازيب تلقى بها فى الطريق . فأمطار مكة ليست منتظمة السيلان ؛ ولا يتيسر لذلك جمع مياهها فى خزّانات ، كما يفعلون فى سوريا . وتُحْجَب الأسطح عن الأبصار بجُدُر قصيرة . ذلك لأنهم فى الشرق يرون الظهور على السطح غير لائق بالرجل حتى لا يتهم بالنظر إلى النساء فى الدور المجاورة . فالنساء يقضين كثيراً من الوقت على الأسطح مشتغلات بأعمال منزلية شتى كتنشيف الغلال أو تجفيف الملابس وما إلى ذلك .

« وفيما خلا منازل السّراة وذوى الرياسة تبنى منازل أهل مكة لراحة النازلين بها ، فتقسم إلى شُقَق فى كل منها غرفة للجلوس ومطبخ لتكون صالحة لنزول الحاجّين بها .

« والطرق كلها غير مرصوفة ؛ ولذلك يشتد أذى الرمل والتراب صيفاً ، كما يشتدّ أذى الوحل فى الفصل المطير ؛ إذ يتعذّر المرور بها بعد نزول المطر ، ويبقى ذلك شأنها حتى يجفّ الماء منها . وربما عزى إقفار مكة من المبانى القديمة إلى انهمار السيول المخربة ؛ فهى تنهمر بقوّة وغزارة ، وإن كانت أقصر أمداً من مثلها فى البلاد الحارة الأخرى . وقد أصاب المسجدَ نفسه من هذه الأمطار

ما قضى بإصلاحه غير مرّة على عهود سلاطين مختلفين ، حتى ليسمى لذلك بناء حديثاً . أما المنازل فلا أحسب أقدمها ترجع عمارته إلى أكثر من أربعة قرون . من ثمّ لم تكن مكة موضع بحث السائح عن ألوان العمارة القديمة التي تسترعى النظر ، أو عن بقايا المبانى العربية الجميلة مما يثير الإعجاب فى سوريا ومصر وبلاد المغرب وأسبانيا . وإن أصغر مدن سوريا ومصر لتسبق فى هذا المضمار مكة القديمة الذائعة الصيت .

« ومكة متأخّرة من حيث نظام الشرطة المعروف فى مدن الشرق . طرقها حالكة الظلام فى الليل لا يضاء بها مصباح . وأحياؤها لا أبواب لها ؛ فهى بذلك تختلف عن أكثر بلاد الشرق ؛ إذ يُقْفَل كل حىّ فيها بعناية تامة كل ليلة عقب الصلاة الأخيرة . وتُلْقَى بقايا منازلها فى الطرقات لتصير تراباً أو وحلا يختلط بما فيها على اختلاف فصول السنة .

« والماء ، وهو أهم ما يطلب الآسيويون وموضع سؤالهم الأول ، ليس خيراً فى مكة منه فى جدّة ؛ فالصهاريج التى تجمع مياه المطر قليلة جدّا ، ومياه الآبار غير صالحة للشرب وإنْ شَرِبتها فى موسم الحج طبقات الحجاج الدنيا . وبئر زمزم المشهور بالمسجد الحرام تكفى بالفعل حاجات البلد ؛ لكن مياهها عسيرة الهضم غير مقبولة الطعم على قداستها . مع ذلك تمنع الطبقات الفقيرة من أن تنال منها بغيتها . وخير ماء بمكة هو المجلوب من عرفات على ست ساعات أو سبع من البلد الحرام . وهو مجلوب فى مَجَار مبنية بالحجر لا تنظف . ولقد سمعت أن لها اليوم خمسين سنة لم تمسها يد التطهير ؛ وهذا ماء عين زُبَيْدَة » .

هذا الوصف يرسم أمام الذهن صورة بلد شرقى فى أوائل هذا القرن ، ويدلّ بذلك على أن مكة كانت دائمة التطور فى حياتها إلى ما تتطور إليه المدن الإسلامية الأخرى . وما يذكره الشيخ حافظ وهبه من تفشى الجهل بها ، وما يصوّره « بوركهارت » منها منذ قرن وربع قرن ، لا يردّها عن مصاف البلاد الشرقية المتقدمة . على أن طابَعها الخاص يجعل تطوّرها غير متأثر بعقليّة

أهلها أو خاضع لتفكير ذاتى نستطيع أن نسميه التفكير العربىّ أو التفكير المكىّ .

فمكة اليوم ليست بلداً عربيًّا ، ولم تكن بلداً عربيًّا منذ زمان طويل مضى . إنما هى كعبة المسلمين ، فهى بلد الإسلام على اختلاف أجناس أهله ولغاتهم . وأنت تراها كذلك اليوم ، وكذلك رآها « البتانونى » ورآها « بورخارت » قبله ، كما رآها كذلك كل الذين زاروها فى حِقَب الزمن المختلفة . وأنت إذا ذكرت أن المـُلْك لم يبق عربيًّا صرفًا بعد الأمويين ، بل دخلت العجْمة بِطانته منذ العباسيين ، وتقلّبت عليه من هذه العجمة الأشكال والألوانَ أدركت السر فى أن يستدرج بلدُ المسلمين جميعًا هذه الأشكال والألوان إليه . فإذا علمت أن أغنياء المسلمين من مختلف الأصقاع يُجْرُون الصدقات والأعطيات على كثيرين ممن يقيمون بمكة ، وأن منهم من يجريها على قوم بالذات من المغرب أو من الجاوة أو من الهند أو الأتراك أو الأفغان أو التكارنة ،لم يبق لديك موضع لعجب أن تجمع مكة شتيتًا من هؤلاء جميعًا ، ترفع الأقدار بعضهم إلى مكان الرياسة ، وتمسك آخرين عن مجرى الأرزاق ليعيشوا من حسنات المسلمين .

خرج المُلْك من مكة منذ فتحها النبىّ العربىّ ،ولم يعد بعد ذلك إليها ، وإن بقيت عاصمة الحجاز من عهد الأمويين . فقد استأثرت المدينة بالسلطان من يوم فتح الرسول مكة إلى أن انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم انتقل الملك من بعد ذلك إلى دمشق وإلى بغداد وإلى القاهرة وإلى الآستانة ؛ واتصلت الخلافة بالملك فى هذه البلاد جميعًا . أمّا البلد الأمين فقد انحلّت عنه السلطة الزمنية وإن بقى له بالبيت الحرام كلّ الجلال الروحىّ . ولما قام الحسين بن علىّ الهاشمى فأعلن الثورة على الأتراك وانضم إلى الحلفاء فى سنة ١٩١٥ ، حاول أن يجعل من مكة عاصمة العرب لا عاصمة الحجاز وحده ؛ فكان هذا بدء الخلاف بينه وبين ابن السعود فى نجد ، وكان المقدّمة التى انتهت إلى جلاء الحسين وأبنائه عن الحجاز واستئثار آل سعود بأمره . وكذلك عادت مكة

عاصمة الحجاز وحده كما كانت منذ زمن الأمويين .

وكانت مكة على حِقَب العصور ميدان صِدام بين المذاهب الإسلامية التي تنازعت الملك ؛ وهي اليوم ميدان صدام بين المذهب الوهابيّ وسائر السنيين من المسلمين . فالنجديون الحاكمون يتبعون مذهب ابن عبد الوهاب ، وهو مذهب أحمد بن حنبل ؛ وهم يتبعونه في شِدّة وغلوّ كانا أوضح أثراً أوّل تسلطهم على الحجاز في سنة ١٩٢٦ . ويقرّ كثيرون بأن الوهابية طهّرت البلد الحرام من مفاسد كثيرة كانت تجرى فيه . يذكر « بورخارت » أنه رأى حوانيت قائمة بالمسعى بين الصفا والمروة تبيع الخمر وإن كانت لا تعرضها للبيع إلا ليلا . وكانت زُمَر المسلمين من أخلاط الأمم ترخى لشهواتها أعنتها ، فتشهد مكة من مختلف ألوانها ما لا يجتمع في بلد واحد . أما اليوم فلا شيء من ذلك فيها . وإذا بلى أحدهم بشيء منه استتر . وإنما يشكو الناس من الإغراق في المنع وإن كانوا يعترفون بأنه خفّ اليوم ، فلم يعد شيئاً إلى جانب ما كان منذ سنوات ، إذ كانت جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النجديين تطوف بأنحاء مكة فتردع وتزجر وتوقع العقاب بالناس لما تراه هي منكراً ، وإن لم يكن منكراً في رأى أكثر المسلمين . كان الرجل الذي لا يُرخى لحيته عرضةً للأذى . وكان من يدخّن علناً معرّضاً من صرامة هذه الجماعات لما لا يحب ولا يرضى . أما اليوم فقد بطل عمل هذه الجماعات وإن بقى أثره ، وإن بقى من هذا الأثر أن صار الناس يرون الكبيرة كبيرةً حقّاً ، تستحق الازدراء والتعزير لا التسامح والإغضاء .

على أية صورة تكون صبوة شباب مكة إلى الحياة الحديثة في هذه البيئة المحيطة بهم ؟ وما هي هذه الحياة الحديثة في نظرهم ؟ أهي حياة الفكر الحرّ ؟ كما يصوّر الغرب الفكر الحر ؟ أهي حياة العلم والبحث العلمي كما نراها نحن في مصر أو كما يراها أهل أوربا ؟ أهي حياة الصناعة وتسلّطها على قوى الطبيعة وإخضاعها إياها لإرادة الإنسان ؟ أم أنها ليست هذا كله لأن هذا كله لا يتفق وحياة مكة وتفكير أهلها وقدسية ما فيها ، وإنما هي نوع آخر أدنى

إلى ما يسمّونه أدب القوة وأكثر إيماناً بأن الأمم الأخلاق ؟ الحقيقة أنك لا تستطيع أن تعرف. وشبابُ مكة أنفسهم لا يعرفون أية ناحية من هذه الحياة الحديثة يأخذون ، وأية ناحية منها يدعون . هم يرون بلادهم ضعيفة ، ويرون لغيرهم السلطان عليها ، ويرون من آثار مصر وما تنقله من ثمرات الغرب الأدبية والعلمية ما يُعجبهم ؛ فهم يريدون أن تكون لهم مثل هذه الآثار ، ليكون لهم من الحياة حظ كهذا الحظ الذى يتصوّرونه منها لأهل مصر ولأهل الغرب ، دون أن يكون لذلك أثر لا تحمد مغبته فى حياة مدينتهم . ومنهم من يتصور فى محاكاة حياة الغرب الوسيلة لذلك ، ومنهم من يرى العلم وحده الوسيلة إليه . وهم بين هذا وذاك يعملون تاركين للزمن أن يُنضج من ثمرات عملهم ما يرجون أن تطمئن به نفوسهم وأن يصل بهم إلى هذه الحياة الحديثة التى يصبُون إليها بوجدانهم .

تفضّل غير واحد من رجال الحكم فى مكة فدعانا إلى تناول الطعام عنده . وأفضل الطعام عند أهل مكة اللحم والثّريد . وهم يتناولونه عادةً كما كان يتناوله أجدادنا . يسلق الضأن أو يشوى ويثرد الثّريد ويوضع فى قصعة على خِوان من تحته السّماط ، ثم يتناول كلٌ من الثّريد واللحم بيده إلى شبعه . ولقد تناولت الطعام وإياهم على هذا النحو بعَرفات ومكة وحينما ذهبت من بلاد العرب ، وكنت أجد فى ذلك من ذكر أيام الصبا الأوّل ما أسعد به . لكن أولئك الذين تفضّلوا بدعوتى مع من جاءوا مكة من المسلمين أولى المكانة لم يروا أن نأكل وإياهم على طريقتهم ، بل آثروا الطريقة الحديثة ، طريقة الغرب ، وما ألفه من ألوان الطعام العديدة والصحاف التى يدور بها الخدم لينال كل منها لنفسه فى صحنه ، وليأكل بالشوكة والسكّين بدل أن يأكل بيده . وإنهم ليؤثرون اليوم أن يجلسوا على الكراسى بدل الجلوس على المصاطب أو على السجّاد فوق الأرض . وهم يرون فى هذا من محاكاة المدنية ما يسرّ ضيوفهم من ناحية ، وما يقربهم من الحضارة الحديثة من ناحية أخرى .

كان ذلك شأننا حين تناولنا طعام العشاء عند الشيخ عبد الله السليمان

الحمدان وزير المالية ، وعند السيد محمد سرور الصبَّان وكيل المواصلات والمشرف على حركة النقل بالسيارات . على أنا كنا نعود بعد تناول الطعام إلى غرف الاستقبال الوثيرة وكلنا مرتدون الملابس العربية ، فننتقل بذلك من جوّ لا تتلاءم فيه هذه الملابس مع أدوات الطعام إلى جوّ آخر أكثر انسجامًا مع حياة العروبة . فغرف الاستقبال على ما بها من مقاعد وثيرة تحتفظ بالطابع الشرقى القديم ، ما خلا إضاءتها بالكهرباء المجلوبة إلى هذه المنازل دون سواها من منازل مكة . ثم إنهم ليحرصون على عادة انتقلت إليهم مع النجديِّين هى التبخّر والاجتمار بالعود ؛ فما تكاد غرفة الاستقبال تحتوى الناس حتى يدور عليهم الخدم بالشاى وبالقهوة وبمجامر يحرق فيها عود ذكىّ الرائحة يستنشق كلٌ عبَقه ويحتبسه فى أردانه تحت المشلح وبينه وبين الصمادة . وأدوار القهوة والشاى والعود لا تكاد تنقطع ما بقى الناس فى سمرهم .

وقد دُعينا إلى عشاء من هذا النوع بدار مضيفى أمين العاصمة الشيخ عباس قطان . وعلى أنه كان عشاء على الطريقة الغربية فى تقديم الألوان فى الصحون ؛ لقد رأينا يومئذ ما أعاد إلى الذاكرة صورة ليلة من ليالى كتاب ألف ليلة وليلة . كمل عقد اجتماعنا قبل تناول الطعام فى بهو فسيح بالطابق الأعلى فوق البهو المجاور لغرفة نومى ، والذى كنت أقضى به الكثير من وقتى . وكان البهو مفروشًا كله بالسجّاد العجمىّ ، وثير المقاعد ، تضيئه ثُرَيَّات من الكهربا ساطعة النور . فلما آن لنا أن ننتقل إلى الموائد ألفيناها مُدّت فى هواء الأسطح الطلق وقد أنارتها ثريات الكهرباء القائمة بين الفاكهة وصحاف الحلوى. ولما طعِمنا هبطنا إلى الإيوان الذى أويت إليه أتقى المطر يوم أزمعت الصعود إلى عرفات . لكنه أضىء ليلة هذا العشاء على طريقة جعلته جديراً ببعض ليالى هارون الرشيد ، لولا أننا لم تُغنِّنا القيان ، ولم يدر علينا فيه غير الشاى والقهوة ومباخر العود . ولقد قرأ القرآن حجازىّ بإيقاع غير مألوف فى مصر ؛ غير أن الإيقاع المصرى فى القراءة قد طغى حتى على أهل الحجاز فصار قارئوهم يتأثرونه وينحون نحوه .

هذا الجمع بين طريقة الطعام فى الغرب وبين الحياة الشرقية الأصيلة هى صورة هذه الصبوة فى نفس الشباب المكى إلى الحياة الحديثة . فهم يرغبون فى اجتناء ثمراتها ؛ لكنهم يرغبون فى ذلك على استحياء ، ومع الحرص أشد الحرص على طابع البلد الأمين وتقاليده . وهم يُعجَبون بالأدب الحديث ويأخذون بحظ منه فى صحافتهم ، لكنهم يقفون منه عند بعض الصور . فأمّا الروح فى أعماقها فعربية أدنى إلى البداوة المحيطة بهم ، ولذلك تذر أعمق الأثر حتى فى نفوس من نزحوا إلى مكة من غير العرب الذين أقاموا بها وأصبحوا فيها بعيدين كل البعد عن موطنهم الأصلى . وهم يفكرون فى نظام سياسى كهذه النُّظُم الدِّيُمقْراطية التى نقلها الشرق عن الغرب ولمَّا « تتأقلم » فيه . لكن تفكيرهم لا يخرج بهم عن حدود أهل الرأى ومن تكون منهم الشورى كما كانت فى العهد الأوّل للمسلمين — وهم يودّون لو تكون لهم حياة اقتصادية كحياة غيرهم من الأمم . لكنهم لا يتصوَّرون هذه المذاهب الاقتصادية السائدة فى الغرب ، التى تتنافى فى جوهرها مع الفكرة الإسلامية الاقتصادية . وهم لذلك ما يزالون يقفون من تعلُّقهم بالحياة الحديثة عند نقد ما هم عليه فى بلادهم ، دون أن يتصوّروا اللون الجديد للحياة التى توائم مزاجهم والتى لا ينكرها تفكيرهم .

ذلك ما بدا لى واضحًا أثناء الأحاديث الكثيرة التى دارت بينى وبين شبان مكة الذين شرّفونى بزيارتهم منذ اليوم الأوّل لنزولى بينهم ، والذين ما فتئوا يزورونى طول إقامتى ببلدهم . إنهم جميعًا يشعرون بحاجة بلادهم إلى التعليم ، وهم يتحدّثون فى ذلك بلهجة صادقة ، ويصلون منه فى بعض الأحايين إلى عيب الحكومة بأنها تنفق الطائل من الأموال على السيارات واقتنائها وإصلاحها فى حين تضنّ بالتعليم وما يجب أن ينفق عليه . لكنك إذ تسألهم عن نوع التعليم الذى يرونه صالحًا لذويهم وأبنائهم وعن الفكرة التى يجب أن يقوم هذا التعليم على أساسها ، تراهم يضطربون ولا يكادون يُحيرون جوابًا . قد يكون ذلك راجعًا إلى تأخر العلم عندهم ، وإلى أن الحظ الذى

نالوه منه لا يكفى لإبداء الرأى فى مثل هذه المسألة العويصة . لكن ثمة أمراً آخر يزيد فى حيرتهم ، ذلك تعلقهم بمكانة مكة المقدّسة وحرصهم عليها . فكلّ علم يزيد هذه المكانة سموًّا محبّب إليهم . وكل علم لا يجعل منها موضع عنايته كلها ، أو لا يضعها فى المكان السامى ، أو يراها أمراً لا يدخل فى نطاق العلم ، مزهود فيه مرغوب عنه . فإذا حدّثتهم فى حرية العلم وفى حرية الأدب رأوا ذلك أدخل فى باب الجدل النظرىّ ورأوه لذلك لا غناء فيه .

قد يكون غلوًّا مطالبة شباب مكة بتصوير الحياة الجديدة التى يصبُون إليها صورة واضحة الحدود وحظ بلادهم من العلم ما رأيت . بل إننا فى مصر وفى بلاد الشرق العربى المختلفة ما نزال فى دور النقد لم نتعدّه إلى دور التصوير والتصميم ، على ما اتصلنا بالغرب وما وقفنا على علمه وأدبه . لكننا خطونا بحكم الحوادث خطوات إيجابية لا تعاون أحوال مكة ولا أحوال الحجاز على مثلها . ومما دفعنا إلى هذه الخطوات وجود الأجانب بيننا وتمتّعهم مدى أزمان طويلة بامتيازات طوّعت لهم أن يعيشوا كما يعيشون فى بلادهم ، لا يغيّر أحدهم زيّه ولا طريقة طعامه أو حياته فى شىء ، كما طوّعت لهم إنشاء مدارس تنشر بيننا ثقافتهم وتعليمهم . ومن ذلك نفوذ الدول الأجنبية الذى تغلغل فى الولايات العثمانية المختلفة خلا البلاد المقدّسة منذ زمان بعيد . فقد ظلت مكة وداخلية بلاد العرب وما تزال حرامًا على غير المسلمين . والأجانب الذين يريدون دخولها يُضطرون قبل حضورهم إلى معقل الإسلام أن يُظهروا إسلامهم وأن يدرسوا العربية وأن يُتقنوا التزيى بلباس العرب والعيش على مثالهم . فإن لم يفعلوا لم يكن اجتيازهم الساحل إلى داخل البلاد ميسوراً . وإن فعلوا حرصوا على إخفاء طواياهم ومظاهرهم ما استطاعوا . ومن ثمّ لم يكن لوجودهم بين العرب أثر المثَل الذى يحتذى ، فيحدث احتذاؤه النتائج الإيجابية التى حدثت فى مصر والشرق . وقد صدّت هذه الأسباب عن هجرة الأجانب إلى شبه الجزيرة ، كما صدّ عنها قلة الأمل فى الربح المادىّ بسبب شدّة الأحوال الاقتصادية بمكة وبالحجاز كله . والذين غامروا فى اجتياز هذه البلاد من أبناء الغرب قليل عددهم

حتى ليُحْصَوْن فرداً فرداً ، ويُنْظَر إليهم نظرة إعجاب لمغامرتهم . ولقد رأيت بضعة رجال منهم أثناء مقامى بمكة . وأكثر هؤلاء ذيوعَ صوت بين الناس الحاج عبد الله « فلبى » كما يعرفه المسلمون ، أو « سنت جون فلبى » كما يعرفه الإنكليز . وقد سعيت إلى معرفته ولقيته غير مرة . لقيته مرّتين أو ثلاثاً فى التكية المصرية ، وزرته مرة فى بيته ، وهناك أهدى إلىّ خرائط من صنعه عن الطريق من مكة إلى الطائف وإلى المدينة . وهو رجل عجيب على ما يصفه أبناء وطنه . فهو يعيش عيش البَدْو من النجديين ويحتمل احتمالهم ، طعامه كطعامهم ، وسكنه كسكنهم . وهو موضع الثقة عند الملك ابن السعود ، كما أنه شديد الملازمة لمجلسه . ولقد جاس خلال شبه الجزيرة من كل أطرافها ونواحيها ، ووضع لها الخرائط ووصفها أدقّ الوصف . وكتابه (الربع الخالى) يصف شيئاً من مجهوده الشاقّ فى ارتياد الصحارى ، ومن عمله الدقيق فى وضع الخرائط المفصلة التى تطبعها له وزارة الحربية البريطانية . لكن حياته العلمية حياة عزلة تامّة . فالبدو الذين يصحبونه فى رحلاته لا يفهمون من أعماله شيئاً ؛ وهو لا يطالعهم بشىء من هذه الأعمال التى لا يفهمونها وإن اهتدى بهم فى كل ما يحققه منها . لهذا ، ولأنه يعيش عيش البدو ، لا يُوحى وجوده فى بلاد العرب إلى أهلها جديداً فى تصوُّرهم للحياة الجديدة التى يصبون إليها . ذلك شأنه وشأن غيره من الأجانب الذين تثير بلاد البداوة خيالهم وتدعوهم للإقامة بها ما أطاقوا هذه الإقامة .

هذه كانت حالة الرحالين الغربيين فى بلاد العرب منذ قرون مضت . وإن بعضهم ليظن أنها وشيكة أن تتغير فيما سوى المدينتين المقدّستين مكة والمدينة ، بعد أن أعطت الحكومة العربية السعودية امتياز استخراج الذهب إلى شركة « توتشل » الإنكليزية الأمريكية ، وامتياز استخراج البترول من الأحساء إلى شركة أجنبية أخرى . فإذا تغيرت أسرعت الحياة الغربية إلى البلاد العربية . ويذهب القائلون بهذا الرأى إلى أن غزو الحضارة الأوروبية الشرق إنما تمّ عن طريق الصناعة والتجارة ، وعن طريق التدخل السلمى أكثر

مما تمّ عن طريق الفتح الحربى والغزو بقوة السلاح . والهند التى تحرص بريطانيا اليوم أشد الحرص عليها باعتبارها أكبر مستعمرة للتاج البريطانى ، إنما بدأ غزو بريطانيا إياها من هذا الطريق حين تألفت بها شركة الهند الشرقية . وقد اهتدت شركة « توتشل » إلى مهد الذهب فى بلاد العرب على ثمانى ساعات من المدينة المنوّرة ؛ وهى تمهّد الآن طرق تصديره إلى الخارج . فإذا لم يكن فى استقرار هذه الشركة وفى قيام شركات مثلها ما يثير المخاوف أن يصيب بلاد العرب ما أصاب الهند ، فأيسرُ ما فيه تمهيدٌ لتغلغل الحضارة الغربية من ناحيتها الصناعية ومن ناحية ظواهر العيش والحياة ، فى هذه البلاد التى ظلت محتفظة حتى اليوم بطابعها العربىّ . ولا عَجَبَ يومئذ أن نرى هذا اللباس العربىّ يتوارى ليحل الزى الغربى محّله ، وأن نرى لون الحياة العربية الذى يوحى الطمأنينة إلى زائرى البلاد المقدّسة جميعًا من المسلمين يحول إلى لون غربى ، شأنه فيها شأنه فى مصر وغير مصر من بلاد الشرق . وهنالك يسرع التجدّد إلى مكة ، وتصبح جديرة باسم مكة الحديثة حقًّا . ويومئذ يعود شباب مكة يفكرون : أسعِدوا وسَعِدت مدينتهم بهذا التغيير الذى تصبو اليوم إليه نفوسهم ؟ أم أن بلادهم فقدت به طابَعَها السحرىّ ؛ كما فقدت بوسائل النقل الحديثة شيئًا كثيراً من روعتها الشعرية ؟

وعلى رغم بقاء الأجانب إلى اليوم مبعدين عن بلاد العرب خلا مدن الشاطئ لقد تحوّلت أسباب المواصلات فيها بقدر عظيم من الجمل ، سفينة الصحراء، إلى السيارات بأنواعها المختلفة، ومن البريد إلى البرق وإلى التليفون وإلى آخر مُحدَثات الصناعة . والسيارة سريعة مريحة عظيمة الفائدة فى إنجاز الأعمال . وقد أفادت أمانة العاصمة منها أن اتخذتها وسيلة الكنس والرشّ وإطفاء الحريق ، وأن اقتنت سيارات لهذه الأغراض التى لم تكن تعتبر ذات بال من قبلُ . لكن السيارة هدّامة لوَحى الصحراء مُضيعة لشعر البادية . وأنّى لراكبها أن يتأمّل البادية وما فيها وهى تقطعها فى لمح البصر ، فما يكاد البصر يستقر منها على شىء يتأمّله ! والبرق والتليفون شأنهما فى ذلك شأن السيارة ،

لا يدعان للذهن أن يستقر ، ولا للخيال أن يفتنّ فى التعبير لمن نكتب إليهم عن عواطفنا وآمالنا وآلامنا . ولقد كان من العرب من يرغب عن هذه الوسائل أول دخولها بلاد العرب ، وكان منهم من يراها حرامًا . أما اليوم فقد ألفوها ، وصار بعضهم يستغنى بها عما ألف من الوسائل من قبل . ولهذا لا ريب أثره فى التفكير ، وله عند شباب مكة من الدلالة على عدم صلاح أسباب الحياة القديمة لهذا العصر الحاضر ما يجعلهم أشد صبوة إلى الحديث فى كل شىء . لكن هذا كله لم يصل بعدُ من موضع التفكير إلى تصوير الحياة صورة غير التى عرفوها عن السلف ؛ بل هو يجاور هذه الصورة فى الذهن العربى جِواراً يتعذّر على الإنسان أن يتنبأ بآثاره .

وتجارة الغرب ذات رواج اليوم فى أسواق مكة ، فلا يكاد الإنسان يجد من صناعة مكة أو صناعة بلاد العرب فيها شيئًا . وإذا قلت الغرب قلت اليابان أيضًا ؛ فالمصنوعات اليابانية منتشرة بأثمان زهيدة تدعو إلى أشد الرغبة فيها . ولقد بلغ من حِذق الصناعة أن صارت اليابان وصار الغرب يبعث إلى مكة بالأشياء التى يبتاعها المسلمون للتبرّك بها على أنها من البلد الأمين . فالسُّبح والعطور تصدر من مصر مصنوعة فى خان الخليلى والتربيعة خلا ما يُصْنَع من مَرْجان إيطاليا . والمباخر ورشاشات العطر والمكاتل تصنع فى الخارج ، وقلّ منها ما يصْنَع فى بلاد العرب . وهذا كله تجده فى سوق المسعى بين الصفا والمروة ، وتجده فى السويقة (أو السوق الصغيرة كما يسمونها) معروضاً مع الأقمشة المختلفة ، يُقبل عليه المسلمون من شتى أقطار الأرض ويصيبون منه ما يعودون به إلى أهلهم فى هذه الأقطار ، ليكون عندهم بركة يحافظون عليها ويحتفظون بها .

ولا تختلف مكة الحديثة فى استيراد تجارتها من الخارج عن مكة القديمة العربية الصميمة . وقد كانت مكانة مكة التجارية قبيْل الإسلام وفى عهده الأول عِدْلَ مكانتها الدينية ، وكانت ملتقى تجارة الغرب والشرق . وإنما الفرق بين يوم مكة وأمسها أنها كانت أمس طريق التجارة ، فكان أهلها يذهبون فى

رحلة الشتاء إلى اليمن يجيئون منها ببضاعة الجنوب ليتجروا بها فى الشمال ، وبتجارة الشرق ينقلونها فى رحلة الصيف إلى الغرب وإلى الشام يصرّفون فيها ما جاءوا به من اليمن ويجيئون بألوان أخرى من التجارة مكانه . أما اليوم فالتجارة تجىء إلى مكة وتوزّع على الحجاج فى أسواقها من غير أن يكون لمكة فى ذلك أى نشاط إيجابى ؛ بل تنقل البواخر التجارة من أقصى الأرض من اليابان أو أوربا إلى جدّة ، وتنقلها السيارات من جدّة إلى مكة ليتولى أهل مكة بيعها للذين فرضوا حجّ بيت الله الحرام بربح هو مصدر حياة أهلها إلى جانب ما يتبرّع به المحسنون للبلد الحرام من أرزاق . وقد أصبح الكثير من موادّ التغذية نفسها ، كالفاكهة والأطعمة المصنوعة من « بسكويت» وجبن وما إليها ، يرد إلى مكة من الخارج كما يرد غيره من البضائع . أما المواد الطازجة فترد من وادى فاطمة ومن الطائف .

وهؤلاء الألوف وعشرات الألوف من المسلمين الذين يفرضون الحج إلى البيت كل عام هم اليوم ، كما كانوا فى كل عصر ، عاملُ التطوّر فى مكة نحو حياة العصر . فهم يجيئون إليها ويقيمون بها زمناً ليس بالقليل . ولهم عقائد وعادات يراها أهل مكة ويدرسونها بعناية فطرية ليستجيبوا مطالب هؤلاء الغرباء وليكفلوا لهم خير قسط من الراحة يحبّب إليهم الإنفاق ويجعل منهم بعد عودهم إلى بلادهم دعايةً صالحة لمكة وحجّ بيت الله فيها . ومما لوحظ فى السنين الأخيرة أن عدداً من أثرياء المسلمين وأولى الرأى فيهم يقصدون إلى الحج أكثر مما كان يفعل أمثالهم من قبل ، وأنهم يلتقون بأهل مكة وبأولى الأمر فى الحجاز ويبدون لهم من العناية الواجبة على العالم الإسلامى كله بالأماكن المقدسة ما يزيد أهل مكة وذويها تفكيراً فى التماس أسباب الراحة لهؤلاء الأثرياء وأولى الرأى . ولقد كان من ذلك أن فكرت الحكومة الحاضرة فى إنشاء حىٍّ بضاحية الشهداء من ضواحى مكة تُراعَى فيه حاجات الحياة الحديثة فى النظام الصحى والماء والإنارة تشجيعاً لأمثالهم على الحج . ذلك بأن الأماكن الصالحة لنزولهم بمكة قليلة جداً ؛ والكثيرون منهم يلقون أشد العنَت فى توفير المسكن الصالح

لهم . فإذا نظّمت لهم ضاحية مهيأة بأسباب العيش الذى ألفوا كان ذلك خير دعاية لأمّ القرى ، وكان خطوةً فسيحة نحو التطوّر إلى حياة العصر ، وفى سبيل التقريب بين المسلمين ذوى الرأى من أهل البلاد المختلفة .

يدلّ على ما لهذه المنشآت من فضل التطور ما كان للتكية المصرية بمكة وما يزال لها من أثر فى حياتها . والتكيّة من الآثار الجليلة التى أنشأها محمد علىّ الكبير جدّ الأسرة المالكة بمصر بعد أن استقر له الأمر بالحجاز . وقد بقيت التكية على عمارته فى سنة ١٢٣٨ هجرية حتّى جدّدها الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٩ هجرية . وهى تقع بشارع أجْيَاد من شوارع مكة ، ويقابل بابها باب المسجد الحرام الذى سمّى باسم باب التكية لشهرتها . وكانت تجرْى فيها الأرزاق على الفقراء فيما مضى ، فكانت تطْعم فى أشهر الحج نحو أربعة آلاف منهم كلّ يوم . وكانت تطعم أربعمائة فقير كل يوم فى غير أشهر الحج . لكن الخلاف الذى حدث بين مصر والحكومة العربية بعد دخول الوهّابيين مكة فى سنة ١٩٢٦ ، وما أدّى هذا الخلاف إليه من إنقطاع سفر المحمل ومن حبس أوقاف الحرمين ،حال دون استمرار التكية فى إجراء هذه الأرزاق . وأكبر الظن أن يعود الأمر إلى نظام جديد بعد أن استتبت العلاقات المصرية الحجازية من جديد . لكن الذى لا ريبَ فيه أن وجود التكية المصرية فى مكة منذ أكثر من قرن من الزمان كان له أثره فى تطوّر الحياة فى مكة . فالتكية لا يقف أمرها عند هذه الأرزاق وصرفها ؛ بل إن بها طبيباً يعالج المرضى الذين يقصدون إليه أيّاً كانت جنسيتهم ويصرف لهم الدواء من عنده . ولعل ما قامت وتقوم به التكية من ذلك كان أوّل ما عرفه أهل مكة وأهل بلاد العرب بوجه عام عن العلاج بالطريقة الحديثة ، بعد أن كان العرب لا يعرفون من وسائل العلاج إلا ما يعرفه أهل البادية ، وبعد أن كانوا يؤمنون بأن آخر الداء العياء الكىّ . . هذا إلى أن التكية صورة من الحياة المصرية بمكة ، إليها يقصد المصريون جميعاً أثناء أشهر الحج ، فهى بهذه المثابة مَثَلٌ يُشهِد العرب ما يجرى فى بلاد أقرب منهم إلى الحضارة وأعظم اتصالاً بها .

ثم إن أهل مكة أنفسهم ، ورجال الحكم فى بلاد العرب جميعاً ، يتّصلون اليوم بالبلاد الإسلامية المختلفة بعد أن يسرّت أسباب المواصلات الحديثة سبل الانتقال وقرّبت بين أجزاء العالم ، مما يجعلهم أكثر استعداداً لقبول التجديد فى مدينتهم . وإن منهم من يزور أوربا ، ويقف على أساليب الحياة فيها . هذا إلى أن كثيرين من موظفى الحكومة العربية ينتسبون إلى مصر وإلى سوريا وإلى بلاد إسلامية شتى . صحيح أن الماضى يحول دون الطفرة فى دعوة هؤلاء إلى الإصلاح كما تحول الأحوال الاقتصادية دونها . لكن هذا العامل له قيمته لا ريب فى تجديد صورة الحياة بمكة ، وله أثره فى تفكير الشباب من أبنائها .

وهذا الماضى الذى يُثْقِل خطا دعاة الإصلاح يجد فى ناحية من نواحى الحياة بمكة ما يشدّ من أزْره إزاء المحاولات التى تبذل للتغلب عليه . هذه الناحية هى التفكير القديم الذى أشرت فى أوّل هذا الفصل إليه ، والذى يجعل فكرة التوكّل قائمة على التواكل والكسل وعدم السعى فى الحياة والقناعة فى الرزق بما يجىء من غير مشقة أو عمل . وإن ألوفاً وعشرات الألوف من المقيمين بمكة ليرون حقاً لهم أن يعيشوا من الصدقات التى تُجْرَى عليهم ، ولا يفكر أحدهم فى مزاولة عمل يقيم أوَدهوأود أهله . وهذا الروح هو الذى يجعل التسوّل منتشراً بمكة ، وخاصةً أثناء الحج ، انتشاراً مروّعاً . فأنت كلما ذهبت إلى المسجد الحرام للصلاة وجدت على كل باب من أبوابه الكثيرة العدد ، وهى تبلغ ستة وعشرين باباً ، عشرات من الصبية والنساء يتكففون الناس ويسألونهم إلحافاً . ويرى كثيرون من الحجاج ، وكثيرات منهم بنوع أخص ، فرضاً عليهم أن يعطوا هؤلاء . فهم يُنفقون فى ذلك العطاء الرخيص الشىء الكثير مؤمنين بأنهم يعطون الفقير مما أعطاهم الله من فضله ، فلهم مثوبة ذلك عند ربهم ، وكثيرون من هؤلاء المتسولين أقوياء البنية أصحّاء الأجسام قادرون على العمل . وكثيراً ما رأيت منهم مَنْ لو وُجِد فى أحياء القاهرة أو فى أرياف مصر لأنذر بالتشرُّد ولشدّدت الشرطة عليه الخِناق . لكنهم فى المدينة الإسلامية المقدّسة يجدون عطفاً عليهم من حجاج المسلمين ، وتسامحاً معهم من جانب الحكومة .

ولعلك لو سألت فى ذلك لقيل : إنهم من ذرية إسماعيل ، وإنهم تنطبق عليهم الآية : «رَبِّ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ» ؛ وأن ما يبذله الناس من هذه الصدقات إنما هو هذا الهوىّ من أفئدة الناس إلى ساكنى البلد الأمين . هذا وإن لم يكن بين سكان البلد الحرام من ذرية إسماعيل اليوم إلا القليل؛ أما الأكثرون فخليط من أبناء البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقيا .

ولقد ذكرنى مشهد هؤلاء المتسوّلين بما تقرره مذاهب عصرنا الحاضر من حق العمل للأفراد كى يعيشوا منه ، وذكرت دعوة القرآن الناسَ ليمشوا فى مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله ، وحاولت أن أجد مسوّغًا لانتشار التسوّل بمكة ، فلم أجده إلا فى سوء التأويل للفكرة الإسلامية، ذهبتْ إليه طائفة أرادت استغلال العواطف لفائدة قوم كسالى لا يعملون ، وهم على العمل قادرون . وهذا التأويل الفاسد لا يقرّه مذهب سليم . فالدعوة الإسلامية أساسها العمل فى الحياة والجهادُ للرزق فيها . ولقد كان المسلمون الأوّلون من أهل مكة من أكثر الناس سعيًا ودأبًا . فلما هاجروا مع الرسول إلى المدينة وأراد الأنصار أن يشاطروهم أموالهم أبوا ذلك على أنفسهم على رغم حاجتهم إليه ، وذهب يعمل فى التجارة منهم مَنْ تؤهله مواهبه للتجارة ، ويعمل فى الزراعة من يفضّل العمل فى الزراعة . ولم تكن الأرزاق يومئذ تجرى إلا على العاجزين عن الكسب ، شأنهم فى ذلك شأن أمثالهم اليوم ، فى أرقى الأمم حضارة . فأما القادر على الكسب فلاحق له فى الحياة ما لم يعمل . والعمل للقادر عليه عبادة لها مثوبتها عند الله ، ولها كرامتها واحترامها عند الناس .

ولو أن الألوف التى تعيش اليوم بمكة من الصدقات زاولت من الأعمال ما تستطيعه لتغير وجه الحياة فى مكة . ولو أن ما يُخرجه المسلمون من مالهم صدقات للمتسوّلين جُمع وأنفق فى أعمال يقوم على استغلالها هؤلاء لكان

أعـوِدَ عليهم وعلى مكة بالفائدة ، ثم لتغيرت هذه العقلية المريضة ، عقلية التواكل والكسل المزرى العجيب ، ولتغير تبعـًا لذلك تفكير الناس تغيرًا يدفع مكة إلى ناحية الحياة الحديثة . لست أجهل ما فى ذلك التغير من عسر وأهل مكة لا تجمع بينهم رابطة الجنس . ولهذه الرابطة أثرها القوىّ فى تكوين الحياة القومية . ولقد كنت أتحدّث يومـًا إلى مكىّ صميم فى حرب الأشراف النجديين ، وكنا نفرض الأسباب التى أدّت إلى دخول الإخوان مكة من الطائف موفورين . ومما اتّفقنا عليه من هذه الأسباب تكوين أهل مكة من خليط من أجناس المسلمين فى أنحاء الأرض جميعـًا . فماذا يعنى المغربى أو الجاوىّ أو الأفغانىّ أو الهندىّ أن يكون حاكمه عربيـًّا قرشيـًّا أو بدويـًّا نجديـًّا ما دام هذا وذاك مسلمـًا ، وما دام كلٌّ منهما يدع له من أسباب الرزق بلا سعى ولا عمل ما اعتاد منذ* قرون خلت ! أما وذلك شأنه فليس يعنيه أن يشترك فى نزاع على حكم مكة أو حكم الحجاز ، وليس يُصيبه من تغيير الحاكم خير ولا أذى . ولو أن أهل مكة كانت تجمع بينهم رابطة الجنس لتغير وجه تفكيرهم فى الدفاع عن مدينتهم ، ولرأوا هذا الدفاع واجبـًا عليهم متصلا بكرامتهم لأنه الدفاع عن الوطن ، ثم لرأوا على كل فرد من أبناء الوطن أن يعمل لخير الوطن ، وألا يعيش عالةً عليه ما دام قادراً على العمل .

ولقد أدركت الحكومات العثمانية هذا السرّ فى الماضى فلم تعمل لتغيير عقلية التواكل فى مكة وفى الحجاز كله ، بل عملت على تثبيت قواعدها وتعميق جذورها بإجراء الأرزاق على هؤلاء الأغراب الذين نزحوا إلى مكة واستوطنوها ، وتشجيع ذوى اليسار على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم . بذلك توطّد روح التواكل والقعود بالبلد الحرام وانتشر منه إلى ما حوله من بلاد الحجاز ، وبذلك تعذّر القيام فيه بأى حظ من الإصلاح . فإذا فكر أحد فى إصلاح شُوِّه مقصده ونُعت بأنه يريد إخراج الناس من طمأنينتهم السعيدة التى أرادها الله لهم ، والزجّ بهم إلى حظيرة العمل الشاق والأفكار الضارّة المارقة .

لست أقصد مما سبق إلى أن الطبيعة قضت ببقاء فكرة التواكل سائدة

أهل البلد الأمين ممتدّة منهم إلى ربوع البلاد العربية المختلفة ؛ وإنما أقصد إلى أن التغيير لا يتم سِراعاً كما يتم فى بلد تربط وحدة الجنس بين أبنائه . لكن تمامه أمر لا مفرّ منه ، كما أسلفت ، لتزايد أسباب الاتصال بين بلاد العرب والعالم الخارجى . هذا الاتصال يسرع بألوان التفكير الحديث إلى مكة على أيدى المسلمين الذين يحجون البيت من مختلف الأقطار ، كما يُسرع به إليها ما بين الحكومة العربية والحكومات الإسلامية الأخرى من أسباب التفاهم .

ومن أسباب الانهيار فى تفكير التواكل ما تم الاتفاق عليه بين حكومة مصر والحكومة العربية السعودية فى أمر الأرزاق التى تجرى من مصر إلى الحجاز غلة لأوقاف الحرمين ، وفى أمر الأموال التى ترسلها حكومة مصر إلى الحجاز . فقد كانت هذه الأرزاق والأموال توزّع فيما قبل الاتفاق صدقات ضئيلة القيمة على أهل مكة وعلى أهل المدينة ؛ أمّا بعد الاتفاق الذى تم عام ١٩٣٦ فقد أصبحت هذه الأرزاق تجمع لتنفق فى أعمال ذات فائدة عامّة كتعبيد الطرق وتعمير المنشآت الإسلامية فى البلاد المقدّسة . وقد كان الناس هناك يكتفون بالصدقات عن مزاولة الأعمال لإقامة حياتهم . فإذا انقطعت هذه الصدقات أو قلّت فصارت لا تكفى حاجات العيش ، اضطر أهل البلاد للعمل ، وحلّوا بذلك محل العمال المصريين وغير المصريين ممن يجاء بهم لإتمام هذه الأعمال .

وسيكون الاتفاق الذى تمّ بين مصر والحكومة العربية مثلا لغير مصر من الأمم الإسلامية التى تجرى الأرزاق إلى الأماكن الإسلامية المقدّسة . ومن ثَمّ لا يبقى أمام هؤلاء الكسالى إلا أن يعملوا ، غير مكتفين بما يصلهم من صدقات الحجاج . وأغلب ظنى أن الحكومة العربية ستنظم هذه الصدقات كذلك وتضرب على أيدى المتسوّلين وتعمل جهدها للقضاء على حالة محزنة تثير اليوم إشفاق الكثيرين ، ولكنها تشير إلى جانب إشفاقهم الزراية بمن يقيمون فى موطن الرسول العربى أعظم داع للسعى والعمل ، وللإخاء فى السعى والعمل . هنالك تتغلغل فكرة العمل فى حياة مكة وحياة الحجاز ، على أنها الفكرة

الإسلامية الصحيحة ، بعد أن كانت تعتبر مخالفة لروح الإسلام وتعاليمه .

هذه لمحات سريعة تشفُّ عن العوامل التى تدفع مكة نحو الحياة الحديثة . وثـمة عامل آخر لا يظهر له أثر وإن كان يجول بأخلاد الكثيرين . كنت أتحدث إلى طائفة من أهل مكة فيما يستطيع المسلمون القيام به من إصلاح الأماكن المقدّسة كتعبيد الطرق بين جدّة ومكة وبين مكة وعرَفات وبين جدّة والمدينة وتنظيم المياه الصالحة للشرب فى مناسك الحج جميعًا ، وتنظيم المضارب لنزول الحجاج بها ؛ فأشار واحد من ذوى الرأى من أهل مكة بالرجاء أن يتناول الإصلاح إنشاء جامعة بالطائف يتعلم فيها أبناء البلاد العلوم الحديثة . وقد اختار الطائف للتخلص من اعتراض المعترضين على تعليم العلوم الحديثة بمكة . وفى رأى هؤلاء أن تكون مقارنة المذاهب الإسلامية بعضَ ما يدرس فى هذه الجامعة . وهذا روح علمى حرٌّ لمحته فى محادثاتى مع كثيرين . فإذا تحقق هذا الأمل وأنشئت هذه الجامعة بالطائف أو بمكة — وأفضل أن يكون إنشاؤها بالحل من ظاهر مكة — وإذا ساهم علماء المسلمين من مختلف الأقطار بنصيب فى تفقيه أبناء البلاد ، فسيكون ذلك إيذانًا بإسراع التطوّر نحو الحياة الحديثة فى صورة من هذه الحياة تتصل بماضى بلاد العرب وتتصل اتصالا وثيقًا بروح الإسلام الصحيح ، وتجعل من مكة مقصدَ العلماء وذوى الرأى وموضع الأفكار التوفيقية المستندة على أصول ثابتة من الكتاب والسنة ومن العقل والمنطق ، والقمينة بأن تحدث فى أنفس أربعمائة مليون من المسلمين وفى حياتهم العقلية والروحية من الأثر ما لم يحدث مثله منذ مئات السنين .

لست أدرى متى يتحقق هذا الأمل . ورجائى أن يكون هذا الكتاب باعثًا على الدعوة إلى تحقيقه . على أن قيامه فى نفوس الذين يعملون لتطوّر الحياة العربية ويدعون إلى اتصالها بحياة العصر هو لذاته عامل من العوامل الكثيرة التى تهيئ لهذا التطوّر ؛ والتى تجعل مكة اليوم على أبواب نهضة علمية استجنت فكرتها فى نفوس بنيها عشر سنين أو نحوها ، وقد آن لها أن تؤتى ثمراتها وأن يُبْدَأ بتحقيق أغراضها .

واعتقادى أن ليس بين المسلمين من ذوى الرأى أحد إلا يرجو أن يرى هذا التطور يسرع إلى هذه البلاد المقدسة . وما أظن الأمر يقف منهم عند الرجاء ، بل أحسبهم جميعًا على استعداد لمدّ يد المعونة والعمل لنشر الدعوة كى تتسع دائرة هذه المعونة .

يوم تمتدّ أيدى المسلمين متصافحةً من مختلف أقطار الأرض للتضافر على هذا العمل العظيم بصدق وإخلاص ، يومئذ تتهيأ مكة كَرّةً أخرى لتضىء العالم بنور الحق الذى أشرقت منها شمسه يوم بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وما أشدّ تَعَطُّشَ العالم اليوم إلى هذا النور العظيم !

يومئذ تصبحُ سنتَنا جميعًا سنَّةَ النبيّ العربى وتوحيدنا الله كتوحيده . وسنَّة النبى تجتمع فى هذا الأثر : « المعرفةُ رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحُبّ أساسى ، والشوق مَرْكَبى ، وذكرُ الله أنيسى ، والثقة كَنْزى ، والحزنُ رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حِرْفتى ، واليقين قوْتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرّة عينى فى الصلاة » .

والتوحيد الحق ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله .

إذا اجتمعت هذه السنَّة إلى هذا التوحيد ، وانبعث نورهما كَرَّةً أخرى من منزل الوحى الأوّل فقد آن لمنطق العقل وإيمان القلب أن يلتقيا فى الله وفى سنَّته التى لا تبديل لها ، وآن للعلم — بأحدث ما اهتدت إليه بصائرنا — أن يكون سلاحنا إلى الحقيقة ، وآن للمعرفة وتَوْقِ النفس الدائم للتزيدُ منها ، أن تزيد آفاق العلم سعة وقواعد الإيمان تثبيتًا ، وآن للإنسانية أن تسير فى ظل التسامح والإخاء إلى الكمال الذى تَنشده من أقدم العصور فلا تهتدى إليه ، لتنازع العقلِ والقلب على تولى زمامها وتوجيهها الوجهة التى يحسب كل منهما أنها أدنى إلى هذا الكمال .

يومئذ تعود مكة الحديثةُ المكانَ الذى تشخص إليه القلوب والأبصار

وتتعلق به تعلق جهاد فى سبيل الحق ، متخذة إليه من العلم سلاحها ، ومن العقل أصل دينها ومن الزهد فيما سوى الحق حرفتها ، ومن الرضا بالحق غنيمتها .

ويومئذ يرضى الله عن الإنسانية وترضى عنه ، وتؤمن بأنها اهتدت الهدى الحق إلى سبيل الكمال .

ابن السعود بمكة

كنت أسمع اسم ابن السعود عاهل العرب منذ زمان طويل . فلما بدأ يغزو الأشراف ، وعلى رأسهم الحسين بن علىّ ملك الحجاز ، كنت أتتبعّ أنباء النزاع بين الملكين العربيين دون أن أقف طويلا عندها . فلما انتهى الأمر إلى فرار الحسين وإلى قيام على ابنه مقامه ، ثم إلى استقرار السلطان فى الحجاز لابن السعود ، بدأ الحديث عن هذا الفاتح النجدى لبلاد العرب يتردّد فى صحف الغرب والشرق . وقد لقيت إذ ذاك غير واحد من الصحفيين المشهود لهم بالاتزان وبدقة الحكم على الأشياء والأشخاص ، فما كان أشدّ عجبى حين سمعت من أحدهم « فون ڤيزل » الألمانى المعروف ، مبالغة فى الثناء على ابن السعود إلى حدّ نعته إياه بأنه « بِسْمَرْكُ الشرق » . هذا وكان « فون ڤيزل » قد لقى ابن السعود وتحدث إليه وعرف مرامى سياسته . فلما اختلفت مصر والحجاز بسبب حادث المحمل فى سنة ١٩٢٦ ، حين اضطرّ أمير الحج المصرى أن يأمر بإطلاق الرصاص دفاعاً عن نفسه فيما قيل يومذاك ، بدأت الأنباء ترد بأن ابن السعود ورجاله يقيمون بالحجاز نوعاً من الحكم لا يطيقه أهلُ السنّة ولا غيرهم من المسلمين ، وأن حكم الوهابيين بالحجاز سينتهى لذلك بعدول الأكثرين عن الحج ، وأن حكومة الحجاز ستلقَى من جرّاء ذلك شدّة أىّ شدّة .

لكن الحج استمر ، وبدأت أنباء جديدة تغالب الأنباء القديمة وتتغلب عليها . فالحجاز قد أصبح مضرب المثل فى الأمن بعد أن كان مضرب المثل فى الفوضى ، وبعد أن كان الحاجّ لا يأمن فيه على نفسه وأهله ولا يأمن على ماله . وطرُق الحج قد بدأت تمهَّد وتجرى فيها السيارات بما يكفل راحة الحجاج وطمأنينتهم . وقد أصبح الحج بسبب الأمن وإصلاح الطرق ميسوراً قليل المشقة بعد أن كان المشقةَ والعسر . وقد دعت حكومة الحجاز الصحفيين

فى شتاء سنة ١٩٣٠ إلى حفل تتويج الملك عبد العزيز ، فعادوا يلهجون كلهم بالثناء على الأمن والنظام هناك . وسئلوا عن شدّة الوهابيين فى معاملة من لا يُرخون لحاهم ومن يدخنون ، فهوّنوا الأمر غاية التهوين . وكذلك اختفت الأنباء القديمة وجعل قصّاد الحجاز يصوّرون الملك عبد العزيز بن السعود صورة خلابة تحببه إلى النفس وتدعو إلى الإعجاب به .

وقد ذهبت إلى قصره يوم دُعيت لمقابلته غداة وصولى مكة وفى نفسى منه صورة غير واضحة المعالم لا تستبين فيها قَسَمات محيَّاه ولا جِلسته أو وقفته . ونزلت من السيّارة أمام باب القصر ، فتخطيته إلى حديقة غرست فيها نباتات صغيرة وأزهار . ورفعت طَرْفى فإذا أمامى درج فسيح لم أكد أثبت نظرتى فيه حتى التفت الذى يتقدّمنى إلى اليمين . وسرت وراءه ، فتخطينا بابًا استدرتُ عنده فى دهليز فرش بالحصباء ، ثم ألفيت إيوانًا أشار مضيفى إلىّ أن أدخله ، وتلقانى وزير المالية على بابه . وأردت أن أُسَرِّح بصرى فى المكان المفروش بالسجاد كى أجتلى منه صورة كاملة ؛ لكن وزير المالية التفتَ إلى الناحية المقابلة للباب ، فالتفتَ معه فألفيت رجلا ضخم الجِلْسة على مصطبة مفروشة بالسجاد وقد لبس عَبَاءة — أو مشلحًا على التعبير الحجازى — من الصوف البنّى اللون ، واعتجر بعمامة مخططة بالأحمر والأبيض من فوقها عِقال مذهب. وتقدّم الشيخ عبد الله السليمان فأسرّ له شيئًا ، وتقدّم من ورائه الشيخ عباس قطان ، ثم تأخرا وتقدّمتُ ؛ فوقف عاهل العرب ومد إلىّ يده الضخمة فحيَّانى وأشار إلى مقعد بجانبه فجلس وجلست ، وانصرف الرجلان . وبدأ جلالته الحديث بقوله :

— لم أقابلك من قبل ولكننى أعرفك .

واغتبطت لهذه التحية الرقيقة التى لم تكن تتفق مع ما يبدو على وجه الرجل فى هذه اللحظة من اشتغال باله ، وأجبت :

— جئت أقدّم التحية وأعرض الرجاء فى تعاون المسلمين لرفعة هذه الأماكن المقدسة .

وكأن لم ينس الرجل ما كان بينه وبين مصر خلال السنوات العشر الأخيرة من خلاف ، ولم ينس النزاع الذى استحال حربًا بينه وبين إمام اليمن من سنتين ، ولم ينس المناوشات التى كانت تقع على حدود العراق ولم ينس هذه الخصومات تثور بين الأمم العربية والأمم الإسلامية آنًا بعد آن ؛ لذلك أسرع فى الجواب على ما أبديت من رجاء بقوله :

ــ نحن لا نبتغى من الدول الإسلامية غير امتناع أذاها ، ويكفينا صدق مودّتها معنا . ونحن ها هنا فى هذه البلاد بفضل الله لا بإرادتنا نحن . القرآن فى رقابنا ، وسيوفنا فى جنوبنا . وأكبر ما نغتبط له أن تجتمع كلمة المسلمين . فالمسلمون أكثرهم عرب ، بل كلهم عرب ، واجتماع الكلمة هو أوّل واجب على الدول الإسلامية .

لما رأيت هذا التحفظ من جانب الرجل ، وذكرت إلى ذلك أنه سيذهب إلى منًى على ركاب[1] بعد ظهر ذلك اليوم ، يوم التروية ، أى بعد ساعة أو نحوها ، آثرت أن أقتحم الحديث إلى غايتى دون تمهيد لها فقلت :

ــ ونحن المسلمين نحرص على أن تكون مكة من الدول الإسلامية كجنيف من الدول الأوربية ، وأن نتعاون جميعًا لرفعة هذه الأماكن المقدّسة .

وأجاب وما يزال فى تحفظه :

ــ لقد عرفت رأيك فى مكة وما يجب أن تكون عليه . وهذه الحكومة تشاطرك الرجاء فى أن تكون مكة مقرّ عصبة الأمم الإسلامية ومكان الإصلاح بين المسلمين إذا اختلفوا . أما مَنْ أراد إحسانًا إلى حجاج بيت الله فله أجره عند الله وله شكرنا . ونحن نعلم أن الشعوب الإسلامية تؤيدنا بعواطفها ، فأما الدول الكبرى كلها فتبغى رضانا .

سرّنى أن أفضى وزير المالية إلى الملك بالحديث الذى دار بينى وبينه عن مكة ، وأن أبدى جلالته موافقته على رأيى ، ودار بخاطرى أن أوضّحه ؛

---

(١) الركاب : الهجين .

لكنى حرصت على وقته فقلت :

وفق الله هذه الحكومة لإعلاء شأن العرب .

وكان جوابه :

ــ نحن قد جئنا هنا فوجدنا أمْنًا مضطربًا فوطَّدناه ، ووجدنا شيوخًا لهم عاداتهم وشبانًا لا سلطان لهم ، فعالجنا أمر الشيوخ لننزع بالحسنى ما خالف الدين من العادات ، وأتحنا للشباب الفرصة لتأييد الفِكَر الإسلامية الصحيحة .

وأمسك الرجل من القول عند هذا الحدّ على سعة الموضوع الذى استفتحه . إذ ذاك قلت :

ــ أخشى أن تحول مشاغلكم الكثيرة بسبب الحج دون طول الحديث .

وتحرك الرّجل إلى ناحيتى حين سمع منى هذا القول وقال مبتسمًا :

أرجو أن نلتقى بعد الحج .

وودعنى فانصرفت ، وشغلت منذ وصلت الدار بالتهيؤ لعرفات وصعوده . ولكنى بقيت بعد ذلك أعود إلى التفكير فى هذا الرجل المديد القامة المفتول العضل القوىّ الساعدين الحاد النظرة الضخم فى كل شىء ، وأفكر فى هذا الذى قاله أثناء حديثنا وفى شدة تحفظه . فلما ذهبت ثانى يوم العيد إلى تشريفته بمنًى وألفيته يقابل الناس جميعًا ، من عرف منهم ومن لم يعرف ، ويقابلهم ببساطة بدوية لا شىء من التكلف فيها ، ازددت عجبًا منه وإعجابًا به . وأفضيت بخواطرى عنه إلى بعض السوريين من موظفى الحكومة العربية وإلى بعض الشباب العربى من أهل مكة ، راجيًا أن أجد فى حديثهم ما تكمل به فى نفسى صورته . ولقد فهمت منهم أنه رجل محب للإصلاح ميال بكل نفسه إليه ، وأنه ، وهو السياسى العليم بشدة قومه ، يحاول ما استطاع التوفيق بين مذهبه فى الدين وبين الأمر الواقع ، ويحاول هذا التوفيق بمقدرة وذكاء يبدو بهما طبيعيًّا موفقًا .

لما اشتد رجاله النجديون فى تحريم التدخين على المقيمين بمكة جميعًا ،

سواء منهم أهل البلد ومن جاءوا إليها حاجين البيت ، بدأت إيرادات المكوس (الجمارك) من الدخان تهوى سريعًا وتهبط هبوطًا تأثّرت به ميزانية الدولة التى تعتمد على المكوس بقدر عظيم . وتحدث إليه رجاله فى هذا الأمر من ناحيته المالية ، ومن ناحية الدعاية به ضد حكومته بالحجاز بأنها تغلو فى تحريم ما لا تحرمه أكثر المذاهب الإسلامية ، إذ ذاك أسرعت الحكومة بموافقته فنادت فى الناس أن لا إكراه فى الدين ، وأن الذين يجيئون للحج من أهل المذاهب المختلفة لا جناح عليهم أن يدخنوا أو أن يحفوا لحاهم أو أن يفعلوا ما تبيحه لهم مذاهبهم ما دام لا يُحل ما حرم الله فى كتابه . والتمست الحكومة الفتوى بذلك عند عالم نجد الشيخ عبد الله بن بليهد ، فأفتى بأن الدخان لا يسكر كثيره ولا قليله فهو غير محرّم وإن كان مكروهًا ، وبذلك أبيح التدخين لمن شاءه من الحجيج ، وعادت موارد المكوس منه إلى مثل ما كانت من قبل تحريمه .

وكان النجديون أشد الناس طعنًا على « التليفون » و « الراديو » ، وكانوا يزعمون أن الشياطين هى التى تتكلم فيهما ، فكانوا لذلك يحرمون استعمالهما . ولما كانت الحاجة إلى هذه المنشآت ماسة ولم يكن الاستغناء عنها ممكنًا ، فقد دعا ابن السعود كبار المشايخ وسألهم : أتستطيع الشياطين أن تتلو القرآن ؟ فلما أنكروا ذلك طلب إليهم أن ينصتوا لما فى سماعة التليفون فإذا هو قرآن يتلوه قارئ جميل الصوت ، فلم يبق لديهم ريب فى حله ؛ وكان ذلك شأنهم أمام الراديو . وكل ما استطاع غلاتهم بعد ذلك أن يقولوه : أن هذه الآلات تصلح لنقل السيئ من الأخبار ولإذاعة المحرم من الغناء وأسباب الطرب . لكن الرد على هذا القول كان ميسوراً . فكل ما أحل الله قد يكون ذريعة لأمر محرم . الخمر بنت الكرم ، ومن كروم الطائف كان بعضهم يصنع الخمر فى البلد الحرام ؛ فلم يكن عملهم سببًا لتحريم زرع العنب أو غيره من الفاكهة التى يصير عصيرها خمراً إذا عتق . وأدوات القتل هى بذاتها أدوات الصيد وأدوات الدفاع عن النفس وأدوات صد المغير على الوطن ؛ وإنما الإرادة والتمييز عند

الإنسان هما اللذان يفرّقان بين الخير والشر ، يبيحان الحلال ويحرمان الحرام .
قصّ عليّ مَنْ تحدّثت إليهم بعض هذه الأنباء ومثلها ، مما دلّني على حيلة الرجل وسعتها وعلى دقة إدراكه لعقلية أهل بلاده والسبيل التي يسلكها لإقناعهم وتوجيههم نحو ما يراه الخير والحق . وإن قوماً من أهل الحجاز لا يحبونه قد أرادوا يوماً أن يدلوا على مبلغ قسوته ؛ فكان ما ذكروا دليلا على دقة الإدراك والقدرة على التفريق بين المبادئ الواجبة الاتباع والضرورات التي تبيح المحظورات . سمعني هؤلاء أذكر ابن السعود وحكومته وأقول : لو لم يكن من أثرهم إلا أنهم أقرّوا الأمن في ربوع الحجاز بعد الذي كان من فساده واضطرابه لكفاهم فخراً . قال أحدهم : لو عرفتَ أنهم لم يبلغوا ذلك إلا بمظالم ارتكبت لما أضفيت عليهم كل هذا الفخر ؛ فلقد كانوا يأخذون البرئ بجريرة المذنب ، ويلقون تبعة جريمة تقع على قبيلة بأسرها فيستأصلون القبيلة استئصالا . ولولا ذلك ما تم لهم ما يفاخرون به من أمن مستتب يرى الناس اليوم استتبابه ولا يذكرون كيف كان الاستتباب ولا الأرواح التي أزهقت في سبيله .

قلت : وكم من القبائل استأصلوا أخذاً للبرىء بجريرة المذنب ؟ .

وأجاب محدثي : المعروف عندنا قبيلة واحدة . لكني لا أستطيع ولا يستطيع غيري أن يجزم بأن غيرها من القبائل لم تستأصل كذلك . وما تزال الشدة ديدن الحكام النجديين . وإنك لتسمع اليوم عن أمير المدينة عبد العزيز بن ابراهيم ما يدل عليها ؛ وستراه وستقف من أخباره حين تزور المدينة على ما يقطع عندك بصحة هذا القول .

قلت : والقبيلة أو القبائل التي عوقبت لأن أفراداً منها كانوا يعيثون في الأرض فساداً ، ألم تكن على علم بما يجترحه هؤلاء الأفراد ؟ أو لم يكونوا هم يشعرون بحمايتها إياهم ؟

وسكت محدثي هنيهة ثم قال : الحق أنهم كانوا يشعرون بهذه الحماية ؛ وقبائلهم كانت تعرف أمرهم ؛ لكنهم لا يزيدون في ذلك على شتى من أبناء

الأسر الكريمة يجدُ فى جاه أسرته الحماية مما يأتيه من أعمال شقاوته . أفعَدْلٌ أن تؤخذ الاسرة بذنبه ؟ ! إن الله تعالى يقول : «وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى » . « ولِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » .

قلت : فإذا تعدّت شقاوة الشقى إلى الغير ، فأنذر الأسرة أن تنزع منه حمايتها فلم تفعل ، وظل يأتى المنكر وهو لها جار ، أفليس من حق الغير أن يحمل الأسرة وزره وأن ينزل بها عقابه ؟ .

لم يجد محدثى ما يجيب به عن سؤالى . وأردفت : إن كثيراً من الأمم لتصنع ما صنع ابن السعود هنا ؛ فحماية الأمن واجبة على الأفراد وجوبها على الحكومة . ونحن جميعاً مطالبون بأن نعاون أولى الأمر عليها . فإن لم نفعل ثم لم نقف عند التقصير ، بل شعر الجانى بحمايتنا إياه ، حق لصاحب الأمر أن يؤاخذنا بتقصيرنا ، وأن يؤاخذنا أضعافاً مضاعفة بحماية هذا الجانى . وهذه شدّة واجبة ما تعلّق الأمر بالسكينة التى يجب أن يفيد الجميع منها . وإذا جاز لصاحب الأمر أن يتسامح فى انتقاض سياسىّ يوم ينتصر على خصومه ، فليس من حقه أن يتسامح فى العبث بالأمن مع من يريدون كسب المال حرَاماً كما يفعل أولئك الذين يعتدون على حجاج البيت . فالحاجّ ضيف الله . وأولى الضيف بالكرامة ضيف الله . ذلك كان الشأن فى الجاهلية ، وكذلك كان يقول جد النبى . أفلم يكن من الواجب على المسلمين من أهل هذه البلاد أن يُكرموا الضيف ما كان يُكرمه العرب فى الجاهلية! . فإن لم يفعلوا وعاقب ابن السعود جُناتَهم وحُماة الجناة فلا تثريب عليه ، بل ذلك واجبه . ولذلك يشكر المسلمون جميعاً فى مختلف أقطار الأرض هذا الذى جعل الطريق إلى البلد الأمين أمْنًا وإلى بيت الله مِهادَ سكينة وسلام .

ولقد صدّقت أحاديثى مع ابن السعود هذا الذى سمعت من حصافته وحسن رأيه . لما تم الحج وعدنا إلى مكة اجتمع قوم من بلاد مختلفة يتحدثون فيما يجب لهذه الأماكن المقدّسة على المسلمين . وكنا من مصر ومن العراق ومن سوريا ومن فلسطين ومن إيران . ووضع القوم قرارات لتمهيد طرق الحج وجلب

الماء إلى منّى أيام الفريضة وغير ذلك مما شعرنا جميعًا بضرورته حين أداء الشعائر . ووكلَ القوم إلى جماعة منا أن يقابلوا ابن السعود وأن يحدّثوه فيما اجتمع عليه رأى الذين تحدّثوا فى الأمر . وأفضينا إلى فؤاد بك حمزة وكيل الخارجية بما حدث ، كى يضرب لمقابلتنا الملك موعداً . وقابلناه مساء ذلك اليوم وقرأ أحدنا ما وقعه المجتمعون ، وشرحتُ ما دار فى الاجتماع . فلما أتممنا حديثنا استوى الرجل فى مجلسه وكان فى غرفة القصر العليا وقال :

— إننى شاكر لكم تفكيركم فى أمر هذه الأماكن المقدسة ، مقتنع بأن اجتماعكم ستكون له نتيجة متى عدتم إلى بلادكم . وغاية رجائى أن يبقى اتصالكم بعضكم ببعض من بعدُ ليتيسر الاستمرار فى القيام بشىء مما فكرتم فى القيام به . ورجائى الأجلّ من هذا أن تكون هيئتكم أكثر تمثيلا للشعوب الإسلامية. فأنتم، على ما فهمت ، تمثلون أربعة شعوب أو خمسة . ومن الشعوب الإسلامية من ليس ممثلامعكم ، ومن له من المكانة ومن الآثار فى هذه البلاد فى الماضى ما لا ينساه أحد . فالهند مثلا لم يمثلها فى اجتماعكم أحد ، ولم يمثل أحد المغرب الأقصى ولا الصين . ثم إن فى كل أمة من الأمم الإسلامية ، وبينها أممكم ، رجالا سبقت منهم إلى الحجاز وإلى الأماكن المقدّسة فيه أياد وأعمالُ برٍّ . وخير أن ينوب هؤلاء عن بلادهم ؛ فأسماؤهم اللامعة فى هذا الموضوع مدعاة للنجاح . وأذكر بنوع خاص طلعت حرب باشافى مصر . لقد عمل هذا الرجل لتيسير الحج ما استطاع ؛ وهو على رأس مؤسسات كثيرة ذائعة الصيت فى البلاد الإسلامية كلها . فلا إخالكم إلا تريدون أن تجعلوه فى مقدمة الذين يشاركون فى هذا العمل . والحكومة هنا ترحب بكل إصلاح يريد المسلمون القيام به لخير المسلمين جميعًا ولخير أهل هذه البلاد .

وخرجنا بعد تحيات بادلنا ابن السعود مثلها . وسألنى بعض إخوانى رأيى فيما حاز مشروعهم لدى الملك من القبول ؛ فأجبت بكلمات مُطمئنة ، لكنى كنت أعلم أن الأمر ليس هيّنًا بمقدار ما ظنوا . ولقد لفتُّ نظرهم ونحن فى اجتماعنا قبل أن نلقى الملك إلى أن إصلاحًا يراد إشراك العالم الإسلامى فيه ،

لا بد لنجاحه من تحديد أعماله ونفقاته ووسيلة تحصيل هذه النفقات واليد الأمينة التى تتولى الإنفاق منها . لكنهم كانوا متأثرين بروح الحج ولمّا يمض على إتمامهم فرضه غير أيام ، فلم يأبهوا طويلا للاعتبارات العملية ، وحسب بعضهم أن الأمر لا يزيد على أن يُكتتَب بقدر من المال تتولى حكومة الحجاز إنفاقه فى الإصلاح ناسيًا أن اكتتابًا يتم فى وقت كوقت الحج من غير أن يوضع نظام لإنفاقه ، لا يمكن أن يؤدى إلى الأغراض التى يُقصد إليها منه ، أو يزيد على صدقات تعطى وتتولى الحكومة توزيعها فى حدود المبالغ المكتتب بها توزيعًا لا يتصل بالإصلاح فى شىء .

ولم يكن ما لفتُ نظرهم إليه وليد تفكيرى أو ملاحظتى وحدى ؛ فقد اتصلت قبل سفرى إلى الحجاز بأشخاص لهم تجارب فى الأمر ، وتحدثت إليهم فيه واقتنعت وإياهم بما أسلفت . وكان هذا اقتناع حكومة الحجاز من جانبها هى كذلك ؛ فقد تقابلت بعد يومين من حديث الملك وإيانا مع بعض رجال الحكم من الوزراء وغيرهم وتحدثنا ، فأنبأونى بأن مثل هذا الاجتماع يقع فى كل عام على أثر الحج ، ثم تقدّم مثل هذه الاقتراحات إلى الحكومة ، وينصرف الناس بعد ذلك إلى بلادهم ، فتنسيهم مشاغل الحياة ما اجتمعوا فيه ، وتنسيهم ما تحتاج إليه البلاد المقدسة من إصلاح . على أن هؤلاء من رجال الحكم الذين حدثونى كانوا مع ذلك كبيرى الرجاء فى قيام حركة الإصلاح من ناحية مصر بعد الذى أبدته حكومتها ، والذى أبداه طلعت باشا حرب كما أبداه غير واحد من رجالها ، من صادق الحرص على إتمام أعمال لا مفرّ من إتمامها لخير المسلمين جميعًا فى هذه الأماكن التى يقصد المسلمون جميعًا إليها .

مع ما أبداه ابن السعود من الحصافة فى مقابلة هذا الوفد الذى ذهب إليه فإننى لم أفز منه بصورة أقدر بها مبلغ ذكائه ودهائه ؛ وإنما فزت منه بهذه الصورة عشية سفرى من مكة إلى المدينة . فقد استأذنت فى مقابلته لأشكر له ولحكومته ما لقيته من معاونتهم إياى فى بحوثى أثناء مقامى بمكة وبالطائف ، ولأستأذن فى مغادرة مكة إلى المدينة لأعود بعد زيارتها إلى ينْبُع

قصر . وكان ذلك فى يوم السبت ٢١ مارس ، وقد أخبرنى مضيفى أمين العاصمة أن وزير المالية سيكون فى انتظارنا بداره بَجرْوَل فى الساعة الثانية والربع بالحساب العربى ، أى نحو الثامنة والربع مساء ، وأننا سنذهب من هناك إلى قصر الملك كى أقابله فى الموعد الذى حدّده . وذهبنا إلى دار وزير المالية ، فأقمنا بها ريثما تناولنا الشاى والقهوة ، ثم غادرناها إلى قصر الملك فبلغناه قبيل الساعة الثالثة .

وسأل ابن السليمان فقيل له إن القراءة انتهت . ذلك أن الإمام الذى يصلّى بابن السعود يقرأ له بعد العشاء من كل مساء شيئاً من تفسير القرآن فى تفسير ابن كثير ، أو شيئاً من الحديث فى ابن كثير كذلك . ويشترك الحاضرون فى تبادل الرأى فيما يسمعون . وكثيراً ما يشارك الملك فى الحوار ابتغاء الحقيقة ؛ فهذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله ، لكل مسلم منهما حظ ونصيب . فيهما هدى لكل مسلم ، وهما سبيله إلى الله ؛ فالكل متساوون أمامهما لا تفاوت بينهم بسبب مناصبهم أو جاههم أو مالهم . ويحضر الحاج عبد الله فلبى — أو سانت جون فلبى إن شئت — هذه الجلسات وقد يأخذ فى الحديث بنصيب . فهو قد درس أمور الإسلام دراسة دقيقة وبلغ منها مبلغاً جعله يفضلها ، باعتبار أنها نظام يسمو على الديمقراطية وغير الديمقراطية من نُظُم الاجتماع المعروفة اليوم ؛ كذلك ذكر لى حين زرته بداره بظاهر مكة . فإذا تمّت القراءة انسحب الملك إلى مخادعه وانصرف الحاضرون الذين يجتمعون فى كل مساء حوله يصلون معه ويشاركون القارئ الرأى فيما يقرأ . أما فى هذه الليلة فقد جعل الملك موعدى بعد تمام القراءة ليخلو لنا الجو . وقد دخلت عليه فى هذا البهو السماوى الكبير الذى كان فيه حين قابله الوفد من أيام ، فلقينى هَشّاً بَشّاً من غير تحفظ . وسقانا الخادم القهوة ثم انسحب ، وبقيت أتحدّث وأستمع ساعة شعرت أثناءها أننى انتقلت على الزمن إلى عهود العرب الأقدمين ، لولا ما كان يتناوله الحديث من شئون متصلة بحياة العالم الحاضر . ولقد غادرت الرجل بعد هذه الساعة شاكراً رقة عواطفه مقدّراً هذه الثقة التى انعقدت بيننا أواصرها بعد الذى

كان من تحفُّظه أوّل ما لقيته يوم التّروية ، راجيًا أن تحقق الحوادث ظنى فتزيل ما بين مصر وبينه من جفاء . فلقد كنت لقيت رئيس الوزارة المصرية قُبيل سفرى وأفضيت إليه بما يتردّد فى خاطرى من الأسف للجفوة بين مصر وحكومة البلاد الإسلاميّة المقدّسة . ولمّا بادلنى على ماهر باشا الرجاء أن تزول هذه الجفوة ، على رغم ما فى نفس الملك فؤاد من الاعتقاد بعدم صراحة هؤلاء العرب وصدق إخلاصهم فيما يقولون ، تحدثت فى ذلك إلى وزير المالية السعودية وإلى وكيل الخارجية فؤاد بك حمزة ، كما أفضيت به إلى رجال القنصلية المصرية بجُدّة. ولقد ترك الحديث الذى دار بينى وبين ابن السعود تقديراً للرجل فى نفسى أكتفى عن بيانه برواية ما وقع تاركًا لمن شاء أن يُبدى فيه من الرأى ما يشاء .

بدأت حديثى بشكر جلالته وشكر حكومته على معاونتهم إياى فى بحوثى ، وأبديت له عظيم إعجابى لما تم فى الحجاز وخاصةً فى أمر الأمن ، ورجوت له ولحكومته دوام التوفيق فيما أخذوا أنفسهم به من إصلاح هذه الأماكن المقدّسة ، وما يعتزمون فيها من مشروعات لخير أهلها وخير المسلمين الذين يقصدونها جميعًا . هنالك قال جلالته :

— نحن لا فضل لنا فى شىء من هذا وإنما الفضل كله لله . وأنا لم أفكر يوم تركت نجداً إلى هذه البلاد فى حكمها أو فى الإقامة بها . ولقد بقيت معتزمًا العَوْد إلى بلادى متى تمّ لى مقصدى من تأمين حدود نجد والحصول للنجديّين على حرية المجىء إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . لكن إرادة الله كانت غالبة فلم يكن بدّ من نفاذها ومن أداء ما فرض الله علىّ أداءه .

« لما فكرت منذ خمس وثلاثين سنة فى القيام ضدّ ابن الرشيد كى أسترد منه حقوق آبائى لم يكن حولى يومئذ من يؤازرنى . ولقد عمل آبائى منذ عشرات السنين ليقرّوا التوحيد الصحيح وحكم الكتاب الكريم فى هذه الربوع التى انبعث منها نور التوحيد ؛ فرأيت هذه الدعوة خير ما أقوم به وما أقيم على أساسه جهادى . وعاهدت أربعين رجلا من أهلى فأقسموا لَينصُرُنى فيما أريد

أو نموتَ جميعًا . وخرجنا نبغى « الرِّياضَ » وسيوفنا معنا واعتمادنا على الله ؛ وغامرنا مخاطرين والظفر يحالفنا حينًا وتدور علينا الدائرة حينًا آخر . ثم استقرّ لنا الأمر بالرِّياض ، والتفّ حولنا من العشائر من كان ملتفًا حول أجدادنا . ولما استتب لنا الأمر فى نجد رأيت الشريف وأبناءه من حولى ، ورأيت الملك حسينًا فى الحجاز يحاول أن يصدّ قومى عن بيت الله ويأبى أن يتصالح وإيّانا فى مؤتمر الكُوَيْت . عند ذلك طلبت إلى رجالى أن يذهبوا إلى الطائف وأن يحتلوها وأن يقفوا عندها حتى أعرف ما يؤول إليه الأمر من بعد . ولقد قدّرت يومئذ أن إنجلترا لا يرضيها أن نتقدم فى الحجاز وأنها ستقف منا ما وقفت من قبلُ صديقةً وحامية للملك حسين . وكنت حريصًا على استبقاء ما بينى وبين الإنجليز من علاقات المودة . ولكنى رأيت حسينًا ينقض كل عهوده معنا ومع غيرنا ولا يعبأ بعلاقات الصداقة يربط بها بينه وبين الأمم الإسلامية المختلفة ؛ فلم أر بدًّا من إقناعه بضرورة الاعتدال ؛ واحتلالُ الطائف خير وسيلة لهذا الإقناع . وأقام رجالى ببادية الطائف زمنًا ، انهزم أثناءه رجال الحسين وتضعضعت قوّتهم . وعزّ على الملك حسين أن يتصالح وإيّانا وقد كان يحسب فى مؤتمر الكويت أنه قدير أن يفرض علينا إرادته ؛ فآثر الانسحاب من مكة إلى جُدة والنزول عن الأمر لابنه علىّ . وتوسطت إنجلترا أثناء ذلك تريد الصلح . على أن حادثًا وقع دعاها أن تترك الأمر فى الجزيرة لمن يتمّ له الغلب . ذلك حين طرد الأتراك الخليفة العثمانى من بلادهم وتلقته إنجلترا حامية إيّاه . فقد ارتجّ العالم الإسلامى لهذا الحادث ؛ إذ قامت جمعية الخلافة فى الهند تنادى بأن الخلافة من أمر المسلمين دون سواهم ، وتنادى الناسُ من البلاد المختلفة أن أمر المسلمين فى شئونهم الدينية يجب ألا تتدخل فيه دولة مسيحية . من أجل ذلك آثرت إنجلترا أن تترك المسلمين يفعلون ما يشاءون ، حتى لا تتهم بأنها تنصر فريقًا منهم على فريق لأغراضها السياسية . وشجعنى ما حدث بعد ذلك على التقدم ، فحاصرت جُدّة ونقلت ميدان جهادنا إليها ، كما ذهبت قوات نجدية إلى المدينة .

« إلى يومئذ لم يكن حكم الحجاز قد دار بخلدى . وكلُّ ما كنت أبتغيه أن أجلى عنه جماعة الأشراف فأخلِّصه بذلك من مظالمهم ومن عبثهم ؛ فإذا فرغت منهم جعلت الأمر فيه للمسلمين كافةً يرون فى أمره رأيهم . ولقد أذعت على العالم الإسلامى كله رسالة صارحته فيها بهذا العهد أن يكون الأمر له فى مصير الأماكن المقدسة . وكنت كلما تحدَّثتْ إلىّ إنجلترا أو تحدثت لىّ غيرها فى الصلح كان هذا العهد جوابى لهم ؛ وهذا العهد هو ما كاشفت إليه الأستاذ الشيخ المراغى حين جاء فى سنة ١٩٢٥ مع عبد الوهاب بك طلعت موفدين من قبل جلالة ملك مصر للبحث فى أمر الحجاز . ولقد زدت عليه أننى لا أبتغى ملكًا ولا خلافة ، وأننى أرحب بملك مصر ملكًا للحجاز برضا أهله . وكان عزمى متجهًا إلى عقد مؤتمر لتنظيم شؤون الحجاز بمشورة ذوى الرأى فى العالم الإسلامى يكون له اختيار ولى الأمر فيه . وأذعت منشوراً بذلك على أهل الحجاز كى يخلدوا إلى السكينة حتى ينعقد المؤتمر لينظر فى مستقبل الحجاز ومصالحه .

« لم أكد أذيع هذا المنشور حتى جاء إلىّ وجوه أهل الحجاز ، وجاء إلىّ رؤساء العشائر من نجد ، وكلهم غاضب يحتج على هذا المصير الذى أريده لهم . قال أهل الحجاز : كيف يقرر المسلمون من مختلف أقطار الأرض مصيرنا وطريقة الحكم فى بلادنا والحجاز لنا ونحن أهله وأولى الناس بالرأى فى أمره وباختيار الحاكم الذى يتولى شئونه ، وليس للمسلمين أن يشاركونا فى غير الحجّ وما يتصل منه بشأن مكة والمدينة ! . وقال رؤساء العشائر من أهل نجد : نحن فتحنا هذه البلاد وطهرناها من الأشراف واخترناك قائداً لنا وأميراً علينا . فإن شئت أن تنزل عن القيادة والإمارة فإنما يعود أمرها لنا لا للمسلمين من الهند والجاوه والصين ممن لا يعرفون من شئون هذه البلاد شيئًا . وقال أهل الحجاز : إنك هنا منذ سنين عرفناك أثناءها وعرفنا أغراضك وطريقة حكمك ، فنحن نختارك ملكًا علينا . وقال رؤساء العشائر من أهل نجد : أنتَ أميرنا المختار ما لم تنزل ، على رغمنا ، عن هذه الإمارة . وألح هؤلاء وأولئك وأعادوا

القول فى أيام متعاقبة ؛ فلم يكن لى بدٌّ من النزول على إرادتهم بعد أن رأيت الشعوب الإسلامية لا تبدى بأمر المؤتمر الذى دعوت إليه أية عناية . وكذلك بايعنى أهل الحجاز ملكًا عليهم .

قلت :

— لعل هذا ما أحفظَ ملك مصر . فقد فهم من حديثكم مع الأستاذ المراغى أنكم جعلتم أمر الحجاز له ، وأنكم كنتم على أهبة معاونته فى تحقيق هذا الغرض . فلما بايعكم أهل الحجاز ملكًا عليهم عدّ الملك فؤاد هذا الأمر نقضًا لعهد عاهدتموه عليه .

— هذا ما لم يخف علىّ يومئذ . ولقد فكرت طويلا فى كلام أهل الحجاز ورءوس العشائر من نجد قبل أن أقدم على قبول ملك الحجاز مخافة ما قيل . لكن الأمر كان قد تحرج إذ بلغ القلق من نفوس أهل الحجاز على مصيرهم ما خشيت معه اضطراب الأمر إن لم أقم بعمل حاسم . ولم يكن العمل الحاسم ممكنًا بقوّة السيف وقد كان موقف رؤساء العشائر من نجد ما شرحت لك . ولو أننى حاولت يومئذ شيئًا من ذلك لازداد الأمر اضطرابًا ولقامت الفتنة بين عشائر نجد وانقلب الأمر إلى نقيض ما أبغى ويبغى كلّ مسلم محبّ لهذه البلاد .

« ولقد دعوت إلى المؤتمر ، واجتمع هاهنا بمكة بعد ذلك الحادث بأشهر ووضع قرارات لم ينفذ منها شىء ؛ لأن المطامع فى ملك الحجاز انكمشت فلم تحرّك المؤتمرين عاطفة لها فى نفوسهم سلطان هذه المطامع . على أننى بقيت عند رأيى من أننى لا مطمع لى فى الخلافة . ولقد دعا جلالة الملك فؤاد بمصر إلى مؤتمر للنظر فى مسألة الخلافة بعد أن انفض مؤتمر مكة ؛ وكان من رجالى من دُعِى إليه . وقد بعثت يومئذ إلى جلالة الملك برسالة رقيقة ذكرت فيها مؤتمر الخلافة ودعوة رجالى إليه ، وقلت : إننى أوّل من يبايع بها إذا بايع أهل مصر بها مليكهم ، وأبديت الأسف ألا يستطيع رجالى الذين دُعوا إلى المؤتمر أن يشتركوا فيه لأنهم لم يدْعوا عن طريق حكومتهم ، وأنهم وقد بايعونى ملكًا

عليهم ، يبايعون معى بالخلافة من يبايعه أهل مصر بها .

« مع ذلك ظلت الحكومة المصرية حانقة علينا . ولما جاء المحمل فى تلك السنة التى كان فيها مؤتمر الخلافة لم يحفل رجاله بعقائد أهل نجد الدينية . ومع أننا رجوناهم أن يحتاطوا لكى لا يقع احتكاك بسبب هذه العقائد ، وعملنا جهدنا لضبط عواطف رجالنا ، فقد حدث ما تعرفونه من إطلاق حامية المحمل نيران المدافع على المسلمين من النجديين . وقمت بنفسى أول ما بلغنى الخبر وقام معى أبنائى فعملنا جهدنا حتى حصرنا الشرّ فى أضيق حدوده . ولم أرِد أن أكبر من شأن الحادث فلم أذع أنه قتل فيه خمسة وستون رجلا وخمس وثلاثون امرأة من عشائر نجد . وإنما فعلت ذلك إبقاءً على ما رجوت بقاءه من علاقات المودة بينى وبين مصر . لكن حكومة مصر عاملتنا معاملة أدّى بنا الحذر إلى توقعها وإن لم يجر بخاطرنا أن تبلغ ما بلغت . فقد أبدت حكومة مصر أنها سترسل كسوة الكعبة أيًّا كان الرأى فى المحمل وإرساله . وبقينا ننتظر مجىء هذه الكسوة إلى أواخر ذى القعدة ، إذ جاء النبأ بأن حكومة مصر لن ترسلها . وهذه مسألة لا ضرر منها ؛ فنحن قادرون على القيام بها . ولكنك تقرّنى على أنها مسألة تَغيظ . فأمرت رجال حكومتى فعملوا ليلا ونهاراً حتى كسونا الكعبة فى العاشر من ذى الحجة على سابق العادة . ومن يومئذ أنشأنا دار الكسوة بمكة ، فأنشأنا بذلك صناعة لم تكن متداولة فى هذه البلاد من قبل » .

قلت :

— إننى أعتقد أن الوقت قد حان لحل المسائل المعلقة بين مصر والحجاز جميعًا . فقد أثبت الزمن أن لا خير لأيهما فى بقائها من غير حل . وما بذل من المجهود فى هذا السبيل أثناء السنوات الماضية كان يعترضه قرب العهد بهذه الحوادث التى تركت من الأثر فى النفوس ما لم يتيسر التغلّب عليه . ولقد فهمت قبل حضورى إلى هنا من حديث جرى بينى وبين رئيس الوزارة المصرية أنهم يرحبون بإعادة النظر فى كل اقتراح مقبول يعرض عليهم . وفهمت من محادثاتى مع رجال حكومتكم هنا أنهم حريصون من جانبهم على حل هذه

المسائل ، خصوصاً وقد حل الزمن غير واحدة منها كمسألة الجنسية . هذا ، وعواطف الشعب المصرى إزاء الحجاز عواطف مودّة صادقة ؛ وشعب الحجاز يبادل هذه العواطف بمثلها فيما رأيت . وهذا فى نظرى خير عربون لتسوية حالة معلقة يودّ الجميع تسويتها .

قال جلالته :

— لقد جاءنى قنصلكم حافظ عامر من خمس سنوات يحدثنى مثل هذا الحديث . وقلت له يومئذ : اسْمَع يا حافظ ! إنكم تقولون إنكم أكثر منا حضارة وعلماً ، وإننا قوم من البدو ، بيننا وبينكم فى ذلك مراحل . وأنا أوافقكم على هذا . إذا كان ذلك شأنكم وكنتم ترون أننا نطمع فى مسألة صغيرة كالاعتراف بنا كى تكون مقدمة لتسوية مسائل ترون فى تسويتها خيراً لكم وللمسلمين وللبلاد المقدسة ، فلم لا ترضوننا بهذه المسألة الصغيرة ، مسألة الاعتراف ، لتأخذونا فى كنفكم وتحت جناحكم ؟ ! إن عدم اعترافكم بملكى على الحجاز لن ينزع هذا الملك عنى بعد أن اعترفت به إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وكلّ الدول العظمى . فالمـلْك أمر واقع لا ينزعه إلا أمر واقع يتغلب عليه . وما بيننا وبينكم من المصالح قد اقتضاكم إنشاء قنصلية لكم بجدّة ، واقتضانا أن يكون لنا وكيل لديكم بالقاهرة ، يرعى هذا وذاك ما لا سبيل إلى إنكاره من هذه المصالح . أليس عجيباً أن يكون ذلك واقعاً ، ثم نتجاهله وتتجاهلونه ! ولقد أبدى حافظ عامر اقتناعه بأقوالى وما عرضه فؤاد حمزة عليه من حلول للمسائل التى بيننا وبين مصر ، ووعد أن يُقنع الحكومة المصرية برأيه . لكنه لم يعد بعد ذلك إلى الحديث فى هذه المسائل .

« ولم يفتنى فى وقت من الأوقات أن أعمل ما استطعت لتقريب مسافة الخلف بين هذه البلاد ومصر . فقد أرسلت حافظ وهبه فى سنة ١٩٢٨ إلى مصر فعرض حلولا كثيرة ؛ ولكنه لم يجد استعداداً من لدن مصر لقبول ما عرضه . وإنى لسعيد بما ذكرته من حسن استعداد الحكومة المصرية الآن ، فإنى أكن لجلالة الملك فؤاد كل احترام ومحبة وأعتبره فى منزلة والدى عبد الرحمن .

وأرجوك متى عدت إلى مصر أن تبلغه عواطف مودتى الصادقة ورجائى فى أن تكون علاقات مصر والبلاد العربية علاقات مودة وإخاء إسلامى صادق[١] »

شكرت لجلالته هذه العواطف نحو مصر ومليكها ، وشعرت بأنى استنفدت غير قليل من وقته ، فقلت :

ــ لقد سعدت بما اتصل بين جلالتكم وبلاد العراق من حسن العلاقة ، وسعدت كذلك بما كان من ترحيبكم بوساطة المسلمين بينكم وبين إمام اليمن . ويسعدنى أن يتصل هذا العمل فى توثيق أواصر المودة بين هذه البلاد العربية والإسلامية المتجاورة . وإنى أستأذن جلالتكم فى مغادرة مكة شاكراً راجياً لكم ولرجال حكومتكم كل التوفيق .

وحسبت الرجل يتحرك فيأذن لى بالانصراف ، لكنى رأيته استدار قليلا إلى ناحيتى وتوجه إلىّ أكثر من ذى قبل وقال :

ــ اسمع يا أخى ! إن هذا الكلام الذى تقوله حسن . وهذه البلاد العربية والإسلامية المتجاورة ترتبط منذ مئات السنين بروابط قوية إذا تعهدها من يعنيه أمرها ازدادت متانة وقوة . وليس أحب إلىّ من أن تتحد هذه البلاد كلها فى أغراضها مع بقاء كل منها محتفظاً بكيان سياسى له وحده الخيار فى تغييره . لكننى أقول لك : إن الدعوة إلى هذه الوحدة لا يجوز الاعتماد فيها علينا معشر الملوك ، ولا يجوز الاعتماد فيها على الحكومات . فنحن مرتبطون مع أسلافنا بماض له فينا أثر لا نستطيع الفكاك منه . ونحن مرتبطون كذلك باعتبارات سياسية لها عندنا وزنها . ثم إن للملوك مطامع تجعلهم يحيدون ، حرصاً على تحقيقها ، عن الفكرة التى لا يضطر أمثالك أن يحيدوا عنها لمثل هذه الاعتبارات . والحكومات خاضعة للأحوال المحيطة بها ، مضطرة لمجاراة ظروفها . ويوم علمت أن سعد زغلول قَبِل تولى الوزارة فى مصر لم يخامرنى ريب فى أنه سيضطر إلى النزول على حكم الظروف فى أمر الغرض الذى ندب نفسه كى يحققه

---

(١) لم تتح لى الفرصة أداء هذه الرسالة وقد اختار الله الملك فؤادا إلى جواره قبل أن أستطيع مقابلته بعد عودى من الحجاز .

لبلاده . فأما الرجال الذين يؤمنون بفكرة ويَـهَـبُون لها حياتهم ، لا يبتغون من ورائها حكماً ولا سلطاناً ، وإنما يريدون لها أن تتحقق ، فأكثر أمرهم أن يصلوا إلى غايتهم . وفكرة الإخاء الإسلامى فكرة سامية بلا ريب من غير حاجة إلى سند لها من وحدة سياسية تؤازرها . وإنى لأرجو لك ولأمثالك ممن يدعون إليها التوفيق والنجاح » .

واعتدل ابن السعود ووقف بقامته الطويلة ومدّ إلىّ يده الضخمة وصافحنى بحرارة ، ورجا لى الخير قائلا : « اعْتَمِدْ علىّ يا أخى واعلم أننى دائماً أخوك » . فشكرت له هذه العواطف وودعته راجياً أن أراه من بعدُ بالحجاز وبنجد حين أعود إلى هذه البلاد .

خرجت من عنده وهبطت الدرج يتقدمنى حاجبه . وألفيت وزير المالية وأمين العاصمة بالطابق الأوّل ؛ فلما رأيانى ذكرا لى والغبطة بادية عليهما أننى قضيت مع الملك ساعة كاملة . وبادلنى وزير المالية التحية ، وعدت مع مضيفى أمين العاصمة إلى داره وأنا أفكر فى هذا الملك البدوى وحديثه ، وأذكر ما قاله لى أولئك الصحفيون الغربيون الذين أعجبوا بذكائه ومقدرته على كسب محدّثه ، وأذكر حديث أولئك الحجازيين الذين كانوا خصومه أول دخول النجديين مكة ، والذين بلغت خصومتهم أن هجر أكثرهم بلاده ، فذهب منهم إلى الهند من ذهب ، وذهب إلى جاوة من ذهب ، ثم عادوا بدعوة منه وأصبحوا اليوم فى مقدمة العاملين مع رجال حكومته من أهل نجد . من هؤلاء شاعره اليوم الأستاذ إبراهيم الغزاوى ؛ فقد هجر هذا المكى الحجاز وذهب إلى الهند وأقام بها واحتمل لفراق أهله وذويه أشد الألم ، ثم لم يعد إلا بدعوة من ابن السعود وإلحاح من أهله أن يرجع إليهم ليرى بعينه أن الأحوال بالحجاز صارت إلى خير مما كانت عليه فى كل عهد سلف . ومنهم الشيخ طاهر الدباغ الذى يتولىّ اليوم إدارة المعارف ، والذى سافر مع الغزاوى إلى الهند وظل مقيماً بها إلى ما بعد عودة الغزاوى منها . وغير هذين كثيرون كانوا كلهم يتمنون أن تكون حكومة الحجاز للحجازيين ، وأن يكون ملك الحجاز رجلا من أهل الحجاز . لكنّهم جميعاً يقرّون بأن أحوال الحجاز اليوم خير مما كانت فى أى عهد عرفوه .

ولقد أقر هذا القول كثيرون من غير أهل الحجاز ، ومنهم جماعة من بنى وطننا المصريين . فقد تحدثت إليهم وسألتهم فيما يشكو بعض شبان الحجاز منه من إنفاق أموال الدولة فى أمور ليست جليلة الخطر فى حياة الدولة ، ومن إسناد أعمالها إلى غير أبنائها ؛ فقيل لى إن كثيراً من الأمور فى حاجة إلى الإصلاح هنا ومن المستطاع أن توزّع ميزانية الدولة على نحو أكثر فائدة وجدوى مما يحدث اليوم . فأما ما لا مِرْية فيه فهو أن الحجاز لم يتمتع منذ مئات السنين بما يتمتع به اليوم من أمن ، وأن الأخلاق العامة فى المدن أرقى كثيراً مما كانت ، وأن ما ينفق فى التعليم وما إليه من مرافق الإصلاح أكثر مما كان ينفق فى العهود السالفة جميعاً . قال لى طبيب مصرى أقام بمكة سنوات طويلة : « إننى لم أر فيما رأيت أو سمعت عهداً كهذا العهد بالنسبة للحجاز وحسبى أن أذكر لك أن أمّ القرى هذه كانت مثلا فى الاستهتار الخلقى قبل حكم النجديين ، حتى لقد كان الرجل لا يأبى أن يسير وفى صحبته غلام يعرف الكلُّ صلته به ، وأن كل شىء فيها كان مباحاً فى رأى أهلها لأن الحج إليها مصدر المغفرة . أما اليوم فلا يقع شىء من ذلك فى العلن ؛ وما يتصل أمره بأولى الشأن مما يقع خفية يعافه الناس فلا يجد مشجِّعاً عليه . ولو أن الحكومة وجدت أموالا أكثر مما تجد ، ورجالا أقدر وأكثر كفاية ممن عندها اليوم ، لاستطاعت أن تقوم بأضعاف ما قامت به من إصلاح » .

ولقد أبدى مثل ملاحظة الطبيب المصرى بعض رجال الحكومة العربية السعوديّة حين ذكروا أن ابن السعود قد شُغل منذ فتح الحجاز بحروب خارجية وثورات داخلية استنفدت الكثير من جهده ومن مال الدولة ؛ ولولا ذلك لكان الإصلاح أشمل وأوضح . ويرجع بعض الثورات إلى أن قوماً من رءوس العشائر الذين أخلصوا للدعوة الوهابية ما أخلص ابن السعود ، كانوا يبالغون فى إخلاصهم ، حتى ليعتبرهم غيرهم من المسلمين كفاراً ومشركين . لذلك لم يرضهم أن يتصالح ابن السعود مع غيره من المسلمين على المذهب ، أو يتهاون فيما يرون التهاون فيه إقراراً للكفر ؛ ومن ثم لم يستطع ابن السعود أن

يوجه من الجهود إلى الإصلاح غاية ما يرجو ؛ لأن الاستقرار الواجب للقيام بالإصلاح ما يزال معرضًا لهزات الثورات ؛ والحروب تستنفد من أموال الدولة أكثرها .

أما عن الرجال وكفايتهم فلابن السعود فيهم رأى لم يَضن عليّ به أثناء هذا الحديث الذى رويته ، قال : « لقد فكرت فى الاستعانة برجال من المشهود لهم بالقدرة والكفاية من أهل البلاد الإسلامية المختلفة . لكننى قدرت أن يكون لهؤلاء الرجال من المطالب فى الإصلاح ما قد تنوء به موارد هذه البلاد . فإن أنا أجبتهم إلى إصلاح لا أشك فى فائدته اضطررت إلى اقتضاء أموال لا يهون على الناس دفعها فتعرّضت لامتعاضهم . وإن أنا لم أجبهم إلى ما يطلبون من هذا الإصلاح خلقت لنفسى منهم خصومًا ، وما أشدّ حاجتى إليهم أعوانًا ومؤازرين ! . لذلك أكتفى بما تطيقه موارد البلاد وما يطيقه أهلها من تدرّج بطىء . وقديمًا قالوا : (فى الأناة السلامة) » .

لست أريد فى ختام هذا الفصل أن أحكم لابن السعود أو عليه . وحسبى ما قصصت من هذا الحديث الذى رويته عنه ، وهذه الأنباء التى يقصّها الناس عن آثار حكمه . وإنما أضيف إلى ما سبق أن الرجل خرج بنجد من عزلة كانت فيها بعيدة عن العالم ، وأتاح لهؤلاء البدو أن يتصلوا من طريق المخترعات الحديثة بعالمنا السريع التغير والتطوّر . فهذا النجدىّ الذى كان لا يعرف غير بعيره أو جواده من عشر سنوات مضت قد ألِف السيارة والطيّارة والإذاعة اللاسلكية ، وأدرك أنها من عمل الإنسان ، وكان يحسبها من قبل من عمل الشيطان ؛ وهو اليوم يفيد من مزاياها ما يقرّبه من العصر وأهله وما يُعِده لتطور سريع لعلنا نراه بأعيننا قريبًا .

روى بعضهم حديثًا لطبيب أوربى يقيم بالأحساء أو بالكويت يدعى الدكتور « ديم » قال فى أثنائه : « لقد غزا أهل نجد الحجاز بقوة سواعدهم وثابت يقينهم . ولم يجد الأعرابىّ القليل الحاجات والمطامع مشقة فى الانتصار على ابن الحجاز الذى ألِف رخاء العيش وطمأنينته . لكن أهل الحجاز

غزوا نجداً فى حياة أهلها وفى عاداتهم غزواً أعمق أثراً . فهذه الصمادة الحجازية البيضاء النظيفة قد بدأت تحل عند النجديين محل صماداتهم ذات المرّبعات الحمراء . وأهل نجد يشربون الشاى اليوم أكثر مما يشربه أهل الحجاز ، وكانوا قبل الغزو لا يعرفونه ولا يعرفون القهوة . ومن طريق العيش ورخائه بدأت أخلاق أهل نجد تعرف الهوادة والتسامح ، وكانت من قبل متعصبة لا يطيق أحدهم أن يضع يده فى يد من لا يدين بمذهبه ولا يعتقد عقيدته » .

مدلول هذه العبارة من كلام الدكتور « ديم » أن تبادل الغزو بين أبناء نجد وأبناء الحجاز قد مهدّ الطريق لوحدة فى شبه الجزيرة أدنى إلى الاتصال بحياة العالم الحاضر ، وأدنى كذلك إلى انتشار قوّة جديدة فى حياة هذا العالم لم تكن معروفة من قبل .

وابن السعود هو الذى مهّد لهذه الوحدة ، وهو الذى لفت أنظار المسلمين فى مختلف أنحاء العالم إلى البلاد العربية وأهلها ، ولم يكن يفكر أحد فيها من قبل إلا من جهة أنها البلاد المقدّسة .

ترى هل لهذا البعث من مغزى فى حياة العالم الإسلامىّ ؟ لا يزال الجواب عن هذا السؤال مطويّاً فى ضمير الأيام .

الجمعة فى الحرم

المسجد الحرام مَثَابة المسلمين الذين يَفِدون إلى مكة من أقطار الأرض جميعًا فى أشهر الحج ؛ وهو مثابتهم ما أقاموا بأم القرى : يَفِدون إليه لصلاة الفجر وعند الظهيرة ، ويعودون إليه لصلواتهم الأخرى وللطواف بالبيت كلما هوت نفوسهم إلى التطوّف به . وهم يقضون فيه الساعات الطوال يتحدّثون أثناء النهار ويستمعون إلى جماعة من الفقهاء يحدّثونهم فى الإسلام ويفقهونهم فى الدين قطَعًا من الليل ، وإن منهم لمن يقضى فيه يومَه يجاور البيت ، ومنهم من ينصرف نهارَه إلى شئون الحياة ، فإذا أقبل الظلام قضى بالمسجد ليله يقوم إلا قليلا ، يذكر الله كثيراً ، ولا ينال من النوم إلا القدر الذى يكفيه لسعى النهار وتهجد الليل .

لذلك قلّ أن يصلى بغير المسجد الحرام أحد من المقيمين بمكة على كثرة مساجدها . وما رأيت أحداً قام بهذه المساجد مصليًا على كثرة مرورى بها ووقوفى عندها ؛ ولا تقام بها صلاة الجمعة مطلقًا . ومن ذا الذى تطاوعه نفسه وهو بمكة على أن يصلى بمسجد غير المسجد الحرام والإجماع منعقد على أن مثوبة الصلاة به تزيد على مثوبة الصلاة بغيره أضعا فًا مضاعفة . وهذا الإجماع صحيح أساسه . فالإسلام دين جماعة ودعوة للجماعة ؛ ولا شىء يمقته الإسلام كالخروج على الجماعة فى غير حق . ولا تجد الجماعة بمكة مكانًا كالمسجد الحرام مقام بيت الله لتقوم بفروض الله فيه .

وصلاة الجمعة بالحرم من أروع مظاهر الإيمان فى الجماعة الإسلامية ؛ هذا الإيمان القوىّ فى بساطته ، البالغ فى قوّته ، الذى يجمع بين الحرية والنظام جمعًا لم أقف على ما يقرب من رفعته فى أىّ من الملل والنِّحل الحديثة أو القديمة التى اطلعت عليها . ولقد رأيت فى أسفارى الكثيرة ببلاد يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة ومن نظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام ، ولقد

حضرت صلاة الجمعة فى بلاد إسلامية شتّى ، ولكنى لم أر فى شىء من ذلك ما قد يقرب فى جلال مظهره وقوة روعته ، وفى جمعه بين الحرية والنظام ، وبين الاعتداد بالذات والإسلام لله ، مما رأيت فى صلاة الجمعة بالمسجد الحرام ، ولم يطبع شىء من ذلك كله من الأثر العميق فى نفسى ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ فى عمقه ؛ فما أفتأ كلما أذكره أشعر به متغلغلا فى أطواء روحى ، يسمو بها إلى ذروة الإيمان ويرقى بها إلى ما فوق مستوى الإنسانية الذى نألفه .

قصدت إلى المسجد ومعى صاحبى ودخلنا وما يزال بيننا وبين أذان الظهر فسحة من الوقت تزيد على ربع الساعة ؛ مع ذلك وجدنا الأماكن الظليلة حينما دخلنا صحن المسجد قد اكتظت كلها بالذين سبقونا إليها ، وبقى صحن المسجد خاليًا إلا من حمام الحِمَى . وسرنا نتخطى الصفوف نلتمس لنا فرجةً للصلاة ، فلا تقع العين بين الجالسين على موضع لواقف . ثم رأيت صاحبى وقف على قوم وتحدث إليهم ، ثم أشار إلىّ فدنوت منه ، فتَفسح القوم حتى استطعت أن أقف بينهم ، وانطلق هو بين الصفوف يلتمس لنفسه مكانًا آخر . وصليت ركعتين ثم جلست ما استطعت أن أجلس ، وسرّحت الطرف فيما حولى . وأسرع إلىّ جاريمينى وجار يسارى فمدّ كل منهما يده مسلمًا علىّ ، بعد أن أتممت ركعتىّ ، سلام تحية فيه مودة وفيه إخاء . وتفرّست أثناء السلام فى وجه كل منهما فلم تهدنى سيما أيّهما إلى جنسيته ، ولا دلتنى على شىء إلا أنه ليس من أهل هذه البلاد . وعدت أسرح طرفى ناحية صحن المسجد فإذا الناس يَفِدون إليه فى سيل دافق ، يحاول السابقون منهم أن يكون مجلسهم أدنى إلى منبر الخطيب أو إلى أحد المكبريات حول الكعبة . وامتلأ الصحن فى دقائق حتى لم يبق موضع لواقف ؛ وجعل الوافدون إليه يتخطون صفوفه يلتمسون لهم مكانًا كما كنا نتخطى الصفوف فى ظلال القباب نلتمس لنا مكانًا ، ومنهم من إذا تهيأ له المكان جلس فيه ، ومنهم من يؤدى للمسجدتحيته بصلاة ركعتين . ولما لم يبق بالمسجد موضع أقام الناس خارجه يأتمّون لصلاة الجمعة

بإمامه ، مكتفين بصلاة الجماعة وثوابها ، وإن لم يكن لهم ولا لكثيرين ممن وصلوا المسجد رجاء فى سماع خطبة الإمام .

وعلا صوت المؤذن بالنداء للصلاة : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . ما أجمل هذا النداء وأعظم وقعه فى النفس ! إنها لتهتز له وتفيض حين سماعه إكباراً وتقديساً . والقلب والروح وكل جارحة وكل عضو تتجاوب لسماعه وتردد صداه فى إيمان وإسلام . وكلما ألقى المؤذن مقْطعاً منه دوّى المسجد بالجواب عليه صادراً من عاطفة قويّة فى صدق إيمانها بالله ؛ فلا يكاد المؤذن ينادى : « الله أكبر ، الله أكبر » ، حتى يجيبه المسجد كله كتلة واحدة : « الله أعظم والعزّة لله » ؛ ولا يكاد ينتهى من ندائه : « حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح » حتى يدوى المسجد كله مجيباً : « لا حول ولا قوّة إلا بالله » . ويربط هذا النداء وتربط هذه الإجابة بين قلوب المصلين برابطة تزيد إخاءهم فى الله قوة على قوة ، فتنهار الفوارق بينهم ولا يبقى منهم قوىّ وضعيف ولا غنىّ وفقير ، بل يصبحون رجلا واحداً وقلباً واحداً كله الإيمان بالله والتوجه إلى جنابه جل شأنه توجه صدق وإخلاص .

وأتم المؤذن أذانه ، فقام من شاء يصلى ركعتين لله تعالى ، وأقام القوم بألوفهم المؤلفة ينتظرون خطبة الخطيب ليؤمهم بعد ذلك فى صلاة الجمعة ، وسكن كل من فى المسجد وما فيه حين بدأ الخطيب يتكلم . أما نحن البعيدين عنه فلم نسمع مما قال شيئاً ؛ وما أحسب الأكثرين من الحاضرين كانوا خيراً منا فى ذلك حظاً . أنّى لصوت رجل ينطلق فى الفضاء فلا يحجزه جدار أن يصل إلى هؤلاء الذين جلسوا فى مئات متلاصقة من الصفوف وكلهم متوجّه إلى ناحية الكعبة من جهاتها الأربع ! . قلت فى نفسى : أليس من الخير أن يستعين الخطيب بمكبّر للصوت ينقل خطبته إلى جميع المصلّين فى المسجد وفيما وراء جدرانه ! . إن خطبة الجمعة ركن من أركانها . والغرض من خطبة الجمعة إرشود الناس إلى ما يجب عليهم فى أمر دينهم ودنياهم حسب الأحوال المحيطة

بهم . وهي تتكرر فى كل أسبوع ، لأن الحوادث تتلاحق بما يحتاج الناس معه إلى من يرشدهم إلى الخير يسلكون سبيله . وأيّ رشد إذا لم يسمع الناس لقول المرشد! وما أحرى هذا المرشد أن يهون عليه أمر خطبته إذا علم أن الناس لا يسمعونها ! وما أحراه أن يُعيرها كل عناية متى علم أنهم جميعاً يسمعونها ويفيدون منها ! . ولقد رأيت خطباء ذوى رأى وبصيرة يوجهون الناس فى بعض مساجد القرى توجيهاً ينتظم حياة القرية كلها . فما أجدر خطيب المسجد الحرام أيام الحج أن يحيط خُبراً بأمر المسلمين كافةً وأن يصل إلى المصلين صوته ليكون لهم هداية ورشداً .

وفهمت أن الخطبة تمت حين نودى للصلاة من فوق المبلّغات ، أو المكبريّات إن شئت . وقام الناس جميعاً من أقصى المسجد إلى أقصاه يأتمون للصلاة . وكان كلٌ يكبر بعد نيّة الصلاة ثم يقف خاشعاً مطرقاً ذاكراً قوله تعالى : « وإذَا قرِئَ القرْآن فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتوا » ، وإن لم يستمع إلى قراءة الإمام إلا الذين كانوا على مقربة منه . ساد هذه الألوف المؤلفة صمت خشوع كلّه جلال ورهبة : جلال النظام ورهبة الإيمان ، فهم جميعاً يستمعون إلى الإمام يتلو « الفاتحة » فى صمتهم المهيب كأنهم فى ساعة الحشر إكباراً وتقديساً . فلما أتم الإمام تلاوته انفرجت الصدور كلها عن « آمين » قيلت فى خشوع وصوت خافض ودوّى المسجد بها فازدادت القلوب والمشاعر رهبة واهتزازاً ، ثم انطلق كل يتلو الفاتحة وصمت الإمام . فلما أتموها تلا هو ما تيسر من القرآن ، ثم كبّر وكبّرِ المبلّغون على أثره . وركع هذا الجمع الحافل كله يسبح بالله العظيم . وكبر المبلغون ، فاعتدل الناس ؛ ثم كبروا فسجدوا يسبحون باسم ربّهم الأعلى . وكبروا للركعة الثانية ، فتلا الإمام الفاتحة ودوى المسجد من بعده بـ « آمين » وكبر الناس وركعوا وكبروا وسجدوا وتلوا التحيات ثم ختموا صلاتهم بتحية الختام : « السلام عليكم ورحمة الله » لافتين رءوسهم ناحية اليمين فاليسار .

لم تترك صلاةٌ لجماعة ولا تركت صلاةٌ لجمعة فى نفسى من الأثر

ما تركته هذه الصلاة فى الحرم . ولطالما وازنت بين صلاة الجماعة يقوم بها المسلمون فى مساجدهم وما رأيت من صلوات فى الكنائس المختلفة ، فألفيت صلاة المسلمين أعظم فى النفس أثرًا ؛ لأنها توجّه لله الأحد «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكنْ لَهُ كفوًا أَحَدٌ» ،ولأن المسلم هو الذى يصلى بنفسه ويتّصل بالله بقلبه ويستغفر الله عن ذنبه ، ليس للإمام عليه سلطان ؛ بل يقف عمل الإمام عند تنظيم صلاة الجماعة ، بلا قيد لحرية الفرد فى صلته بربه إلا عمله وتقواه .
أما صلاة الجمعة فى الحرم فقد اهتز لها كل وجودى ، وقد أثارت أمام ذهنى صورة مجسّمة من المعانى السامية كنت أقدّسها من قبل ولكنى لم أكن ألمسها لمسًا ماديًّا ، ولم أكن أراها بارزة بالوضوح الذى رأيتها به أثناء هذه الصلاة ولا إثرها . ولقد جلست مكانى والناس ينصرفون من المسجد أفكر فيما رأيت فلا أجد من مزيد التفكير فيه إلا مزيداً فى تأثُّرى به وإكبارى له . ولولا أن جاء صاحبى يدعونى لمغادرة المسجد إلى الدار لأقمتُ حيث كنت مسترسلا فى تفكيرى ملتمسًا العبرة البالغة منه . وما أكبرها عبرة وما أبلغها عظة ! .

وأبلغ أثر تركته هذه الصلاة فى نفسى هذا النظام الكامل لعشرات ألوف يُخْطئها العد عن إسلام به ، وإيمان بوجوبه ، وحب إياه ، وإقبال عليه . فها هى ذى عشرات الألوف تقف وراء الإمام صامتة خاشعة متجهة بكل قلوبها إلى الله مؤمنة إيمانًا كاملا بكل كلمة وكل حرف من هذه السبع المثانى التى يتلوها الإمام إذ يتلو سورة الفاتحة ، ثم تتلو هذه السبع المثانى من بعده تحمد الله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، لا تعبد إلا إيّاه ، ولا تستعين إلا إياه ، تستهديه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم فلم يغضب عليهم ولم يَضلوا . وهاهى ذى عشرات الألوف من كل الأجناس والألوان واللغات ينتظمها إيمان واحد بهذا الذى تتلو ، إيمان لا يتلجلج ولا يكبو ، فإذا سمعتْ التكبير للركوع ركعتْ جميعًا مؤمنة تسبح بحمد ربها العظيم الذى تؤمن به وتقدسه ، وإذا سمعت التكبير للسجود سجدت تسبح بحمده كرة أخرى . وهاهى ذى تعيد فى الركعة الثانية حمدها وتسبيحها واستغفارها ربّها

وعبادتها إياه واستعانتها به فى مثل نظامها فى الركعة الأولى . وتتوجه كل هذه الألوف فى هذا النظام الذى يأخذ بالقلوب والأفئدة إلى بيت الله من جوانبه الأربعة . أى جيش جيشُ الإيمان هذا ! وأية قوة فى العالم تستطيع أن تغلب هذا الجيش لو أنه عرف كيف ينظم الحياة مثل نظام الصلاة الجامعة ، وأن يجعل الإيمان قواماً لنظام الحياة كما أنه قوام هذه الصلاة ! . ألا لو أن ذلك كان واجتمع مَنْ فى الأرض جميعاً لما غلب قوماً ذلك إيمانهم ، وذلك نظامهم ، وذلك سموهم إلى الله ، وهذه عبادتهم إياه وحدَه لا شريكَ له .

الإيمان قِوام هذا النظام البالغ فى كماله ، الذى جمع الأوربىّ والإفريقى والآسيوىّ وأهل الأرض جميعاً فى صعيد واحد . والإيمان هو الذى جعلهم إخوة متفاهمين على تباين لغاتهم واختلاف أجناسهم . وإيمانهم له كل هذا السلطان لأنه إيمان تجرد من كل ما سوى الفكرة السامية ، لا تشوبها شائبة ، ولا تندسُّ إليها غاية من غايات هذه الحياة الدنيا : الفكرة المجردة من كل مطمع ومن كل هوى إلا رضا الله رضاً يستعذب المسلمون التضحية بكل شىء فى سبيله ؛ التضحية بالهناءة والطمأنينة ، وبالمال والجاه ، وبكل ما فى الحياة ، بل بالحياة نفسها . وهذه الفكرة السامية يؤمن بها عشرات الألوف هؤلاء ويؤمن بها المسلمون جميعاً ، تتلخص فى كلمتين اثنتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية منذ وجدت ، ولا يمكن أن تعرف أبلغ ولا أقوى منهما إلى أن يبيد الله الأرض وما عليها : « الله أكبر » .

نعم ! هاتان الكلمتان هما أبلغ ما عرفت الإنسانية ، وما يمكن أن تعرف . هما مظهر السموّ الإنسانى على ما يتصل به الإنسان من سائر الكائنات . وهما مظهر سمو النفس وقوّتها ، فلا يعتريها ضعف ولا يزعزع منها سلطان . يكفى أن يحيط الإنسان بمعنى هاتين الكلمتين كاملا ، وأن يؤمن به إيماناً صادقاً ، ليتصل بالله اتصالا صحيحاً ، وليَرقى بهذا الاتصال فوق الألم ، وفوق الأمل الخادع ، وفوق الغرور الكاذب ، وفوق كل ما فى الحياة الدنيا . إننا نحن المسلمين لنسمع هاتين الكلمتين ولنقولهما فى كل يوم عشرات المرات : نسمعهما

مرات ساعة الأذان ، ونسمعهما ونقولهما مرات حين الصلاة ، ونرددهما فى مناسبات كثيرة ونؤمن بهما حقًّا ؛ لكن الكثيرين منا يؤمنون بهما ولا يحيطون بمعناهما إحاطة إدراك تام وشعور متنبه لهذا المعنى .

فما أعظم سلطان المال وما أكبر حكم أصحابه ! نعم ! لكن الله أكبر . وما أعظم سلطان هذا الملك الحاكم فوق العباد ! نعم ! لكن الله أكبر . وما كان أعظم سلطان رومية وامتداد إمبراطوريتها ! نعم ! لكن الله أكبر . وما أعظم سلطان الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب الشمس عن أملاكها ! نعم ! لكن الله أكبر ! وما أعظم سلطان أوربا سلطانًا تحكم به الشرق وتتحكم به فى مصير العالم كله ! نعم ! لكن الله أكبر . فإذا أنت اتصلت بالله وحده ، وعبدته وحده ، واستعنته وحده ، لم يكن للمال ولا للملك ولا للإمبراطورية البريطانية ولا لأوربا ولا لقوّة من القوى بالغًا ما بلغ كبرها أىُّ سلطان عليك .

وما هذه القوى جميعًا وهى لا تساوى عند الله جناح بعوضة ! وإن من التجديف حين نذكر أن الله أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم أن نذكر هذه القوى الضئيلة فى حياة الكون والتى تبدو اليوم وتختفى غداً ، وتقوى اليوم وتضعف غداً ، وتوجد اليوم وتنعدم غداً . يبتلع البحر من الأرض ما شاء الله أن يبتلع ، ويذهب الأقوياء فلا يبقى لهم بعد ذهابهم إلا ذكر قوتهم ؛ لكن الأرض التى يسير عليها هؤلاء يعيشون ويأكلون وإلى ثراها يرجعون ، ما أكبرها ! لكن الله أكبر . والشمس ما أكبرها ! لكنّ الله أكبر . والوجود كله من محسوس نشهده وغائب نتوسّمه ما أكبره ! لكن الله أكبر ! وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظُهما وهو العلىّ العظيم .

وعبادة الله والاستعانة به تقتضيانك علم ما خلق ، والسعى فى مناكب الأرض ، وإدراك أسرار الحياة . وأنت أعظم اتصالا بالله كلما كنت من هذا العلم وهذا السعى وهذا الإدراك أكبر حظًّا . وإيمانك الحق بهاتين الكلمتين ينقلب إيمانًا آليًّا لا ينفع ولا يضر إذا لم تَسْعَ ولم تدرك ولم تتصل بنوره العظيم . إذا علمت هذا وعملت به ودأبت لتدرك عظمة الله فى خلقه ممَّا نرى

وما لا نرى، وما نحس وما يجاوز إحساسنا، إذن فلن يغلبك غالب وأنت فرد. فأما إن علمتْه أمة وعملت به وآمنت عن إدراك صحيح بأن الله أكبر، فقد حقّ لها أن تتولى هدى العالم إلى الحقّ في أسمى صُوره وأرقى درجاته، هدى يصل بالإنسانية إلى ما تبغى من مجد الإخاء في الله؛ إخاء هو وحده الجدير بالإنسانية حين تبلغ من التقدّم درجة حسنى.

ما بال هذه الألوف المؤلَّفة من المسلمين الذين يصلّون الجمعة في الحرم، ثم ما بال إخوانهم الملايين من المسلمين المنتشرين في بقاع الأرض جميعًا، وهم يؤدّون صلاتهم في هذا النظام البالغ ويسمعون هاتين الكلمتين ويكررون في صلاتهم «الله أكبر» مرات وعشرات المرّات، ما بالهم فيما هم فيه من ضعف وجمود وخضوع لسلطان الغير وحكمه!؟ فكّرت في هذا حين أويت إلى الدار واعتكفت في غرفتي، فكرت فيه متألمًا ثائرًا بهؤلاء الذين أوتوا أسبابَ القوّة فضعُفوا وهانوا، وأوتوا سبيلَ العزّة فذلوا واستكانوا. وكيف لا تثور النفس حين ترى هذا النظام البالغ ثم ترى ما هم فيه من هوان وفوضى، ومن شأن من ينتظمهم الإيمان السليم به أن يكونوا العزة والقوة. ولم ألق عسرًا في الوقوف على علّتهم؛ فنظامهم هذا ينقصه الروح؛ ولذلك غاضت حياته، فانقلب آليًّا، فانقلبت على أهله غايته. وهذا هو السبب فيما هم فيه وما سيظلون فيه، حتى يغيّروا ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم.

الروح ينقص هذا النظام لا ريبَ؛ الروح المستمدّ من الإيمان الكامل. أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». والكثرة من هؤلاء المصلين لا يفكر أحدهم في أخيه ولا يحبُ إلا نفسه. هو لم يحضُر إلى مكة ولم يفرض الحج ولا يستوى مع الناس في صلاة الجماعة بالحرم ليكون لإخوانه المؤمنين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، بل جاء إلى مكة حاجًّا وحضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير في المؤمنين ممّن حوله. وليس هذا شأن المسلمين اليوم وفي هذا العصر الأخير وكفى؛ بل هو شأنهم — مع الشيء الكثير من

الأسف — منذ مئات السنين التى خلت ؛ منذ انتقل الأمر بينهم من الشُّورى إلى الاستبداد ، ومن الاجتهاد إلى التقليد ، ومن الاستهانة بالموت إلى حبّ الحياة ، ومن عبادة الله وحده إلى عبادة المال وأرباب المال . من ذلك اليوم البعيد عنَّا ، حينما كان تاريخ الأمة الإسلامية ما يزال مزدهراً ، بدأت الأثَرة تبلُغ من المسلمين أن صار أحدهم لا يعرف إلا نفسه ولا يحبّ إلا نفسه ، ويحسب مع ذلك أنه يستطيع الوصول إلى رضا الله باعتزال إخوانه المؤمنين وبالانقطاع عن التفكير فى أمرهم إلى التفكير فى أمر نفسه . ومن يومئذ نسى المسلم أنه إذ يقول وهو يصلّى لله « إياك نعبد وإيَّاك نستعين » ، أنه يتحدث عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين ، وكأنما خُيل إليه فى غروره أنه بهذه الصيغة يعظِّم نفسه وهو يخاطب ربه . وحينما بلغت الأثَرة من النفوس هذا المبلغ ضعف إيمانها وتزعزع يقينها وتعلقت بالحياة وأذعنت خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة فى الحياة. هنالك تنزوى الروح ويضمحل سلطانها على النفس . وهنالك تتهلهل أواصر الاتصال بين المؤمنين وتضعف أخوتهم فيضعفوا جميعاً . وهنالك تصير حياتهم حياة أفراد تنتهى بالموت لا حياة أمة تتصل على الزمان ولها فى شهدائها وفى موتاها أعلام مجد وعزة تتعلق بها وتضحِّى للاحتفاظ بما شادوا من هذا المجد ولإكباره والمزيد منه .

وذكرت وأنا أفكّر فى هذا وفى مثله أولئك المسلمين الأولين الذين كانوا يجيئون للصلاة عند الكعبة كما نجىء نحن للصلاة عندها اليوم ، فيصدُّهم المشركون ويؤذونهم ويبالغون فى تعذيبهم . لم يكن يومئذ حول الكعبة مسجد معمور تحيط به هيبة الإسلام شأن المسجد الحرام اليوم ؛ بل لم يكن حولها مكان مسوَّر ؛ إنما كان حرمها متصلا بالطريق ومتصلا بالمساكن اتصال المَسْعَى بين الصفا والمروة فى وقتنا الحاضر . مع ذلك كان المسلمون الأولون يذهبون إلى الصلاة متَّحدين متضامنين وهم يعلمون أنهم معرضون للأذى وللموت ، وأن تحابهم وتضامنهم يجعلانهم أكثر للموت وللأذى تعرضاً . ولقد كثر عدد المسلمين بمكة قبل الهجرة ، واعتز الإسلام بحمزة بن عبد المطلب وبعمر بن

الخطاب ، وجعل عمر يدفع من أذى المشركين للمسلمين ما يستطيع دفعه ؛ مع ذلك ظل المشركون على عداوتهم للنبي وأصحابه وإيذائهم إيّاهم ، وظل المسلمون على تضامنهم وحبّهم بعضهم لبعض فى الله وصبرهم على الأذى فى سبيل الحق وإيمانهم بأن النصر لهم ما صبّروا ، يذهبون إلى حرم الكعبة للصلاة مستهينين بالأذى وبالموت ، مؤمنين بأنهم رجل واحد فلا يموتون ما بقى منهم من ينادى مؤمنًا : « لا إله إلا الله الله أكبر » ، محبّا إخوانه فى الله ، موقنًا أنه لا يكمل إيمانه حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه .

ولم يكن هذا الحب الصادق الذى يكمل به الإيمان حب عاطفة هوجاء يرى صاحبها فى الإلقاء بيده إلى التهلكة استهانة بالموت ؛ بل كان حب تعقل وروية وحرص على معرفة الحياة وما فيها إلى غاية ما يبلغ المرء من معرفتها فى ذلك العهد . كان المسلمون يجتمعون بالرسول فى كل يوم يتشاورون ،وكانوا يتنطسون أخبار المشركين ليقفوا على دخائل نفوسهم ، وكانوا ينافسونهم فى العلم بالأمور ليدفعوا حجتهم بالحجة وقوتهم بما يستطيعون من قوة . لم يكن أحدهم يرى فى الإسلام لله والتوكل عليه ما يصرفه عن التفكير ليومه وغده ، ولشدّ أزر وليّه ودفع عدوه ؛ بل كانوا يرون فى الإيمان بالله والإسلام له سموًّا على كل إذعان لغير الله واستهانةً بكل مجهود وكل مشقة لبلوغ هذا السموّ ؛ وبذلك كانوا حربًا على كل ضعف فى أنفسهم ، كما كانوا حربًا على قوة خصومهم . من أجل ذلك استلوا من نفوسهم كل سلطان للأثَرة عليها ؛ فقوى اعتداد الفرد منهم بنفسه وحبه لإخوانه ، و بذلك كانوا الغالبين .

وكان لهذا الاعتداد بالنفس مع إنكار الذات أثره فى أولى المواهب وأهل الزعامة منهم . لم يكن أحد من هؤلاء يرضى إذا آمن بشىء أن يكتم إيمانه مخافة ما يجره إعلان هذا الإيمان عليه من أذًى ؛ ولم يكن أحدهم ينتظر حتى يرى أين تكون منفعته ليكيِّف بوحيها رأيه أو عقيدته ؛ بل كانوا جميعًا يؤمنون بأن العقيدة والرأى معا ملك « مشاع » للجماعة ؛ فيجب أن يطالعها الفرد بما يرى ، وأن يحاول إقناعها به فى صراحة وشجاعة وإيمان . لهذا نجم منهم القادة

وأولو الرأى ، وتوارى من جماعتهم المراءون والمنافقون الذين يريدون أن يتّخذوا من كل شيء : حتى من الرأى والإيمان به مطية أهوائهم ووسيلة منافعهم ولذلك آمنوا بأن الروح من عند الله ، وأن الحياة الإنسانية متصلة بكلمة الله ، وأن الله خلق الإنسان على صورته؛ فهو من ثمّ روح قبل أن يكون مادة ، وحياته من ثمّ فكرة متصلة بالروح ، وليست حركة آلية ، ولا حركة فطرية كحركة النبات ، ولا حركة سليقية كحركة الحيوان .

وحينما آمن الإنسان بأن الحياة فكرة استهان بالموت فى سبيل الفكرة . ومن استهان بالموت عنَتَتْ له الحياة . وكلما ازدادت الفكرة سموًّا ازداد صاحبها استهانة بالحياة وسموًّا لذلك عليها . والجماعة التى تعيش من أجل فكرة إنسانية سامية ولا تخشى الموت فى سبيلها ، تصل من القوه إلى حيث لا يغلبها غالب . كذلك كان شأن الجماعة الإسلامية الأولى . كان الإيمان بالوحدانية يملأ نفوس أهلها ، حتى ليصغر كلُّ ما فى الحياة إلى جانبه . وكانوا يعلنون إيمانهم هذا ولا يكتمونه ؛ لم يكن يصرفهم عنه وعدٌ ولا وعيدٌ ، ولم تكن لتَرُدّ الصادقين منهم تضحية وإن عظُمت وإن بلغت التضحية بالحياة ؛ وبذلك نصرهم الله وفتح لهم فتحًا مبينًا .

وإنه ليأخذ منى اليوم العجب حين أرى قومًا ينادون بغير هذا الرأى أو يعلّموا الناس ما يخالفه . وأعجب هذه التعاليم وأشدها فتكًا بالقوى الإنسانية قولهم : إن الإنسان آلة وأعضاء جسمه كأعضاء الآلة ، ووجوده وروحه رهينان بسلامة هذه الأعضاء رهن حركة الآلة ونشاطها بسلامة أجزائها ؛ فإذا أصاب الإنسان الموت أصبح جثة هامدة كما تصبح الآلة رُكامًا من أجزائها التى فقدت أسباب الحركة . ويزيد فى عجبى ما يزعمه قوم من أن هذه الفكرة الآلية هى أساس الحضارة الغربية التى تحكم العالم اليوم ، كأنما تستطيع المادة أو يستطيع شىء غير الفكرة أن يطور الحياة أو ينشئ فيها جديداً .

وهذا القول بأن حضارة الغرب تقوم على هذه الفكرة الآلية وهمٌ يدلّ على

سوء الفهم لحياة الغرب . فعلماء الغرب ومفكروه يقرّرون ما عرفته الإنسانية الحية فى كل أطوارها من أن الفكرة أساس الحياة وأساس كل نشاط فيها . بل إن حياة العلم فى هذا العصر لتستند إلى الكلمة التى قالها « ديكارت » فى القرن السابع عشر : « أنا أفكر ، فأنا إذاً موجود » . وليس يصح فى الذهن أن يكون التفكير أساس الوجود ، وأن يكون الوجود الإنسانى آلياً لا يساوى الوجود الفطرىّ للنبات والحيوان .

وإنما أدى إلى فكرة الآلية فى الحياة الإنسانية أن بلغ بعضهم بالفكرة الروحية مبلغاً أخرجها عن حكم العقل ، ثم أراد مع ذلك أن يصورها فى صور من المادة ؛ فهوت بذلك فكرته فيها إلى دَرَك الجمود والتعصب . وحيثما قام التعصب ناضله تعصب يَضيق به ذرعاً . من ثم قامت الفكرة الآلية لنضال أوهام زعَمها أصحابها صادرة عن الفكرة الروحية . فأما الحق فى الغرب والشرق وفى كل زمان فإن الحياة الإنسانية روح قبل أن تكون مادة ، وفكرة متصلة بالروح ، وليست حركة آلية تنتظم حياه الجسم وحدها .

والنضال هو الذى نزل فى الغرب بالمثل الأعلى إلى الرغبة عن النظر فى فى الروح وفى اتصال الإنسان بالكون نظراً طريقه العقل ، ثم إلى التقيد بالمحسوسات المادية واستنباط سنن الكون منها بمنطق العقل وحده . على أن كثيرين من كبار علماء الغرب ومفكريه لم يلبثوا حين رأوا ما فى هذا التقيد بالحس من حد لحرية الفكر ، أن دَعوا لتحطيم هذا التقيد ، وأن عالجوا الظاهرات الروحية على الطريقة العلمية ، طريقة الملاحظة والتبويب والاستنباط ، آملين أن يصلوا من هذا الطريق إلى نتائج أسمى أثراً من ثمرات النظريات النفعية والمادية فى الخلق وفى الحياة وفى اتصال الإنسان بالوجود وبارئ الوجود . وما يحاول الغرب اليوم من سمو هو ما حققه الإسلام منذ نشأته للذين دانوا به .

لذلك كان الروح أساس ما دعا إليه من نظام ومن حرية ؛ ولذلك كان المسلمون الأولون أشد حرصاً على حرية أرواحهم منهم على حرية أبدانهم ، وكانوا يفتدون حرية الروح للفرد بكل قيد للبدن ، ويفتدون نظام الروح للجماعة

بما شَهِدتُ فى صلاة الجمعة بالحرم . لم تكن المظاهر تغريهم عن الحقيقة ؛ ولا كان الغلاف يحجب اللب عن أنظارهم . لم يَعْنِهم أن كان المسجد مما حول الكعبة غير مسوّر ، ولم يروا فى بيت الله إلا أنه منارة روحية يتوجه إليها المسلمون جميعاً على أنه الجامع لقلوبهم ولإيمانهم وتوحيدهم ربهم . لم يتوجّه أحد إلى الكعبة بالعبادة لأنها بيت الله ، بل قصروا جميعاً عبادتهم على رب البيت . كان عمر بن الخطاب يقول وهو يقبل الحجر الأسود حين طوافه : « والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . وكذلك كان هُداهم روحياً فى كل شيء ، وكانوا يلتمسون هذا الهدى فى كل ما يقع عليه الحس ليروا فيه سنة الله لا تبديل لها ، وآية الله شهيدة بربوبيته جل شأنه .

ولم يفكر المسلمون فى أن يسوّروا ما حول الكعبة ليتخذوا من سياجه قدساً لصلواتهم إلى أن اختار الرسول الرفيق الأعلى وطيلة خلافة أبى بكر . وعلى عهد عمر امتدّ الفتح الإسلامى وكثر الذين يشهدون الحج ، وضاق الفضاء المحيط بالبيت بهم حين الصلاة ، إذ كانوا يدخلون إليه من الأبواب القائمة بين الدور المحدقة به . عند ذلك اشترى عمر دوراً حول الكعبة وهدمها وأدخلها فى حرمها وأحاطها بجدار قصير . ولقد أبى بعضهم يومئذ أن ينزل على إرادة عمر ، فأجلاهم عن دورهم ووضع لهم ثمنها فى خزانة الكعبة ، وقال لهم : إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ، ولم تنزل الكعبة عليكم . وازدادت رُقعة الفتح الإسلامى فى زمن عثمان وازداد الذين يشهدون الحج عدداً ؛ فاحتذى عثمان مثال عمر وأضاف إلى الكعبة دوراً اشتراها .

كان المسجد الحرام يومئذ محاطاً بجدار قصير وكان غير مسقّف ، وكان الناس يجلسون حول البيت وحول جدران المسجد بالغَداة والعَشىّ يتفيئون الظلال ؛ فإذا تقلّص الظل تفرقت المجالس . ولم يفكر أحد من خلفاء المسلمين ولا من رجال هذا الصدر الأول فى زينة المسجد ولا فى فخامته . فبساطة الإسلام الحق تنأى بالمؤمن عن هذا التفكير ، وعبادة الله لا تعرف الزخرف ولا تتصل به . إنها ابتهال خالص بالقلب إليه جل شأنه ، وتوجُّه

ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ويسمو بالنفس على غرور الحياة الدنيا . لذلك لم يزد عمر حين ضم إلى المسجد من المنازل المحيطة به ما ضمَّه على أن أقام جداراً لا يرتفع إلى قامة الرجل ، وكذلك فعل عثمان . ويذكر بعضهم أن عمر وضع على الجدار مصابيح تضىء المكان للذين يصلّون العشاء ؛ أما قبل عمر فلم تكن ثمّة مصابيح ، بل كان الناس يقصدون إلى فناء الكعبة ليصلّوا وهم فى غير حاجة إلى نور يهتدون به ، اكتفاء بنور بصائرهم وهدى قلوبهم .

فى هذه الأيام الأولى كانت صلاة الجمعة بالحرم يدعو إليها روح مبعثه الإيمان ونظامٌ قِوامه الأخوة . والإيمان والأخوة يسموان بطبيعتهما على الزينة والزخرف . لذلك لم يفكر عمر ولا فكر عثمان فى أكثر من توسيع رُقعة المسجد ليسع المصلين حين الحج ، وإضاءته ليهتدى فى أرجائه من لا عهد له به . ولم تغر عثمان أموال الفتح التى كانت تتدفق من الأقطار الجديدة التى رفرف عليها العلم الإسلامى ، فلم يصنع بالمسجد ما صنع قومه فى الجاهلية بالكعبة حين كشف عبد المطلب عن زمزم بعد أن بقيت مطمومة ثلاثة قرون ؛ فلقد أخرج من بئر إسماعيل غزالتين من الذهب كان الجرْهمِى الذى طمها قد أخفاهما بها ؛ فضربهما فى باب البيت الحرام حليةً له . لم يصنع عثمان صنع من سلف ؛ لأن الإسلام جعل التقوى قربان الإنسان إلى ربه ، ولم يجعل من مساجد الله هياكل آلهة تعبد ويتقرّب إليها المتقرّبون بالأموال ، كما كانوا يتقربون إلى هُبَلَ وإلى غيره من الأصنام قبل أن يطهر النبى الكعبة منها .

ولما انقضى عهد الخلافة وشبت نار الحروب الأهلية بين المسلمين باسم الثأر لعثمان من قتلته ، بدأت الشوائب تشوب قلوب طائفة من المسلمين وقد حرّكتها مطامع هذه الحياة الدنيا . فغشت فيها طُهْرَ دين الله وصفاءه . على أن الذين أقاموا إلى جوار بيت الله من عِترة النبى كانوا أبعد أن تشوب هذه الشوائب قلوبهم ، وكانوا أشدَّ لبيت الله ولحرم البيت إكباراً وتعظيماً . أقام عبد الله بن الزبير بالحجاز حفيظاً على التقاليد الأولى ؛ فلما كانت سنة أربع وستين من الهجرة اشترى دوراً وسع بها المسجد الحرام على نحو ما صنع عمر

وعثمان من قبل، ولم يزد على أن أحاط الزيادة بجدار المسجد .

لكن بنى أمية كانوا قد اتصلوا فى الشام بأهل البلاد التى دخلت فى الإسلام بحكم الفتح ، ورأوا من عناية النصارى بكنائسهم وعمارتها وزينتها ما جعلهم يفكرون فى القيام للمسجد الحرام بشىء من هذا الذى رأوا . وكان عبد الملك بن مروان أول من سن هذه السنة حين حج فى السنة الخامسة والسبعين من الهجرة . فهو لم يجد المسجد فى حاجة إلى زيادة فيه ، فأمر فرفعت جُدْره وسُقِّف بخشب الساج الداكن اللون المتين ، وجعل فى رأس كل أسطوانة خمسين مثقالا من الذهب . وفى ذلك عَوْدٌ لتقاليد الجاهلية . لم يعترضه يومئذ من المسلمين أحد لأن أمير المؤمنين هو الذى أمر به . وزاد الوليد بن عبد الملك فى عمل أبيه بعد أن نقضه ، فوسع المسجد ، وزخرف الساج الذى سقفه به وأزّر أسفل جدرانه بالرخام وجعل له شُرفًا ، ونقل إليه أساطين الرخام وجعل على الذهب فى رأسها صفائح من النحاس ، وزخرف أعلى أبواب المسجد بالفسيفساء . وإنما صنع الوليد ذلك لأنه كان إذا شيّد المساجد زخرفها كما يزخرف النصارى كنائسهم .

ودالت دولة بنى أمية ، وقام بنو العباس على إمارة المؤمنين . وبنو العباس يمتّون إلى بيت النبوة بآصرة قريبة ، وقد جعلوا من صلتهم به أساس دعوتهم . فلا عجبَ أن يتّجه نظرهم إلى البيت الحرام وإلى الزيادة فيه وإعظامه ، وإن لم يفكر أحد فى الرجوع به إلى البساطة الأولى . فلما اطمأن لهم الأمر أصدر ثانى خلفائهم أبو جعفر المنصور أمره إلى زياد بن عبد الله الحارثى واليه على مكة ؛ فزاد فى المسجد الحرام وجعله ضعف ما كان عليه وزيّنه بالذهب وأنواع النقوش ، وبنى مئذنة بنى سهم ؛ وأتم ذلك فيما بين سنة سبع وثلاثين ومائة، وسنة أربعين ومائة . وفى هذه السنة حج المنصور ورأى حجارة حِجْر إسماعيل بادية ، فأمر زياداً أن يغطّيها بالرُّخام ، ونفذ زياد الأمر ليلا وأصبح المنصور فرآها كما أراد . وزاد المهدى بعد أبيه المنصور ما جعل المسجد قُرابة ما هو اليوم .

وكانت الكعبة فى جانب من المسجد لأن ما أضافه إليه عمر كان يتجه إلى الناحية التى لا يخشى انحدار السيل إليها . وكره المهدى أن تكون الكعبة فى ناحية من المسجد وأراد أن تكون فى وسطه ، وقال المهندسون حين استشارهم : إن وادى مكة له سيول قوية العزم ، ونخشى إن حولنا الوادى عن مكانه ألا يتم لنا ما نريد . قال المهدى : لا بد لى من سعة المسجد حتى تكون الكعبة فى وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما فى بيوت المال . وأحكم المهندسون أمرهم ، وترك لهم المهدى المال وعاد إلى العراق . واشتط أصحاب الدور التى تدخل فى هذه الزيادة فى أثمان دورهم ، حتى بلغ ثمن الذراع مما دخل المسجد خمسة وعشرين ديناراً ، أى اثنى عشر جنيهاً ونصف الجنيه . وأتم المهندسون العمل فى عهد الهادى بن المهدى بعد أن جُلبت أساطين الرخام لهذه الزيادة من مصر ومن غيرها وحُملت على العَجَل من جُدة إلى مكة .

لم يضف إلى المسجد بعد ذلك غير إضافتين جزئيتين تمّتا فى عهد الناصر والمقتدر من العباسيين . على أن عمارته جدّدت مرات من بعد ، وكان لملوك مصر وأمرائها حظ من ذلك عظيم ، وكانوا لا يقفون من العمارة عند الترميم أو البناء بل كانوا يضاهون العباسيين فى تزيين المسجد وزخرفته وإن لم يبلغوا من ذلك ما بلغوا فى تزيين حرم المدينة وزخرفته مما سنقصه عليك . ومع ما كان من انتقال الخلافة من مصر إلى آل عثمان بالآستانة ، ومن عناية آل عثمان بالحرمين ، لقد ظلت مصر أشد البلاد الإسلامية حرصاً على عمارة الأماكن الإسلامية المقدسة وأكثرها سخاء فى الإنفاق على هذه العمارة . كان المعلم محمد المصرىّ هو الذى استصحبه شيخ المهندسين أحمد بك المصرى لعمارة المسجد الحرام حين أصدر السلطان سليم أمره إلى حاكم مصر سِنَان باشا للقيام بهذا العمل . وكان لمصر نصيب وافر من النفقة على هذه العمارة التى بلغت خمسة وخمسين ألفاً من الجنيهات عدا مائة ألف من الذهب الإبريز ، وعدا ما دخل من مصر من موادّ العمارة كالخشب والحديد وأهلّة القِباب المطليّة بالذهب ، على نحو ما يرى الإنسان بالمسجد إلى يومنا هذا . وفى هذه العمارة عُنِى

المهندس بخفض أرض الطريق المنحدر إلى وادى مكة لتنحدر منه السيول إذا دخلت المسجد . وكثيراً ما كانت هذه السيول سبباً فى توهين بنيان المسجد من قبل .

ليس غرضى مما قدمت تفصيل عمارة المسجد ومن قام بها ؛ لذلك لا أقف عند عمارة داخل المسجد من مقام إبراهيم وحِجْر إسماعيل وبئر زمزم ومقامات الأئمة الأربعة ؛ إنما سقت ما ذكرت لأبين ما أدت إليه صلاة الجمعة فى الحرم من توسيع المسجد على مرّ السنين ليسع المصلين ، وعناية خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين بذلك عناية بدَأت من عهد عمر واستمرت على القرون بعده ، وما أدى إليه تطور التفكير الإسلامى من البساطة القوية الأولى ، بساطة الإيمان والنظام للفرد والجماعة ، إلى الترف والزخرف فى العصور التى سبقت الانحلال فى الحضارة الإسلامية . فقد رأيتَ أن الخلفاء الأولين لم يَعْنِهم من أمر الحرم وتوسيعه إلا أن ينفسح المكان للمسلمين فى أيام الحج ليصلُّوا حول بيت الله ، ثم آل الأمر إلى تزيين المسجد وإلى زَخرفته شيئاً فشيئاً حين أصبح الإيمان فنًّا والنظام حواراً وجدلا . فقد بدأ الإيمان يتزيّا فى أزياء ويتصور فى صور تجعل الإنسان درجات تتفاوت بتفاوت ما يتقرب به صاحبه إلى الله من مادة الحياة بعد أن كان أمره روحيًّا خالصًا ، يتصل تفاوته فى الدرجات بمبلغ سمو الروح به إلى الله . كان هذا السمو الروحى دأب المسلمين الأولين ، وكانوا يقرّون لفقراء لا يملكون قوت يومهم أنهم أقرب إلى الله لأنهم أكثر به إيمانًا وله إسلامًا . وأن من الأغنياء الذين ينفقون فى التقرّب إلى الله بإقامة المساجد وما إليها من لا يبلغ فى الإيمان درجة هؤلاء الفقراء . فلما شابت السموّ الروحى الشوائب خيل إلى الأغنياء وذوى الأمر والسلطان أن من درجات الإيمان ما يبذلون من مال فى توسيع الحرم أو زخرفته . ثم تطور أمر الإيمان إلى التقرب إلى الله عن طريق الأولياء والصالحين ، ثم ضَعُف هذا الإيمان وصار إلى ما صار إليه فى زماننا إيمانًا تقليديًّا يكفى صاحبَه أن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن منها بشىء ، ثم يحسب بعد ذلك

أنه أرضى الله . ولعله لا يعنيه من هذا الرضا أكثر مما يعنيه من حقيقة إيمانه .

هذا التطور وما انتهى إليه هو علة ما قدّمنا عن النظام فى صلاة الجمعة بالحرم وأن الروح ينقصه . على أن هذا الحرم ، حرم الكعبة ، كان له فى نفوس المسلمين جميعاً من التقديس ما حال دون غلبة التطوّر فى بنائه على روح الإسلام القوىّ ببساطته ، فلم يبلغْ ما رأيت من جهود الملوك والأمراء أن جعل من هذا الحرم هيكل عبادة على صورة هياكل العبادة فى غير الإسلام من الأديان ، ولم يبلُغ أن جعله على صورة مساجد المسلمين مما تراه فى غير مكة من بلاد العالم الإسلامى ؛ بل ظلّ الحرم تطبعه بساطة تجمع بين الصراحة والمهابة وتجعلك ترى الفقير المعدم يقف إلى جانب الغنى المتْرَف ويصلى وإياه كتفاً إلى كتف ، وهما يتجاوران فى هذا الحرم المقدّس تجاور إخاء واتساق كما تتّسق فيه الحصباء إلى جانب الحجر المرصوف به ما يجاورها من صحنه ، ويظلهما إيمانهما بالمحبة والسلام وهما يريان فى حمام الحِمَى رمزاً يدل على المحبة ؛ إذ يجاوره المصلون فلا يطير ولا يخاف لأنه فى حمى الله وفى حرم بيت الله .

لم يغلب التطوّر فى بناء الحرم على روح الإسلام القوىّ ببساطته . لكن هذا التطور كان له أثره فى النفسية الإسلامية منذ بدأ الانحلال بعد ازدهار الحضارة إبان العصر العباسى . وقد رأيت مبلغ ما هوت إليه هذه النفسية ، حتى نسى المسلم أن إيمانه لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى صار المسلم أثِراً لا يعرف إلا نفسه ، ولا يفكر إلا فى نفسه . يصلى رجاء التوبة لنفسه والمغفرة لذنبه ، لا انتهاء عن فحشاء ولا عن منكر . ويقف فى صفوف الجماعة وهو لا يفكر إلا أن يعود عليه من ثواب صلاة الجماعة ما يعادل الثواب الذى يعود عليه من صلاته وحيداً أضعافاً مضاعفة . وهو يؤدى فريضة الحج ليغفر الله له ذنبه وليعود نقىّ الصحيفة ، وسيان عنده بعد ذلك ما يحل بسواه . حتى البرّ ، وهو عماد التقوى ، قد تضاءل فى نفسه ما لم تتحقق لديه المثوبة عنه . لم يَعُـدْ يفكر فى أن يخرج من ماله عن حظ معلوم للسائل

والمحروم ابتغاء وجه ربه ، لا رغبة ولا رهبة ، ونسى أن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده الصالحين . لا يفكر فى دار علم يقيمها ، ولا فى مكتبة ينشئها ، ولا فى مستشفى أو مصلى ينفق عليه . غاية همه أن يستغفر عن الخطايا ، كأن حياته كلها خطيئة يريد أن يكفِّر عنها ، وكأنما يعجز عن أن يجعل من الحياة عملا صالحًا يكون به عند الله راضيًا مرضيًّا .

وإنما هوت النفسية الإسلامية فى عصور الانحلال إلى هذه المكانة ، لأن من المسلمين من اتخذ إلهه هواه ، ورفعه تدهور الجماعة إلى مكان الزعامة منهم والحكم فيهم . وقد ألف كثيرون أن يقولوا : « الناس على دين ملوكهم » ، فجرت الجماعة مجرى هؤلاء الملوك والحكام ، وجعلت إلهها هواها ، واقتصرت من عبادة الحق على ما ترى فيه مغفرة وزرها والتخفيف من إثمها ، ولم تقصد وجه الحق جل شأنه لذاته ، إياه تعبد وإياه تستعين ، ووقفت عبادتها عند ألفاظ تتلوها ، وفاتها أن العمل عبادة ، والعلم عبادة ، والسعى عبادة ، ومعرفة سنّة الله فى خلقه بالاجتهاد والجد أسمى معانى العبادة .

مَنْ لى بأن يُدرك المسلمون هذا الذى فاتهم ، وأن ينفضُوا عنهم جمود الأثَرة ، وأن يجعل كل منهم إلهه الله لا يشرك به هواه ولا يشرك به أحداً ، وأن يذكروا أنهم إخوة ، أخوّة إيمان وعبادة ! إن يفعلوا فقد آن للزمن أن يرتفع بهم إلى السِّماك كما ارتفع بهم من قبل ، وأن يجعلهم هُداة الإنسانية ؛ ويومئذ يتم وعد ربك فينصر دينه على الدين كله .

ما عسى أن تكون صلاة الجمعة بالحرم يومئذ ؟! فيومئذ يؤمه حين الحج أضعاف من يؤمه اليوم من المسلمين ، ويومئذ يؤمه أولو الرأى والعلم منهم ومن يريدون أن يشهدوا فى الحج منافع للأمم الإسلامية كافة . ويومئذ يؤمونه والروح مبعث إيمانهم وقِوام نظامهم ، والمحبةُ الصادقة رباط وثيق بينهم . هؤلاء جميعًا إذ يقفون فى الحرم منادين : الله أكبر ، يحمدون الله ، إياه يستعينون ، يكونون قلبًا واحداً وجنانًا واحداً وقوّة واحدة . أية قوة فى الأرض لا تحدِّق إلى هذه القوة مطأطئة إكباراً وإعجابًا ! . بل أية قوة فى الأرض

لا تسير وراء هذه القوة فى طريق الخير والحق والجمال والسعادة والسلام !

هل لى أن أرى ذلك اليوم! . لشد ما أسعَدُ به إن رأيته ! . فإن متّ قبله فما أسْعَدَ روحى به يوم يتحقق ، وما أشدّ ما تهتف روحى يومئذ : الآن عاد للإسلام مجده ! .

والمجد لله فى العلا ، وعلى الأرض السلام .

فى جوف الكعبة

منذ فرغت من شعائر الحج وعدت إلى مكة كان الدخول إلى جوف الكعبة فى مقدمة أغراضى . لكن كثرة تجوالى بمكة وما حولها ، وذهابى أثناء ذلك إلى الطائف ، أجّل قيامى بهذا الواجب حتى غادر أكثر الحجيج أمّ القرى ؛ ولقد أجّله كذلك أن الحجيج لا يفتئون طيلةَ مقامهم بالبلد الحرام يلتمسون المثوبة من رب البيت بالدخول إلى جوفه . وهم يدخلون الكعبة زُمَرا ، فإذا احتوتهم لم يجد من يكون بينهم فرصة تفكير أو استجمام . فلما خلتْ مكة من غير أهلها وآن لى أن أغادرها ، فكرت فى تحقيق غرضى بإتمام هذه الزيارة . وقيل لى يوماً إن سادن الكعبة يفتح بابها بعد صلاة الظهر ، فأقمت بالمسجد أنتظره ؛ لكنه لم يحضر إلى العصر ولم يفتح الباب لداخل بقيّة ذلك اليوم . إذ ذاك رجوت مضيفى أمين العاصمة فكتب إلى الشيخ الشيبى ينبئه بما أريد . وردّ السادن ردّاً رقيقاً ضرب لنا فيه موعداً ضحى الغد .

وذهبت فى الموعد فطفت بالبيت وصليت بمقام إبراهيم وبحِجْر إسماعيل ، ثم عدت إلى المقام قبالة باب الكعبة أنتظر فتحه . وكان مطوّفنا يتنطس أخبار السادن خيفة أن يطول بنا انتظاره . وأقبل الشيخ الشيبى بعد سويعة فى لباسه الضافى وسار خدم الكعبة من ورائه ، ورآهم الناس فتفرجوا عند الباب ، ووضع الخدم السلم وصعدوا عليه وفتحوا باب البيت ودخلوا إليه ، ولم يؤذَن بالدخول لغيرهم . وسألت فى ذلك فعلمت أنهم يكنسون الكعبة ويطلقون فيها البخور . ولما أتمّ القوم واجبهم وقف السادن بالباب وأشار إلىّ ، فتقدمت نحو هذا الدرج الذى يوضع كلما فتحت الكعبة ويرفع بعد تمام زيارتها .

تقدمت ممتلئ النفس خشوعاً وإكباراً . أنا أعلم مما قرأته أن الكعبة ليس بداخلها شىء منذ طهرّها النبى العربى من الأصنام يوم فتح مكة . ولقد

دخلت قبل اليوم هياكل ومَحاريب من آثار مصر يرجع تاريخ بنائها إلى بضعة آلاف من السنين ، كما دخلت متاحف ومعابد فى بلاد أوربا المختلفة . ولقد كنت أشعر فى الكثير من هذه الأماكن بالهيبة والإجلال . لكنّ شعورى ساعة تقدمت لأصعد إلى الكعبة كان غير هذا الذى شعرت به فى هذه الأماكن ؛ كان شعوراً قويًّا عميقًا آخذاً بمجامع القلب ، صادراً من أعماق الروح ، ملَك علىّ كل وجودى فجعلنى أتعثر فى مشيتى وأنا أخطو إلى الدرج وما أكاد أرفع بصرى إلى باب الكعبة . وكيف لا يأخذنى الخشوع والإكبار وأنا أصعد إلى بيت الله ، وأنا أومن بأن الله أكبر من كل كبير فى الأرض وفى السماء !

وصعدت الدرج ودخلت البيت العتيق . وتلقانى الشيخ الشيبّى أول دخولى فحيانى هشًّا بشًّا ، وأشار لى بيمناه إلى علامتين فى إزاء الجدار الذى يقابل الباب وقال : هنا يصلى الإنسان ركعتين فى المكان الذى صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقدّمت نحو المكان أصلى ركعتين . وما أذكر أنى شعرت فى حياتى بمثل ما شعرت به فى هذه اللحظة من غبطة ورضا . تباركت ربى ! أأقف أنا الآن حيث كان يقف عبدك ورسولك ، وأعبدك مخلصًا لك الدين كما كان يعبدك ! ليتنى أستطيع السمو بفضلك إلى هذا الرضا . ولكن غفرانك ! أين الروح الذى يستطيع السموّ إليك سمو من اصطفيته لرسالتك ، ويطمع فى أن يبلغ من الصفاء ومن الحب لبنى الإنسان ما بلغ نبيُّك الكريم ! . وأتممت صلاتى ، وبقيت فى جلستى أستغفر الله وأعبده وأستعينه . ولعل السَّادن أدرك ما أنا فيه فتركنى فى استغفارى وادّكارى . نعم . ذكرت وأنا بموقفى هذا كيف صدّ أهل مكة نبىّ الله عن بيت الله . وكيف فتح محمد مكة دون أن يسفك دمًا ، وكيف عفا يومئذ عن أشد خصومه لدَدًا فى عداوته ؛ ثم انطوى الزمن أمام بصيرتى فخلتنى وأنا أقف حيث وقف الرسول وكأنما أشهد هذا كله ، فيزيدنى ما أشهد خشوعًا وإكباراً .

وقمت فدلّني السّادن على مواضع صلى فيها الأنبياء والخلفاء قبالة الجدران الأخرى ، فصليت حيث صلّوا منذ قرون مضت ، وتلوت بعد صلواتى ما طلب إلىّ السادن أن أتلوه . فلما أتممت التلاوة جعلت أسأله عن شؤون البيت وكسوته وبنائه ، وجعل يجيبنى فى ظَرْف ورقة سائغين ما أجدره بهما وهو من سلالة بنى شيبة الذين أقر الرسول فيهم سدانة الكعبة يوم الفتح لا يأخذها منهم إلا ظالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها !

والتفت السادن إلى والدتى وجعل لها كل عنايته ، يجيبها عما تسأل عنه ، وتتلو وإيّاه ما يطيب به قلبها ويطمئن له روحها . إذ ذاك أدرت بصرى فى جوانب البيت . ما أشده بساطة وما أعظمه مع ذلك مهابة ! . هو غرفة أو — إن شئت — بهو رفيع خال من كل زخرف ، وهنا بساطته . وهو هيكل التوحيد فى أشد صور التوحيد صفاء وأشدها للشرك إنكاراً ، وهنا عظمته ومهابته . وهو كذلك اليوم ، وكان كذلك منذ أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده . تقلبت عليه أجيال أنكرت التوحيد وأشركت بالله وجعلته مثابة أصنامها ، وجاءت بعد الإسلام أجيال تنكّر له بعض بنيها ولم يعرفوا له حرمته . وها هو ذا هيكل التوحيد اليوم كما كان حين أقيمت قواعده ؛ وهو يزداد كل يوم تعظيماً حتى ينصر الله دينه على الدين كله ، فيكون قبلة العالم جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها .

وإنى لفى إكبارى لبيت الله وفى تعظيمى حرمته إذ رأيتنى أردّد فى دخيلة نفسى : «اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحيطونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَاشَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » . وتمثلت لى عقيدة التوحيد فى صفاء جوهرها السّامى يتضافر الدين والعلم على إكبارها ؛ فعجبت كيف لا تمتثلها النفوس جميعاً كما امتثلتها نفسى ! وكيف

لا يدرك الناس جميعًا ما فى هذه الآيات التى ردّدتْها روحى من حقيقة تراها البصيرة واضحة محسوسة ! وكيف لا يرى الناس وجه الله أينما ولّوا وجوههم ! كيف لا يرونه مضيئًا بنور الحق فى خلق السماوات والأرض والليل والنهار وما نعلمه نحن وما لا يعلمه إلا هو ! . إذ ذاك ازددت إكباراً لهيكل التوحيد على إكبارى إياه ، وازددت عجبًا لأولئك الذين يملكهم حب الحياة عن أن يروا وجهه الكريم متجليًا فى كل ما حولنا ؛ وهو أشد تجليا فى ذات نفوسنا وأعماق قلوبنا وفى كل حس وفى كل جارحة .

الكعبة بهو رفيع خال من كل زينة أو زُخرف . وسقفها يعتمد اليوم على ثلاثة عمد من الخشب الضارب لونه إلى حمرة تشوبها صفرة . ويرجع العهد بهذه العمد إلى أجيال طويلة خلت . فعبد الله بن الزبير هو الذى وضعها حين جدد بناء الكعبة . ولم يصب هذه العمد فساد على طول العهد بها إلا ما كان منذ خمسين سنة أو نحوها حين تآكل أسفلها فشدّت بدوائر من خشب طوّقت بها وسمرت عليها . وتعلو هذه الدوائر عن أرض الكعبة ما يزيد قليلا على ثلاث أذرع . وأرضها مفروشة برخام أبيض عادى ، قصد منه إلى المتانة ولم يقصد إلى الزخرف .

فأمّا الجدار فأحيط أسفله برخام ملوّن مزُرْكش بنقوش لم تعمل فيها يد ذوى الفن ولم تُخرج بيت الله عن بساطته .

وغطيت جدران الكعبة بستر من الحرير ، قيل إنه كان أحمر ورديًا فى زمانه ، ثم أحالته السنون إلى ما يشبه الرمادى الضارب إلى الخضرة . ولقد أنبأنى السادن أن هذا الستر ، الذى شُدّ إلى جدرانها فى عهد الخليفة العثمانى عبد العزيز منذ ستين سنة أو يزيد ، قد أثار قدَمه واستحالة لونه العاهل النجدى عبد العزيز بن آل سعود فأمر بصنع غيره ليُستبدل به. وهذا الستار القديم قد زركش بالنسيج الأبيض طرزت عليه عبارات وألفاظ توائم روح العصر الإسلامى الذى كتبت فيه من حيث دلالتها . فمنها : « سبحان الله وبحمده . سبحان الله العظيم » و « يا حنّان يا سلطان . يا منّان يا سبحان » . وهذه

العبارات الأخيرة مكتوبة داخل دوائر من النسيج الذى طرّزت به . ولست أدرى أية عبارات طرزت على الستر الذى أمر ابن السعود بصنعه والذى يكسو اليوم جدار الكعبة فى جوفها : أهى آيات قرآنية تتصل بالبيت وإقامته . أم بالتوحيد وصفاته وقوّته . أم هى أحاديث الرسول فى يوم الفتح ، أم هى ألفاظ تعبدية كالألفاظ التى كانت على الستر يوم رأيته .

يختلف الركن الأيمن مما يلى باب الكعبة حين دخولك منه عن سائر جُدُرها وأركانها ؛ فنى هذا الركن يقوم الدرج الصاعد إلى سطح الكعبة . وقد وضع عند باب هذا الدرج ستر أسود مطرّز بالقصب الفضّىّ المموه بالذهب من نوع الستر المنسدل على باب الكعبة .

هذا كل ما فى الكعبة من داخلها . وهو لا يغير من بساطتها شيئًا كما ترى ، فهذا الستر الذى يكسو جدارها ليس منها ، وهو بعدُ كل ما فيها من زخرف . أما ما وراءه فالبساطة كل البساطة القوية التى تأخذ بمجامع النفس ، البساطة الجديرة بهيكل التوحيد فى بداهته وصفاته وقوته .

أمّا والتوحيد هو العقيدة الأزلية الثابتة جاءت بها الأديان وأثبتها العلم ، فقد برع خيال الكتّاب والمؤرخين فى تصوير نشأة بيت الله الأحد ومبدأ بنائه . وقد تحايلوا لذلك على تفسير ما ورد من آيات القرآن الكريم فيه . فالقرآن صريح فى : «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وهدًى للعَالمِين » ، وفى أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد هذا البيت . مع ذلك رأى بعض المؤرخين أن يجعل الملائكة بناة البيت قبل أن يبرأ الله الأرض ومن عليها ، وأن آدم بناها بعد ذلك . وذكر بعضهم أن شيثاً أوّل من بنى الكعبة . فأما المشهور عن أكثر العلماء فهو أن أول من بنى البيت إبراهيم ؛ بهذا قال علىّ بن أبى طالب وجزم به ابن كثير فى تفسيره .

والذين يذكرون أن الملائكة بَنَوُا البيت يقصّون رواية لها جمال شعرى فيه طابع الفن ، إذ يصورون المعنويات صورة مادية . فهم يروون أن الله غضب على الملائكة حين قال لهم : «إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فقالوا :

«أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لك».
وكان مظهر غضبه جل شأنه أن أعرض عنهم . فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً من هذا الغضب ، وطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك . ربنا معذرةً إليك . نستغفرك ونتوب إليك . فنظر الله إليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور على أساطين أربع من زبرجد تغشاهن ياقوتة حمراء ، وسمّى ذلك البيت الضُّرَاحَ. ثم قال الله تعالى للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودَعوا العرش . فكان طوافهم به أيسر من طوافهم بالعرش . ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور ، وأمر مَنْ فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . وفى بعض الروايات أن هذا البيت الذى بنى فى الأرض هو الذى سمى الضُّرَاحَ ، وأن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفى عام فكانوا يحجونه . فلمّا حجّه آدم قالت له الملائكة : برّ حجُّك يا آدم . حَجَجنا هذا البيت قبلك بألفى عام[1].

وفيما روى عن بناء آدم الكعبة روعة شعرية كروعة بناء الملائكة إياها . فقد قيل : إن آدم سأل ربه بعد أن هبط وزوجه من الجنة . يا رب مالى لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم ؟ قال : بخطيئتك يا آدم ؛ ولكن اذهب فابن لى بيتاً فطف به واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى . فأقبل آدم يتخطى الأرض حتى بلغ مكة . هنالك ضرب جبريل عليه السلام بجناحه فى الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حملَ الصخرة ثلاثون رجلا . وعلى هذا الأساس بنى آدم البيت متخذاً أحجاره من خمسة أجبال : من لبنان ، وطور سيناء ، وطور زَيْتا ، والجُودِىّ ، وحِراء . وفى رواية تفرّد ابن لَهِيعة فى نسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم

(١) راجع كتاب (تاريخ الكعبة المعظمة) لحسين عبد الله باسلامه ص ١٤ وما بعدها وبه الإسناد إلى الرواة .

أنه قال : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى إذا أجا به الماء نودى من تحته حسبك يا آدم . فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به . وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » .

ولم يرد فى الرواية التى تذهب إلى أن شيئاً بنى الكعبة ، شىء من التفصيل . وإنما قيل إن طوفان نوح أغرق البيت وغيّر مكانه حتى بوّأ الله لإبراهيم مكان البيت فأقام قواعده مع ابنه إسماعيل ، على ما ورد فى الذكر الحكيم .

وهذه الروايات الشعرية عن بناء الملائكة وآدم وأبنائه ممن سبقوا إبراهيم الكعبة يعتبرها أكثر العلماء من الإسرائيليات التى دُسَّت على الإسلام ؛ فليس لها فى كتاب قديم سبق نزول القرآن سند . والقرآن لا يشير إليها بما يسوّغ استنباطها ؛ وما يذهب إليه الذين ذكروها من ألوان التفسير لا يثبت صحتها . والقرائن كلها على أن وادى مكة كان غير ذى زرع حين جاء إبراهيم بهاجر وابنه إسماعيل إليه . فلو أن هيكلا للعبادة ، أو أثراً لهذا الهيكل كان قائماً به ، لأقام فى جواره كهان وسدنة ينالون من قاصديه رزقهم . ولقد ظلت هاجر مع ابنها بهذا الوادى إلى أن شب إسماعيل فتزوج من جرهم .

ولقد دس على الإسلام من الإسرائيليات الشىء الكثير . ولم يفتأ بنو إسرائيل مذ كانوا يحاربون النبى بالمدينة يحاولون أن يشوهوا صفاء التوحيد فى الإسلام وأن يحيلوا روحانيته مادية ليضعفوا من نفوس الآخذين به . فليس أدعى إلى ضعف النفس من أن يصبح العالم أمامها مادة بدل أن يكون فكرة معنوية سامية . وليبلغوا من ذلك غايتهم دسوا الكثير من الأحاديث ونسبوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وحركوا الفتن على أساس ما دسوا بأن جعلوا مطامع المسلمين مادية غايتها الحكم أو المال أو ما إلى ذلك من متاع الغرور الإنسانى فى هذه الحياة الدنيا . وإن العالم ليعانى اليوم من آثار هذا التفكير فى أقطاره الإسلامية والمسيحية جميعاً ما ترى مظاهره فى هذه المذاهب الاقتصادية المختلفة . وفى الثورات الدامية التى تقوم بسببها

فتحرق الأخضر واليابس وتأتى على خير مخلفات الإنسانية من علم وفن بيد التخريب ، يحركها الجهل والتعصب والطمع المادىّ الأحمق الوضيع .

فأما بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة فقد ورد نبؤه فى القرآن ، ولكنه ورد موجزًا فى قوله تعالى : «وإِذْ يَرفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وما روى بعد ذلك من تفصيل فمرجع أكثره أحاديث أفراد أو روايات لا تستند إلى سند تاريخى يقرّه العلم . فقد ذهبت رواية إلى أن جبريل أمر إبراهيم فصحب هاجر وابنها — وإسماعيل ما يزال طفلا — وركبوا البراق ليبلغوا موضع البيت لبنائه ، وكان إبراهيم كلما مرّ بقرية سأل جبريل : أهى التى اختارها الله لبناء بيته ؛ وكذلك ظلوا حتى بلغوا مكة . وذهبت رواية أخرى إلى أن ملكًا من الملائكة جاء إلى هاجر أم إسماعيل حين أنزلهما إبراهيم مكة قبل أن يقام البيت فأشار لها إليه ، وهو ربوة حمراء مدَرة ، فقال لها : هذا أول بيت وُضع فى الأرض ، وهو بيت الله العتيق ، وأعلمها أن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه . وفى رواية ثالثة أن إبراهيم جاء إلى مكة بعد سنوات من مقام إسماعيل وأمه بها ، وبعد أن شب إسماعيل وتزوج وقوى ساعده ، فوجد إسماعيل يبرى نباله تحت دوحة قريبة من زمزم ، وتبادلا تحية الأبوة والبنوة ، ثم قال إبراهيم لابنه : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمر ربك . . قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتًا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ؛ وعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يجىء بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى ارتفع البناء .

وهذه الرواية الأخيرة أدنى إلى تصور عقلنا الإنسانى . يضاف إليها أن البناء لما ارتفع طلب إبراهيم إلى إسماعيل أن يجىء بحجر ؛ فجىء بالحجر الأسود . والروايات فى الحجر الأسود وأصله تختلف : قيل إن إسماعيل ذهب إلى الوادى يطلب حجراً يضعه أبوه فى البناء وعاد فألفى عند أبيه حجراً أسود فسأله : من جاءك بهذا الحجر ؟ قال إبراهيم : من لم يكلنى إليك ولا إلى

حجرك . وكان جبريل هو الذى جاء بالحجر الأسود من السماء ، إذ كان قد رفع إليها حين أغرق الطوفان الأرض . وقيل : إن جبريل جاء بالحجر الأسود من الهند حيث هبط به آدم من الجنة ؛ وكان أبيض ناصعًا ، فاسودّ من خطايا الناس . وقيل : بل كان الله عز وجل استودعه جبل أبى قبَيْس حين طوفان نوح . فجاء به جبريل ووضعه فى مكانه وبنى إبراهيم عليه وهو حينئذ يتلألأ نوراً حتى لقد أضاء بنوره شرقًا وغربًا وشمالا ويمينًا إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية ؛ وإنما سوّدته أنجاس الجاهلية وأرجاسها .

وذكرت الروايات أن إبراهيم بنى الكعبة من الجبال الخمسة التى ذكرها من تحدثوا عن بناء الملائكة البيت .

يقول مؤلف (تاريخ الكعبة المعظمة) : « فتحصل من عموم ما رويناه عن صفة بناء إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وابنه إسماعيل عليه السلام للكعبة المعظمة ، أنه بناه بأمر الله سبحانه وتعالى . وكان البانى إبراهيم والمساعد له إسماعيل ، وأنه بناه بالحجارة . وجعل ارتفاعه إلى اليسار تسع أذرع ، وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعًا ، ومن الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الغربية أيضًا إحدى وثلاثين ذراعًا ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلى الجهة الجنوبية ، أى من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعًا ، ومن الشرق إلى الغرب أيضًا مما يلى الجهة الشمالية أى من جهة حِجْر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعًا ، وجعل له بابين ملاصقين للأرض ، أولهما من الجهة الشرقية مما يلى الحجر الأسود ، والآخر من الجهة الغربية مما يلى الركن اليمانى على سَمْت الباب الشرقى . وحفر فى داخله بئراً تكون خزانة له ؛ ولم يجعل عليه سقفًا ، ولا وضع على بابيه أبوابًا تفتح وتغلق والله أعلم » .

رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وطهّراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وجعلاه مثابة للناس وأمنًا . وخلفَ العمالقةُ وجرْهم إسماعيل على مكة أجيالا بعد ذلك متعاقبة ثلاثمائة سنة ؛ فأعاد هؤلاء ثم أولئك بناءه وزادوا

فيه وأقاموا على تعظيمه والطواف به . ولم يكن أحد يجرؤ أن يأخذ من هدايا البيت المحفوظة بالبئر مخافة ما ينزل به من عقاب رب البيت . على أن السُّهَيْلى روى فى الروض الأنُف : أن سارقًا سرق من مال الكعبة فى زمن جُرْهم وأنه دخل البئر التى فيها كنزها ، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه ، ثم بعث الله حيَّة لها رأس كرأس الجدى بيضاء البطن سوداء المتن ، فكانت فى بئر الكعبة خمسمائة عام فيما ذكر رَزِين . ولعل رَزينا والسُّهيلى لم يقف أحد منهما على نقوش قدماء المصريين ؛ إذ كانوا يجعلون الحيَّة التمثال الحارس على أبواب المحاريب التى تكون فيها المومياء والنفائس المدفونة معها .

وبناء العمالقة وجرْهم الكعبة بعد إبراهيم مختلف عليه . ومنهم من يذكر أن أول من جدد بناء الكعبة بعد إبرهيم قـصَىّ بن كـلاَب الجدُ الخامس للنبى العربى ، وأنه سقفها بخشب الدَّوم وجريد النخيل . والمعروف أن الكعبة كانت إلى عهد قُصى قائمة فى الفلاة لا يبنى أحد حولها إعظامًا لحرمتها ؛ فلما آل إليه أمْر مكة أمـَر الناس فبنوا حول البيت ولم يتركوا إلا قدر المطاف .

ولم تذكر المراجع المختلفة أن أحداً تولى تشييد الكعبة بعد قصىّ وقبل أن تبنيها قريش قبيل بعث محمد نبيًّا ، إلا ما رواه تقى الدين الفاسى فى كتاب (شفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام) أن عبد المطلب جدّ النبى بناها . ولعله أبدع هذه الرواية ليُكسِب عبد المطلب بها تشريفًا ؛ فإن ما أصاب جدران الكعبة من الوهن بعد موت عبد المطلب بعشرين سنة أو نحوها لا يتفق مع هذا القول .

أمَّا الثابت الذى أجمع عليه المؤرخون وكتَّاب السيرة ، فذلك بناء قريش الكعبة على عهد محمد حين طغى السيل عليها ووهن جدرانها . فلما بلغ القوم مكان الحجر الأسود اختلفوا وكادت تنشب الحرب الأهلية بينهم ، ثم احتكموا إلى أول داخل من باب الصفا ؛ ودخل محمد من هذا الباب وحكم بينهم بأن وضع الحجر على ثوب رفعه أهل القبائل المختلفة من أطرافه ثم رفع محمد الحجر

ووضعه مكانه من البناء .

ذكرتُ هذا الذى تداولته الروايات المختلفة عن بناء الكعبة وأنا بموقفى فى جوفها . فلما بلغت باستعراضى إلى قيام محمد بين قومه مقام الحكم فى وضع الحجر الأسود مكانه ، تنبهت إلى موقفى وذكرت أن رسالة محمد وما جاء فيها من فرض الحج على الناس هى التى جاءت بى إلى هذا المكان ووقفتنى هذا الموقف . واقتربت من باب الكعبة أنظر إلى ما حولها ، وخيِّلت لنفسى صورة هؤلاء الذين رفعوا الثوب والحجر الأسود فوقه ، وموقف محمد منهم وهو يقضى بينهم قضاء تطمئن له نفوسهم وتستريح إليه أفئدتهم .

وما لبثت حين ارتسمت هذه الصورة أمامى أن انتقلت فجأة أرى صورة أخرى تنبعث أمامى واضحة المعالم ، ممتلئة حياة وقوة ، كلها الروعة وكلها الجلال ؛ تلك صورة محمد والمسلمون من حوله يوم فتح مكة . فها هو ذا ممتط ناقته القصواء يجيء متجهاً إلى الكعبة وأصحابه من ورائه ، ومن ورائهم عدد من سادة مكة وكبرائها ؛ ويطوف رسول الله بالبيت سبعاً ، ثم يقف أمام بابه فيدعو السادن ليفتحه له . ويفتح عثمان بن طلْحة الباب فيقف محمد فيه وقد تكاثر الناس من حوله ، فيخطبهم ويتلو عليهم قوله تعالى : «يـأيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وجَعَلْنَاكم شعُوباً وَقَبَائِلَ لِتعَارَفوا ، إنَّ أَكْرَمَكمْ عِنْدَ اللهَ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيم خَبِيرٌ» ويسأل أهل مكة فيقول : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . ويجيبهم : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . ويدور فيلقى ببصره إلى جدران الكعبة وهو واقف من بابها مثل موقفى الساعة فيرى هذا الهيكل الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل هيكلا للتوحيد قد انقلب هيكلا للوثنية والشرك ؛ فلم تبق من ثمّ له بساطته ولا بقيت له مهابته وقوته . عبث الفنّ بجدرانه وبجوفه ، فأنشأ من الصور والتماثيل ما يأخذ النظر إليه والفكر إلى تقدير دقة صنعه عن التفكير فى وحدانية الله جل شأنه وفى قوته وقدرته . نقشت

على الجدران صور الملائكة نساء ذوات جمال ، فصارت هذه الأرواح النورانية ذات كيان مادى يطغى على المعنى الروحى فيها . وصوِّرَ إبراهيم وفى يده الأزلام يستقسم بها ، وصوِّر النبيون من حوله فى أوضاع مادية كوضعه . وفى جانب وُضع تمثال حمامة من عيدان . وقام الصنم هبَل فى جوف الكعبة تحف به هذه الصور على جدرانها وهو على صورة الإنسان قد صنع من العقيق إلا ذراعـًا له كُسرت فأبدله القرشيون منها ذراعـًا من ذهب ، وشدّت أصنام كثيرة بالرصاص إلى جدر الكعبة ، ولبعضها من جمال الفن بعض ما لهُبَل .

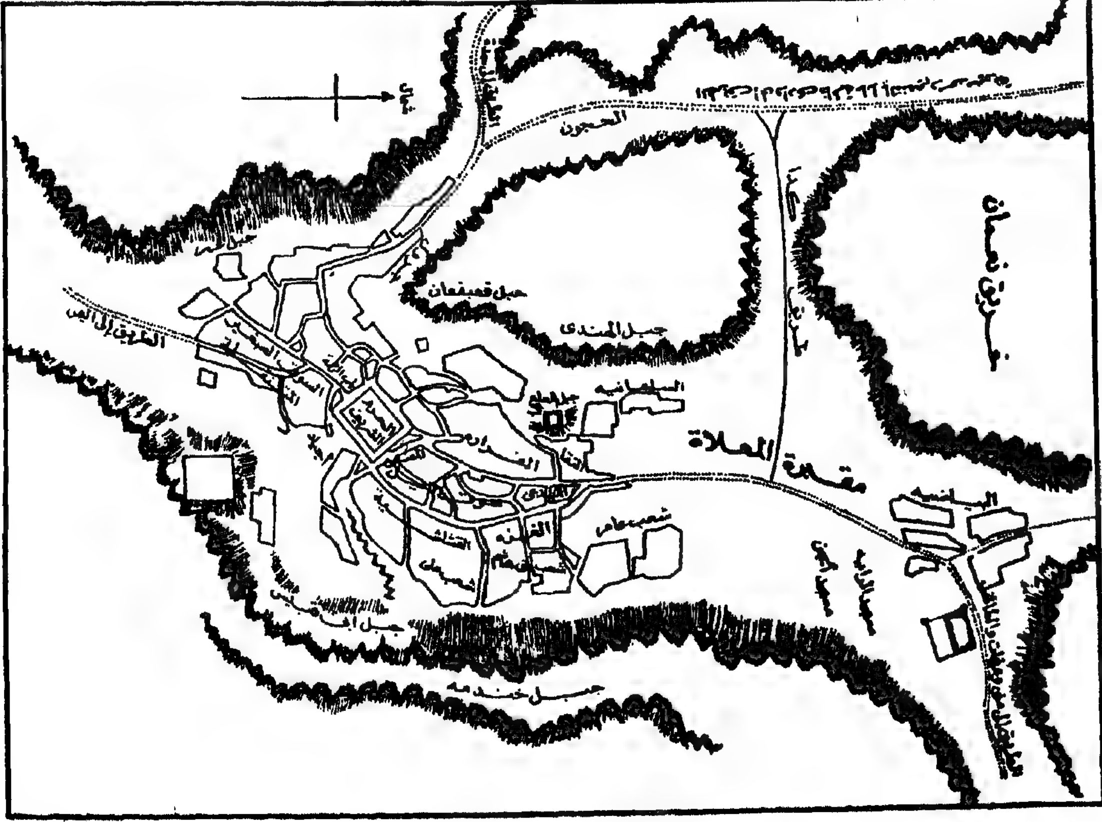
أى متحف هذا المتحف ! إن صورته لتثير فى الذهن صورة قاعة من قاعات المتحف المصرى بالقاهرة أو بهو من أبهاء متاحف العواصم الأوربية . ولم يكن أهل ذلك العصر ينظرون إلى هذه الصور والتماثيل كما ننظر نحن اليوم إليها ، ولا كانوا يعتبرونها بعض آثار الفن كما نعتبرها ، بل كانوا يبعثون إلى هذه الصور المادية حياة يتوهمونها ثم يكبرونها ثم يشركون أصحابها فى الألوهية أو يتخذونها إلى الله زُلْفَى . لذا كانت الكعبة إلى تلك الساعة حين دخلها محمد هيكل الوثنية والشرك كما كانت هيكلهما قبل ذلك أجيالا وآجالا . أما والإسلام ينكر الشرك ويدعو إلى التوحيد كما دعا إليه إبراهيم منذ أقام البيت ، فليعد بيت الله هيكل التوحيد كما كان . لذلك أمر محمد فطُمِست الصور وحُطمت الأصنام وألقيت إلى ظهورها وطهرت الكعبة من كل أثر لها وعادت إليها بساطة التوحيد ومهابته بمعناه الروحى السامى توحيه إلى من يطوف بها ويدخل إلى جوفها فتوجِّه قلبه إلى الله وحده ، له وحده الحمد وله الملك وإليه يرجع الأمر كله .

يا لعَظمتها ساعة من ساعات التاريخ تلك التى طهر محمد الكعبة فيها من فنون الشرك وآثامه ! . لقد تمثلت لى مناظرها جميعـًا واضحة جلية فى بهاء جلالها كأنها تمر أمام باصرتى على شاشة بيضاء ، بل كأنها تحيا فى عالمنا من جديد كرّة أخرى . وجعلت أشهدها وأنا واقف على عتبة باب الكعبة ، فتمتلئ بها روحى وتتغذى بها نفسى ، فيزيدنى ذلك تعظيمـًا

لموقفي وإكباراً للرسول الكريم الذى محا آية الضلال ؛ ثم تنفرج شفتاى عن كلمة هى جِمَاعُ هذه الروحانية العظمى : « لا إله إلا الله ، الله أكبر » .

لو أدرك المسلمون ذلك كله إدراكًا حل منهم محل اليقين لما نزل بالإسلام ما نزل به ، وما اجترأ على بيت الله يومًا مجترئ . لكن الفتح الإسلامى أدخل فى دين الله أقوامًا لم تمتثل نفوسهم مبادئ هذا الدين فى سمو صفائها وفى دعوتها إلى الإسلام الصحيح لله ، وفى احترامها حرمة بيته احترامًا وقر فى النفس العربية من قبل الإسلام ثم زاده الإسلام قوة وتثبيتًا . لذلك قامت الفتن بعد مقتل عثمان واستقل بنو أمية بالملك وجعلوا دمشق عاصمتهم . . فلما آل الأمر إلى يزيد بن معاوية كان عبد الله بن الزبير ما يزال منتقضًا على إمارة الأمويين ثائراً بهم بمكة . ولقد جرّد يزيد جيشًا لإخضاعه وأمَّر عليه الحصين بن نُمَيْر ، فسار إليه وضيَّق عليه الحصار بمكة . ولم يطق ابن الزبير ورجاله مقاومته فلجئوا منه إلى الحرم وبنوا حول الكعبة خِصَاصا من القصب يحتمون بها من حجارة المنجنيق الذى نصبه ابن نمير على جبلى مكه : أبى قبيس وقعيقعان . ولم تمنع هذه الخصاص اللاجئين إليها ؛ فقد أمر الحصين أصحابه أن يرموا الكعبة من المنجنيق بعشرة آلاف حجر ؛ وكانوا يرمون ويرتجزون ، وكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تمزقت كسوتها وبدت أحجارها . وأصاب الذين يقيمون بالخصاص والخيام حول الكعبة الفزع ؛ حتى إن أحدهم ليوقد ناراً فى خيمة قائمة بين ركن الحجر الأسود والركن اليمانى ، إذ طارت منه شرارة أحرقت الخيام وتعلَّقت بأستار البيت . ولما كان بناء الكعبة يومئذ مدماكًا من حجر ومدماكًا من خشب السياج ؛ فقد احترق الخشب ووهن البناء كله حتى كان وقوع الحمام على الكعبة كافيًا لتناثر حجارتها .

ولقد فزع لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعًا . وترك ابن الزبير الكعبة ليراها الناس ، فيكون مرآها محرِّضًا لهم على أهل الشام . وظلّ الأمر كذلك ، وظل الحصين بن نمير محاصراً للبلد الحرام حتى بلغه نعى يزيد بن معاوية .



خريطة مكة المكرمة

وتحدّث إليه رجال من أهل مكة واتهموا رجاله بأنهم رموا الكعبة بالنفط وقالوا له : أما وقد توُفِّى أمير المؤمنين فعلى ماذا نقاتل ؟ . ارْجعْ إلى الشام حتى ترى ما يجتمع عليه رأى صاحبك ؛ يريدون معاوية بن يزيد . ورجع الحصين إلى الشام تاركًا الكعبة واهية توشك أن تنقضّ .

وتحدّث ابن الزبير إلى أهل مكة : ماذا يصنع بالبيت ، أيصلح ما وهى منه ؟ أم ينقضه ويعيد بناءه ؟ وكان عبد الله بن عباس على رأى المعارضين للهدم وإعادة البناء ، قال موجهًا كلامه لابن الزبير : دعْها على ما أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها ويبنيها ، ثم يأتى بعد ذلك آخر ، فلا تزال أبداً تهدم وتبنى فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ، ولا أحب ذلك ، ولكن أرقعها . وأجابه ابن الزبير : والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه ، فكيف أرقع بيت الله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقضُّ من أعلاه إلى أسفله ، حتى إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته . وأقام أيامًا يشاور ويستخير ، ثم أجمع على هدم الكعبة . وهدمها وأعاد بناءها . وإذ كانت خالته عائشة أم المؤمنين تذكر أن رسول الله قال لها : « يا عائشة ، لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهُدِم فأدخلت فيه ما أخرِجَ منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا فبلغت به أساس إبراهيم » ، لذلك زاد ابن الزبير فى مساحة الكعبة فأدخل فيها حِجْر إسماعيل بعد أن كشف عن أساسها وجعل لها بابين وألصقها بالأرض .

ولمَّا هدم ابن الزبير الكعبة وشرع فى إعادة بنائها بعث إليه عبد الله ابن عباس يقول : « لا تَدَعِ الناس بغير قِبلة . انْصِبْ لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها » . ونفذ ابن الزبير مشورة ابن عباس . فلما بلغ البناء الركن وآن أن يوضع الحجر الأسود فى مكانه أمر ابن الزبير ابنه عباسًا وجبَيْر بن شَيبة بن عثمان أن يجعلا الحجر فى ثوب وقال لهما : « إذا دخلت فى صلاة الظهر فاحملاه

واجعلاه فى موضعه فأنا أطوّل الصلاة . فإذا فرغتما فكبّرا حتى أخفف صلاتى » . فلما وضع الرجلان الحجر فى موضعه وطوّقا عليه الركن كبّرا وخفف ابن الزبير صلاته . وغضب رجال من قريش حين لم يُحضِرهم ابن الزبير وأعادوا قصة تحكيم أجدادهم أول داخل من باب الصفا ، وحكم رسول الله قبل بعثه بينهم . لكنهم كانوا أمام الأمر الواقع ، فلم يزيدوا على أن غضبوا ثم رضوا .

ولما تم بناء الكعبة اعتمر ابن الزبير محْرِماً من التنْعيم واعتمر الناس معه ونحروا وأقاموا يَطْعَمون ويُطعِمون شكراً لله على تيسير بناء بيته الحرام ، وكان ذلك فى السنة الخامسة والستين من الهجرة .

وظلت الكعبة كما بناها ابن الزبير عشر سنوات . فلما كان عهد عبد الملك بن مروان وحاصر الحجاج ابن الزبير وقتله ، كتب إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها باباً آخر ، ويستأذنه فى رد ذلك إلى ما كان عليه فى الجاهلية . وأذن عبد الملك ، وغير الحجاج الجدار الذى من جهة الحجر وسد الباب الغربى ورفع البناء ورفع باب الكعبة على ما كانت فى الجاهلية . ويذكرون أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج ولعنه وقال : « وددنا أنّا تركنا أبا خُبيب وما تولى من ذلك » .

وقد اختلف المسلمون من بعد : أفيتركون الكعبة كما بناها الحجاج ؟ أم يعيدونها إلى بناء ابن الزبير استناداً إلى حديث عائشة . فلما تولى هارون الرشيد الخلافة سأل الإمام مالكاً فى هدم الكعبة وردّها إلى بناء ابن الزبير . فقال مالك : يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك الرشيد الكعبة كما هى .

وبقى الأمر على بناء ابن الزبير وتعديل الحجاج إياه ، لا يزيد المسلمون على أن يشدوا من بناء الكعبة ما قد يعتريه الوهن . فلما كانت سنة ١٠٤٠ هجرية (١٦٣٠ ميلادية) هطل بمكة مطر عظيم استمر يومين كاملين ، فدخل المسجد الحرام ثم ارتفع حتى دخل الكعبة ووهن بناءها ، وكان قد انقضى

على إقامته قُرابة ألف عام . فلما أمسكت السماء وبدأ المطر ينحدر من الكعبة بدأت جدرانها تتساقط ، وكان جدارها الشمالى أول جدار سقط ، ثم سقط بعض الجدارين الشرقى والغربى . هنالك انزعج الناس وزُلزلوا زلزالا شديداً . ونزل أمير مكة إلى المسجد الحرام وأمر بإخراج قناديلها خشية الضياع . وتبلغ هذه القناديل عشرين كلها من الذهب ، وأحدها مرصّع باللؤلؤ . وجعلت أحجار الكعبة تتساقط لشدة ما أصابها من الوهن وجعل الناس يزدادون وجلاً . ثم تقدّم الأمير وجوه مكة وتبعهم الناس ينظفون المسجد وقد جرفت السيول إليه من الرمل والتراب ما تعذّر معه التنظيف بغير المساحى والمكاتل ، بل أحوج الأمر من بعد إلى إحضار الأبقار من جدة لتحرث أرض المسجد بعد جفافها لإزالة ما بها .

وتشاور الناس فى أمر الكعبة وما يصنعون بها . وانعقد رأى الجماعة من علماء مكة وسادتها على المبادرة إلى عمارتها من مال الكعبة . وأن يعرض الأمر على السلطان ، وألا يمنع أحد من عمارتها من ماله إذا لم يكن فيه شبهة .

وترامى نبأ الكعبة وما أصابها إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، فهاج الناس له واضطربوا . ولم ير والى مصر محمد باشا الألبانى أن ينتظر ورود أمر السلطان من الآستانة مخافة أن يزداد التصدّع فى الكعبة ، ولأن أشهر الحج كانت قد اقتربت ، فأرسل رسوله إلى مكة ليرى فى عمارة الكعبة رأيه . وبلغ الرسول مكة فى منتصف شوال من تلك السنة .

وانقضت أشهر الحج والسلطان يشاور أصحابه ما يصنع . فلما استقر رأيهم على العمارة بعث رسوله الذى بلغ مكة فى ربيع الأول من سنة ١٠٤٠ ؛ وكان أول ما صنع هؤلاء جميعاً أن أحاطوا الكعبة بسياج من الخشب يطوف الناس به ويتّخذونه قبلتهم كما فعل ابن الزبير . ثم إنهم جعلوا يتشاورون ما يصنعون ، وإنهم لكذلك إذ سقط مطر هدمت منه بعض أحجار الجدار الغربى . هنالك اتجه الرأى إلى هدم ما بقى من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف إلا على ركن الحجر الأسود ، لكن فتوى المهندسين بأن هذا الركن يوشك أن

ينقضّ كذلك أزالت تردد القوم جميعًا ، فهدموا البيت كله ليقيموا بناءه ثابتًا قويًّا .

واشترك فى هذه العمارة جماعة من المهندسين (والمعلمين) المصريين . وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر وأموالا طائلة . ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التى بنى ابن الزبير بها الكعبة إلا ما وجدوه ما يزال صُلبًا قويًّا ، فأما ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره . ولم يجدوا فى ذلك مشقة وقد كان لا يكلفهم إلا تسوية الأحجار ودقة نحتها . لكنهم واجهوا مشكلة ذات خطر حين أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود مكانه . فهذا الحجر كان قد أصابه بعض التصدّع فى عهد ابن الزبير ؛ فلم يجد مشقة فى شدّه وتقويته وربطه بسور من الفضة . فلما أراد البناءون وضعه مكانه أثناء هذه العمارة الأخيرة فى عهد السلطان مراد ألْفَوْا به شطوبًا مستطيلة ورأوا الفتات يتناثر منه . وللحجر الأسود من التقديس ما لا يصح معه أن يسقط من أجزائه كثير أو قليل ، أو أن يتناثر منه فتاتٌ ولو كان ضئيلا ، لذلك عالجه المهندسون على هدى فن المعمار ، مصطنعين الصبر والأناة مستهينين بكل مشقة أو تعب ، عاملين على ملء ما بين أجزائه بمركب يعيد إليها قوتها ويكفل بقاءها مشدودة فى إطار الفضة لا يصيبها سوء .

ولما فرغ القوم من بناء الكعبة وسقفها ووضع عمدها وترميمها ، بنوا حِجْر إسماعيل . وكانوا حريصين على أن يعيدوا من أحجاره ما نقرت فيه أسماء من سبقوا إلى عمارته . على أنهم ألْفَوا رُخامةً مفقودة من الجدار الذى تم بناؤه فى عهد ملك مصر الملك الأشرف « قانصوه الغورى » ، فلم يعنُّوا أنفسهم بنقش غيرها ليضعوها مكانها ، بل وضعوا رخامة ملساء . ولعلهم فى ذلك قد أخذوا بإحدى النظريات التى يقرها الفن الحديث للمعمار ، إذ يحترم صنع الزمن بالأشياء فلا يحاول ردها إلى أصلها أو إبدال ما يشابهها بها ، بل يقوّى مكانها مكتفيًا بذلك معتبراً إياه بعض ما يوجب الفن فى عمارة الآثار التاريخية .

ولما أتم القوم البناء كتبوا محضراً أرسلوه إلى مصر فيه شهادة المكيين بحسن عمارة البيت المعظم . وفى ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود فى هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى . ولا عجب فى ذلك وقد أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة ، وأنفقت مع ذلك ستة عشر ألفاً من الجنيهات لإتمامها .

وهذا البناء الذى شاركت فيه مصر بالحظ الأوفر هو بناء الكعبة القائم اليوم .

أنا الآن أقف إذاً من بيت الله الحرام فى بناء شاده أجدادى وبنو وطنى . هذا البناء ما يزال قوياً إلى اليوم ، ولن يزال قوياً على الزمن ما فى طبيعة بناء تشيده الأيدى المصرية أن يقف قوياً على وجه الزمن . نعم ! أنا أقف حيث وقف إبراهيم وإسماعيل ، وحيث وقف النبى العربى عليه السلام ، وحيث وقف ألوف وملايين من الناس كانوا إلى ما قبل العمارة الأخيرة للكعبة يذكرون العرب الذين بنوها أيام قصىّ وأيام ابن الزبير ، وهم اليوم يذكرون العالم الإسلامى كله ، ويذكرون مصر درّة التاج من هذا العالم الإسلامى كله . ولكن ! أفيساورنى فخر بمصريتى وأنا هنا فى بيت الله . ونحن جميعاً عباد الله عبوديةً لا تعرف وطناً ولا تعرف فخراً ولا غروراً ، بل تعرف الحب والأخوة للمؤمنين جميعاً فلا يكمل إيمان الإنسان إلا إذا كملا !!

وخجلت من تفكير شابه الغرور الإنسانى ، واستغفرت الله منه ، وعدت إلى تفكير أكثر سموّاً ، عدت إلى التفكير فى موقف الرسول من الكعبة فى حجة الوداع : فى موقف هذا البشير الهادى يحف به مائة ألف أو يزيدون وهم يستغفرون الله جميعاً ويتوبون إليه ، وهو على رأسهم يعلمهم مناسك حجهم ، وهو ليس دونهم استغفاراً وخضوعاً لله ، مع ما يعلمه من أنه رسول ربه وأنه بلغ رسالته وأدّى أمانته واحتمل فى سبيل ذلك ما تنوء به العصبة أولو القوة . لكنه يعلم كذلك أنا أبداً فى حاجة إلى مغفرة الله لنا ورضوانه عنا ، وأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه جل شأنه له الأمر وهو العفوّ

الغفور . فكرّت فى هذا الموقف الأخير للرسول وطوافه بالبيت وطواف مائة ألف من المسلمين وراءه وهو مع ما جاوز الستين يسرع فى أشواط الطواف الأولى والمسلمون يسرعون إسراعه ، وهو يذكر وهم يذكرون يوم طاف فى عُمْرة القضاء ومعه ألفان ، وهو يسرع ويقول لإصحابه : « اللهم ارحم امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة » . والمشركون من أهل مكة ينظرون من أعلى الجبال إلى أولئك الذين زعموهم ضعافًا أرهقتهم يثرب وأرهقتهم الحروب فإذا هم البأس والقوة والعزيمة الصادقة بإذن الله .

كان أهل مكة ينظرون إلى المسلمين فى أثناء طوافهم وراء نبيهم فى عمرة القضاء ، أما فى حجّة الوداع فكان أهل مكة قد أسلموا وقد أصبحوا مع سائر العرب بنعمة الله إخوانًا ، وكانوا يطوفون بالبيت مع الطائفين ، ويذكرون الله مع الذاكرين ، وقد هداهم الله إلى الدين القيم ، وأنجاهم من ضلال الشرك ومذلة الوثنية .

ألا إن هذا البيت العتيق لينطوى من أسرار التاريخ وعِبَره على قَدْر يعادل ما يستكن فى جوفه هيكلا للتوحيد من مهابة وجلال . وإن هذا الجو الذى يبدو صامتًا حوله لملىء من أصداء العبادة بما لو انفرج عنه كما تنفرج أسطوانة الحاكى عن الأصوات المسجّلة عليها لدوّت الأرض كلها مؤمنة مقدّسة منادية نداءً يسمعه أهلها وأهل السماء جميعًا : لا إله إلا الله والله أكبر .

وآن لى أن أهبط من الكعبة إلى المطاف وإلى المسجد ، فودّعت السادن وودعنى بكلمات كلها الرقة والظرف . وقصدت مذ هبطت إلى حجر إسماعيل وإلى مقام إبراهيم فصليت فيهما . وغادرت المسجد الحرام بعد ذلك ممتلىء القلب روعةً وإكباراً وتعظيمًا ، وكل ما حولى يدوّى فى أذنى بذكر الله والتسبيح بحمده : ربنا لك الحمد .

آثار مكة

قَلَّ من زوّار مكة من يُعْنَى بحاضرها وما يجيش بخاطر أهلها من رجاء في هذا الحاضر وأمل في المستقبل . فهم يقصدون إليها ليحجوا بيت الله كيما يغفر لهم ربُّهم ذنوبهم ويطهِّرهم من ماضي حوباتهم . وبيت الله فيها هو لذلك مَثَابتهم . فإذا أقاموا بها التمسوا مزيداً من المثوبة بزيارة ما بها من آثار النبي وأهل بيته والسلف الصالح عليهم رضوان الله أجمعين . من ثَمَّ كانت نفوسهم لا تتعلق مما في مكة إلا بما يتصل بالماضي البعيد ابتغاء ثواب المستقبل في الآخرة . فإذا عناهم من أمر مكة غير ذلك شيء فما يبتاعونه منها تبرُّكًا به وحبًّا في ثواب ينالهم أو ينال من تُهْدَى إليه هذه البركات من ذويهم والمقرَّبين منهم .

ولقد أردت أن أقوم بزيارة هذه الأماكن التي يُضْفِي أهل مكة عليها ثوب التاريخ لعلي أجد فيها من الفائدة العلمية ما يشيد بذكرى الذين شادوا المساجد والذين يرقدون الرقدة الأخيرة في المقابر . وتحدّثت في ذلك إلى غير واحد من شبان مكة ومن أولي الرأي فيها . ولَشَدَّ ما كان عجبي لقولهم : إن هذه الآثار لا تجد سنداً ثابتًا من التاريخ ، وإن المؤلفين مختلفون على أكثرها إن لم يكن عليها جميعًا .. وبلغ بعضهم في تأكيد رأيه أن قال : إن ما يروى عما سوى الكعبة وما يحيط بها بالمسجد الحرام وعن حِرَاء وثَوْر كلّه رجم بالغيب ، وهو إلى القصة أدنى منه إلى أنباء التاريخ . وأردت أن أمحِّص قولهم ، فرجعت إلى بطون ما استطعت الرجوع إليه من الكتب ، فلم أجد فيها ما يطمئن إليه السند العلمي الصحيح ، وإن روى بعضهم من الأنباء المتواترة عن بعض هذه الآثار ما يجعل الإنسان يتردد بين صحة النبأ وبطلانه تردداً ينفي الثبوت العلمي ، ولكنه لا يثبت النفي العلمي كذلك .

وأفضيت إلى مضيفي بقصدي ، فأنبأني أن الشيخ عبد الحميد حديدي خير من يرشدني إلى ما أقصد إليه . والشيخ عبد الحميد حديدي يعمل الآن

مع الشيخ عباس قطان فى أمانة العاصمة ، وكان قبل ذلك قد اشتغل بالتعليم فى جدّه ، وبالقضاء عند أدنى حدود الحجاز من اليمن ، كما تثقف بالأسفار إلى الهند وجاوة حين شبّت نيران الثورات والحروب بالحجاز فى العهد الأخير . ولم أسأله عن سنه ، ولكنه يبدو فى جوار الخمسين ، وهو رجل أسمر اللون كسمرة العرب ، مديد القامة نحيفها ، لا يلبس العقال بل يكتفى (بالصمادة) على عادة أهل العلم فى بلاده . وكانت معرفتى به فى هذا اليوم مقدّمة صحبة اتصلت طوال إقامتى بالحجاز إلى يوم سفرى من يَنْبُع إلى مصر . ولقد أنست إلى هذه الصحبة واطمأننت إليها كل الاطمئنان . وهل كنت أطمع فى أكثر مما كان عبد الحميد عليه من سعة الفكر والبعد عن التعصب وعدم التقيد إلا بموجب العقل ، ومن تبادله الرأى لذلك معى تبادلا حرًّا فى كل ما يعرض لنا حين نقف أمام مشهد نمحّص ثبوته التاريخى أو موضعه من أنباء حياة الرسول . وأبدى الرجل من هذا اليوم الأول اغتباطًا بصحبته إيّاى ، فشكرته عليه ولن أنساه له .

وكان الشيخ عبد الحميد حديدى يشاطر شبان مكة رأيهم أن ما بمكة من الآثار ليس له من التاريخ سند ثابت على رغم كثرته . ولعل ذلك هو الذى جعله لا يبدى كبير اهتمام بزيارتى وإياه هذه الآثار أول الأمر ، وخاصةً زيارة ما لم يكن منها وثيق الاتصال بحياة محمد . ولعل سببًا آخر دعاه إلى ذلك ، فلقد كان لكثير من هذه الآثار فيما مضى قيمة فنية بما أقيم عليه من قِباب وما شُيِّد لذكره من مساجد . أما اليوم ومذ حكم الوهابيون بلاد العرب ، فقد هدِمت هذه الآثار الفنية وامحت رسومها . فهم أعداء ألِدّاء لكل ما يحسبونه يورث الشبهة فى توحيد الله جل شأنه ، وهم يرون فى المقابر وزيارتها وإقامة القِباب عليها إشراكًا يَجِب القضاء عليه ، وهم يرون فيها ، على الأقل ، منكراً تجب إزالته . وما عسى أن تغنى مثلى زيارة آثار لم يبق منها اليوم إلا ما يحفظه الناس أو يروونه عنها ! وأية فائدة فى أن أذهب إلى مقابر المَعْلاة مثلا حيث قبر خديجة وقبور أجداد النبى وأعمامه وقد سُوِّيت هذه

القبور بالأرض وأصبح ما يرويه حرّاس المقابر عنها أشبه شيء بحديث خرافة . ولم يُخْفِ عبد الحميد ما ساوره من ذلك، ولم يخف أسفه على زوال القباب الجميلة التى كانت مزاراً لعشرات الألوف من الحجاج ، والتى كانت تدرّ لذلك على مكة الخير الوفير . لكننى أبديت من الحرص على زيارة هذه الآثار ما أزال تردُّدَه . ولم يلبث حين تبادلنا الحديث بعد زياراتنا فى اليوم الأول أن أقبل يضع خططَ تجوالنا بهمّة لا تعرف الملل .

وكانت مقبرة المَعْلاة أول ما اتجهت إليه زيارتنا . وإن بى لزيارة المقابر لهوًى ملحًّا . فالمقابر مستقر الأعزّاء الذين سبقونا إلى دار الخلد ، وهى مستقرُّ الإنسانية وموضع سكنها بعد الفراغ من واجب الحياة . والمقابر هى العبرة الباقية تحدّثنا عن الوجود وتصور لنا قيمته . أليس القبر هو الإنسانية الماضية كلها بل الحياة الماضية كلها لهذا الكون ! وإذا صح ما قيل من أن من مات قامت قيامته فالقبر هو المظهر المادى لصلة الأحياء والأموات . والأموات هم إخواننا وآباؤنا وأبناؤنا الذين سبقونا إلى الرحيل ، والذين يتصلون بنا بعد موتهم بما خلّفوا لنا من آثارهم، ونتصل بهم نحن اتصالاً لا ينقصه إلا تبادل المنافع فى الحياة . ألم يخاطب الرسول عليه السلام قتلى بدر من المشركين بعد أن دفنهم المسلمون فى القليب بقوله : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا » . فلما تحدّث المسلمون إليه قائلين : « يا رسول الله أتنادى قومًا جيَّفوا » . كان جوابه : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

ومقبرة المَعْلاة تقع فى الشمال الشرقى من مكة . وهى فضاء فسيح محصور بين الجبال من شماله وغربه ، وتفصل بينه وبين الجبال من الشرق بعض المساجد والمساكن ، ويتصل من الجنوب بمنازل أهل مكة . وهذه المقبرة قديمة ترجع إلى عهد الجاهلية ، وهى ما تزال مع ذلك مقبرة أهل مكة فى هذا الزمن الحاضر . ولعل بقاءها مقبرة حتى اليوم يرجع إلى تقديس المكيين للقبور القديمة التى بها أكثر مما يرجع إلى رغبتهم عن اتخاذ مقبرة لمدينتهم فيما وراء الجبال التى تحصرها .

وقبور المعلاة مسوّاة بالأرض اليوم ، وهى لم تكن كذلك قبل أن يدخل الوهّابيون الحجاز . ويفصل بينها وبين الطريق منحدر من الأرض يسمو بها وبما تحويه من ذكريات إلى سفح الجبل . وإنك لترى بها على رءوس قبور شواهد نقشت عليها بالخط الكوفى أو بالخط الثلث الجميل آيات قرآنية فى أغلب الأمر ، وأسماء ساكنى هذه القبور فى بعض الأحيان . ولقد صحبنا حارس المقبرة فى مسيرنا يهدينا أثناءها إلى مقابر بعض الصحابة والتابعين .

وتقدّمنا غير بعيد ، ثم وقف يشير بإصبعه إلى قبر ذكر أنه قبر عبد الله ابن الزبير صاحب الجهاد المشهور فى مقاومة بنى أمية ، والذى أقام بناء الكعبة فى السنة الرابعة والستين من الهجرة بعد أن رماها الحصين بن نمير قائد جيوش يزيد بالمنجنيق . وإلى جانب قبر ابن الزبير أشار الحارس إلى قبر آخر ذكر أنه قبر أمه أسماء بنت أبى بكر . ومدّ الحارس بصره إلى ناحية الجبل من الشمال ومددنا البصر معه ، فأشار إلى جدار قائم فى سفح الجبل يحجب ما وراءه ولم ينبس ببنت شفة . أما الشيخ عبد الحميد حديدى فقد أخبرنى أن الإخوان الوهابيين شادوا هذا الجدار ليستروا به قبر خديجة أم المؤمنين وقبور بنى هاشم من أجداد الرسول عن الأعين ، وليحولوا بين الحجاج وزيارتها للتبرّك بها ، لأنهم يرون فى الزيارة والتبرك إثمًا هو إثم الشرك بالله ، أو اتخاذ هذه القبور زُلْفَى إليه . وهذا أو ذاك يخالف عقيدتهم الإسلامية ويجعلهم يرمون من يُقْدِم عليه بالمروق والكفر .

وتقدّمنا الشيخ عبد الحميد إلى ناحية هذا الجدار متخطّيًا المقبرة التى كنا بها إلى فضاء يعترض السبيل إليه عارض من خشب سُدّ به الطريق . وطأطأنا رءوسنا واجتزنا هذا العارض ، وتسلقنا السفح حتّى كنا عند باب قديم قائم فى الجدار الذى بصرنا إليه . ودق عبد الحميد الباب بيده وشعرنا بحركة وراءه ؛ ذلك حارس هذه المقبرة المحرّمة يزيل الأحجار التى أوصد بها الباب حتّى لا يقتحمه مقتحم . وفتح الحارس المصراع ، ودخلنا فحيّانا بتحية من يعرف الشيخ عبد الحميد ومن كان معنا من ذوى قرابة أمين العاصمة . وبعد هنيهة

أشار إلى قبر على يسار الداخل قال إنه قبر خديجة بنت خويلد أم المؤمنين وجدّة جميع المنتسبين إلى الرسول بأنهم من أبناء ابنته فاطمة وابن عمه على بن أبى طالب . وقد سُوِّى هذا القبر بالأرض كما سويت سائر القبور بأمر الوهابيين . وتقدّمنا خطوتين بعد ذلك إلى قبور قال الحارس إنها قبور جدّى الرسول : عبد المطلب وعبد مناف وعمه أبى طالب . ثم أشار إلى قبر ذكر أنه قبر أمه آمنة . ولم يدهشنى ما ذكره عن قبر آمنة مع علمى أنها توفيت ودفنت بالأبْواء بعد الذى ذكره أهل مكة عن هذه الآثار وقيمة سندها من التاريخ . فالقول بوجود قبر آمنة فى هذا المكان إنما كان يقْصَد به إلى الاستزادة مما يدفعه الحجاج أثناء زيارتهم هذه القبور للتبرّك .

وعدْت أدراجى خطوات ، ووقفت مستقبلا قبر خديجة . هنا إذاً يرقد جد النبى وعمه اللذان احتضناه طفلا أيام يتمه ! وترقد زوجه الوفية التى وهبته مالها وقلبها وحبها وروحها أيام شبابه وبعد بعثه ! فى هذه البقعة يَثْوِى أولئك الذين شب محمد بينهم واستظل ببرهم ورعايتهم من يوم وُلد إلى أن جاءهم الموت لسنوات بعد رسالته تعرّض أثناءها للسوء والأذى والهلاك . عبد المطلب ! أبو طالب ! خديجة ! ما أجلّ هذا الأسماء وأبقاها على الدهر مذكورة بالتعظيم والإكبار! وإنما بقاؤها واحترامها فى اتصالها بهذا الاسم الأكبر ، اسم محمد النبى العربى الذى استعذب العذاب فى سبيل الحق وهداية الناس أداءً لرسالة ربه . فعبد المطلب الجد البار العطوف هو الذى كان يجلس كل يوم إلى جوار الكعبة مثابة عبادة العرب جميعاً ، فإذا جاء حفيده الطفل اليتيم أدناه منه وأجلسه معه على فراشه وربّت على كتفه وغمره بحبه وإعزازه ، وأبناؤه أعمام هذا الطفل جلوس من حول الفراش ما يدنو منهم أحد كما يدنو هذا الطفل ، ولا العباس الذى كان ضريب محمد فى سنه وطفولته . وأبو طالب العم المسن هو الذى احتضن محمداً من يوم مات عبد المطلب ومحمد ما يزال فى الثامنة من عمره ، والذى بقى يوليه من العناية والرعاية أكثر مما كان يولى أبناءه إلى أن شب عن الطوق وتزوج خديجة ، والذى أظلّه بحمايته حين دعا إلى

دين الله ، ووقف دونه مخافة أن يناله من قريش أذى . ولئن ينسى التاريخ من أحداثه ما عساه أن ينسى ليذكرنّ أبداً فى لوحه يوم مشت قريش إلى أبى طالب تنذره بالحرب إن لم يسلم ابن أخيه أو ينهه عنهم ، وليسطرنّ بأحرف من نور كلمة محمد حين دعاه عمه وقص عليه أمر قريش وقال له : « فأبْق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » ، ليسطرنّ بأحرف من نور قول الرسول لعمه : « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . أما خديجة التى اختارت محمداً لنفسها ، والتى ضحَّت من أجله بمالها ، والتى آمنت برسالته أول ما أفضى بها إليها . والتى كانتْ سنده وقوّته فى أدق الساعات التى مرت به أول نزول الوحى عليه وحين إيذاء قريش إياه ، أما خديجة أم المؤمنين فلن يفيها حقها كل ما يسجله التاريخ إشادةً بذكرها فكيف لا تخلُد هذه الأسماء فى لوح الوجود خلود إجلال وتعظيم وإكبار .

وآن لنا أن ننصرف من المقبرة ، فاستوقفنا الحارس إذ مدّ يده ممسكاً بها قطعة من القاشانى الأخضر الجميل اللون زينت أطرافها بنقش فنى دقيق وقال : « هذه قطعة من جدار القبة التى كانت على قبر السيدة خديجة » ! فقد كان على قبر خديجة قبة شاهقة بارعة الجمال ، يذكر المؤرخون أنها بنيت فى السنة الخمسين والتسعمائة من الهجرة أثناء ولاية داود باشا بمصر ، وأن الذى بناها أمير دفاتر هذا الوالى الأمير الشهيد محمد بن سليمان الجركسى . وقد أزال الوهابيون هذه القبة فيما أزالوا من القباب أول دخولهم مكة إرضاء لهوى إيمانهم ، ثم بقيت صورتها الشمسية تشهد بأنها كانت آية بارعة الجمال فى فن العمارة براعةً تصدّ من يفهم هذا الفن عن أن يصيبها بسوء . وكانت إلى جوارها قباب لجدّىِ النبى عبد المطلّب وعبد منَاف ولعمه أبى طالب . بذلك كانت هذه المقبرة بِدْعاً يعشقه من يحبون جمال الفن ، وكان الناس يزورونها إجلالا لهذه القباب وتبركاً بذكرى ساكنيها . أما اليوم فلا يفكر أحد فى القباب وقد أزيلت ، ولا يزور أحد القبور وقد حيل بين الناس وبينها بهذا الجدار الذى

يصدّهم عنها . على أنهم مافتئوا يحضرون اليوم كما كانوا يحضرون من قبل فيقفون عند هذا الحاجز الذى تخطيناه قبل أن نصعد سفح الجبل فيقرءون الفاتحة و يلتمسون البركة ثم ينصرفون .

قال صاحبي : أرأيت كيف عدا الوهّابيون على آثار أهل بيت النبي ولم يرعوا لعواطف المسلمين إزاءها حرمة ! وأجابه آخر : وهل كان لشيء من هذه الآثار وجود فى عهد النبي ! إنما أحدثها الذين حسبوا فيها قربى إلى الله يثابون عنها ، وأزالها الذين يرون فى بقائها ما لا يرضى الله والرسول . فالأمر من هذه الناحية نضال بين عقيدتين . وفعل الذين أزالوها أدنى فى عقيدتهم إلى حكمة الإسلام وسنة الرسول . لما تُوفى إبراهيم ابن الرسول وتم دفنه ، أمر أبوه بسد القبر ، ثم سوّى عليه بيده ورش الماء وأعْلَمَ عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تُقِرّ عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يُتقنه » . ولقد سوّى قبر خديجة بعد دفنها فى حياة زوجها ولم يقم عليه أحد قبّة فى عهده ، ولا أقام أحد عليه قبة فى أيام خلفائه من بعده ، وبقى القبر ألف سنة حتى جاء هذا الأمير الشهيد الجركسى فأقام القبة التى هدمها الوهّابيون . وإنما شاع بناء القبور والقِباب فى عهد الانحلال ومنذ بدأ الناس يتخذون من سبقوهم زُلْفَى إلى الله . فليس من الحق وذلك نبأ التاريخ أن يوصف عمل الوهّابيين إذ هدموا هذه القِباب بأنه عدوان على أهل بيت النبي ، إنما هو نضال بين عقيدتين كما قدّمت . وما دام الباعث على بناء هذه القباب قد كان باعثًا دينيًّا ، فيجب أن ينْظر فى حكم إقامتها وهدمها إلى ما قرّره الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله . ولو كان الباعث لإقامة القباب غير دينى لوجب النظر فى إقامتها وهدمها نظرة أخرى ، ولكان حقًّا أن يلام الوهابيون على ما صنعوا أبلغ اللوم .

كأنما شجعت العبارة الأخيرة صاحبي ، فقد انبسطت أساريره لسماعها واتجه إلىّ بعد أن كان يسبقنا إلى باب المقبرة وقال :

— ولِمَ لا نعتبر الباعث إنسانيًّا هو أن تهوى أفئدة من الناس إلى أهل

هذا البلد الأمين القائم بواد غير ذى زرع ؟! ولِمَ لا نعتبره دينياً دعا إليه تشجيع الذين يؤمنون بعقيدة المقابر والقباب إلى أداء فرض الله بحج بيته ؟! لقد أضاع الوهابيون على مكة بهدم القباب مورداً من خير موارد المال فيها ، وإنهم ليحسون ذلك اليوم وبعد أن أقاموا بمكة كما نحسه . ولعلهم يأسفون على ما ضيَّعوا ، وإن كنت فى ريب من أن يجد الأسف على أمر إلى نفوسهم سبيلا .

وشاركت فى الحديث فقلت : لو أنك يا صديقى رَجَعت الباعثَ على بناء هذه القباب إلى فكرة فى فن العمارة لشاركتك فى تأثيم الذين هدموها ، فللفن جلال وسلطان فى حياتنا اليومية وفى حياتنا الروحية جاهلٌ من ينكرهما . وكان لأتباع ابن عبد الوهاب مندوحةٌ عن هدم هذه الآثار الفنية الجميلة بتحريم التقرّب إلى الله بوساطة المدفونين طيّ ثراها تقرُّبًا ينكره مذهبهم فى الإسلام ، ومن ثم أراهم حقيقين بالتثريب عليهم ولومهم ، ولو عنُف لذلك من شاء فى هذا اللوم ما خالفته . لكننى فى ريب من أن تفيد القباب بعد ذلك فى جلب المال إلى مكة أو جعل أفئدة من الناس تهوى إلى أهلها .

أتممنا هذا الحديث ونحن فى طريقنا إلى السيَّارة كى نجوس بها خلال مكة ، وأمسك صاحبى حين ركبناها فلم يتابع حواره . وانطلقت بنا السيَّارة تقف عند مسجد مرّة ، وعند بئر أخرى ، وعند دار تارة ، وعند شِعْب أو متَضيق فى الجبل طوراً . وكذلك فعلنا أياماً تباعاً ، وعبد الحميد يقف مستقبلا الأثر الذى نقف عنده موقف الدليل أو الحارس يقصُّ علىّ ما تسطره الكتب وما ترويه الأساطير عن كل واحد منها . بذلك حصّلت فكرة ، لا أقول عن آثار مكة ، ولكن عما يروى عن هذه الآثار اليوم ، ومنها ما هو باق يدل مظهره على شىء من القِدَم ، ومنها ما لم يبق له على وجه الحياة أثر .

المساجد الأثرية بمكة لا شىء من الجمال ولا من الفن فيها . ولا عجب ، فهى لم تُقَم للعبادة ولا لاجتماع الناس بها ، فالناس من أهل مكة ومن زائريها

ومن حجيج بيت الله يقصدون المسجد الحرام ولا يقصدون مسجداً غيره . لذلك نرى هذه المساجد الأخرى لا تزيد على مربع من الأرض تحيط به جدران غاية فى البساطة ، يعلوه من ناحية المحراب سقف ساذج يستند إلى عمد ليست دون السقف سذاجةً فى بنائها . وقلَّ أن تجد بالمسجد حصيراً أو قشاً أو أى فرش يشعرك أن الناس يصلون فيه ، بل الأرض فيه عارية يكسوها التراب . فإذا سألت : فيم إذاً أقيمت هذه المساجد ؟ علمت أنها أقيمت ذكرى لحادث وقع حيث تقوم . فهى إذاً أدنى إلى أن تكون نُصُباً تذكارياً تحتفظ بأنباء تسجلها بطون الكتب أو يرويها الرواة منها إلى أن تكون بيوتاً يذكر اسم الله فيها ، أو مقصداً للناس كى يقيموا الصلاة بها .

وقفنا قبالة مقبرة المَعْلاة عند مسجدين متجاورين : أحدهما مسجد الراية ، والآخر مسجد الجن . وسمى الأول مسجد الراية لما يذكر من أن الرسول عليه السلام ركز رايته عام الفتح حيث يقوم اليوم هذا المسجد . وسمى الآخر مسجد الجن لأن الله أوحى إلى النبى فى هذا المكان الذى كان الجن يستمعون فيه إليه : « قلْ أُوحِيَ إليَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجنِّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قرْآناً عَجَباً يَهْدِى إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » . ولمسجد الجن باب بأسفل الطريق غير بابه المطروق ، وينزل من شاء إليه بضع درجات دون مستوى أرض المسجد . وأهل مكة يذهبون إلى أن الجن كانت تستمع فى المكان الذى يؤدى هذا الباب إليه ، ولذلك كان الناس يزورونه . وقد أقفل هذا الباب فى العهد الأخير بالطين والحجر منعاً للتبرك بزيارته .

وهذان المسجدان من الطراز الذى ذكرناه ، والذى يعتبر طراز المساجد فى مكة جميعها . وقد زرت عدداً منها بينها مسجد الإجابة ومسجد حمزة ، فلم أجد ما يدعو إلى استقصاء شىء عن سائرها . ولم يكن تشابهها فى العمارة هو وحده الذى أطفأ ظمأ تطلُّعى ، بل أطفأه كذلك أنك لا تقف على نبأ صحيح للذكرى التى يقوم المسجد شاهداً عليها . فالناس لا يعرفون عن مسجد حمزة القائم بحى المَسْفَلة أكان موضعاً لمولده أم كان أثراً لنبأ لم يدوّن فى بطون

الكتب . وكل ما يذكره الذاكرون عن مسجد الإجابة القائم داخل الشِّعْب على مقربة من حِراء ومن قصر الملك أنه قائم حيث حل النبي عليه السلام إحرامه بعد عوده من مِنًى . ولئن صح ذلك لكان بعد حجَّة الوداع ، وهذا أمر لا يقطع بصحته أحد .

والحق أن تعيين الأمكنة التي نزل فيها الوحي أو التي أوى إليها الرسول في مناسبة ما ليس أمراً ميسوراً . فكتب السيرة لم تكتب إلا بعد قرنين أو نحوهما من وفاته . والحديث لم يُجْمَع كذلك ولم يدوّن إلا في عهد العباسيين . وإلى يومئذ كان المسلمون في شغل بالغزو والفتح وبالثورات الأهلية عن تدوين آثار الرسول . بل لقد اختلفوا في جواز تدوينها ، حتى نادى عمر في الناس : إن من كان عنده شيء عن الرسول غير القرآن فليمحُه . والخلاف واقع على آثار أدنى بطبعها إلى التحديد من المواضع التي نزل فيها الوحي بسورة من السور أو آية من الآيات . فهو واقع على أماكن لها خطرها ، كتحديد مكان حُنَين ، وهي من أشهر غزوات الرسول وفيها نزل قرآن. وتحديد منازل الوحي بالسور والآيات لم يتيسر إلا فيما اتصل من هذه السور والآيات بحوادث معيَّنة . والخلاف مع ذلك واقع على التحديد الدقيق للمواضع التي نزلت فيها هذه الآيات والسور ، وعلى الحوادث التي نزلت فيها . ولا جرم إذاً أن يتعذر القول بصحة ما للمساجد القائمة اليوم من دلالة على الآثار المسندة إليها . والراجح أنها أقيمت على الظن لا على اليقين ، وأقيمت لأغراض تتصل بهوى النفوس إلى مكة أكثر مما أقيمت لأغراض علمية ثابتة .

فأما ما سوى المساجد من آثار فبعضه أدنى إلى الصحة فيما يدل عليه ، وإن لم يكن أوفر حظًّا من الثبوت العلمي لمن أراد البحث والتمحيص الدقيق .

والآبار بعض هذه الآثار ، وهي تختلف عن المساجد في أنها لم تنشأ بعد أجيال من عهد النبي ذكراً لقصة أو حديث رواه الرواة أو تداوله الكتّاب ، بل كان منها في عهد النبي عدد غير قليل اندثر بعضه وجدّ من بعد غيره ، لكنك قلّ أن تعثر في تواريخ مكة على شيء ثابت عنها . وما سوى زمزم

من الآبار تختلف عليه الرواية أشد الاختلاف .

وليس يذكر « الأزرقى » فى كتابه (أخبار مكة) عن آبار الجاهلية إلا الشيء القليل ، وإن ذكر أساطير شتى عن الآبار التى أنشأتها قريش حين بدأ تكاثر الناس بأم القرى . فأما ما جدّ بعد الإسلام فكثير ، بقى موضع الرعاية ما استقى الناس منه . فلما أجرت زبيدة زوج الرشيد الماء إلى مكة لم يبق ما يثير العناية بهذه الآبار ، وإن احتفظ أهل مكة منها بما علّقوا عليه ألوان القصص الدينى ليثيروا به تطلع الذين يزورون مكة ، والذين يبتغون أثناء زيارتهم إيّاها كل سبيل للتبرك والمثوبة .

كنت أحفظ فى حياتى كثيراً من الشعر العربى نسيت الآن أكثره . ومما لا يزال عالقًا بذاكرتى قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا أنيس ولم يَسْمُرْ بمكة سامر

ولم يكن للحجون ولا للصفا أية صورة معيّنة فى ذهنى . وقد عرفت الصفا حين سعيت بين الصفا والمروة ، وعرفت أنها ربوة أحيطت بالجدران . أما الحجُون فطريق بين جبلى كُدَىٍّ وكدَى . ويقع أولهما بأعلى مكة ، ويسير الآخر حتى يصل إلى أسفلها . وطريق الحجون يصل بين السفوح التى تقع عليها مقبرة المَعْلاة وما عند المَسْفَلَة نحو الجنوب من مكة . ولقيتنا أول ما برزنا من الحجون بئر عليها بناء غير مرتفع ، قال صاحبى : إنها بئر طُوى وإن الرسول اغتسل منها حين دخوله مكة عام الفتح ، ولهذا يسنّ الاغتسال منها عند دخول مكة . ويضبط الأزرقى وغيره من قدماء المؤلفين اسم هذه البئر على أنها الطُّوَى . والبناء القائم عليها بناء حقير لا أحسب الذين أقاموه قصدوا إلى أكثر من إعلام البئر وحفظها به . والبئر من داخل البناء قد أحيطت فوهتها بأحجار تشبه البناء ، وتدلّت فيها دَلْو يشدُّها حبل غليظ معلق إلى بَكَرَة أحدثها المعاصرون من أهل مكة .

ولم أقف داخل مكة على آبار أخرى غير بئر عثمان المنسوب إحداثها إلى عثمان بن عفّان ، وهى تقع الآن فى رباط المغاربة . والدخول إلى هذا الرباط

واجتيازه إلى البئر يعيد إلى الذاكرة أشد أحياء القاهرة القديمة قذارة وبعداً عن أسباب الصحة ؛ فقد اجتزنا حارة ضيقة لا تدخلها الشمس ، قذرة لا تنظفها مكنسة ، تزكم الأنف روائح تفوح منها وتجرى فيها جراثيم الأنيميا ، ودخلنا الرباط ، فكأننا دخلنا مستوقداً أو شراً من مستوقد . ولقد حدثتني نفسي أن أعود أدراجي قبل أن نبلغ البئر لولا الحياء ممن معى من أهل مكة . ومدخل الرباط أشد من مدخل الحارة ضيقاً وأكثر قذارة . وألفيت إلى جانب جدرانه أشباحاً أحسبهم أشخاصاً يعيشون فى هذا الرباط . وبلغنا البئر فإذا فوقها بناء أكثر ارتفاعاً من بناء بئر طوى ، وفوهتها كفوهتها محاطة بأحجار البناء ، يتدلى فيها حبل يدور على بكرة ويمسك فى نهايته دلواً هى التى يمتح بها ماء البئر .

الدور التاريخية بمكة أثبت نسباً من المساجد والآبار . وإذا قامت الشبهة فى نسب الكثير منها ، فبعضها متواترة أنباؤه ولا يشتد عليه خلاف . وأنت واجد من ذكر هذه الدور الشيء الكثير فى أقدم ما كتب من تواريخ مكة ، لكن ما يتصل منها بعهد الرسول وما يثبت على التاريخ قليل .

ودار الأرقم أو الخيزران من أشهر هذه الدور وأثبتها نسباً ، وهى تثير فى النفس ذكرى من أروع الذكريات فى حياة محمد عليه السلام . فقد كان يجلس فى هذه الدار يوماً مع أصحابه والإسلام لا يزال فى أول عهده ، وقريش ما تزال تحاول القضاء عليه . وكان عمر بن الخطاب على الجاهلية إلى يومئذ ، ولقد فكر فى أن يريح قريشاً من هذا الذى سب آلهتها وفرق أمرها بأن يذهب إليه فيقتله . ولقى فى طريقه نعيم بن عبد الله وأظهره على طويته . قال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ! وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما . وكر عمر راجعاً إليهما حين عرف من نعيم أمرهما . ودخل البيت عليهما وعندهما من يقرأ القرآن . فلما أحس أهل الدار دنوه ، اختفى القارئ

وأخفت فاطمة ما يقرأ . وسأل عمر : ما هذه الهينمة التى سمعت ! لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بسعيد ؛ فقامت فاطمة تحمى زوجها فصدمها فشجّها . إذ ذاك هاج هائج الزوجين وصاحا به : نعم أسلمنا ، فاقض ما أنت قاض ! واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم ، وغلبه برّه وعطفه فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون ، فلما قرأها اهتز وأخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التى تدعو إليها ، وخرج يريد محمداً كى يعلن إليه إسلامه ، وسار متوشّحاً سيفه حتى إذا بلغ دار الأرقم ضرب الباب على مَن فيه . وقام رجل فنظر من خَلَل الباب ثم عاد فزعاً يقول : هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . قال حمزة بن عبد المطلب : فأذَنْ له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلنا له ، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه . وأمر رسول الله أن يؤذَن لعمر ، وقام فتقدّم نحو الحجرة التى تلى الباب . ولما دخل عمر أخذ النبى بمجمع ردائه وجذبه بقوّة وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة . قال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله ورسوله وما جاء من عند الله . فكبّر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر أسلم ، فتفرّقوا من مكانهم فرحين مؤمنين بأن عمر وحمزة سيحميان رسول الله من خصومه وأذاهم .

وفتّ إسلام عمر فى عضد قريش وقد دخل فى دين الله بالحميّة التى كان يحاربه من قبل بها . لم يرض عن اختفاء المسلمين حين صلاتهم ، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . ثم كان عمر بعد ذلك للإسلام عزًّا فى حياة الرسول ومجداً فى خلافة أبى بكر وخلافته .

هذا حادث جليل فى تاريخ الإسلام ؛ فمكانه جدير بأن يذكر والدار بأن تصان وأن تزار . وقد ذهبت إلى زيارتها على مقربة من الصفا وانعطفت إليها فى طريق من حارة الباب . وأشار الشيخ عبد الحميد إلى باب مغلق وقال لى : هذه هى الدار . وسألته هل من سبيل إلى دخولها ؟ فعلمت أنها أصبحت مسكناً لإحدى الأسر منذ جاء الوهابيون مكة ، وأنها من يومئذ

لا تزار . وقد رأيت بأعلى الباب كتابة لم أتثبتها على رغم صعود الطريق المنعطف قبالتهـــا صعوداً يجعل نظر الإنسان يكاد يحاذيها ، وعلى رغم استعانتى بالمنظار المكبر .

وقد أسفت لحرمانى من زيارة هذه الدار ، أنا الذى زرت بأوربا أماكن ودوراً صانتها الحكومات ذكرى للعظماء الذين ولدوا بها ، أو أقاموا فيها ، أو لأنها شهدت من حوادث حياتهم أمراً خلدته صحف التاريخ . وإنما هون علىّ الأسف ما علمته من أن دار الأرقم تغيرت معالمها ولم يبق فيها ما يذكّر بهذا الحادث العظيم فى حياة العالم الروحية . حسبك أنها تدعى اليوم دار الخيزران ، لما يزعمون من أن الخيزران أمّ الخليفتين موسى وهارون عمرّتها أيام العباسيين . والذين زاروا هذه الدار قبل الوهابيين يذكرون أن بابها يفتح على دهليز مكشوف إلى السماء طوله ثمانية أمتار وعرضه أربعة ، وإلى يساره إيوان مسقوف على عرض ثلاثة أمتار ، وإلى يمينه غرفة فى مثل مساحته مفروشة بالحصير ، وقد وضع فى زاويتها الشرقية حجران أحدهما فوق الآخر ، كتب على أعلاهما : « بسم الله الرحمن الرحيم . فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبدأ الإسلام . » ، وكتب على الحجر الأسفل مثل هذه العبارة الأخيرة واسم من أمر بإنشاء هذا الأثر ، وهو أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى وزير الشام والموصل . قال الفاسىّ فى شفاء الغرام : « وعمّره أيضاً الوزير الجواد . وعمّرته مجاورة يقال لهـــا مُرّة العصمة . وعمّر أيضاً فى سنة ٨٢١ هـ . والذى أمر بهذه العمارة ما عرفته » .

ليست دار الأرقم التى قص الفاسى نبأها ، والتى تحدث صاحب الرحلة الحجازية وصاحب مرآة الحرمين عنها ، هى إذن الدار التى أعلن بها عمر بن الخطاب إسلامه . وخير ما يقال إن البناء القائم اليوم قائم مكان هذه الدار .

ولقد هوّن على نفسى الأسف كذلك أنى لم أجد إلى زيارتها الوسيلة لأنها كانت مغلقة ، وكان يسكنها قوم من أهل هذا الجيل لا يزوّرونها الناس ،

ولا يرعون لها حرمة خاصة ، لأنهم على رأى ابن عبد الوهاب ، فهم يظنون أن كل أثر صنم أو نصب قد يعبد أو يتخذ إلى الله زُلْفَى . وربما قام ما يصنعه المسلمون من التبرك بهذه الآثار عذراً للحكومة النجدية فى تحريمها زيارة هذه الأماكن . لكنها كانت تستطيع أن تفعل غير ما فعلت ثم تبلغ غايتها ، بأن تحرِّم التبرك والزلفى ، وتُبيح الزيارة وتجعلها جمة الفائدة إذ تعيِّن من يفسر للزائرين مغزى هذه الآثار . ولو أنها فعلت لكان صنيعها أجل فائدة وأعظم أثراً . ولقد اضطرت إلى مثل هذا الصنيع فى أماكن أخرى فأثمر صنيعهاخير ثمرة .

ثَـمَّ غير دار الأرقم دار أبى سفيان . والمسلمون يذكرونها لقوله عليه السلام يوم فتح مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن داخل المسجد فهو آمن » . وتقع دار أبى سفيان بمكان يقال له القَبَّان بشارع المدَّعَى . وما بقى منها اليوم لا يمتّ إلى أصل بنائها بصلة أو نسب ، بل دخل فى أرض عمرتها الحكومة المصرية على عهد محمد على ، وأقامتها إلى جانب تكية فاطمة التى أنشأتها الحكومة العثمانية إذ ذاك . وأكبر الظن أنها عمرتها لتكون مدرسة يتعلم فيها أهل مكة ؛ فتقسيم البناء على ما رأيته يشهد بذلك ، لكن الحكومة العثمانية صاحبة الأمر فى الحجاز لم تر أن يبقى المكان مدرسة بعد أن جلت عنه قوات مصر ، فجعلت منه مستشفى للمجاذيب الذين يخشى خطر هياجهم . أما اليوم فهو مستوصف يزوره الناس ويصرف منه الدواء . وقد لقينا الموكل به ، وهو سورى ، فدار معنا فى جوانبه ؛ فكان مما رأيناه به مسجد صغير يقال إنه قائم موضع دار أبى سفيان حيث كانت على عهد الرسول : وبهذا المستوصف حديقة فى داخله ترى فيها من الشجر الأخضر ما لا ترى منه بمكة إلا فى بيوت ذوى اليسار .

ويذكرون دار أم هانئ ، وهى الدار التى كان بها الرسول عليه السلام ليلة الإسراء . وليس لهذه الدار اليوم أثر ؛ فقد دخلت فى المسجد حين توسيعه وهى الآن إحدى المدارس المتصلة بالمسجد إلى جوار باب الحميدية ، ويطلق عليها اسم مدرسة أم هانئ .

ووقفنا عند دار قال الشيخ عبد الحميد إنها دار الصدّيق ؛ ولم أعثر بهذا الاسم فى تواريخ مكة . وهى مقفلة اليوم لا يدخلها أحد . وموقعها إلى جوار البازان المجرور من عين زُبَيدة بالمسفلة . ولست أدرى مبلغ ما فى نسبة هذه الدار إلى الصدّيق من صحة .

لم يَطُمّ الوهابيون الآبار ، ولم ينقضوا الدّور كما هدموا قباب قبور المعلاة . ولعلهم لم يروا الناس يعكفون على الآبار ما يعكفون على القباب ؛ فكفاهم أن أقفلوا الدور وأن تركوا الآبار لمن شاء أن يغتسل منها ، كما تركوا من شاء يتوضأ من ماء زمزم . لكنهم كانوا أشد بطشًا بآثار أخرى ؛ حتى لقد عفوا عليها ولم يتركوا لها ذكراً ؛ وكانت هذه الآثار أعز على المسلمين من كل ما تركوا . ولا عجب فهى مولد النبى ، ومولد فاطمة ابنته ، ومولد على بن أبى طالب ابن عمه وصهره وأخيه حين آخى بين المسلمين فى المدينة . وأنت تمر بها اليوم فتحسبها ميادين خالية حينًا ، معمورة بالخيام حينًا آخر ، وكثيراً ما تراها مناخًا للإبل فى زمن الحج . وإن قومًا يرونها اليوم وكانوا قد رأوها من قبل أن يطمس الوهابيون على آثارها فيحز الألم فى نفوسهم ، وتخنق بعضهم العبرة وقد تسيل على خده أسفًا لما أصاب هذه المواقع التى كانت من قبل موضع إكبار وتقديس كما يجب أن تكون . بل إن منهم من يهون على نفسه هدم القباب ، ومنهم من لا يرى به بأسًا ؛ لكن هؤلاء وغيرهم يرون فى التعفية على معالم هذه الأماكن التى ولد فيها الرسول وابنته وصهره وزراً لا يعدله وزر . وإكبار هؤلاء لما صنع ابن السعود ورجاله من إقرار الأمن والنظام بالحجاز ومن القضاء على المنكرات فيه ، لا يثنيهم عن مصارحة وزرائه وعن مصارحته هو ، برأيهم وإنكارهم هذا القضاء على آثار للرسول وأهل بيته قضاءً لا مسوغ له .

ويشعر أولو الأمر من الوهابيين بما فى قول هؤلاء من صحة ، ويرون أن رجالهم الذين فتحوا الحجاز ودخلوا مكة غلوا فى تطبيق المذهب غلوًّا كبيراً حين هدموا من الآثار ما هدموا . قال لى أحدهم : لو أن الملك ابن السعود كان على

رأسهم لما وقع من ذلك كل ما وقع ؛ لكنا وجدنا أنفسنا أمام الأمر الواقع . ولسنا نستطيع أن نصرح للناس بأن غزاتنا الأولين أخطأوا ؛ فهم أصحاب الفضل فى الفتح وهم الذين طوعوا لابن السعود البلوغ بالحجاز فى مضمار الإصلاح إلى ما بلغ . على أن شعورنا نحن بخطأ هؤلاء الغزاة يدعونا إلى التفكير فى إصلاحه . ولقد فكرنا فى أن ننشئ مكان مولد الرسول داراً للكتب تضم كتب التفسير والحديث والسنة جميعاً . لكن صعوبة واجهتنا لم نستطع التغلب عليها ، فقد وقف علماء نجد يسألوننا : وكيف تضعون فى هذه الدار كتباً تنطوى على ما يحكم مذهبنا بخطئه ؟! إنكم إن فعلتم تكونون قد ارتددتم عن المذهب ، ونزلتم على حكم أهل الحجاز ، وقلبتم فتحنا إياه استعماراً مكان استعمار ، ونحن إنما فتحناه لإقرار حكم الإسلام الصحيح فيه .

قال محدثى : هذه صعوبة واجهتنا لم نستطع التغلب عليها ؛ فنحن فى حاجة إلى إقرار الرأى العام فى نجد أعمالنا لأنه سندنا ؛ وما لم نستطع التوفيق بين سياستنا ومعتقداته فلا بد لنا من النزول على حكمه . فللملك ابن السعود خصوم من رؤساء القبائل فى نجد يتهمونه بأنه سخر عقيدة أهل نجد الإسلامية لأغراضه ومطامعه السياسية ، فلما تم له ما أراد ، واستتب له أمر الحجاز ، أنس إلى الطمأنينة بترك أهل الحجاز يزاولون من العقائد ما يجاور الشرك ويأباه الإسلام ، ولذ له الفتك بمن يثور على هذه العقائد من أهل نجد أولى الحفاظ على الدين الصحيح والمذهب السليم . وهذا كلام يلقى آذاناً تسمعه وتسيغه . فلابد لنا من التوفيق بين آراء العصر الحاضر بما لا تأباه العقيدة السليمة عندنا ، وبين تصور قومنا لموجب هذه العقيدة . ونحن لا نستطيع أن نقنع أحداً منهم بفكرة حرية الرأى ؛ فحرية الرأى عندهم معناها حرية الباطل فى غزو العقول . لذلك لم نجد بداً من أن نعرض عن إقامة دار الكتب فى موضع مولد النبى ، وأن نؤثر عليها إقامة مسجد يذكر فيه اسم الله وتلقى فيه التعاليم الإسلامية الصحيحة .

ولم أجد ما أعترض به على هذا الكلام بعد الذى ذكرته فى فصل « مكة الحديثة » من حديث الشيخ حافظ وهبة مع علماء نجد عن التعليم ، وراقنى

أن يبنى مسجد حيث ولد من يذكر اسمه إلى جوار اسم الله فى كل مسجد : محمدٌ عبدُ الله ورسوله . ثم إنى خشيت أن يكون حظٌ هذا المسجد كحظ مساجد مكة إذ يذرها الناس ابتغاء مثوبة الصلاة فى المسجد الحرام وعند البيت العتيق . لكن محدثى طمأننى إلى أن المسلمين سيجدون لا ريب من المثوبة فى الصلاة بالموضع الذى ولد فيه رسول الله ما يدعوهم إلى الإقبال على هذا المسجد إقبالهم على المسجد الحرام أو بعض إقبالهم عليه .

ويقع مولد النبى بِشعْب بنى عامر فى أحياء مكة من شرقها . والخلاف يقع على هذا المكان : أوُلِدَ فيه النبى حقًّا ؟ ولقد أورد صاحب المواهب اللدُنية مما روى من ذلك ما قيل من أنه ولد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف الثقفى ، وكانت فى هذا المكان المشهور اليوم ، ومن أنه ولد بشعب بنى هاشم ، ومن أنه ولد بالرّدْم ، ومن أنه ولد بعُسفان . ثم إن المسلمين تواضعوا فى عصور متأخرة على أن المكان المشهور اليوم هو مولد الرسول . ومنذ القرنين السادس والسابع الهجريين بدأ ملوك الإسلام فى اليمن وفى مصر يفكرون فى عمارة هذا المكان ، ثم فكر ملوك بنى عثمان فى عمارته فى القرن العاشر الهجرى ؛ فأقيمت فيه قبة عظيمة ومنارة ورتب له مؤذن وخادم وإمام . وكان الطريق المجاور لهذا المكان يرتفع عنه نحو متر ونصف متر ، وكان النازل إليه ينحدر على درج يصل به إلى فناء وصفه البتانونى فى رحلته وذكر أن طوله يبلغ اثنى عشر متراً فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيسر باب يدخل الإنسان منه إلى القبة ، حيث يجد مقصورة من الخشب ، فى داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين الموضع الذى وُلد فيه الرسول . ومن هذه القبة ومن الفناء خارجها تتكون دار مولده عليه السلام .

نقل صاحب مرآة الحرمين قول العياشىّ فى رحلته تعليقاً على موضع المولد : « ويبعد عندى كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف ، لما تقدم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها . وعلى القول بأنه فيها فى أى شعابها . وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور . وعلى القول بتعيين الدار فيبعد

كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار . والولادة وقعت فى زمن الجاهلية ، وليس هناك من يعنى بحفظ الأمكنة ، لا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك . وبعد مجىء الإسلام قد عُلِم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتعيين الأمكنة التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرفهم اعتناءهم رضوان الله عليهم لما هو أهم من ضبط الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان . وكان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الإسلام من مساجده عليه السلام ، ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه ، مع وقوع ذلك فى المشاعر الجليلة ، فما بالك بما وقع فى الجاهلية ، لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على ومولد عمر ومولد فاطمة رضوان الله عليهم جميعهم » .

عفّى الإخوان الوهابيون كذلك على كل أثر لمولد فاطمة ؛ فهو الآن فضاء كمولد أبيها . وما ذكره المؤرخون عن مولد الرسول ، يصدق على مولد ابنته فى مبلغ ثبوته . وفاطمة قد ولدت بدار خديجة ، كما ولد بها أبناء النبى . وبدار خديجة أقام النبى منذ تزوّجها إلى أن هاجر من مكة ، أى من الخامسة والعشرين إلى الخمسين من سنه ؛ فهى إذن قد شهدت بعثه . وشهدت ائتمار قريش به وأذاها إياه وتعذيبها أصحابه لعقيدتهم . ولقد نزل عليه الوحى فيها غير مرة ؛ فطبيعى وذلك شأنها أن يبقى على التاريخ أثرها . وفى نفوس المؤمنين جميعاً ذكرها .

عفّى الوهابيون على كل أثر لهذه الدار ، فهدموا ما كان الناس يزورونه من رسومها . وهم لم يهدموا فى الحق دار خديجة ، إنما هدموا ما أقيم ذكرى لها ؛ وهى قد عمرت فى عهد الخليفة الناصر العباسى ، ثم عمرت فى عهد الملك الأشرف صاحب مصر ، وعمرها كذلك ملك مصر الظاهر برقوق ؛ ولعلها عمرت بعد ذلك غير مرة . والظاهر أن عمارتها كانت تختلف شكلا ، فيما يتصوره الناس ، عما كانت عليه فى عصر النبى ، فما وصفها به الفاسىّ فى (شفاء الغرام) يختلف عن صفتها فى رحلة البتانونى . فبينما كانت فى عهد الفاسى على صفة

المسجد وكانت لها عقود وأساطين إذا هى فى رحلة البتانونى بالغة غاية البساطة تنحدر عن الأرض انحدار مولد النبى ، وينحدر النازل إليها درجات عدة ، فيواجهه عن يمينه بهو وغرفة فسيحة ، وعن يساره باب يدخل الإنسان منه إلى ثلاث غرف ، كانت إحداها سكنًا للنبى مع خديجة ، وكانت الثانية سكنًا لبناتها ، وغرفة ثالثة صغيرة يطلق الكتاب عليها اسم غرفة الوحى ، وكانت فيما يذكرون مصلّى النبى ومهبط الوحى عليه . وأمام ذلك كله بعُرض البيت مكان مرتفع يظن البتانونى أن خديجة كانت تخزن فيه تجارتها .

أسائل نفسى : لو أن داراً فى الغرب حوت من الذكريات الخالدة ما حوته دار خديجة ، وأراد رجال الفن هناك أن يقيموا لهذه الذكريات رمزاً ، فماذا عساهم يصنعون ؟ فهى قد حوت ذكريات نفسية وروحية وعقلية لم تحو مثلها دار غيرها : فى هذه الدار وقفت خديجة ترقب فى علية لها عود محمد بتجارتها من الشام ، فلما دخل عليها فى شبابه وقوته وذكائه وأمانته وقع من قلبها وهى فى الأربعين سنًّا . وفى هذه الدار عرف محمد اليسر بعد العسر ، ورخاء العيش بعد شدته . وفيها أنجب أبناءه من خديجة ، فكان الوفاء لزوجه والبر بأبنائه ، وكان فى ذلك أسوة ومثلا كما كان فى أمانته بين قومه . وفيها رغب عن الرخاء وعن نعمة العيش وسما فوق عواطف الزوجية والأبوة وانقطع للتحنث فى حراء بعد أن سما بخديجة إلى مثل سموه ، وجعلها أشدّ تطلعًا إلى موضع تأمله منها إلى ربح تجارتها وازدياد مالها . وإليها رجع من حراء بعد الوحى الأول وقد ملك عليه الفزع كل نفسه وهو يقول : زمّلونى زمّلونى ، فوجد فى خديجة الزوج الوفيّة البارة العطوف . وفيها انقطع إلى ربه يعبده ويدعوه أن يهيئ له الأسباب لدعوة قومه إلى الهدى ودين الحق . وفيها نزل عليه الوحى بعد فتوره . وفيها ذاق لذة الحقيقة والدعوة إليها لذةً تسمو على خصومة قريش وأذاها . وفيها ماتت خديجة وحزّ الألم فى نفسه لفراقها ثم هوّنت رسالته الكبرى عليه ألمه . وفيها بات ليلة اعتزم الهجرة إلى يثرب ، وقد أحاط بها فتيان مكة يريدون قتله . إن فى كل واحدة من هذه الذكريات الباقية على الدهر

ما يلهم ربّ الفن أسمى صور الفن وألوانه . ولكنها إذ تتداعى جميعًا إلى نفسه تذره فى حيرة لا يجد وسيلة إلى صورة أو معنى مستقل بذاته يجسمها جميعًا ويطبع منها فى النفس أثراً باقيًا بقاءها ، اللهم إلا أن يلهَم صورة تمثل الدعوة إلى التوحيد فى أسمى صور التوحيد صفاء وقوة ، فهذه الدعوة هى جوهر الحياة ورحيقها فى حياة النبى العربى وفى تعاليمه .

أصاب الوهابيون مولد علىّ فى شِعب بنى هاشم بما أصابوا به مولد النبى ومولد فاطمة ؛ فهو اليوم فضاء لا أثر فيه . ولعل أولى الأمر فى الحجاز يفكرون فى تعميره ، ولعلهم يوفقون حين يعملون لأثر لا يثير الحفائظ بين الشيعة وأهل السنة .

بمكة آثار غير المسجد والآبار والدور : بها الجبال وشعابها حيث كان المسلمون يأوون من أذى المشركين . والأساطير التى أضفيت على هذه الجبال ليست أقل بهاء مما يضفيه أهل مكة على سائر الآثار فيها . لكن التاريخ لا يثبت من هذا كله شيئًا .

والأثر الخالد الحق فى مكة بيت الله ، وكل أثر غيره يتصل به ويعنو له ؛ إليه يولى الناس وجوههم وهم بمكة ، وحيثما كانوا ولّوا وجوههم شطره .

فى غار حراء

الكعبة والحرم أول ما يتجه إليه من يحج مكة وأشد ما يسترعى نظره فيها . فإذا أتم الناس شعائر الحج طوافاً وسعياً ، ظلت الكعبة وظل الحرم مع ذلك مثابتهم ما أقاموا بالبلد الحرام . وإن كثيرين منهم ليتجهون بعد زيارة الحرم إلى زيارة مقابر آل البيت . هذه المقابر التى كانت موضع تقديس ورعاية من حكومة البلاد وأهلها ، ومن زائريها ، ومن المسلمين فى شتى بقاع الأرض ؛ حتى إذا تولى النجديون أمر الحجاز أنكروا تقديس هذه الأماكن واعتبروه إشراكاً بالله فى عبادته ؛ فهدموا ما أقامه السلف عليها من قباب ومساجد ، وجعلوا على بعضها حراساً وأبواباً توصد . ولم يصرف الحراسُ الناس عن زيارة مقابر آل البيت ، ولم تحل الأبواب بينهم وبين الوقوف بها والدعاء لساكنيها واستغفار الله لهم وقراءة الفاتحة لأرواحهم .

ويتجه بعضهم بنظره إلى حراء وإلى الغار الذى بأعلاه . ولقد قلّ عدد هؤلاء بعد حكم النجديين الحجاز ، وبعد أن هدموا القبة التى كانت مقامة فوق هذا الجبل . وجنت قلة الصاعدين إلى قمة حراء على مقهى كان قائماً على مقربة من القمة عند صهريج كان يختزن مياه المطر ، كما جنت على الطريق المعبَّد الذى كان يتخذه الصاعدون إلى القمة . أما المقهى فلم يبق له أثر ، وأما الطريق ففسد وشقّ الصعود عليه . بذلك زاد عدد الصاعدين إلى غار حراء قلة ، ولم يبق منهم من يكابد مشقة الصعود إلا الذين درسوا تاريخ الرسول وعرفوا نزول الوحى لأول مرة على محمد أثناء تحنثه بحراء . هؤلاء يحرصون على أن يصعدوا جبل النور وأن يصلوا إلى الغار الذى اتخذه محمد مقرًّا ، والذى جاء إليه جبريل أثناء مقامه به يلقى عليه أول ما جاء به من القرآن : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . وهؤلاء يرون فى الجبل

وفى الغار فوقه أقدس مكان تجب له الزيارة بعد حج البيت ؛ فهو منزل الرسالة ، وهو مهبط النور ، وهو مقام الرسول قبل البعث يلتمس الحقيقة حتى أوحاها الله إليه ؛ وهو اليوم كما كان منذ خمسة عشر قرناً مضت ، لم تَعْدُ عليه عادية ، ولم يغير منه حاكم ولا محكوم ، وسيبقى كذلك علماً على الوحى وعلى الرسالة حتى يوم الدين .

ومذ وقع نظرى على حراء حين ذهابى إلى قصر الملك غداة وصولى إلى مكة تعلق به نظرى وشدت إليه مشاعرى ، وتمثل لى حيثما ذكرته بهذه العزلة العجيبة التى تفرد بها عما حوله من الجبال ، وبهذه الاستقامة المخروطية فى انطلاقه إلى السماء ، استقامة تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان منه إلى جبل قائم بين عشرات من الجبال حوله . والحق أن الحادث الفذ الذى جعله القدر نصيب هذا الجبل ، حادث نزول الملك على محمد بأول الوحى وهو يتحنث بالغار فوقه . جدير بأن يجعل منه علماً فى تاريخ الإنسانية يتعلق به ذهن كل إنسان ويتوجه إليه قلبه أكثر من كل موضع سواه . ويزيد الذهن تعلقاً به والقلب توجها إليه أن هذا الحادث لم يكن حادثاً عارضاً من خوارق أعمال القدر لم يمهد القدر له ، بل كان نتيجة لتمهيد طويل خلال سنوات عدّة أدّب محمداً ربُّه أثناءها وطهر نفسه ، وأعده لتلقى رسالته وإبلاغها للناس . على هذا الجبل ، حراء ، كانت خاتمة التمهيد والتهذيب والإعداد قبل الرسالة . إذن لقد شهد حراء هذه الرياضة الروحية العظيمة منذ هدى الله محمداً إلى الحق حتى أضاء أمامه سبيل هذا الحق بنور الرؤيا الصادقة ، وإلى أن أوحى إليه النبوة ليكون من بعدُ بشيراً ونذيراً . وليس ثمة موضع نعرفه فى العالم شهد هذا كله . فلا جرم ؛ وذلك شأنه ، أن يتعلق به الذهن ، وأن يتوجه له القلب ؛ وأن تشدّ إليه المشاعر .

وحسبك أن تقف قُبالة حراء وأن تتأمله لتذكر هذا المشهد كله ، ولتراه مرتسماً أمامك وكأنما حدث بمرأى منك ، أو كأنما حدث منذ عهد قريب . فها هو ذا محمد يسير وحيداً منفرداً حاملا من الزاد ما لاينوء رجل بحمله ،

يخترق طرق مكة من جنوبها الشرقى حيث يقع اليوم شعب علىّ ، وحيث كانت دار خديجة ، إلى شمالها الشرقى حيث يقوم هذا الجبل . وها هو ذا على سفح حراء يصعد إليه ، وسيما التفكير مرتسمة على قسمات مُحيّاه ، وليس فيما حوله من أسباب الحياة ما يرفه عن تفكيره أو ينبهه إلى جديد فى الحياة . ويستمر فى تصعيده ، وزاده معه ، حتى يبلغ قِمة الجبل . هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخاديد شعابه . ويجلس على مقربة من هذا الماء ومن غار قريب منه ، هو مأواه أثناء نومه ، ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله ، ثم يرجع البصر ويغمض عينيه الواسعتين الجميلتين إغماضة تأمل وادّكار لكل ما سمع وما رأى . فإذا جنّ الليل وتألقت النجوم وانتشَرت فى قبة السماء ، أجال بصره فيها ، وفكر فى أمرها وفى خلقها وفى خلق هذا العالم العظيم كله ، وقضى أشطر الليل متأملا يقلّب فى صحف ذهنه كل ما يقول قومه فى العالم وفى خلقه وفى الآلهة والملائكة وفى هذه الأصنام التى يعبدون . وينسيه التفكير نفسه ، وينسيه طعامه ونومه ، وينسيه الوقت ومرّه ، ويذره متعلقاً بما ينشد من حقيقة العالم والوجود والكون . ويستريح فى الغار سويعات لا يلبث حين يقظته بعدها أن يعود إلى تفكيره وإلى تأمله وإلى نِشدانه حقيقة العالم والوجود .

لقد كان — إلى أن مال به حبه العزلة إلى التحنث والانقطاع عن الناس — محبوباً من قومه ، مقدّراً بينهم لوفائه وصدقه وأمانته ، وقد كان مضرب المثل بينهم لبره أبناءه وحبه زوجَه وعطفه على الضعيف والمحروم . وكان يشارك قريشاً فى أحاديثهم وسَمرهم : يجلس وإياهم فى دار الندوة إلى جوار الكعبة ، وينصت إليهم وهم يتحدثون فى تجارتهم وفى مصالحهم ، ويشير عليهم برأيه ، ويستمع إلى حديثهم ويراهم إذا اختلفوا فى أمر ذهبوا إلى هبَل فضربوا عنده بالقِداح ليشير عليهم الصنم بما يجب أن يصنعوه . وكان يرى منهم قوماً عُرفوا بالحكمة وحسن الرأى ينظرون إلى هبَل وإلى من دونه من الأصنام التى يعبدها بنو وطنهم نظرة ريبة فى ربوبيتها وفى صحة عبادتها . وكان يسمع الخطباء من

هؤلاء الحكماء ينادون فى الأسواق التى تنعقد حول مكة إبان الحج بأن لله دينًا غير هذا الدين الذى عليه قومه ، ويرى قومًا من أهل الكتاب يعيبون العرب لوثنيتهم ويبشرون بالنصرانية يريدون بالعرب أن يهتدوا بهداها . وكان قومه يسمعون لما يسمع ، ويتناقلون أخبار الرهبان الذين يلقونهم أثناء رحلتهم إلى الشام فى تجارة الصيف ، فلا يثنيهم ذلك عن التعلق بما ألفوا من تجارة الحياة ، ولا يعدل بهم عن دينهم وعن عبادتهم أوثانَهم ، ولا ينصرف بتفكيرهم إلى شىء غير الدفاع عما لمكة من مكانة دينية قائمة يومئذ على الوثنية ، وعما تيسره هذه المكانة لها من مزيد فى الرخاء وسعة فى التجارة . أما هو فقد انصرف منذ عهده الأول عن عبادتها ، وتاقت نفسه إلى معرفة الحق ، فتعلق به ودأب على البحث عنه والتفكير فيه . وشغله هذا الدأب عن تجارة خديجة فلم يخرج فيها إلى الشام كما فعل قبل أن يتزوجها ؛ بل كفاه منها أن أغناه الله بها ؛ وانصرف يلتمس هذا الحق الذى شغلت نفسه بالبحث عنه والتفكير فيه يريد أن يراه واضحًا صريحًا لا لبس فيه ولا غموض .

اعتزل الناس وأمعن فى الانقطاع عنهم ، ووجد فى حراء خير مرصد روحى يمتحن به أسباب الحقيقة التى تتجلى أمام بصيرته فى أناة ودقة . فإذا جاء شهر رمضان من كل عام صعد إليه واستعان بالصوم والزهد فى متاع الدنيا على استجلاء الحقيقة فى كل ما تقع عليه عينه أو يتعلق به حسه ، وفيما يتوسمه من حياة وراء ما يقع عليه الحس أو تدركه العين . وكذلك ظل حتى أماطت له الحقيقة عن لثامها وتبدت أمامه فى كل صفائها وتجردها ؛ وصار يراها فى يقظته كأنها وضح الصبح . بهذا كله أدّبه ربه . فلما تم لنفسه صفاؤها ، أنزل الله عليه أول الوحى ، فارتاع له وخافه . ثم أمره أن ينذر الناس وأن يدعوهم إلى الحق الذى اهتدى إليه ، فصدع بأمر ربه ودعا الناس إلى الهدى .

تُرى هل يأخذ بالنفس فى الحياة شىء ما يأخذ بها هذا المرصد الرّوحى الذى تجلت الحقيقة فيه لمحمد كاملة واضحة صريحة ؟! لقد وقفتُ أمام جبال شتى أخذ بعضها بمجامع قلبى لجماله ، وبهرنى بعضها بعظمته ، وشدهت

لما احتوى عليه بعضها من عجائب الخلق والحياة . ولقد وقفت ذاهلا مأخوذاً أمام آثارشادها الإنسان تزرى بالزمن وتسخر من الدهر ؛ ووقفت معجباً أمام مراصد أقامها العلم لتزيد ما فى العالم وضوحاً أمام الحس . لكنى لم أشعر يوماً بما شعرت به خلال المرات التى وقفتها قبالة حراء أرسم من هذا المرصد الروحى صورة فى نفسى فلا يكاد يعدله شىء مما شهدت فى حياتى من عظمة الطبيعة وجلالها ، ومن فن الإنسان وبراعته ، مع يقينى ببساطته وبأن الصاعد إليه لن يرى فوقه إلا ما يرى فوق سائر الجبال .

ألحّت علىّ الرغبة فى ارتقاء هذا الجبل لأقف حيث كان يقف محمد ، وأشهد من مظاهر الخلق ما كان يشهد ، ولأرى الغار الذى كان يقضى فيه ليله والذى نزل عليه الروح الأمين بالوحى فيه . وأفضيت إلى أصدقائى برغبتى ؛ وأبدى جماعة من أهل مكة الرغبة فى مصاحبتى ، ليشهدوا معى ما لم يشهدوه من قبل على قربهم منه . وكان بعد صلاة العصر من يوم الجمعة موعدنا ؛ فأقلتنا السيارة ، حتى إذا كنا قبالة قصر الملك تياسرت بنا ثم انحرفت إلى مضارب جماعة من البدو لا يأبون أن يقدموا القهوة لمن شاء أن يتناولها . وقد جعلهم مقامهم بالحضر يتوقعون ما لا يتوقعه أبناء البادية من اقتضاء ما تنفحهم به مقابل تقديمهم إياها . ومقابل حراستهم السيارة أثناء مقامك بالجبل إذا صحبك سائقها .

ماذا أرى ؟ لقد كان حراء ينحدر وأنا أنظر إليه من بعيد فى استقامة مخروطية تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان ، وها هو ذا الآن وله سفح كسفوح الجبال ، وتبدو على السفح آثار طريق لسير الناس فيه . لكن قمته أكثر استقامة من سائر ما حولها من القمم . أتراها أشد عسراً فى الصعود إليها ؟ سألت عن ذلك فهوّن القوم علىّ الأمر ، وذكر من تسلقوا هذا الجبل من قبل أن الله يهيئ للصاعد فيه من أسباب اليسر ما لا يهيئه للصاعد فى غيره من الجبال . لكننا أتينا بعد الظهيرة ، وهذا السفح الذى يصعد الناس منه تطالعه أشعة شمس المغرب وينحسر الظلّ لذلك عنه . ولو أننا أتينا مصبحين لكان

صعودنا فى الظلال أكثر يسراً . على أن أصحابى ذكروا أن الإنسان يستدير فى صعوده إلى النوء حين يقترب من القمة ، وأنه يرى منها عند المغيب وقرابته كل ما حول حراء إلى أبعاد نائية مما يحجبه الضوء الباهر حين الظهيرة .

وسرنا إلى السفح وبدأنا نتسلقه . بدأنا فى نشاط رجونا ألا يفتر قبل الغاية . وما له يفتر والجبل أمامنا ليس بالغاً فى ارتفاعه ما يخاف الإنسان معه اللغوب ! وسرنا فى الطريق المألوف خلا شاباً منا آثر أن يختزل هذا الطريق وأن يتسلق الجبل فى استقامة تدنيه من غايته . وأنذره أصحابه أنه جاهدٌ نفسه بهذا الصعود العنيف فمُنقَطَعٌ به دون القمة . ولم يسمع شبابه لإنذارهم ، وانطلق انطلاقة السهم ، يسبقنا مصعداً ويقف بين آن وآن فوق صخرة من الصخور يصيح بنا صيحة الفائز المنتصر . وقطعنا فى تسلقنا دون ربع الساعة ، ثم بدأنا نشعر بالشقة ونقدر طول الطريق الذى حسبناه من قبل قصيراً . واعتذر لى أصحابى عن سوء حال هذا الطريق وألقوا التبعة فى ذلك على حكومة الوهابيين الذين هدموا قبة حراء فصرفوا الناس عن الصعود للتبرك بها فأهمل الطريق وساءت حاله . وزاد بنا الشعور بالمشقة ، فاتخذنا من فىء صخرة حمى نستريح إليه . وعاودنا سيرنا حتى عاودتنا المشقة فاسترحنا كرّة أخرى . وكلما أخذ منا الجهد ارتفعنا بأبصارنا نَحْزُرُ ما بقى من الطريق إلى القمة .

واستدرنا فى تصعيدنا إلى النوء ، وسرتْ إلينا نسمات منعشة أشعرتنا بنشاط كان وشيكاً أن يفتر . وجلسنا ننعم بهذا النسيم ونعد العدة للوثبة الأخيرة إلى القمة . ما كان أحوجنى إلى هذه الجلسة ! كانت أنفاسى تضطرب وصدرى يعلو ويهبط فيكاد يمزق أضلاعى ، والعرق يسيل من كل مسام جسمى ويبلل كل ملابسى ؛ وأمسكت لا أتفوه بكلمة ، وفتحت خياشيمى أستنشق النسيم بكل قوة ألتمس هدءاً لصدرى واستعادة لسكينة نفسى . وقال أحد أصحابنا من أهل مكة وقد طاب له المكان الظليل : إنى ناظركم هنا حتى تعودوا من القمة ؛ فلم يعد فى مستطاعى أن أصعد . ولعله أراد أن يمتحن صبرى ويبلو احتمالى . وكيف لى أن أقف دون غاية قصدت إليها ما بلغ الجهد منى ، ولست

أدرى متى يتيسر لى أن أعود إلى مكة . ولهذا الجبل وللغار من السحر فى قلبى والسلطان على مشاعرى ما يهون معه كلّ جهد وتطيب به كل مشقة ! ولم تك إلا دقائق حتى رأيتنى أكثر نشاطًا وقد اطمأن صدرى ، وعادت إلى نظامها أنفاسى ، وسرَت إلى فؤادى مع النسيم بهجة لم أشعر من قبل بمثلها . وخلّفنا صاحبنا وقمت ومعى رجلان يحمل أحدهما الماء المثلوج ويحمل الآخر الشاى الساخن فى « تر مُسْ » كانا لمثل هذه الرحلات خير عون .

وانطلقنا مصعدين نتيامن ونتياسر مع الطريق خلال شعاب الجبل ، وقد جدّدت الراحة نشاطنا ، وزاد فيه الظل والنسيم ، وقواه اقتراب الغاية والثقة بالنجاح فى إدراكها . وتلفّتّ بعد فينة ، فإذا ورائى عبد أسود ناداه أحد الرجلين اللذين معى : يا فتى ! وحسبت أنه يعرفه ، ثم علمت أن العبد من التكارنة الذين يقيمون ألوفًا بمكة ، وأن هذا اللقب يطلق على كل فرد منهم ، وأنهم يلتمسون مثل هذه الفرصة لمعاونة صاعد متعب لعلهم ينالون منه بُلْغة يومهم . ولم أكن فى حاجة بعد ما نلت من الراحة إلى معونته ؛ ولكننى اطمأننت إليه وأنست بوجوده إلى قدرتى على تحقيق غايتى ، وازدادت قدماى قوة فى الصعود والتسلق . وزادنى أنسًا إليه أنه لزم الصمت ولم يشارك من معى فى الحديث ، فدل بذلك على أنه لا يبتغى غير بذل العون لمن يحتاج إلى عونه .

ودعانى صاحباى إلى الجلوس كيما أستريح . وإنى لأحاورهما مترددًا إذ سرى على النسيم إلى سمعنا صوت ذلك الشاب الذى اختزل الطريق إلى القمة يُهيب بنا أن هلمّوا . ورفعت بصرى كيما أراه فإذا بالجو ينكشف ، وإذا ما حولى أكثر ضياء ، وإذا الشاب قد تسنم مكانًا زعم أنه الغاية التى جعلناها مقصدنا . وأزال ما رأيت ترددى ، فلم أجلس ولم أعبأ بما عاودنى من البُهر [1] ، وتابعت تسلقى وأنا أستدير حول صخرة حينًا وأقف مكدودًا بين صخرتين هنيهة . وطالعتنا الشمس كرة أخرى ؛ لكن أشعتها تسربت إلينا من ناحية القمة فكانت بشير الفوز ، وزادت عزمنا مضيًّا ، وحِرصنا على بلوغ الغاية

---

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء .

قوة . والشاب ما يفتأ يهيب بنا ويثير حميتنا ، ونحن نتسلق ثم نقف ، ونقف ثم نتسلق ، حتى انفرجت الشعاب والصخور أمامنا عن سطح مستو اندفعنا إليه مطمئنين إلى أنا إذ بلغناه قد صرنا من القمة والغار على بضعة أمتار .

وليس استواء هذا السطح من عمل الطبيعة ، وهو لم يكن مستوياً أيام كان محمد يصعد حراء للتحنث فوقه ؛ إنما سواه الناس حين كان الألوف من الحجيج يصعدون يبتغون القبة المشيدة على القمة للتبرك بها . سووه ونقروا فيه صهريجاً يختزن مياه المطر ، وأقاموا عنده مقهى يستريح الناس إليه ويتناولون طعامهم فيه إذ يصعدون لزيارة القبة . فلما هدمها الوهابيون وانقطع الناس عن الصعود أقفر المكان من المقهى ولم يبق من يعنى بأمر الصهريج وما يجىء من الماء إليه . لكن السطح بقى مستوياً كما كان ، وبقى الذين يصعدون ابتغاء الغار يقفون عنده ، يستريحون إلى فيئه ويستجمون مما أرهقهم من الصعاب مستندين إلى جدرانه ؛ وكذلك فعلنا . فلما اطمأنت أنفاسنا إلى صدورنا درنا فى المكان نرى الصهريج وبضع الدرجات التى ينزل الإنسان بها إليه ، ونرى استواء الجدران حيث كان المقهى ، ونلقى فى هذا المكان الموحش ، بعد أن خلا من كل مؤنس آثار أولئك الألوف الذين كانوا يتسلقون إليه ويجلسون فى مقهاه منشرحة صدورهم لأنهم يؤدون واجباً مقدساً ، منفرجة شفاههم عن آى الغبطة يرجون رحمة الله ورضا رسوله عما قدموا بين يدى نجواهم من صدقات حين جاءوا بيته ملتمسين مغفرته وعفوه .

وارتقينا من هذا السطح عشرين متراً أو نحوها ؛ وبلغنا القمة التى كانت تقوم القبة عليها . وهنالك انكشف لنا الوجود المحيط بنا كله . فهذه القمة أعلى حراء ، وهى ضيقة لا يزيد مربعها على الثلاثين أو الأربعين متراً ؛ وهى مكشوفة لا يحيط بها صخر ولا يحجب الناظر منها إلى ما حولها حجاب . وتبدو سلاسل الجبال المحيطة بحراء من جهاته الأربع كأنها كلها دون هذه القمة ارتفاعاً ، وهى لذلك تتكشف للناظر من القمة عن سفوحها وعن شعابها وعن كل ما عليها وكل ما فيها . وأظلت قبة السماء هذه القمة ، فما يغيب عن النظر مما فيها سحابة

أو شامة وإن دق حجمها . وهذا موقع فريد قلّ في غير حراء من الجبال نظيره . فأنت إذ تقف ينكشف لك كل ما حولك ، وتبدو لك عظمة الكون فى كل جلالها ، وتشعر وأنت تشهد من موقفك السماء والجبال . وتشهد مكة ومسجدها الحرام وبيتها العتيق ، وتشهد ما وراء ذلك مما لا نهاية له — تشعر أنك تشهد آية الله تجلّى كمالها فى الكون وفى خلقه ، وتشهد سنة الله فى هذا الكون ، سنة لن تجد لها تبديلا وإن تعاقبت الدهور وخلفت القرون القرون . فإذا طال بك موقفك وطال تأملك فيما حولك تجسمت فى نفسك هذه الآية واستولت على كل حسك وشعورك ، ففنِيت فيها وغاب حسك بنفسك وكنت فى تيهاء لا تدرى بعدها ما حظك وما نصيبك .

كان ذلك شعورى حين وقفت فوق القمة أحدق من عليائها فيما حولى . ولقد استعنت بمنظار مكبر أعددته لأستعين به على مثل هذا المشهد . وما عسى أن ينفع المنظار وأنت لا ترى مما يقرّبه لك من الأبعاد إلا مزيداً فى عظم الخلق وجلاله ! هذا الخلق الهائل من الجبال المتعاقبة لا ترى خلالها من مظاهر الحياة إلا حياتها هى ، حياة صخور عابسة وكلأ لا يكسر من حدة هذا العبوس ولا يزيد الناظر إليها إلا مهابة ورهبة ؛ وهذا البيت العتيق قائم فى أم القرى يحدّث عن حياة العالم الروحية منذ أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل ؛ وهذه الجماعات من الناس والقوافل من الإبل لا يكاد المنظار يبين عنها لصغر حجمها ودقة شأنها ، وهى حول البيت أو بين الجبال تتيه على الجبال وتطوف بالبيت ، ناسية أنها قليلة البقاء إلى جانب البيت والجبال ، وأنها تتعاقب أجيالها والبيت قائم ، وللبيت ربّ يحميه ، والجبال مطمئنة تزرى بالقرون والأجيال .

وسبقنى أصحابى إلى الغار وبقيت فوق القمة وحيداً أجيل الطرف فيما حولى فأزداد لخلق الله إكباراً وبالله إيماناً . وما عساى أستطيع أن أرى من خلق الله فى هذه السويعة ، وتقلب الوقت وتنقل الشمس وانتشار الليل ، كل ذلك يجلو أمام البصر والبصيرة فى كل لحظة جديداً . والبصر والبصيرة يريان الأشياء فى

ألوان تختلف باختلاف سكينة النفس واضطرابها ، وهدوء العصب وهياجه ، وبحالنا من الصحة والمرض ، والرضا والغضب ، والراحة والنصب . ودع عنك ما تحجب الجدران بيننا ، نحن سكان المدن ، وبين الأبعاد الشاسعة . وكيف تُرانا نبلغ أن نرى ما يزعم قوم من أهل مكة أن أقوياء البصر يرونه من هذا المكان الذى أقوم فوقه ! فهم يذكرون أنهم يرون منه ساحل البحر الأحمر ساعات مغيب الشمس .

وعاد إلىّ بعض أصحابى فانحدرنا إلى الغار الذى كان ملجأ رسول الله والذى نزل عليه الوحى الأول فيه . وبين الغار والقمة عشرون متراً أو نحوها ، وهى مقدار ما بين السطح الأول والقمة . والوصول إليه يقتضى المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان ، فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة وإن كان نحيفاً . فإذا تخطاهما وجد الغار فى داخل الجبل محجوباً عن كل ما حوله بالصخور الضخمة وهو أشد من كل ما فى الجبل وحدة وعزلة ، ووجده لا يتسع لأكثر من شخص واحد ينام فيه نوماً خشناً جافياً كل الجفاء . دخل الشاب الذى معنا إليه وتمطى فيه ، فلم يطق المقام به غير لحظة ارتد بعدها إلينا ووقف معنا يشهد وإيانا فى هذا الوسط الموحش ذلك الوكْر المخوف ، يفزع منه من يجهل أن الحياة لا يملكها إلا من سمّا فوق الخوف من كل ما فى الحياة .

وهو مخوف حقاً . ولولا ما تنطوى نفوسنا عليه من تقديس إياه لما طاوعتنا إلى البقاء أمامه ، ولفررنا مشفقين مما فيه . وأنّى لنا أن نعرف ما فيه والصخور الضخمة حوله لا تدع مسرباً للنور إلى أبعد من فوهته ، فأما ما وراء الفوهة فظلام لا تهتك العين حجابه . والجبل بشعابه من وراء الصخور أجرد داكن اللون فى حمرة قاتمة يزيد المخاوف ولا يهوّن منها .

وعدنا أدراجنا نقصد القمة وقد امتلأت النفس مهابة ورهبة . ووقفت فى منتصف الطريق أستنشق هواء هذه الساعة رق حين دنا المغيب فأسعد النفس وزادها غبطة بما حولها من جلال وهيبة . وحدثتنى نفسى : هنا كان الرسول يقضى شهر رمضان من كل عام . عدة أعوام تباعاً ، قبل أن يبعثه الله نبياً .

فى هذه البقعة المنعزلة الموحشة كان يقيم وحيداً يؤنسه تفكيره وتأمله ، يقلب فى صحف نفسه هذه الحقيقة السامية التى كان الله يهيئه لها ليبعثه إلى الناس بها . لم يكن فى عزلته وفى وحدته وفى انقطاعه يخاف الجبل ولا الغار وما قد يكون فيهما من وحش أو هوام . أية قوة روحية يهبها الله لمن يتخذ هذا المكان القفر له موئلا ! إنها قوة فوق ما أوتى الناس جميعاً وفوق ما فى العالم كله . لا يؤتاها إلا الذين اختارهم الله لرسالته ورضى عنهم ورضوا عنه .

وبلغت القمة ، وتناولت قدحاً من الشاى ، وجلست مستنداً إلى بقية جدار لعله أثر من بناء القبة التى هدمها الوهابيون ليحولوا بين الناس وبين التبرك بها ، لما يرونه فى هذا التبرك من معنى تقديسها . وأقام أصحابى معى هنيهة ثم تركونى وذهب كل فى ناحية من شعاب الجبل يستطلع ما قد يحتويه جبل النور من آثار لا يحتويها غيره من الجبال . وتركت لخيالى العنان وأنا فى عزلتى هذه ؛ فتمثل لى الرسول الكريم جالساً حيث أجلس ، مشتملا فى نظره هذا الكون العظيم المحيط بى متأملا ، مفكراً فيما يرى وفى دلالته . ترى ما بال أهل مكة لا يجىء أمنهم من يتعبد فى حراء طول شهر رمضان كما كان النبى يفعل قبل بعثه ؟ أليس لنا معشر المسلمين فى رسول الله أسوة حسنة ! وهل لمكان أن يعين المعتزل على التفكير وعلى التأمل ما يعينه هذا المكان من حراء ! فهو بعيد عن ضجة الحياة وضوضائها ، قريب من الحياة ومن كل ما فيها . فيه يعكف الإنسان على نفسه ما شاء ، ويتصل بالكون وبخلق الله ما أراد . ليست هذه القمة صومعة تحجبنا عن الحياة وتحجب الحياة عنا ، ولسنا فوقها رهن محبس تحيط به الجدران ، أو كهف غائر فى الصخور ؛ إنما هى مرصد يطالع الحياة وتطالعه ، تبزغ الشمس عليها ساعة تشرق وتنحدر عنها ساعة تغيب ؛ وتتألق النجوم ويحبو البدر فى السماء ، وتهوى الشهب وتنتطح السحب ، وهى شهيدة على هذه الأحداث كلها . فأين يجد المعتزل مثل هذا المرصد يرى منه ما يشاء من غذاء الروح وأسباب التفكير والتأمل !

فإذا هو أقام من كل سنة شهراً كاملا صائماً منقطعاً عن تجارة الحياة إلى

التفكير فيما يرى آناء الليل وأطراف النهار ، وإلى التأمل فى مشاهد هذا الكون المترامى الأرجاء إلى حيث يقصر النظر ، وإن بلغ من القوة والدقة نظر زرقاء اليمامة ، وإلى حيث تسلم المحسوسات لقوة الإنسان العاقلة أسرارها ، فليس من ريب فى أن يصل من معرفة هذه الأسرار إلى نتائج باهرة . إنه لن يكون نبياً ولن يبعثه الله رسولا ، فمحمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ لكنه يصل من طريق العلم بالمشاهدة والملاحظة والترتيب والاستنباط إلى خير ما يصل إليه مشاهد من مرصد يسجل حركات الأفلاك وموج ما فى السماء ، وإلى خير ما يصل إليه من يسجل نتائج اتصال الإنسان بالكون فى أسمى مراتب الاتصال . وهو إلى ذلك وما يزاوله من ألوان الصوم وكبْت هوى النفس وشهوات الجسد يصل بالروح إلى درجات الطهر والتنزه والسلطان على المادة وعالمهما دون أن يكون للمادة أى سلطان عليها .

ما للمسلمين من أهل مكة ، وما للمسلمين ممن يقصدون إلى مكة للحج أو لعمرة رجب ، لا تميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة العقلية والروحية ولها فى تهذيب النفس أكبر الأثر ، ولها من النتائج فى العلم ما أشرنا إلى شىء منه ! وأى تهذيب للنفس كاتصال الإنسان بالكون فى مثل هذا المنقطع الرفيع فوق حِراء اتصالا يسمو به المرء فوق حاجات الحياة ، ويرى أثناءه فى شظف العيش وفى الغنى بالنفس عن كل شىء ما يزيده إيمانًا بالله وحده ، وبأنه دون سواه تجب له العبادة ، باسمه يسبح من فى الأرض جميعًا ومن فى السماوات ! وهل شىء غير مشاهد الكون تقوم عليه النتائج العلمية ! إنما تقوم هذه النتائج على ما فى السماء والأرض ، فى الضحى ، والليل إذا سجا ، والنجم إذا هوى ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والجبال وما أرساها ، والهواء فى مسراه ، والماء فى مجراه ، والحب إذا نبت ، والصخر إذا تفتت ، والضوء إذا تحلل ، والمطر إذا ترقرق ، والريح إذا اصطفقت ، والنفس إذا سكنت لأمر ربها وفكرت . أى شىء غير هذا هو العلم فى أحدث صورة أثمرتها حرية الفكر ؟! وهل طريقة علمية أدق من هذه الطريقة لمعرفة سنن الكون

وما ينطوى عليه !

إنما يرغب المسلمون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفوا عن أمر الروح الذى يكيّف المادة وأذعنوا لسلطان المادة يكيفها غيرهم بقوة عقله وروحه ، ولأنهم آثروا راحة التقليد على عناء الاجتهاد ، ولأنهم نسوا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويجب عليه لذلك أن يهب من نفسه لإخوته المؤمنين ؛ فتولت عليهم الأثَرة ، وصار ما يرضى الأثرة من ابتغاء المال والجاه وما إليهما كل شيء عندهم . وأنى لمن هوى إلى هذا الدرك أن يفكر فى الحقيقة ينقطع لها ويجعل العلم سبيله إلى إدراكها ، وأن يحمل نفسه على نشر نورها يستضيء به الناس جميعاً . وهو لا يريد العلم إلا لنفسه ، ولا الحقيقة إلا لنفسه ، ولا الحياة إلا لنفسه ، ولا المال إلا لنفسه ، ولا السلطان إلا لنفسه ! وأنَّى لمن هوى إلى هذا الحضيض أن يدرك ما فى بذل النفس لهدى الغير من سمو يتضاءل أمامه الجاه والمال والسلطان ، ويصبح الفقر معه فخراً ، وتصبح الفضيلة معه لباس المتقين ! والناس متى هَوَوْا فى هذا المنحدر فاتهم معنى العبادة على وجهها الحق ، ففاتهم أن العمل عبادة ، وأن العلم عبادة ، وأن هداية الناس عبادة ، وأن البذل للمحتاج من مال أو علم أو شفقة وبر عبادة وأن الله يقبل عبادة من يؤثر على نفسه راضياً عنه . فأما الأثِر الذى لا يعرف إلا نفسه فهو فى حاجة إلى أن يطهر نفسه قبل أن يطمع فى مغفرة الله له . وفوت هذا المعنى قد جعل الناس يحسبون أن خير العبادة ما كان فى هياكل فخمة العمارة ذات محاريب وأبراج تأخذ روعتها بالنظر ، وينسون أن خير العبادة ما توجه الإنسان فيه بكل قلبه إلى الله ، ناسياً نفسه ، محبّاً فى الله إخوانه ، مستعيناً ربه ، كانت عبادته فى هيكل مشيد ، أو كانت فى فضاء الله وبين خلقه الذى لم تعد عليه يد الإنسان .

والمسلمون يرغبون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم لا يطيقونها . فالوحدة للتفكير ابتغاء الحقيقة إنما يطيقها ذوو الأرواح القوية . هؤلاء يتلمسونها تلمساً ويتخذونها ملجأ من ضعف الجماعة وأفَنِها . يرى أحدهم

ما تخشُّ الجماعة فيه وما تضعُ من ضلال يبعدها عن الطريق السوى ، طريق الحق والخير والجمال ، فيزوَرُّ عنها ، ولا يجد فى غير العزلة موئله ، وفى غير التفكير أثناء هذه العزلة وسيلة خيرها وصلاحها . ومنهم من يذر بيئته إلى بيئة أخرى ليست منه وليس منها فلا سلطان لها عليه ، وقد يفيد من الاتصال بها ؛ وهو أثناء مُقامه بها فى عزلة عما ألف ، تفتح له الحرية من أبوابها ما كان مقفلا فى جماعته . ومنهم من لا يرى فى الجماعة الإنسانية مظهر الحق ، ويراه فى أطواء النفس ودخيلة القلب ؛ فهو ينقطع عن الناس وينظر فى الكون كله ويعود بنظره إلى صورة هذا الكون مرتسمة فى أعماق وجوده ترشده إلى الحق وتضىء أمامه بنوره . فأما الأولون الذين يتلمسون الحق عند الناس من غير ذويهم فهم أقوياء ، لكنهم عاجزون عن مواجهة الوجود فهم يريدون الحق عند جماعة يحسبونها أرقى من جماعتهم ، ويريدون أن يحملوا جماعتهم على تقليد من يحسبونهم أدنى إلى الكمال وأبعد عن الضلالة . وأما الذين يرجعون إلى أنفسهم يتلمسون الحقيقة فى أعماقها فأولئك هم الأقوياء حقًّا ، وهم الذين يقدرون النفس الإنسانية قدرها الصحيح ، والذين يتوجهون إلى القوة العليا التى برأتهم وكان الروح من أمرها يرون فيها الحق لاحق إلا هو ، ويتأملون فى خلق الله سنة الله فيه ؛ فإذا اهتدوا اهتدت الإنسانية بهداهم وسعدت برأيهم .

ليس يطمع أحد فى أن يؤتيه الله من هذه القوة ما أوتى محمد صلى الله عليه وسلم . وقد حاول أفراد فى مختلف الأمم أن ينقطعوا عن العالم ، فإذا هم قد انقطعوا عنه إلى غير أوبة إليه . فمنهم من ضل عنه عقله ولم يثب إليه رشاده ، ومنهم من هجر العالم فراراً من آلامه . ومنهم من أخذ عن الجماعة الإنسانية ببدائع الطبيعة . ومنهم من فنى فى الخالق جل وعلا وهام به ونسى أن هدى الناس خير ما يُرضى الخالق . وقليلون منهم عادوا إلى الإنسانية بحقائق أضاءت سبلهم فساروا على هداها ؛ وهؤلاء هم الذين اتبعوا سنّة الرسول . لكن الله لم يؤت أحداً ما آتى عبده ونبيه ورسوله ؛ فلم ينطبع العالم فى نفس بالقوة التى انطبع بها فى نفس محمد ، ولم تصل الرياضة الروحية بأحد ، ولن تصل بأحد ،

إلى الرؤيا الصادقة التى انتهى إليها قبيل بعثه وبعد أن قضى السنين يتعبد شهراً كل عام فى حراء . ولقد ظل محمد طوال حياته مشغوفاً بالوحدة تطمئن إليها نفسه القوية ويستمد أثناءها من ربه نور الهدى حتى تنزلت عليه كلمة الله وحياً ونوراً .

ومن هذه القمة التى كان الرسول يتعبد فوقها متخذاً إياها المرصد الروحى لتلمس الحق فى الحياة ، يرى الإنسان منظراً يدله على أن المسلمين لم يكفهم أن لم يطيقوا أسوته عليه السلام بل نسوها ، وتعلقوا بالعرض دون الجوهر ، وبالقشور دون اللب . لست أقصد إلى أنهم أقاموا قبة يتبركون بها حيث كان الرسول يتعبد وظلوا على ذلك حتى هدم الوهابيون هذه القبة ، فلا عجب أن يقام فى هذا المكان الخالد الذكر بالحادث الذى خصه القدر به تذكار ينبه الغافل إليه ، فأما البركة الحقة ففى العبادة وفى التقوى ؛ بل أقصد أن تفكيرهم هوى إلى أسفل من هذا الدرك بمراحل . ومن ذلك أن ثمة شقاً فى قمة حراء يجرى حوله جدل أشار إليه صاحب « مرآة الحرمين » ورده على أنه غير صحيح . وهو جدل ، لا غناء فيه ، عن هذا الشق وأصله ، ومداره : هل شق الملكان صدر النبى فى هذا المكان وطهراه وأسالا ماء الطهور من هذا الصدع فى الجبل . ما أكبر الفرق بين هذا التفكير ممن يقف على قمة حراء وتفكير الرسول حين تعبد فوقها قبل بعثه ! لقد كان يتلمس الحقيقة وكان يراها فى خلق الله مما حوله وكان يجاهد لاختراق حجب الحياة إليها حتى أسلمها الله إليه بالوحى كاملة . كانت حقيقة العالم وخلقه وخالقه هى التى تشغل روحه ، وهى التى تصرفه عن تجارة الحياة وطعامها وشرابها وتنسيه كل شىء فيها . لم يكن يعنيه أن يزداد ارتفاع جبل على جبل ، أو أن يكون فى شعب من شعاب الجبل شق أو نتوء لا شبيه له فى الشعب الآخر ؛ بل كان متعلقاً بما هو أسمى من هذا وأرفع مكاناً : كان يبحث عن الكون وعن الزمان والمكان فيه ، وعن منشئ ذلك كله . أما اليوم فينصرف أكثر المسلمين عن هذا السمو الفكرى ويتعلقون بروايات تصح أو لا تصح ويجعلونها علة

لخلافهم ونضالهم ولإقامة الفرق والشيع المتناحرة بينهم ، بل لرمى بعضهم بعضاً بالمروق والكفر .

كانت الشمس تنحدر إلى ناحية المغيب ، فيجلو انحدارها قطوب الجبال ويكسو السفوح الظليلة سلاماً وسكينة . وكان أصحابى يدورون فى شعاب الجبل ويعود أحدهم الفيْنة بعد الفينة فيرانى منصرفاً عنه إلى ما حولى لا أوجه إليه كلمة فيرتد إلى إخوانه . فلما طال بهم الأمدُ ورأوا المغيب زاحفاً علينا ، نبهنى أحدهم فاستمهلته رويداً وهبطت وإياه إلى الغار ، غار حراء ، ورجوته أن يدعنى هنيهة إلى نفسى . ووقفت بين هذه الصخور الضخمة قبالة الجحر الموحش فى الجبل القفر وقد تسللت إليه الظلمة فزادته وحشة وقفراً . ووقفت وحيداً مفكراً أتخطى بذهنى القرون إلى الماضى وقد امتلأت نفسى بصورة ذلك اليوم الفذ فى التاريخ ، يوم نزول الوحى الأول ؛ ونسيت كل ما حولى ، وخيل إلىّ أننى أرى ، نعم ! رأيت محمداً متمطياً فى الغار الموحش وعلى محيّاه الجميل سيما الرضا وكأنما يتقلب من هذا الصخر فى فراش وثير . وإنى لأحدّق فى قسمات وجهه وقلبى كله الرضا والحب ، إذ رأيت هذا الوجه أضاءه نور لألاء زاده جمالا ، ورأيت ابتسامة مطمئنة ترتسم على ثغر تنم شفتاه الرقيقتان عن معانى التأمل وعظيم الأمل . وأخذت بما رأيت ، وازددت بصاحب الوجه المنير شغفاً ، وفى قسماته الحلوة تحديقاً . وفيما أحدق شعرت أن الجبل كله يهتز ، وبهرنى من الغار نور لم تطق عيناى ساطع ضيائه . سمعت صوتاً ملائكياً يهيب بالمتمطى فى الغار : « اقرأ » . ويجيب محمد فى صوت مرتعش ونبرات تهتز من الخوف : « ما أقرأ » . والنور الساطع والبَهْر[1] يتولانى من كل مكان وأحس الفزع يجرى فى عروقى ، وأحاول الفرار فتخوننى قواى ، وأسمع الصوت الملائكى مرّة أخرى يهيب بمحمد : « اقرأ » ، ومحمد ملؤه الخوف والوجل يجيب بصوت من أرْسل بعد اختناق : « ما أقرأ » . ويكرر الصوت الملائكى : « اقرأ » . ويشعر محمد أنه لم يبق فى ملك نفسه وأنه لا مفرّ له من أن يقرأ أو يظلّ صاحب الصوت يخنقه ويرسله ، فيجيب : « ماذا أقرأ ؟ ! »

(١) البهر (بالفتح) : العجب .

ويتلو الصوت الملائكى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ويتلو محمد هذه الآيات من بعده .

خيِّل إلىّ وأنا فى موقفى من الغار أنى أرى هذا المشهد الفذّ فى التاريخ ، وأنى أسمع هذه الأصوات لم أسمع قط مثلها . وصفَّدنى الفزع مكانى وأقمت أنتظر ما يكون من بعد ، فإذا النور الباهر يرتفع ، ومحمد فى الغار يتصبب عرقًا ويدور بنظراته فيما حوله ويهتز مضطربًا من رأسه إلى أخمصه ثم يفرك عينيه ويمسح بيده جبينه العريض المضىء سمة من يخشى مكروهًا أصابه . ويزداد به الرُّعب فينطلق من الغار هائمًا فى شعاب الجبل لعل فى هوائه ما يدفع عنه روعه . ها هو ذا يقف منصتًا كأنما يناديه مناد من السماء . إنه الصوت الملائكى الذى كان يحدثه فى الغار . وهو يحدق فى مصدر الصوت ، ويرى صاحبه فيزداد فزعًا ويقفه الرعب مكانه وهو يلقى بنظره إلى الجبل ويصرف وجهه يَمْنةً ويسرة ثم لا ينفك يسمع ويرى . ليست حواسُّه إذن مصدر سمعه ورؤيته ؛ إنما مصدرهما روحه . وهو مع ذلك يراه لأنه تجلى بإذن الله له ولم يتجل لغيره . وهو من بعدُ فى فزع يتقدم فى شعاب الجبل ويتأخر ولا يبرح يسمع الصوت الملائكى ويرى صاحبه . ما أشد هذه الساعة هولا ، وهى مع ذلك للإنسانية ساعة النور والرحمة والهدى !

رآنى أصحابى واقفًا فى شعاب حِراء على مقربة من فوهة الغار ؛ فأقبل علىّ أحدهم يسألنى أن نهبط الجبل قبل أن تدهمنا الظلمة وقد آذنت الشمس بالمغيب . وأفقت لسماع صوته مما كنت فيه ، وطلبت إليهم أن يأتونى بشربة ماء . وتناولت القدح وشربت من ماء « الجِعْرانه » المثلوج فأعادنى شربه إلى الحياة المحيطة بى . وتهيأت للهبوط فجمعت قوّتى ، وبدأنا جميعًا ننحدر فى الطريق المتعرج و (التكرونى) يتبعنا دون أن ينبس ببنت شفة . ولقينا رجل من الهنود وامرأته يصعدان ، فسألانا فى لكنة أعجمية عما بقى إلى القمة . وجعلنا نتلوى يمنة ويسرة منحدرين دون أن تكون بنا حاجة إلى الوقوف لنستريح ؛ فى نسيم هذه

الساعة التى تتلو المغيب ما ينعش ويريح .

وألفيت صاحبى المكىّ الذى وقف دون القمة قد سبقنا إلى أسفل الجبل . فلما رآنى سألنى عن حالى واعتذر عن تخلفه فى الطريق بجرح أصاب به الصخر قدمه . وأقلّتنا السيارة إلى المأوى وصلاة العشاء تكاد تؤذن . وشعرت وأنا أصعد الدرج إلى مخدعى أن بفخذى وساقىّ ألمًا ، وأفضيت إلى مضيفى بما أشعر ، فسألنى : ما عسى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ؟ قلت ألِف الجبال وتصْعادها وأحب خشونة العيش وشظفه ، فما يشق اليوم علينا كان رياضة له ، وما يعجزنا اليوم كان فى متناول يده ؛ حياتنا متاع غرورنا ، وحياته متاع روحه ورضا ربه . والرجل لا يمتع غروره فى ناحية إلا على حساب الأخرى ، يمتع غروره بقوة عضله على حساب عقله أو على حساب روحه ، ويمتع غروره بكثرة ماله على حساب خلقه أو حساب كرامته . أما متاع الروح بما يرضى الله فلاضعف فيه ، وهو القوة على كل شىء . ومتاع الروح الرياضة : رياضة الجسم بالسعى فى مناكب الأرض ، ورياضة العقل بتدبر ما فى الكون ، ورياضة القلب بالحب والإخاء . وذلك بعض ما رأيت وأنا فوق حراء ، وبعض ما شعرتُ به وأنا أنحدر عنه .

وبكرت إلى مضجعى حتى أهبّنى مؤذِّن الفجر عنه . وجلست بعد الصلاة أفكر فى حراء ، وفى الغار ، وفى الملَك ، وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى يوم الوحى الأول . جلست أفكر والخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود من الفجر . وذكرت رسول الله بعد يوم الغار ، وتمثلت لى رسالته تتبين من خلال الظلمات المحيطة بها ، ظلمات الكفر والوثنية والشرك ، كما يتبين هذا الخيط الأبيض من ظلمات الليل البهيم . وجعل الضياء ينتشر حولى شيئًا فشيئًا كما انتشر الإسلام فأضاء الأرجاء بنوره . إذ ذاك توجهت إلى الله بكل قلبى ودعوته : اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير .

ربنا منك السلام وإليك السلام فحيِّنا ربنا بالسلام .

وقمت عن مصلاّى ممتلئ النفس من مشهد الجبل والغار فوقه ، ومن مشهد يوم الوحى الأول حين أراد الله للناس الهدى فبعث به عبده ورسوله محمد بشيراً ونذيراً . وإننى اليوم لأذكر هذا المشهد ممتلئ النفس من جماله وجلاله وهيبته ، عامر القلب إيماناً بهذا النور الذى أضاء العالم بالحق علّمه الله الناس بالقلم ولم يكونوا يعلمون .

ربنا جل ثناؤك ، وتعالت أسماؤك ، لا إله إلا أنت ، بيدك الخير ، ومنك الهدى ، وإليك المرجع والمآب .

فى غار ثور

أما وقد آن لنا أن نغادر مكة إلى المدينة فهلم بنا إلى غار ثور . وأومأ الإخوان الذين صحبونى فى صعود حراء وفى جولاتى بالبلد الأمين وما حوله أنهم سيكونون فى صحبتى . وقال اثنان منهم : وسنصحبك إلى المدينة ؛ فشكرتهما . ثم حددنا موعد الذهاب إلى ثور والصعود إلى غاره فى الغداة . أو ليس الرسول عليه السلام قد احتمى به من كيد عدوه حين أزمع الهجرة إلى المدينة ! فلنذهب إليه ولنشهد أثر الرسول فيه ولنَحْتَمِ بأفياء الصخور وظل الغار وإن لم يطاردنا عدو ولم يأتمر بنا ليقتلنا أحد . قال رجل من أفاضل المكيِّين لم يكن صحبنا من قبل : وأنا زميلكم فى رحلتكم هذه إلى ملجأ رسول الله فى هجرته ، وإن لم يكن بى إلى زيارة المدينة هذا العام عزم . وسألته فذكر أنه لم يصعد ثوراً ولم ير الغار من قبلُ ؛ ثم ابتسم وقال : إن مئات من الهنود والجاويين والصينيين وغيرهم ليتسلقون ثوراً ويصلون الغار فى كل عام ، أما نحن أهل مكة فتصرفنا الحياة وشغلها عن الصعود إليه . ولم أجد فى ذلك عجباً ، فالسائحون الغربيون الذين يجيئون إلى مصر أشد حرصاً من أهل مصر على مشاهدة آثار الفراعنة والرومان ومساجد العرب والمسلمين . والشرقيون الذين يزورون أوربا يرون من آثارها ومتاحفها أضعاف ما يراه أهلها . ذلك بأن المقيمين على مقربة من هذه الآثار والمتاحف لا يستعجلون زيارتها طمأنينة منهم إلى أنهم سيقومون بهذه الزيارة يوماً ما ؛ فأما الذين جاءوا من بلاد قاصية فلا يعرفون هل قدر لهم أن يعودوا ؛ ولذلك يحرصون على أن يروا كل ما يستطيعون رؤيته . وهؤلاء المسافرون قد جاءوا وفى برنامج رحلتهم أن يروا هذه الأماكن ؛ فأما المقيمون حولها فلديهم من مشاغل الحياة اليومية ما يحملهم على إرجاء زيارتها ، وكثيراً ما يطول هذا الإرجاء فلا تتم الزيارة أبداً .

ورحبت بصحبة صديقنا المكى لنا وقلت مبتسماً : لطالما يتحدث أهل مكة

عن آثار الرسول فيها ، فلعلك تفيدنا فى هذه الرحلة بمعلوماتك عنها — ولم ير الرجل فى حديثى هذا محلا لدعابة بل قال : نعم ! فإن ما لدىّ من العلم بآثار مكة كثير وقفت عليه فى بطون الكتب ومتون التاريخ ، ووفِّقت غاية التوفيق فى بحثه وتمحيصه . وهل قصة يشوق الإنسان بحثها ما تشوقه قصة الهجرة . ؟ هذه القصة التى لم يرو التاريخ قط مثلها من أنباء المغامرة فى سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة ! وجبل ثور وغاره يتصلان بهذه القصة أبلغ اتصال . وجدير بكل ما اتصل بها أن يخلد على التاريخ . وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد أصبحت الهجرة مبدأ تاريخ لذاتها ، فإنها فصلت على الزمان بين عهد الوثنية والشرك بالله وعهد التوحيد القائم على أسمى الأسس الروحية والعقلية والخلقية .

كان الرجل يلقى هذا الحديث وبيانه يتدفق حماسة وإيمانًا مع أنه لم ير ثوراً ولا صعد إلى الغار فيه ؛ إنما دفع إلى قلبه هذه الحماسة وأفاض على لسانه هذا البيان إيمانه بالله ورسوله . ثم إن أهل مكة قد ألفوا الحديث عن آثار بلدهم المقدس بلهجة تزيد المسلم حبًّا لهذه الآثار وحرصًا على رؤيتها ، وإن لم يكن المتحدث من أهل مكة قد رأى أثراً منها ، وإن أفضى إليك إذا خلوت إليه بأن التاريخ لا يثبت من هذه الآثار إلا الكعبة والحرم والصفا والمروة وحراء وثوراً . فأما ما سوى ذلك فلا تنهض حجة موثوق بها على صحة أنه المكان الذى ينسب إليه . وقال أحد الحاضرين وكان قد صعد ثوراً إلى الغار من قبل :

— لولا قصة الهجرة لما ذكر ثوراً ولا ذكر الغار الذى بأعلاه ذاكر . فهو واحد من الجبال الكثيرة التى تحيط بمكة ؛ ليس أرفعها وليس أبهاها ، وليس يمتاز عليها بشىء مطلقًا من حيث طبيعته . والغار الواقع فى قمته لا يمتاز على أى غار آخر مما يرى الإنسان فى جبال الحجاز وفى جبل ثور نفسه . أما وقد لجأ الرسول ولجأ الصديق معه إلى هذا الغار وأقاما به ثلاثة أيام ، كانا موقنين أثناءها بعثور الباحثين عنهما من فتيان قريش بهما وقتلهم إياهما ، فقد

صار هذا الغار علماً من أعلام التاريخ ومَنْسَكاً يحج إليه كثير من الناس ذكراً لهذه الهجرة التى كانت مبدأ فتح الله لرسوله ، ونصرِ الله دينَه ، وإعلائه كلمة الهدى والحق .

وأقلتنا السيارة صبح الغد حتى بلغت بنا سفح ثور ، وهو يقع إلى جنوب مكة فى طريق المنحدر منها إلى اليمن ، وتقوم على جانبيه إلى اليمين وإلى اليسار جبال مشابهة له كل الشبه ، مع ذلك لا يعنى أحد بأن يعرف اسمها لأنها لا تتصل بحادث من حوادث التاريخ .

والذهاب من مكة إلى جبل ثور ميسور اليوم كما كان ميسوراً من قبل للسائر على قدميه ؛ لكنه العِثار للسيارات لكثرة رماله وتنقل هذه الرمال مع الريح تنقلا يتعذر معه بقاء طريق تمهِّده السيارات صالحاً لسيرها فيه . ولقد غاصت بنا السيارة غير مرة ، فنزلنا منها وأعنا سائقها على دفعها خلال الرمال أو على إزاحة الرمال من حول عجلاتها ، أو على رفعها إذا بلغ غوصها أن طمرت الرمال العجلات وجزءاً من قاع السيارة الأسفل . وبَصُر بنا بعض الأعراب فى إحدى وقفاتنا فأنبأنا أن الطريق التى نسير فيها كانت سوية من أسابيع مضت ؛ وأن الطريق السوية انتقلت إلى بعيد عن يميننا ، وأن من الخير أن يعدل بنا السائق إليها عند عودتنا . فلما سألناه عن المكان الذى نصعد منه ثوراً أشار إلى بناء حقير على مقربة منا . وبلغناه فألفينا جماعة من أهل المِنطَقة جعلوا من هذا البناء مقهى يستريح فيه من يقصدون إلى الجبل ساعة صعودهم أو هبوطهم منه .

وما أظن أصحاب هذا المقهى يفيدون منه إلا قليلا ، خلا ما يصيبهم من جود من يقصدون ثوراً ومن لا يبتغون عندهم قهوة ولا شاياً . فالأكثرون من هؤلاء يحملون معهم قوت يومهم لأنهم يمضون النهار بأعلى الجبل ؛ فإذا هبطوا كانوا أحرَص على اللحاق بمكة منهم على تناول الشاى أو القهوة .

بلغت بنا السيارة هذه البِنْيَة التى يتخذها الناس علماً يهتدون به إلى موضع الصعود ، فترجلنا واتجهنا نحو الطريق الصاعد فى سفح الجبل . وقد

خيل إلينا إذ رأيناه أن تَسلُّقَه يسيرٌ وأنه أقل مشقة من الصعود فى حراء أو فى جبال الطائف . كذلك كان شعورى وشعور الأصدقاء الذين جاءوا معى ، وكذلك قال لنا أهل المنطقة ، لذلك أقدمنا مقبلين على الصعود بنفوس مطمئنة وبال مستريح . ولم تكذب المقدمات ظننا على رغم حر الشمس فى الضحى . ولم نر فى صعود السفح عَنَتًا يصدنا عن المضى فى طريقنا أو يدعونا لنستريح إلى ظِلّ صخرة ما لم ينل منا التعب . صعدت ببصرى فخيل إلىّ أننا صرنا على مقربة من القمة . فهذا الجبل الذى نتسلقه قد أوفى على غاية ارتفاعه ، وهذا الجبل الذى يبدو أمامنا بعيداً عنا وأكثر من ثور ارتفاعًا لابد أن يكون فى سلسلة أخرى لا شأن لها بثور ولا بغاره . آن لنا إذاً أن نبلغ الغار وأن نطمئن إلى مجلس عنده ريثما نعود إليه ليحدثنا حديث الهجرة وينشر أمامنا مما طوى الزمن ما يفيض القلب بإجلاله وتقديسه . لكنى ما لبثت حينما بلغنا هذه القمة التى نتسلق السفح إليها أن ألفيتها قمة وسطًا بين هذا السفح الذى ارتقيناه وذلك الجبل الذى كنت أحسبه فى سلسلة أخرى أكثر ارتفاعًا من ثور ، وأن ألفيت بين السفحين طريقًا ممهداً يسير الصاعد عليه وكأنه برزخ بين الجبلين . وهو يطل على سلاسل جبال أخرى كان السفح الأول يحجبها عن النظر ، وعن جانبيه ينحدر سفحان إلى أودية لم أعنّ نفسى بالسؤال ما اسمها ، وأنا فى شغل بهذا الجبل المنقسم إلى جبلين وتسلقه .

فلما اجتزنا الجسر الممهد إلى السفح من بعده سألت أصحابى : أليس بعده سفح ثالث قبل الغار ؟ ونفى أصحابى وأكدوا أن الغار فى قمة هذا السفح . وبدأت أتسلق كرة أخرى ، فإذا طريق التسلق وعر لا يقاس طريق حراء إليه فى وعورته . كنت أرانى مضطرًّا إلى الاعتماد على ساعدىّ أرفع جسمى كله بهما أحيانًا لتخطى مضيق فى هذا الطريق لا أجد وسيلة إلى تخطية غير هذا الاعتماد ، وكنت أزحف أحيانًا أخرى معتمداً بيدىّ على جدار الطريق من صخور الجبل مخافة الانزلاق ، فإذا أعيانى الجهد اعتمدت بظهرى على صخرة ذات ظِل حتى تهدأ أنفاسى . ولن يبلغ منى الإعياء أن

يصدنى عن غايتى من بلوغ الغار ما دمت قد فرضتُ بلوغه . فالإرادة الصادقة أقوى من كل مشقة فى الحياة . فإذا عزّز الإيمانُ الإرادة وقلتَ للجبل انتقل من مكانك انتقل . وما مشقة الصعود إلى ثور وها هم أولاء أبناء المنطقة يهرعون إليه ويجرون فى مساربه ومزالقه خفافًا كأنهم القطا ، ما ينوء أحدهم بشىء مما أنوء به ، فإذا اتجهت بإرادتى إلى بلوغ الغار فأجهدنى ذلك فإنما يجهدنى أنى استنمت من الحياة إلى الراحة فى الحياة ، ناسيًا أن الراحة سبيل التعب ، كما أن التعب سبيل الراحة ، بل سبيل النعمة فى الحياة بخير ما وهبنا الله من أنعم الحياة .

بهذه الإرادة تقدمت فى ارتقاء الجبل لا ينال الجهد الذى ألقاه من عزيمتى ولا يفل التعب من قوتى . كنت أتصبب عرقًا فأستند إلى الصخر وأمسح بمنديل عرقى وأعود فأتقدم مجتازاً من الطريق أشده وعورة . وكنت أجد أمامى من أسباب الانزلاق وخطره ما لا أتردد فى التحايل عليه وتخطيه . وتعرّضتْ صخرة مقوسة ، أنت فى اجتيازها بين تسنّمها ، وقد تهوى بك ، والانحناء للمرور من تقوسها وقد تهوى عليك ؛ فانحنيت ومررت غير عابئ . هذا وأشعة الشمس مسلطة علىّ منذ بدأت الصعود تزيدنى جهداً ، وتزيد عرقى تصببًا . وإنى لكذلك إذ استدار الطريق إلى ناحية الغرب ، واحتجبت بذلك عنى أشعة الشمس ، وأويت إلى صخرة جلست عليها أستريح كيما تهدأ أنفاسى .

وبينا أجلس قال صاحبى الذى يتقدمنى : هذا هو الغار ، فلم تبق إلا خطوة لتبلغه . وعدت أسير والطريق ، ثم رفعت بصرى إلى مصدر الصوت فإذا صاحبى معتمد فى موقفه على صخرتين متقابلتين ، وإذا به يشير بيده أن هلم . لكن الطريق زَلَق والحذاء الذى ألبسه لا يستقر عليه ؛ فلألجأ مرة أخرى إلى الاعتماد بساعدىّ فوق الصخور ، والاعتماد على قوتهما فى رفع جسمى . وفعلت ، فلم أتقدم إلا قليلاً . عند ذلك انحنى صاحبى وأدنى يده منى وطلب إلىّ أن أعتمد عليها فى صعودى ، ومددت إليه يداً مسها الجهد وآذاها مس الصخور ؛ ولم يجنح إلى قوة يعيننى بها ، فقد طفرت إليه فوق الحجر الزّلق طفرةً كنت بها إلى جواره . وصنعت صنعه فاعتمدت بقدمىّ

على الصخرتين المتقابلتين وأمسكت بيدى صخرة ألفيتها معلقة فوق رأسى .

هأنذا أمام فوهة الغار الذى احتمى به النبى العربى من كيد أعدائه حين أذن الله له فى الهجرة من مكة إلى يثرب ؛ وأمسك أنفاسى على شدة اضطرابها فى صدرى لأحدق فى داخله علّنى أرى السر العظيم الذى يستجم منذ أربع وخمسين وثلثمائة وألف سنة فى مهابة ظلمته . ووقفت حيث أنا مشدوها مأخوذاً لا أدرى أأتقدم للخطوة الأخيرة فيما بعد فوهة الغار إلى سطح القمة أتفيأ ظل صخرة جاثمة تقوست فوقها تحميها من لظى الشمس أوقات الهاجرة ، أم أظل حيث أنا ممسكة يدى بالصخرة حتى لا تنزلق قدمى ، محدقًا من فوهة الغار فى داخله ، أم أدخل الغار لأقيم حيث أقام الرسول عليه السلام فى أدق الساعات التى مرت به منذ بعثه الله نبيًّا وهاديًا ورسولاً ؟ وكنت أشد شوقًا للدخول إلى الغار والمقام به ما استطعت ، لولا أن حال زلَقُ الصخور حيث أقف دون تنفيذ هذا العزم لساعتى ، رغم جهد أنسيته أمام جلال المشهد العظيم .

وخطوت إلى القمة وتفيأت ظلّ الصخرة قبل أن يدركنى أكثر أصحابى الذين تسلقوا الجبل معى . ولم تكن القمة فسيحة الأرجاء ؛ فمربّعها لا يتجاوز الثلاثين متراً ، لكنها كانت ذات بهجة بظلها وبالصخور المحيطة بها والتى تجعل منها بهواً تستريح النفس إليه ويطيب لها المقام به .

فلما هدأت أنفاسى تناولت شربة من الماء ، ثم قمت أدور حول الصخرة ومعى منظارى ، فشهدت مكة والحرم ، وشهدت ما وراء مكة إلى حد الأفق ، وشهدت الجبال بين ثور ومكة يتلو بعضها بعضًا ولاتستبين العين ما بينها من الطرق .

هذه إذًا أم القرى التى أخرجت محمداً منها لأنه دعا إلى الحق أهلها ؛ وهذا البيت الحرام الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل مثابة للناس وأمنًا يتوسطها وينفس عنها ؛ وهذه البادية الفسيحة الممتدة أمام النظر إلى غاية الأفق تدعونى أرجاؤها إلى التأمل وإلى الأناة وإلى تدبر ما فى الكون من حاضر أمام نظرنا ومن

غيب نتوسمه ولا نعلمه ، فليس يعلم الغيب إلا الله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

أدركني أصحابي وجلسوا يتفيئون ظل الصخرة ، وجلست إليهم ، وتناولنا الشاى إذ كنا نتناول بالقول انصراف المسلمين عن زيارة هذه الأماكن اتقاء المشقة وخوف ما يذكرونه عن بطش العرب فى الماضى بمن ينقطع عن قافلته . وجعل القوم ينصرفون واحداً بعد واحد ، يقصد أحدهم إلى الغار ، ويدور الآخر حول الصخرة ، ويلتمس ثالث مسالك الجبل فى غير الناحية التى صعدنا منها . فلما اطمأننت إلى وحدتى فوق القمة عدت بذهنى إلى الليلة التى هاجر فيها الرسول ، فرأيته قائمًا صدْرَ الليل فى داره يعبد ربه ويتلو كتابه ، ورأيت أبا بكر بداره فى طرف آخر من مكة لا يطرق النوم جفنه ولا يدرى ما الله صانع به . لقد أسر محمد إليه أن الله أذِن لهما فى الهجرة ، فمتى تكون ؟ وكيف تكون ؟ إنه أعدّ راحلتين تحملانهما من مكة إلى يثرب ؛ لكنهما لن يخرجا بأعين الناس والناس لمحمد بالمرصاد وقد ائتمروا به ليقتلوه ؛ والليلة موعده من الرسول فلينتظره وليصبر ، إن الله مع الصابرين . وهذا علىّ بن أبى طالب فى دار محمد قد تسجى برده الحضْرمى الأخضر ونام حيث ينام ابن عمه مبلبل النفس منذ أسرّ إليه أن ينتظر بمكة بعد مغادرته إياها حتى يؤدى ما لديه من ودائع للناس . وهؤلاء فتيان قريش بالباب وحول الدار ينظرون لعلهم يصيبون من محمد فرصة يفتكون به فيها فتكة رجل واحد حتى يضيع دمه بين القبائل . والليل يردف أعجازاً وينوء بكلكل فيأخذ هؤلاء الفتيان غمض ليس بالنوم ولكنه أدنى إلى الأرق ، ويخرج محمد من داره إلى دار أبى بكر فلا يراه منهم أحد ولا تقع عليه عين ، ويلفى أبا بكر فى انتظاره أشد ما يكون شوقًا إلى هذه الساعة التى يهاجر معه فيها بأمر ربه .

نحن الآن فى ساعة الهجود قُبيل الفجر ، فليس بمكة همس ، ولست تسمع فيها ركْزاً ؛ والرجلان يسريان متجهين إلى أقرب مخرج من مخارج مكة صوب الجنوب ، لا ينبس أحدهما ببنت شفة ولا يحس مسراهما أحد . ها هما ذان الآن قد خرجا بين الجبال ، وآن لهما أن يخرجا من صمتهما ليسِرّ محمد

إلى صاحبه أنهما فى الطريق المستقيم إلى ثور . ويلزمان الصمت كرة أخرى وإن أيقنا أنهما صارا من العيون بمنجاة ؛ فليس يدور بوهم أحد أنهما اتخذا وجهة اليمن بعد أن هاجر المسلمون قبلهما إلى يثرب ؛ ومحمد مستغرق أثناء مسيره فى التفكير ، فما يكاد يحس وجود أبى بكر إلى جواره ؛ ويتلفت ملتمساً إياه فإذا هو يسير خلفه ، فينتظره حتى يكونا كتفاً إلى كتف ؛ ويعود محمد إلى تفكيره ، ثم يلتمس صاحبه فإذا هو قد سبقه يسير أمامه ؛ والجبال حولهما تشهد مسراهما وحيدين حيث لم يسْرِ قبلهما فى مثل هذه الوحدة أحد . ويفطن محمد إلى أبى بكر يسير تارة خلفه وطوراً أمامه ، فيعجب ويسأله فى ذلك ، فيجيبه صاحبه : يا رسول الله ، أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك . ويبتسم محمد وتفعم قلبه المسرة لإخلاص صاحبه ويسأله : يا أبا بكر ، لو كان شىء أحببت أن يكون بك دونى ؟ ويجيب أبو بكر فى حماسة : نعم والذى بعثك بالحق ! وترتسم على محيا محمد سيما الغبطة ، ويظلُّ فى انطلاقه هو وصاحبه إلى غايتهما يسعدهما نسيم الليل الرقيق حتى يبلغا أسفل ثور ثم يندفعا إليه يصعدانه . وما كان لهما أن يتخوفا من التصعيد مشقة أو عَنَتاً وهما من أبناء الجبال ، قد ألِفا خشونة العيش وألفا فى المشقة النعماء المستعذبة .

ما أبهى هذه الصورة وما أعظم روعتها فى نفسى ! لقد انتشرت أمام ذهنى وأنا فى مجلسى من القمة فتعلق بها قلبى ونقشت فيه نقشاً . إن كثيراً ما يسرى رجلان أو تسرى قافلة جوف الليل فى هذا الطريق ، طريق اليمن أو فى طريق غيره ، وقد يكون لصورة هؤلاء السراة جمالها وعذوبتها ، لكنه جمال مادى وعذوبة فنية ؛ فأما هذان الرجلان اللذان يسريان ، وقلبهما مفعم بجذوة الإيمان المقدسة ، فراراً بإيمانهم إلى الله ممن يأتمرون بمحمد ليقتلوه ، فلمسراهما فى النفس صورة أخرى ، صورة روحية بالغة غاية السمو ؛ صورة من يستهين بالحياة ومتاعها ، ومن لا يمسك عليها إلا حرصاً على الحقيقة أن يبلغها الناس ، وأولهم المؤتمرون به ، وإن ناله فى تبليغها الأذى وأصابه العذاب .

وبلغ الرجلان الغار ؛ فتقدم أبو بكر فاستبرأ المكان مما حوله ، ثم استبرأ الغار مخافة أن يكون به ما يؤذى الرسول . وصلى الرجلان شكراً لربهما ، ولجآ إلى الغار يحتميان به ويستريحان فيه من مشقة يومهما .

بلغت هذا الموضع من الصورة الذهنية التى ارتسمت فى نفسى إذ عاد صاحبى الذى لزمنى فى صعودى وأعاننى فيه . فلما رأيته لم أمهله أن قلت له : هلمّ بنا إلى الغار نلتمس الدخول إليه . قال : خير لك أن تدور حوله وأن تدخل من صغرى فوهتيه ؛ فالدخول منها آمَنُ عثاراً وإن لم يكن أشد يسراً . ودرت ودخلت ووقفت ما أتاح سقف الغار لى أن أقف ، واطمأن صاحبى إلى سلامتى فتركنى ومضى . وتلفت فيما حولى ثم طاب لى أن أجلس فجلست . جلست فى شبه الظلمة التى تشتمل كل ما فى الغار ، ونظرت إلى فوهته الكبرى وأسفت كما أسف غيرى أن اجترأ أمير من أمراء المسلمين فأوسعها عن حسن نية ليبسر الدخول لمن أراد . وهذه الفوهة الكبرى مستديرة يبلغ قطرها متراً أو نحوه ، أما الفوهة الصغرى فلا تبلغ نصف مساحتها . فإذا استوى الإنسان فى الغار رأى سقفه يرتفع إلى حيث يستطيع أن يطمئن إلى مقامه فيه طمأنينة العابد المنقطع إلى ربه فى خلوته .

جلست مكانى وحيداً ممتلئ النفس من هيبة هذا الغار الذى أوى إليه رسول الله وصاحبه نجاة بنفسيهما من قريش الظالمين . ومحت ظلمة الغار آية الزمن أمام بصيرتى وتمثّل لى اللاجئ العظيم فى مجلسه هنا بهذه البقعة متوجهاً بكل قلبه إلى ربه يناجيه ويدعوه أن يصرف عنه كيد عدوه . وينقضى النهار وهو فى مناجاته ودعواته وصلواته مطمئن إلى ربه واثق من نصره ؛ وصاحبه إلى جانبه مطمئن بطمأنينته . أما قريش بمكة ففى حيرة من أمرها كيف استطاع محمد الفرار ! فهى فى حوار دائم تلتمس الرأى للعثور به وقتله . وعبد الله بن أبى بكر يقف على ما يأتمرون ويدبرون . وكان عبد الله قد عرف من أبيه حين الهجرة من مكة أنه سيلجأ مع النبى إلى غار ثور ، فكان إذا جنّ الليل ينطلق إلى الغار فيقص على محمد وعلى أبيه ما رأى وما سمع . وينطلق

عامر بن فُهيْرة مولى أبى بكر بأغنامه فينال الرجلان من ألبانها ولحومها طعام يومهما ، ثم يعود عبد الله بن أبى بكر ويعود عامر بالقطيع وراءه ليعفّى على أثره ، ويعود اللاجئان إلى عزلتهما بالغار والله معهما يسمع ويرى .

وقريش ما تنفك تأتمر وتدبر . فقد ذهب فتيانها الجلداء الموكلون بمحمد وقتله إلى كل ناحية مما حول مكة : ذهبوا إلى الشمال حاسبين أنه مسارع ليلحق بمن سبقه من أتباعه المسلمين إلى يثرب فلم يقفوا له على أثر ؛ وشرّقوا وغربوا وتيامنوا وتياسروا وقصّاصو الأثر يحاولون أن يعرفوا أى طريق سلك فتذهب محاولتهم هباء . فليذهبوا إذًا إلى الجنوب من ناحية اليمن ، وإن كان سلوك محمد هذا الطريق مما لا يرد بالخاطر . وذهبوا إلى الجنوب وتسلقوا من الجبال ما تسلقوا وصعدوا ثورًا واقتربوا من الغار الذى أوى الرجلان إليه ، وكانوا مع ذلك لا يميلون إلى الظن بأنهم سيصادفون من النجاح فى الجنوب أكثر مما صادفوا فى غيره من النواحى . وكان على مقربة من الغار راع لم يلبثوا حين رأوه أن سألوه : هل رأى محمداً أو أبا بكر ؟ وهل عرف أين ذهبا ؟ وأجاب الراعى :

ــ قد يكونان بالغار وإن لم أر أحداً أمّه .

وسمع الرجلان هذا الحديث وسمعا وقع أقدام الفتيان وهم يتقدمون إلى ناحية الملجأ الذى تحصنا به . وسرت رعدة الخوف فى عروق أبى بكر لما سمع ؛ فأمسك أنفاسه واقترب من محمد وألصق نفسه به وقد أيقن أنهما مأخوذان لا محالة بالتلابيب فمسوقان إلى مكة أو مقتولان دونها . أما محمد فبقى فى سكينته ملتزمًا الصمت متوجهاً بقلبه إلى ربه واثقًا من أنه لن يصيبه أو يصيب صاحبه مكروه . وتقدم أحد الفتيان حتى كان عند فوهة الغار ؛ فلو أنه حدّق بعينيه اللتين اعتادتا الأبعاد واعتادتا الظلام لرأى الرجلين ولنادى أصحابه فأمسكوا بخناقهما . وبصربه أبو بكر فتصبب من شدة خوفه عرقًا وازداد بالرسول التصاقًا . ولم تزايل محمداً سكينته ولم يزايله اطمئنانه إلى ربه . ودار الفتى حول الغار وتلفّت يمنةً ويسرة ، ثم عاد أدراجه . وسأله أصحابه :

مالك لم تنظر فى الغار ؟ فهزّ كتفيه وأجاب : إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد .

تمثّل لى هذا المشهد كله وأنا مكانى بالغار ، وبلغ من امتثالى إياه أن كدت أسمع حديث المطاردين مع الراعى وأرى الفتى كما كان يراه أبو بكر ؛ وامتلأ قلبى رعباً من هول ما أرى وأسمع ، وشعرت بصيحة تكاد تنطلق من صدرى وتنفرج عنها شفتاى وكأنى أهيب مستغيثاً بالذين يطاردوننى : على رسلكم ! فهأنذا مسلمكم نفسى ورفقاً ! وما عسى أن أصنع وهذا مدركى ثم قاتلى لا محالة ! فلعل لى فى التضرّع والاستغاثة من الموت منجاة ! وإن نجوت بعد هذه المغامرة فمن ذا يلومنى على الإذعان . هذا منطق إنسانى لا غبار عليه . لكن الفتيان الجلداء لا يطاردوننى بل يطاردون محمداً عبد الله ورسوله . ومنطق محمد ليس كمنطقنا ؛ لأن روحه ليس كروحنا وإن كان بشراً مثلنا . وخيل إلىّ أنى انتحيت ناحية من الغار وأنى أشهد فيه محمداً وصاحبه . ما أشد أبا بكر جزعاً ! ها هو ذا يرتعد كأن به الحمّى ، وها هما تان شفتاه تتحركان كأنما يريد أن يقول شيئاً . أما محمد فأحيط بهالة من جلال أفاء الله بها عليه سكينته ، فليس يهتز لشىء مما حوله ، وكأنما يطارد الفتيان شخصاً غيره . وطال بى ما أرى ، ثم تحركت شفتا أبى بكر فهو يهمس فى أذن صاحبه : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . وأسر الرسول فى أذنه : « يا أبا بكر ما ظنك فى رجلين الله ثالثهما » ! وفى هنيهة أضاء وجهه نور لألاء ثم تحرّكت شفتاه بما أسمع أبا بكر قوله : « لا تحزن إن الله معنا » .

ووجمت حين سمعت هذه الكلمة وحدقت فى معالم أبى بكر فإذا به زايله الرّوْع وعاودت السكينة نفسه . وم عسى أن يخاف والله معه ! إن الفتيان ليتحاورون على مقربة من الغار ، ثم يحاول بعضهم أن يتقدم نحوه ؛ فيردّهم صاحبهم الذى دار حوله ويدعوهم أن ينتشروا فى أنحاء الجبل لعلهم يلقون نجاحاً . ويسمع أبو بكر هذا الحوار فلا يعاوده شىء من الروع الأول ولا تزايله سكينته لأنه أنس إلى صاحبه وأنس إلى ربه . ويتقدم هذا الفتى

الذى رأه أبو بكر منطلقًا إلى شعاب الجبل ويتبعه أصحابه ، وتبعد بهم خطاهم عن هذا المكان حتى لم يبق من أثرهم نبأ . فيتنفس أبو بكر الصعداء ، ويصيح رسول الله : « الحمد الله ، الله أكبر » .

آن لى أن أدع مجلسى بالغار بعد أن رأيت هذا المشهد التاريخى الفذّ فامتلأت نفسى من رؤيته إلى غاية ما تمتلئ النفس مهابة ورهبة . هذان رجلان يواجهان الموت ولا يخافانه ثقة بأن الله معهما ، والله مع من وثق به ؛ ومن لم يخف الموت فى سبيل الله عنت له الحياة فملك زمامها . أيّة نفس مطمئنة هذه النفس الكبيرة التى لا تعرف غير الله ولا تثق إلا به ولا تخشى شيئًا فى سبيله ! وأية أسوة أكبر من هذه الأسوة يضربها النبى العربى للناس فى جميع الأمم ليعيشوا أعزة كرامًا ، فيعيشوا بذلك كما يجب أن يعيش الإنسان ، وكما أمره الله أن يعيش ما أبقى له الأجل على حياة !

وخرجت من الغار إلى القمة ، فألفيت أصحابى جميعًا يستريحون إلى فيئها . وتناولنا أقداح الشاى وقصصت لهم بعض ما مر بخيالى وأنا بالغار . قال أحدهم : وكيف تمثل لك موقفهما بعد انصراف الفتيان عنهما إلى أن غادرا ملجأهما ؟ كم أقاما بالغار بعد ذلك : يومًا أو بعض يوم أو أكثر أو أقل ؟ فكتب السيرة لا تحدثنا عن ذلك فيما قرأت ، وكل ما تحدثنا عنه أنهما أقاما بالغار ثلاثا حتى خمدت عنهما نار الطلب ؛ فلما سكت الناس عنهما أتاهما عبد الله بن أريقط ببعيريهما اللذين استأجرا وببعير له فسلك بهما إلى يثرب طريقًا غير الطريق الذى ألفه الناس ، أفما دار بخاطركم كم مرّ بين انصراف الفتيان ومجىء الإبل ؟

لم أكن قد فكرت فى هذا ولا عنيت به . ولست أدرى هل فكر غيرى فيه . لكنى مع ذلك أجبت : أحسبهما لم يطل بهما المكث بالغار بعد أن مرت بهما هذه الساعة العصيبة التى تمثلت لى وأنا به . فهؤلاء الفتيان لم ينحدروا إلى الجنوب ميممين ثورًا حتى بدا لهم اليأس أن يجدوا محمدًا فى غير الجنوب من النواحى . فلما عادوا من بحثهم بخفى حنين أدرك اليأس قريشًا وألقت

سلاحها . وما لبث عبد الله بن أبى بكر حين رأى ذلك أن أخبر به النبى وصاحبه . وأكبر ظنى أن ذلك حدث أمسية اليوم الذى عاد الفتيان بالخيبة فيه إلى أهلهم بمكة ، وأن عبد الله استصحب أخته أسماء وأسرّ إلى ابن أريقط أن يتبعهما ملث[1] الظلام ، وأن هؤلاء جميعًا التقوا قبل الفجر بأسفل ثور . فلما تحمل محمد وأبو بكر وسارا فى طريقهما ميممين الشاطئ عاد عبد الله وأخته إلى مكة ولم يفطن إلى عودتهما أحد .

لم يعن أكثر الحاضرين بالإنصات إلى هذا الحديث ، ولم يعنهم أن يكون الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قد ترك الغار بعد انصراف الفتيان عنه بساعة أو بيوم أو بثلاث ليال . حسبهم أنه صلى الله عليه وسلم لجأ إلى هذا الغار ، وأن الله تعالى يقول فيه : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَى وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وحسبهم ما جاء فى كتب السيرة من معجزة العنكبوت والشجرة والحمامتين . وما عسى أن يجدى هذا البحث الذى دفع بى إليه صاحبهم ! وأية فائدة للتاريخ أن يكون اللاجئان قد نزلا من الغار بعد يوم أو يومين من خروج القرشيين للبحث عنهما ! هذه محاورات لا تقدم ولا تؤخر ، وقد تؤدى ببعض أدعياء العلم إلى التجديف باسم التنقيب والبحث تجديفًا مصدره الهوى ومبعثه الخيال السقيم .

وكأنما أراد أحد أصحابنا أن يظهر برمه بهذا الحديث ، فالتفت إلى أحد الإخوان ممن معنا وطلب إليه أن يسير معه إلى الغار ليدخله فيصلى ركعتين فيه ، وتركنا وذهب لأداء هذه السنة المستحبة . فقد شعرت ، حين أديتها ، وأنا بالغار ، بفيض من الرضا يغمرنى طمأنينة منى إلى أننى أصلى حيث

(١) ملث الظلام : اختلاطه .

صلى رسول الله . وشعرت وشعر من وجَّه الحديث إلىَّ بما فى عمل صاحبنا من معنى الاحتجاج على حوارنا ، فأمسكت عن القول خشية أن يكون هذا الذى احتج معبراً عن رأى أصحابنا الآخرين وإن لم يظهروا من البرم ما أظهر إكراماً لى . أما من وجه الحديث إلىَّ فلم يعبأ بشىء من هذا ولعله لم يفهم منه ما فهمت ؛ فقد وجه إلىَّ الحديث كرة أخرى ينبئنى أن غاراً غير هذا الغار الذى زرته ويزوره الناس يقع على مقربة منا بين القمة والغار المأثور ويسألنى : لم لا يكون هذا الغار هو الذى أوى الرسول إليه ؟

كان جوابى عن سؤاله أن قمت إلى هذا الغار الآخر مع شاب كان معنا والتمست إليه مدخلا . ونادانى الشاب من داخله ، ولم أعرف كيف سلك إليه سبيله ؛ ثم رأيته تمتد يده من فرجة ضيقة لا سبيل إلى الانزلاق منها ، فذكر لى أن بالجانب الآخر منه فرجة أكثر سعة وأيسر سرَبا . واستلقيت على ظهرى ودليت ساقى وانزلقت شيئًا فشيئًا حتى احتوانى هذا الوكر الضيق الموحش . وخرج الشاب وتركنى أمتحن الرمل الذى يعلو قاع هذا الغار وأدور بنظرى فيه وما أكاد أستوى إلى جلسة أستريح إليها كما فعلت فى الغار الأول . ولم يكن خروجى من هذا الغار دون دخولى إليه عسراً ومشقة .

وألفيت صاحبنا الذى دلف إلى الغار المأثور فصلى به جالسًا فوق القمة فى ظل الصخرة مع سائر الرفاق . وبادرته بالتحية أن يتقبل الله منه صلاته حيث صلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فرجا أن يتقبل الله منه ومنى . وسألنى الذى يجاورنى عما رأيت فى الغار الآخر ، وهل يسيغ العقل أن يكون هو الغار الذى أوى إليه الرسول دون الغار الأول ؟ ولم يكد يتم كلامه حتى رأيت الذى صلى بالغار المأثور قد امتقع لونه وظلل الغضب وجهه وانطلق فى حدة يقول :

— ما هذا الكلام الذى لم يسمع به ولم يجرؤ على قوله من قبل أحد ! إن الأجيال المتعاقبة منذ عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لتحدثنا بأن هذا الغار الأول هو المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أنه لجأ إليه وأنه هو الذى نزل فيه القرآن ، فما هذا التشكيك فيه يا شيخ . . ! ؟ أو قرأت فى كتب

السيرة أو فى كتب الحديث ما يجعل لقولك شبهة من الحق حتى تفكر فيه ! ؟

وخشيت مغبة هذه الحدة أن يضاعفها الجواب عليها فقلت :

— فضلا عن أن الغار الأول هو المأثور فكل الدلائل تنهض حجة على صحة الأثر ، وتدل على أن الغار الآخر لا يمكن أن يكون ملجأ للاجىء سويعات من زمان . فهو على ضيقه وانخفاض سقفه أدنى إلى القمة وأيسر لذلك أن يكتشف . وما دام الغاران متقاربين ، والالتجاء إلى المأثور والمقام به ثلاثة أيام أدنى إلى العقل ، فلا موضع لشبهة يثيرها إنسان بحجة الدقة والتمحيص ، أو بأية حجة أخرى .

تخطت الشمس للزوال وآن أن ننحدر إلى مكة . . ولم نكن قد جئنا بطعام يقيمنا طول يومنا ؛ وقد أوفى الماء والزاد الذى معنا على النفاد . لكن مجلسنا إلى ظل الصخرة فوق القمة لذيذ حقًّا ، والنظر منه إلى مكة وما وراءها من فسحة البادية بالغ من الجمال ما تود العين منه كل مزيد . أوَ ليس من الخير أن نبقى إلى المغيب ؟ إننا إذاً لنتقى شدة القيظ وما ترهقنا من ضيق حين انحدارنا ، ثم إننا إذاً لنستمتع من هذا المنظر الساحر بما يزيده ساعة الشفق سحراً .

أفضيت إلى أصحابى بهذا الذى رأيته ، وودّ غير واحد منهم لو نقيم إلى ما بعد المغيب ، وذكرنا يوم حراء وهبوطنا منه إقبال الليل وجمال الشفق على هذه الجبال الكثيرة المتتابعة حول جبل النور . والجبال التى تحيط بثور أكثر من تلك عدداً وأعظم ارتفاعاً .

لكن أصحابنا اعتذروا بأعمال لدى بعضهم لا سبيل إلى أن تؤجل . وهبطنا من الجبل وأنا أجد فى الهبوط أكثر مما أجد فى الصعود من مشقة . وإنى فى ذلك لعلى خلاف الناس جميعاً إلا من كان مثلى . فصعود السلم أسهل لى من هبوطه وارتقاء الجبل لا يزعجنى ؛ لكن الانحدار منه يحدث لى شيئاً يشبه الدّوار . وأنا أتقيه بأن أحصر نظرى بين قدمى حتى لا يقع على الهاوية أمامى أو عن جانبى . وبلغنا المقهى عند أسفل السفح ، فإذا أصحابى سبقونى إليه

واستراحوا به . فلما رأونى قاموا إلى السيارة فأقلتنا إلى الدار .

لقد كان لقصة الهجرة فى نفسى من المهابة أكبر نصيب ؛ ذلك كان شأنى منذ نعومة أظفارى . لكنى منذ صعدت ثوراً ودخلت الغار وتمثل لى به ما تمثل لى ، قد صرت أشد لها إكباراً وإجلالا . وهأنذا قد تركت مكة وسافرت إلى نواح من الحجاز مختلفة وعدت إلى مصر وقمت بأسفار أخرى ، وما أزال كلما ذكرت ثوراً والغار المجاور لقمته ذكرت قصة الهجرة فامتلأت نفسى لها مهابة ورهبة .

أخطأ الذين يحسبون فى حياتنا المادية سبب سعادتنا أو سبب قوتنا ؛ إنما سعادتنا وقوتنا فى حياتنا النفسية . لنكن طلقاء فى البادية أو حبيسين فى الغار أو حيثما شئنا من أرض الله ، فنحن سعداء ونحن أقوياء بإرادة الله وإرادتنا ما وهبنا نفوسنا لله وفى سبيل الله نريد غاية سامية نحققها لإخوتنا بنى الإنسان . وهذا بعض ما يدعو محمد إليه حين يقول : « لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

هذه بعض العبرة فى ذلك الغار وقصته . وقصة الهجرة أكبر عبرة لقوم يعقلون .

ظاهر مكة

كان وادى مكة خاليًا إلا من بعض مضارب الخيام حين أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ولما جاءت جُرْهم ثم خُزاعة فأقامتا بالوادى ، ثم لما تزوج إسماعيل من جرهم ، لم يُقِم أحد منهم جوار بيت الله بيتًا غيره ، بل تركوه قائمًا يطوفون به أثناء النهار وزُلفًا من الليل ، فإذا جنّهم الظلام ذهبوا إلى الحِلّ فقضوا ليلهم فيه . كذلك تجرى الروايات إذ تقص تاريخ مكة . وتزيد الروايات إلى ذلك أن قصيًّا ، الجد الخامس للنبى ، لما اجتمع له أمر مكة وأصبح الأمير المطاع فيها جمع قريشًا وأمرهم أن ينشئوا الدور فيها وأن يقيموا حول البيت ما شاءوا . وبنت قريش دورها حول الكعبة فلم يتركوا خاليًا إلا مكان الطواف بها ، وتركوا بين كل دارين طريقًا ينفذ منه إلى المطاف . وسبقهم قصىّ إلى البناء فى جوار الكعبة ، فأقام دار الندوة لأهل مكة جميعًا يجتمعون فيها يتحدثون ويتشاورون ويعقدون العقود ويتمون من أمورهم ما يريدون إتمامه .

أين كانت حدود الحرم أيام جرْهم ؟ وأين كان هذا الحِل الذى يذهبون للمبيت به حتى أمر قصىٌّ بالبناء بالحرم ؟ يتعذر اليوم تحديد ما كان ذلك عليه فى الأيام الخالية . وإن قومًا ليذهبون إلى أن الحرم قد كان محصوراً إذ ذاك فى حدوده المعروفة اليوم ، والتى تعينها الأعلام القائمة على منافذ أم القرى . وهذه الأعلام قائمة اليوم فى خمس جهات تحيط بمكة من نواحيها جميعًا . فثمّ علمان عند الحُديبية ، وهى التى يطلق عليها اليوم الشِّمِيسى فى طريق القادم من جدة إلى مكة ؛ وعلمان عند التنعيم فى طريق القادم من المدينة إلى مكة ؛ وعلمان عند الجعرانة فى طريق القادم من العراق ، وعلمان عند عرفة فى طريق القادم من الطائف ، وعلمان عند أضاءة فى طريق القادم من اليمن . والأعلام التى يشهدها الإنسان اليوم أحجار متقنة النحت ترتفع عن الأرض قرابة متر

وتقوم متحاذية على جانبي كل طريق من هذه الطرق . وتختلف أطوال المسافة من الحرم إلى كل واحد من هذه الأعلام . فعلَما الحديبية يقعان على نحو عشرين ميلا من المسجد الحرام ، وعلما التنعيم يقعان على نحو ستة أميال منه ، وعلما الجِعْرانة يقعان على مسافة ثلاثة عشر ميلا ، وعلما عرفة يقعان على ثمانية عشر ميلا ، وعلما أضاءة يقعان على اثنى عشر ميلا . فأما ما يجىء وراء هذه الأعلام إلى مواقيت الحج فذلك هو الحل ، ومن وراء الحل تمتد الآفاق إلى أقصى الأرض فى مختلف بقاعها وقاراتها .

يذهب قوم إلى أن الحرم كان محدوداً من عهد جرهم بالحدود القائمة هذه الأعلام عندها ؛ بل يذهب بعضهم إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول من نصب الأعلام تعظيما للبيت وتشريفاً . ويقول آخرون : إن إسماعيل بن إبراهيم هو الذى نصب هذه الأعلام . ويذهب قوم إلى أن قصيًّا هو الذى عين هذه الحدود حين أمر بالبناء حول الكعبة . ويقال إن عدنان أول من وضع أنصاب الحرم ، وإن قريشاً نصبتها بعد ذلك فى عهد النبى وقبل هجرته من مكة . وفى قول يرجحه بعضهم أن النبى وضع حدود الحرم عام الفتح ونصب الأعلام حوله ، ثم نصبها عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم معاوية بن أبى سفيان ، ثم عبد الملك بن مروان ، ثم المهدى العباسى . وقد أمر جماعة من الملوك والأمراء بتجديد هذه الأعلام بعد ذلك . وأحدث ما تذكره الكتب من تجديدها أنه كان فى سنة ٦٨٣هـ بأمر المظفر صاحب اليمن . والحالة التى عليها الأعلام اليوم تدل على أنها جددت بعد ذلك غير مرة وأنها لا ترجع إلى أكثر من بضع عشرات من السنين .

فيما بين حدود الحرم ومواقيت الحج يقع الحل . وليس بين أعلام الحرم ومواقيت الحج أبعاد نائية إلا فيما بين مكة والجُحفة ، وفيما بين مكة وذى الحُليفة . وتقع ذو الحليفة بظاهر المدينة ، وهى ميقات أهل المدينة ، منها أحْرَم الرسول وأصحابه حين خرجوا إلى عمرة القضاء ، وحين خرجوا إلى حِجَّة الوداع . أما الجُحْفة فتقع فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة وهى ميقات

المصريين والشاميين وكل من حاذاها فى البر والبحر . أما ميقات العراقيين فذات عِرْق على مقربة من الجِعْرانة . وأما ميقات النجديين فقَرْن المنازل على مقربة من العُشَيرة . وأما ميقات أهل اليمن فيَلَمْلَم ، وعلما أضاءة يقعان بينها وبين مكة ، وهى لذلك تلى الجُحفة فى بُعد مواقيت الحج عن مكة . وعند هذه المواقيت يُحرم المقبلون للحج ويظلّون على إحرامهم حتى يدخلوا مكة ويتموا العمرة ثم يحلوا إحلال التمتع ما لم يسوقوا الهَدْىَ معهم ينحرونه . فمن ساق الهدى فقد وجب عليه أن يبقى على إحرامه حتى يتم العمرة والحج جميعاً قارناً غير متمتع .

أما فيما خلال أشهر الحج فشأن ما بين المواقيت وأعلام الحرم كشأن الآفاق مما وراء المواقيت إلا لمن ذهب معتمراً إلى مكة ، فإنه يحرم من ميقات الحج إحرامَه بالحج ، ولا يحل إحرامه إلا إذا أتم عمرته .

وقد جعل كتاب الله حرم مكة من البيت العتيق إلى هذه الأعلام مثابة للناس وأمناً ، وحرّم التعرّض لصيده ولنباته وحيوانه . فلما أزمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة جعل كل همّه أن يدخلها من غير أن يسفك دماً . ولقد تم له ذلك إلا ما سفِك دفعاً لاعتداء جماعة من قريش على جيش خالد بن الوليد . فلما كانت الغداة من يوم الفتح قتلت خزاعة رجلا من قريش وهو مشرك ، فقام الرسول فى الناس خطيباً وقال : « يأيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحلُّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يَعضد فيها شجراً ، لم تُحلَلْ لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تُحلَلْ لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغُ الشاهد منكم الغائب . . . . » .

كان حرم مكة إذاً أمناً من قبل إلى عهود بعيدة ، يذكر بعضهم أنها ترجع إلى أيام إبراهيم وإسماعيل كما قدّمنا ، وكان شأن الحل فى أشهر الحج كشأن الحرم مدى السنة جميعاً . وما رُوى عن سرية عبد الله بن جحش يصور هذا

الأمر خير تصوير ، فقد بعثه رسول الله فى رجب من السنة الثانية للهجرة على رأس جماعة من المهاجرين ودفع إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً . وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فإذا فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتّى تنزل نَخْلَة بين مكة والطائف فَتَرَصَّدْ بها قريشاً وتَعَلَّمْ لنا من أخبارهم » . وما لبث عبد الله ومن معه حين نزلوا نخلة أن مرّت بهم عيرٌ لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحَضْرَمى ، وكان يومئذ آخر رجب ، ورجب من الأشهر الحرُم . وتشاور المسلمون وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة لَيَدْخُلُنَّ الحرم فَلَيمتَنعُنَّ ، ولئن قتلتموهم لتَقْتُلُنُّهم فى الشهر الحرام» . وترددوا ثم شجعوا أنفسهم وأغاروا على المشركين وقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا رجلين وعادوا إلى المدينة بالعير والأسيرين . فلما رآهم الرسول وعرف خبرهم قال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . وانتهزت قريش الفرصة فنادت فى كل مكان : إن محمّداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال . ولقد ظل المسلمون فى حيرة من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه حتى نزل قوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِند ٱللهِ وَٱلْفِتْنَة أَكبَرُ مِنْ ٱلْقَتْل وَلَا يَزَالونَ يُقَاتِلونَكمْ حَتَّى يَرُدُّوكمْ عَنْ دِينِكمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا » .

الفرق بين الحرم والحل والآفاق إذاً فيما خلا أمر الإحرام والمناسك ، أن الحرم يَحرُم فيه القتل والغزو والأسر طيلة العام ، وأن الحل لا يَحرُم ذلك فيه إلا فى الأشهر الحُرُم ، فى حين لا يحرم فى الآفاق دم لم يحرّم الله سفكه إلا بالحق . وحرم مكة فسيح كما رأيت ، لذلك لا تشغل عمارة مكة منه إلا أقله . فأما ما وراء عمارة مكة إلى أعلام الحرم فذلك ظاهر مكة ، ويعتبر أكثره من ضواحيها ، وهو

بعد بادية تتداول فيها الجبال والأودية تداولها فى كثير من جهات البادية ، وقلّ أن تترامى فيه الصحراء تراميها فى سائر أرض تهامة مما يلى البحر . وهذا التداول بين الجبال والأودية وما يكون أحياناً من ترامى الصحراء يجعل ظاهر مكة متغيرة ألوانه بتغير اتجاهه إلى الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب ، أضف إلى ذلك أن به من الأماكن الأثرية على التاريخ ما جعلنى أحرص على أن أجوس خلاله وعلى أن أقف على أسراره . وما وقفت عليه من مظاهره وأنبائه المتصلة بسيرة الرسول وبتاريخ الأيام الأولى التى سبقت الإسلام والتى عاصرته هو الذى أدى بى إلى كتابة هذا الفصل، كما أدى بى إلى كتابته ما أدركته من وحى البادية إلى العرب الأولين فيما خلفوا لنا من صور الشعر وأخيلته .

أقرب أعلام الحرم إلى مكة علما التّنعيم ، ويخرج الإنسان إلى التنعيم من مكة فى طريق القوافل إلى المدينة . وقد أطلق على هذا المكان اسم التنعيم لاعتبارات تاريخية يسوقها واضعو تاريخ مكة ويختلفون عليها ، وأشهرها أنه يقع بواد يقال له نَعْمان محصور بين جبلين اسم أيمنهما ناعم واسم الأيسر نُعَيْم . ولعل أشهر حادث فى تاريخ جهاد المسلمين على عهد النبى وقع عند التنعيم مقتل خُبَيْب بن عَدِى . وخبيب أحد المسلمين الستة الذين بعثهم النبى من المدينة فى السنة الثالثة من الهجرة إجابة لطلب رهط من هُذَيل ليعلّموهم شرائع الإسلام ويقرئوهم القرآن . وسار خُبَيب مع الرهط حتى بلغوا ماء لهذيل بالحجاز بناحية تُدْعَى الرَّجِيع ، هنالك خرج عليهم من هذيل رجال بأيديهم السيوف وأرادوا أن يذهبوا بهم إلى مكة أسرى ، فأبى المسلمون وقاتلوا هذيلاً حتى قتل أربعة منهم وأسر الرجلان الباقيان وأحدهما خبيب بن عدى . وذهبت هذيل بهما فباعتهما من قريش ، إذ كانت لا تزال فى نشوتها بيوم أحُد . أما صاحب خبيب فقتل بمكة ، وأما خبيب فخرج به القوم إلى التنعيم ليصلبُوه ، وصلى ركعتين ثم رفعوه إلى خشبة وأوثقوه إليها ، فنظر إليهم بعين فيها الغضب وصاح : « اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً ، ولا تغادر منهم أحداً » . وأخذت القوم الرهبة من صيحته ، فاستلقوا إلى جنوبهم حَذَرَ أن تصيبهم لعنته ثم أنهضهم البغى

فقتلوه وهو موثق مكانه .

أما الذكريات الدينية المتصلة بالتنعيم فأشهرها عمرة عائشة أم المؤمنين . روى عن النبي أنه قال لعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : « أردف أختك عائشة — فأعْمِرها من التنعيم ، فإذا هبطت بها الأكمة فمُرها فلتُحْرِم فإنها عمرة مُتَقَبَّلَة » . وفعل عبد الرحمن وأحرمت عائشة من التنعيم وطافت وسعت بعمرة . وقد بني مسجد هناك باسم مسجد عائشة ، ذكر صاحب مرآة الحرمين أن آخر من جدّده السلطان محمود فى سنة ١٠١١ هـ . وخلف المسجد حوض لخزن المياه ، وصهريج كبير قديم كان يمتلئ من السيول ويتوضأ منه المعتمرون ، ثم تخرّب فأصلحه الوزير سنان باشا فى سنة ٩٧٨ هـ ، وأصلح بئراً قريبة منه وأقام عليها ساقية . لكن الصهريج والبئر أهملا وعفّت عليهما يد الزمن .

ولما بني عبد الله بن الزبير الكعبة بعد مهاجمة الحُصَيْن بن نُمَيْر قائد يزيد ابن معاوية إياه وتوهينه البيت ، خرج مع أهل مكة فى ليلة الإسراء فى السابع والعشرين من شهر رجب لسنة أربع وستين من الهجرة فأحرموا من التنعيم وذبح مائة بَدَنَة ، وذبح كل واحد على قدر سعته . وقد بقيت هذه عادة أهل مكة إلى اليوم .

والمقيم بمكة إذا فرض الحج أحرم من بيته بمكة ثم صعد إلى عرفات وعاد بعد الحج فطاف وسعى . ذلك أن الحج عرفة ، فالإحرام للحج إنما يكون من مكة ، إلا حاج جاءها يسوق هَدْيه معه . أما من اعتزم العمرة وهو مقيم بمكة فقد وجب عليه أن يغادر مكة إلى الحلّ فيحرم منه . والتنعيم أفضل أعلام الحَرم بعد الجِعِرّانة ، ذلك أن عائشة أحرمت معتمرة من التنعيم . أما الجعرانة فقد أحرم منها رسول الله بعمرة ، على ما ورد فى كثير من الروايات .

ويقع التنعيم اليوم بظاهر مكة على الطريق إلى المدينة كما قدمنا . ويمتد الطريق بعد التنعيم إلى وادى فاطمة مارًّا بسَرِف حيث بنى رسول الله بميمونة بعد عمرة القضاء . وتذهب أنباء السلف إلى أن قرية تدعى يأجَج كانت قائمة عند التنعيم ، كما أن سرف كانت قرية كذلك ، فأما اليوم فليس عند التنعيم

غير العلمين ، علمي الحرم ، وليس عند سَرِف شيء يدل عليها غير مسجد ميمونة . وأنت تسير من مكة إلى وادى فاطمة فلا تكاد ترى مظهراً لحياة فيما قبل هذا الوادى ، بل تحيط بك الجبال والأودية منساباً بينها الدرب الذى تسير فيه القوافل صوب المدينة . وهذه القوافل تكثر أيام الحج كثرة تجعلك تلقاها كلما خرجت إلى هذا الطريق .

ويذهب أهل مكة إلى التنعيم كما يذهبون إلى الشهداء والزاهر للرياضة . والطريق إليها ميسور فى السيارة . ولقد ذهبت إليها غير مرة أستمتع بهواء الصحراء الصفو ساعة المغيب ، كما ذهبت بعدها إلى سرف وإلى وادى فاطمة ، فرأيت من حياة الصحراء ومن حياة البادية غير ما رأيت من حياة الصحراء فى مصر ، وما كان مقدمة لما رأيت من حياة البادية بالطائف وفيما حول المدينة . وقد كشفت لى حياة البادية هذه من وحيها لشعراء العرب فى الماضى ما لم تكشف الكتب التى درست فيها الأدب العربى ، فبدت لى معانيه فى وضوح شعرت به مذ رأيت حياة البادية بعينى وأحسستها بجوارحى إحساس بدوىّ يسير مع أهل الحجاز ويعيش عيشهم . ولقد آمنت بعد الذى رأيت من ذلك بأن الشعر ثمرة بيئته حقاً ، وأن الفن والأدب هما أصدق صورة للبيئة التى ينشآن فيها .

لى بمصر صديق مُدلـّه بالأدب شديد الإعجاب بأبى نواس كثير الترديد لبيت له يتهكم فيه بشعراء العرب الأولين ، ذلك قول ابن هانئ :

قل لمن يبكى على رسم دَرَس واقفاً ، ما ضرَّ لو كان جلس !

وكنت أشارك صديقى فى الإعجاب بهذا البيت وبدقة النكتة وبالتهكم اللاذع فيه . فلما خرجت إلى التنعيم ثم إلى سرف وإلى وادى فاطمة ورأيت القوافل متجهة صوب المدينة ورأيت إبلا تنقطع عن القافلة وتسير فرادى وعلى هون ، ذكرت هذا البيت من شعر أبى نواس فلم يثر منى إعجاباً ولا طرباً ، بل سخرت منه ومن أبى نواس . فهذه البادية المترامية الأطراف يرتحل أهلها البدو من مكان إلى مكان ، يضربون خيامهم إذا نزلوا ، فإذا ارتحلوا درس رسمهم ، ليس فيها معنى أبعث للتشوق وللحنين من هذه الرسوم الدوارس ، كانت إلى أمس عامرة بمن جاء

إليهم هذا السائر على بعيره يحث مطيته من بعيد وقد براه الشوق إلى محبوبته ، وها هو ذا يراها اليوم خلاء تحمَّل أهلها ولم يتركوا بعدهم أثراً. ماذا تراه يصنع وقد ذهب أمله فى لقاء المحبوب هباء ؟ أفيجلس ليبكى ! أم هو يقف ساعة ثم يستحث بعيره قافياً أثر هؤلاء الذين جاء فى طلبهم ، وليس أمامه فى هذه الساعة التى يقف فيها من يتحدّث إليه أو من يسائله إلا هذا الرسم الدارس يبث له شوقه ويُعلن إلى صمت البادية عنده وجده ؟ ! وهو فيما يفعله من ذلك صادق العاطفة بليغ التعبير عنها .

من عيون قصائد الشاعر الفرنسى « لا مارتين » قصيدة البُحيرة . وأبدع ما فى هذه القصيدة تحنان الشاعر لأيام كانت تجىء فيها محبوبته إلى شواطئ هذه البحيرة ، بحيرة ليمان ، فتقف معه عندها ، ويستلهمان معاً وحيها وتوحى إليه هى مزيداً من المتاع بجمالها . والبادية والرسم الدارس فيها ، والحنين إلى من تركوا وراءهم هذا الرسم حين ارتحلوا ، والشدو بما خلفوا وراءهم فى قلب المحب من لوعة ، لا يقل فى بهاء روعته الشعرية عن البحيرة وموجها والجبال المحيطة بها والسماء المطلة عليها . فإذا تحدّث بعد ذلك عن هذه الرسوم الدوارس من لم يشهدها ، بل تحدث عنها مقلداً ، فمثله فى ذلك كمثل من يتحدث عن البحيرة مقلداً « لامارتين » من غير أن يشعر بشعوره . أما وحى البادية البديعة فى صفاء جوها ورهبة صمتها وموج رملها وتتابع هضابها وجبالها ، فما يلهم الشاعر الصادق العاطفة عيون الشعر وغُرر الصور والإحساس والمعانى .

اجتازت السيارة بنا يوماً عَلَمَى التنعيم قاصدة وادى فاطمة ، وظلت فى مسيرها حتى بلغت بنا سَرِفَ ووقفت منه عند مسجد ميمونة أم المؤمنين . وقلّ من يعرف اليوم اسم « سَرِف » أو يُطلق على المكان اسماً غير مسجد ميمونة ، فقد درس هنالك كل ما سوى المسجد ، ولم يبق من المسجد إلا أطلال دوارس . وتخطت السيارة القوافل القاصدة إلى المدينة وانفسح أمامنا واد تموج جنباته بالرمال وتقوم الهضاب على جانبيه . وتمهلت السيارة حيناً ، فأدرت البصر فيما حولى . ما أجمل هواء الصحراء ! وما أجمل هذا الفضاء المترامى صمته فلا نسمع فيه

هسيساً أو نبأة ! كم مرّ ها هنا من أقوام لم يذروا من بعدهم أثراً نذكره، وكان لهم على الحياة من فسيح الأمل ما لنا اليوم . وسنقضى كما قضوا ، وسيمر بعدنا من يقول عنا ما نقوله عمن قبلنا . لكن التاريخ لا ينسى قوماً مروا بهذا المكان آتين من المدينة معتمرين يريدون بيت الله ثم صدهم المشركون عنه وكادت الحرب تنشب بينهم حتى عقد رسول الله معهم عهد الحُدَيْبية . ولكن التاريخ لا ينسى هؤلاء القوم حين جاءوا بعد ذلك بعام فدخلوا مكة وطافوا بالبيت وأتموا مناسك عمرة القضاء وأقاموا بمكة ثلاثة أيام والرسول على رأسهم ، ولا ينسى أن قريشاً جَلَتْ أثناء هذه الأيام الثلاثة عن مكة نزولا على حكم العهد الذى وقع بالحديبية فى العام الذى قبله . وبعد ثلاثة الأيام خطب رسول الله ميمونة إلى عمه العباس . ثم جاء بها بلال إلى سَرِف فبنى محمد فى خيامه بها . والتاريخ لا ينسى عشرة آلاف من المؤمنين جاءوا بعد ذلك بسنتين ومحمد على رأسهم يغذّون السير ليفتحوا مكة ، فيدخلونها ولم يلتحموا فى حرب ولم يسفكوا دماً . والتاريخ لا ينسى بعد سنتين أخريين مائة ألف من المسلمين مرّوا بهذا المكان والرسول على رأسهم وقد فرضوا حج البيت على أنفسهم ، ولا ينسى طوافهم وسعيهم ووقوفهم بعرفة وقضاءهم مناسك الحج جميعاً . نعم ! لا ينسى التاريخ أولئك المسلمين الأولين الذين مروا بهذا الدرب آتين من المدينة لأنهم هم الذين فتحوا مكة ، وهم الذين قضوا على عبادة الأوثان ، وهم الذين أقروا التوحيد فى العالم . ونحن الذين نسير اليوم فى عشرات الألوف وفى مئات الألوف من كل عام متخذين هذا الدرب الذى مروا به طريقنا بين مكة والمدينة إنما نسير على نهجهم ، نبتغى أداء فرض الحج ليغفر الله لنا ذنوبنا ، لا نريد بمسيرنا غزواً ولا فتحاً ، ولا نخاف أن تصمد قريش لقتالنا لتصدنا عن بيت الله . ما أعظم الفرق بين مسيرنا ومسير أولئك المسلمين الأولين ! هو الفرق بين المجاهد الذى يفتح الطريق عنوةً ، مخاطراً بحياته ، غير مبال يُتْمَ أولاده وحزنَ ذويه وشقاءهم ، ومن يسير فى الطريق الذى عبده المجاهد ، لا يخشى أن يصيبه من بأساء الحياة وضرائها إلا ما يصيب غيره ، دون أن يكون له فى ذلك فضل الجهاد وفضل الإقدام .

وحين بلغنا سرِفَ نزلنا من السيارة وزرنا مسجد ميمونة . وهو قائم اليوم وسط الصحراء فى عزلة الناسك ، إلا أن يزوره من يقصد إلى زيارته . فأما قبل أن يحل النجديون بالحجاز ويتولوا حكمه فقد كان أهل مكة يزورون هذا المسجد زرافات ويقيمون حوله ويشربون من البئر المقابلة لبابه فى الثالث عشر من شهر صفر من كل عام . وكانت أنباؤهم تدعو كثيرين من الحجيج إلى زيارته تبركاً بقبر أم المؤمنين ميمونة . فلما حل النجديون بالحجاز واحتلوا مكة كانت القبة القائمة على هذا القبر بعض ما هدموا ، وكان تحريم زيارة القبر والتبرك به بعض ما صنعوا . لذلك انصرف الناس عن زيارة القبر والمسجد ، وأصبح هذا المكان خلاء لا يكاد ينزله إلا من قصد إلى الوقوف عنده ومعرفة أمره .

ومسجد ميمونة أفسح من مساجد مكة ، وهو خير منها نظاماً وأجمل بناء . وجدرانه من الخارج تشهد بأن عمارته ليست بالغة فى القدم ؛ فقد حاولت أن أقف على تاريخ بنائه فلم أجد فى الكتب القديمة شيئاً عنه . وكل ما رواه الأزرقى فى كتابه (أخبار مكة) عن قبر ميمونة قوله : « قال أبو الوليد : وقبر ميمونة بنت الحارث الهلالى زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهى خالة عبد الله بن عباس ، على الثنية التى بين وادى سَرِفَ وبين أضاءة بنى غِفَار . ماتت بسرف فدفنت هنالك » . وكانت وفاة الأزرقى فى القرن الثالث للهجرة . ولم يذكر الأزرقى ولا ذكر الذين جاءوا من بعده ممن دونوا تاريخ مكة ما يدل على وجود مسجد على قبر ميمونة فى أيامهم ، فلا عجب أن يكون المسجد قد استحدث فى عهد متأخر ، وأن تكون القبة قد بنيت على القبر للتبرك فى العصر الذى أصبح التبرك بالقبور وبناء القِباب فوقها والمساجد حولها بعض ما يؤمن به جماعة من المسلمين .

ويرتفع مسجد ميمونة عما أمامه من أرض البادية ، ولكنه يتصل فى ارتفاعه بما خلفه من هضبة لا ريب أنها الثنية التى أشار إليها الأزرقى إن كان المسجد قد بنى فوق القبر حقّاً ، وأغلب الظن أنه بنى فوقه . ويصعد الإنسان إلى باب المسجد بضع درجات فيجد الجُدُر مما حوله أرفع من جُدُر مساجد مكة ،

ويرى فى شُرف البناء حلية من أقواس صغيرة متتابعة تُعيد إلى الذاكرة الطراز العربى ، ثم يرى أمامه عقدين من ورائهما المحراب ، ومن وراء المحراب القبر مكشوفاً إلى السماء بعد أن هدمت القبة التى كانت فوقه . وليس يفرش أرض المسجد حصير ولافرش أيًّا كان نوعه ، مما يدل على أنه غير مقصود ، فشأنه فى ذلك شأن غيره من المساجد خلا المسجد الحرام .

وعدنا إلى السيارة فانطلقت بنا فى الطريق بين المسجد والبئر وبلغت بنا وادى فاطمة بين العصر والمغرب . تباركت ربى ! هذا اليوم الذى جئنا فيه إلى هذا الموضع هو يوم السبت الرابع عشر من شهر مارس . ثمانية عشر يوماً قد انقضت إذاً منذ غادرت مصر . وهأنذا لأول مرة من يومئذ أشعر بنشوة الطرب لمرأى الخضرة الناضرة والزرع البهيج . نعم ! فالوادى الذى كان أجرد قاحلاً قد استحال جنة يانعة تجرى فيها جداول المياه ، وتقوم على جانبيها زروع مختلفة من نبات وشجر ، وتتنفس خضرتها عن ابتسامة عذبة تهون من وحشة الرمال والهضاب التى كانت تحيط بى مذ هبطت الحجاز . لقد شعرت لمرأى النبات فى هذا الوادى كأنما وجدت شيئاً فقدته ، وأحسست ما يحسه أبناء مصر — بلد الخصب والنماء — من الشوق والوحشة إذا التمسوا مظاهر الخصب والنماء فلم يجدوها ! وعلى حافة وادى فاطمة قامت أكواخ كأكواخ أهل العزب من سكان مصر . وأحسن أبناء هذه الأكواخ استقبالنا حين سرنا فى حذر على حافة الجدول نستنشق عبق الخضرة والحياة ، فجاءوا لنا برداء جلسنا عليه ، ودعونا إلى قهوة اعتذرنا عنها شاكرين . ووضعت فى الجدول يدى وأنا بمجلسى على الرداء كأنى فى ريب من مسيل الماء فيه ، أو أنى أردت أن أضيف إلى شعورى المعنوى بالمسرة شعوراً ماديًّا بمصدر هذه المسرة . وجاء أحد الغلمان من أهل الوادى بأبراج من قطن قيل لنا إنهم يزرعونه ، وذكروا لنا أنهم يبعثون بالكثير مما ينبتون من الخضر إلى مكة ، وأما ما يُنبتون من الفاكهة فقليل .

وأقمنا زمناً على حافة الجدول ، ثم قمنا ندور فى أنحاء هذه الحقول حتى آذنت الشمس بالمغيب . هنالك استأذنا القوم وعدنا إلى سيارتنا فأقلتنا إلى مكة ، ولَشَدّ ما كان اغتباطنا حين سمعنا ونحن على مقربة من التنعيم غناء مصريًّا

تردده قافلة تقصد المدينة على طريقة غناء الحجاج . فلما جاوزنا التنعيم ألفيتنى فرح القلب بما رأيت من ماء وخضرة وما سمعت من غناء ، وإن كان الماء جدولا وكانت الخضرة قليلة ولم يكن فى ترجيع الغناء من سبب للطرب إلا أنه مصرى . مالى لا أقنع بالقليل يوم أحصل عليه ! بل مالى لا أجد فيه غاية النّعْمة ولذاذة العيش ! أليس هذا القليل خيراً من كثير تَغَصّ به النفس وكثيراً ما يورثها الملال !

* * *

أدنى أعلام الحرم إلى مكة بعد التنعيم علَمَا الحُدَيْبية وعلَمَا الجِعْرانة . وقد مررت بعلمى الحديبية ليلا حين مجيئنا من جدة إلى مكة أول ما وصلنا الحجاز مُحرمين، ثم مررنا بهما بعد ذلك نهاراً فى طريقنا من مكة إلى جدة لنتخذ طريقنا منها إلى المدينة . والطريق بين مكة وجدة عامر بالمارة أكثر مما سواه من الطرق لكثرة المتنقّلين بين البلدين من أهل الحجاز، بَلْهَ الحجاج. لذلك يمر الإنسان فى الطريق من مكة إلى الحُديبية بمشرب قهوة يقف عنده بعضهم إذ يخرجون من مكة يستنشقون هواء الصحراء ، فأما ما بعد مشرب القهوة فالرمال والهضاب حتى نصل الحديبية . هنالك يجد الإنسان فنْدقًا من الفنادق التى أقامتها حكومة الحجاز لينزل بها من شاء . واسم الفندق أدنى هنا إلى المجاز منه إلى الحقيقة ، فتلك منازل قائمة فى الصحراء بها غرف ضيقة فى بعضها فرش لمن أراد النوم ، ولعل فندق الحديبية من خيرها . ومن بعد الفندق وعلى مسافة غير قليلة منه يجد الإنسان مسجد الرضوان ، وهو مربع مكشوف نصفه إلى السماء مسقوف نصفه الآخر بعقود الحجر تقوم على ثلاثة عمد ، وقد كتبت بأعلى محرابه هذه العبارة : « هذا مسجد بيعة الرضوان، مأثرة من مآثر حبيب المنان ، عمّره الفقير إلى رحمة الرحمن ، المغفور له السلطان محمود خان سنة ١٢٥٤ هـ » . وتجرى الرواية بأن هذا المسجد أقيم فى الموضع الذى كانت تقوم فيه الشجرة التى بايع المسلمون رسول الله تحتها بيعة الرضوان . وقد أمر عمر بن الخطاب بقطع هذه الشجرة من خوف أن يفتتن المسلمون بها لورود ذكرها فى القرآن فيتخذوا منها

متنسكًا من المناسك يحجون إليه . وكان عمر رضى الله عنه حريصًا غاية الحرص على أن يظل التوحيد فى صفائه لا تشوبه شائبة ، ولا يرضى أن يسبغ المسلمون على هذه الأماكن من التقديس ما يخاف معه الشرك ، ولا يرضى أن يكون التقديس لمكان غير بيت الله ، وألا يحج المسلمون إلا إياه .

ولقد وقفت عند مسجد الرضوان هذا ، وجعلت أصور لنفسى موقف المسلمين الذين صحبوا محمداً قاصدين العمرة ثم بايعوه فى هذا المكان على جهاد المشركين ، وأذكر ما كان من سياسة محمد مع ذلك وحرصه على السلم حتى كان عهد الحديبية فتحًا مبينًا . فقد جاء المسلمون معه يريدون الطواف بالبيت معتمرين ، فلما سمعت قريش بمسيرهم قررت أن تحول دون دخولهم مكة ، حتى لا يقال : دخلها محمد عليهم عنوة . وعقدت لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين . وتراءى الجمعان وأبدى المسلمون استعدادهم للقتال . ولكن النبى لم يخرج غازيًا بل خرج حاجًا ، وهو قد خرج مسالمًا لا يريد حربًا ، لذلك انحرف بمن معه عن طريق مكة وساروا حتى بلغوا الحديبية وهنالك نزلوا . وأوفدت إليه قريش من يسأله : ما الذى جاء به ؟ ولم يعجب قريشًا أن اقتنع رسلها بأنه جاء حاجًا لا يريد حربًا ، بل أوفدت غيرهم ثم غيرهم . ورأى رسل قريش تحفز المسلمين للحرب لولا حرص النبى على السلم ، لكنهم لم يستطيعوا إقناع أهل مكة بما رأوا . هنالك أرسل النبى عثمان بن عفان سفيراً إلى أهل مكة . وغاب عثمان عندهم حتى ظن المسلمون وظن النبى أنه قتل ، وعظم عليه هذا الغدر من قريش ، فدعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة فى الوادى فبايعوه جميعًا على ألا يفروا حتى الموت ، وهنا كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . ولما أتم القوم البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان . وإن المسلمين لينتظرون يوم الظفر أو يوم الاستشهاد إذ علموا أن عثمان لم يقتل . ثم جاءهم عثمان يروى نبأ قريش وأنهم أيقنوا أن النبى وأصحابه إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت ، لكنهم وقد تأهبوا للقتال لا يستطيعون أن يدعوه يدخل مكة أو تتحدث العرب بأنه دخلها عنوة بعد

أن هزمهم ، وبذلك تسقط فى نظر العرب مكانتهم ، لذلك هم يصرون على موقفهم منه ، موقف الخصومة إلى أن يجدوا من خوف العار مخرجاً . وتفاوض رسل قريش مع الرسول وانتهوا إلى عهد الحديبية أن تتهادن قريش والمسلمون ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة هذا العام على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام .

جعلت وأنا بموقفى من مسجد الرضوان أصور لنفسى هذا الموقف من مواقف رسول الله ، فيبلغ منى الإعجاب بالحكمة السياسية التى أملت عليه خطته ، والتى جعلته يرغب عن القتال ويحرص على السلم ويبلغ من ذلك حتى يغضب عمر بن الخطاب على قوة إسلامه وعظيم إيمانه ، ثم تشهد الحوادث بأن خطته كانت الحكمة حقاً ، وأن ما أغضب عمراً وكثيرين من أصحاب الرسول من طول أناته وعظيم صبره وجميل محاسنته لخصمه ، إنما كان الفتح المبين الذى مهد للإسلام أن يزداد انتشاراً وللمسلمين أن يفتحوا مكة بعد عامين اثنين من صلحهم . وكذلك كان عهد الحديبية حجراً لا ينقض فى سياسة الإسلام والمسلمين .

وتقع الجعرانة إلى الشمال الشرقى من مكة ، على حين تقوم الحديبية إلى الغرب المنحرف شمالا منها . ويقع طريق التنعيم وسرف ووادى فاطمة وما وراء ذلك فيما بين الحديبية والجعرانة . والذاهب إلى الجعرانة ينحرف عن طريق السيارة إلى الطائف مغرباً إلى الشمال بعد أن يبلغ من طريق الطائف منتصف ما بين حراء والشرائع . ولا يشير كثيرون إلى الجعرانة على أنها من أعلام الحرم ، لأنها لا تقع على طريق متصل بما وراء الحجاز من بلاد يقام لأهلها ميقات الحل كى يحرموا عنده حين مجيئهم إلى مكة معتمرين . لكن ما بقى للجعرانة على التاريخ من ذكر ، وما كان من إحرام الرسول صلى الله عليه وسلم منها عام حنين إحرام العمرة ، قد جعلها أفضل مكان فى حرم مكة للإحرام بالعمرة . من ثم كان الحديث عن حرم مكة وأعلامه لا يتم إلا إذا تناول الجعرانة ، وكان المؤرخ الذى يسير فى أثر الرسول وينسى الجعرانة قد نسى موقعاً فى تاريخ الإسلام مذكوراً . وهذا ما استحثنى للذهاب إليها والوقوف عندها

والشرب من مياه بئرها والتصعيد فى الهضاب المحيطة بها .

روى الأزرقى فى (تاريخ مكة) أن النبى لما غزا حُنَيْنًا وحاصر الطائف ثم رجع منها انثنى فى طريقه نحو مكة إلى الجعرانة ، « فقسم بها مغانم حنين فى ذى القعدة ثم دخل مكة ليلا معتمراً فطاف بالبيت وبين الصفا والمروة من ليلته ، ومضى إلى الجعرانة فأصبح بها كبائت ؛ فأنشأ الخروج منها راجعًا إلى المدينة فهبط من الجعرانة فى بطن سرف » حتى لقى طريق المدينة من سَرِف . وذكر الفاسى فى (شفاء الغرام) أن النبى أحرم من المسجد الأقصى الذى تحت الوادى بالجِعْرانة ، ولم يجز الوادى إلا محرمًا ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ، وأن أهل مكة يحرمون كل عام من الجعرانة ليلة سبع عشرة من ذى القعدة ، وربما أحرموا منها العشىّ فى السابع عشر إذا خافوا من الإقامة بها إلى الليل .

وبالجعرانة مسجد يقابل البئر ، وهو مسجد من طراز مساجد مكة ، وقد ذكره الأزرقى فى تاريخه ، فدل بذلك على قدمه ، وأضاف أن عمرة النبى قد كانت من المكان الذى يقوم المسجد اليوم به ، وأنه خرج فى عمرته هذه إلى مكة ليلا وأصبح بالجعرانة كبائت ، لذلك خفيت هذه العمرة على كثير من الناس .

ومسجد الجعرانة اليوم أدنى إلى أن يكون أثراً . أما بئرها فعنى بها ، أقيم بناء مستدير حول فوهتها وعلقت فيها دلو يشرب الناس منها . وذلك أن ماء هذه البئر عذب ليس كمثله بمكة ماء ، والموسرون من أهل مكة يؤثرونه على ماء زُبَيْدة ويجيئون به إلى دورهم لأنه أصلح من كل ماء غيره . وأشهد إنهم لصادقون ، فلطالما شربت من هذا الماء بمنزل مضيفى فلذّت لى عذوبته وأعجبتنى رقتُه .

والطريق من مكة إلى الجعرانة طريق صالح للإبل وللسيارات جميعًا . يخرج الإنسان من مكة حتى يحاذى حراء ويكون فى أول طريق مِنًى ؛ هنالك ينعطف يسرةً بين الجبال دائراً حول حراء . ولقد استمهلت السائق فسار مبطئًا فى هذا المنعرج كيما أملأ ناظرى من جبل النور فى عزلته ولما أكن قد صعدت

إليه ، وكان لى بالوقوف أمامه وبالتحديق فيه من الشغف ما ازداد بعد أن وقفت أمام الغار الذى نزل الوحى الأول على الرسول فيه . ثم انبعثت السيارة فى طريقها بين الجبال حتّى نفذت بنا إلى فرجة واد ضيّق نَمَتْ فيه أعشاب اتخذت منها الإبل مرعاها ، فهى تمرح منها فى كلأ تجد فيه الشبع والنعمة ، وهى تسير أسرابًا فى رعيها لا يحول بينها وبينه وعث الطريق ولا التصعيد فى الجبال . ولشدّما كانت دهشتى حين رأيت بعضها يتسلق الهضاب إلى قممها يبحث فيها عن أسباب العيش . فقد ألفيت جمالنا فى مصر رقيقة العظم على ضخامتها حتى ليبلغُ أحدها حجم اثنين من جمال الحجاز . ورقة عظمها تدعو للإشفاق عليها أن يصيبها مكروه إذا زلِقت فى اليوم المطير ، أو هفت خطوتها عند قناة ، أو ارتطمت بحجر . فأما هذه القطعان من إبل الحجاز فتسير أسرابًا وتجرى أفراداً وتتسلق الجبال ولا يأخذ الإشفاق عليها راعيها . ولعلها كذلك تفعل لأنها نشأت فى أحضان الطبيعة معتمدة على ذاتها ؛ فالبادية بيئتها ، وهى تعيش فيها كما يعيش الإنسان فى داره . أما بيئتنا المصرية فى الوادى فالجمل فيها ضيف على دواب الحمل الأخرى ، وإن يكن سفينة صحارانا كما أنه سفينة صحراء العرب . وكيف لا تعتمد هذه الإبل فى بلاد العرب على نفسها فى تسلق الجبال والتماس الكلأ بين الصخور وليس لديها سبب غير ذلك من أسباب العيش ! والجبال فى البادية تتصل بالأودية ويتصل بعضها ببعض ، فهى محيطة بهذه الإبل حيثما توجهت وأنى سارت .

ولقد أحاطت بنا هذه الجبال طول الطريق إلى الجعرانة ، فما تكاد تنفرج إلى أفسح من الطريق إلا فى أماكن قليلة ، مع ذلك تتابعت أسراب الجمال تسير عشرات وعشرات ، وتسير مطمئنة لا تزعجها السيارة ولا تدعوها إلى الفرار لطول ما ألِفتها فى السنوات الأخيرة . وتياسرت السيارة بعد مسير ساعة فإذا واد فسيح ينفرج أمامنا ويمتد النظر فى فسحته إلى حيث يشاء ؛ ذلك وادى الجعرانة . وانكشف لنا المسجد وتبدّت لنا فوهة البئر ووقفت السيارة بينهما ، فأسرع إلينا صغيران ينتظران الخير من مجيئنا ومن وقوفنا .

وزرت المسجد وشربت من ماء البئر ووقفت أسرح الطرف فيما حولى وأستعين بمنظارى المقرب أرى به ما يكسو قمم الجبال من كلأ لا يُفلّ من حدة عبوسها . وماذا عسى أن يكشف المنظار عنه غير هذا الكلأ وليس هاهنا إلا رمال الوادى والجبال المحيطة به ! وقصدت هضبة على مقربة من المسجد صعدت فيها حتى بلغت منتصفها ، ثم درت بالمنظار كرّة أخرى فيما حولى فلم أر غير ما رأيت من قبل ، ولم أر فى صخور هذه الجبال شيئاً يلفت النظر .

وسألت صاحبى : أهذا المكان موسم يقصده الناس فيه كما كانوا يقصدون أسواق العرب قبل الحج إلى مكة ؟ قال : إنهم يخرجون إلى هذا المكان فى شهر رمضان فيُحرمون بالعمرة ؛ ذلك لما روى عن النبى عليه السلام أنه قال : « عمرة فى رمضان تساوى حِجةً معى » ؛ كذلك كانوا يفعلون قبل حكم الإخوان ، ولا يزالون كذلك يفعلون وإن كانوا أقل على هذه العمرة إقبالا .

وسألته فى هذا الحديث وروايته عن النبى ، فابتسم وقال : لعلك تحسبه من روايات المكيين مما يجذبون به الغلاة فى الدين إلى مدينتهم . أما أنا فلا أحقق سنده ، لكنى أحسبه يرجع إلى الأسوة بالنبى فى عمرته من الجعرانة بعد عودته من الطائف ، وإن كان هذا الحديث يجعل العمرة فى شهر رمضان ، وكانت عمرة الرسول من الجعرانة فى ذى القعدة . ولئن صح ظنك ليكونن قصد رواته أن يباعدوا ما بين عمرة شهر رمضان والحج ليجعلوهما موسمين ، بدل أن تجتمع العمرة والحج فى موسم واحد .

قلت : لك رأيك ؛ ولكننى أفكر الساعة فى المسلمين الذين عادوا يقتسمون هاهنا فىء حُنَين . فالذين سمعوا حديث العمرة فى شهر رمضان لا يزيدون على مائة أو بضع مئات ، أما الذين عادوا مع النبى من حصار الطائف فكانوا ألوفاً بلغت العشرة أو زادت عليها ، وكان الفىء الذى جاءوا يقتسمونه هنا ستة آلاف من الأسرى واثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفا من الشاء خلا

أربعين ألف أوقية من الفضة . أفشهد هذا الوادى فى كل ما مضى من تاريخه مثل هذا العدد من الناس ومن الإبل والشاء! ومحمد على رأس المسلمين يقسم بينهم هذا الفىء ، إذ جاءه وفد من أسلم من هوازن يرجونه أن يردّ عليهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم . ويقول له أحدهم : « يا رسول الله إن فى الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا[1] للحارث ابن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به لرجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين » .

كلا : ما عرف تاريخ الجعرانة كله يوماً كهذا اليوم . وإن من الأرض لبقاعاً جرداء ، قلّ أن تصلح لمقام أو حضر ، ثم يكون بها حادث يتغير له وجه التاريخ ، فإذا هى علم باق بين الناس ذكره ، وإن عادت بعد هذا الحادث جرداء غير صالحة لإقامة أو حضر . وهل ينسى الجعرانة من يعرف حُنَيْناً ! وهل ينساها من يعرف سيرة محمد بن عبد الله ، وهى اليوم كما كانت على التاريخ ، فيما خلا أيام حُنَين ، واد غير ذى زرع ، لا يستوقف النظر منه إلا ما يحتفظ به من ذكرى أيام حنين ! ولعل لهذه البقاع من الأرض عزاء فيما تحتفظ به من هذه الذكريات الخالدة عما تعانيه من عزلة وإمحال ، كما أن من الناس من يجد فى ذكريات ماضيه من المجد ما يملأ حياته خيراً ألف مرة مما يملأ أكثر الناس الحياة به مما يثيرونه فيها من ضجة وضوضاء .

جالت هذه الخواطر بنفسى وأنا بموقفى فوق الهضبة المجاورة لمسجد الجعرانة أجيل بصرى فى هذا الوادى الخلاء اليوم وقد ملأته الذكرى بما أعاد إلى خيالى صورته يوم قسمة الفىء مليئاً بالحياة وضجتها . مليئاً بالرضا والتذمر ، وبالصفو والغضب . عفا رسول الله عن نساء هوازن وأبنائها ، فغضب لذلك رجال حديثو عهد بالإسلام ، وأفشى محمد أعطياته فى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة ، فغضب المهاجرون والأنصار وتهامسوا ، وبلغه الهمس فوقف مُغْضَباً إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال :

---

(١) ملحنا لفلان : أرضعنا له .

« أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس . والخمس مردود عليكم » . ولم يرض عباس بن مرداس عن نصيبه الذى أخذه فقال النبى : « اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه » . فأعطوه حتى رضى فكان ذلك قطع لسانه . ويقول الأنصار بعضهم لبعض : « لقى والله رسول الله قومه » ، فيحدثهم النبى ويقول فى ختام حديثه لهم : « ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . فيتأثرون ويبكون ويقولون : « رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا » .

أية حياة كالحياة التى كان يموج هذا الوادى ذلك اليوم بها ؟ ! لقد ارتسمت صورته فى هذه الساعة أمام خيالى فعج الوادى بمن فيه من الناس وما فيه من الإبل والشاء ، وخلتنى أراهم جميعًا ، ترهق الذلة وجوه الأسرى ، وتبدو العزة على وجوه المسلمين فى حالى الغضب والرضا ، وخلت التاريخ مطلاً من عليائه على هذا المشهد وكأنما قرأ فى لوح القدر ما ستتجه الأمة العربية إليه بعد أن مهدت هذه الغزوة لتوحيد صفوفها ، وما ستقوم به من فتح العالم ونشر الإسلام فى ربوعه ، ثم ما سيكون بعد ذلك من ثورات وتقلبات ومن انحلال وبعث ، حتى ينصر الله كلمته ، ويعود الدين كله لله .

ونادانى صاحبى فعدنا إلى السيارة فارتدت بنا صوب مكة . فلما بلغنا حراء كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان القمر يحبو من ناحية المشرق ، وكان النسيم صفوًا عليلاً . وقضينا ساعة نتحدث ثم تواعدنا أن نزور وادى نعمان عصر اليوم التالى .

ووادى نعمان يقع بعد عرفة ، والذاهب إليه يسلك طريق منى إلى المزدلفة فعرفات ، وكذلك فعلنا . فلما جاوزت السيارة بنا قصر الملك قال صاحبى : هلمّ بنا نقف عند مسجد البيعة فإنى لأظن العقبة الكبرى كانت عنده ولم تكن عند جمرة العقبة . ووقفت بنا السيارة إلى يسار الطريق قبالة

المسجد ، فسرنا بضع عشرات من الأمتار حتى بلغناه ، وألفيناه مقفلا ، فدُرْنا حوله فدلتنا جدرانه على أنه مسقوف كله أو أكثره على خلاف مساجد مكة ، ورأينا شيئًا يشبه الكتابة بظاهر محرابه فحاولنا عبثًا أن نقرأه . ويقع المسجد الآن فى فسيح من الأرض ، تحيط الجبال بكل نواحيه إلا ناحية الطريق ، مما يدل على أن هذه الجبال نسفت نسفًا ، أو دُكّت دكًّا ، لينكشف المسجد لمن يريد زيارته . لذلك يتعذر على الإنسان أن يجد الشعب الذى تسلل إليه الأنصار جوف الليل من أيام التشريق حين بايعوا النبى بحضرة عمه العباس بيعة العقبة الكبرى . وأغلب الظن أن يكون هذا الشعب قد نُسف فيما نُسف من الجبال ، وأن مسجد البيعة قام مكانه .

يرجح هذا الرأى ذهاب المسجد فى القدم إلى القرن الثانى للهجرة ، فقد ذكره الأزرقى فى كتابه (تاريخ مكة) وإن لم يصفه . وفى كتاب قطب الدين النهروانى (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) ذكرٌ لمسجد البيعة وبنائه . قال : « مسجد البيعة مسجد على يسار الذاهب إلى منى ، بينه وبين العقبة التى هى حد منى غَلْوة أو أكثر ، وهو مسجد متهدم فيه حجران مكتوب فيهما ما يدل على ذلك . فى أحدهما : « أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله تعالى ببناء هذا المسجد، مسجد البيعة التى كانت أول بيعة بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقدها العباس بن عبد المطلب وأنه بنى فى سنة ١٤٤ هـ » . والمشار إليه أبو جعفر المنصور العباسى . وعمره أيضًا المستنصر العباسى ، كما فى حجر آخر : « بناه فى سنة ٦٣٩ ، وتلك الأحجار ملقاة بهذا المحل الخراب يخشى عليها الضياع فيندثر هذا المسجد . وكان المرحوم إبراهيم دفتر دار مصر سابقًا أمين عرفات رحمه الله شرع فى تجديد هذا المسجد وأسسه وبنى بعض طاقاته وجدرانه ، وتُوُفّى إلى رحمة الله قبل أن يُتمّه ، وما وفق أحد بعده إلى الآن لإتمامه » .

وهذا الذى ذكره النّهروانى وذكره غيره ممن أرّخوا مكة هو حجة القائلين بأن هذا المسجد يقوم حيث كانت البيعة ، وأن جمرة العقبة لا تؤرخ

العقبة الكبرى ، وإن أمكن أن تؤرخ العقبة الصغرى أو العقبة الأولى . يؤيد ذلك أن البيعة الكبرى وقعت فى أواسط أيام التشريق بمنى حيث يجتمع الناس من مختلف بلاد شبه الجزيرة وهم لما يؤمنوا برسالة محمد، ويرون مثل هذه البيعة حِلْفًا لحربهم . ولقد حدث بالفعل بعد أن تمت هذه البيعة أن سمع المسلمون صائحًا يصيح بقريش : إن محمداً والصُّبَّاء معه قد اجتمعوا على حربكم . وفى رواية أخرى : إن الأوس والخزرج بايعوا محمداً على أن ينصروه . وقد فزعت قريش لما بلغها من ذلك . وفزعُها هو الذى جعلها تحسب لهجرة محمد من مكة ألف حساب . فمن الحق إذاً أن تكون البيعة قد تمَّت بعيداً عن مجتمع الناس بمنى ، وذلك حيث يقوم اليوم مسجد البيعة .

تقوم مساكن منى بعد هذا المسجد ، ولقد تابعنا السير إليها ونحن نعلم أنها لم يبق بها من ضجة الحج كثير ولا قليل ، لكننى لم أكن أحسبها موحشة بمقدار ما رأيتها حين دخلناها . لقد خلتها بلداً أثريًّا كمدينة « حابو » وما إليها من مدن الآثار بالأقصر ، خيم عليها سكون عميق كسكون البادية حيث لا حياة ولا أنيس . لا تسير فيها الإبل كما تسير فى طريق الجعرانة . فليس فيها للإبل مرعى ، ولا تؤنسها القوافل إيناسها طريق المدينة ، فلم يبق للقوافل بعد أيام التشريق بها من حاجة . وكل ما بقى من أثر أيام النحر بعض مناضد معدودة فى مكان كان مُقْهًى فى الأيام المذكورة وهو اليوم صفصف لا ترى فيه إنسًا .

وقفت السيارة أمام هذا المكان ، ونادى صاحبى نداء من يطلب المعونة وجاء غلام لا أدرى من أين خرج ، فطلب إليه أن يجيئنا بمحمد على . وانطلق الغلام ، فذكر لى صاحبى أن محمداً عليًّا هذا من أهل منى ، وأن نسبه يرجع إلى قريش أجداد النبى ، وأن قبيلته تقيم هاهنا ، ولعلها البقية الباقية حول مكة من هؤلاء العرب الأقدمين . وأضاف : وتقيم قبائل بالطائف وبغير الطائف من أرض الحجاز تتسمى باسم قريش ، ولست أدرى مبلغ الصحة فى انتسابها إلى أجداد الرسول .

وأقبل محمد عليّ فلم أشك إذ رأيته فى أنى أرى قرشياً صميماً تبدو العروبة الخالصة على محياه ، أسمر السَّحْنة ذو عينين سوداوين شديدتى البريق ، وشعر كَثّ فاحم ، وأنف أقنى ، وشفاه رقيقة ، معتدل القامة ، عريض الأكتاف ، ينبئ مظهره عن رجولية بدوية لا تعرف الإذعان ولم تعرف الحضارة . ترى أهو مَثَل لأهل قبيلته فصورتهم صورته ، ورجوليتهم رجوليته ؟ أما النساء ، فلم أر منهن ما أحكم به على جمال كان فتنة لشعراء العرب الغَزِلين .

وتقدّمنا محمد عليّ مصعّداً فى الجبل القائم عن يسار الذاهب إلى عرفات ، ووقف عند صخرة مفلوقة من وسطها قال : إنها مَجَرّ الكبش ، وإن سكين أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام أخطأت ابنه إسماعيل لما تلّه للجبين ليذبحه فمسّت الصخرة ففلقتها . وتقوم على مقربة من هذه الصخرة صخرة أخرى أضخم منها يدور حولها طريق هو الذى تسلقنا منه ، هذا الطريق هو مجرّ الكبش حيث سار إلى إبراهيم ليذبحه فداء لإسماعيل . وكان فى هذا المكان مسجد عليه قبة يقال له مسجد الكبش يؤمه الحجّاج ، فهدمه الإخوان الوهابيون .

ورافقنا محمد على إلى مسجد الكوثر ثم إلى مسجد الخَيْف ، وذكر أن القبة التى تتخذ مكبرية (مبلغة) بالخيف تقوم موضع الخيمة التى صلى بها النبى فى حِجّة الوداع . والتاريخ لا ينفى هذه الرواية ، والثابت فيه أن المسجد لم يكن يومئذ كما هو اليوم ، بل كان خلاء تحيط به جدران بسيطة ، وإنما استُحدثت عمارته فى القرن الثالث للهجرة بأمر المعتمد الخليفة العباسى ، ثم جُدّد بعد ذلك فى القرن السادس ، وأنفق أهل التقوى من المسلمين مبالغ طائلة لصيانته . وفى القرن التاسع أمر سلطان مصر قايتباى فبُنى المسجد كله من أساسه بناء محكماً ، وأقيمت القبة موضع مصلى النبى ، وبُنيت إلى جانبها مئذنة من طراز مآذن مصر ، كما بنيت مئذنة أخرى على باب المسجد . وقد عمّر بعد ذلك مع بقاء بناء قايتباى على أصله .

ويقع غار المرسلات بجبل ثَبِير إلى الجنوب من مسجد الخيف . وهذا الغار

يسمى اليوم غار الكوفية أو الطاقيّة ، ويقص المطوّفون أن النبي اختفى به فلان الحجر موضع رأسه فدخلت طاقيته أو كوفيته فيه . وإنما سمى من قبل غار المرسلات لما يذكرونه من أن الله أوحى إلى النبي سورة المرسلات فيه . وكان الحجاج يؤمّونه للتبرك به ، ويزدحمون عنده حتى يبلغ ازدحامهم أشدّه ، أما اليوم فقد قلوا نزولا على مذهب حكام الحجاز فى التبرّك .

والمَشْعَر الحرام يقع بالمزدلفة بين منى وعرفات . ويمرّ الإنسان فى مسيره من منى إلى المشعر بواد اشتهر الآن باسم وادى النار ، وكان يدعى من قبل وادى مُحَسِّر . ويقع هذا الوادى الأجرد بين جبلين يدعى أحدهما جبل قُزَح ، ويزعمون أن واقعة الفيل المشار إليها فى القرآن وقعت فيه . والتاريخ المعروف لا يروى أن واقعة حدثت فى عام الفيل، إنما يروى أن أبْرهَة حاكم اليمن جاء على فيله ومن ورائه جيشه لهدم البيت بمكة بعد أن رأى انصراف الناس عن البيت الذى أقامه وزخرفه بصَنْعاء ، وأنه نزل بظاهر مكة ودعا إليه قوماً من أهلها وعلى رأسهم عبد المطلب جد النبي . ورأى أهل مكة أنهم لا يُطيقون قتاله فأخلوا مكة عشيَّة اعتزم دخولها لهدم البيت . فلما أصبح أبرهة وجد الجُدرىّ تفشّى بجيشه تفشياً أفزع الناس وأفزعه فارتدّ عن مكة ، وما إن بلغ اليمن حتى مات . ولعل هذا الذى أصاب أبرهة وجيشه هو الذى دعا إلى تسمية هذا الوادى باسم وادى النار ، ووادى الحسرة أو مُحَسِر ، لأن نار المرض أصابت القوم فانقلبوا إلى قومهم فى حسرة خاسئين .

أمّا المشعر الحرام بالمزدلفة فمسجدٌ صغير ، إن صح أن يسمى الفضاء من الأرض مسجداً إذا أحيط بجُدُر قصيرة تحدّه . وكل ما يدل على المشعر الحرام مئذنة وسط هذا الفضاء تضاء أثناء الحج . وفى جوار المسجد بازانُ مياه حسن البناء ذو فوّهة يستقى الناس منها ، ويتصل بمجرى الماء المنحدر من نَعْمان إلى مكة والمعروف بعين زُبَيْدة . وللبازان درج ينزل الإنسان فيه إلى حيث يصل إلى فوّهة الماء ، فأما ما حول ذلك ففضاء المزدلفة تحيط به جبال أحدها قُزح الممتد من قُبالة جبل المحسِّر .

ولم يكن بهذا المكان مسجد على عهد الرسول ، بل كان المشعر جبلا فى هذه الأودية اعتادت العرب فى حجها أن تشعر جمالها عنده (أى تضربها فى صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم) . وكان العرب قبل الإسلام يوقدون النار فوق قزح عند المزدلفة كى يهتدى بها الصاعد من منى إلى عرفات ، والمفيض من عرفات إلى منى . وأوقدت هذه النار فى عهد النبى وفى الصدر الأول من الإسلام إلى عهد عثمان . أما المنارة القائمة اليوم فلم تشيد إلا بعد ذلك بقرون . ويذكر النهروانى أن أحدث بناء لها كان سنة تسع وخمسين وسبعمائة أو السنة التى بعدها فيما علم . وبناء المشعر الحرام من البساطة بما رأيت مما يتفق مع هذه البيئة البدوية المحيطة به . ولو أن هذا البناء فى غير الحجاز وورد ذكر مكانه فى كتاب مقدس كما ورد ذكر المشعر الحرام فى القرآن ، لشاده أهله فى أضخم عمارة وأجملها .

كان الطريق ما بين المزدلفة وعرفة ضيقًا فى قرون الإسلام الأولى ، فكان من السنة المستحبة أن يتفسح الإنسان لغيره ما استطاع ، أما الآن فقد انفسح بما لا تخشى معه الزحمة إلا فيما ندر فى بعض سويعات الإفاضة . وهو يمر بجبلين متقاربين هما مأزما عرفة ، ويمر بنمرة حيث يقوم المسجد بالمكان الذى وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتطيًا ناقته القصواء فخطب الناس فى حجة الوداع . ويطلق على هذا المسجد أسماء : مسجد نمرة ، ومسجد عرنة ، وجامع إبراهيم ، ومصلى عرفة . ونمرة جزء من بطن عرنة ، فالتسمية بهما نسبة إلى المكان . أما اسم مسجد إبراهيم فيرجع إلى ما يقال من أن جبريل علم إبراهيم أبا الأنبياء شعائر الحج وهما فى هذا المكان . فأما مصلى عرفة فاسم يطلق لأن الحجاج بعرفة يجمعون فيه بين صلاة الظهر وصلاة العصر جمع تقديم تأسيًا بالرسول فى حجة الوداع . ويقع المسجد على مقربة من علمى عرفة . وهو فسيح مترامى الأطراف ، كما تقدم القول ، له محراب يرتفع ثلاثة أمتار وقد أحاطت الأروقة به من جميع جوانبه . وصحنه مكشوف تقوم فيه مكبرية لصلاة يوم عرفة . ويرجع إنشاء هذا المسجد إلى القرن الثانى بعد الهجرة . وقد عمره

ملوك المسلمين فى مصر وفى غير مصر بعد ذلك غير مرة .

تقع بطحاء عرفة على يسار الصاعد إليها من المزدلفة مارًّا بمسجد نمرة . وفى الجانب الآخر من هذه البطحاء يقع مسجد الصُخَيرات ، وهو اليوم أثر متهدم كما شهدت . وقد تخطت بنا السيارة بعده أثناء وادى نَعْمان والجبال تنفسح عنا تارة وتقترب منا أخرى ، حتى بلغت بنا مصدر عين زُبَيْدة التى تُروى مكة وتروى الحجيج اليوم ، والتى تعتبر عملا من الأعمال الهندسية الخالدة الاسم على التاريخ ، وإن تغيَّرت من بعد وتطوّر رسمها مع تقدم العلم .

وسميت هذه العين باسم زبيدة زوج أمير المؤمنين هارون الرشيد لأنها أول من أجراها ، فقد كانت مكة قبلها تستقى من الآبار والعيون ، وكانت الآبار كثيراً ما تغيض والعيون كثيراً ما تُطَمّ . وقد كان معاوية بن أبى سفيان أجرى الماء إلى مكة من العيون والآبار فى قنوات واتخذ حياضًا بعرفة لسقيا الحجيج منها ، بيد أن هذه القنوات والحياض لم تلبث أن تخرَّبت وأصاب الناس بذلك جهد شديد . هنالك أمرت زبيدة بإجراء عين حنين بوادى نخلة إلى مكة بعد أن اشترت الأراضى التى كانت مياه العين تسقيها ، كما أمرت بإجراء عين من وادى نَعْمان إلى عرفة . وتنبع عين نعمان من جبل كَرَاء الذى يصل بين عرفة والطائف . وقد أجريت مياه نعمان حتى بلغت منى ، وتعذر إجراؤها بعد ذلك إلى مكة لشدة صلابة الأرض . وتعرَّض هذا العمل لأفاعيل الزمن ، فكان يتخرب أحيانًا وينقطع منه الماء عن مكة وعن عرفات أحيانًا . ولقد أمر كثيرون من أمراء المؤمنين بإصلاحه فى عصور وأزمان مختلفة ، وأنفقوا عليه نفقات طائلة ، لكن ذلك لم يحل دون تخربه واضطراب مسيل الماء إلى مكة وإلى عرفة . فى النصف الأخير من القرن العاشر الهجرى طلبت الأميرة فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان الإذن فى تعمير العيون وفى القيام بعمل جديد عظيم هو إيصال ماء نعمان إلى مكة . وكان المال المطلوب لذلك ثلاثين ألف دينار . وأذن لها أبوها وتم هذا العمل العظيم فى عشر سنوات .

وكان يوم تمامه من أعياد مكة الكبرى ، تصدّق الناس وأجروا الخيرات وقاموا من أعمال البر بما أعاد إلى ذاكرتهم ما فعله أسلافهم يوم أتم عبد الله بن الزبير بناء الكعبة .

ولقد طغت السيول بعد ذلك غير مرة على مجارى هذه المياه تحت الأرض ودخلت الأتربة من البازانات إليها ومسّت الحاجة إلى إصلاحها . وكان والى مصر محمد على ممّن أصلحوها . ولا يزال المهندسون يرون تعديل نظام المجرى الحالى تعديلا يجعل مياهه أبعد عن التلوث وعن أن تفسدها الأتربة والرمال التى تدفعها السيول .

ولقد دهشت أيما دَهَش ونحن نسير فى هضاب نعمان حين ذكر لى صاحبى أننا بلغنا مبدأ العين . فهذا المبدأ أشبه ببئر تنحدر إليها المياه لتسرى خلال الجبال ولا يبدو للناظر منها شىء ، وليس يبدو من المجرى غير البازانات المختلفة يراها الإنسان فى الطريق من مكة إلى عرفة ويراها فى أماكن مختلفة من مكة . ولست أدرى لعل صاحبى لا يعرف أين تبدأ العين حقًّا ، وإن أكد لنا رجل لقيناه هناك ما قاله صاحبى رغم إلحاحى فى السؤال وإظهار التردد فى تصديق النبأ .

يسير الطريق بعد نعمان إلى شدّاد على سفح جبل كَرَاء . ومن هناك يبدأ الصاعد إلى الطائف صعوده حتى يبلغ جبل كُرّ ، ثم ينحدر منه حتى يبلغ الطائف . ولم نجاوز نحن نعمان إلى ما بعده ، بل قفلنا منه راجعين إلى مكة .

هذا الطريق الذى سرنا فيه كثيراً ما طرقه الرسول عليه السلام فى حياته ، وإن كان مسيره فيه فى حجة الوداع أشهر ما يذكر التاريخ . كثيراً ما سلكه فى السنوات الأولى من بعثه وإلى حين هاجر من أم القرى ، فهو قد كان يذهب فى موسم الحج يبادئ القبائل بالدعوة إلى دين الله . وخير مكان كان يلقاهم فيه عرفة ومنى . فى تلك الأيام النائية منذ أربعة عشر قرنًا كان الرسول يخرج وحيداً أو فى نفر ممن اتبعوه ، فإذا أنس إلى قوم من القبائل الآتية إلى الحج اتصل بهم وتحدّث إليهم وجادلهم بالتى هى أحسن ودعاهم

إلى دينه ، ومن هؤلاء من كان يردُّه ردًّا غير جميل ، ومنهم من كان يُنصت إليه ثم ينصرف عنه مفكراً ، ومنهم من لم يكن الرسول يكاد يتركه حتى يجيئه من قريش من يحذره مغبَّة دعوة فرَّقت أهل مكة شيعًا . ويرى الرسول إعراض الناس عنه وتحذير قومه إيَّاهم منه فلايصدُّه ذلك عن دعوته ، بل يزيده استمساكًا بالدعوة وحرصًا عليها . وتُؤذيه قريش بمساءتها ويؤذيه شعراؤها بهجائهم فلا يَهِن ، ولا يتردَّد . وينقضى العام ويتلوه العام وهو أشد على الدعوة حرصا . والناس ينأون عنه ، وقريش تحارب دعوته ، فلا يصرفه عنها صارف وقد أمره ربه أن يبلغ رسالته . لقد كنت أتصوَّر هذه المواقف ونحن نمرُّ بهذه الأماكن ، ثم أتصور موقف الرسول الذى صدَّقه العرب جميعًا فى حجة الوداع ، فيشيع الإكبار فى نفسى وأكاد أسمع بأذنى قوله تعالى : « قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقا » .

وهذا الطريق الذى رأى محمدًا يطارده قومه وتزورُّ القبائل عنه ثم رآه من بعد ذلك وقد فتح الله له فانضوى العرب كلهم تحت لوائه ، هو الطريق الذى رآه وليدًا يوم حملته حليمة السعدية معها من مكة ذاهبة إلى الطائف فى طريقها إلى قبيلة بنى سعد بن بكر . نعم ! فى هذا الطريق سار الرضيع تحمله مرضعته الفقيرة على حمارها تتخطى به بين الجبال ثم تصعد به سفوح كُرٍّ وكراء ، وتتخطى به بوادى الطائف حتى تصل إلى قومها !!

أليس هذا عجبًا ! الطريق الذى سار فيه محمد طفلا لأول ما ولد هو الطريق الذى سار فيه شيخًا يعلن إلى الناس أن رسالة ربه بلغت غايتها ، إذ يبلغهم قوله تعالى : «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا » .

هذه أعلام الحرم التى قصدت إليها . ولم يسعدنى الحظ بالذهاب إلى عَلَمَىْ أضاءة فى طريق اليمن ، وإنما قطعت من هذا الطريق ما بلغ بى إلى غار ثور .

أما علما نخلة فى طريق الطائف فكانا فى الطريق إليها . ولقد قصدتها وأقمت بها أياماً كانت أيام نشاط وسعادة . لقيت فيها من أثر الرسول ما اطمأن له قلبي ورضيه تفكيرى ، ولقيت فيها من تاريخ العرب بعد الإسلام ما أثار ألمى وأحرج صدرى ، لولا رجاء يخالج نفسى أن تكون هذه البلاد فى المستقبل خيراً مما كانت فى الماضى بعد أن انتقلت منها عاصمة الإسلام .

الكتاب الثالث

الطائف وآثارها

طريق الطائف

بينَا أنا بالتكية المصرية ظهر السبت الرابع عشر من مارس لقيت الحاج عبد الله فِلْبي — أو سينت جون فلبي كما تشاء — فبادلته الحديث فى أمور بلاد العرب حاضرها وباديها . وأدى بنا الحديث إلى لغة القوم بمكة وبُعد ما بينها وبين اللغة العربية الفصحى ، وسألت الجوالة البريطانى : أيوجد فى شبه الجزيرة عرب يتكلمون هذه اللغة الفصحى ؟ قال فلبي : « إنما يوجد هؤلاء فى الجبال وفى البادية . وأنت إذا ذهبت إلى شَدّاد فى طريقك إلى الطائف عثرت ثَمّ على طَلِبَتِك » . ولما علم أننى ذهبت إلى عرفات وإلى وادى نعمان حيث تبدأ عين زبيدة قال : « إن بين شداد ووادى نعمان أمداً قريباً ، فإذا بلغت بك السيارة شداداً على سفح جبل كُرّ وجدت مَحَلّة بها قوم من الأعراب عندهم الدواب التى تصعد بك كُرّا وكراء وتذهب بك إلى الطائف ، وهناك تسمع العربية التى تتوق إلى سماعها » .

لم يعترض أحد من الحاضرين على هذا الكلام فملت إلى تصديقه . وكان لى بزيارة الطائف شغف ، ففيها من أثر الرسول قُبيل هجرته وفى أعقاب غزوة حنين ما يدعو إلى زيارتها . لكنى تصورت ركوب الدواب فى صعود الجبال فذكرت يوماً من سنة ١٩٢٤ كنت فيه بلُبْنان وصعدت فيه إلى الأرْز مع رفاق كثيرين . ولم تكن طريق الأرز قد عبِّدت للسيارات حينذاك ، فاكترينا الدواب من بلدة « بشَرّى» وامتطينا لتصعد بنا فى طريق فيه سعة ونظام . مع ذلك بقيت أذكر ذلك اليوم والصعود على الدواب فيه فتمتلئ نفسى من صعودها مخافة ورهبة . فهى تأبى إلا أن تسير على حافة الطريق المتصلة بالهاوية حتى ليشعر الإنسان أنه مُوف فى كل خطوة على حتفه . وعبثاً يحاول الإنسان أن يُلزمها السير فى منتصف الطريق فإنها لا تلبث أن تعود إلى حافتها وتلزمها . وما أغنانى عن كُرّ وكَرَاء وصعود سفوحهما على الدواب إذا

كان للطائف طريق غير هذا الطريق ! أما ولها طريق تسلكه السيارة هو الطريق المعبَّد ، وما دام مقصدى من زيارتها أن أسمع العربية فى صفائها ، فلأترك طريق شدّاد لمن شاء أن يسلكه وحسبى ما قرأته عنه فى كتب الرحلات ، فهو لا يغرى بركوب المشقة المضنية لاجتيازه .

ولم يَدُرْ بخاطرى أن الدواب ستصادفنى حين تجوالى بجبال الطائف ، وستجعلنى أحمد للمقادير عدولى عن مشورة « فلبى » إلى طريق السيارة لتقطع الطريق ما بين مكة والطائف فى بضع ساعات .

ولقد استشرت مُضيفِى أمين العاصمة فى الذهاب إلى الطائف وسألته عن خير طريق إليها ، وذكرت له ما أشار به فلبى ، فقال : هذا رجل ألف البادية ومتاعبها ، فما لك أنت وما ألفه ، فى وسعك أن تسلك الطريق الذى نسلكه كلنا حين نصعد من مكة لقضاء الصيف بالطائف ! ثم ذكر لى أنه مخبر وزير المالية الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان بعزمى على السفر بعد ظهر يوم الاثنين ١٦ مارس . وفى الغد أخبرنى أن وزير المالية سرّه عزمى على زيارة الطائف ، وأنه سيضع تحت تصرفى عربة « بكسفورد » تكون جنيباً للسيارة التى خصصت لتنقلى منذ نزلت مكة ، وأنه سيختار من يصاحبنى فى هذه الرحلة ويكون دليلى فيها .

وفى صباح يوم الاثنين زرت فلبى بمنزله على موعد بيننا ، وأفضيت إليه بأننى ذاهب إلى الطائف بعد الظهر . ويقع منزل فلبى بحى جَرْوَل فى أطراف مكة فوق ربوة يسيرة الارتفاع . وقفت السيارة أمام بابه فصعدنا درجة كان من الخير أن تكون درجتين أو ثلاثاً . وتخطينا الباب إلى حديقة تبدو أشجارها الباسقة من فوق السور ولا تحجب الدار القائمة بعدها . وليست الحديقة بالفسيحة ولا بالضيقة ، تتراوح مساحتها بين المائة والخمسين والمائتين من الأمتار المربعة . وهى أدنى إلى أن تكون مهملة قل أن تمتد إليها يد التنظيم ، لكنها مع ذلك متعة للنظر فى مكة حيث لا تقع العين على حديقة إلا فى الدور التى تشبه القصور . ويسير الإنسان من باب المنزل خلال الحديقة فى طريق صاعد يكاد يكون مستقيماً . فإذا دخل المنزل وجده أقرب إلى البداوة من كثير من

منازل أهل مكة . وقابلنا فلبي على باب غرفة إلى يسار الداخل من باب الدار مرتدياً جلباباً أبيض ونعلين ، مكشوف الرأس ، ينم شعره الأحمر وذقنه الحمراء المحيطة بكل وجهه الأبيض المشرب حمرةً كما تنم عيناه الزرقاوان عن أصله الإنجليزى الذى يختفى تماماً حين يرتدى المشلح والعقال ، فيبدو نجدياً وسيما أنيق الملبس . وتقدمنا إلى داخل الغرفة فخلع نعليه حين بلغ البساط الذى يفرش أرضها . وتبعته وجلست إلى جانبه أسمعه وأجيبه وهو يحييني بكلمات قليلة كلها الرقة والظَّرف . ولقد اعتذر عن موعدين سبقا بيننا ولم نلتق فيهما بأنه يقضى من النهار فى حضرة ابن السعود ما لا يدع له من وقته إلا الصباح الباكر يعمل فيه أو يلقى من يريد لقاءه أثناءه . فإذا أضحى النهار ذهب إلى القصر فقضى فيه إلى الظهر ، ثم عاد إليه بعد العصر فلم يغادره حتى تتم القراءة للملك بعد العشاء فيفض المجلس .

وفيما نتحدث سمعت تصفيقاً ورأيت الرجل خف بنفسه إلى خارج الغرفة ولم يلبس نعليه ثم عاد يحمل صينية الشاى وعليها أدواته . وتناولنا الشاى وسألته أثناء تناولنا إياه : « ألا تكتب حياة محمد وقد عرفت بلاده وسرت فى خطاه ودرست دراسة المدقق كل مكان له اتصال بسيرته ؟ » . وكان جوابه : « أنا لا أريد الاختلاف مع العلماء المسلمين فى أمر لا يفيد الخلاف فيه ، وكثيراً ما يضر . وليست كتابة التاريخ من عملى العلمى ، فإنما عملى وضع الخرائط للأماكن التى أمرّ بها والتى لم يسبقنى معاصر إلى وضع خرائطها » . فلما تحدثت وإياه عن الإسلام ، ذكر أنه مقتنع تمام الاقتناع بأن الديمقراطية الإسلامية والحكومة الإسلامية خير أنواع الديمقراطيات والحكومات .

ولما فرغنا من تناول الشاى قال فلبي : « سأطلعك على بعض الخرائط التى أضعها » . وقام فأعاد أدوات الشاى إلى داخل الدار وعاد بمجموعة كبيرة من الخرائط . وبدأ فأرانى الطريقة التى يسير عليها فى وضع الخرائط وكيف يتخذ مكة مركز الدائرة فيها ، وكيف يحقق موضع كل محلة أو مكان على الخريطة تحقيقاً علمياً دقيقاً ، بأن يسلك إليه عدة طرق من مكة ويجرى فى

التحديد على قياس الزوايا . ولقد سألته أثناء ذلك : أوَضَعَ لمكة خريطة تفصيلية ؟ فذكر أنه شرع فيها ولمَّا يتمها . وأطلعنى على خريطته عن الربع الخالى وهى الموجودة فى كتابه الذى يحمل هذا الاسم The Empty Quarter ، كما أطلعنى على خرائط الطريق بين مكة وجدة والمدينة ، وبين مكة والطائف والخُرْمة . ولما كانت هذه الخرائط مطبوعة فقد أهداها إلىّ لأستعين بها فى رحلتى إلى الطائف وإلى المدينة . وقد استعنت بها فكانت نعم العون ، واستعنت بها فى رسم غير واحدة من خرائط هذا الكتاب . ولقد شكرته يومئذ وأشكر له اليوم فضله فى هذه المعونة القيمة ، كما أشكر له جميل استقباله إياى وما أمدنى به من معلومات أفادت مباحثى فى أماكن عدة .

وانصرفت من عنده فمررت بالتكية المصرية ، ثم عدت إلى دار مضيفى فتناولنا طعام الغداء ، وأقمت أنتظر رفاق السفر إلى الطائف . وأقبل السيد محمد صالح القزاز أمين أموال الدولة بالطائف . وهو شاب وسيم حلو الحديث ، أحدث مضيفى التعارف بينى وبينه ، وذكر أنه سيصحبنى فى رحلتى إلى الطائف وسيدلنى على كل ما فيها مما تصبو إليه نفسى ، فهو بكل ما فيها خبير . وأضاف الشيخ صالح أنه سعيد أن وقع اختيار الحكومة عليه ليصحبنى . وفيما نتحدث أقبل الشيخ محمد سرور الصبان القائم بأمر المواصلات فى المملكة . ولم يطل مكثه معنا لأنه لم يكن مسافراً وإنما جاء يودعنى من مكة ويرحب بى ضيفاً بمنزله بالطائف . وأقبل الشيخ عبد الحميد حديدى الذى أزمع معاونتى فى هذه الرحلة كما كان لى نعم العون بمكة فى بحثى وفى إقامتى وفى حلى وتَرْحالى . وجعل الشيخ عباس قطان كل همه أن يبعث الطمأنينة إلى نفسى ويزيد أواصر المودة بينى وبين رفاقى . وسمعنا نفير سيارة كانت « البكسفورد » الذى بعثت به الحكومة لتصحبنى . وبعد سويعة أقبلت سيارتى وأعلن السائق حسن عن مَقْدَمها بصوت النفير . إذ ذاك نزلنا إليها وصحبنا مضيفنا حتى ودعنى فى جماعة من أصحابه عندها .

وانطلقت السيارة فى طرق مكة ، حتى إذا كانت عند قصر الملك تياسرت

فى طريق الجِعْرانة دائرة حول حراء . وقبيل منتصف الطريق إلى الجعرانة تيامنت منطلقة فى واد فسيح بين الجبال حتى وقفت فى محلة الشرائع أمام كوخ هو وحده مظهر الحياة الإنسانية فى هذا الوادى . وأهل هذا الكوخ يستقون من عين جارية تُروى أشجارًا قليلة ، وقد جعلوا من كوخهم مقْهَى يتناول فيه السائر الشاى ، ويجد به شربة من ماء وفنجانًا من القهوة النجدية . وسألنى الشيخ صالح أأريد النزول ؟ فلما علمت أن ليس بالمكان غير المقهى آثرت أن ننطلق إلى المحلة التى تلى الشرائع . على أن الشيخ عبد الحميد حديدى استوقف حسنًا السائق هنيهة ليقص علىّ من نبأ التاريخ ما له اتصال بالسيرة النبوية . ومن موقفنا أشار إلى الجبل القائم عن يميننا وإلى مكان منخفض بعض الشىء عند قممه وقال : هذا شِعْب الثَّنيَّة الذى تخطى منه النبى إلى مكة حين عودته من الطائف منفرداً بعد أن أساء أهلها لقاءه وردوه بشرّ جواب . قلت : من أين إذا ذهب إلى الطائف ؟ قال : من طريق كَرٌ وكَرَاء بعد اجتياز عرفات وشدّاد . وحدقت فى شِعْب الثنية بهذا الجبل المرتفع عن اليمين ، وصورت لنفسى ما كان يلقاه محمد من المشقة فى سبيل الدعوة إلى الحق الذى بعثه الله به . فهذه جبال جرداء قاحلة لا أنيس بها تغشاها السباع كما تغشى جبل كراء ، مع ذلك لم يكن محمد يخشى وحشتها ، بل كان يسير خِلاَلَها مطمئنًا إلى رسالات ربه يبلّغها للناس . وقد بلغها إلى العرب أثناء الحج حين مُقامهم بمكة ومنى وعرفات فلم يسمعوا له . وقد ذهب إلى غير واحدة من القبائل فى منازلها فردوه منكرين . وهو يعلم أن ثقيفًا بالطائف من أمنع قبائل العرب وأعزها جواراً . لذلك ذهب إليها سالكًا طريق الجبل الوعر ، فردته بشرّ ما ردته به قبيلة ، وأغرت به صبيانها فقذفوه بالحجارة ، فانصرف عنهم من طريق آخر فى الجبل الوعر متخطيًا هذه الثنية القائمة قُبالة الشرائع ، لم يغير الأذى من عزمه ولم يضعضع من قُدْس إيمانه وجلال يقينه . وأية قوة أو مشقة تضعضع من هذا الإيمان المتصل بالله الواحد الأحد ، المستمد من روح الله ووحيه ! أمره ربه أن يبلغ رسالته فانطلق يبلغها

مطمئناً إلى ربه واثقاً من نصره .

وتخطت السيارة مَحَلَّة الشرائع فى مضيق بين جبلين ، وتابعت سيرها حتى بلغت الزَّيْمَة . ووقفت السيارة هناك عند منظر يستوقف النظر فى تهامة كلها ، ذلك منظر الماء والشجر الأخضر .

لقد رأينا بالشرائع أغراساً دعوها بستاناً فلم نحفل به . أما هاهنا فقد رأينا الماء ينهمر منحدراً من الجبال يسقى بساتين عدة ، ورأينا أشجار الموز تكظ بعض هذه البساتين ، والنفس مبتهجة ما رأت الماء والخضرة . لذلك قضينا فى هذه المحلة زمناً ما كان أحوجنا إليه والوقت يسرع نحو المغيب ، وبيننا وبين الطائف طريق ما يزال طويلا .

قال صاحبى : « يذهب بعضهم إلى أن وادى حُنَيْن ، حيث وقعت غزوة حنين بين المسلمين وبين هوازن وثقيف فى أعقاب فتح مكة ، إنما يقع بين الشرائع والزَّيمة ، وأن جيوش المسلمين قضت الليل على أبواب الوادى الذى تخطيناه الآن بين هاتين المحلتين ، والذى كان يسمى يومئذ وادى حنين . فلما كانت بُكْرة الفجر تحركوا والنبى على بغلته البيضاء فى مؤخرتهم يريدون أن يأخذوا عدوهم على غرة . وإنهم لمنحطون إلى الوادى إذ شدت عليهم القبائل بإمرة مالك بن عوف النَّصْرى شدّة رجل واحد ، وأصلَوْهم وابلا من النبال . هنالك اضطرب أمر المسلمين فولّوا الأدبار منهزمين وقد زُلزلوا زلزالا شديداً . ورأى محمد فرار أصحابه فلم يتزحزح من مكانه ، بل ثبت وجعل ينادى فى الناس وهم يمرون به منهزمين : « أين أيها الناس أين ! » ووقف عمه العباس بن عبد المطلب إلى جانبه يصيح فى الناس بصوت جهورى أسمعهم جميعاً : « يا معشر الأنصار الذين آوَوْا ونصروا ! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمداً حىٌّ فَهَلُمُّوا » . وكشفت تباشير النهار عن عَمَاية الفجر ورأى الناس موقف رسول الله وعظيم ثباته ، فتنادى القريبون منه يجيبون نداء العباس : لبَّيْك لبيك ! وارتدّوا إلى المعركة ، وتبعهم من لاذ قبلهم بالفرار ، وذكروا جميعاً ماضيهم فى النصر ، فخاضوا غمار الموت لا يبالونه ،

فتم لهم النصر وولى عدوهم مدبراً ولم يعقّب ، تاركًا وراءه النساء والأبناء والأموال غنيمة للمسلمين » .

قلت : فما بال اسم حُنين المجيد فى تاريخ الإسلام قد عُفِّى على أثره فلم يبق عَلَـمًا على مكان من الأماكن ؟ أتراه قد اختلف فيه من بعد وأن من الناس من يرى أن الواقعة وقعت فى مكان غير هذا المكان الذى تحدثنى عنه ؟

قال صاحبى : « حقٌّ ما تقول ، وإن من الناس لمن يحسبها وقعت بعد الزيمة فى مكان بينها وبين السيل الكبير ، وهى المحلة التى تليها . أما أنا فأميل إلى اعتقاد أنها وقعت حيث ذكرت . ويحملنى على ذلك أن المسلمين قاموا من مكة للقاء عدوهم فقضَوْا فى طريقهم بياض النهار ولم يزيدوا عليه ، أو بياض النهار وبعض الليل . وما بين مكة والزيمة يستغرق بمسير الإبل هذا الزمن كله . ثم إن المسلمين ذهبوا بالفىء الذى غنموا إلى الجعرانة وجعلوه بواديها حين أجمعوا حصار الطائف . والجعرانة تقع إلى شمال الشرائع وتبعد عن السيل . فلو أن حنينًا وقعت حيث يذكرون لترك المسلمون الفىء بوادى السيل الفسيح أو لعادوا به إلى وادى الشرائع ، أقرب مكان منهم إلى مكة .

« ولعلك تسألنى : وما لهم لم يفعلوا إن كانت حنين قد وقعت حيث تذكر والشرائع أدنى إليهم من الجعرانة ؟ ولهذا السؤال لا ريب موضعه . ولقد ألقيته على نفسى والتمست الجواب عنه ، فكان ذلك أن الناس يميلون إلى النزول حيث ألفوا ، وقد ألف العرب فى عهد الرسول ومن قبله مواضع الأسواق التى كانت تقام حول مكة قبيل الحج فى عكاظ ومجنة وذى المجاز . وليس من اليسير أن تحدد اليوم مكان هذه الأسواق . ولكن الراجح فى شأن مجنة أنها كانت تقام بين الشرائع والجعرانة إلى شمالها ، ومن ثم سلك المسلمون طريق الشرائع إلى السوق التى تقع بينها وبين الجعرانة ثم تخطوها إلى وادى الجعرانة الفسيح الذى يسع الفىء ومن يقوم على حراسته » .

وأبديت الميل إلى تصديق صاحبى ، وإنى لأخاله اليوم صادقًا . فقد ذكر الأزرقى فى تاريخ مكة أن العرب كانوا يذهبون إلى عكاظ يوم هلال

ذى القعدة . وعكاظ تقع عند السيل الكبير أو بعده على خلاف فى الأقوال سنتناوله من بعد . فإذا قضوا بعكاظ عشرين يومًا انصرفوا إلى مَجَنَّة فأقاموا أسواقهم بها عشرة أيام ، وإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز فأقاموا به أسواقهم ثمانية أيام ، ثم خرجوا يوم التروية من ذى المجاز إلى عرفة . وإنما سمى الثامن من ذى الحجة يوم التروية لأن الناس كانوا يأخذون فيه الماء من ذى المجاز ليترووْا منه بعرفة وبالمزدلفة حيث لا يوجد الماء . فالظن الغالب إذاً أن يكون الطريق بين الشرائع والجعرانة طريق مَجَنَّة .

السيل الكبير هو المحلة الثالثة فى طريق الطائف . والطريق بينه وبين الزيمة طويل يقارب ما بين مكة والزيمة . ويبدؤه من الزيمة درب اليمانية . وهذا الدرب منثورة فيه أحجار كثيرة تنحدر إليه مع السيل من أعالى الجبال القائمة عن جانبيه . لكنها أحجار لا تعوق السيارة فى انطلاقها وإن اضطرتها إلى عدم الإسراع . وعجيب أن تظل هذه الجبال جرداء على رغم ما ينحط عليها من سيول وأمطار ، فلا تنبت الأشجار فى قُنَنها وعلى سفوحها . أيرجع السر فى ذلك إلى أنه لم يُعْنَ أحد باستنبات هذه القنن والسفوح فظلت جرداء أن لم تُبْذَرْ فيها بذور ولم يُغْرَس بها شجر ؟ ما أظن ؛ فنى صحارى تهامة وأوديتها ألوان من الشجر تنبت بذاتها ، منها السَّلَم والعَشَر والطلْح . ولعل هذه الألوان لا ترقى إلى سفوح الجبال وقُنَنها ، ولذلك ظلت جبال اليمانية جرداء رغم المياه التى تنحدر عنها .

ينتهى درب اليمانية حيث تنتهى هذه الأحجار المنثورة خلاله . ويقوم على جانبيه عند نهايته جبلان متقابلان يطلق عليهما اسم السُّومان . ويحسب صاحبى أن هذا الاسم محرف أصله التوءمان .

بعد هذين الجبلين ينفرج الوادى ويصلح الطريق وينفسح ويصبح فى سعته وصلاحه كأنه بعض طرق برلين الكبرى . فهو طريق حجرىٌّ أصفر اللون فى صفرة الرمل ، تنطلق فيه السيارة بما يشاء لها سائقها من سرعة . وهذا الطريق يدعى البهيتة بلغة البدو ، والبُهيتاء بالعربية فيما ذكر صاحبى . وقد

أضاف أنه سمى كذلك لأنه يبهت الإبل أى يجهدها . ذلك أنه متدرج فى الارتفاع من الزيمة إلى السيل الكبير تدرجاً لا يحسه راكب السيارة فى انطلاقها ، لكنه يراه بعينه إذا نظر إلى الطريق أمامه وارتد ينظر فيما وراءه . وصَدَق . وقد فعلت ، فذكرت طرق الجبال فى لُبْنان وفى أوربا ، لا يقدر الإنسان ذهابها فى الارتفاع أو الانخفاض أثناء انطلاق السيارة حتى يجيل نظره فيما أمامه وفيما خلفه منها . والبهيتاء تظل ذاهبة فى ارتفاعها منذ تبدأ من اليمانية حتى تبلغ السيل الكبير .

علمت بأنا بلغنا السيل الكبير حين رأيت جبالا تقوم فى الطريق فتسده . ولقد رأيت بأسفل سفحها دوراً من الحجر أدنى إلى الأكواخ منها إلى الدور ، ورأيت المياه تجرى أمام هذه الأكواخ . وقد عبرتها سيارتنا ووقفت فى فناء فسيح تحيط الأكواخ به . وهبطنا منها ، وأقبل علينا بعض ساكنى هذا السيل ، فطلب أصحابى إليهم أن يُعِدّوا لنا شاياً . وفى انتظار إعداد الشاى صلّينا العصر والشمس توشك أن تغيب . وتناولنا الشاى جلوساً على الفراش الذى مد لنا وصاحبى يقول : « من هذا الطريق الذى جئنا منه جاء جيش المسلمين الذين أرادوا حصار الطائف . ويذهب بعضهم إلى أن هذا المكان الذى نقيم الآن به هو الذى وقعت به غزوة حُنَيْن، وإن كانت الشواهد كلها تُدْحِض هذا القول . وهذا المكان هو فى المشهور وادى نخلة ، ولذلك كان وما يزال ميقات أهل نجد والعراق . وبَعُدَ ما بين حنين ونخلة ، ولذلك أميل كما قدمت إلى أن حنيناً تقع بين الشرائع والزيمة » .

وأجلت بصرى فى هذه الدور التى حولى والتى تتكون منها هذه المحلة ، فذكرت الدّساكر (العِزَب) فى الريف المصرى . وزادنى ذكراً إياها أنى قمت أدور فى أنحاء المحلة ، فألفيت بعض الخيل والدواب فى أحد جوانبها ، وألفيت الماء هاهنا وهناك فيما أمامها . ولم أعجب لوجود الماء واسم المكان عَلَمٌ عليه ، بل عجبت لقلته . قال الشيخ صالح : هو قليل الآن لانتهاء فصل السيول . لكنه يكثر حين الأمطار حتى يجعل السير فى هذا المكان متعذراً .

وكذلك تراه يتبع فى قلته وكثرته ما تنحدر عنه الجبال من مياه المطر .

ولم يكن عجبى من هذا المكان لقلة الماء ولا لكثرته فيه ، بل لهذا الجبل الذى يسد الطريق ولا سبيل لاجتيازه . فمن أين تُرى تتخذ سيارتنا طريقها ! وإذا كان قد قُدّ لها فى الصخر طريق فمن أين سار جيش حُنَين لحصار الطائف ؟! لقد كانوا اثنى عشر ألفاً ومعهم من الإبل ما يكفى لحملهم وحمل مئونتهم ؟ أفتسلّقوا الجبل خفافاً وتسلقت إبلهم معهم ؟ أم داروا حوله وستدور سيارتنا الآن كذلك حوله ؟!

ثم ألقيت نظرة إلى الطريق الذى جئنا منه ، إلى هذه البهيتاء المنحدرة نحو اليمانية فالزيمة ، الجامعة بين فسحة الوادى وصمت الصحراء ، وقدألقت عليها الشمس المنحدرة إلى مغيبها أشعة ندية أوحت إلى صمتها معانى ينشرح لها الصدر وينفتح لها القلب وتسبغ عليها الروح ما يفيض عنها من صور ومُثُل . وما أبهى ما يفيض عن الروح فى هذه الساعة وما أشد صفاءه ؟ إنها الطمأنينة إلى الطبيعة الفسيحة المترامية إلى ما وراء الأفق حيث لا يتصور خيالنا للكون نهاية ، طمأنينة تضمنا إلى أحضان الطبيعة وتجعلنا نضم الطبيعة إلى أحضاننا ، إنها سكينة الفؤاد إلى هذا الصمت المهيب العذب ، لا تفسده ضجة الحياة ولا تغشّيه مشاغلها بسحب الهموم حرصاً على المال والسلطان . إنه التأمل فى هذا السكون العظيم وفى بارئه الأكبر ، تعالى جل شأنه ، تأملا يثير أمام الذهن صورة الماضى مجتمعة فى النفس إلى أول الخلق ، وصورة جهاد الإنسان أثناء هذا الماضى ليبلغ الكمال . ومن هذا الجهاد مسيرة جيش حنين فى ذلك الطريق مترنّماً بأغنيات الفوز والظفر رافعاً عقيرته إلى السماء منادياً : لَبَّيْكَ اللهم وسَعْدَيْكَ . ومن هذا الجهاد مسيرة الرسول فى عزلة يريد الطائف كما أريدها أنا اليوم ، لكنه يريدها لغاية أسمى وغرض أرفع من غرض الدرس وغاية المعرفة ؛ يريدها ليدعو أهلها إلى الحق ولينقذهم من ظلمات الضلال .

ودعانى أصحابى لنتابع سيرنا . وتخطت السيارة الماء عائدة إلى الطريق ، ثم سارت إلى صدر الجبل كأنما تريد أن تقتحمه ، وهى تتخطى أثناء سيرها

مياهًا تجرى هاهنا وهناك منحدرة على هون من أعالى القنن . وما لبثتْ حين استدارت بين صخور الجبل حتى ابتلعها الجبل فى جوفه ، فهى تشق خلاله طريقًا وعراً ما تكاد تتقدم أثناءه ؛ ترتفع آنًا على حجر وتهبط آنًا إلى طريق لا يستوى بضعة أمتار حتى تكظه الأحجار فيضطر السائق إلى أن يعنُف بالسيارة كيما تتخطاها . والجبل تقوم قممه عن يميننا وقممه الأخرى عن يسارنا قد حجب عنا كل شىء إلا طريقًا فى السماء تدلنا زرقته على أن الشمس لما تغرب . وأبديت لصاحبىَّ عجبى لوعورة الطريق بما لم أر قط مثله ، وخشيت أن يكون ذلك شأننا فيما بقى أمامنا إلى الطائف . قالا : « لا عليك ! فإنما هذه ذات عِرْق ، وهذا الرِّيع الذى تصعد بنا السيارة خلاله لا يزيد على بضعة كيلو مترات هى وحدها كل ما فى الطريق من مشقة . فإذا اجتزناها عدنا إلى مثل طريق اليمانية وطريق البهيتاء تداولاً بينهما حتى الطائف . ولطالما حاولت الحكومة أن تصلح هذا الجزء من الطريق فغلبتها السيول تخريبًا إياه وإلقاء للأحجار من قنن الجبال أثناءه » . وبينما نتحدث كانت السيارة تبذل مجهوداً أشق مجهود وأعسره ، مجهود الحبلى تريد أن تقذف بمن فى جوفها سليمًا إلى الحياة : أتنجح وتنجو بجنينها ، أم يروح مجهودها سدى فتذهب هى وجنينها ضحيته ، أم يخرج مَنْ فى جوفها وتكون هى الضحية ! والسائق يعاونها فى هذا المجهود ويفادى بها الصخر حينًا ويدفع إلى محرِّكها مزيداً من البنزين حينًا آخر ، وهى بين هذا وذاك تئن تارة كأنما تتأوه ، وتقف أخرى مستسلمة للمقادير وقد بدا منها اليأس . وإنها لتندفع بين الصخور وفوقها وقد قاربت نهاية الريع إذ ارتطم بطنها بصخرة اشتدت من هول صدمتها صيحتها . وسألنا حسنًا ما بالها ؟ فهوّن الأمر . لكنه نزل من مكانه يفحصها ثم انبطح أرضًا يحاول أن يعالجها ، ونزلنا نحن منها وتخطينا ما بقى من الرِّيع ، فانكشف أمامنا سهل فسيح تبينا أثناءه أن الشمس قد انحدرت فى هوة المغيب . ولم يبطئ السائق بل أدركنا بالسيارة وأنبأنا أن عَطَبًا غير ذى بال أصابها ، وأنها قديرة على أن تبلغ بنا الطائف . وقد اقتضاه

عطبها ألا يسرع بها كما كان يود أن يسرع .

وسرنا نشق سهلا فسيحاً تمشّت بشائر الليل فى جوفه فأكسبته رقة وجمالاً وإن حجبت عن النظر الكثير مما وددت لو استمتعت به . ويطلق السائق للسيارة العِنان إذا رأى الطريق صالحاً فتسرع ، ولكن لا كما كانت تسرع فى البهيتاء . ويبعث أضواء فناره الساطعة ما بين آن وآن لتكشف له الطريق كلما غُمّ عليه . وقليلا ما يغم الطريق على هؤلاء البدو الذين اعتادت أعينهم أن ترى خلال الظلام . وسألت عن أشجار تبدّت أطيافاً إذ نمرّ بها فقيل لى إنها الطلح النابت فى الصحراء .

قال صاحبى : « أنسانى ما عانت السيارة ساعة ارتطمت بالريع أن أذكر أن المكان الذى وقفنا عنده بعد خروجنا من ريع ذات عرق ، والذى يتصل بهذا الطريق الذى نسير فيه الآن ، هو مفرق الطريق بين الطائف والعُشَيرة . فنحن قد سرنا إلى يمين ذات عِرْق نقصد الطائف . فأما الذين يقصدون العشيرة ونجدا فيسيرون إلى اليسار . وقد تواضع الناس على تسميته مفرق العُشَيْرة » .

وبعد هنيهة أردف يقول : « ونحن الآن نقترب من السيل الصغير . وتقع ديار القُشَمة بين مفرق الطريق والسيل الصغير فهى التى تمر السيارة بها الآن . والقثمة قبيلة من هوازن لعلها اشتركت فى غزوة حنين مع سائر هوازن وثقيف . وسنمر الآن عند السيل الصغير بمكان اشتهر باسم القهاوى . ولو أن النهار أسعدنا بضوئه لرأيت آثارها . وإنما يعنيك من ذلك ما يدور على أفواه الكثيرين من أن سوق عكاظ كانت تعقد عندها ، وما يؤكده بعضهم من صحة هذا القول . لكنك قد سمعت أنها كانت تعقد عند السيل الكبير ، وستسمع كذلك أنها كانت تعقد فى وادى عُشَيرة مما يلى رُكْبة ، وهو المشهور قديماً بوادى العقيق . ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن هذه السوق كانت تعقد على مقربة من الطائف بواد يقال له وادى عقرب . ولقد حاول بعضهم تحقيق هذه الأقوال والقطع برأى فيها . فلعل ما تقوم به من البحوث يصل بك إلى

ما لم يصل إليه غيرك . فلقد كان لعكاظ ذكر فى سيرة الرسول عليه السلام قبل أن يبعثه الله نبيًّا » .

وهدأت السيارة من جريها ، وقال السائق : «هذه القهاوى . وهنا المكان الذى يقولون إنه عكاظ » . أما أنا فلم أر شيئًا أستطيع أن أتبينه . فقد هبطت كِسَفُ الظلام وانطوى الوجود فى دُجُنَّة الليل . وكنا فى الثلث الأخير من ذى الحجة ، فلم يكن للقمر فى السماء أثر ، ولم تكن النجوم لتكشف من غِطاء الليل شيئًا . وهذه الأودية الصامتة فى رابعة النهار هى الساعة أشد صمتًا ومهابة . فالنهار يجلو أمام النظر ما فيها من حزون وبطون . أما الآن فالعين لا ترى إلا ظلامًا . فإذا تبينت خلال الظلام شيئًا فأطياف لا تدرى أهى أطياف الشجر أم مَرَدَةٌ من الجن تسبحُ الليل فى مهامه هذا القفر الموحش . وما لها لا تكون أطياف أولئك الأعراب الذين يقطعون على الناس الطريق وينزعون عنهم ما يملكون ، إن رضوا كرمًا منهم أن يَهَبُوهم حياتهم ! هذه أخيلة تدور بخاطرى الساعة وأنا أصف الطريق . أمَّا والسيارة تسرى بنا الليل أثناءه فلم يمر بى طيفها ، بل كنت مطمئنًّا كل الطمأنينة . ولم يكن مرجع طمأنينتى إلى أننا كنا أربعة بالسيارة ، وأننا كانت تتبعنا عربة « البكسفورد » . فلا خوف علينا من مردة الجن ولا من مردة الإنس . بل كان مرجعها إلى حال نفسية ألِفتها فى حياتى ، كنت فى الحجاز أشد إلفًا لها . فأنا قَلَّمَا يساورنى الخوف من شىء . لكننى كنت فى الحجاز أشعر كأنما تضاعفت قوة الحياة فى نفسى ، لأننى تضاعفت ثقتى بالله وتضاعف إسلامى له .

وتكلم صاحبى بعد زمن من عودة السيارة إلى انطلاقها كأنما يريد أن يقطع الصمت الذى سادنا خلال هذا الليل الذى يشتملنا : « لقد صرنا على مقربة من الطائف ، وهذا الوادى الذى يسبقها تعمره قرى كثيرة ، فعلى مقربة منا الآن أم الحمض ، ويجىء بعدها وادى لُقَيْم ، ثم المُلَيْساء ، ثم هَضْبة الزوار ، ثم شبرة ، ثم الطائف . وقد لا نحتاج فى اجتياز هذه جميعًا إلى غبر ساعة أو أكثر قليلا » .

شعرت من لهجة هذا الحديث أن صاحبي يريد أن يهوّن عليّ مشقة الطريق ، فقلت : « إن الجو الآن جميل يبعث إلى نفسى الغبطة والمرح ، ولا حاجة بنا أن نعجِّل غايتنا . وما دامت السيارة لا تسرع بنا فليت "البُكْس" يدركنا لندخل الطائف معًا » .

قال الشيخ صالح : « أحسبنى أسمع صوت نفير لعله نفيره . وأحسبه على خمسة أميال منا . وهو لا ريب قد تخطى الريع دون أن يلحقه أذى . فعجلاته عالية تيسر للسائق تفادى الصخور التى تعترض سبيله ، وسائقه جرىء لا يخاف ، وأكبر ظنى أنه مدركنا قبل نصف ساعة من وقتنا هذا . بذلك ندخل معًا الطائف حيث ينتظرنا الناس ، فلا نضطر نحن ولا غيرنا إلى انتظاره هناك » .

ولم يخطئ ظن الشيخ صالح . فبعد دقائق سمعنا جميعًا صوت نفير قرر سائقنا أنه نفير « البكس » ، ثم قرر وقد التفت وراءه أنه يرى ضوء فناره . فنحن إذاً بمأمن إن أصاب سيارتنا عطب يحول دون بلوغها الطائف ؛ إذ نستطيع أن نركب البكس ونتم الطريق .

وأدركنا البكس بعد نصف ساعة ، وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساء ، بل لعلها قاربت التاسعة . وانطلقت العربتان تجريان فى طريق معتدل قدر ما يكون طريق السيارة فوق رمال البادية معتدلا . وشعر الشيخ صالح أنى أضم إلىّ ردائى ومشلحى فقال : « هذا جو الطائف ، والطائف ترتفع عن سطح البحر ألفًا وسبعمائة متر أو تزيد ، وهى لذلك مَصِيف أهل مكة . فلا عجب أن أدركك من جوها شىء من البرد . ولكن لا تخف فهى مَصَحّ لا يضر جوه » .

انتهز الشيخ عبد الحميد فرصة هذا القول فأردف : « إذا كنت تضم إليك رداءك من البرد فما كان عسى أن يصنع جيش حنين ولم يكن يحول بينهم وبين هواء البادية زجاج كالذى يحول بينك وبينه ! » وتبسمت ضاحكا من قوله وأجبت : « لقد كانوا فى دفء بالظفر والغنيمة ، وكانوا كذلك فى دفء بالسير

على أقدامهم أو على ظهور إبلهم . ولعلهم كانوا يقطعون هذا الطريق فى الربيع أو الصيف فكان لهم نعيما وغبطة » .

انقضت الساعة التاسعة وتنصّفت الساعة العاشرة والظلمة المحيطة بنا دَرْدَبِيس لا يرى الإنسان أثناءها كفه . والسيارتان تجريان على هُون حتى لا يزيد ما بسيارتنا من العطب . ونتحدث آناً ونلازم الصمت آخر وقد حُجب عنا كل ما حولنا فلا نرى إلا ما يضيئه فنار السيارة من الطريق. وإنّا لكذلك إذ بدا من ناحية الشرق ضياء وخطّ سوادَ السماء ، ثم أضاء القمر الأرجاء . ومددت البصر ذات اليمين وذات الشمال فرأيت ما حولى سهلا فسيحًا لا تقف الجبال البعيدة دون تجوال النظر فيه . وبدت الجبال لبعدها عنا أشباحًا مهولة لا نميز منها إلا ارتفاعها وضخامتها . وفى هنيهة صمت قال السائق : هذه الطائف . وحدقت أرجو أن أرى بناء فارتد بصرى ولم أر شيئًا . وإنما تعزيت بالمثل العربى : « القول ما قالت حَذَامِ » . ولئن كانت حزام تبصر إلى مسيرة ثلاثة أيام لقد عودنا حسنُ الصدق حين يتحدث عما يرى .

هذه الطائف . فى هذا السهل الفسيح حولنا كانت إذاً جنود النبى العربى منتشرة حين جاءت من حنين لحصار المدينة الحصينة وأهلها ذوى البأس والمَنَعة. وفى مكان منه ضربت خيمتان من أديم أحمر لمقام أمّ سلمة وزينب أمَّيِ المؤمنين. ترى أين يكون هذا المكان ؟ أكان هاهنا على مقربة منا فنحن نسير حيث نزلوا ! إنهم جاءوا إلى الطائف من ناحية لِيَّة . وهى لا ريب قريبة من هنا . ولكن أين كانت مضارب خيامهم ؟ لعلى لو سألت لما أجابنى أحد . فتحديد المواقع التى مرّ بها الرسول أمر لا يعرفه الناس من أهل هذه البلاد إلا ظنًّا ، إلا من يكون قد عُنِى منهم بدرس السيرة درسًا تطبيقيًّا . ولقد كنت سمعت أن الشيخ عبد الله بن بليهد عالم نجد قد قام بشىء من هذا الدرس ، فلأحاول بُعد عودتى إلى مكة أن أراه ، وإن كنت لا أثق كثيراً بأننى سأجد طَلِبتى عنده . فأما الحاج عبد الله فلبى — أو سير سينت چون فلبى — فلم يجعل من هذا الأمر موضع عنايته مخافة الخلاف مع علماء الشريعة على قوله ،

أو لأنه أكثر عناية برسم خرائط بلاد العرب الحالية كما يبدو من عمله .

قال صاحبي : هذه شبْرة . وعجبت كمصرى لسماع اسم يتداوله سمعى أثناء مُقامى بعاصمة بلادى . وفطن صاحبي لعجبى فقال : « وهذا قصر الملك هنا . ولقد بناه الشريف عبد الله بن عون وأحاطه بالبساتين، وسمّى هذا المكان شبرة باسم شبرا المجاورة للقاهرة ، لمجاورة هذا المكان للطائف . وهذا القصر من أفخم قصور الحجاز ، بل لعله أفخمها جميعًا » .

كان صاحبي يقول هذا الكلام والسيارة تتخطى على هُون بين جدران أغلبُ الظن أنها من الحجر الأبيض ألقى عليها القمر أشعته البيضاء فزادها بياضًا ، فأما ما وراء هذه الجدران من قصور وبساتين يتحدث عنها صاحبي فلم يلفتنى إليه ولم يوقظ إليه انتباهى . لقد أزفت الساعة على الحادية عشرة مساء ، أو الخامسة بالوقت العربى إن شئت، وقد كنت مجهوداً غاية الجهد . ولعلى لو رآنى فى هذه الساعة أحد من أهلى أو أصدقائى بمصر لذكر لفوره قول عمر بن أبى ربيعة :

أخا سَفَر جَوّاب أرض تقاذفت   به فَلَواتٌ فهو أشْعَث أغبرُ

اجتازت بنا السيارة شبرة ثم تيامنت فمرّت ، بعد فضاء يبدو إلى جانبه سور لم أدر ما هو ، بمنازل أشبه بالأطلال ، لكن بناءها يبدو جديداً لم يتم بعد ، فلم توضع أبوابه ونوافذه . وتيامنت السيارة ثم تياسرت ثم وقفت بباب لقينا عنده من ينتظرنا . وهبطنا من السيارة واجتزنا الباب إلى حديقة لمع تحت ضوء القمر نباتها ، ثم سرنا إلى بهو فسيح مطل على نافورة ماء لم أقف عندها وفى يمين البهو باب دخلنا منه إلى غرفة بها مقاعد وثيرة دعانى القوم إلى الجلوس فيها ، فجلست سعيداً أن قطعنا رحلتنا هذه وبلغنا غايتنا منها بعد الذى أصاب السيارة سالمين . وجىء لنا بالقهوة فشربناها ، وتبادلنا من الحديث ما رد إلينا بعض الطمأنينة . وغاب عنا الشيخ محمد صالح القزاز زمنًا ثم عاد فجلس يحيينا . وكان ما تمثل به :

يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا   نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وشِمتُ فيه إذ تمثل بهذا البيت الرَّوحَ العربى القديم ، روح الكرامة والكرم والشهامة والنخوة ، فشكرت له وبادلته تحية بتحية . وأقمنا بمجلسنا حتى دُعينا لتناول الطعام . وتناولناه واعتذرت عن القهوة وتحدثنا حيناً ثم أوينا إلى فراشنا . وكان فراشى فى غرفة بابها يقابل باب غرفة الجلوس فى الجدار الموازى من البهو ، ومن داخل هذه حمَّام به صنابير للماء ساخناً وبارداً . ونمت ملء جفونى ثم استيقظت بكرة الصباح ممتلئاً نشاطاً . وأقمت أنظر كيف أعدّ السيد صالح القزاز برنامج يومنا . وإنى لكذلك إذ جاءنى بصحبة الشيخ عبد الحميد حديدى ومعهما ورقة كتبا فيها برنامجاً لكل يوم من أيام مُقامنا بالطائف . وكان برنامج يومنا الأول مدينة الطائف وما حولها .

الطائف

الطائف مدينة من أقدم المدن فى بلاد العرب . ولعله لا يغلو من يحسبها أقدم من مكة أو من المدينة ، وإن كانت الأساطير تذهب إلى أن بقعة الأرض التى تقوم منطقة الطائف عليها لم توجد ببلاد العرب إلا بعد أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . فقد ذكروا أن إبراهيم لما جاء بهاجر وبإسماعيل إلى وادى مكة فأقام قواعد البيت توجَّه إلى الله بقوله : «رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْت مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرَ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ » . عند ذلك أمر الله الملائكة فانتزعوا قطعة من أرض الشام ووضعوها فى المكان الذى تقوم الطائف به . وعلماء الجغرافيا وعلماء طبقات الأرض يُنكرون لا ريب هذا الكلام وإن رُوى فيه حديثٌ للنبى صلى الله عليه وسلم . وهم ينكرون هذا الحديث ويؤكدون أن النبى لم يقله ، لأن الطائف وباديتها وأوديتها وجبالها وجدت مع بلاد العرب ومع الشام جميعًا ، فلم يُنقل منها إلى الشام شىء ولم يُنقل من الشام إليها شىء .

والتسليم برأى هؤلاء العلماء لا ينفى ما تصوره الأسطورة من تباين بين طبيعة الطائف وطبيعة مكة ، يتجلى لكل من قرأ كتب الأدب القديم ، وقرأ سيرة النبى العربى ، ومن عُنى بتاريخ بلاد العرب بوجه عام . وأقل مظاهر هذا التباين مما تحدّث عنه الكتب خِصْب الطائف وإمحال مكة ، وما ترتب على هذا الخصب وهذا الإمحال فى الطبيعة من أثر فى الرجال . فالعرب الذين تركوا على التاريخ الإسلامى ذكراً أكثرهم من ثقيف وهَوازن ، وأقلهم من مكة والحجاز . ولولا بيت الله بمكة ، ولولا أنها مسقط رأس النبى العربى ، لكانت الطائف صاحبة الأمر فى الحجاز ، وخاصة بعد أن فقدت مكة مكانتها التجارية حين تحول من ذلك اليوم البعيد طريق التجارة من البر إلى

البحر ، ومن سفينة الصحراء إلى سفينة الماء . وأقول اليوم البعيد لأنه يبدأ قبل الإسلام ، ولأن طريق القوافل المار بمكة فقد كلّ خطره منذ صدر الإسلام وحين انتقلت العاصمة الإسلامية من بلاد العرب إلى الشام والعراق ومصر .

وليس هذا التباين فى الطبيعة هو وحده الذى يجعل للطائف هذه المكانة المرموقة ؛ فتاريخها يكفُل لها مكانة مثلها . وليس يستطيع الباحث فى سيرة النبي العربى أن يمر بالطائف دون أن يقف عندها . فمنازل بنى سعد الذين استرضع النبي فيهم قريبة من الطائف بل هى من باديتها . وإذا لم يكن يسيراً أن يقطع الإنسان بأن حليمة السعدية ظئر النبي مرت بالطائف فى ذهابها إلى مكة أو فى عودتها منها ، فإن طبيعة الطائف وباديتها الخصبة الكثيرة الأودية والجبال قد كانت أول ما وقعت عليه عينا محمد الطفل المترعرع فى هذه البيئة البدوية ، الناعم بهوائها وبين أهلها ذوى النفوس الحرة الطليقة من كل قيد . ولما بُعث النبي وقضى من السنين ما قضى بمكة فلم تُثمر دعوته الثمرة التى تُهيئ له التغلب على ضلال قومه ، كانت الطائف فى مقدمة البلاد التى اتجه نظره للامتناع بها وببأس أهلها . صحيح أنهم لم يسمعوا له . وأنهم كانوا أشد حرصًا على عبادة اللات منهم على اتباع هذا الذى جاء يصرفهم عن دينهم كما حاول عبثًا أن يصرف أكابر قومه عن دينهم ، لكن تفكير محمد فى أمرهم ، وذهابه وحيداً إليهم ، وتعريضه نفسه لما تعرض له منهم ، وهو لا يملك فى وحدته دفاعًا عن نفسه ، كل ذلك يدل على أنه رآهم أرجح عقلا وأدنى إلى إجابة داعى الحق من غيرهم . فأما ما كان من صدهم إياه ومن تحرش صبيانهم به ، ثم ما كان بعد ذلك بينه وبين عداس النصرانى ، فتلك آية الله على أن الحق فى حاجة إلى صلابة فى النفس وقوة فى الخلق لينتصر ، فإذا دعا إليه القوى الأمين الذى يُخلص فى الدعوة تم له النصر ولو بعد حين .

ذهب محمد يومئذ إلى الطائف وحيداً بعد أن تولاه اليأس من قومه لما اشتهر عن الطائف وأهلها من رجاحة الحكم وسعة الصدر وقوة البيان ، وجعل يصعد الجبل وينحدر إلى السهول ثم يصعد ثم ينحدر ، حتى إذا بلغ القومَ

فى ديارهم قصد إلى دار أبناء عمرو بن عُمَيْر بن عوف الثقفى وهم يومئذ سادات قومهم : أولئك عبد ياليل ومسعود وحبيب . وجلس إليهم يحدثهم عن رسالته ويدعوهم إلى القيام معه على من خالفه من قومه ويَعِدُهم النصر والجنة . لكنهم كانوا كغيرهم من أهل شبه الجزيرة ، يُريدون العاجلة ، ويَجدون فى أصنامهم الوسيلةَ إلى ربهم ، ثم كانوا يرون مخالفته على قريش أمراً قليل النفع مخشىّ الضرار ؛ هو كذلك بخاصة لأن الخلاف يتصل بعبادة الأصنام ، على حين لم تنازعهم قريش عبادة اللات ولا نازعتهم قدسية بيتها ، كما أنهم لم ينازعوها حرمة البيت العتيق وأصنامه . جال هذا كله بخاطر القوم ومحمد يحدثهم ، فلم يجدوا لمجادلته موضعاً ، بل أنكروا عليه رسالته فى غلظة وفظاظة . قال أحدهم : « هو يَمْرُطُ ثيابَ الكعبة إن كان أرسلك » . وقال الثانى : « ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! » ورأى الثالث ما فى هاتين العبارتين من قسوة فلجأ إلى التهكم وقال : « والله لا أكلمك أبداً . إن كنت رسولا من الله كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك ؛ وإن كنت تكذب على الله فما ينبغى أن أكلمك » .

حزن النبى لما سمع منهم وأيقن أنه ملاق من سائر ثقيف مثل ردهم . لقد كان يطمع فى معونتهم لحكمتهم وسيادتهم ونزول قومهم على حكمهم ؛ أما وذلك جوابهم فلاخير فى التحدث إلى غيرهم . لكن قريشاً بمكة لن يفوتها أن تسمع بما أصابه إذا تناقل أهل الطائف روايته ، فيزداد محمد والمسلمون هواناً عليها وتزداد إيذاء لهم وقسوة بهم . لذلك ألح محمد على محدِّثيه الثلاثة أن يكتموا ما دار بينه وبينهم حتى لا تصيبه قريش بأذى . أما عبدُ ياليل وأخواه فخافوا مغبة الكتمان وما يمكن أن تؤول به زيارة محمد إياهم فلم يسمعوا له ، بل أغرَوْا به سفهاءهم حين خرج من عندهم . وتعقبه السفهاء يقذفونه بالحجارة ، فالتجأ منهم إلى حائط لشَيْبة وعُتْبة ابنى ربيعة وجلس إلى ظل شجرة فيه ورفع طرفه إلى السماء يشكو إلى ربه سوء ما حل به . ورآه ابنا ربيعة ورأيا ضراعته وما هو فيه من سوء حال ، وبعثا مع غلامهما عدّاس النّصرانى بقِطْف من عنب يَروى به ظمأه ويرفه به عن نفسه ؛ ومد النبى يده إلى العنب

وقال : باسم الله ، ثم أكل . ودهش عداس لما رأى وسأل محمداً عن شأنه ؛ فلما علم أنه نبى أقبل عليه يقبل رأسه ويديه . وحذّر صاحبا الكَرْم غلامهما من أن يؤمن به ، فنصرانية عداس خير عندهما من هذا الذى يدعو محمد إليه . وانصرف محمد عن الطائف كسيرَ الخاطر ، وعاد يصعد فى الجبال وينحدر فى السهول ثم يصعد ثم ينحدر حتى بلغ مكة ، فإذا الأنباء سبقته إليها ، وإذا قريش تستقبله بالسخرية وتناله وأصحابه من الأذى بأكثر مما نالته ونالتهم به من قبل .

لو أن محمداً كان رجلا كالرجال لفتّ ما صنع أهل الطائف فى عَضُده ولآثر السلامة بين قومه ، فعاد إليهم وانضوى تحت لوائهم . لكنه أقام يدعو إلى هذا الحق الذى لم تأبه له ثقيف ، قوية بالحق نفسه ، عامراً بالله قلبه ، حتى نصر الله هذا الحقّ بعد حين . فعاد محمد بعد عشر سنوات أخرى إلى الطائف قويًّا بلواء هذا الحق الذى أظلّ بلاد العرب كلها ، فتحصن أهلُها منه ولم يُذْعنوا لدعوته كرة أخرى . لكنهم مالبثوا ، حين رأوا أن لا ملجأ من الحق إلا إليه ، أن بعثوا إلى محمد من تلقاء أنفسهم يلتمسون الانضواء إلى دينه والأخذ بناصره . أوَ ليس عجيبًا أن يأبى الناس الحق إذا دُعوا إليه بالحسنى وأن يحاربوا الرسول الذى يدعوهم إليه ، فإذا تولى عنهم ورأوا أن لاقبل لهم باعتزال الحق بعد أن آمن الناس به أقبلوا طائعين يلتمسون رضوان من سخروا منه من قبل وأغْروْا به سفهاءهم ، ثم حاربوه ومنعوا منه وطنهم ! فلقد تحصنت الطائف من المسلمين بعد انتصارهم فى حنين فلم يستطيعوا فتحها وانصرفوا عنها ، ثم بعثت هذه الطائف سادات ثَقيف يُعْلنون إلى محمد إسلامهم ويكلون إليه أن يبعث معهم من يفقههم فى الدين ويرشدهم إلى عظمة الحق فيه . هذه آية خالدة على الزمن تشهد بأن للحق لا محالة النصر آخر الأمر ما استمسك به صاحبه عن إيمان ويقين وبأن النفس الإنسانية تهفو إلى الحق ما اطمأنت إلى اقتناع الداعى إليه وإلى إيمانه به .

خرجت مع أصحابى أزور هذه الطائف ذات التاريخ المجيد ، وصحبنا فى زيارتنا رجل من أهل الطائف هو الشريف حمزة الغالبى . ولقد أقبل هذا الرجل

علينا منذ الصباح ، وقدمه إلىّ السيد صالح القزاز ؛ فبادر الرجل فحيانى ضَيْفاً للطائف أجمل تحيّة . وهو بدوى فى سُحْنته وفى حديثه وفى لباسه وفى تحيته وفى كل ما يبدو من مظهره . أسمر السّحْنة ، عربى التقاطيع ، تلمع عيناه السوداوان ببريق من ذكاء فطرى ، وتدل لهجة حديثه اللينة على دهاء وسَعَة حيلة . يلبس الصمادة والعقال الصوف على رأسه ، وجلباباً يتمنطق فوقه بقماشة حمراء أشبه شىء بالفوطة ، تتدلى من خصره إلى أسفل ظهره حتى تحاذى الركبتين فى مثلث لا يبدو منه من الأمام غير انحدار القماش من حيث يربط حتى يستدير ليبدو فى صورة المثلث وراء ظهره . وهو يلبس فى قدميه نعلين حجازيتين لا شىء فيهما من زخرف النعال التى يلبسها اليوم أهل مكة ، والتى زُخرفت منذ الفتح الوهابى الأخير على طراز النعال النجدية . ولما ذكر السيد صالح القزاز وهو يقدمه أنه سيكون دليلنا فى بادية الطائف وما حولها أبدى الرجل من الاغتباط بذلك ومن تفتح قلبه له ما زادنا اغتباطاً برفقته وأُنْسا به .

يقع منزل السيد محمد سرور الصبان ، حيث أقمنا ، فى أقصى الطائف بضاحية تدعى قَرْوة . وبهذه الضاحية عدة آبار أشهرها بئر عَجْلان المعروفة بعذوبة مائها . ومكان هذه البئر منها على مقربة من جبل السكارى فى جنوب الطائف . ويطلق هذا الاسم على الجبل الذى تسمى به منذ العصور الأولى ، وأنت لذلك تجده فى الكتب القديمة . وسبب إطلاقه فيما يذكرون أن أهل الطائف كانوا يذهبون إليه فى أعيادهم الأهلية يسمُرون ويسكرون . ومنازل قروة قليلة ، وبها مبان لم تتم ، وبها آثار منازل مهدمة ؛ هذا مع وفرة مائها وكثرة آبارها وصلاحها للسكنى والاصطياف . ويذكر أهل الطائف ، وتؤيدهم كتب الرحلات إليها ، أن قروة كانت عامرة كثيرة الدُّور مقصودة من المصطافين من أهل مكة وغيرهم ، وأنه كان بها خمسة عشر بستاناً . فلما وقعت الحوادث الأخيرة ودخل الوهابيون الطائف دمرت أكثر منازلها وهجرها أهلها وصارت إلى ما رأيتُها عليه من قلة المنازل وانعدمت بساتينها .

غادرت المنزل مع أصحابى ومعنا الشريف حمزة وركبنا السيارة نبتغى زيارة

الطائف ذات التاريخ المجيد . فلنذهب إذاً إلى البقعة التى تفاخر بها الطائف كل مكان آخر فى بلاد العرب ، تلك حيث دفن أصحاب الرسول الذين قتلوا حين حصار الطائف ، والذين بقى اسمهم علماً على التضحية بالحياة فى سبيل الحق ، كما بقى أبناء الطائف المثل الأعلى لاستماتة أبناء الوطن فى الدفاع عن وطنهم . وذهبتْ بنا السيارة إلى مسجد ابن عباس القائم حيث كان جيش المسلمين الذين حاصروا الطائف على عهد النبى ؛ والمجاور لقبور الصحابة الذين استُشهدوا فى هذا الحصار ، إذ تقع القبور فى مكان مسور بجوار المسجد من ناحية الشمال . وقد سلكت السيارة إلى المسجد طرقاً خارج المدينة ثم انحدرت من طريق ينتهى إلى ميدان المسجد . ولم يكن ذلك عسيراً والمسجد يقع من المدينة فى الطرف الذى يقابل موقع قروة ، فلا حاجة بالذاهب إليه أن يجوس خلال مساكنها . وبين الميدان وباب المسجد ممر يبلغ طوله بين الخمسة عشر متراً والعشرين ، وعرضه نحو ستة أمتار أو سبعة . وإلى يسار السائر فى هذا الممر متجهاً إلى المسجد مبان يذكرون أنها مدرسة ومكتبة . وهى على نظام المبانى المتصلة بالمساجد القديمة فى مصر ، والتى كانت مكاتب ومدارس إلى أول القرن العشرين . لها نوافذ واسعة تتقاطع فيها قضب الحديد لتحول بين داخلها والخارج . ويتعرج الممر عند باب المسجد ، فإذا سار الإنسان فيه ألفى باباً مقفلا بالحجر ، ذلك باب قبر ابن عباس الذى كان يزار فيما مضى ولا يسمح لأحد اليوم بزيارته . وكانت على هذا القبر قبة هدمها الإخوان فيما هدموا من القباب حين دخلوا الطائف والحجاز كله .

وباب المسجد يقابل الميدان ؛ ويتخطى الإنسان منه إلى فناء مكشوف لا تقام فيه صلاة . فإذا وقف فيه متجهاً إلى ناحية القبر كان المسجد أمامه والمحراب فى صدره . والمسجد مسقوف كله ، قائم سقفه على عمد فوقها عقود ، مفروش كله ، بعضه بالسجاد وبعضه بالحصير ، فسيح الجنبات يتسع لبضعة آلاف من المصلين . وللقبر باب من ناحية المسجد غير بابه المطل على الخارج والذى أقفل بالحجر . وقد أقفلت أبواب مقصورة القبر من ناحية المسجد إقفالا

محكماً لا سبيل معه إلى دخول أحد عند القبر للتبرك به أو لاتخاذ صاحبه إلى الله زلفى ؛ فمذهب الإخوان فى هذا الأمر حاسم لا يقبل هوادة .

وكان الناس فيما مضى يصلون الجمعة فى مساجد الطائف الأخرى ولا يقصدون إلى هذا المسجد العباسى . ذلك بأن أهل المدينة وما حولها اتخذوه مقبرة تيمناً بدفن موتاهم إلى جانب الصحابة ورجاء أن يلتقوا فى الآخرة بهم فيكونوا لهم شفعاء عند الله . وقد كثرت القبور فى المسجد فى بعض العهود حتى امتلأ نصف صحنه بها . فلما كان مستهل القرن الحادى عشر الهجرى نهى الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه خيفة أن يصير مقبرة كله ، وأمر بأن يصلى الناس الجمعة فيه بعد أن كانوا يعتبرونه مقبرة لاتقام فيها الصلاة .

ولم يكن المسجد يومئذ على ما هو اليوم عليه من سعة . ولعله لم يُبْنَ إلا بعد زمن غير قليل من حكم العباسيين إكراماً لقبر ابن عباس ، على أنه كان موضع التجلة والإكرام فى مختلف العصور ، فكان كلما تخرب منه جانب عُمِّر . وقد تضافر أمراء المسلمين من أهل اليمن والحجاز ومصر على عمارته . كذلك كان شأنه ، حتى لقد عهد والى الشام محمد باشا العظم إلى أحد المعماريين المشهود لهم بالتفوق بأن يزيد فى عمارته فزاد فيه اثنتين وثلاثين ذراعاً فى الطول ومثلها فى العرض وذلك فى سنة ١١٩٣ هجرية .

وابن عباس صاحب هذا القبر والذى سمى المسجد باسمه ، أو الحبر ابن عباس كما يسميه بعضهم ، هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم النبى العربى ، وجد الخلفاء العباسيين . وليس أحد قرأ علوم الإسلام إلا يعرفه كل المعرفة . فهو من رُواة الحديث المعروفين ، وهو من أكثر أهل زمانه ذكاء وعلماً . وكان أبيض وسيماً جسيماً مُشْرَبًا صفرة طويلا صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء ويلبس الخزّ ويعتم بعمامة سوداء يُرْخيها شبراً . توفى سنة ٨٨ هجرية بعد أن كُفَّ بصره .

أما قبور الصحابة الواقعة إلى جوار المسجد من ناحية الشمال فيبلغ عددها اثنى عشر قبراً ويحيط بها مكان مسور ويقوم فوقها زرع أخضر . وليس

يعرف أحد ممن تحدثتُ إليهم لمن من الصحابة الذين استُشهدوا فى الحصار هذا القبر أو ذاك ، مع أنهم جميعًا معروفة أسماؤهم . ولقد سألت : أيعرف أحد قبر عُرْوة بن مسعود الثقفى ، فلم أجد من يعرفه أو يدلنى عليه . هذا مع ما كان لعروة من مكانة وسؤدد فى الطائف على عهد الرسول . صحيح أنه لم يكن ممن استشهد مع المسلمين فى حصار الطائف ، فقد كان عروة يومئذ على دين قومه ولم يكن قد مات . لكن له فى تاريخ النبى العربى مواقف تجعل له من المكانة فى النفوس ما يخلد به ذكر قبره ، وما يخلع عليه أسطورة من مثل الأساطير الكثيرة التى يسمعها الإنسان بمكة عن مساجدها وقبورها وآبارها. فقد كان عروة سفير قريش إلى النبى عام الحديبية . هو الذى خرج إليه يذكره بأن مكة بيضته ، وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد لأهله وإن اتصلت الحرب بينه وبينهم ما اتصلت . فلما عاد إلى قريش قال لهم : « يا معشر قريش ، إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشىّ فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قطُّ مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإنهم لن يُسلموه لشىء أبداً » . وكان عروة هو الذى أسرع إلى محمد بعد غزوة تَبُوك يُعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه للدخول فى دين الله . فلما حذره النبى قومه وقال له « إنهم قاتِلوك » ، كان جواب عروة جواب المعتز بمكانه منهم أن قال : « يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبصارهم» . وعاد عروة إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ؛ فتشاوروا بينهم وعز عليهم أن يتركوا عبادة اللات .فلما أصبح عروة قام على علِّية له ينادى للصلاة ، فضاق قومُه به ذرعًا فرموه بالنبل ، فقال وهو يُسلم الروح : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم » . ثم طلب أن يدفن مع هؤلاء الشهداء فدفن معهم .

هذه بعض مواقف عروة بن مسعود الثقفى ؛ ومع ذلك لا يعرف أحد من

ثقيف قبره بين هذه القبور لشهداء المسلمين . ولقد دعانى ذلك إلى كثير من التدبر وأنا بموقفى أستذكر صورة اليوم الذى استُشهد فيه أولئك الشهداء ، واليوم الذى استُشهد فيه عروة بن مسعود من رمية النبل وهو ينادى : « الله أكبر الله أكبر » ويدعو الناس للصلاة[١].

وعدتُ وأصحابى من مسجد ابن عباس ندور فى المدينة . وقد مررنا على مقربة من مسجد ابن عباس بمسجد للسنوسى ، يسميه بعضهم مسجد الطرابلسى ، فألفيناه مُغْلقًا ، فنظرت من ثَقْب فى أعلى بابه فإذا هو على طراز مساجد مكة بسيط العمارة غير فسيح ، يتقدمه لدى الباب صحن مكشوف ويقوم المحراب قُبالة الباب ، ويعتمد سقفه على عمد فوقها عقود تفصل بين الصحن والمسجد . فلما تخطينا سوق المدينة منحدرين غربًا استوقفنا مسجد الهادى ، وهو مسجد فسيح من مساجد الطائف السبعة التى يصلى أهلُ الطائف بها كل أوقاتهم ، ما خلا صلاة الجمعة فهم يجتمعون لها فى مسجد ابن عباس .

من هذه المساجد بالطائف مسجد له قصة طريفة جديرة بالرواية ؛ ذلك مسجد المحجوب الواقع فى سفح جبل السكارى بقروة . وتتصل قصة هذا المسجد بمحرابه المشهور بأنه محرر على القبلة بدقة لا تعادلها دقة تحرير المحاريب فى سائر مساجد الطائف . وقصة هذا المحراب أن السيد محجوب الميرغنى السودانى أمر ببنائه . فلما أقام البناءون المحراب اشتبه فى دقة استقباله القبلة وقال لرئيس البنائين : « أصْلِح قبلتك » ، ثم مدّ كُمَّ جبته أمام هذا المعلِّم فنظر فيها فرأى الكعبة من كُمِّ الجبة وبذلك حرر المحراب على عين القبلة . وأنا أضع هذه الرواية تحت نظر القارئ ، وليس لى منها إلا حظ الناقل .

---

(١) المأثور أن هذه القبور لسعيد بن سعيد بن العاص ، وعرفطة بن عبد الله بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس القرشى ، وعبد الله بن الحارث بن قيس ، وطلحة بن عبد الله بن ربيعة ، وثابت بن الجزع ويسمى ثعلبة ، والأنصارى الخزرجى السلمى ، والحارث بن سهيل ابن أبى صعصعة الأنصارى ، والمنذر بن عبد الله الأنصارى الخزرجى ، ورقيم الأنصارى ، وعبد الله بن عامر بن أبى ربيعة . أما عبد الله بن أبى بكر الصديق فقد جرح فى حصار الطائف ثم اندمل جرحه ؛ لكنه نغر عليه حين بلغ المدينة فتوفى متأثراً به .

مررنا بسوق الطائف فى انحدارنا من مسجد ابن عباس إلى مسجد الهادى . وسوق الطائف كما رأيت أشبه شيء بما نراه فى حوانيت القاهرة إذ تمر بالفحامين والمُغَرْبِلين وتحت الربع . ولقد عادت بى ذاكرتى وأنا أجتازها إلى أسواق أم درمان . وإن بينها وبين أكثر الأسواق بمكة لشبهًا عظيمًا . وهى تشبه أسواق دمشق كما رأيتها فى سنة ١٩١٤ — إذا لم تخنّى الذاكرة — وهذا كله يدل على أنه طراز السوق المعروفة فى بلادنا الشرقية قبل أن تغزونا حضارة الغرب وأن تجعل من أسواقنا ما نراه اليوم بالقاهرة والإسكندرية ودمشق والخرطوم فى الأحياء الجديدة . فالحوانيت صغيرة ضيقة لا تُعْنَى بعرض ما فيها عناية تلفت النظر . والجالسون فيها هم أصحابها . وهم يرتبطون بصلة المودة حتى ليدع أحدُهم عميله جالسًا إلى باب حانوته ليقوم بنفسه فيبتاع له من الحوانيت الأخرى ما ليس عنده . وتمتلئ هذه الحوانيت الصغيرة الضيقة بركة من الله وفضلا لقيام أصحابها بأنفسهم على تصريف تجارتها .

إذا اعتبرتَ الطائف هذه المدينة التى تتوسطها السوق ويقع فيها مسجد ابن عباس والمساجد الستة الأخرى فهى لا ريب مدينة صغيرة لا تزيد على مدن المراكز فى مصر . لذلك تُضاف إليها الضواحى المتصلة بها والتى يتخذها أهل مكة مَصيفاً ويعتبرونها من الطائف كما يتخذ أهل مصر رمل الإسكندرية مصيفًا ويعتبرونه من الإسكندرية . وقد أشرت إلى ضاحية قروة حيث يقع منزل مضيفنا الشيخ محمد الصبان . وثم إلى جوار الطائف من ناحية الشمال بستان اسمه نجمة ، جميل الموقع غاية الجمال ، وبه قصر تمنيت إذ رأيته أن يكون لى . فموقع نجمة بديع حقًا . يقع من خلفه واد يطلقون عليه اسم وادى العقيق ، وإن أنكر الشريف حمزة الغالبى قِدَم هذا الاسم . ويقوم من وراء هذا الوادى جبل أبى صَحْفَة . وهذا كله يحيط نجمة بهالة طبيعية بارعة تبلغ روعتها ساعة المغيب حين تنحدر الشمس وراء الجبل وتُلْقى بأشعتها على وادى العقيق مبلغًا تتعلق به النفس ويأخذ الفؤاد منه البَهْر . لذلك اختارها الشريف عون الرفيق أمير مكة السابق لبناء هذا القصر الذى بها والذى

أريد بالبستان أن يحيط به . لكن تصاريف القدر أقوى من إرادة الإنسان ، وله فيها العبرة البالغة ؛ فقد بغتت حوادثُ النهضة فى بدء الحرب الكبرى بناة هذا القصر فلم يتموه ، وبقى لذلك بناءً قائمًا من الآجُرْ الجميل لم يجصّص ولم توضع له أبوابه ونوافذه . لكن متانة البناء حفظته مدى هذين العقدين من السنين اللذين انقضيا منذ بنائه ؛ فهو اليوم قائم كأنه ينتظر بُناته يستأنفون عملهم فيه صبح الغداة . أما البستان فصار اسمًا لا مسمى له . وهلك عون الرفيق وتركت ذريته الحجاز وهى تقيم بمصر الآن، ولا يفكر أحد فى استئناف هذا البناء البديع فى ذلك الموقع الساحر ، ولا فى غرس البستان حوله ليكون مصيفًا بارعًا قلّ نظيره .

أما وهذا شأن نجمة فهى أدنى إلى الأثر منها إلى الضاحية ، وإن تكن أثراً يسهل بعثه إلى الحياة ليكون قصراً فخمًا وبستانًا جميلا . فأما الضاحية البديعة حقًا فتلك شبرة التى مررنا بها فى طريقنا من مكة إلى الطائف ، والتى تقع على أبواب الطائف . ولم تقف السيارة بنا إذ ذاك عندها ، ولم ألتفت يومئذ إليها رغم انبساط ضوء القمر عليها ، لتقدّم الليل ، وشدة الجهد ، وطول الشُّقة التى قطعناها . لكنى عدت إليها قبيل المغيب ذات يوم من أيام مُقامنا بالطائف فخيلَتْنى إذ دخلت قصرها واخترقت بساتينها كأنما انتقلت من بلاد العرب كلها إلى جزيرة الروضة بالقاهرة أو إلى بعض الجوانب النضرة من سويسرا . هذا مع أنى كنت قد مررت قبل ذلك ببساتين عدة فى بادية الطائف ، وكنت قد نسيت الجدب والإمحال المحيطين بمكة واللذين ينتشران فى تهامة إلا فى قليل من أوديتها .

وشبرة ليست مع ذلك بالضاحية القديمة ، فقصورها وبساتينها من بناء آل عون فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن العشرين . بنى الشريف عبد الله بن عون القصر الأول ، أو شبرة القديمة كما يسمونها ، وبنى الشريف على ولده القصر الثانى أو شبرة الجديدة . وغرست حول القصرين بساتين فخمة يقصر دونها الطرف ، بها من أشجار الفاكهة النادرة والأزهار البالغة فى البهجة

ما جلبه بناة القصرين من مختلف بلاد الأرض ، كما جلبوا رخام القصرين من إيطاليا ، وأخشابهما من تركيا . وقد آل هذان القصران إلى الملك ابن السعود بعد جلاء الأشراف عن الحجاز ، فاتخذهما مصطافاً له ولعائلته . أما وحريم ابن السعود من زوجات وملك يمين يفقْنَ فى العد ما يتصوره ذهننا المصرى ، أما وأبناؤه منهن يجاوزون العشرات ، أما ولكل زوجة فى القصر جناح ، فالقصران جميعاً لا يسعان الأسرة الملكية السعودية كلها . لذلك يضطر الأمير فيصل ، وزير خارجية ابن السعود ونائب الملك بالحجاز ، أن ينزل بالطائف إذا اصطاف بها ، لأن قصرىْ شبرة وبساتينها تضيق به .

وبينما يصطاف ابن السعود وأهله بشبرة الطائف إذا الشريف على باشا الذى أقام شبرة الجديدة بعد أن أقام أبوه الشريف عبد الله بن عون شبرة القديمة يقيم بمصر يستعيد ذكريات عهد سلف . ويتطلع بآماله إلى هذه البادية التى شهدت عظمة سلطانه ثم نسيته كما نسيت عُتاة سبقوه وكان لهم فيها السلطان ، وإن حفظت ذكر الذين عطروا جوها من عهد رسول الله بالتضحية بحياتهم جهاداً فى سبيل الله .

عدت إلى شبرة قبيل المغيب ذات يوم من أيام مُقامنا بالطائف بعد أن قضينا نهارنا بالبادية نصعد فى الجبال وننحدر عنها . وكان السيد محمد صالح القزاز قد أبلغ حارس القصر أن يلقانا عنده وأن يفتح لنا بابه أول وصولنا إليه. ووقفتُ قُبالة القصر أحدق فى عمارته . ولم يدهشنى ألا ينم شىء منه عن الطراز العربى فى قليل ولا كثير رغم قيامه فى قلب بلاد العرب ؛ فقد شاده الأشراف فى عصر كانت صفة العربية تدل على الانحطاط والتأخر فى كل ما تنسب إليه ، وكان سلطان الحضارة الغربية متغلغلا فى نواحى الحياة فى ربوع العالم جميعاً . إنما بُنى القصر على طراز أدنى إلى الرومانى . فتح حارسه لنا بابه فصعدنا إليه درجات فسيحة مريحة تبلغ عرض الباب ، أى نحو المترين . ومصراعا الباب من خشب جميل النقش ثمين . وطالعنا سُلم القصر وراء الباب وهو فى مثل عرضه ، صُنع من رُخام إيطالى جميل ، وقام عن جانبيه

درابزون من الحديد الدقيق الصناعة . وتدل آثار من النحاس باقية بأعلى الدرابزون على عناية بنقشه وزخرفته . وقد قيل لنا إن الوهابيين لما وصلوا الطائف واقتحم جندهم القصر حسبوا النحاس ذهبًا فنزعوه واعتبروه من الغنائم الثمينة . ويفضى هذا السلم إلى الطابق الأول للقصر فيفضى بذلك إلى أبهاء فسيحة وغرف تُذكرك سعتها بأبهاء الفنادق ؛ وزادها سعة خلوها من الأثاث . وأردت أن أعرف هذا الأثاث ما يكون حين نزول الأسرة المالكة أثناء الصيف بالقصر فلم أجد إقبالا على إجابتى ، فحسبت القوم غلبهم الحياء دون الحديث فى أمر ملكى ذلك مبلغه من الاتصال بالحياة البيتية فى الليل والنهار . وأردت أن أشجعهم فذكرت ما يراه الإنسان بالقصور الملكية فى إنجلترا وأوربا من الطنافس وأدوات الزينة وأسِرّة النوم ، فنظر أحدهم إلىّ فى دهشة وقفتنى عن المُضِى فى القول وذكرتنى أنى فى بلاد العرب ولست بأوربا .

ولم نصعد إلى الطابق الثانى من القصر إذ قيل إنه على نظام الطابق الأول . وعدنا من الغرف إلى السلم لنهبطه ، فأشار إلينا الشيخ صالح القزاز فدخلنا من باب قبالة السلم يؤدى إلى طُنُف (بلكون) مطل على بساتين القصر ؛ فجلسنا حتى تناولنا القهوة ، ثم هبطنا إلى البساتين نسير فيها متنقلين من بستان شبرة القديمة إلى بستان شبرة الجديدة نقضى من الوقت أثناء سيرنا بهما ووقوفنا أمام أشجار مختلفة فيهما ما يُشيع فى النفس المسرة ويذهب عنها نَصَب النهار فى متاعها بمنظر شجرة باسقة لفاكهة نادرة ، وأخرى متشعبة الفروع لزهر ذكى عَطِر ، وإن لم يكن الفصل بالطائف بعدُ فصل جنى الفاكهة أو تضوع أريج الزهر .

وهذه البساتين ، على ما فيها من أشجار ثمينة نادرة ، لم يُعْنَ أحد بتنسيقها أو بتنظيم الطريق خلالها لتيسير المرور بها والوقوف عند محاسنها والمتاع بعطر زهرها وأريج فاكهتها ، هى أدنى إلى أن تكون غابة مستوحشة ألقت المصادفة إليها بهذه الأشجار فنمتها تربتها الخِصْبة فى نضرة وبهاء دون أن تجمع بين المتشابه منها أو تُعْنَى باتساق ألوان الزهر فيما يجتمع من أشجاره . يشير لك البستانى إلى شجرة من الورد ويصف لك بهاء لون زهرها ، ثم يذكر

لك أن شجرة مثلها تقع فى ناحية من البستان نائية أو قريبة ، وأن شجرة من فصيلتها تقع فى الطرف الآخر منه . وما سوى الورد والفاكهة مبعثر فى هذه البساتين كالورد سواء . فسبيلك إلى معرفتها أن تدرس مواقعها من هذه الغابة وأن تقتحم طريقك إليها خلال الأشجار الباسقة البارعة النمو المتشابكة الغصون .

وبلغنا باباً صغيراً بآخر البساتين فيما وراء القصور ، واتجه أصحابى يريدون الخروج منه . وإنى لعلى أهبة اتباعهم إذ وقف إلى جانبى الشريف حمزة الغالبى وقال :

ــ أتعلم أن لهذه البساتين كرامة لن ينساها أهل الطائف ولا أهل مكة ؟! وعجبت أن تكون البساتين أولياء أولى كرامات ؛ فقال :

ــ لا تعجب ! فقد كان أهل مكة يصطافون بالطائف حين أغار الوهابيون عليها ، ولم تكن بالطائف حامية تصد غارتهم . فلما سلمت المدينة ودخلها الإخوان أخذوا مَنْ بها أسرى ؛ وبحثوا عن محلة تتسع لهم جميعاً فلم يجدوا إلا هذه البساتين فحشروهم فيها زُمَرا ولم يدفعوا إليهم بطعام ولا بشراب . وكان الفصل فصل الفاكهة ؛ فوجد هؤلاء الأسرى فيها طعامهم وفى العيون التى تستقى منها البساتين شرابهم ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً وعطشاً . ألا ترى هذه كرامة لهذه البساتين تسجَّل لها مع ما ينسب لبعض الآبار والآثار من الكرامات !

وألقيت على هذه البساتين كأنها الغابات قبل خروجنا من بابها الصغير نظرة أحاطت بها ، ثم سرت وأصحابى بعد أن انحدرت الشمس إلى المغيب تاركة وراءها بقية من الضوء تنير الطريق للسالكين . وأفضيت إلى أصحابى والسيارة تجرى بنا إلى الدار بما رأيت من عدم تنسيق البساتين وتركها غابة غير ذات نظام ؛ فقال أحدهم : « لعلها كذلك أجمل ! ولعل ذلك رأى الأشراف الذين نسقوها » .

وبلغنا الدار فعلمنا أن شعراء البادية سيحضرون إلينا فى المساء ، ودخلت غرفتى أزيل غبار النهار ، ثم توضأت وصليت وأقمت على سجادة الصلاة

أذكر ما رأيت . وتمثلت لى البساتين فى غاباتها وسألت نفسى : أهى حقًّا كذلك أجمل مما لو نسقت ونظمت وخططت فيها الطرق وجمع فيها كل ضريب من الأشجار إلى ضريبه ، وكل لون من الزهر إلى نظيره . أم هى كذلك أجمل لأنها فى بلاد العرب بين أحضان الطبيعة البكر لم تنظمها يد الإنسان ، وأنها لو نظمت لكانت نابية فى هذه البيئة ؛ فالبدوى المتنقل من مكة أو من نجد إلى الطائف ، والذى قضى فى البادية ما قضى يَخُبُّ به الجمل تتقاذفه الفلوات ، أو تجرى به السيارة منذ غزت السيارة هذه الربوع جرياً مضطرباً بين المرتفعات والمنخفضات ، لا يألف نظره البستان المنظم ما يألف هذه الغابة الموحشة فى روعة جمالها البارع ! أم يرجع عدم تنظيمها إلى بقاء الخُلُق البدوى متأصلا فى النفس العربية فهى لمّا تألف الحضارة ونظامها ، وهى لا تحتمل هذه الحضارة ولا تسيغها إلا أن تُحمَل على ذلك حملا وتكره عليه إكراهًا ! والحق أن أهل هذه البلاد ما يزالون مترددين بين الاعتزاز ببدويتهم والإعجاب بالحضارة الحاكمة . فهم يتمنون أن يتاح لهم المتاع بكل ما تيسره هذه الحضارة من متاع بالحياة ، وهم يخشون ألا تطيق نفوسهم هذا المتاع ، أو لا تطيقه بلادهم وبيئتهم لو أنه جلب إليها ، كما يخشون أن يُضيع ما تجلب هذه الحضارة إليهم ما ينعمون به من حرية البداوة ؛ فهم يعتزون بها ويذكرون ماضى مجدها ويرجون لو يستطيعون الجمع بينها وبين ما فى الحضارة من خير ، ناسين أو متناسين أن الخير وحده لا وجود له ، وأن الشر وحده لا وجود له ، وأن اجتماعهما طبيعى فلا مفر منه ولا معدى عنه ، وأن غاية ما نستطيعه أن نستر الشر عن الأعين ، كما يتوارى المريض أثناء مرضه عن أعين الناس .

وأقبل المساء وأقبل شعراء البادية إلى بهو الدار يبلغون الخمسة عشر عدًّا ، وجلس كل منهم فى المكان الذى تؤهله له مكانته . فى الصدر جلس رجل منهم يناهز الستين ، تحدث سيماه ويحدث لباسه عن وجاهة فى قومه وتقدم على أبناء قبيلته . وجلس على مقربة منه مَنْ لا يبلغ الثلاثين ولكنه فصيح القول ،

فى نبرة صوته أمارة الرياسة . وجلس الباقون وقد اختار كل منهم مكاناً لا ينازعه إليه غيره . وألقى كثير من هؤلاء مشالحهم عن أكتافهم ؛ أما أولو الصدارة فقد احتفظوا بها وكأنها بعض أمارات الصدارة . وبادلتهم التحية جميعاً ، ثم فَسَحوا لى فى الصدر مكاناً وسألونى عما شهدتُ بالطائف وعن رأيى فيه . واتصل بيننا حديث سرعان ما خالطه ذلك الود الفياض من ميراثنا المشترك فى اللغة والتاريخ والعقيدة ؛ ذلك الود الذى يجعلنا نشعر حيث كنا من بلاد هذا العالم العربى أننا بين أهلنا وذوى قربانا ؛ التقى أجدادنا وأجدادهم ، وجرى فى عروقنا وعروقهم عن طريق النسب دم مشترك ، فأصبحنا أمة واحدة وإن تباعدت البلاد وتباينت العادات .

ولم أكن أطمع فى أن أسمع من شعراء العرب هؤلاء شعراً عربياً كالذى انتهى إلينا عن الجاهلية وعن شعراء العرب أيام سلطانهم وازدهار حضارتهم . فلقد طمعت فى أن أسمع بالبادية حديثاً عربياً فى صفاء اللغة التى درسناها ، فلم أسمع فى الأودية ولا فى أعالى الجبال من ذلك شيئاً ، وإنما هى لهجات تعذّر علىّ فهم بعضها كما يتعذر علىّ فهم لغة أهل الصعيد الأعلى فى مصر ، وفهمت بعضها فى عسر كما لو كنت أسمع بعض اللهجات فى سوريا ولبنان . وليس فى البادية مدارس يتعلم أبناء البادية العربية الصحيحة فيها ويدرسون الشعر القديم كما يدرسه أبناؤنا ليقولوا الشعر متأثرين ببيئتهم محاكين الأقدمين فى نظمهم . ولم يخلف هؤلاء الشعراء ظنى ؛ فقد بدءوا يلقون مقاطيع فى الغزل وفى ذكر الأيام ، أيام البادية المجيدة ، هى أشبه شىء بالمواويل الحمر فى صعيدنا الأعلى . ولقد كانت طريقة الإلقاء تبعث إلى النفس من معانى ما يقولون أكثر مما تبعثه الألفاظ الغريبة عنى والتى تنطوى عليها لهجاتهم المختلفة . وكثيراً ما حاول الشريف حمزة الغالبى أو الشيخ صالح القزاز أن يترجم لى هذه المقاطيع باللغة التى نتفاهم بها ، لغة أهل مكة الجامعة بين خليط من لغات المسلمين فى أقطار العربية المختلفة . وكنت أقف من هذه الترجمة على صورة بدوية بديعة فى هذا الشعر الساذج أكاد أذكر بها معانى الأقدمين .

وجاءت نوبة الشريف حمزة الغالبي فألقى قصيدة باللغة العربية الفصحى ، وكأنما أراد أن يرفه عني بلغة يتيسر علىّ فهمها . وعاد أصحابه إلى مقاطيعهم ، ثم عاد هو فألقى قصيدة أخرى ، وعاد فى نوبته فألقى قصيدة ثالثة . إذ ذاك ضاق القوم به ذرعاً أن رأوني أسرع إلى فهم ما يقول . فحدثه أسنُّهم يعيب عليه أن يحاول إبداء تفوقه عليهم أو ازدراء لغتهم ولغة آبائهم . واعتذر الشريف فى تأدب بأنه إنما يريد أن يُطلعنى على شيء مما يقولونه ولم يعد بعدها إلى إلقاء شيء من شعره .

وكان الطريف فى هذه القصائد الثلاث التى أنشدها أنه يمدح بأولها حكم الترك ، وبالثانية حكم الأشراف ، ويشيد فى الثالثة بحكم ابن السعود ، دون أن يرى فى ذلك ما يعاب به أو يقدح فيه . ألم يكن هؤلاء جميعاً حكاماً لبلاده ، فهم سواسية عنده ، يقول فيهم جميعاً قولاً واحداً ، ويتخذ إزاءهم من شعره ما يتقى به ظلمهم وما يصل به إلى رضاهم وإلى ما يسبغه هذا الرضا على من يناله من خير ونعيم .

ومدت لشعراء العرب الموائد وقدم لهم العشاء ، فالتفوا حوله بعد تمنُّع ونالوا منه شبعهم . وبعد أن تناولوا القهوة وتحدثوا استأنفوا قول الشعر . لكنهم لم يقولوه مقاطيع كما فعلوا قبل العشاء ؛ بل بدءوا بالمطارحة : يرتجل أحدهم فى أمر فيجيبه آخر ارتجالا فى هذا الأمر . وما كان لى أن أحكم بينهم ولم أكن أفهم مما يقولون إلا قليلا . لكننى رأيت بعضهم يتحمس لما يسمع من جانب ، ورأيت آخرين يتحمسون لما يسمعون من الجانب الآخر . وذكرت شيئاً من هذه المطارحة سمعته فى لبنان ورأيت هناك ما رأيت بالطائف من تحمس لهذا ولذاك من المرتجلين ؛ فأيقنت أن الشعر شعبيٌّ يثير الحماسة وأن قائله يتوخى فى قوله أن يثيرها فى النفوس ليُذكى فيها من صرام هذه الحماسة غاية ما يستطيع إذكاءه .

وانتهى القوم من هذه المطارحة يتبادلونها جلوساً ، ثم قاموا فريقين يواجه كل منهما الآخر ، وقد أمسك الزعيم من كل فريق عصا ، واندفعوا يتطارحون

فى حماسة أشد من الأولى وأنا لا أكاد أفهم مما يقولون شيئاً ، لبعد ما بين لهجتهم وما عرفت من لهجات البلاد التى تتكلم العربية الفصحى . وحمى وطيس المطارحة وأخذت الحماسة من نفوس الفريقين أعظم مأخذ . ولم يصبح الأمر بينهم أنهم يريدون إظهارى على شعر البادية ما هو ، بل أصبح منافسة واستعلاء ، يريد كل فريق أن يكون له التفوق والغَلَب . وهل بقى من أمرى ما يعنيهم وقد رأونى لا أفهم ما يقولون ! لكنهم يفهم بعضهم بعضاً، ولكنهم رأوا حديقة الدار قد امتلأت بأهل الطائف كباراً وصغاراً يلقون إليهم السمع و يتحمسون لهم فيزيدونهم حرصاً على الإجادة والتفوق . وامتلأت حديقة الدار منذ بدأت هذه المنافسة ولم يكن بها أول المساء إلا القليل ؛ فلا عجب أن يحرص كل فريق على أن يحكم النظارة بتفوقه ، وإن امتد به القول ، وإن أقام مكانه حتى الصباح يتلقى الهجمات ويدفعها حتى يبلغ من ذلك إلى إخفات صوت خَصْمه .

وأدرك الشيخ صالح القزاز أنى أقيم معهم مجاملة لهم ما دمت لا أفهمهم ، وأنى فى حاجة إلى الراحة والنوم . وكان الليل قد انتصف ولا بد لنا من التبكير فى اليقظة صبحَ الغد لنخرج إلى جبال الشَّفَا ؛ لذلك أخذ يشكر القوم علامة الإذن بانتهاء الحَفْل . إذ ذاك سمعت زمجرة استياء من ناحية الحديقة وبدا على المتنافسين الضجر مما سمعوا ، وكأنما كان كل فريق يحسب النصر قد دنا . أو أن فريقاً طرب للانتهاء لأنه كان وشيك الخذلان ، فى حين كان الفريق المتفوق هو المزمجر استياء لهذا التبكير بفضّ الحفل قبل تمام انتصاره ! على أن حركة الاستياء لم تلبث غير ثوان جلس القوم بعدها ثم استأذنوا وانصرفوا . وقمت إلى مضجعى مكدوداً فلم تلث إلا لحظات حتى اشتملنى عالم النوم .

واستيقظت بكرة الصباح وصور هؤلاء الشعراء ما تزال ماثلة أمام عينى . وساءلت نفسى عن هذه المطارحة وهذا التفاخر : أهما صورة ما كان يقع عند العرب من سكان هذه البادية فى العصور القديمة حين كانت الفصحى ما تزال فى سلامتها ، وأن ضياع الفصحى لم يحل دون انتقال هذه الصورة على العصور

من الآباء إلى الأبناء ؟ ولم أعنّ نفسى بالوقوف عند هذا السؤال والتماس الجواب عنه ، مكتفيًا بما علقته الذاكرة من كتب الأدب عن المطارحة ارتجالا وذيوعها عند العرب الأقدمين . فأما هذه المفاخرة فى صفّين يقف أحدهما قبالة الآخر فقد تكون صورة من المطارحة فى الفخر لم تُطل كتب الأدب الحديث عما كان يقع منها فيما مضى ، وقد لا تكون مما ورثه عرب البادية اليوم عن أسلافهم . وإنما هى بدعة انتقلت إليهم من بعض البلاد التى غزاها هؤلاء الأسلاف بعد الفتح الإسلامى بزمن قصير أو طويل .

وسألت الشيخ عبد الحميد حديدى ، ونحن نتناول طعام الإفطار ، عن المكان الذى لقى النبى فيه عدّاسًا النصرانى النِّينوى حين جاء إلى الطائف مستنصراً أهلها فخذلوه وأغرَوْا به صبيانهم فوجد فى عدّاس هذا عزاء وسلوى عن تحرش الصبيان به وتنكر الرجال له . وأجاب الشيخ عبد الحميد : إن مسجد عداس يقع بالمثنّاة إحدى قرى بادية الطائف ، ولا يقع بالطائف المعروفة اليوم . أما وكتب السيرة جميعًا تشير إلى أن عدّاسًا لقى النبى بالطائف حين احتمى بحائط شيبة وعتبة ابنى ربيعة ، كما تشير إلى أن مضارب المسلمين حين حصارهم الطائف كانت تقع على مرمى النَّبْل منها ، وإلى أن قبور الشهداء الذين أسلموا الروح أثناء هذا الحصار . وهى القبور الواقعة إلى جانب مسجد ابن عباس ، تقع حيث كانت تقوم هذه المضارب ، ففى هذا كله ما يدل على أن الطائف لا تقوم اليوم حيث كانت تقوم على عهد الرسول ، وأنها نقلت من مكانها ؛ حيث كانت تحيط بهذه المثناة التى يشير الشيخ عبد الحميد إليها وإلى وجود مسجد عدّاس بها ، وشيدت حولها قبور هؤلاء الشهداء تبركًا بهم وتيمنًا بهذا المكان الذى أقام النبى به أثناء حصار الطائف . وقد أقنعنى تَجْوالى ببادية الطائف ووقوفى بالمثناة من قراها بصحة هذا الرأى ، وبأن موقع الطائف اليوم غير موقعها القديم ، وأن إحاطتها بمسجد ابن عباس وقبور الشهداء من المسلمين إنما ترجع إلى هذه الاعتبارات التاريخية التى رواها صاحبى .

وبادية الطائف فسيحة مترامية الأطراف تجعل من الطائف قطراً كاملا ومملكة لو أنها عُمرت لكانت كبعض الممالك الصغرى بأوربا . وحسبُك أن تعلم أننا أقمنا أربعة أيام نجوب أنحاءها بالسيارة من بُكْرة الصباح إلى ساعة متأخرة من المساء أحياناً وإلى ما بعد مغيب الشمس دائماً ، ما خلا يوم زرنا شبرة ولم نبلغ من هذه البادية بعد ذلك إلا بعضها . وأقرب بادية الطائف إليها بستانان يضيفهما بعضهم إليها لأنهما يقعان حيث كانت تقع الطائف على عهد الرسول ، ولأن موقعهما يختلف فى طبيعته عن البادية . فبادية الطائف تقتضيك لكى تبلغها تسنم هضاب وتسلق جبال وجَوْب أودية ليست فى شيء من طبيعة الطائف ولا من موقعها فى سهلها المترامى الأطراف بين الجبال المحيطة به ، وهذان البستانان يقعان فى هذا السهل كما تقع فيه قروة وشبرة ونجمة وسائر ضواحى الطائف . وهذا ما يؤيد رواية الرواة أن الطائف القديمة كانت تقع حول هذين البستانين . فالمشهور أن مسجد ابن عباس كان يقع على بعد من أسفل المدينة القديمة من الجهة الشمالية. أما اليوم فهو يقع فى أعلى المدينة من الجهة المذكورة ، وهذان البستانان يقعان جنوب الطائف الحالية .

البستانان هما حَوَايا وشِهَار وهما واحتان خصيبتان بين هضاب قليلة الارتفاع مليئة بالأحجار التى قذف بها السيل من أعالى الجبال . وفى كل بستان منهما مياه جارية تسقى أشجاره الباسقة الجميلة . ويتوسط حوايا بناء يقيم به أهله وقد بنيت أمام أبوابه بِرْكة ماء فسيحة يرتفع الماء فيها فوق مستوى الأرض لتيسير ريها منه . وماء البركة يؤتى به من بئر يسهل متْح الماء منها لقربه من سطحها . ويوجد على مقربة من هذه البئر بئر أخرى يُشيدون بصلاح مياهها لشفاء رمل الكلى ، ويتحدثون متعجبين عن مجاورتها للبئر الأخرى مع اختلاف خواص مياههما بحيث يكون ماء هذه البئر شافياً صالحاً للشرب ولا تكون الأخرى كذلك .

ويريد بعضهم أن يجعل اسم حوايا تحريفاً لاسم سبقه هو هوايا ؛ ويذكر أن هذا الاسم قد أطلقه على هذا المكان من وجد فى مياه بئره الشافية ما يرضى

هواه . وعندى أن هذا خيال لا سند له فى كتاب من الكتب التى يصح الاعتماد عليها والتى ذكرت اسم هذا المكان .

أما البستان الآخر فشهار . وهو يشبه حوايا ، غير أنه لا بناء فيه ولا بئر ، وبه شجرة نبق هندى لذيذة الثمر ، وآلة رافعة للمياه يديرها الهواء . وقد دُقّت هذه الآلة فى البستان من زمن قريب على سبيل التجربة . وأهل الطائف ينتظرون نتيجة هذه التجربة قبل أن يُقدموا على الاستعانة بمثل هذه الآلة فى استنباط مياههم من العيون .

حول هذين البستانين إذاً ، وبين التلال الواقعة أمامهما من الجهة الغربية كانت تقوم الطائف القديمة فيما يروى بعض أهلها اليوم . وفى هذا المكان إذاً ، كانت تقوم اللات صنم ثقيف حتى عفّى الإسلام على أثره إذ هدمه المُغيرة ابن شُعْبة ونساء ثقيف حُسَّراً يبكين ، وكان يقوم بيت اللات ضَرِيبًا لبيت الله بمكة كما كانت تقوم دار عُرْوة بن مسعود أول من أسلم من ثقيف ، ودار عمرو بن عُمَيْر بن عوف التى قصدها النبى يوم نزل الطائف وحيداً فرده أبناء عمرو ردّاً غير جميل . وفى هذا المكان كانت تقوم المدينة التى حاصرها النبى على رأس جيش الفتح فاعتصمت بحصونها وامتنعت من هؤلاء الذين لم تمتنع عليهم مكة ولم يمتنع عليهم فى بلاد العرب كلها بلد ولا حصن . أين يومنا اليوم من تلك الأيام العظيمة التى شهدت عز الطائف وعز العرب جميعًا ببطولة العرب وبمجد الإسلام ! وأين تلك الطائف القوية ذات الأيْد والمَنَعة والحصون التى لا تُقْهَر ، من هذه الطائف التى يمتنع بها الترك أول الحرب الكبرى فيحاصرهم الأشراف فيها ويأخذونهم أسرى ، ويمتنع بها الأشراف فى سنة ١٩٢٥ فيحاصرهم النجديون فيها ويقتحمونها عليهم ويأسرونهم بها ! بل أين بلاد العرب كلها اليوم من بلاد العرب تلك حين كانت الطائف قطعة من الجنة أو قطعة من الشام نقلها الملائكة إلى شبه الجزيرة ، وحين كانت ثروة الطائف وخصْبها مضرب المثل !

وتمثل لى جيش المسلمين أيام النبى مقبلا من ناحية الجبال الواقعة شرق

الطائف بعد أن انتصر فى حُنين وخلّف أسراها فى الجعرّانة . تمثل لى هذا الجيش يزيد رجاله على عشرة آلاف كلهم إيمان بالنصر ، وكلهم حرص على الاستشهاد فى سبيل الله ، وقد أحاطوا بالطائف ، فرماهم أهلها بالنبل من أعلى الحصون واضطروهم للانزواء بعيداً عن مرمى النبل . وهناك عند مسجد ابن عباس أقام الجيش وضربت للنبى خيمتان بعيداً عن هذا المرمى . ويطول حصار القوم وهم متحصنون بمدينتهم الغنية لا يسلّمون . وهم فيها كالثعلب فى جحره لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث . ثم يدهمهم المسلمون فيرمونهم بالمنْجنيق ويبعثون إليهم بالدبابات وقد دخل تحتها نفر منهم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فيُكره رجال الطائف هؤلاء الزاحفين على الفرار بأن يلقوا الحديد المصهور على الدبابات فيحرقها . ويأمر النبى بإحراق كروم الطائف ، ويبدأ المسلمون ينفذون ، فيبعث أهلها إلى النبى أن يأخذه لنفسه إن شاء ، وأن يدعه لهم وللرَّحم لما بينهم من قرابة إذا أراد . وينتهى الأمر بأن يرفع المسلمون الحصار وأن ينصرفوا عن الطائف ليبعث الثقفيون بعد قليل من ذلك يطلبون إلى النبى أن ينضموا إلى لوائه .

كيف صارت الطائف إلى ما صارت اليوم إليه ؟ وكيف هوت من تلك المكانة التى كانت لها والتى كانت تنافس بها مكة حتى أقامت للاّت بيتًا جعلته منافسًا للبيت الحرام ؟ ! لعل ما حول الطائف مما تحدث عنه باديتها يجلو لنا من ذلك ما يزيدنا فهمًا لما يحدثنا به التاريخ وما تنطوى عليه الكتب . فلنزُرْ بادية الطائف ، ولنحاول أن نقف منها عند كل ما نستطيع الوقوف عنده .

بادية الطائف

كانت الطائف القديمة تقع بين التلال القائمة أمام البستانين حَوايا وشِهَار من الجهة الغربية على رواية أهلها اليوم . أما فى هذا الزمن الحاضر فالبستانان يقعان خارج الطائف ويبعدان عنها بضعة أميال . لذلك يحسبهما البعض بحق باب بادية الطائف ؛ فأنت لا تكاد تراهما بالمنظار المقرب ، وإن رآهما البدو بالعين المجردة . فإذا أنت جاوزت البستانين إلى الجهة المقابلة للطائف لقيتك البادية مترامية أمام نظرك ، منطلقة كأنها السهل حينًا ، منثورة فيها الأحجار التى حطها السيل من أعالى الجبال حينًا آخر ، ناتئة جبالها المتباينة الارتفاع على مقربة من النظر أو عند مرماه .

آثر أصحابى يوم زرنا بستانى حوايا وشهار أن نمعن بعض الشيء فى البادية ، وأغرونى على الإمعان بما ذكروا من أنَّا سنلقَى على مقربة منهما آثاراً تنير أمامى السبيل لما أبحث عنه من تاريخ هذه البقاع . وانطلقت بنا السيارة تؤم وادى السَّدَّاد حيث تقع هضاب الرُّدَّف . وفيما تجرى السيارة مسرعة حينًا ، متعثرة بالأحجار المنثورة فى الطريق حينًا آخر ، لفت رفيقى نظرى إلى واد تتخطاه وذكر لى أنه وادى وَجّ ، وأنه يمر بقرية المَثْنَاة منحدرًا إلى ناحية الطائف ، وأن الماء الذى يسيل به فى فصول الأمطار ينحدر من جبل بَرَد ومن جبال الطلحات حيث تقيم بعض قبائل هُذَيْل . . وعجبت أن لفت نظرى إلى هذا الوادى ولا شيء فيه يلفت النظر ؛ لكنه استطرد قائلا : إنه من الأودية المأثورة ؛ فقد رُوى أن النبي عليه السلام حرّم صيده ، وإن تكن هذه الرواية موضع خلاف . ولم أرد أن أناقشه فى الأمر أو أذكر أولئك الذين دعاهم الرسول إلى الإسلام فأبوا إلا أن يحرّم واديهم كما حرّم مكة فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، لأن حرمة مكة من أمر الله ومرجعها إلى البيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً .

وبلغت السيارة وادى السَّداد وقد أحاطت به هضاب الرُّدَّف ، ووقفت على مقربة من صخور ضخمة مركومة بعضها فوق بعض فهى وحدها هضبة مستقلة ناتئة أثناء الوادى . وهبطتُ منها فى لباس البدوىّ وجعلت أجيل النظر فيما حولى فلا أرى إلا جبالا قليلة الارتفاع تحجب ما وراءها وأحجاراً متفاوتة الأحجام قذف بها السيل فى أنحاء الوادى . أين ترى تكون الآثار التى حدثنى أصحابى عنها ؟ وسألتهم فأشاروا إلى هذه الهضبة المستقلة وقالوا : إنها رموز وعبارات كتبت على الصخور العليا منها . وتسلقنا الهضبة ، ودار أحدهم فوقها ثم دعانى إليه ، فعلوت صخراً وهبطت آخر وتسلقت ثالثًا ، ثم وقفت إلى جانبه أحاول وإياه أن نحل رموز خطوط أدنى إلى الكوفى نقشت على صفحة الحجر ، وأحدّق وإياه فى صخور أخرى فنرى رموزاً لم ندر ما هى ، ولعلها خط للغة من لغات البلاد الإسلامية فى آسيا أو أمريكا لم يبلغنا علمه ولم تبلغنا رسالته . وأراد بعض الحاضرين أن يرد هذه الكتابات إلى عصور قديمة ؛ فاعترضه آخر بأنها قد لا ترجع إلى أكثر من عشرات من السنين ، وقد ترجع إلى بضعة قرون ، وأنها على الأرجح لجماعة ممن زاروا هذه المنْطَقة من أزمان غير بعيدة جذبهم وادى وجّ إليها ، فجعلوا على أحجارها عبارات متداولة مثل : الحمد لله وحده ، وآمن بالله فلان ، أو خطوا عليها صوراً استعاضوا بها عن الكتابة لأنهم لا يعرفون الكتابة .

وما رأيت من كتابات ونقوش يجعلنى أميل إلى هذا الرأى الأخير . ووجود الكتابة الكوفية لا ينهض بذاته دليلا على قِدَم العصر الذى كتبت فيه . فالكتابة الكوفية تعتبر فى يومنا الحاضر زخرفًا يجيد تصويره كثيرون ؛ وهى قد كانت أكثر ذيوعًا منذ بضع عشرات من السنين خلت. وإنما يدعونى لترجيح هذا الرأى تشابه العبارة فى هذه الجمل المنقوشة على الصخر وعدم دلالتها على شىء يتصل بالطائف أو بالعرب أو بشىء من حوادث الماضى ذات الجسامة والخطر . ولو أنها كانت قديمة بمعنى أنها ترجع إلى العصور الإسلامية الأولى لبدا فيها طابع تلك العصور ولأشارت إلى

ما حدث فيها من حروب وما تم فيها من أعمال عظيمة . أما وهى كما رأيت فإنما هى عبارات تقليدية ينسخ فيها زوار هذا المكان كل\على طراز مَنْ سبقه . ولو أننى فكرت فى أن أصنع صنيعهم وأن أنقش على هذه الصخور المرموقة ما أسجل به وقوفى عندها لنقشت عليها أغلب الأمر عبارة كعبارة « آمن بالله فلان » مقلداً بذلك من سبقنى ؛ فالتقليد أيسر مشقة ، والعبارة التى اختارها أولئك السابقون أيسر نقشاً على الحجر من سواها .

وليس يعدل بى عن ترجيح هذا الرأى ما يروى عن قدم بعض النقوش حتى ليقال إنه كان من زمن الجاهلية ، وإنه من الخط الكوفى القديم الذى لم نألفه ؛ اللهم إلا أن تكون نقوش على جبال أو صخور أخرى كالنقوش التى يذكرون وجودها بجبل السكارى مما لم أقف عنده ولم أفكر فى أمره . على أن القائلين بقدم هذه النقوش يذكرون أنها خالية من التاريخ ، وأن الباحث لا يستطيع لذلك أن يستنبط منها ما يقوم عليه حكم من الأحكام ، أو تتحقق به حادثة من الحوادث .

فأما وادى وجّ الذى أشار صاحبى إلى أنه من الأودية المأثورة لقوله عليه السلام : « صيد وجّ وعِضَاهه حرام محرّم » فقد اختلف فى أمره . يقول ابن منظور فى لسان العرب : « وج موضع بالبادية ، وقيل : هو بلد بالطائف ، وقيل : هى الطائف » . وبعد أن روى حديث تحريمه قال : « ويحتمل أن يكون حرّمه فى وقت معلوم ثم نسخ . وفى حديث كعب أن وجًّا مقدس ، منه عَرَج الربُّ إلى السماء . وفى الحديث أن آخر وطأة وطئها الله بوجّ . قال . وَجٌّ هو الطائف . وأراد بالوطأة الغزاة هاهنا ، وكانت غزوة الطائف آخر غزواته صلى الله عليه وسلم » . ويذهب غير واحد من الذين كتبوا فى تقويم البلدان إلى أن وجًّا اسم للطائف قبل أن تسمى الطائف . وروى الفاسى فى كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » رواية مستندة إلى الزبير بن العوّام أنه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة حتى إذا كنا عند السِّدرة وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند طرف القرن الأسود — والقرن : جبل صغير

ورأسه مشرف على الهدّة — فاستقبل نَخِبًا ووقف حتى اتفق الناس ثم قال : « إن صيد وَجّ وعضاهه حرام محرم لله عز وجل » وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفًا . وقد ورد هذا الحديث فى سنن أبى داود ومسند ابن حنبل ، وإسناده ضعيف على ما قال النووى . وقال البخارى : لا يصح . وذكر ابن عبد ربه أن ثقيفًا جاءوا إلى النبى بعد مقتل عروة بن مسعود فعرضوا عليه إسلامهم فكتب لهم بحرمة واديهم .

لم أُعْنَ كثيراً بما قيل عن تحريم وادى وَجّ ومدى هذا التحريم . وكيف لى أن أعنى به وهذا الخلاف واقع عليه ، والبخارى ينكره ! وإنما عنيت من أمره بأنه على أبواب الطائف من ناحية ليّة عند انحدار المسلمين منها إلى الطائف . وكل ما أستطيع أن أستخلصه من الروايات التى سبقت أن الرسول عليه السلام وقف بهذا الوادى حين بلغه ، وأنه جمع المسلمين هنالك حوله ، وأنه هيأ صفوفهم لحصار الطائف ، وأنه حرم عليهم ، وكانوا من قبائل مختلفة ، أن يثيروا بينهم شقاقًا أو أن يستبيحوا بينهم ما ليس مباحًا لهم فى البلد الحرام . فلما انصرفوا عن الطائف لم تبق لوَجٍّ حرمة أكثر مما لغيرها من الآفاق .

قمت وأصحابى صبح الغد من ذلك اليوم مبكرين بعد أن نلنا بالنوم راحتنا ليوم جهد ومشقة . فقد رأى الشيخ صالح القزاز أن نتناول إفطارنا فوق السد السَّمَلَّجِىّ ، وأن نتناول طعام الغداء فوق سطح جبال الهَدَة ضيوفًا على محمود المغربى . والسد السملجى يقع شمال الطائف ، وجبال الهدة تقوم فى جنوبها الغربى . فلا سبيل إلى الجمع بينهما إلا أن نستقل سيارة البكس بكرة الصباح لنشهد السد وموقعه ولنعود بعد ذلك إلى جبال الهدة فنرتقيها إلى دار مضيفنا نتناول الغال ونشرب القهوة ونذره ينطحر الضأن وينضجه ، فإذا عدنا تناولنا العقال وهو قائم فى خدمتنا لا يقرب الطعام ولا ينظر إلينا ونحن نأكل .

والغال هو ما نسميه فى مصر « التصبيرة » ، أما العقال فطعام الغداء . وهو

الذى يعقل به الرجل معدته فلا تتحرك إلى طلب الطعام . والبدو لا يُعدّون العقال ولا ينحرون إلا بعد أن يصل إليهم ضيفهم .

غدونا إذاً مصبحين وتناولنا قدحًا من الشاى وآخر من القهوة ثم ركبنا السيارة فانطلقت بنا قاصدة السد السملجى . وكما مررنا أمس بوادى وَجّ فى طريقنا إلى هضاب الرُدّف فقد مررنا أول ما تبدت البادية أمامنا بواد لفت صاحبى نظرى إليه قائلا : إنه وادى نَخِب ؛ والمأثور أنه بوادى النمل الذى ذكره القرآن فى قصة سليمان إذ يقول تعالى :

«وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِين» .

وسألت صاحبى : وأين سليمان من الطائف وقد كان ملكه بالشام ؟ قال : «لقد جند الله لسليمان الوحش والطير فكان يسيرهم إلى حيث شاء من بقاع الأرض ، وكانت الطائف بعض ما مر به من البقاع فى ذهابه إلى اليمن . وقد اختلف الرواة : أمَرَّ الجيش بها طائراً فى الهواء بأمر سليمان وبإذن الله ؟ أم مرّ بها سائراً على الأرض ؟ والقائلون بالسير يستندون إلى ما ورد فى الآيات السابقة . فلو كان الجيش طائراً لما حذرت النملة قومها منهم . أما القائلون بالطيران فقد ذهبوا إلى أن جيش سليمان أتى على وادى النمل ولم يحطم منه نملة ، ولو كان سائراً لقضى على النمل وقريته . وإنما قالت النملة لأصحابها ما قالت يدفعها الحذر والحرص على الحياة .

ولم يذكر صاحبي أن وادي النمل حرّم كما حرّم وادي وجّ وإن على خلاف ، ولم يشر كذلك إلى ما أوردته الروايات المختلفة في وادي النمل وموقعه. فقد ذهب قوم إلى أنه بالشام ، وذهب آخرون إلى أنه باليمن . وتوسط الذين قالوا إنه بالطائف بين الشام واليمن . ولغير هؤلاء جميعاً مذهب في النمل وواديه لا اتصال له بالطائف ولا بوادي نَخِب بها ولا بالسِّدْر منها . ولم أر ما يدعو لمناقشة هذه الأقوال جميعاً إذ كنت لا أقصد من تحقيق ما أرى إلى معرفة شيء فيما قبل عهد النبي ، وقد كان سليمان قبل عهده بأكثر من خمسة عشر قرناً . فليكن وادي النمل بالطائف أو بالشام أو باليمن ، فليس تحقيقه مما يدخل في نطاق بحثي .

وقيل لي : إذا تخطت السيارة هذا الوادي فإنها تجتازه إلى وادي لِيّةَ وأنا أعلم أن الرسول جاء من حنين إلى الطائف على رأس جيش المسلمين فاجتازوا لية . لذلك شاقني أن أقف على هذا الوادي وأن أرى بعيني طريقاً مرّ به الرسول . وزادني شوقاً إليه ما قيل من أنه يمثل خصب الطائف وثمارها الشهية ، وإن لم يكن الفصل فصل ثمار تجتنى وإن اشتُهِيت . ومددت بصري إلى ما أمامي لعلني أرى طلائعه ، فإذا الجبال تحيط بنا من كل جانب ، وإذا السيارة تندفع نحوها كأنما تريد أن تقتحمها اقتحاماً أو تتسلقها تسلقاً . وبدأت تتيامن وتتياسر تتقي الأحجار المنثورة حولها مصعدة أثناء ذلك على هَوْن كأنما تريد أن تتخير سَرَبا خلال الجبال القائمة أمامها تصدّها . ولم يخطئ حَدْسي ؛ فلقد وجدتْ السَّرَب الذي تنفذ منه خلال السِلتين القائمين عن جانبها ؛ ذلك عِرْقٌ في الجبل حُطِم لتمر السيارات من خلاله في رِيع ليس اجتيازه فوق الجنادل المكدسة فيه بأقل من تسلق الجبل عسراً ومشقة . وسائق « البكس » يدفعه بكل قوة الوقود واحتراقه ، وهو مع ذلك يسير متعثراً كالطفل أول مشيه ، يترجّح إلى اليمين تارة وإلى اليسار طوراً ، ويكاد يهوي في كل لحظة إلى هذا الجانب أو ذاك والسفحان عن الجانبين يحصراننا ولا يزيلان مخاوفنا أن تهوي السيارة بينهما وأن تتحطم على جنادلهما الصم الصِّلاب .

ووقفت السيارة هنيهة لا تتقدم ولا تتأخر . ويريد أحدهم أن يبدى للسائق رأياً لعله يعينه ، فيثور ثائر السائق بهذا الذى يتدخل فيما لا يعنيه ، يدعوه إن شاء أن يجلس مكانه ليرينا من معجزاته ما عجز السائق عنه . والرِّيع ممتد لا ينتهى : والسفحان لا ينفرجان عن سطح أو واد يبعث إلى النفس الأمل أن قد بلغنا مأمنا . وكلنا واجم لا تنفرج شفتاه إلا عن كلمة تشجيع للسائق وإعجاب بمهارته مخافة أن يثور ثائرة كره أخرى ، وكلنا مع ذلك مطمئن راض باسم الثغر لهذا النهار المشرق الوضاح السماء ، ولهذا الجو الصفو الرقيق الذى ينعش الفؤاد ويشيع المسرة فى كل أنحائه . وترتقى السيارة خلال هذا الريع ثم تنحدر بعض الطريق لتعود إلى الارتقاء من جديد ، وهى فى انحدارها أشد حذراً منها فى تسلقها . والسائق ملق بكل انتباهه إلى كل حجر أمامه ، وإلى كل حركة من حركات السيارة فى تيامنها وتياسرها ، وقد جمدت يداه على مدارها فلا تتركانه . وخفت حركة رجله على معيار الوقود ينفق معه مدققاً فى حسابه ألا يزيد ما ينفقه وألا ينقص عن حاجة السيارة فى حركتها أثناء هذا الوقت الدقيق .

ربنا لك الحمد ! ها نحن أولاء قد سمونا إلى القمة وتكشف الأفق عن يميننا ويسارنا ، وانكشف أمامنا الوادى منبسطاً أسفل منا ، تحيط الجبال على مرمى النظر بأطرافه . وها هو ذا السائق يتنفس الصُعَداء كمن كرَبَه أمرٌ ثم غلبه وغلب كَرْبَه . وانحدرت السيارة متجهة صوب دار قامت فى عزلة هذا الوادى وانبسط أمامها زرع أخضر ذو روَاء وبهجة . هنالك تحدثنا ، وذكر أصحابنا هذا الوادى ، وادى لِيّة ، وجمال حدائقه وأعنابه وفاكهته اللذيذة الجميلة وأشادوا بجودة رمانه وسفرجله ، وتمنوا لو أتاح لنا الفصل أن ننال منها طعام إفطارنا ، لكن فصل الفاكهة لم يأن بعد ، فلنَطِب نفساً بما حملنا للإفطار من الطائف .

ودارت السيارة حول هذا الزرع البهيج ثم انطلقت مسرعة فى الوادى . وما لبث ما حولنا أن تغير : ازداد الجو صفواً ، والنسيم رقة وعذوبة وسرت إلى

الصدور غبطة مسعدة ضاعفت نعمة الحياة . ذلك أثر الماء فى مسيله والسيارة تحاذيه حيناً وتجتازه حيناً ، ثم تعود إلى محاذاته ثم إلى اجتيازه . ونهبط منها بين آن وآخر حين يخاف السائق غوصها فى الرمال ثم نعود إليها فرحين مطمئنين كما هبطنا منها . وتغوص فى الرمل فيدفعها أصحابنا متضامنين خاضعين لأمر السائق الجالس على عرشه قابضاً على مدارها ؛ فإذا خلصت وآن لها أن تعود سيرتها قفزنا إليها فى مرح دونه أى مرح . وانطلقت تسير فى أرض خصبة خالية من الزرع إلا ما ندر . ويذكر صاحبى أن وادى ليّة يمتد مستطيلا مدى خمسة وعشرين ميلا تقريباً وأنه يبتدئ من ديار بنى سُفيان الثقفيين من الجهة الجنوبية وينتهى بخَدّ الحاج من الجهة الشمالية ، وأن أعلاه يسكنه الأشراف ، ويسكن الزوران وعوف أسفله . والزوران قبيلة من هوازن ، وعوف فخذ من ثقيف .

وسألت : كم بقى لنا لندرك السد السملجى ؟ فعلمت أنّا نتخطى وادى صُخَيرة إلى وادى ثُمالة حيث يقوم هذا السد . قال صاحبى : « ويقيم بنو صخر بوادى صخيرة الذى نجتازه الآن ، وهم بطن من ثقيف ، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفى عامل عبد الملك بن مروان ، ومَنْ بقى اسمه علماً على القسوة والفتك والتلذذ بمنظر الدماء . فقد كان يرى فى كل جماعة يتولى أمرهم رءوساً أينعت وحان قطافها ، لا فرق عنده بين صحابى وتابعى وأعجمى أسلم ولما يدخل الإيمان فى قلبه . وذكرت وأنا أسمع لصاحبى ما للبيئة فى الناس من أثر ؛ فأدرت طرفى يَمْنَةً ويسرة لعلى أستشف من خلال وادى صخيرة سر ما ركب فى الحجاج من هذه الخلال . وخيل إلىّ أنى أرى فى طبيعة الوادى قسوة لم يكن شىء من مثلها فى وادى لية ؛ فقد انقطعت المياه وغاض مسيلُها ، ونتأت أحجارٌ صم جلاميد ، وخيم على الكون صمت ثقلت وطأته ، لم أدر أهو الذى صاغ روح الحجاج من بطش وقسوة ، أم أن مبعثه روح الحجاج وحديثنا عنه ، وأنا لو لم نتحدث عن الحجاج لما نتأت صمّ الجلاميد فى هذا المكان أكثر منها فى أى مكان غيره ، ولما ثقلت وطأة الصمت المخيم

على الكون فى أنحاء البادية جميعاً ، ولما كان انقطاع المياه وغيض مسيلها آية غيض الرحمة من قلب الحجاج وانقطاع مسيلها إلى نفسه .

ونسينا صُخَيرة ، والحجّاج وبنيه وآباءه حين وقفت السيارة بنا فى منقطع من الوادى ، وأعلن سائقها أن وقودها وشيك النفاد ، وأنا إن لم نتداركه بالرأى لم يعد يدرى كيف السبيل إلى بلوغ السد ثم العود إلى الطائف . ولم يكن بيننا الجرىء الذى يلقى عليه تبعة الإهمال فى الخروج من المدينة إلى رحلة كرحلتنا هذه دون التزود من الوقود بأكثر من حاجته ؛ فنحن الآن أحوج ما نكون إلى رضاه واتقاء غضبه ، وهو رجل حاد المزاج قد تدفعه حدته فيذرنا حيث نحن ساعات وساعات . وما عسى أن يجدى تحميله التبعة فى بلوغ غايتنا والعود لنتم رحلتنا ! قال السيد صالح القزاز : « لا عليك فهاهنا على مقربة منا كوخ لا يأبى أصحابه أن يبيعونا ما لديهم من بترول . وأحسبه يصلح مع ما بقى من بنزين السيارة لنطمئن به حتى عودتنا إلى الطائف . وأشرقت أسارير الرجل ، فانطلق بالسيارة غير بعيد ثم وقف عند كوخ قائم فوق ربوة بعيدة عن مسيل الوادى ، ونادى بأعلى صوته لعل أحداً يسمعه ويجيئنا بالبترول الذى نبتغيه . وأجاب النداء صبى ، فسألنا : ما نبغى ؟ ثم أطلق ساقيه للريح يلتمس أهله حين علم أن فى الأمر تجارة وربحاً . وجلست وأصحابى فوق الصخور الناتئة حول السيارة حتى جاء أهل الصبى بصفيحة البترول وبكوز صغير معها هو الكيل الذى يبيعون به . وانطلقت السيارة الضخمة فى طريقها فوق الصخور مطمئنة إلى وقودها وكفايته ، تمتّعُ معنا بجو الصبح الجميل ، حتى بلغت السد السملجىّ ولما تكتمل الساعة التاسعة . وكنا إذا بلغناه قد تجاوزنا وادى صخيرة إلى وادى ثُمالة ، وتجاوزنا قسوة الطبيعة إلى ابتسامها بالزرع النّضر والخضرة الباسمة ، وآن لنا أن نطمئن إلى مكان نتناول فيه إفطارنا وقد زادت بكرة اليقظة وجمال الهواء وجهد الرحلة فى شوقنا إليه وحرصنا على تناوله .

ولم نتردد فى اختيار المكان ، فهذا السد أمامنا ضخم عريض السطح مرتفع يشرف على ما حوله . وهو فيما يبدو من أمره أثر تاريخى كان له فى حياة

هذه البلاد أثر بالغ ، فلنصعد إليه ولنتخذ من سطحه مائدتنا . وتسلقنا أحجاره الضخمة كما يتسلق الناس الأهرام فى مصر حتى استوينا فوقه ، ثم سرنا حتى توسطنا سطحه . ونظرت عن يمينى فإذا مجرى أشبه بمجرى النهر قد حُصِر بين شاطئين ولا ماء فيه ، وعن يسارى فإذا أرض مستوية استوت فيها الحنطة على سوقها ولما تُحْصِدْ بعدُ [1] ؛ ومن أمامى ومن خلفى قام جبلان يحصران هذا الوادى الممرع الفسيح تتحدث أرضه بمعانى الخصب وقوة الإثمار ، وإن لم يكن به من زرع إلا هذه الحنطة التى أرى . وجلسنا على الحجر ونشرنا عليه ما معنا من الزاد ، ما كان أحلاه وأشهاه على بساطته وبداوته ! أستغفر الله ! لم يكن بدويًّا وقد كان بعضه « بسكوت » ومُرَبَّى مجلوبين من إنجلترا . واشتركنا جميعًا فى تناوله ، فكان فى ذلك من مظهر الديمقراطية البدوية ما تستريح له النفس ويشعر المرء فى أثنائه بالإخاء الإنسانى الذى لا يعرف الطبقات ولا يعرف الحاكم ولا المحكوم ، والذى يكمل به إيمان المرء إذ يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويدرك إدراكًا عميقًا صادقًا أنا جميعًا سواسية أمام الله وأنا جميعًا عباده ، لا فضل لأحد منا على صاحبه إلا بالتقوى .

اطمأنت معداتنا فقمنا نستأنف حديث السد والقبائل التى حوله ، قال صاحبى : تقع ديار بنى سعد حيث استرضع النبى على عشرة أميال من هذا المكان . وأغلب الظن أن قد جاء النبى فى طفولته إلى هنا مع الرعاة من بنى سعد ابن بكر ؛ فالرعاة لا يذرون مكانًا به كلأ أو مرعى أيًّا كان نوعه دون أن يطرقوه . قال آخر : هذا احتمال قد يكون وقد لا يكون . وربما اعترض عليه بحق من يذكر أن رعاة بنى ثُمَالة ما كانوا ليدعوا رعاة بنى سعد يطئون أرضهم موفورين عن رضا منهم وطواعية ؛ فقبائل البادية شديدة الحرص على حرمات أرضها ، وهى أشد حرصًا إذا كانت الأرض خصبة وكان فيها لذلك مطمع . قال السيد صالح : دعوا عنكم هذا الحديث وتعالَوْا بنا نهبط إلى حيث الحنطة لنواجه السد . فيرى ضيفنا منه ما هو أجدى فى بحوثه من كلام لا يتيسر لنا

(١) أحصد البر والزرع : حان له أن يحصد .

هاهنا تحقيقه . وأومأ صاحبي إيماءة الرضا عما قال السيد وتقدمنا كى نهبط السد ، وسار الشريف حمزة الغالبي إلى جانبي كيما يعاوننى إن احتجت إلى معونة .

وهبطنا إلى مزرعة الحنطة واستقبلنا السد ، فأخذت بنظرنا الأحجار الضخمة التى شيد منها ، كما أخذ بنظرنا إحكام بنائه على عظمته وضخامته . فهو يبلغ نحو الثمانين متراً فى طوله ، والخمسة والعشرين متراً فى ارتفاعه . أما عرض سطحه فيزيد على عشرة أمتار . وسألت عن تاريخ بنائه فقيل إنه يرجع إلى عهد معاوية بن أبى سفيان فى صدر الإسلام ، وإن الحجة فى ذلك هذه الكتابة المنقوشة على أحد أحجاره والتى لا تكاد تتضح ؛ فقد نقلها عبد الله باشا باناجى بالفوتوغرافيا فى أوائل هذا القرن وبعث بها إلى مصر حيث حلت رموزها فإذا فيها : « أمر ببنائه عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ». هو يرجع إذاً إلى ثلثمائة وألف سنة خلت . لم يكن بناة الأهرام وحدهم إذاً هم الذين عرفوا العظيم والضخم فى العمارة ؛ بل عرف أبناء بلاد العرب من ذلك ما عرف قدماء المصريين ، فأقام أهل الطائف هذا السد كما أقيم سد مأرب فى بلاد اليمن ؛ وأقيم هذا السد فى مسيل الوادى بين الجبلين كما أقيم سد مأرب لينتفع الناس بالمياه ولا يدعوها تذهب هدراً . كانت الغايات الاقتصادية والعمرانية هى التى أدت إلى إقامة هذا السد إذاً كما أدت إلى إقامة سد مأرب . وهذه الغايات هى التى دعت بُناته ليقيموه بالقوة والمتانة التى أقاموه بها من أحجار ضخمة يمسكها المِلاَطُ[1] القوى على مجابهة الزمان . لابد إذاً أن قد كان فى هذه البادية من أسباب العمران ما لا نرى له اليوم أثراً ؛ ولابد أن قد كان العرب فى صدر الإسلام ينعمون بحضارة ننكرها اليوم عليهم ؛ لأن أبناءهم أنكروها عليهم بإهمالهم إياها . بل أرانى أميل إلى الظن بأن هذه الحضارة كانت قائمة ينعم بها أهل هذه البلاد قبل الإسلام ، وأن الدين القيم قد نزل على قوم لهم من الحضارة هذا الحظ الأوفى .

---

(١) الملاط : الطين يجعل بين ساق البناء ويملط به الحائط .

وأدليت بما جال بخاطرى من ذلك ، فذكر السيد صالح القزاز : أن هذا السد أضخم سدود الطائف المعروفة ؛ لكن بالطائف سبعين سداً غيره ، ومنها ما يكاد يدانيه ضخامة وعظمة . من ذلك سد واقع فى حمى سَيْسَد المعروف بشرق الطائف ، يقال أن يزيد بن معاوية هو الذى أمر ببنائه ، وآخر واقع بوادى ثنية بين الطائف ووادى مِحْرِم. وهذه السدود جميعها مخربة منذ أزمان بعيدة لا يعرف أحد من أبناء هذا الجيل عنها شيئاً . ولم يخامرنى ريب فى أن تخريب هذه السدود هو الذى هوى بالطائف إلى حيث هى اليوم بعد أن كانت مضرب المثل فى الخصب والمنعة ؛ فقد كانت هذه السدود جميعاً خزانات تحجز مياه المطر لفائدة الزراعة ؛ فكانت المساحات الواسعة تستغل مزارع للحنطة والغلال والفاكهة وما إليها مما ترويه الكتب عن ثروة الطائف وعن مكانتها الاقتصادية، وكان ذلك سبباً فى العمران وانتشار السكان فى هذه الأودية الكثيرة التى مررنا والتى لم نمر بها . أما اليوم فأنت لا ترى فى هذه الأودية أثراً ظاهراً للعمران . وما يذكرونه عن ثُمالة وصخر وثقيف وهُذَيل وأفخاذها وبطونها لا يزيد على أسماء تحيي فى النفس ذكريات تاريخية ترجع إلى أيام الإسلام الأولى ، وترجع إلى ما قبل الإسلام . فإذا أردنا أن نلتمسها اليوم لم نجد إلا نجوعاً منثورة هاهنا وهناك يقيم فيها من الأعراب مَنْ لا يزيدون عن البدو الرحل رُقياً ولا تحضُّراً ، ومن جَنَوْا بتأخرهم على ما كان لهذه الحضارة الزاهرة فى صدر الإسلام من مكانة لا ينكرها أحد .

وأردف السيد صالح : ولم تكن مياه هذه السدود مقصورة فائدتها على إمداد الزراعة المتصلة بها ، بل كان لها فائدة أخرى لا تقل عن حجز الماء وقد تربو عليه ؛ ذلك أنها ترفع مياه العيون والآبار فى المناطق التى لا تصلها مياه السدود . فتجعل الريّ من هذه الآبار والعيون هيناً ميسوراً . والعمران يزدهر حيثما وجد الماء فجعل كل ما حوله حياً . لذلك كانت بادية الطائف عامرة كلها ، وكانت الدور والقصور فى هذه الأماكن التى نسمع اليوم أسماءها ولا نجد لها أثراً . وسترى مصداق ذلك اليوم حين نذهب إلى الهدَّة ، وغداً

حين نذهب إلى الشَّفَـا ؛ إذ نسمع أسماء وردت فى الشعر القديم على أنها موضع حضارة وأماكن عمران ، وهى اليوم بادية ممتدة أمام النظر ليس فيها أثر لحضارة أو عمران ، إلا ما يكون من رسم دارس يثير بقاؤه فى النفس الأسى وفى القلب الحسرة .

علونا مزرعة الحنطة إلى الطريق لنستقل السيارة عائدين إلى الطائف فى طريقنا إلى الهدَّة ، ووقفنا إلى جانب السد ريثما يجتمع رفاقنا . وسألنى صاحبى عن هذا السد ورأيى فيه . وسألته بدورى عن صحة اسمه : أهو السد السَّمَلَجِىّ أم السد السَّمَلَقِىّ ؟ فهم ينطقونه جيما كجيم أهل القاهرة ، وقافًا كقاف أهل الريف فى مصر ؛ وكنت أميل إلى الظن بأنه السملقى ، لا أدرى لم . واختلف القوم وأصر أكثرهم على أنه السملَجى واحتجوا بمقال نشره الأستاذ إبراهيم مصطفى أحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وكان قد جاء إلى هذه المنطقة وزار هذا السد . وقال صاحبى حسمًا للخلاف : ليكن هذا أو ذاك فله اسمان آخران لا خلاف عليهما : سد ثُمَالة ، وسد بنى هلال . ولقد أعجبنى هذا الرأى وصرفنى عن الإمعان فى تحقيق اللفظ ما عسى أن يكون الوجه الصحيح فيه .

وانطلقت بنا السياره نحو الطائف سالكة طرقًا أكثر يسرًا من الطريق الذى جاءت فيه . ورأى أصحابنا طمأنينة السائق فى مجلسه ؛ فسأله أحدهم : أكان قد ضل فلم يسلك هذا الدرب المعبد ، أم أنه شبع بعد تناول إفطاره فقويت ذاكرته فسلك السبيل السوى ؟ ولم يغضب الرجل ولم تغلبه حدته . وفيمَ الغضب وكل شىء ميسر أمامه . وبلغ الطائف ووقف عند مخزن البنزين فأخذ صفيحة وأفرغ فى السيارة أخرى وعاود انطلاقه لنبلغ الهدَّة قبل الظهر .

واتجهنا غرب الطائف فى أودية جرداء حينًا ومزدانة بالشجر النامى الذى يبعث فيه روح الحياة حينًا آخر . وكان وادى مسرّة أدنى الأودية إلى الطائف من هذه الناحية . وهو يقع على مقربة من بستان الشريف الشهيد ابن عون الذى يعرف اليوم باسم « مِعَشّى » على قول صاحبى . ولقد جاوزته السيارة

إلى ما بعده من أودية وهى ترتفع على هضابها حيناً ، وتهوى إلى بطونها آخر ، مطمئناً سائقها إلى الطريق سلكه قبل اليوم غير مرة . وبعد ساعة ونصف ساعة من الطائف انفسح أمامنا سهل يجاور جبلاً رفيع الذّرا ، أما السهل فوادى مِحْرِم الذى كان يعرف أيام السلف باسم قَرْن المنازل . وأما الجبل فهو الهدَّة المتصل بجبل كَرَاء .

ووادى محرم ، أو قرن المنازل إن شئت ، مفرق طرق تصل بين بادية الطائف ومكة . ولاثنين من هذه الطرق شهرة ؛ يتجه أحدهما من وادى محرم إلى حمى النمور فالثنية المقابلة للشرائع فمكة . ويتجه الآخر صاعداً من وادى محرم خلال النقب الأحمر إلى الهدة . والهدة : سطح جبل كَرَاء . ومن هذا السطح ينحدر الإنسان إلى جبل كراء المتصل بشدّاد فخريق نَعْمان فعرفات فمكة . وهذا الطريق هو الذى سلكه الرسول عليه السلام حين جاء من مكة إلى الطائف قبيل الهجرة . والطريق الأول هو الذى سلكه فى العودة من الطائف إلى مكة بعد أن رده أهلها وآذوه . وهذان الطريقان ما يزالان مسلوكين إلى اليوم للسائرين على أقدامهم وللممتطين الزوامل التى مرنت على تسلق الجبال ؛ فهما أقصر من طريق الشرائع فالزيمة فالسيل الكبير بمراحل . وأهل البادية أشد ميلاً لاتباع الطريق الموجز وإن شق السير فيه . وليس يدفعهم إلى ذلك حرصهم على الوقت وكسبه ، أو تقديرهم أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، بل يدفعهم إليه ميل طبيعى إلى المجهود الأقل . ومشقة الطريق لا قيمة لها عندهم ما يسّر قصره للإنسان أن ينال بعده راحة كاملة تعوضه عن كل جهد وكل مشقة .

وتقع الدار البيضاء بأسفل وادى مِحْرِم . وحَذَارِ أن يثير اسم الدار البيضاء فى نفسك ما أثاره فى نفسى من صورة البيت الذى أنشأه الأمريكيون لمقام رئيس الولايات المتحدة بواشنجتن . فلقد خُدِعت حين سمعت هذا الاسم وجعلت ، إذ وصلنا وادى محرم ، أدير بصرى يمنة ويسرة أريد أن أرى هذه الدار البيضاء أين هى ، فيرتد إلىّ البصر ولم تأخذ به دار بيضاء

ولا دار حمراء . وإنما كان أكثر ترددى فى السؤال عنها مخافة أن أُثير الإشفاق فى نفس أصحابى كيف لا أرى هذا القصر المنيف يخر دونه قصر الرئيس الأمريكى ساجداً ! فلما جازفت بكل جرأتى وسألت القوم ، إذا الدار البيضاء قرية من قرى البادية قامت بها بعض منازل صغيرة حقيرة ، وإذا أنا الذى يثور عجبى بل إشفاقى ذهبت ألتمس للقوم عذرًا عن هذه التسمية الفخمة للعزبة الحقيرة ، أنها ربما كانت دارًا بيضاء ذات بهاء وجلال فى الماضى ؛ فلما هوت إلى حيث هى اليوم بقى لها هذا الاسم الذى لا يتناسب معها ، كما تبقى لأشخاص ضعاف ضئيلة فى الحياة قيمتهم هين بين الناس قدرهم ، أسماء أجداد اهتزت بأسمائهم عصورهم ؛ فلما ثوى الأجداد فى الثرى وأورثوا أسماءهم مَنْ بعدهم عبِث يد الزمن بالأسماء لعبثها بوارثيها .

ووقفنا هنيهة ننتظر المطى التى تصعد بنا خلال النقب الأحمر إلى الهدّة . وأقبل فتيان من البدو تسبقهم حمر تلهث مسرعة كأنها مستنفرة فرت من قسْورة . ووقف الفتيان الحُمْرَ على مقربة منا ، واختار أصحابى أحدها لركوبى . ولم أعرف لاختيارهم سرًّا ، فبين الحمر وبراذعها من الشبه ما يثبت اليقين بديمقراطية الحمر فى البادية كديمقراطية كل شىء فيها . على أنى شكرت للقوم حسن الاختيار وعلوت مطيتى كما علَوا مطيهم ، وانطلقنا نُغذّ السير فى طريق لا عِوَج فيه ولا أمْت . وخيِّل إلىّ أننا سنصعد كذلك فى هَوْن حتى نبلغ غايتنا . وما راعنى إلا الجبل انبعث صُعُدا فى السماء أمامنا ، ولم يدع لنا طريقًا نسلكه إلا نقبًا أحمر يتلوى صاعدًا مع الجبل بين صخور كأنما صُهرت فى أتُون خلع عليها لونَ النار . ووقفت المطى أمام هذا النقب وألقت برءوسها وآذانها إلى الأرض وفحصت بأرجلها الصخر تبلو متانته ، ثم تقدمت فى حذر تصعد الجبل ، تضع رجلا فوق صخرة وتنقل الثانية إلى ما يليها ، وتقف هنيهة حتى تتثبت من موقفها ، ثم تنقل رجلها كرة أخرى ممعنة فى الصعود . وأمسكت أنفاسى وأمسك القوم أنفاسهم ورفعت طرفى فى لمح البصر إلى أعلى الجبل ورددته إلى موضع الخَطْو لهذا الحمار المختار الذى أركبه .

وفى هذه اللحظات الأولى القليلة القصيرة مرت بنفسى مئات الخواطر . وإنى لكذلك إذ زلقت رجل حمارى على صخرة فاستردها مسرعاً . عندئذ دعوت الفتى البدوى صاحب هذا الحمار فاستوقف دابته واعتمدت على كتفه ونزلت فوق صخرة وتركت الحمار يتابع تصعيده .

قال أصحابى : « مالك ! ومم تخاف ؟ » . . قلت : « أوثر أن أصعد هذا الجبل على قدمى كما صعدت حراء وثوراً ، وما أحسبه أكثر ارتفاعاً من أيهما » . قالوا : « لا تخف ، فهذه الحمر قد مرّنت على صعود الجبل مرانة البدو ، ونحن معك ، يسبقك بعضنا ويلحقك بعض » . قلت : « لئن كانت الحمر قد مرنت على الصعود لقد مرنت أقدامى كذلك عليه ، لكن فاتتنى هذه المرانة فى الصعود على ظهور الدواب » . وذكرت لهم كيف صعدت أرْزَ لُبنان فى سنة ١٩٢٤ ولما تكن طريق السيارات قد مهدت له ، ثم أردفت : « ولقد امتطيت يومئذ حماراً كهذا الذى تفضلتم باختياره لركوبى فإذا هو لا يطيب له السير إلا على حافة الجبل وحافة الهاوية ، حتى لقد كان يخيل إلىّ فى كل لحظة أنى على شفا جُرُف هار ؛ وذلك شأن الحمر جميعاً ، وهو شأنها اليوم ، وسيظل شأنها أبد الآبدين ودهر الداهرين ؛ وقد مضت اثنتا عشرة سنة من ذلك اليوم وأنا مع ذلك لا أنساه . وما أحسبنى بعد هذا الزمن كله فى مثل ما كنت فيه من نشاط الشباب وإقدامه ؛ مع ذلك كنت يومذاك ممسكاً قلبى بيدى حذَرَ الموت . وأين لى اليوم هذا القلب وتلك اليد التى كانت تمسكه ! فبالله عليكم إلا ما تركتمونى أصعد راجلا ، فمشقة الأقدام والسير أهون من مشقة الأعصاب وخفق الفؤاد » .

وابتسم السيد صالح القزاز لروايتى وترجّل عن حماره ولحق بى وقال : « إذاً نصعد راجلين معاً ، وإن كنت لا أشاركك فى مخاوفك » . وقال البدوى صاحب الحمار الذى أركبه : « جعلت فداك لا تخف . فهذا الحمار أبرّ بى وبراكبه من أن يُحدث أمراً . والأمر بعد لله ، والله معنا » . وترجّل صاحبى وجاء هو كذلك إلينا يسير معنا . فقافلة الحمر لا تقف أثناء الصعود

إلا كارهة . ولقد رأيتها تتخطى أمامى من صخرة إلى صخرة فى حذر ليس كمثله حذر ، ورأيتنى تنزلق قدمى فوق الصخور حيث لا تنزلق حوافرها . وسمعت كأن هاتفاً يهتف فى أطواء قلبى : « لِمَ تخاف ولكل أجل كتاب ؟! ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ! » والأمر بعد أهون من أن أجعله موضع رجاء أصحابى ، والتماس البدوى صاحب الحمار ، ودقة الملاحظة لخطو الحمر ، وهذه الفلسفة الجبرية التى بدأت تهتف بى ؛ على أنى مع ذلك آثرت أن أجعل عودى إلى امتطاء الدابة نزولا منى على إرادة صاحبها . ووقف الرجل الحمار فى بطن النَّقْب وعلوت صخرة استويت منها إلى مركبى ، وعادت القافلة تسير فى نظام مطمئن .

وازددنا طمأنينة بعد ربع ساعة من مسيرنا ؛ فقد استوى الجبل فى صعوده واستوى النقب طريقاً تجرى الدواب فيه جريها فى السهل ، لا تخاف شيئاً ولا تخشى . وظللنا كذلك فترة نسينا أثناءها ما استولى علينا من الصمت فى الفترة الأولى : فهذا يقص أنباء كَرَاء ، وذاك يقص أنباء كُرّ ، وثالث يتحدث عن الصخرة الضخمة على سطح الهدة وما عليها من كتابة ونقوش ، وآخر عن البركة الواقعة على منحدر كراء إلى الكُرّ . ويشترك البدو أصحاب الدواب فى هذا الحديث بما يعرفونه من أنباء هذه الأماكن . وإنَّا لفى مرحنا وفى قصصنا إذ آن للجبل أن يعتدل عمودياً فى ارتفاعه ، وللنقب أن يعود شاقاً مخوفاً ، وآن لنا أن نستأنف الصمت الأول ، وأن نشد أبصارنا إلى مواقع الخطو من هذه الدواب الحذرة المجازفة . ويقوِّس الحمار ظهره إذ يعلو بقدميه الأماميتين صخرة نابية فى نتوئها ، ويبلغ من تقوسه أن يكاد الإنسان ينزلق هاوياً وراء ذنبه لولا أن يشد اللجام بيد ويمسك البرذعة بالأخرى . ويخفق القلب لهذه الحركات « البهلوانية » المتئدة خفقاً شديداً ، وتتمتم الشفاه بعبارات الاستعانة بستر الله فى همس لا تسمعه إلا أذن قائله ، بل تتخيله هذه الأذن تخيلا . ماذا عساى أصنع ! أأترجل عن دابتى كرة أخرى أم أبقى متسنّماً ظهرها ويفعل الله ما يشاء ! ترى كم بقى إلى غايتنا ! ليكن ذلك بضعة أمتار ، فالسقوط عن

الدابة ودقّ الرقبة يتمان فيما دون الثانية الواحدة . وإذا ترجلت وعاد القوم يخاطبوننى ويشجعوننى وعاد البدوى صاحب الحمار يرجرنى فيما خجلا ! فإن لم يكن بعد ذلك بد من أن أستجيب لرجائهم فخير ألا أترجل أو أحدث فى القافلة ما لا مفر أن يحدث من هرج ونحن فى هذا المضيق الدقيق . ويستدير الحمار فوق صخرة يقف عليها بأربعه ، وأكاد أرانى هاويا متدحرجا على الصخور إلى رحمة الله ، فيثب قلبى فى صدرى ويتعطل كل تفكيرى وأشير إلى البدوى السائق ليدنو منى فأعتمد عليه وأهبط عن الدابة فى صمت وأسير بضعة أمتار على قدمىّ لا أحدث أثناء ذلك ضجة ولا جلبة ، ولا يكاد يفطن أحد ممن معى لما فعلت . ويسبقنا الحمار ويسير البدوى إلى جانبى ، ثم يشير إلىّ بعد قليل أنا صرنا على مقربة من القمة ، وأن الطريق استقام أو كاد ، وأنى أستطيع فى غير خوف أن أعود فأمتطى دابته . ويمسكها وأعلوها ، وتسير فى طريق ما يزال وعراً كما كان . لكننى كدت آلفه . ووعورته للسائر على القدم ليست دون خطره على ممتطى الدابة ؛ فأنت منه بين أمرّين أحلاهما مرّ ؛ وأنا أداول بين الأمرّين دراكا وما دمنا قاربنا الغاية فلأن أبلغها فارسا مع السادة خير من أبلغها ماشيا مع قادة الدواب .

وكنا على رأس النقْب حين بدت لنا دار حمراء لم أدر أبُنيت من الآجُرّ أم من أحجار هذا النقب . دار قائمة فى عزلة الصومعة شيدت على قمة عالية ، وعلى صورة البرج . كيف الطريق إليها ! انقطع النقب واستدارت الحُمر على سطح للجبل مخضرّ تجرى خلاله طرق ملتوية فى تصعيدها ، حيل بينها وبين خضرة الزرع بأحجار رصفتها أيد حريصة على هذا الزرع حذر أن تدوسه أقدام المشاة أو حوافر الدواب وأخفافها . وتلوّت قافلتنا فى هذه الطرق تسير صعداً نحو الدار فى طمأنينة من أدرك غايته . قال صاحبى وهو يتبعنى على أتانه حتى يكاد رأس الأتان يمس ساقى : « هذه الهدّة هى السطح من جبل كراء ، وهى ترتفع عن الطائف بستمائة متر ، وعن سطح البحر بمائتين وألفين من الأمتار . أو ترى هذا الجبل المصعدة قمته فى الجو هناك فى الناحية

الجنوبية ؟ إنه جبل سِفتار ، وهو أعلى قمة فى هذه الناحية من جبال الطائف ؛ ويبلغ ارتفاعه عن سطح الهدة خمسين ومائتى متر . والبدو يرون البحر منه عند منحنى اللّيث الواقع على مقربة من جُدة ، وهم يرونه ساعة مغيب الشمس إذا كان الجو صفواً فلم يحل دون امتداد البصر إلى غاية الأفق حائل .

وكان الجو فى هذه الساعة رقيقاً صفواً من كل شائبة . وكان هواء الجبل صحيحاً منعشاً يبعث إلى النفس الغبطة وإلى القلب المسرة . وكانت الشمس ترسل أشعتها المحسنة تحيي بها الكون وتفيض منها الدفء والنور ، فتزيد النفوس غبطة والقلوب مسرة . وكان زملاؤنا جميعاً فرحين أن بلغنا الغاية بعد ساعات تنقلنا أثناءها من الطائف إلى سد ثمالة ، فإلى الطائف كرة أخرى ، فإلى هذا المكان الذى بلغناه بعد جهد ومشقة . لعلى كنت أكثرهم اغتباطاً ومرحاً . فهذا كله جديد فى حياتى وهو متداول فى حياتهم ، فإن لم يكن بعض ما يزاولونه كل يوم فهو بعض ما يتعرضون له الفينة بعد الفينة ومنهم من تكاد تكون هذه المشقة بعض حياته ، كالشريف حمزة الغالبى . وربما كان فرح هذا الرجل أن بلغ بنا ما نبغى ، وأن حدثنا عن كثير مما أريد أن أسمع عنه ، أعظم من فرحه لمرأى دار مضيفنا فى الهدة . ولقد رأيت السرور يلمع فى عينيه ونحن نترجل عند دار هذا المضيف وهو يسألنى فى شوق من يريد أن يطمئن : « لعلك لم يبلغ منك التعب» !

ودلفنا إلى بيت مضيفنا محمود المغربى ، فدخلنا باباً وارتقينا درجاً وأوينا إلى غرفة أذكرتنى بداوتها وسذاجتها منازل العِزَب فى مصر . والقيتَنا أهل الدار مؤهلين فرحين ، ودخل بعضهم معنا الغرفة الخالية ، وجاء أحدهم بحصير من هنا وآخر بسجادة من نسج أيديهم من هاهنا ، وفرشوا ما استطاعوا فرشه من جوانب الغرفة ، ثم جاءوا بوسادتين أتكئْ عليهما مبالغة فى إكرامى . وأعد لنا القوم الغال — وهو طعام « التصبيرة » كما أسلفت — بيضاً وخبزاً وتمراً . وقام رب الدار على قدميه عند الباب لا يتناول معنا طعاماً ولا يلقى إلينا نظرة ، وكل همه أن يجىء بالماء للظامئين . وسمعته يتحدث إلى أهله .

جُزيت يا مستر فلبي ! أهذه اللغة العربية الفصحى الصميمة التي هديتني إلى موطنها ؟ ! إنها لهجة لا أكاد أفهمها إلا كما أفهم أهل لبنان أو أهل المغرب إذ يتحدث بعضهم إلى بعض . يرحم الله شعراء ثقيف وخطباءها ! ويرحم الله الحجاج بن يوسف الثقفي يوم قال :

أنا ابنُ جلا وطلاَّع الثَّنايَا متى أَضَع العِمامةَ تَعرفوني

ورحم الله أمية بن أبي الصلت الثقفي في الجاهلية ! ورحم الله المغيرة بن شعبة ، وغَيْلان بن سَلَمة ، وعُرْوة بن مسعود ، والفارِعة بنت أبي الصَّلت وغيرهم وغيرها من رجال ثقيف ونسائها الشعراء والحكماء . أين شعر هؤلاء وأين حكمتهم ! وأين هم من أولئك الذين أرى اليوم فلا أكاد أستبين لهم حديثاً أو أفهم لهم قولا ! ! وأسأل السيد صالح القزاز في ذلك فيذكر لي أنه الجهل المطبق الذي خيم على البلاد أجيالا بل قروناً ، والذي ألفه الناس حتى ما يفهمون غيره . فإذا أنشأت لهم الحكومة الفاتحة اليوم مكاتب للتعليم تلكأوا في الإقبال عليها واعتبروها عدوًّا لهم أي عدو ، هذا على شعورهم بالحاجة إلى المعرفة بعد إذ رأوا السيارة والبرق ، وأيقنوا أن الحياة في عصرنا الحديث بغير علم مستحيلة ، وأن الجهل والبهيمية فيها سواء .

خرجنا بعد « الغال » من دار مضيفنا ندور في الهدة من سطح كراء . وأطلقنا للدواب أزمّتها تجري مرسلة العنان لا تخاف وعراً ولا وعثاً ، ويدفعها أصحابها البدو الفرحون بجريها إلى مزيد منه ، فهي تستبق ما انفسح الطريق أمامها ، فإذا قام النبات عن جانبيها وَضاق الطريق سارت بعضها في أثر بعض . ونبات الحنطة المزروع في هذا السطح من الجبل لا تجاوز مساحته المنثورة هاهنا وهناك بضعة الأفدنة لكل قطعة منها . وهي تقع أغلبها في حضن سفح أو على رأس هاوية . فأما ما وَراء ذلك من سطح الجبل فخلاء منثورة فيه الأحجار المتباينة الأشكال والأحجام . وقد مررنا بحجر ضخم قائم في الفلاة يكاد ارتفاعه يبلغ ثلاثة الأمتار أو يزيد عليها ، فذكرت لمرآه أحجار الهرم الأكبر بالجيزة ، وإن لم يهذب ولم يسو ما هُذّبَتْ وَسُوِّيَتْ . ووقف

أصحابى أمام هذا الحجر فإذا عليه كتابة ونقوش . حاولوا قراءة ما يمكن قراءته منها ، وحاولوا أن يردوه إلى عصور قديمة ترجع إلى صدر الإسلام وإلى ما قبل الإسلام . قال صاحبى وهو يحاورهم : « أوَ تحسبون صخرة كهذه الصخرة معرضة للريح والمطر تحتفظ ألوف السنين أو مئاتها بكتابة لم يعمق صاحبها نقرها ! لشد ما تغلون ! وإنى لأظنكم تحرصون فى غير موضع للحرص أن تخلقوا تاريخًا منقوشًا على صخور هذه الأماكن الغنية بما وعت من عهد الرسول فأغناها عن كل نقش . وحسب هذا المكان فخاراً أنه عليه السلام مرّ به فى مجيئه من مكة إلى الطائف يستنصر أهلها . فأما ما ترونه منقوشًا على هذه الصخرة أو غيرها من الصخور فلا أحسبه يشفى غُلة أو يروى ظمأ ، وإن ألوى الذين يحلون طلاسمه تاريخ البشر مطويًّا فى ألفاظه » .

كانت غايتنا من سيرنا أن نبلغ البركة القائمة عند منحدر جبل كَرَاء إلى الكُرّ . فمن هذه البركة يرى الإنسان الطريق إلى شداد فوادى نَعْمَان فمكة . وهو الطريق الذى يسلكه المشاة وتسلكه الدواب بين مكة والطائف ، وهو الطريق الأثرى الذى سلكه الرسول من ستين وثلثمائة وألف سنة مضت . وهو هذا الطريق الذى نصح إلىّ الحاج عبد الله فلبى أن أسلكه لأسمع عربية البادية . أما ولم يتسن لى أن أتعدى ما بعد وادى نعمان يوم جئت إليه من مكة ، فلأذهب إلى الكُر من ناحية الطائف فأكون قد قطعت من هذا الطريق أكثره . وانطلقت الدواب بعد أن قرأ أصحابى ما استطاعوا وما لم يستطيعوا قراءته مما على الحجر الضخم حتى بلغتْ منحدر الطريق على سفوح كراء إلى البركة ، هنالك عادت إلى مجازفتها وحذرها . ولم يطل بنا الطريق فيرتاع القلب من خشية الخطر والانزلاق ، بل كنا عند البركة بعد دقائق من بدء المنحدر ، وكان من البدو الذين معنا من سبقونا إليها ونادونا من عندها لنطمئن بندائهم إلى قِصَر الطريق ويُسره .

والبركة مربّعة ، بنيت بناء محكمًا ، ومهد إليها انحدار الماء من الجبل فى قُنِيٍّ أحسِنَ نظامها ، كما نظم انحدار الماء منها ليظل ماؤها جاريًا ما نزلت السيول أو ذابت الثلوج . وشرب منها بعض رفقتنا تيمنًا وتبركًا .

وأدرت المنظار المقرب فيما حولى ، فألفيت انحدار السفح فيما دوننا وعراً عمودياً أو يكاد فسألت أصحابى فى صعوده ؛ فابتسم أحدهم وقال : « إن من أهل شداد الواقعة فى السهل عند نهاية كُرّ من يطيب لهم المجىء إلى هنا ليشربوا القهوة وليتحدثوا ولينعموا بهواء الجبل ما طاب لهم وليعودوا بعدذلك مغتبطين بنزهتهم لم يصبهم نصب ولم يمسسهم تعب ؛ وإنما تحسب أنت للأمر حسابه وترى فيه عسراً لأنك لم تتعوده ، والحياة عادة . ولو كنت تصعد الجبل اليوم للمرة الأولى ولم تكن قد سبقت إلى صعود حراء وثور لوجدت من المشقة أضعاف ما تجد » .

وحقّ ما قال . وإنى لأذكر يوماً من سنة ١٩١٠ كنت فيه بلُوسِرن من أعمال سويسرا وقد قضيت الليل بفندق فى قمة جبل الپيلات . فلما تنفس الفجر خرجت أشهد مشرق الشمس على قمم الجبال ، فألفيت جماعة من أهل الجبل فى هذه المنطقة سبقونى وقد تسلقوا من أدنى السفح إلى أعلاه فى بكرة الصبح خفافاً يتغنون أغانى الجبل ويتصايحون صيحاته ، وهم فى جذل ومرح دونهما مرح الطير الطليق من عشه مع تباشير النور . وقديماً ثقُل هواء السهل على أهل الجبل ، فكان تحنانهم إلى السفوح والقمم ينساب فى شعرهم نغمات كتغريد الطير حين أوبته إلى عشه وأفراخه .

وعدنا إلى منزل مضيفنا نتناول العقَال ، فألفيناه ثَرد الثريد وجعل عليه لحم الجزور كله ، وهيأ بذلك لنا طعاماً بدوياً لذيذاً . ولم يشاركنا فى العِقال كما وقف ساعة الغال بعيداً عنا يجيب مطالبنا ولا يُلقى علينا نظرة . ودارت القهوة بعد الطعام ، ثم خرجنا فركبنا دوابنا ودرنا بها فى أنحاء الجبل نستبق . وبدأت الشمس تميل نحو الغرب كل الميل ، فعدنا إلى النقب الأحمر نهبط خلاله إلى وادى محرْم . ولقد آثرت أن أقطع جانباً من النقب على قدمى مخافة السقوط من فوق الدابة وهى تنحدر فى حذرها ملقية إلى الأمام برأسها وبكل جسمها . فلما استوينا بعدذلك فى « البُكْس » وأسرع يقطع بنا الطريق إلى الطائف تنفسنا الصُعَداء . وقدرت صدق الدعوة التى يدعوها بنو وطننا للمسافر :

« يكتب الله لك فى كل خطوة ألف سلامة » .

قال صاحبى ونحن نتناول طعام العشاء : سنذهب صبح غد إلى الشَّفا أرفع جبال الطائف وهناك ترى البادية كما خلقت لم يَعْدُ عليها نظام ولم تعبث بها يدعابث . قلت : أوَعبثت يد النظام بالهدة ؟ وهل يرتفع الشفا عن كراء ؟ وتبسم الشيخ صالح القزاز وقال : إنك سترى يوم غد ما يسرك وستكون لك فرصة نادرة المثال فى الموازنة بين بلادنا اليوم وما كانت عليه أيام الرسول وفى صدر الإسلام ، وسترى فى أعالى الجبال هناك من طبائع البداوة ما لم تره اليوم ، وما هو خليق ببحثك ودرسك .

قلت : أوَ نجد مكان اللات طاغية ثقيف فى طريقنا إلى الشَّفا ؟

وأجاب السيد صالح : لا يعرف أحد اليوم أين كانت تقوم اللات وكل ما يذكرونه أن الصنم مسخ ونقل حجره أمام مسجد ابن عباس تدوسه أقدام الناس .

وذكرت لسماع هذا القول ما يذكره أهل مكة عن هبلَ وأن حجره وضع أمام باب الصفا من أبواب المسجد الحرام ليدوسه الناس .

قال صاحبى : تلك كلها روايات لم يحفل التاريخ شيئاً منها ولم يذكرها مؤرخ جاد فى كتاب من كتبه .

وقمنا صبح الغد نقصد الشَّفا ، وأقلتنا البكُس ، وانطلقنا فى طريق مستوية حتى حاذينا قرية المثناة . قال صاحبى : سألتنى غير مرة عن المكان الذى لقى فيه الرسول عدّاساً النصرانىّ وحرصت على أن تقف عنده . فنى المثناة مسجد سيدنا عداس . قلت : أولا ننزل فنزوره ! لكن الشيخ صالح آثر أن نرجىء هذه الزيارة إلى حين العودة من رحلتنا . وانطلقت السيارة متخطية وادى المثناة فى أرض مطمئنة يدل ظاهرها على خصبها ، وهى مع ذلك غامرة لا زرع فيها ولا نبات . وبلغنا زراعة مخضّرة ونباتاً حسناً ، فقيل : هذه الوهط. ورأينا بساتين تسقّى من عين تجاورها ، وتقوم منازل على مقربة منها أدنى إلى أن تكون ضيعة صغيرة ، يتعهد أهلها هذا الزرع القليل . قال الشيخ صالح : هذه الوهط

التي لا تكاد تُغلّ اليوم شيئاً مذكوراً كانت فى صدر الإسلام مضرب المثل فى الخصب والنماء. ذكروا أن عمرو بن العاص اشترى فيها أملاكاً أيام إمارته فى عهد معاوية ، وأن هذه الأملاك كانت تغل من الكروم والنبيذ مايتحدث الناس عنه . جاء معاوية من الشام يوماً ومرّ بهذه النواحى ؛ فلما كان على مقربة من الوهط رأى على البعد ما ظنه أحجاراً سوداء ناتئة فى كثرة نتوء الحرار فى مدينة الرسول ، فسأل : ما هذه الحرار ؟ وعلم أنها ليست حراراً وأنها خوابى النبيذ التى تُعصر فيها كروم ابن العاص . فلما توسط بساتين الوهط قال لعمرو مرة أخرى : لى عندك يا عمرو طَلِبَةٌ لعلك لا تردها قال عمرو : لك ذلك يا أمير المؤمنين ، ولى عند أمير المؤمنين بعد ذلك طَلِبةٌ أرجو ألا يردها . ووعده معاوية ما أراد . فأما الذى طلبه معاوية إلى عمرو فإن يهبه الوهط . قال عمرو : هى خالصة لأمير المؤمنين . وابتسم معاوية ثم قال : فسل يا عمرو ما بدالك فأنت مجاب إليه . قال عمرو : أن ترد الوهط يا أمير المؤمنين .

وأردف الشيخ صالح : وسواء أصحت هذه القصة أم لم تصح فهى تدل على ما كان لهذه الأماكن القفرة اليوم من شهرة بخِصْبها وثمراتها . وتؤيد صحة رأيك فى هذه البلاد وأنها لم تعد إلى مكانتها فى الحضارة والثروة منذ انتقل الملك إلى دمشق وبغداد والقاهرة .

ولعل الشيخ صالح القزاز لم يجزم بصحة الرواية التى حدّث عنها لما تختلف عليه الكتب أكانت أملاك الطائف لعمرو بن العاص أم لابنه عبد الله . فقد ذكر صاحب لسان العرب ما نصه : « الوهط : مال كان لعمرو بن العاص . وقيل : كان لعبد الله بن عمرو بن العاص بالطائف . وقيل الوهط موضع ؛ وقيل : قرية بالطائف » .

وجاوزنا الوَهط إلى الوُهَيْط القريبة منها والتى تشاركها فى أن أهلها من ثَقِيف . وبالوُهيط بستان كبير للشريف عون الرفيق يكاد يكون خلاء من الزرع لولا شجرة كبيرة من شجر « اليوكالبتس » كان عون الرفيق قد جاء

بها إليه . وهو يُسقى من عين جارية تنحدر إليها المياه من سفوح الجبال القائمة على مقربة من البستان ، والتى تميز طبيعة الوُهيط عن طبيعة الوهط السهلة الفسيحة الرحاب فى جوانب الوادى .

وانطلقت السيارة فى طريق يقع أسفل جبل بَرَدٍ ويدور معه حتى يبلغا الموضع الذى يصعد منه الصاعد إلى الشفا . ووقفنا فى منتصف هذا الطريق عند صخرة تفصل بين قريش وهُذيل وسُفيان ؛ سفيان فى الشرق وهذيل فى الجنوب وقريش فى الغرب . ونزل إخوانى وحاولوا قراءة ما على هذه الصخرة من آثار لم أعنَ بمشاركتهم فى قراءتها لأننى لا أثق بقدمها ، ولأنها إن تكن قديمة فى حاجة إلى دراسة ليست فى نطاق ما أقصد إليه من بحوثى . فلما رأى أصحابى انصرافى عن هذا الأثر عُدنا إلى السير حتى بلغنا مكاناً انفسح فيه الوادى ؛ هنالك نزلنا ، فإذا الدواب فى انتظارنا . على أننا رأينا على مقربة منا خلايا للنحل زرناها ، فإذا هى تذكّرنى تربية النحل عندنا فى أوائل هذا القرن المسيحى ؛ ولعلها هى الطريقة التى كانت تتبع فى تربيته منذ قرون ترجع إلى أوائل الدهر .

ركبنا الدواب وسرنا فى دروب بدأت سهلة مريحة ، ثم بلغ من وعثها ووعورتها أن صار النّقْب الأحمر جنة بالقياس إليها . وطال الطريق ، وبعُدت الشقة ، ونالنى الجهد ، وكدت أوقن أنا لن ندرك لهذا الجبل غاية . وكم مرة جال بخاطرى أن ألوى عِنان دابتى لأعود من حيث أتيت لولا أن غلبنى الحياء. ويترجل الشريف حمزة الغالبى عن دابته ويسير إلى جانبى يشجّعنى إذا استقام الطريق ، ويعاوننى فى المنحدرات وفى المرتقيات المخوفة ، ويحاول أن يرفّه عنى ويهدئ ثائرة أعصابى . والطريق يطول ويزداد وعورة ، ولا أجد فى كلمة من حمزة أملا فى قرب الغاية ، فتعود إلى أعصابى ثورتها وأكاد أغالب حيائى وأتغلب عليه وأعود أدراجى . وهممت أن أفعل لولا أن أكد لى حمزة أن ما بقى من الطريق دون ما قطعناه منه بمراحل . وانتهى بى الأمر أن استسلمت للأقدار وآثرت أن أنعم حتى بالمشقة ، وأن أجنى منها خير ما فيها ، وأن أنعم بهواء هذه الساعة فوق الجبل بلغ من الصفو والعذوبة

ما لعله سرى عنى وجعلنى أستمتع بما حولى . وتكبدت الشمس السماء وأرسلت إلى الخليقة من باهر ضيائها ما زادنى بما حولى متاعاً . ثم آن لحمزة أن يزف إلى البشرى بأنا لم نضل الطريق وأنا أشرفنا على الغاية منه . وبعد نصف ساعة من ذلك تبدت لنا دار مضيفنا عامر الربعى قائمة وحدها فى هذا المنقطع من ظهر الجبل ، ويقال مع ذلك إنها بقرية خُماس من قرى الطلحات إحدى قبائل هذيل .

وتلقانا عامر وبنوه مرجبين ، ودار بينهم وبين الشيخ صالح حديث سمعته ولم أفهم منه كلمة . وجلسنا فى فناء الدار عند باب غرفة لعلها الوحيدة فيها ؛ ثم انتقلنا إلى مخزن بعيد عنها بضعة أمتار وهناك جىء لنا بالثريد صُب عليه السمن بمقدار لم أستطع معه أن أتناول منه لقمة . ولم ينحر عامر جَزوراً لأنا بلغنا داره بعد الظهيرة ، وسنعود إلى الطائف قبل أن يتاح للحم الجزور أن ينْضج . واكتفيت لطعامى ببعض ما جئنا به من الفاكهة والحلوى . وجَمَع من شاء بين صلاة الظهر والعصر ، ثم أقمنا هنيهة نستريح . وفيما نشرب القهوة أغمضت عينى ورحت أفكر فيما رأيت . فهذه البادية ، التى جُسْت خلالها أمس واليوم ، بادية الخصب غزيرة الماء بديعة الهواء فى الصيف غير قارسة القُرّ فى الشتاء . ونحن الآن فى شهر مارس والهواء فيها رقيق ينعش النفس ويبعث النشاط إلى الحواس كلها . وما رأيت بها من سدود ضخمة لحجز المياه كى ينتفع بها الزراع وترتفع بها مياه الآبار يشهد بأن الذين عمروها وأنشئوا هذه السدود كانوا ذوى حضارة وفن يعرفان كيف يفيدان من خصب الطبيعة وقوتها على الإثمار . وتاريخ هذه البلاد وتراجم أبنائها الذين عاشوا فى عصور مختلفة منذ صدر الإسلام إلى آخر عهد بنى أمية يشهد بما كان لها من أدب رائع ومن فلسفة وشعر وحكمة ، كما يدل على أنها أخرجت أولى مقدرة ودهاء فى الحكم وسياسة الشعوب . فماذا دهاها اليوم فصارت إلى ما أرى من اضمحلال الثروة وتهدم المنشآت وجهل الناس وفساد الأمر فيها !! كيف هوت من مرتبة الحضارة الرفيعة إلى هذه المراتب الأولى من البداوة ، وكيف تعطل علمها وفنها فتحطمت

فيها كل آثار العلم والفن ! وكيف ذهبت لغتها العربية الصميمة الصحيحة وحلت محلها هذه الرطانة البدوية التى لا يصل بينها وبين العربية الأولى نسب !

ذهبت هذه الحضارة وذهب العلم والفن معها منذ تقلص السلطان من هذه البلاد ومنذ هجرها أبناؤها ذوو السلطان إلى بلاد أخرى . فمن يوم انتقل الأمويون إلى دمشق ومنذ استقر العباسيون ببغداد والفاطميون بالقاهرة حُكِم على هذه البلاد العربية بالاضمحلال والانحلال . أغرقت أول عهد الأمويين بأموال الفتح ، وفاتها من أول عهد الأمويين شرف الفتح وفخاره . ملك ثروتها أبناؤها العرب الذين ارتحلوا عنها وأقاموا بعواصم الإسلام دون تفكير فى العودة إليها . وما يُغنى المال إذا ذهب السلطان ! وما يغنى الماضى إذا تقلص ظل الحاضر ! وكيف ينمو المال إذا غاب عنه رب المال ! لذلك لم تلبث تلك البلاد التى كانت حاكمة فانقلبت محكومة وكانت سيدة فصارت مسودة إلا قليلا حتى تقلص عنها ظل النعمة إلى غيرها وحتى انتقلت منها العروبة إلى الشام وإلى العراق وإلى مصر ، وبقيت لها البداوة الساذجة والأعرابية التى فقدت كل مقومات الحضر العربى ، ثم كان الانحلال الذى بدأ منذ الأيام الأخيرة من العهد العباسى والذى نقل السلطان من يد العرب إلى يد الفرس والترك والمماليك . هنالك انحلت اللغة وحلت محلها عُجْمة نكراء كانت بلاد العرب أول من اصطلى بنارها . فلما آل الأمر إلى الأتراك العثمانيين لم يبق لبلاد العرب من المكانة إلا أنها موطن البلاد المقدسة ومكان بيت الله وقبر رسول الله . من ثم أصبحت أدنى فى نظر الحاكمين إلى أن تكون بلاداً أثرية ، فصار الرأى فيها أن تتجرد من زخرف الحياة كما يتجرد الحاج بيت الله من زينة هذه الحياة . بذلك غاضت قوة الحياة فى البلاد العربية جميعاً وأصبحت كَلاًّ على غيرها فى كل مرافق الحياة . وما حاجة من أصبح كلاًّ على غيره إلى السعى ! وما حاجة من لا يسعى إلى العلم أو الفن أو الحضارة ! وتعاقبت القرون ونفسية أهل هذه البلاد هذه النفسية ، وروحهم هذا الروح ، ونظرة المسلمين إليهم هذه النظرة . لا عجب وذلك شأنهم أن تتهدم السدود ، وأن يغيض الماء ، وأن يرحل

عنهم العلم ، وأن يعودوا إلى بداوة الجاهلية الأولى . لقد أسِفت واشتد أسفى لحال هذه البلاد . وما عسى أن يُغنى الأسف ! هل تراه ينهض يومًا بأمة من ضعفها وانحلالها إلى مواطن البأس والقوة ! إنما ينهض بالأمة صائح من أبنائها يحرك فيها معانى الإنسانية ويدفعها إلى الأمام تبتغى الكمال العقلى والكمال الروحى . أما وقد تحرك أبناء هذه البلاد يريدون الحياة مؤمنين بالله وبالروح وبالحق ، فما أجدرهم أن يعودوا إلى الحياة وأن يُعيدوا مجد الأجداد !

آن لنا أن نعود أدراجنا ، فامتطينا دوابنا وسرنا فى الجبل نصعد حينًا وننحدر آخر ، ونترجل عن ظهور المطى إذا اشتدت وعورة الطريق. وأدركنا سيارتنا وأهبنا بالسائق أن يسرع لنزور المثناة . وأسرع بنا السائق ، وأدركنا المثناة والليل وَشيك أن يمد على الوجود رِواقه . وانحدرنا نتسلل خلال الأزقة نريد مسجد عداس لنقف حيث وقف الرسول عليه السلام فى ساعة من أدق ساعات حياته ورسالته . ولو أنى لم أقف هذا الموقف ولم أدرك هذه الزيارة لخرجت من الطائف وكأن لم أحضر إليها ولم أقف بها . وما الطائف من غير زورة لمسجد عداس ! فى المكان الذى يقوم هذا المسجد اليوم عليه وقف رسول الله بعد أن أخرجه أهل الطائف من ديارهم وقد أبوا نصرته وأغروا به سفهاءهم يسبونه ويلقون عليه الأحجار ، لاجئًا إلى حائط عُتبة وشيبة ابنى ربيعة يحتمى به من أذى هؤلاء السفهاء . وهناك جلس إلى ظل شجرة من عنب يقلب كفيه ثم يرفع رأسه إلى السماء ضارعًا فى شكاية وألم ويقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تَكِلُنى ! إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملّكته أمرى ! إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى . لكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحلّ علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وَنظر إليه ابنا ربيعة وهو فى هذه الحال وَطال تحديقهما به ، فتحركت نفساهما شفقة عليه فبعثا غلامهما النصرانى عداسا إليه بِقطف

من عنب الحائط ، وتناوله الرسول ووَضع يده فيه وقال : « باسم الله » ، ثم أكل . ودهش عداس لما سمع وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد . وعلم محمد أنه نصرانى نينَوِىٌّ فقال له : « أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى ؟ » . قال عداس : وما يُدريك ما يونس بن متّى ؟ قال محمد : « ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبى » . فأقبل عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه .

وقام الرسول عليه السلام بعد أن طعِم العنب واستراح فانصرف عنه عداس ، فتوجه إلى مكة سالكًا طريق حِمى النُّمور فوادى محرم فالثنية ، لا أنيس له فى طريقه غير إيمانه بالله وعياذه بنور وجهه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هذا موقف من مواقف الرسول الكبرى . هو الموقف الذى سبق الهجرة وكان مقدمة بيعة العقبة ثم الاختفاء بغار ثور ، والذى هيأ الله به للرسول وجهة الدعوة إلى دين الحق . فلئن أجارت الحبشة المسلمين حين لجئوا إليها ، ولئن أسلم بمكة عدد عظيم له قوته وله منعته ، لقد جعل الله يَثْرب مدينة الرسول ولم يكتب لغيرها من بلاد العرب أن يسبقها إلى نصرته ؛ فلن يكون الأنصار إلا أبناءها الذين يؤوون رسول الله ويمهِّدون للفتح واكمال دين الله وتمام نعمته . أما الطائف فستظل آية الله فى الأرض أن الإيمان سبيلنا إلى الله لينصرنا . وإن ينصرنا الله فلا غالب لنا .

ما الطائف إذاً من غير زورة لمسجد عداس ! لقد كانت المثناة التى يقوم المسجد بها قطعة من الطائف فى عهد النبى ، وأكبر الظن أنها كانت بعض أطرافها . فقبلها انصرف صبيان الطائف عن محمد وانقطعوا عن إيذائه ؛ وبها كانت بساتين الطائف وكرومها . أما اليوم فتقع المثناة من الطائف على نحو ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربى . ولا تزال المياه جارية فى أنحائها ، ولا تزال بساتينها ذات بهاء ونضرة ، والكثير من دورها تحيط به البساتين ، ويُسقى معظمها من عين ينحدر ماؤها من جبل بَرد من مساكن قريش .

أى قريش هذه ؟ وما مبلغ صلتها بقريش مكة فى عهد الرسول ؟ هذا ما لم أقف على تحقيقه .

وقفت السيارة بنا فى ميدان فسيح أمام دور المثناة ، وانحدرنا نتسلل خلال الأزقة نريد مسجد عداس . وهى أزقة ضيقة بدت فى هذه الساعة من موليات النهار ومقدم الليل موحشة على ضيقها ؛ فلم يكن بها إنسان يؤنس وحشتها . ولولا البساتين المحيطة بها على الجانبين لبدت أشد وحشة . واستدرنا فى هذه الأزقة غير مرة حتى بلغنا داراً خيل إلينا أن بها إنساً . وسأل صاحبه مَن بها عن طريق المسجد ، فتقدمنا صبى تخطى جداراً فتبعناه ، ثم استدار فإذا بنا أمام بناء ضيق صورته صورة المساجد بمكة ، ولكنه بالغ فى الضيق حداً ضاق به الصدر حين علمنا أنه مسجد عداس .

يا عجباً ! بل يا أسفاً ! أيكون هذا الأثر الضئيل ما أقامه المسلمون ذكراً لهذا الموقف العظيم الجليل ! مسجد لم يُقمه مقيمه ليذكر المؤمنون الله فيه ، وإنما أقامه ذكراً لتوجه الرسول إلى ربه بهذا الابتهال المضىء بنور الإيمان ، والذى يملأ القلب جلالا وروعة . أين هذا الأثر الصغير من هذا الدعاء المنير ! ألا لو أن منارة ارتفعت ما ارتفعت إلى كبد السماء ، وكانت كل جوانبها محاريب تمثل الركوع لله والسجود أمام وجهه لقصرت عن تمثيل هذا الموقف الفذ من مواقف الرسول ، موقف السمو بالإيمان إلى حيث يتضاءل كل سمو ، والإسلام لله إلى غاية حدود الإسلام . لكن ! من ذا يقيم هذه المنارة ، ومن ذا يصور فيها هذه المحاريب ، ومن ذا يفكر فى أثر غير المنارة ومحاريبها يبعث فى النفس صورة هذا الموقف وما له من عظمة وجلال ، وقد خيَّم الجهل على المسلمين فانقلب الإسلام فى نفوسهم إذعاناً لعباد الله ، واتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وآمنوا لمن لم يتبع دينهم ، وجعلوا عبادتهم مظهراً لأوضاع يتعصبون لها ، وحقت عليهم كلمة الله تعالى فى الأعراب : «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ » !

وأين الحائط الذى كان لعُتبة وشيبة ابنى ربيعة ؟! أين هذا البستان

الذى بعث الفتَـيان منه بقِطف العنب مع عداس إلى النبى ؟! سألت فى هذا حين رأيت أمام المسجد مكانًا ضيقًا مسوّراً به زرع لم أتبين فى هذه الساعة من إقبال الليل ما هو . وقيل لى إن البستان مملوك لرجل من أهل المثناة وإن كان فقيراً ، وكأنه بستان المسجد . وعجبت لهذا واشتد بى العجب . فإذا لم يكن هذا المكان وقْفًا على تعبير الفقهاء ، ومنفعة عامة على تعبير رجال القانون من أهل عصرنا ، فأين يكون الوقف وأين تكون المنافع العامة !

وعدنا إلى الأزقة وسرنا خلالها حتى كنا بظاهر المثناة فى ناحيتها المقابلة للميدان حيث وقفت السيارة . وتخطينا سدوداً وقُنيًا تجرى فيها المياه تسقى هذه البساتين والزروع ، ودُرنا حول القرية حتى وقفنا عند مسجد الكُوع ، وهو أفسح من مسجد عداس رقْعة ويبدو خيراً منه حظًا عند الذين يتعهدونه . ولست أدرى أيقيم أهلُ القرية فيه صلاتهم وهو على ما شهدت من ضيق ! لكن الذى عرفته أنهم يعتبرونه مسجداً مأثوراً لأن النبى استراح عنده بعد مطاردة ثقيف إياه . ولعلهم يريدون أن ينحلوه هذه الصفة ليكون له ما لمسجد عداس من مكانة . فكتب السيرة كلها تقرر أن ثقيفًا أبوا نصرته وأغروا به صبيانهم ، وأنه فرّ منهم حتى بلغ حائط ابنى ربيعة فلجأ إليه واحتمى به ، وهناك وافاه عداس بالعنب . اللهم إلا أن يكون النبى وقف كرة أخرى فى هذا المكان ، مكان مسجد الكوع قبالة جبل المدهُون ، قبل أن يسلك طريقه إلى حمى النمور ووادى مِحْرَم عائداً إلى مكة . وهذا قول لم أقف عليه ولا أعتقد صحته . وأغلب الظن عندى أن ما يذكر عن مسجد الكوع لا يزيد من ناحية الثبوت العلمى على ما يذكر عن أكثر مساجد مكة .

وعدنا إلى الطائف وصاحبى يحاورنى فى مسجد الكوع ، ويكاد يقرّنى على أن لا سند من التاريخ لما يذكر عنه . أما مسجد عداس فقد بقيت لدى منه صورة تبعث فى النفس الألم . ولو أن لى من الأمر فى هذه البلاد شيئًا لحققت بكل وسائل العلم هذا المكان الذى لقى عداس النبى فيه ، ولأقمتُ به أثراً يفاخر أعظم الآثار على التاريخ . لكنما يكون ذلك بعد أن تصلح الطائف وباديتها

ويعود لها من العمران والحضارة ما كان لها فى صدر الإسلام وفى عهده الأول . هنالك تقوم السدود ويجرى الماء ويرتفع فى الآبار ويعود الخصب ويكثر الثمر وترجع هذه البلاد كما كانت جنة شبه جزيرة العرب . عند ذلك يُدرك القوم هذه المعانى الخالدة من مواقف الرسول الكريم وما لها من جلال وعظمة . وهنالك يقيمون لها من الآثار ما يتناسب يومئذ مع علمهم وحضارتهم من غير حاجة إلى من ينبههم إلى هذا الواجب .

عدنا إلى الطائف وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، فتناولنا عشاءنا وأوينا إلى مضاجعنا على أن نبرح الطائف عائدين إلى مكة بكرة الغد . لكنا لن نعود إليها من الطريق الذى جئنا منه ؛ فقد سمعت روايات كثيرة عن سوق عُكاظ والمكان الذى كان العرب يقيمونها فيه . وتذهب بعض هذه الروايات إلى أنها كانت تقام عند العُشَيْرة . فلنجعل طريقنا إلى العشيرة ، ولنعد منها إلى ذات عِرْق فإلى السيل الكبير . فأكثر الرواة على أن عكاظًا كانت بنخلة بين مكة والطائف . ونخلة هى السيل الكبير اليوم . ويزعم بعضهم أن آثاراً قديمة باقية على مقربة من هذا السيل تؤكد هذه الرواية . فلعلنا إن مررنا بالأماكن التى اختلفت الروايات أيها كان موضع عكاظ ، أن نرجح رواية فى أمر هذه السوق وموضعها . ولئن لم يكن لدينا من أسباب التحقيق ومن فسحة الوقت ما يجعل ترجيحنا ذا قيمة من ناحية علمية ، لقد يكون مع ذلك ذا فائدة عند من تُواتيهم فسحة الوقت وأسباب التحقيق بما لم تُواتِنا به .

أسواق العرب

لست أريد أن أتحدث فى هذا الفصل عن أسواق العرب فى هذا العصر الحاضر . ولو أننى أردت لما وجدت غير ما قلته فى الفصل الذى تقدم عن مكة الحديثة ، وما ذكرته عن سوق مِنًى حين الحج ، وعن سوق الطائف ، وما سأجعله موضع حديثى عند الكلام عن مدينة الرسول . ولست أريد أن أتحدث هنا عن أسواق العرب أيام الجاهلية وفى صدر الإسلام بوجه عام ، وإنما أريد أن أتحدث عما له اتصال منها بحياة النبى العربى ، وما يدخل لذلك فى منزل الوحى . وهذه الأسواق ثلاثة : عكاظ ومَجَنَّة ، وذو مجاز أو ذو المجاز .

وسوق عكاظ هى التى تلفت نظر كل مسلم وكل عربى إذا ذكرت هذه الأسواق الثلاث . فمجنة وذو مجاز لم تذكرا فى كتب التاريخ والأدب ما ذكرت سوق عكاظ ؛ وهما إنما تذكران عند الكلام عن الحج وشعائره وتكادان تتصلان بهذه الشعائر . أما عكاظ فلا يخلو كتاب من كتب الأدب العربى من الكلام عنها ، وقد صار اسمها علمًا على كل مجتمع يضم الآلاف وعشرات الآلاف من الناس ، ويكون حديث الشعر والأدب مما يجرى فيه . وكثيرون يذكرون هذا الاسم كما يذكر غيرهم اسم بُرج بَابل على أنه مجتمع الأمم وملتقى الناس من مختلف أنحاء الأرض . من ثم كان لهذا الاسم من ذيوع الشهرة ما يجعل كل زائر بلاد العرب وكل متجول بأم القرى وما حولها حريصًا على أن يعرف أين كان مكانه ، وما صار هذا المكان اليوم إليه ، ومتى بدأت سوق عكاظ تقام به ، ومتى عفَّت الحوادث عليه ؟

ومن عجب أن ليس لعكاظ على استفاضة شهرتها تاريخ مدوَّن فى بطون الكتب على نحو يستطيع الإنسان أن يطمئن إليه . فلم يحقق أحد الزمن الذى بدأ العرب يقيمونها فيه . وأدق ما يروى عن ذلك أنها اتُخذت سوقًا

فى الجاهلية بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . والخلاف على عام الفيل وتحديده مستفيض كشهرة عكاظ ؛ ولا أدل على ذلك من نسبة عام الفيل إلى مولد الرسول . فقد قيل إنه عليه السلام ولد عام الفيل ؛ ويقول ابن عباس إنه ولد يوم الفيل ؛ والمشهور أنه ولد فى سنة ٥٧٠ ميلادية . وإذن يكون عام الفيل كذلك سنة ٥٧٠ ميلادية . لكن آخرين يقولون : إنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام، وبأشهر ، وبسنين يقدرها قوم بثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين . فما هو التاريخ الصحيح لعام الفيل ؟ إن الذين يروون أن عكاظًا أقيمت بعد الفيل بخمس عشرة سنة يذهبون إلى أنها أقيمت سنة ٥٤٠ للميلاد . إذًا لقد كان عام الفيل فى رأيهم سنة ٥٢٥ م وقد ولد محمد سنة ٥٧٠ م ، فهو إذًا قد ولد على قولهم بعد عام الفيل بخمس وأربعين سنة . وهذا كلام يقع عليه خلاف شديد ، ولا يسلم به إلا الأقلون .

وليس تحديد المكان الذى كانت عكاظ تقام به بأيسر من تحديد التاريخ الذى اتُّخذ هذا المكان فيه سوقًا . وأكثر الأقوال فى هذا الشأن تواتراً أن هذه السوق كانت بين نَخْلة والطائف . لكن ما بين نخلة والطائف يبلغ الخمسين ميلا أو يزيد عليها . فأين كانت السوق تقام من قُطْر هذه الدائرة ؟ وهل كانت ثابتة فى مكان بذاته أو متنقلة فى أماكن مختلفة ؟ أكثر الكتب على أنها كانت ثابتة فى مكان بذاته . لكن تحديد هذا المكان أمر غير محقق . وعدم تحقيقه يبدو واضحًا ويبدو محيراً لمن سار بين مكة والطائف وحاول أن يعرف موضعه بشىء من الدقة . فهو يجد نفسه أمام روايات تزيد على الخمس : منها أن عكاظًا تقع بآخر وادى رُكْبة المتصل بوادى عُشَيْرة . ومنها أنها بوادى عَقْرب فى شرق الطائف بعد قليل من أم الحَمْد أو أم الحمض . ومنها أنها عند السيل الصغير بالموضع المعروف باسم القَهاوى . ومنها أنها بالسيل الكبير إلى ناحية الشمال فى موضع يقال له الخُرّ، فى وادى غَسلة . وهذه الأماكن كلها يصدق عليها أنها بين نخلة والطائف . ومع ما كتبه

المتقدمون عن عكاظ وموضعها لا تستطيع أنت إذ تمر بهذا الأماكن جميعًا أن تُثبت رأيًا دون رأى ؛ فإذا رجحت رأيًا هداك إليه بحثك لم يزد ذلك على أنه ترجيح لا يمكن القطع بصحته . وهذا ما فعلته بعد الذى قمت به من بحوث أعرضها فى هذا الفصل .

على أن الخلاف فى تحديد هذا المكان الذى تقوم به عكاظ والزمان الذى أنشئت فيه لا يتصل بتصوير ما كان يقع بها أثناء إقامتها ولا بالموعد الذى كانت تقام فيه . فاتفاق المؤرخين على أن العرب كانوا إذا أزمعوا الحج إلى مكة من أصقاع شبه الجزيرة جعلوا عكاظًا موعدهم فى هلال ذى القعدة فأقاموا بها عشرين يومًا ثم انصرفوا إلى مَجَنَّة فأقاموا بها عشرًا ؛ فإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز فأقاموا أسواقهم به ثمانى ليال ، ثم تروَّوْا من مائها فى اليوم الثامن وخرجوا إلى عرفة . وبَدَهِىٌّ أن الذين كانوا يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة ؛ فأما من لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد . وكان من لا يريد التجارة من أهل مكة يخرج من مكة يوم التروية . وظلت الحال على ذلك حتى جاء الإسلام وخلع على الحج من الجلال ما تضاءل إزاءه جلال هذا الفرض فى الجاهلية . هنالك ظن قوم أن الحج والتجارة لا يجتمعان ، وفكروا فى إبطال الأسواق ؛ فنزل قوله تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّين» . فأباحت هذه الآية التجارة قبل الحج وأثناءه وبعده ؛ وبذلك بقيت الأسواق ، وبقيت عكاظ حتى نهبها الثوار الذين خرجوا من مكة فى الثلث الأول للقرن الثانى من الهجرة .

وقَلَّ من أهل مكة من لم يكن يخرج إلى عكاظ ، فأهل مكة ذوو تجارة ، بل كانت التجارة حياتهم . ذلك بأن أم القرى وما حولها كانت ولا زالت بواد غير ذى زرع . وقد كانت فى تلك العصور طريق التجارة بين

الشام واليمن كما كانت قوافلها تخرج فى رحلتى الشتاء والصيف إلى الجنوب والشمال ، تنقل تجارة الشرق إلى الغرب وتجارة الغرب إلى الشرق . ولعل أهلها كانوا أشد حرصاً على شهود الأسواق والخروج إلى عرفة للتجارة منهم للحج . فالبيت الحرام فى بلدهم ، والطواف به ميسور لهم كلما أرادوا ، وأصنام الجاهلية التى كان الناس يحجون إليها كانت داخل البيت وفيما حوله ، ولم تكن بعرفة ولا بعكاظ ومجنّة وذى المجاز . فالتجارة إذاً هى التى كانت تستنفر أهل مكة للخروج إلى حيث يجدونها ليبادلوا قبائل العرب المختلفة ما شاءوا من العروض مقابل ما جاءوا به من الشام ومن اليمن . ولعل خروج أهل مكة زرافات إلى عرفة حين الحج حتى يومنا هذا إنما يرجع إلى ما اعتاده أسلافهم فى تلك الأيام الخوالى ، وإن يكن الدافع الذى يحفز أهل مكة لهذا الخروج اليوم لا يتصل بالتجارة كما كان يتصل فى ذلك العهد .

وقد تعود المؤرخون إذ يذكرون عكاظاً أن يقولوا إن الشعراء كانوا ينتهزون فرصة انعقادها فيعرضون حوليات من نُخَب قصائدهم على الناقدين فى احتفال عظيم تشهده الجماهير ؛ وبذلك يذيع ما يقره الناقدون وأولو الحكم من هذا الشعر فى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ويتغنى به العرب فى كل ناد ، وأن الخطباء كانوا يجعلون منها مثابة لعرض آرائهم وتعاليمهم . وصحيح أن الشعراء كانوا يُنشدون فى عكاظ ، وأن الخطباء كانوا يتحدثون إلى الناس فيها ؛ لكن ذلك لم يكن سببه أن هؤلاء وأولئك كانوا يتخذون من عكاظ حفلا أدبياً ومجتمعاً خاصاً بألوان البلاغة فى الشعر والخطابة ، بل كان يرجع إلى طبيعة الحياة فى بلاد العرب ، وإلى أن عكاظاً كانت تضم من قبائلها من لا يجتمعون طيلة العام إلا أيام الحج . وقد كانت عكاظ تجمعهم لتبادل التجارة ابتغاء المنافع . وهذا التبادل فى التجارة وهذا التنافس فى ابتغاء المنافع وما كان يقع أثناء ذلك وبسببه من خصومات تتصل بعض الأحيان أعواماً متتالية هو الذى كان يدعو الشعراء لينشدوا والخطباء ليقولوا . أما أن هؤلاء الشعراء كانوا يجيئون ليعرضوا شعرهم للنقد ، وأن هؤلاء الخطباء كانوا يتبارون بلاغة ليستعلى بعضهم على بعض

فى البيان ، وأن ذلك كان يقع فى الجاهلية أيام كانت لهجات العرب لا يزال بينها من التباين ما لم يُزِله استعلاء لغة قريش إلا بعد أن أنزل الله القرآن بها ، فتجاوزٌ فى التصور يدعو إليه ما جُبل الناس عليه من توهم الحياة فى كل العصور والأمكنة على صورة حياتهم فى البيئة المحيطة بهم . وقد ألف العالم العربى إبان ازدهار الإمبراطورية الإسلامية أن يرى الشعراء يتنافسون يبتغون الزلفى إلى ملك أو أمير ، وأن يرى النقاد يتناولون الشعر فى عهد قائليه أو بعد وفاتهم بالنقد والإبانة عن محاسنه ومساويه فى الفصاحة والبلاغة ، فذهبوا يصورون عكاظًا وما كان يجرى فيها هذه الصورة الذهنية التى ألِفوا ، والتى تختلف وما تثبته أنباء الحياة العربية فى العهد الجاهلى اختلافًا عظيمًا .

ولست أزعم أننى عثرت فى أثر قديم أو مخطوط غير معروف على صورة تصف ما كان يجرى بعكاظ على النحو الذى أريد أن أسطره هنا ؛ لكننى انتزعت نفسى جهد الطاقة من بيئتنا الحاضرة وحملتها على تصور البيئة العربية قبيل الإسلام وفى فجره كما تصفها لنا أنباء التاريخ ؛ وحاولت بذلك وفى حدود الطبيعة الإنسانية أن أرى ما كانت عليه عكاظ بالفعل وما كان يقع فيها . وأول ما وقفت عنده أن عكاظًا تختلف بموقعها عن مجنّة وذى المجاز ؛ فهى تقع فى الآفاق من مكة فى حين تقع مجنة وذو المجاز منها فى حدود مواقيت الإحرام . من ثم كان يباح بعكاظ ما لم يكن يباح بمجنة وذى المجاز من ألوان اللهو والمجون ومن ضروب التجارة والتبادل . هذا إلى أن ذا القعدة الذى كانت عكاظ تعقد فيه لم يكن له من الحرمة ما كان لذى الحجة شهر المناسك . وكانت قبائل العرب تجتمع فى عكاظ عشرين يومًا من كل سنة لتبادل التجارة ، وليس لها من الاجتماع غرض آخر . ولذلك يقول الأزرقى فى تاريخ مكة : « وإنما كان يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز التجار ومن كان يريد التجارة . ومن لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد . ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية » . وهذا صريح فى أن هذه الأسواق التجارية التى كانت تجمع قبائل العرب جميعًا فى مجيئهم لمناسكهم

الطريق بين مكة والطائف و بين مكة والمدينة

قد كانت أشبه بالمعارض العامة لتجارة شبه الجزيرة . والتطلع فى طبيعة الناس من أهل الأمم كلها والعصور جميعًا . وهم لذلك يقصدون هذه المعارض العامة ليروا فيها الجديد الذى لم يروه من قبل ، وليقتنوا منها خير ما يريدون اقتناءه بأثمان تنزل بها المنافسة الشديدة فى المعارض العامة إلى ما يفوق مثله فى غيرها . وحيثما اجتمع الناس وتنافسوا اختلفوا وتخاصموا . أما وبلاد العرب كانت إلى أن ألّف الإسلام بينها وجمعها فى سلطان واحد قبائل وحواضر تستقل كل واحدة منها عن الأخرى ، وتعتز كل واحدة منها باستقلالها وتدافع عن كرامتها وكرامة أبنائها ، فقد كان هذا مثار الجدل والفخر ومثار النزاع والحرب فى كثير من الأحيان . فإذا آن للحرب أن تضع أوزارها ، وللخصومات أن تهدأ ثائرتها ، قام الحكماء يعظون المتخاصمين ويصلحون بين المختلفين ، لا متباهين ببلاغتهم ولا مقيمين سوقًا لها ، بل عاملين لتهدئة الخواطر وإعادة السكينة والسلم حتى تتصل التجارة ويعم الرخاء شبه الجزيرة .

هذه صورة بسيطة لعكاظ وما كان يجرى فيها . وهى عندى الصورة الطبيعية لهذه السوق التجارية العربية الجامعة . فأما ما يضاف إليها من صور محافل الشعر ومباريات الشعراء وتنافس الخطباء فخيال لا يصف الواقع أبدعه الأدباء والكتاب بعد أن عفى الزمن على عكاظ . وهو خيال لا يتفق مع ما يروى عن عكاظ وما كان يجرى فيها من التجارة وما يتصل بالتجارة من لهو وعبث ، وما يجر ذلك إليه من خصومات وحروب متصلة . ذكروا أن شبابًا من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى عُرام ، فرأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جالسة بسوق عكاظ ، وقد ضمت عليها أطراف ثوبها وتبرقعت ، وقد اكتنفها شباب من العرب وهى تحدثهم ، فجاء الشباب من بنى كنانة وقريش فأطافوا بها وسألوها أن تَسفِر فأبت ؛ فقام أحدهم فجلس خلفها وحلّ طرف ردائها وشده بشوكة إلى ما فوق خصرها وهى لا تعلم . فلما قامت انكشفت ، فضحكوا وقالوا : منعتِنا النظر إلى وجهك وجُدتِ لنا بالنظر إلى ما وراءك . فنادت : يا لعامر ! فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالا شديداً

ووقعت بينهم دماء . فتوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم وأرضى بنى عامر من مُثلة صاحبتهم .

وكان لرجل من بنى جُشَم بن بكر دينٌ على آخر من بنى كنانة طال اقتضاؤه على غير جدوى . فلما أعياه وافاه الجشمى فى سوق عكاظ بقِرْد ثم جعل ينادى : « من يعطينى مثل هذا بمالى على فلان الكنانى » رافعًا بذلك صوته . فلما طال نداؤه وتعييره بنى كنانة مرّ به رجل منهم فضرب القرد بسيفه فقتله . فهتف الجشمى : يا لهوازن ! وهتف الكنانى : يا لكنانة ! فتجمع الحيان للقتال ، ثم كفّوا أن حمل ابن جُدعان ما له بين الفريقين .

وكان بدر بن معشر الغِفارى رجلا منيعًا مستطيلا بمنَعته على من ورد عكاظًا ؛ فاتخذ مجلسًا بها وقعد فيه باسطًا رجليه وجعل يقول : « أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضرب هذه بالسيف فهو أعز منى » . فوثب رجل من بنى نصْر بن معاوية يقال له الأحمر بن مازن فضربه بالسيف على ركبته ؛ وقام رجل من هوازن فضربه كذلك ؛ وفى هذه الضربة أشعار كثيرة روتها كتب الأدب .

هذه وأمثالها حوادث تقع فى كل سوق عامة تعقد للتجارة أيًّا كانت المناسبة التى تدعو إلى عقدها . والأسواق التى تعقد على مقربة من المناسك التى يقصد الناس إليها للعبادة أو التبرك بعض ما يجده الإنسان فى بلاد العالم كله ؛ يجده فى الموالد فى مصر وفى فرنسا وفى إنجلترا وفى غيرها . وهذا طبيعى ؛ فخير مكان تعقد فيه سوق التجارة إنما هو حيث يجتمع الناس فى عدد عظيم . وحيثما اجتمع الناس فى عدد عظيم وتبادلوا المنافع تجاذبتهم دوافع الهوى ، وفاخر بعضهم بعضًا واختصموا وتحاربوا . أما وهذه الأسواق تنعقد فى موعد معين من السنة فالخصومات تتصل فى كثير من الأحيان على السنين . والدعاية سلاح من أمضى أسلحة الخصومة . وأسباب الدعاية اليوم كثيرة ؛ منها الصحف والإذاعة الجوية وألوان الأدب المختلفة ؛ أما عند العرب فكان الشعر أقوى سلاح للدعاية ، وكان يقوم مقام أسباب الإذاعة جميعًا . وكانت

الذاكرة العربية بالغة من القوة حداً فاخر به العرب ؛ حتى لقد أعرض الكثيرون منهم عن الكتابة مخافة أن تجنى على هذه الملكة فيهم . وكانت هذه الذاكرة تعى الشعر الجيد وتترنم به وتُذيعه فى كل مكان . فإذا اختلف قوم فى عكاظ ، وكان مُثارُ هذا الخلاف حسناء اندفع الخيال العربى المتوثب الفسيح فسحة البادية يصور من ذلك مايشاء ، وقال الشعراء فيه وتغنوا بما قالوا ؛ فإذا كانت عكاظ ذاع فيها هذا الشعر وتناقله الناس كما يتناقلون اليوم فى الأسواق أنباء الصحف وما تطيره الإذاعة . فلم يكن شعراء العرب إذاً يعرضون شعرهم فى عكاظ ولا فى غيرها للنقد ولا للحكم . وهى إذا لم تكن سوقاً للشعر والخطابة والتنافس فيهما كما يصور بعضهم ؛ وإنما كان يجرى فيها من ذلك ما يجرى فى الأسواق كلها من تناقل الحوادث ، خاصة إذا اتصلت هذه الحوادث بالسوق وما وقع أو يقع فيها .

وإذا كان العرب الذين يفدون فى الجاهلية إلى عكاظ لحج البيت لا يدينون لصنم واحد ، بل تدين هذه القبيلة للاّت ، وتلك للعُزى ، وثالثة لمناة ، وأخرى لصنم آخر ، فقد كان خلافهم يجرُّ فى كثير من الأحايين إلى التنابز بالألقاب والتفاخر بالأصنام . فإذا هدأت الخصومة وآن للحكماء أن يحسموها حاول بعضهم أن يُقنع المتخاصمين بأنهم جميعاً على حق فى عبادة أصنامهم وأنها تنفعهم ليتخذوها إلى الله زلفى ، وحاول آخرون أن يهدّئوا من أمر هذا الخلاف على الأصنام ولو أدى ذلك إلى التهوين من أمر الأصنام ، دون طعن عليها ، ودون إثارة لحفائظ النفوس بهذا الطعن . وهذا عندى هو ما دعا إلى خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادى راهب نجران النصرانى حين خطب من حضر عكاظاً فقال : « أيها الناس اسمعوا وعُوا ! من عاش مات ، وما مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام ، وبِرّ وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب . مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ! أرضُوا بالمقام فأقاموا ، أو تركوا فناموا ! . وإله قس بن ساعدة ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ،

وأدرككم أوانه ، فطُوبى لمن أدركه فاتَّبعه ، وويل لمن خالفه » . فليس يحمل قُسًّا على أن يلقى هذا الخطاب فى سوق يتجر فيها الناس إلا خلاف شجر بينهم وبلغ التفاخر بأصنامهم . فلما هدءوا وآن لذوى الرأى أن يحسموه بالحكمة تحدث قُس هذا الحديث متأثراً فيه لا ريب بعقيدته المسيحية ، ولكن من غير حرص على الدعوة إليها دعوة قلّ أن تُؤتى فى مثل هذا الجمع ثمرتها .

كان أهل مكة يشهدون عكاظًا كما قدمت ؛ وكان أبناؤهم يخرجون معهم إليها كما يخرجون معهم اليوم إلى عرفات ومِنى ؛ وكان محمد يشهدها مع أهله ويشهد ما يجرى فيها ، وكان يشهدها بعد ذلك فى سنين كثيرة : شهدها العام الذى خطب فيه قُس هذه الخطبة ، وسمعه يلقيها وأعجب به غاية الإعجاب . فلما بعثه الله نبيًّا وأكمل للمسلمين دينهم وآن لوفود العرب أن تجىء إلى النبى تعلن إليه إسلامها ، قدم عليه وفد إيَاد يومًا ؛ فقال لهم : « ما فعل قُس بن ساعدة ؟ » قالوا : « مات يا رسول الله » قال : « كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أوْرَق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدنى أحفظه » . قال رجل من القوم : « أنا أحفظه يا رسول الله » وتلا عليه الخطبة . فقال رسول الله : « يرحم الله قسًّا إنى لأرجو أن يُبعث يوم القيامة أمةً وحده » .

ومن قبل ذلك حضر محمد عكاظًا وشهد فيه حرب الفِجَار . وذلك حين عرض البَرّاض بن قيس الكنانى نفسه على النعمان بن المنذر ليقود قافلة النعمان من الحيرة إلى الشام فى حماية قبيلته كنانة ، فآثر النعمان عليه عُروة الرحال الهوازنى ليتخطى إلى الحجاز عن طريق نجد ؛ فأحفظ ذلك البراض فتبع عروة وغاله وأخذ قافلته ؛ ثم لقى بشر بن أبى خازم وقال له : « هذا القلاص لك على أن تأتى حرب بن أمية وعبد الله بن جُدعان وهشامًا والوليد بن المغيرة فتخبرهم أن البرّاض قتل عروة ، فإنى أخاف أن يسبق الخبر إلى قيس فيكتموه حتى يقتلوا به رجلا من قومك عظيمًا » . وأجابه بشر : « وما يؤمنك أن تكون أنت ذلك القتيل ! » قال البرّاض : « إن هوازن لا ترضى أن تقتل بسيدها رجلا خليعًا طريداً من بنى ضمرة » . وكانت العرب إذا قدمت عكاظًا دفعت

أسلحتها إلى ابن جُدعان اتقاء للحرب حتّى يفرغوا من أسواقهم ومن حجهم ثم يردها عليهم إذا ظعنوا . فلما أبلغ بشر رسالته قال حرب بن أميه لابن جدعان « احتبس قِبلك سلاح هوازن » وأجاب عبد الله : « أبالغدر تأمرنى يا حرب ! والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضُربت به ، ولا رمح إلا طُعنت به ، ما أبقيت منها شيئًا . ولكن لكم مائة درع ومائة رمح ومائة سيف فى مالى تستعينون بها » . ثم نادى فى الناس : « من كان له قِبلى سلاح فليأت وليأخذه » وأخذ الناس أسلحتهم وسار حربٌ وهشام وأمية وابن جدعان راجعين إلى مكة اتقاء القتال مع هوازن . فلما بلغ أبا بـَراء قتل البراض عروة قال : خدعنى حربٌ وابن جدعان ؛ وركب فيمن حضر عكاظًا من هوازن فى أثر القوم فأدركوهم بنخْلة فاقتتلوا حتّى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل فكفّوا ؛ ونادى منادى هوازن : يا معشر قريش ! ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ .

وقدم البراض بالقافلة مكة . فلما استدار العام ذهبت قريش وأشياعها وهوازن وأشياعها إلى عكاظ فالتقوا بـَشمـَطة . وكان محمد مع قريش ، وقد استحر القتل فيهم . فلما رأى ذلك بنو الحارث بن كِنانة قاموا إلى قريش وتركوا مكانهم فانتصرت قريش . واستدار العام كرة أخرى فكان اليوم الثالث من أيام الفِجار بعكاظ وفيه التقى القوم على قرن الحول بالعبلاء واقتتلوا. أما اليوم الرابع فكان بعكاظ ، وفيه اقتتل القوم قتالا شديداً انهزمت قيس كلها على أثره . وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الفجار بعد رسالته فقال : « لقد حضرته مع عُمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحِب أنى لم أكن فعلت » .

ولقد قيل فى حروب الفجار هذه شعر كثير على أثر كل يوم من أيامها ، وكان يذاع فى الناس ويُنشد فى عكاظ ؛ ولا يبتغى قائلوه الاحتكام به إلى نُقّاد الشعر ، بل يقولونه تفاخراً ودعاية وتقوية للروح المعنوية فى قومهم . ولا تزال كتب الأدب القديمة وكتب السيرة تحفظ لنا من هذا الشعر الشىء الكثير .

ولم ينقطع النبى عن الذهاب إلى عكاظ بعد بعثه . ولعله لم يكن يذهب

إليها فى كل عام . لكن الثابت فى كتب السيرة جميعًا أنه ذهب إليها بعد أن ضاقت قريش به فحصرته وأصحابه فى الشِّعْب من جبال مكة . فلما نُقضت صحيفة المقاطعة والحصار وعاد المسلمون يتصلون بالناس ، فُجع محمد بعد أشهر من ذلك، فى عمه أبى طالب وفى زوجه خديجة ، فازدادت قريش له إيذاء ، حتى كان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه منها فرمى على رأسه ترابًا . هنالك خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف . فلما ردته بشرٍّ جواب ازدادت قريش له أذى . ولم يصرفه ذلك عن الدعوة إلى دين الله ، بل جعل يعرض نفسه فى المواسم ، وعكاظ أهمها ، على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق وينبئهم أنه نبى مُرسل ويسألهم أن يصدقوه . وكان عمه أبو لهب عبد العُزى ابن عبد المطلب يتبعه أينما ذهب ويحرّض الناس ألا يسمعوا له . فهو لم يكن يقف فى هذه السوق خطيبًا يدعو الجموع ببلاغته ليتبعوه ، بل كان يتصل بهذه القبيلة وبتلك ، يحدثهم ويحاول إقناعهم بالحجة والمنطق ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، رجاء أن يهديهم إلى الحق وأن يجنبهم الضلال .

موضع كان للرسول الكريم به هذه المواقف : حضر فيه حرب الفجار صبيًّا واشترك فيها ، وسمع فيه إلى قُس بن ساعدة قُبيْل بعثه ، وعرض نفسه فيه على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ، جدير بأن يكون مأثوراً وأن يظل سوقًا للحج على مر العصور . لكن ما قام بمكة وما حولها بعد وفاة النبى وصاحبيه أبى بكر وعمر من الثورات التى انتهت بأن أصبحت الخلافة مُلكًا عَضُوداً ، وبأن انتقلت العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة ، قد عفّى كثيراً من هذه الآثار وذهب بكثير من العادات التى أقرها الإسلام بعد الجاهلية .

وعكاظ من المواضع التى عفّتها الثورات فصار من المتعذر تحقيق موضعها . وكل ما ترويه الكتب عنها أنها كانت تعقد فى مكان بين نخلة والطائف . فأما موضع هذا المكان على التحقيق فيقع عليه اليوم خلاف عظيم وترد فيه روايات تزيد على الخمس ، كما قدمنا . أفلا يستطيع الإنسان ترجيح

واحدة من هذه الروايات على الأخرى ؟ أو لا يستطيع أن يصل من ترجيحه إلى القطع بصحة رواية ونفى ماسواها ، وبذلك يتسنى أن يقوم فى هذا المكان أثر لعل إقامته تعيد إلى عكاظ مكانتها الأولى ؟ !

دار ذلك بخاطرى حين مقامى بالطائف ، وفكرت فى القيام ببعض البحث أثناء عودى منها إلى مكة لعلى أهتدى إلى شىء تطمئن له النفس . لقد ذكروا أن عكاظاً تقع بين نخلة والطائف على يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة . يجب إذاً تقسيم الطريق أربعة أقسام ، وأن يكون ما بين مكة وعكاظ منه ثلاثة أمثال ما بين الطائف وعكاظ . إذا صح هذا فقد وجب أن نستبعد القول بأنها بوادى عقرب شرق الطائف بعد قليل من أم الحمض . فأم الحمض لا يزيد ما بينها وبين الطائف على خمسة عشر ميلاً . والطريق من الطائف إلى مكة طوله مائة وثلاثون ؛ فما بين الطائف وأم الحمض دون الثمن من الطريق . ومهما يبعد وادى عقرب عن أم الحمض ، ووادى عقرب هو الذى يقولون إن عكاظاً كانت تقام به ، فهو لا يبعد عنها خمسة أميال فنحن إذاً لا نزال دون السدس من الطريق . وهذا المكان ليس بعد ملتقى لطرق القوافل من أنحاء شبه الجزيرة بما يدعو الإنسان إلى التجاوز عن الدقة فى تقدير الأبعاد . فلتلتمس عكاظ إذاً فى مكان آخر بين نخلة والطائف .

ويجب أن نستبعد كذلك ما يقال من أن عكاظاً كانت تعقد على حدود وادى رُكبة عند اتصاله بوادى عُشَيرة . فالعشيرة لا تقع بين الطائف ومكة على الطريق الذى سلكنا أو على طريق غيره ، بل تقع شمال الطائف على مسافة تزيد على ستين ميلاً ، وتقع شمال السيل الكبير الواقع على طريق ما بين مكة والطائف بنصف هذه المسافة ؛ إذ يتوسط مفرق عشيرة الواقع فى جوار السيل الكبير ما بين الطائف وعشيرة .

لاحظت ذلك كله على إحدى الخرائط التى أهداها إلىّ المستر فلبى يوم رحيلى من مكة إلى البادية ؛ لكننى لاحظت كذلك أن عشيرة تقع على طريق نجد ، وتقع على أحد طرق القوافل إلى المدينة حين اتجاه هذه القوافل إلى

وادى العقيق بدل أن تتجه إلى ذى الحليفة أو إلى قُباء. إذ ذاك أزمعت الذهاب إليها لعلى أرى عندها ما يرجح قيام عكاظ بها . وزاد فى إغرائى بهذا الذهاب ما دوّنته كتب السيرة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب إلى العشيرة فى إحدى غزواته . أما وقد عزمت على السير فى أثر الرسول فلتكن العشيرة بعض ما اتجه إليه تنفيذاً لهذا العزم .

وذكرت هذا السبب الآخر لصاحبى ، فأبدى من الشك فى ذهاب النبى إلى العشيرة ما أثار عجبى . فأنا جدّ واثق من ذهابه إليها فى إحدى غزواته . ورجعت إلى كتب السيرة أحقق ، فألفيتُنى غير مخطئ ، وألفيت صاحبى غير مخطئ ؛ لكنه مع ذلك أدنى إلى الحق منى . فقد ذهب النبى إلى العشيرة من بطن ينْبُع فى السنة الثانية من الهجرة فى أكثر من مائتين من المسلمين ، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية (أكتوبر سنة ٦٣٣) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته ، وإن لم يفته أن وادع بنى مُدلج وحلفاءهم من بنى ضمْرة المقيمين على طريق التجارة بين مكة والشام . ليست هذه العشيرة إذاً هى القريبة من الطائف والمتصلة بوادى رُكبة والتى يقال إن عكاظاً كانت تعقد عندها ، وإنما هى من بطن ينبُع على مقربة من البحر الأحمر ؛ فشتان ما بينها وبين عشيرة وادى ركبة .

وشكرت لصاحبى ما أبدى من ريب كان له فضل رجوعى إلى كتب السيرة والأخبار . ولقد وقفت فيها على عشيرة أخرى ذكرها الأزرقى فى آخر تاريخ مكة حين كلامه عن (شق مسفلة مكة الشامى وما فيه مما يعرف اسمه من المواضع والجبال والشعاب مما أحاط به الحرم) ، فقد ذكر أن « العشيرة » حذاء أرض ابن أبى مليكة إذا جاوزت طرف الُحديبية على يسار الطريق . فهذه العشيرة الثالثة مما يدخل إذاً فى حرم مكة . ولعل هذا الحوار بينى وبين صاحبى ما كان يقع لو أن العامّية لم تجعل أهل الحجاز ينطقون العُشيْرة والعَشِيرة جميعاً على أنها العِشِيرة . وهذا التشابه فى الأسماء كثير فى شبه الجزيرة . وأنت واجد وادى العقيق ببادية الطائف ، وبهذه العُشيرة الواقعة على مقربة

منها ، وبالمدينة ، كما أنك واجد الاسم الواحد تشترك فيه أمكنة كثيرة غير العشيرة ووادى العقيق على نحو ما يشترك فى الاسم الواحد أشخاص كثيرون .

لم يصدنى ما عرفت أن العُشيرة القريبة من الطائف ليست العشيرة التى نزلها النبى من ينْبُع عن عزم الذهاب إليها لتحقيق ما يقال عن قيام عكاظ عندها . فلما كنا عشية العود من الطائف إلى مكة اجتمعت كلمتنا على أن نسير بكرة الصباح من الطائف إلى العشيرة ثم نرتد منها إلى السيل الكبير فالبُهَيْتاء فاليمانية فالزيمة فالشرائع فكة . والطريق إلى العشيرة هو بعينه الطريق إلى السيل الصغير ؛ لكنه ينفصل عنه قبل الوصول إلى هذا السيل وبعد المرور بالمُلَيْساء ووادى لُقَيْم وأم الحمض . لذلك أتيح لى حين اجتازت السيارة هذا الجزء من البادية صبح يوم الجمعة المتمم للعشرين من شهر مارس أن أرى هذا القدر من طريق الطائف ، وكان الليل قد حجبه عنى حين مجيئنا إليه . وأشهد أنى لم أفد برؤيته شيئاً جديداً .

ودّعت الطائف ومن فيها ، وانطلقت السيارة أثناءها يتبعها « البكس » فلم نر حولنا غير الوادى تقوم الجبال عن جانبيه عند مرمى النظر أكثر الأمر . والوادى خلاء أجرد قلّ أن تجد فيه للأشجار التى غرستها يد الإنسان أثراً . وطريق السيارة منخفض بعض الشيء متعرج لا يستقيم . فلما استوينا على طريق العشيرة استوى الوادى وانفسح واختفت الجبال كأنما ابتلعها الأفق . واخترقت أشعة الشمس الرقيقة هواء الصبح المنعش وانبسطت على البادية فكستها جميعاً ضوءاً ودفئاً . والسيارة منبعثة فى انطلاقها تطوى هذه المسافات المترامية من الأرض وليس يهدى سائقها الطريق أثناءها إلا حسه المُرْهف وعلمُه بأنه يجب أن يسير دائماً صوب الشمال فى دروب من أثر دروب السيارات التى سبقته فى هذا المهمه المترامى إلى ما وراء الخيال من آفاق النظر . واختلط الأمر على صاحبى لما رأى الدرب يتَشعب أمامه طريقين ، يتيامن أحدهما ويظل الآخر فى استقامة انطلاقه ، وأشار على السائق أن يتيامن . لكن الشيخ صالح القزاز أمره أن يتابع الدرب المستقيم ، واتبع السائق مشورة

الشيخ صالح لأنه أدرى بدروب هذه المنطقة ، ولأن السائق يذكر يوماً منذ سنوات سار فيه فى هذا الطريق إلى عُشَيْرة ولم يتيامن .

وانقضت ساعة وتنصفت الأخرى ولم يلقنا فى الطريق إنس ولا جان . وأغرانا صمت البادية بالحديث ، فسألت أصحابى : أتنهمر السيول فى فصول منتظمة حيث نسير ؟ وكان جوابهم أن السيول تنهمر أحياناً حتى لا ضابط لها ، لكنها غير منتظمة الفصول ؛ وقد تنقضى السنة ولا يبلغ ما ينهمر منها ربع الشبر ، وقد يبلغ هتّنُها فى بعض السنين ما تضيق به البادية ذرعاً . قلت : فما بالكم إذاً لا تحاولون حكم الطبيعة بالعلم فتقيمون من السدود ما تدخرون به الماء إلى حين حاجتكم إليه ؟ وتبسم القوم ابتسامة مريرة وقالوا : « يجب قبل أن نحكم الطبيعة أن نبلُغ من العلم حظاً يطوّع لنا حكمها ، وأن يكون لنا مع العلم حظٌّ من المال لإنفاقه فيما يقضى العلم أن نُنفقه فيه ، وأن يكون فى البلاد مع العلم والمال استقرار ويد عاملة . وليس لدينا اليوم إلى شىء من ذلك كله سبيل . وقد ألِف أهل هذه البلاد من حياة البادية ما لا يهون عليهم أن يستبدلوا به ما هو خير منه . ونجدٌ التى حكمت الحجاز ليست أحسن منه حالا فى العلم ولا فى المال ولا فى الرجال ولا فى الاستقرار . أما وهذا قضاء الله وقدره فى بلاد بها بيته الحرام وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فليس لنا إلا أن نُذْعن لأمر قضاه ولا مرد له من دونه . وحسبنا أن تهوى أفئدة من الناس إلى البلد الأمين حتى يقضى الله بأمره وهو أحكم الحاكمين » .

وبدت عن بعد صخور سوداء فى لون الجرانيت البركانى الفاحم ؛ تلك حِرار عشيرة فيما قال صاحبى . وإذاً فقد بلغنا غايتنا أو كدنا . ولوى السائق عنان السيارة إلى اليمين ثم انطلق بها ميمماً نُصُباً قائماً . وبدا فيما وراء النُّصُب فوهتان لبئرين هما بئرا عشيرة . أما الفوهتان فبنتهما حكومة ابن السعود بناء صالحاً . وأما النُّصُب فتذكار لهذا البناء نقش عليه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمارة هذه الآبار صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن فيصل آل سعود ملك المملكة السعودية العربية سنة ١٣٥٣ » .

وعلى مقربة من هذا النُّصب ومن البئرين وقفت السيارة وهبطنا منها نجوس خلال هذا المكان .

وقلت لصاحبى : « أما أن المكان صالح لقيام عكاظ به فأمر لا ريب فيه ؛ فهذه البادية الفسيحة تتسع لسوق عالمية تقام بها فى عصرنا الحاضر . ووجود هذه الآبار يدل على أن الماء هنا يكفى حاجة الذين يقيمون السوق عشرين يوماً أو يزيد . وهاهنا طريق لنجد وآخر للمدينة . لكن بُعْد المكان عن الطائف وعن طريقها إلى مكة يجعلنى فى ريب من أن عكاظاً كانت تقام به . ونحن هاهنا على مسيرة يومين من الطائف ؛ فقد كانت السيارة أثناء مسيرنا تقطع ستين ميلا فى الساعة وتزيد على ذلك أحياناً ، وقد قضينا نحو الساعتين . فإذا قدرنا أن المسافة من الطائف إلى العشيرة مائة ميل ، بل ثمانين ، بل ستين ، لم تستطع الإبل أن تقطعها فى يوم واحد . ثم إن ما بين هذا المكان وميقات الإحرام لا يجعل الفرار منه إلى الحرم فى سويعات ميسوراً ؛ وقد فرت قريش أول عام للفجار واحتمت بالحرم من هوازن . ولو أن عكاظاً كانت فى هذا المكان للحقت بها هوازن قبل أن تلوذ بالحرم . أما والروايات متفقة على أن الفجار وقعت بعكاظ وأن بين الطائف وعكاظ مسيرة يوم بالإبل، فالقول بأن عكاظ كانت تقام به مرجوح عندى ؛ وهو مرجوح أكثر من القول بأن عكاظاً كانت تقام بوادى عقرب على مقربة من أم الحمض .

ولم يُبْد صاحبى اعتراضاً على هذا الرأى وإن لم يَمِلْ إلى ترجيح أم الحمض على عُشيرة . فإذا كانت أم الحمض فى طريق الطائف إلى مكة ، وكان ما بينها وبين الطائف أدنى بمسيرة الإبل يوماً مما بين الطائف وعشيرة ، فإن وقوع عشيرة على طريق القوافل من المدينة ونجد إلى مكة والطائف يجعلها أدنى إلى الترجيح . هذا إلى أن تقدير الأبعاد بمسيرة الإبل ليس مما يعتمد عليه أو يصلح حجة قاطعة فى رأيه .

وإنا لنُجيل الطرف فى هذه الحرار المحيطة بعُشيرة حيناً ونعود إلى حوارنا آخر ، إذ مرت بنا قافلة من الأعراب يركبون الحُمر يقصدون نجداً

فيما ذكروا ؛ ولقد ترجلت امرأة منهم حتى رأتنا وأقبلت تسألنى عن آلة التصوير واستوقفت قافلتها كيما أصورهم . ولما رأتنى أدخن طلبت إلى سيجارة ؛ فأنكرت عليها أن تكون امرأة وتدخن ، وأن يدخن من يكون فى حكم النجديين ؛ فابتسمت فى خبث وقالت : إنها تريد أن تمضغ التبغ لتخفف بمضغه ألمًا بأسنانها . وسألتها : كم بينها وبين نجد ؟ فأجابت إن الأمر فى ذلك للمسير والمرعى . وعادت شعثاء غبراء فركبت حمارها وتقدمت القافلة ، وسايرها كلب ظل ينبحنا حتى بَعُد القوم عنا .

وبينا نأخذ أهبتنا لتعود بنا السيارة إلى مفرق عشيرة فالسيل الكبير لنسأل أهلها : أحقًا أن لعكاظ مكانًا معروفًا عنده ، إذا سائق السيارة يذكر أنه سمع فى إحدى جولاته قومًا من أهل اليمن يقولون إن عكاظا تقع فى جنوب الطائف ، وسألنا : أليس فى برنامجنا أن ننحدر اليوم فنسأل عن موضعها هناك ؟ وهل يعرفها أحد ؟ وسخرت وسخر أصحابى من قوله وحسبناه يهذى ، وأمره الشيخ صالح فى لهجة حازمة أن يجعل السيل الكبير وجهته . وكيف يكون قد سمع شيئًا من هذا الذى يقول والروايات مجمعة أن عكاظا تقع بنخلة بين مكة والطائف . والطائف تقع إلى الجنوب الشرقى من مكة ، فحتم أن يكون ما بين مكة والطائف كله إلى ناحية الشمال من الطائف . على أن السائق أصر على أنه سمع ما روى لنا ، وإن اتجه فى طريق السيل . وما كان أشد عجبى حين رجعت بعد ذلك إلى الكتب القديمة فألفيت روايته واردة فى بعضها ، وأيقنت لذلك أن أهل اليمن لم يكذبوه حين قصوا عليه هذه الرواية . فقد ذكر ابن رستة صاحب كتاب « الأعلاق النفيسة » ، وهو من كتاب القرن الرابع ، وصفًا للطرق التى تصل بين مكة والطائف فقال فى تصوير أحدها : « تأخذ على بئر ابن المرتفع ثم إلى قَرْن المنازل وهو ميقات أهل اليمن للإحرام — وقرن المنازل فى عصرنا الحاضر ميقات أهل نجد — ومنها تعدل إلى الطائف . والطائف مخلاف من مخاليف مكة وعمل مكة مما يلى نجد نجران ، وقرن والفتيق وعكاظ والطائف . . . إلخ » . وروى الأزرقى قال : « قال

أبو الوليد : وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء فى عمل الطائف على بريد منها ، وهى سوق لقيس بن عَيْلان وثقيف وأرضها لنصر » . وللإدريسى خريطة وضعها لبلاد العرب قد يتعذر اليوم علينا أن نحل رموزها وأن نعرف على التحقيق مواضع الأماكن المبينة فيها ؛ على أن العالم المستشرق الألمانى مولِر قد عُنى بدراستها ورسمها على النحو الذى ترسم به اليوم خرائطنا وحرر عليها أسماء البلاد التى حررها الإدريسى على خريطته . وعكاظ تقع على هذه الخريطة إلى الجنوب من الطائف مع ميل قليل إلى ناحية الشرق . ووضعها هذا يصور ما أورده ابن رستة فى أعلاقه النفيسة . وهذا تصوير لا يتفق مع ما قيل من وقوع عكاظ بين مكة والطائف ، ويبعد كل البعد عن الروايات التى صورت مكانها بينهما سواء كانت بوادى عقرب أو بعشيرة أو بالسيل الصغير أو بالسيل الكبير .

أما المستر فلبى فيرجّح السيل الصغير موضعاً لعكاظ . وهو قد وضعها على خريطته فى مكان هذا السيل إلى جانب موضع أسماه أُثَيْرية . ولقد سألت أصحابى عن هذا الاسم فلم يذكروه ، وإنما ذكروا المتواتر على ألسن الناس من أن عكاظاً كانت تقوم بالسيل الصغير فى مكان يعرف الآن باسم القهاوى ، وهو فى هذا الموضع الذى حدده المستر فلبى . والمستر فلبى إنما حدد هذا المكان لتواتر الرواية عنه ، لا لأنه حقق مواضع عكاظ وحاول الترجيح بينها . وهو يعنى فى وضع الخرائط بالواقع اليوم ولا يعنى بروايات التاريخ ولا بما فيها من خلاف . وهذا السيل الصغير صالح لقيام عكاظ به لكثرة مياهه ولانفساح البادية عنده . وهو يقع على مسيرة يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة بسير الإبل ، فلا جَرَم أن رجحت الرواية المتواترة عنه غيرها من الروايات عن وادى عقرب وعشيرة وطريق اليمن . لكن رواية أخيرة تكاد ترجح عندى هذا التواتر ، أو هى على الأقل تدعو الإخصائيين إلى مزيد من العناية والبحث لعلهم يهتدون إلى الحق فى أمر هذه السوق التى كانت تعقد فى الجاهلية والتى ظلت تعقد أجيالا بعد الإسلام ، والتى لا تزال علماً على حياة ونشاط فى

التجارة والأدب يجعلان أهل العربية يتناقلون جميعًا أنباءها .

وهذه الرواية الأخيرة هى التى تذهب إلى أن عكاظاً كانت بالسيل الكبير أو على مقربة منه . ولم أقم لهذه الرواية كبير وزن حين سمعتها بعد الذى رأيته من تعدد الروايات السابقة وتهافت بعضها ؛ غير أن الشيخ صالح القزاز كان يبدى من الميل لتصديقها ما جعلنى أتطلع لتحقيق أمرها. وزاد فى تطلعى ما قصه علينا والسيارة تنطلق متجهة إلى ناحية السيل من أنباء ترامت إليه عن وجود آثار باقية يذكر الذين رووها بأنها أبلغ دلالة على عكاظ من كل رواية أو نبأ . وبلغنا مَفْرِق عُشيرة عند ديار القُمْشَة على مقربة من السيل الصغير ، وانحدرنا من ريع ذات عِرق ، فاحتوتنا الجبال فى ذلك المضيق الذى أعاد إلى ذاكرتى جبال أبواب الحديد على نهر الدانوب . وفى المضيق لقِينا قطيع من الإبل قيل إنه للأمير سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية ، وإنه يقصد نجد . وما كان أشد عجبنا أن تروع سيارتنا قطيع ولى العهد حتى ليُلْقِى بعير منها براكبه أرضًا ؛ وطالما مررنا بقوافل يملكها رجال البدو فلم ترعها السيارة ولم تزعجها عن اتئاد مسيرها . قال صاحبى : « لعل هذه الإبل الناعمة بمراعى نجد والحجاز لم تعوّد من يمرّ بها مقتحمًا طريقها ، فهى تفزع لمرأى من تحسبه يغير عليها ، مثلها فى ذلك مثل المترفين الذين لم يروا فى الحياة عنتًا فهم يضطربون لأيسر ما يفاجئهم منه » ؛ وانفرجت الجبال عن السيل الكبير فتخطت السيارة إليه ووقفت فى موقفها يوم مجيئنا من مكة إلى الطائف .

وتناولنا الشاى و « البسكوت » ثم تناولنا شربة من ماء وجلسنا نتحدث فى حين أخذ السيد صالح القزاز يسأل عن موقع عكاظ القريب من هذا السيل . وبعد لأى دله القوم على عربى من بنى سعد اسمه بادى ويقيم بالسيل . ووعدناه رزقًا حسنًا ؛ فانطلق معنا يدل السائق على الطريق الذى يسير فيه . واستدرنا بالسيارة فيما وراء الجبل ثم اعتدلنا نقطع بطنًا من الأرض كله حسك العُشَر وما إليه من شجر البادية حتى خاف حسن أن يصيب السيارة من الحسك أذى . ووقفنا بإشارة بادى فى موضع يقال له « الخُرّ » من واد يقال له

« غَسَلَة » وراء جبل يسمى « دمًا » . وهبطنا من السيارة وسرنا خطوات وراء بادى، ثم وقفنا عند آثار بناء فى تخوم الأرض مستوية مع سطحها يدل وجودها على وجود عمارة قديمة فى المكان تتألف من ثمانى غرف حسنة البناء ليست فى شىء من منازل البدو . قال صاحبى بعد أن زرنا هذه الآثار : أشهد أنى أميل إلى ترجيح قيام عكاظ بهذا المكان ، وأحسب هذه الغرف الفسيحة كانت مقام سادة السوق . قلت : لعلك تبالغ إذ رجحتَ ، وإن كنت أوثر أن تقوم هيئة علمية بحفريات تحقق بها تاريخ هذه الآثار والغرض الذى أنشئت له .

عدنا نقصد إلى مكة وأنا أفكر فى هذه الآثار ؛ فهى أول ما شهدت من نوعها فى هذه البلاد . بنيت من الآجُرّ ومن حجر أحمر جىء به من هذه الجبال المجاورة بناء يشهد ما بقى منه بإتقانه وحسن نظامه . ترى فى أى عصر كان تشييده ؟ وأى بطن من بطون العرب أقامه هاهنا حيث لا يمر اليوم أحد ؟ إنه يرجِّح عندى قيام عكاظ بهذا المكان وإن لم يقم سنداً علميًّا على هذا الترجيح ، أم لعله رسم درس لمدينة قديمة عفت الأنباء على ذكرها وظلمها التاريخ بنسيانها !

بلغنا حرم مكة وهذه الأنباء عن عكاظ وتاريخها وموقعها تداعب خيالى . فلما تخطينا الشرائع وبلغنا مفرق الطريق إلى الجِعْرانة ذكرنا مَجَنَّةَ وذا المجاز . ولم أنس حين ذكرتهما قول الكلبى : « كانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة فى الإسلام حينًا من الدهر . فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحَرُورية بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف الأزدىّ الأباضى فى سنة تسع وعشرين ومائة، خاف الناس أن يُنْهَبُوا وخافوا الفتنة فتُركت حتى الآن ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة » أين كانت تقع إذاً مجنة ؟ وأين كان يقع ذو المجاز ؟ نقل الأزرقى قول الكلبى : « ومجنة سوق بأسفل مكة على بريد منها ، وهى سوق لكنانة وأرضها من أرض كنَانة ، وهى التى يقول فيها بلال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلةً   بفَخٍّ وحولى إذْخِرٌ وجَليلُ

وهل أرِدَنْ يومًا مياه مَجَنَّة وهل يَبْدُوَنْ لى شامة وطَفيلُ

وشامة وطفيل جبلان مشرفان على مجنّة . وذو المجاز سوق لهُذَيل عن يمين الموقف من عرفة قريبة من كَبْكَب على فرسخ من عرفة » .

سألت أصحابى عن مواقع هذين السوقين فيما نعرفه مما حول مكة ، فلم يجدوا فى تحديد موقع ذى المجاز مشقة؛ فهو على يمين الموقف من عرفة ، وهو إذاً فى موضع سوق عرفة اليوم أو يكاد: أما مجنّة فاختلف القوم فى تحديدها : قال أحدهم إنها تقع عند الجِعْرانة ؛ وقال الآخر إنها تقع فيما وراء التنعيم حيث الشهداء والزاهر اليوم .

ولم يَثُرْ بى التطلع إلى تحقيق موضع مجنة ما ثار بى إلى تحقيق موضع عكاظ . فقد خشيت أن أعود من بحثى بمثل ما عدت به عن عكاظ من ترجيح رأى على رأى دون القطع بأىّ منها . ثم إن مجنة لم تكن يومًا ذات أثر فى الأدب العربى ولا فى التاريخ العربى كما كانت عكاظ ؛ فهى لم تزد على أنها سوق فى جوار مكة يجيء إليها الحجاج بعد انصرافهم من عكاظ فى العشرين من ذى القعدة ويجيئون إليها مُحرمين قد نسوا خصوماتهم ومفاخراتهم وتوجهوا بقلوبهم إلى ربهم . وهذا موقف تُنكر النفس فيه التنافس والحسد ، وترغب فيه عن الأذى والخصومة . وقد ألف الناس ألا يعرف تاريخهم إلا آثار الحسد والتنافس وما يجران إليه من حروب ومنازعات وما ينشأ عنهما من تطور إلى الكمال . فكأنما كُتِب على هذه الإنسانية ألا تبلغ الكمال المنشود وألا تبلغ الخير المحبب إلى النفس الفاضلة إلا من طريق الشر والأذى . ولو عرف الناس التضامن وأقاموه مقام التنافس وبنوا صِلاتهم على الإخاء الحق ، لكان خيراً لهم وأدنى إلى ما توجبه كرامة بنى جنسهم .

أقمت بمكة بعد العود من الطائف أعد العُدة للرحيل إلى المدينة أزور بها قبر الرسول الكريم وأقف فيها على آثاره الخالدة . لم يبق لى إذاً غير يومين اثنين أقضيهما فى البلد الحرام ؛ والله وحده يعلم أقدر لى أن أعود إليه ! فلأنهلْ

إذاً من ورد ذلك الجو الروحى المصفَّى ما استطعت النهلَ . ولأتزود منه ؛ وخير الناد التقوى .

فى مساء اليوم الأول لقيت الملك ابن السعود ، فاستأذنته فى مغادرة مكة وشكرت له معونته ومعونة حكومته إياى فى بحوثى . وصعِدت إلى غار ثور فى اليوم الثانى . فلما كان اليوم الثالث وكنت على أهبة السفر ذهبت إلى المسجد الحرام أطوف بالكعبة طواف الوداع ، وألقى على البيت العتيق نظرة رجاء أن أعود إليه يوماً ، لعله يكون قريباً ، لأنهل من نبعه الروحى كرة أخرى ، ولأجد فى القربى منه تجرداً من الدنيا وتقرباً إلى الله .

حقق الله هذا الرجاء ، إنه على كل شىء قدير .

الكتاب الرابع

بين الحرمين

طواف الوداع

أمّا واليوم موعد الرحيل عن مكة فهلمّ إلى طواف الوداع . وخرجنا مع المطوف فطفنا ودعونا الله أن يغفر لنا وأن يجعل لنا من العود إلى البلد الأمين والطوّف ببيته المحرم قِسْماً ونصيباً . وملت إلى حِجْر إسماعيل بعد تمام الطواف فصليت فيه ، ثم صليت فى مقام إبراهيم . وبعد أن أقمت زمناً أدعو وأستغفر انتحيت ناحية الفيء ، وأقمت أفكر فى هذا الرحيل من مكة وأستذكر أيامى السعيدة بها . وأية سعادة كهذا النعيم الروحى الماثل فى كل رحابها ، يتضوع بأريجه هواؤها ، وتتحدث عنه أنباء الماضى فى تاريخها ، وينشر البيت العتيق شذاه فى كل أرجائها !

وصرف التفكير فى هذه السعادة الروحية عنى إحساساً طالما دبّ إلى نفسى كلما ودعت بلداً احتوانى وأنا فى شك من العودة إليه ؛ فقد كنت أشعر فى مثل هذه المواقف بأن ما أفارقه ينهار بالنسبة لى فى لجّة ما لا نرى ولا نحس إلا خيالا وحدساً ، كما أشعر بأن ما مضى من حياتى إلى ساعة هذا الوداع ينهار فى لجة الزمن الذى لا يذر العالم لحظة من غير مَوْر ولا تجدد . أما اليوم فكان إحساسى وتفكيرى ، وأنا بمجلسى من المسجد الحرام ، بعيدين كل البعد عن معانى الانهيار وعن تصور الزمن لُجة تبتلع الحياة والأحياء . لقد انبسط الزمن أمام بصيرتى وحدة جمعت الماضى والمستقبل ، وانكشفت أمام الروح فى بساطة دونها بساطة المكان ووحدته ، تدركها بل تراها إذا جلست فى غرفة ضيقة للإذاعة اللاسلكية ، تسمع فيها وتشهد منها عن طريق « التليفزيون » كل ما شئت أن تسمعه أو تشهده فى أنحاء العالم المختلفة . ليس للزمن ولا للمكان إذاً لجة ؛ بل روحنا هى هذه اللجّة التى تسع الزمان كله والمكان كله ، ما عرفنا أن نسمو بها فوق مادة الحياة الدنيا المحدودة بالزمان والمكان . وأين يتيسر للإنسان هذا السمو ما يتيسر له أمام البيت العتيق وفى

هذا المسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنـًا ! .

فى الحق أن ليس فى العالم كله موقف يطوِّع للروح أن تسمو فوق حجب الزمان والمكان ما يطوعه لها هذا الموقف الذى أنا فيه . وليس ذلك لسر فى الحجارة التى بنى البيت العتيق منها ؛ فالحجارة مادة ، والمادة تنهار وتتجدد . ولقد جدد بناء هذا البيت غير مرة . إنما يطوع للروح هذا السمو فكرة التوحيد التى قام البيت رمزاً لها منذ رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل . وفكرة التوحيد هى الحقيقة السامية ، الحقيقة الأولى ، الحقيقة التى تتفرع عنها كل الحقائق ، والتى يهتدى بها العلم والفن ، وتهتدى بها الحياة كلها إلى وجه الله الأكرم ، يسبِّح له جل شأنه من فى السموات والأرض ، لا إله إلا هو الكبير المتعال . نعم ! فكرة التوحيد هى المركز الذى تنجذب إليه العوالم وسننها والكون وأطواره ، والذى تتجه إليه ذرّات هذا الوجود كلها مسبحة مقدسة . والفكرة روح وليست مادة ، ومعنى وليست جسداً ؛ وهى لذلك سامية فى خلودها فوق المادة المصوَّرة والصورة المجسَّدة ؛ ولذلك يبقى رمزُها بيت الله العتيق لا تعدو عليه عادية ، ولا يصرف الإنسان عنه صارف ، وكيف تنصرف الإنسانية عنه وهو يمثل خير ما فيها وأسمى معانيها !

ولقد حاول غير واحد من أولى البأس والسلطان فى عصور مختلفة أن يصرفوا الناس عن هذا البيت فذهبت كل محاولاتهم هباء ، ذلك بأن فكرة التوحيد تستقر فى أعمق الروح الإنسانية وإن اختلفت مظاهر العقائد التى تدين بها جماعاتها . وهذه المحاولات إنما دفع إليها التنافس التماسًا للغلب المادى فى الحياة الدنيا . والتوحيد لا يعرف التنافس ولا يرقى إليه الغلب ، لأنه يسمو بطبعه فوق كل غلب . والتنافس على المادة من مظاهر هذه الحياة الدنيا وأعراضها الزائلة التى لا تتعلق الروح ولا الفكرة بها . بذلك بقى البيت العتيق رمز التوحيد ، لم تعدُ على الحقيقة العليا التى يصوِّرها أوهام الحياة ، ولم تخفها الأكداس التى رانت عليها زمنـًا حين كانت الوثنية الجاهلية صاحبة الغلب ؛ لأنها تسمو على الزمن ولا تأبه لما يجىء وينقضى مما لا بقاء له ، ولأنها أزلية

خالدة ، فرمزها باق لذلك بقاء الخلود .

كان تُبَّع بن حسان ملك ملوك حمير عائداً من حرب شن غارتها على الأوس والخزرج بيثرب . فلما كان على مقربة من مكة حدثته نفسه بهدم الكعبة ؛ وكان يهودياً ، فمنعه من كان معه من أحبار اليهود أن يهدم بنت التوحيد ؛ فكساه وعاد إلى بلاده .

وبنتْ غطفان فى القرن الأول قبل الهجرة حرماً كحرم مكة وحاولت أن تصرف العرب إليه ؛ وبلغ ذلك ملكاً على العرب اسمه زُهَيْر بن حباب فقال : « لا والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حيٌّ » . واتبعه قومه حين قال لهم : « إن أعظم مأثُرة ندخرها عند العرب أن نمنع غطفان من غرضها » ؛ وقاتل غطفان وظفر بهم وأبطل حرمهم .

فلما استقل أبْرهةُ الأشرم قائد نجاشى الحبشة بأمر اليمن ، سولت له نفسه أن يقيم بصنعاء بيتاً للنصرانية يصرف به العرب عن بيت مكة ؛ وبنى القُلَّيْس بها وزخرفه وجلب إليه فاخر الأثاث ، وظن أنه صارف أهل مكة أنفسهم عن بيتها . فلما رأى العرب جميعاً لا يتجهون إلا إلى البيت العتيق ورأى أهل اليمن يذرون القليس ولا يعتبرون حجهم مقبولا إلا بمكة ، تهيأ للحرب فى جيش من الحبشة تقدمه على فيل عظيم وسار يريد هدم الكعبة . وبلغ مكة وأنذر أهلها أن يُخلوا بينه وبين البيت ليهدمه . وأخلى أهل مكة مدينتهم ، وأصبح أبرهة يريد أن ينفذ عزمه ، فإذا جيشه قد تفشاه مرض الجدرىّ وبدأ يفتك به فتكاً ذريعاً ؛ وأصيب أبرهة بما أصيب به قومه ، فعاد أدراجه إلى اليمن فزعاً ؛ وبلغ صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ولم يقم إلا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه ؛ وصدقت كلمة عبد المطلب جد النبى : « إن للبيت ربًّا يحميه » .

ولقد فشت الدعوة القَرْمَطيِّة بالعراق على عهد العباسيين ، وجعل أصحابها يرمون بالكفر من لم يكن على مذهبهم فى موالاة محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب . وكان أبو طاهر القرمطى أول من ظهر من هؤلاء الدعاة فى أيام المقتدر

العباسى . ولقد بنى أبو طاهر داراً فى هجر ، من مدائن البحرين ، سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج إليها . وكان يقصد الطرق المؤدية إلى مكة ويفتك بحجاج البيت الحرام . بل سارت عساكر القرامطة فى جيش لجب إلى مكة أيام الحج ودخل أبو طاهر الحرم ووضع السيف على بغتة من الناس فى الطائفين والعاكفين والرّكع السجود ، وقتل نحو ثلاثين ألفًا بمكة وشعابها ، واقتلع باب الكعبة وجرّده مما كان عليه من صفائح الذهب . بذلك دبّ الرعب فى القلوب ، وصار الناس لا يجدون إلى الحج سبيلا آمنًا فانقطعوا عنه ؛ لكنهم لم ينصرفوا إلى دار هجر . فلما مات أبو طاهر ورأى قومه العبث فى محاولته تحويل الحج عن الكعبة أعادوا الحجر الأسود إلى مكة ، وكان أبو طاهر قد نزعه من الكعبة وأخذه معه ؛ وعاد الحج إلى بيت الله كما كان .

ولما اهتم عبد الملك بن مروان بعمارة قبة الصخرة فى جوار المسجد الأقصى وبالغ فى زخرفتها ظن بعضهم أنه يفعل ذلك ليصرف أهل مصر والشام إلى حج القبة والمسجد الأقصى ، وذلك إذا تمت الغلبة لابن الزبير فرد الملك إلى الحجاز وإلى أهل بيت النبى . أما وقد تمت الغلبة لبنى أمية وبقى الناس يحجون البيت العتيق ويولون وجوههم شطره فالمسلمون فى ريب مما نسب إلى عبد الملك ابن مروان من هذه المقاصد . وهم كذلك فى ريب مما ظنه بعضهم من أن المنصور العباسى بنى القبة الخضراء إلى جوار قصر الذهب الذى شاده ببغداد وأنه بالغ فى زخرفتها ليولى الناس وجوههم شطرها ؛ إذ لم يرد فى التاريخ من أعماله ما يؤيد هذا الظن .

وإنما باء أبرهة ومن سبقه ومن لحقه بالإخفاق فى مآربهم من صرف الناس عن بيت الله لأنهم كانوا يرمون من ورائه إلى غاية سياسية ، والغايات السياسية موقوتة مصيرها إلى الزوال ، وهى لذلك لا تستند إلى أساس ثابت فى قرارة النفس الإنسانية ، ولا تمثل المعنى الروحى ولا الحقيقة العليا التى يتعلق بها الفؤاد ويتوق إليها القلب ، يستوى فى ذلك قلب الساذج وقلب العليم ونفس الغوىّ ونفس الطهور . أما فكرة التوحيد التى يقوم هذا البيت العتيق رمزاً لها فهى

الفكرة الخالدة المبرأة من الهوى والتى تمثل الحقيقة فى أسمى صورها ؛ ولذلك تتحطم على جوانبها كل محاولة ترمى إلى إفسادها ثم يبقى رمزها خالداً تتعلق به القلوب وتتوجه إليه الأبصار من أقطار الأرض جميعاً .

دار ذلك بخاطرى وأنا بمجلسى من فىء المسجد أرنو بعينين سعيدتين إلى هذه البنية التى رنا إليها خاتم الأنبياء والمرسلين ، والتى رفع أبو الأنبياء خليل الله قواعدها . وانقطعت عن التفكير هنيهة كأنما كنت أهضمه أثناءها وأسيغه وأستمتع بجماله وسحره . وإنى لكذلك إذ أشرق أمام بصيرتى نور خلته منبعثاً من هذه الكعبة المشرقة القائمة أمامى وخلتنى أقرأ خلال هذا النور وأحدث نفسى بما يلى :

« الآن أدركت لماذا حرّم الله مكة وجعلها مدينة السلام لا يحل فيها القتل والغزو والأسر ، ولا يحل فيها سفك الدم ولا التعرض لصيدها أو نباتها أو حيوانها ، وأدركت لماذا قال عليه الصلاة والسلام وهو يخطب الناس يوم الفتح : " إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد فيها شجراً " ؛ ذلك بأنها رمز التوحيد وبيتها هيكله . والتوحيد سلام لذاته ؛ ولا سلام إلا أن يُجمع الناس على الإيمان به . فأما التعدد فتنافس ولو فى الخير . والتنافس نضال ، والنضال حرب . فإذا جاز لبلد فى العالم إذاً أن يكون مدينة السلام فذلك مدينة التوحيد . بالتوحيد تتوجه الإنسانية كلها إلى وجه واحد هو وجه الله جل شأنه . فإذا صدقت فى توجهها إليه تحاب بنوها وسموا بالحب فوق المنافسات وما تجر إليه المنافسات من حقد وبغضاء وتحاسد ، وبرءوا مما تدفع هذه العواطف الدنيا إليه من تنابز بالألقاب وتكاثر بالأموال وتسابق إلى الجاه والسلطان . وكيف يهوى إلى هذا الدرك من يبغى وجه الله وحده ، ومن يجعل تقوى الواحد الأحد رداءه فى أعماله وأقواله ودخائل نفسه ! وكيف يهوى إلى هذا الدرك من يكمل إيمانه فيحب لأخيه ما يحب لنفسه ! وكيف لا تسمو الإنسانية إلى مقام الحب والسلام إذا آمنت

بالتوحيد وجعلته سنتها وجعلت بيت الله رمز التوحيد قبلتها ! ألا ما أبلغ هذه العبارة التى يرددها الإنسان من أعماق قلبه أول ما يدخل الحرم ويستقبل الكعبة لطواف القدوم : " ربنا منك السلام وإليك السلام فحيِّنا ربنا السلام " ما أبلغ هذه العبارة وما أعمق معناها وما أعظمها سمواً لقوم يعقلون ! . اللهم هُداك خلْقك وزدنى تثبيتاً إيماناً » .

وانطلقت أفكر بعد أن أتممت هذا الحديث النفسى : لقد أفضيت أول ما نزلت بالبلد الحرام إلى وزير المالية وإلى الملك ابن السعود برأيى أن تكون مكة مقرّاً لعصبة الأمم الإسلامية . وهذا واجب تقضى به حياة المسلمين فى عالم اليوم . ولكن ! ترى لو أن الإنسانية كلها التمست يوماً مقرّاً لعصبة السلام ، أفتجد خيراً من مكة بلداً ليكون هذا المقر ؟ لقد اختارت عصبة الأمم الأوربية جنيف من أعمال سويسرا مقرّاً لها ، لأن سويسرا محايدة . ولقد طمعت عصبة الأمم الأوربية فى أن تقر السلام فيما بينها عن طريق التفاهم فى جنيف وإن لم تفز بإقرار السلام فى ربوع العالم مما وراء أوربا ، إلا أن يهدد اضطراب السلام مصالح هذه الأمم الأوربية . ولقد بذلت الدول المشتركة فى العصبة جهوداً كبيرة فى سبيل السلام ، فقررت وسائله فى عهد العصبة وفى ميثاق التحكيم وفى محكمة العدل الدولية ، وحاولت أن تجعل من التفاهم المشترك بينها جميعاً حيناً ، ومن التفاهم الثنائى حيناً آخر ، سبباً للاحتفاظ بالسلام . مع ذلك ذهبت جهودها هدراً ، وباءت من مقاصدها السلمية ، بالخيبة ، وارتدت إلى سياسة التسلح والسلام المسلح ، وإلى النظرية القائلة بأن الاستعداد للحرب يمنع الحرب . ارتدت إلى هذه السياسة طوعاً أو كرهاً وهى تعلم أنها سياسة كاذبة خاطئة . فلماذا ؟ لأن فكرة السلام ليست قائمة فى أنفس بنيها وساستها على أساس من الإيمان بالسلام ، وليست تصل السلام بمبدأ أسمى يكون من أمر الله وسنته فى الكون ، ويجعل السلام غرض الإنسانية فى توجهها إلى الكمال . إنما تحركت النفوس فى أوربا إلى السلام رهباً من أهوال الحرب ، وفزعاً مما تجنى الحرب على المصالح المادية ، اقتصادية ومالية . وأهوال

الحرب تنسيها مُتع السلم . وكما تجنى الحرب على المنافع المادية فالحرب تحقق هذه المنافع وتشحذ النفوس إلى طلب المزيد منها . طبيعىٌّ إذاً أن تخفق سياسة السلام إذا قامت على هذا الأساس . وإنما تنجح هذه السياسة وتستقر يوم تجمع الإنسانية على التوحيد ويكمل إيمانها به ، ثم يكون الأساس لكمال هذا الإيمان أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يذكر الناس جميعاً أن سعادتهم فى إيمانهم الحق بالله ، وأن يكون ذكرهم هذه الحقيقة عن علم ويقين ، لا عن ترويج ودعاية غايتهما تحكم طائفة فى طائفة أو استعلاء قوم على آخرين .

يوم تُجمع الإنسانية على هذا مؤمنة بأنه من أمر الله ، ويوم تؤوب به إلى الله من خطاياها ، يومئذ تتم كلمة الله ويكون الدين كله لله ؛ ويومئذ تكون مكة ، رمز التوحيد ومقام هيكله، مثابة الناس قاطبة من أمم الأرض جميعاً ، فتكون بذلك مقر السلام المطمئن طمأنينة الإيمان، ومقر عصبة الأمم الإنسانية كلها .

تاقت نفسى حين بلغت من تفكيرى هذا المبلغ أن أقوم فأطوف بالبيت كرَّة أخرى شكراً لله وحمداً ، واستعانة إياه على مزيد من الهدى وعلى معرفة الحقيقة من كل جوانبها لعلها أن تنكشف لى كاملة فأستطيع بعونه أن أحدق فى نورها وأن أبلُغ الرضا بالنهل من باهر ضيائها . وطوقت ثغرى ابتسامة سعيدة حين هممت أن أفعل . فقد كنت أسأل نفسى عن الطواف ما حكمته ، فأقف عند قول بعضهم : إنما الحج ومناسكه أمور تعبُّدية تغيب عنا حكمتها ولا سبيل للعقل إلى فهمها . لشد ما يخطئُ أصحاب هذا القول ! فنحن إنما نطوف بهيكل التوحيد لنرى حقيقة التوحيد من كل جوانبها . صحيح أن هذا الهيكل رمز وأن جوانبه كلها تتشابه . لكنَّنا لا نستطيع أن نواجه الحقيقة لذاتها قبل أن نرى رمزها ، ولا نستطيع أن نحيط بها كاملة دون أن نطوف بها من كل جوانبها . فإذا فعلنا أتيح لنا أن نبلُغ لُبابها وصميمها . كما أن الحاج لا يدخل الكعبة قبل أن يطوف بها ؛ فالطواف إذاً طريق الإحاطة

بالحقيقة العليا التى يقوم البيت العتيق رمزاً لها وعلماً عليها .

على هذا النحو فكرت فى أمر الطواف وحكمته ، وإن لم أر شيئاً من مثله فيما قرأت من الكتب . ولعلى لا أجد فيها شيئاً يشبهه إلا أن يكون ذلك فى كتب الفلاسفة والمتصوفة ومن إليهم ممن يرون الفكرة حقيقة ملموسة ؛ بل يرونها وحدها الحقيقة الملموسة دون سواها . فأما المادة وأطوارها ومظاهرها فإلى تطوّر دائم واستحالات متصلة لا يقر لها معها قرار . ونحن نعيش فى بيئة من المادة ، فنحن متأثرون بها وبأطوارها ، وتفكيرنا متصل بما حولنا منها اتصالا يحول بين الأكثرين والتجرد للسمو إلى ما فوق هذه البيئة التى تجعلنا نرى الأشياء فى ضوئها وبالنسبة لها ، ولا نرى الحقائق الخالدة مما وراءها . ولئن كشف العلم اليوم عن حقيقة قررها القرآن وكررها ؛ وهى أن سُنن الكون ثابتة وأنك لن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنته تحويلا ، لقد بقى التفكير الإنسانى متأثراً بنسبية البيئة المادية تأثراً لا يسهل التخلص منه والسمو عليه . والأقلون الذين يستطيعون هذا السمو ممن عالجوه فى الماضى لم يعالجوه على طريقتنا العلمية الحديثة التى تقرب الحقيقة إلى العقل وإن دقت واستعصت ، بل على طريقة ذاتية فيها التجرد وفيها بلوغ مراتب الإشراق الروحى مما لا يتيسر للمجموع دركُه . ولو أن طرائقنا العلمية استطاعت أن تقرب الحقائق التجريدية إلى الأذهان على نحو من الثبوت يصور الأمور المجرّدة للحس ، كما قرّب الأثير إلى الذهن وحدة المكان عن طريق الإذاعة ، إذاً لهان أن يبلغ مجموع الإنسانية من إدراك الحقيقة العليا والحقائق المتصلة بها ما لم يصل إلى إدراكه فى الماضى ، وما كان وقفاً على طوائف قليلة من المثقفين ، بل على أفراد معدودين من هذه الطوائف .

أما والطواف رمزٌ للإحاطة بالتوحيد ابتغاء الوصول إلى لُبّه ، أما وللتوحيد بوصفه عقيدة ما رأيت من أثر فى حياة الإنسانية وسعادتها وسلامها ، فللطواف وهو ركن من أركان الحج حكمةٌ بالغة .

والطواف الواجب طواف العمرة ، وهو طواف القدوم ، وطواف الحج وطواف الإفاضة . ويجمع بعضهم بين طواف الإفاضة هذا وطواف الوداع ؛

ذلك بأن طواف الإفاضة لا موعد له بعد عرفة ومنى . فمن الناس من يقوم به يوم النحر كما فعلت ، ومنهم من يُرجئه إلى ما بعد أيام النحر . ولقد طاف النبى طواف العمرة وطواف الإفاضة وطواف الوداع فى حِجّة الوداع ، فكانت هذه أسوة ثابتة يجرى عليها المسلمون يؤدون بها الركن والواجب والسنة . بل إنهم ليطوفون بالبيت طول مقامهم بمكة ما استطاعوا الطواف ؛ فهم يطوفون قبل كل صلاة من الصلوات الخمس ، وهم يطوفون كلما دخلوا المسجد ، ويطوفون وهم فى المسجد مرات عدة قبل الصلاة وبعدها . ولا عجب أن يفعلوا وقد رأى ابن بطوطة حين وجوده بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الأزدى يطوف كل يوم سبعين مرة .

خرجت من المسجد بعد طواف الوداع وبعد أن دعوت الله أثناءه أن يكتب لى العودة إلى بلده الحرام والطواف ببيته العتيق ، أعِد العدة للخروج من مكة إلى المدينة ، وأودّع بعد البيت أصدقاء كانوا أثناء مقامى عندهم خير ما أرجو كرم ضيافة وحسن لقيا ودوام تأهيل وترحيب ، كما كان الكثيرون منهم نعم العون لى فى بحوثى ، بما أسدى بعضهم من معلومات ، وما أهدى بعضهم من كتب ، وما أرشد إليه بعضهم من مصادر .

وقد ودعتهم وودعت مكة راجياً أن يكتب الله لى العودة إليها راضى النفس مطمئن القلب سعيداً أن فتح الله لى أثناء المقام بها آفاقاً من الشعور والتفكير ما كان أحوجنى إلى أن تنفتح أمامى لأرى من خلالها هذا العالم العظيم الجليل : عالم الحقيقة والرضا .

طريق المدينة

خرجنا إذاً من مكة عصر يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر مارس بعد أن ودعني بدار مضيفي من أنست إليهم وأنسوا إليّ من شباب مكة . وصحبنا مضيفي في السيارة إلى دار وزير المالية بجَرْوَل . واستقبلنا الشيخ عبد الله سليمان بترحاب وزودني بعد القهوة بخطابات من جلالة الملك إلى أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم وإلى أمير خَيْبَر ليعاونانى فيما أريد أن أقوم به من مباحث ، وأهدى إليّ ساعة ذهبية عليها اسم جلالة الملك ابن السعود ، وستاراً من كسوة الكعبة ؛ وخرج يصحبني ويصحب الشيخ عباس قطان إلى باب الدار . فلما أردت أن أستأذنه مودعاً وأشكره على جميل ضيافته ألفيته يشير إليّ كي أركب معه سيارته . ولقد تأثرت نفسي لهذا التلطف غاية التأثر ، وذكرت إذ ذاك هذا البيت الذى تمثل به الشيخ محمد صالح القزاز ساعة وصلنا الطائف :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وأبديت ما خالج فؤادى من عرفان الجميل لوزير المالية ، فرد تحياتي بأحسن منها في لسان عربي بدوى وقع من نفسي أبلغ موقع . وأقلتنا سيارته حتى جاوزنا أبواب مكة . هنالك نزلت منها وكررت آي الشكر له ولمضيفي الشيخ عباس قطان ، وركبت سيارتي مع والدتى والشيخ عبد الحميد حديدى ومطوفنا الشيخ إبراهيم النورى . فلما بلغنا الشُّمَيسى وقفت السيارة أمام فُنْدُقها ، وألفينا عنده جماعة من أصدقائي شبان مكة ، ليودعوني على حدود موطنهم بالمدينة المقدسة . وبعد أن تبادلنا التحية والشكر كروا بسياراتهم راجعين إلى مكة ، وعادت السيارة تجرى بنا في الطريق صوب جُدة . لكننا ما نزال في وضح النهار . وهذه الشميسى هى الحديبية حيث كانت بيعة الرضوان

وحيث عقد الرسول أول عهد له مع قريش ، فنزل فيه الوحى بسورة الفتح . ولقد حال الجهد وتقدم الليل والشوق إلى دخول مكة دون وقوفى عندها يوم نزلت الحجاز . أما وفى مقدورى الآن أن أنزل بها وأقف عندها فهذه فرصة لن أضيعها .

ولم يثننى عن ذلك ما قرأته أثناء وجودى بمكة فى (شفاء الغرام) للفاسى من أن مسجد الشجرة والحديبية لا يعرفان الآن . فلو أن مثل هذا القول صدنى عن الوقوف عند أثر مأثور لوليت وجهى عن الآثار المأثورة جميعًا فيما خلا الحرم وحراء وثورا . لذلك نزلت بعد قليل من مغادرة السيارة فندق الشميسى قبالة مسجد الرضوان فإذا هو مشيد من حجر أزرق متين على طراز مساجد مكة ؛ لكن متانته وحسن عمارته يجعلانه يبدو للنظر أكثر اتصالا بالحياة منها . وهو أفسح رقعة من أكثرها ؛ لذلك قامت به ثلاثة عقود وضعت فوقها البواكى لتمسك سقفه . ومحرابه أدق فنًّا من محاريب تلك المساجد . ولا عجب فى ذلك وبناؤه لا يرجع إلى أكثر من مائة سنة بشهادة ما نقش بأعلى هذا المحراب مما نقلته فى فصل (ظاهر مكة) .

والمشهور – على رغم ما يقوله الفاسى – أن هذا المسجد يقوم فى الموضع الذى كانت تقوم فيه شجرة الرضوان ؛ وهى الشجرة التى نزل فيها قوله تعالى : «لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيباً » . ولم تبق هذه الشجرة فى موضعها بعد وفاة الرسول إلى أكثر من عهد عمر بن الخطاب حين خشى أن يتخذها المسلمون إلى الله زلفى كما كان يفعل الجاهليون بأصنامهم ، فأمر بقطعها .

ولنزول هذه الآية فى المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة سميت البيعة بيعة الرضوان والشجرة شجرة الرضوان . ولا عجب أن يخشى عمر تقديس المسلمين هذه الشجرة . فقد كانت بيعة الرضوان من أروع ما عرفه التاريخ فى

سيرة الرسول عليه السلام . ولقد تمثل لى هذا المشهد فى كل روعته وأنا بموقفى فوق الهضبة التى قام المسجد عليها ، فازددت له إكباراً وبه إعجاباً. فها هوذا محمد على رأس المسلمين قد خرجوا جميعاً من المدينة محرمين لا يحمل أحد منهم سلاحاً إلا ما يحمل المسافر من سيف مغمد . وها هم أولاء قد انطلقوا فى طريق مكة يلبون وقد ساقوا الهدى أمامهم سبعين بَدَنة بعد أن مازوا جوانبها اليمنى . انظر إليهم ؛ لقد قطعوا البيداء حتى بلغوا عُسْفان ؛ وهذا رجل يجيب الرسول إذا سأله عن أنباء قريش : « قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدّموها إلى كُراع الغَميم » ؛ ويعجب الرسول لأمر قريش ويقول : «يا ويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب . فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ! فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة »[1] . إنه الآن يرى فرسان مكة على مرمى النظر فينادى فى الناس : « مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها» ؛ وهو يفعل إيماناً منه بحرمة مكة مدينة السلام وحرصاً منه لذلك على أن يدخلها معتمراً لا مقاتلا . ويخرج رجل من المسلمين فيسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب مضنية حتى يبلغ بهم سهلا عند منقطع الوادى ، ثم يخرج بهم على ثنية المـُرار مهبط الحُديْبية من أسفل مكة .

والآن ماذا أرى ؟ لقد كان ما شهدت حتى الساعة أدنى إلى صورة ترتسم أمام الخيال ثم تتجسم وتدب فيها حياة كحياة صور السينما . أما الآن ، فإننى أرى ! نعم . أرى بعينى ، وأسمع بأذنىّ ، ويهتز كل وجودى لما أرى وأسمع . فهؤلاء ألفان من المسلمين مقبلين علىّ وأنا بموقفى من هضبة الحديبية ، محرمين

(١) السالفة : صفحة العنق ؛ وانفرادها كناية عن الموت .

كلهم ، يلبّون كلهم ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتطيًا ناقته القَصْواء يتقدمهم ومن فوقه غمامة تظله . . رحماك ربى ! ماذا عسى أن أصنع ؟ أأتقدم من هذه الناقة وأمسك بخطامها وألتمس من الرسول الكريم دعوة صالحة تشفع لى عند ربى ، أأجثو أمامه ضارعًا إليه أن يبارك علىّ ؟ أأسرع إلى قدمه فأمسك بها وأوسعها تقبيلا ؟ جالت هذه الخواطر برأسى وأنا مضطرب النفس شارد اللب لا أكاد أعى أين أنا ، ولا مَن أنا ، ثم استجمعت كل قوتى ورفعت بصرى فحدقت فى معالم هذا الوجه ، فإذا نور ينبعث من عينيه الوضّاءتين ، وابتسامة عذبة راضية تطوق ثغره الجميل ، وإذا أذناى تسمع فى وضوح وجلاء : «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ » وإذا هو يلتفت إلىّ ويقول ما كان يقوله لأصحابه إذ يقومون حين يقدم عليهم : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضًا ، ولا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا : عبد الله ورسوله » ؛ وإذا أصحابه من حوله ينظرون إليه نظرة حب وإجلال وتقديس وإكبار ، لكنها نظرة أخوة خالية من كل عبودية ، ونظرة إسلام لله وما يوحيه إلى عبده ورسوله . لا ترى على سيما أحدهم مذلة ولا تلمح فى نظر الذين ينظرون إلى النبى وجلا أو خوفًا ، بل ترى محبة دونها كل محبة ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، لا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وهم يتسابقون إلى ذلك أمامه كما يتسابق الأبناء البررة إلى محبة أبيهم البر الرحيم . هم إذًا لا يقبّلون قدمه ، ولا يفعلون شيئًا مما يفعل الأعاجم الذين اعتادوا النظر إلى كسرى وإلى عماله كأنهم آلهة الشر يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية ، بل يحبونه كما يحب أحدهم نفسه وأهله ، وأكثر مما يحب نفسه وأهله . هنالك تراجعت ووقفت أحدق فى هذا الجمع حول الرسول وأنتظر ما عساهم يصنعون .

وبدت آيات الغضب على سيما بعضهم والتفكير فى منازلة قريش حتى يحكم الله بينها وبينهم . أما الرسول فاستمسك بخُطة السلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش وتستبيح حرمة مدينة السلام . وترسل قريش رسلها

فيحاولون صرف المسلمين بالحسنى عن دخول مكة ، ثم يعودون وقد رأوا بأعينهم أن المسلمين إنما جاءوا زائرين للبيت معظّمين لحرمته ، ثم يحاولون إقناع قريش بأن يُخَلّوا بين هؤلاء المسلمين والبيت العتيق . ولم ترض قريش رأى رسلها . فبعث محمد إليها برسول من عنده ، فأساءت إليه وعقرت بعيره . ولم ييأس محمد مما صنعوا ، فبعث إليهم عثمان بن عفان يفاوضهم . وطال احتباس عثمان عن المسلمين ، فظنوا أن قريشاً غدرت به فى الشهر الحرام عند المسلمين وعند العرب جميعاً ودخل فى روع النبى ما دار بأخلاد القوم جميعاً فقال : « لا نبرح حتّى نناجز القوم » . ونادى فيهم ليبايعوه على ذلك . انظر إنهم يتزاحفون إليه يريد كل أن يسبق صاحبه إلى البيعة . لقد امتلأت نفوسهم حماسة ونظراتهم حدة وعزماً ، وهو واقف تحت الشجرة يتلقى بيعتهم مغتبط النفس مطمئن القلب مما يرى . ها هم أولاء فرغوا من البيعة ، وها هو ذا يضرب بإحدى يديه على اليد الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم . والآن انصرف القوم ينظمون صفوفهم ويعدّون للقتال عدتهم . يا لهم من جنود بواسل فى سبيل الله ! ما أعذب ابتسامة أبى بكر ! وما أحدّ نظرة عمر ! ما هذا ؟ إنهم يحدقون إلى ناحية مكة كأنما يريدون أن يحرقوا أهلها بلهب نظراتهم . أم تراهم يلمحون عند الأفق شيئاً أو شبحاً ؟ نعم ! إنه رجل . . . إنه عثمان بن عفان مقبلا . لم تقتله قريش إذاً ؛ بل هو يبلّغ للنبى رسالتهم أنهم أيقنوا أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجّين معظمين للبيت ، وأنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة فى الأشهر الحرم . ولكن ما حدث من مناوشات بينهم وبينه يجعل العرب تتحدث إذا خلّت قريش بينه وبين مكة بأن قريشاً انهزموا أمامه ؛ وفى هذا من تهوين أمرهم فى نظر العرب ما لا طاقة لهم باحتماله . فليرجع المسلمون هذا العام وليعودوا عامهم المقبل ، فلن تحول قريش بينهم وبين البيت .

ويرضى النبى عن سِفارة عثمان ، وتوفد قريش سُهَيْل بن عمرو للمفاوضة وتدوين شروط الصلح . وتقع محادثات طويلة يغيظ بعض المسلمين أمرها ، ويبلغ من ذلك أن يقول عمر بن الخطاب لأبى بكر : « علامَ نُعطى الدنيّة فى

دينا ! » ويجيبه أبو بكر : « يا عمر الزم غرزك . فإنى أشهد أنه رسول الله » . ويجيب عمر : « وأنا أشهد أنه رسول الله » وهو لا يرضى عما يرى . ويتم عهد الحديبية ويوقعه الرسول ويعود المسلمون منصرفين إلى المدينة وأكثرهم لهذا الصلح كارهون . وإنهم لفى طريقهم إذ نزل الوحى على الرسول بقول الله تعالى : «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا » إلى آخر سورة الفتح ؛ وفيها يقول الله تعالى : «لَقَدْ رَضِيَ ٱللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قريبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً » . ويقول تعالى : «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا . لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيباً . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

وسمع المسلمون إلى كلام الله فى سورة الفتح فاطمأنوا ورضوا وذهب عن الغاضبين منهم الغضب ، وعادوا إلى المدينة ينظرون اليوم الذى يعودون فيه إلى مكة العام المقبل .

لا عجب ، وذلك ما حدث ، أن يخشى عمر تقديس المسلمين شجرة الرضوان تقديساً يبلغ عبادتها وأن يأمر لذلك بقطعها . وماله لا يفعل وهو الذى قال وهو يقبل الحجر الأسود بالكعبة : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » ! وهو الذى لم يرض أن تجمع أحاديث الرسول وسنته اكتفاء بكتاب الله ، وهو الذى أراد أن يظل الإسلام لله مطهّرا ، مظهره الإيمان العقلى المبرأ من كل مظهر من مظاهر الوثنية !

وآن لنا أن نعود إلى السيارة فى طريقنا إلى جدة . ولقد بلغناها والليل ساج والأماكن القليلة التى تضيئها الكهرباء هى وحدها المنيرة وسط الدُّجُنّة المنتشرة لا يهون منها ضوء مصابيح الطرقات إلا قليلا . ولقينا أصحابنا المصريون بجدة ، ودعانى قنصل مصر لتناول طعام العشاء عنده مع جماعة أزمعوا ركوب البحر فى غدهم إلى أرض الوطن . وأقمت لحظة عند صاحب الدعوة ، وغادرته إلى منزل الشيخ عبد الله سليمان بجدة حيث تركت متاعى وعرفت مكان نومى ثم عدت إلى بنى وطنى وأنا مشوق أى شوق للقياهم . وتحدثنا وتناولنا طعام العشاء ، ثم جلسنا نسمع الإذاعة من مصر ونلتمس فى مُوسيقيها وفى أغانى المغنين من بنيها وبناتها النشوة والطرب. فالإذاعة محرم سماعها بمكة ؛ لأن مذهب ابن عبد الوهاب يحرّم الطرب ، فلا أقل من أن يحرّمه الوهابيون فى الحرمين .أما جدة فرفأ يباح للناس من كل الأديان أن ينزلوا به ، فلا تثريب عليهم أن يسمعوا الإذاعة من مصر ومن باريس ومن لندن ومن حيث شاءوا . هذا تصور قد يبدو عجيباً لأولى المنطق . فالحرام حرام حيث كان ، والحلال حلال حيث كان . لكن المنطق يجب أن يتسع لمناطق الشك وأن يعتبرها حرماً آمناً تتجاور فيه الحرمات . وجدة ومرافئ

الحجاز كلها من مناطق الشك حيث تتجاور حرمات الشرق وحرمات الغرب ، وحرمات الله وحرمات حضارة هذا الجيل ، فليتجاور فيها طرب المذياع الذى يسمعه الناس جميعًا مع الطرب المستور بين الجدران والطرب الحلال عند أهل نجد ؛ وليتسامح أهل هذا الطرب وأهل ذاك . فالتسامح وحده سبيل اليسر فى عيش الجماعة .

وفى بكرة الصباح أقلتنا السيارة وتبعها « البكس » فخرجنا من جدة فى طريق المدينة ، وسألت صاحبى : أين نلتقى بطريق القوافل الذاهبة من مكة ؟ فقال : إنما نلتقى بها عند القَضِيمة بعد أن تتخطى القوافل وادى فاطمة فعُسْفان إليها . وسألت أللمدينة طريق غير هذه التى نسلكها اليوم وتسلكها القوافل ؟ فعلمت أن لها طرقًا أربعًا : هذه التى نسلكها وتسمى الطريق السلطانى ، والطريق الفرعى ، وطريق الغَاير ، والطريق الشرقى . وإنما غايتى من هذا السؤال أن أعرف الطريق التى سلكها الرسول فى هجرته ، وفى عمرته ، وفى فتح مكة . قال صاحبى : ليس التحديد الدقيق يسيرًا ؛ فهذه الطرق تختلط بعضها ببعض كما تختلط طريق السيارة وطريق القوافل ؛ ومن اليسير على من شاء أن يعدل عن أى الطريقين إلى الأخرى أثناء سيره . وسترى من أسماء الأماكن التى تمر بها ما تستطيع معه أن تعين ما مر به الرسول عليه السلام منها .

كانت السيارة تنطلق مسرعة فوق أرض رملية خطتها دروب من عجل السيارات التى تجرى طول أشهر الحج فيها . وإلى يميننا امتدت الرمال إلى الأفق فما تقف دون النظر هضبة ولا قمة . وامتد البحر الأحمر عن يسارنا مطمئنًا هادئ الموج يحول البعد عنه بيننا وبين صريف أمواجه . وحاذينا مَحلة قال صاحبى إنها الكراع فيما يسمونه اليوم ، وكُراع الغَمَيم على عهد الرسول . هاهنا إذًا وقف فرسان مكة وعلى رأسهم خالد بن الوليد عام الحديبية ، ومن هنا اتجه النبى على رأس أصحابه إلى طريق الحديبية اتقاء الالتقاء بخالد وجيشه حتى لا يقاتل المسلمون وهم محرمون بعمرة . لكننا لم نبلغ القَضِيمة بعد . أفكانت الطريق على عهد الرسول غير الطريق اليوم ؟ أم أن خالدًا

وفرسانه أرادوا أن يحصروا محمداً وأصحابه بينهم وبين مكة ؟ أغلب الظن أن تكون الطريق قد تغيرت إن صح أن هذا الكراع كُراع الغميم . فقد نادى الرسول فى أصحابه حين رأوا فرسان قريش : « مَن رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها » . وقد سلك المسلمون إلى الحديبية طريق ثنية المُرار فوجدوا فى سلوكها جهداً ومشقة . هم إذًا خرجوا من الطريق المألوفة لهم والتى لم تصبح طريق القوافل فى يومنا الحاضر .

وتخطينا بعد الكراع دَهَبان ثم تُوَل وبلغنا القضيمة ، وكنا أثناء ذلك على مقربة من الشاطئ لا يكاد يغيب عنا . وأغرانى ذلك بالسؤال عن القُديْد أين هى ؟ فللقُديد فى نبأ هجرة الرسول ذكر وأثر . عندها أدرك سُراقة ابن جُعْشُم محمداً وأبا بكر ليعود بهما إلى مكة أسيرين أو يقتلهما فيفوز فى الحالين بالإبل المائة التى جعلتها قريش لمن يرد محمداً إلى مكة حيًّا أو ميتًا بعد فراره منها وإخفاق فتيانها فى العثور عليه . وعندها كبا جواد سراقة بفارسه كبوة عنيفة طرحت الفارس أرضًا وجعلته يتطير ويؤمن بأن الآلهة مانعة منه ضالته . هنا لك وقف ونادى المهاجر العظيم وصاحبه : « أنا سراقة بن جعشم . أنظرونى أكلمكم ، فو الله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه » . وطلب إلى محمد فأمر أبا بكر فكتب له كتابًا يكون آية بينه وبين النبى . وأخذ سراقة الكتاب وعاد أدراجه ، وجعل يضلل الذين يطاردون محمداً وصاحبه كيلا يلحق بهما منهم أحد .

وزاد فى إغرائى ما ذكره الأزرقى عن القُديْد عند كلامه عن مَنَاة صنم الأزدوغَسَّان . فقد ذكر أن عمرو بن لُحَىٍّ نصب مَنَاةَ على ساحل البحر مما يلى قُديداً . وقد أثبتت الخرائط قد يداً على مقربة من عُسفان . على أن صاحبى لم يجد ما يجيبنى به ، مما دلنى على أن قديداً ليست معروفة عند أهل الحجاز من معاصرينا . هذا على أنهم أكثر الناس تعليقًا على سيرة الرسول ، حتى لتراهم يضيفون إليها ما لم يرد فى رواية ولا كتاب . وتفسير إغضائهم عن قديد وغيرها من الأماكن المتصلة بالسيرة أن هذه الأماكن ليست مواضع لزيارة الحجاج

وتبركهم ، فهى لا تدرّ أخلافها من الرزق ما يدعو أهل الحجاز إلى تحقيق أمرها وإضافة الروايات والأحاديث إليها .

انطلقت السيارة من القضيمة ميممة رابغاً بعد وقفة يسيرة فى (مُقهى) تناولنا فيه الشاى والقهوة ، وانطلقت فى سرعة دونها سرعة البرق ، لأن مياه البحر تغمر رمال الشاطئ فى هذه المنطقة فتجعله صلباً صلابة الأسفلت ، وتجعله تحت عجل السيارة أكثر ليناً ونعومة . ولولا أماكن فى الطريق بَعُد ما بينها وبين الشاطئ فلم يكسبها تسرب الماء إليها ما أكسب الرمال القريبة منه من تماسك وصلابة ، ولولا أماكن أخرى تعاون السيل والسيارات الثقيلة فيها فقلبا رمالها ظهراً لبطن ، إذاً لبلغنا رابغاً من القضيمة فيما دون الساعتين . لكن هذه الأماكن المتقطعة فى الطريق كانت تضطر السائق ليسير الهوينى بين حين وآخر ، فإذا استوى إلى أرض صلبة أطلق لعجلات السيارة العنان فانطلقت تسبق الريح وتذرها وراءها تصفر من شدة الغيظ . ولولا هذه الأماكن المتقطعة لما أملّنا جدب الطريق ، جدب لا تقع العين فيه على شىء يلفت النظر . لكن هذه الأماكن المضطربة بالرمال المتقلبة ، وهذا الجدب الممحل الذى يمل النظر ، جعلانا نشعر إذ نبلغ رابغاً بحاجة إلى الراحة لا تقل عن حاجتنا إلى الطعام .

وزاد فى سأمنا الطريق منظر كان يتكرر كلما هون السائق السير ووقف ليرى ما يصنع بالرمال المحيطة بعجلات السيارة . ذلك منظر المتسولين من أهل البلاد . فهم يعدون بالمئات وبالألوف ، بل هم يخطئهم العدّ . وأنت ترى الطريق خالياً منهم ، حتى إذا هدأ سير السيارة رأيتهم نبتوا على جانبيها ، وما تدرى أأنبتتهم الأرض أم قذفت بهم الهضاب من أعاليها كما تحط السيول الأحجار من القمم العالية . ومنظر هؤلاء المتسولين قلّ أن يثير فى النفس عاطفة الرحمة ، وإن كانوا يجيئون إليك عراة أغلب أمرهم ليس عليهم لباس إلا ما يستر العورة . فأما النساء والبنات فيتقدمن كاسيات ولكنهن لسن دون الرجال والشبان إلحافاً ومسألة . وهم يقبلون على السيارة تسابقها سيقانهم

الدقيقة وقد مدوا أيديهم يصيحون : « يا حاج . يا بويا . هلله . وحياة النبي . بالسلامة » إلى آخر الأنشودة التي حفظوها على كرّ السنين عن ظهر قلب ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، والحفَدَة عن الأجداد . ولولا أن الحجاج ، والحاجات بنوع خاص ، يشعرون بأن الإحسان إلى هؤلاء المتسولين من تمام الحج ، وأن فيه استجابة لقوله تعالى : « فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » لرغب أكثرهم عن بذل الصدقة لهؤلاء المتسولين ، وأكثرهم أصحاء مفتولو العضل أقوياء البنية ، وأكثرهم يرى هذا التسول صناعة مباحة للارتزاق ، ويرى فرضًا على هؤلاء الحجاج أن يحسنوا ويعطوهم . وإذا كان شيء في هذه الظاهرة النفسية يثير الإشفاق فليس ذلك ما عليه هؤلاء المتسولون من فقر لا يعلم أحد مداه ، بل ما هم عليه من جهل وتَدَلٍّ في مراتب الإنسانية إلى حضيض ما أجدر القائمين بالأمر في الحجاز أن ينزهوا أهل الحجاز عنه ، سموًّا بالإنسانية عن المذلة ، وبالإسلام عن الهوان .

فهؤلاء المتسولون إنما هم بعد من بني الإنسان ، وهم بعد مسلمون . والإسلام يأبى على بني الإنسان أن يبلغ التفاوت بينهم حتى يكون أحدهم حيوانًا أو دون الحيوان مكانة ، في حين ينعم الآخر ببُلَهْنِية العيش ومُتَع الحياة وبأسباب الترف جميعًا . وهؤلاء المتسولون دون الحيوان في تصورهم الحياة وفي إدراكهم ما حولهم . أقبل أحدهم يلهث نحو حاج ويقول مستجديًا : « وحياة النبي » . فسأله الحاج : ما اسم النبي ؟ فبُهِت السائل في بَلَهِه ولم يُحِرْ جوابًا . هو إنما يكرر كلمتين — وحياة النبي — تكرارًا آليًّا كما يكررها الببغاء أو « الفونوغراف » دون أن يعرف لهما معنى أو مدلولا ؛ وهو يجري سائلا يلتمس القوت كما يلتمسه الكلب ، وقد كان صاحبه قاطع الطريق يجري قبل عهد الوهابيين يلتمس القوت نهبًا كما يلتمسه الذئب . بل لعل هذا السائل أحط في قدر الإنسانية من المجرم إن جاز أن تعقد مثل هذه الموازنة . فالمجرم حيوان مفترس والمتسول حيوان مهين . فإذا هما تساويا في الحيوانية فالمفترس لا ريب خير مكانًا من الذليل المهين .

وأحسب هذه المراتب الإنسانية الدنيا منتشرة هاهنا حيث الجهل ضارب أطنابه . لقد سمعنا جميعًا اسم رَضْوَى يتكرر فى الشعر العربى القديم . ولا يزال الكثيرون منا يتغنون بثَبِيرٍ ورضوى كما يتغنون بجبلى نعمان . ولعل من شعرائنا المصريين فى العصور المتأخرة من ورد اسم رضوى فى شعره ، ذكره حين أراد أن يتخيَّل جبلا أو يتمثل ما يدل الجبل عليه فكان اسم رضوى أقرب إلى ذاكرته من اسم سيناء . ذكر لى مَن عرفت بالحجاز حديثًا عن رضوى أثار منى كوامن الدهشة جميعًا . فهذا الجبل يمتد فى طريق المدينة إلى يَنْبُع . ومنطقة المدينة وما حاذاها أكثر اتصالا بالحضارة من كثير من مناطق بلاد العرب ؛ لأنها أدناها إلى الشمال وأيسرها اتصالا بالشام ومصر . كذلك كانت فى عهد النبى وفى صدر الإسلام ، وكذلك هى اليوم . ولقد زار وزير المالية الشيخ عبد الله سليمان رضوى منذ سنوات قليلة ، واستصحب معه أمين مكة الشيخ عباس قطان كما استصحب قوة من الجند وعُدة للمقام من خيام وأدوات للطهى وطهاة ومن إليهم . وتسلق القوم إلى قمة رضوى فرأوا عجبًا : رأوا قومًا لم ينزلوا السهل حياتهم ، ويرون فى نزوله المَعَرَّة الكبرى ؛ فإذا احتاجوا إلى شىء مما فيه فأتباعهم وضعافهم هم الذين ينزلون . ورأوا هؤلاء القوم يعيشون فى الكهوف والمغارات عيش الحيوان المفترس ، ورأوا أحدهم إذا ظفر بغنيمة مما كانوا يذبحون فرَّ بها إلى كهفه وأوى إليه وانبعث ينهشها كما ينهش الحيوان المفترس فريسته ، وجعل يذب عنها من يحاول اقتحام الكهف عليه بأن يدفعه برجله كما يفعل الذئب أو النمر . أفيتصور أحد هذه الحياة فى بلاد العرب وعلى مقربة من المدينة ؟ أما أنا فدهشت لها أول ما سمعت نبأها، ثم خفت دهشتى حين ادّكرت من رأيت من الأعراب بالشفا من جبال الطائف . وما أحسب الفرق بين هؤلاء وأعراب رضوى ببالغ أن يثير الدهشة .

يأبى الإسلام أن يبلغ التفاوت بين بنى الإنسان حتى ينكر بعضهم بعضًا . ذلك أساسه فى أمور الرزق ، وهو أساسه فى الحياة الروحية . فهو دين إخاء

يرتفع بالإخاء إلى أسمى مراتبه ، ويرى لذلك أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأين الإيمان فى أمة يتناكر بنوها فينكر أحدهم أمر صاحبه ، فإذا عرف أمره دهش له وأخذ منه العجب ! وأين الإخاء فى أمة يعيش نصف أبنائها حفاة عراة ، رزقهم من التسول ، وسعادتهم فى الجهل ، وطمأنينتهم إلى العيش فى قُنَن الجبال ، ويعيش النصف الآخر فى حضر أو ما يشبه الحضر . ليس هذا من دين محمد فى شىء ، بل الإسلام عدو لهذا التفاوت الظالم وهذا التناكر الذى يمقت الإخاء ويمقته الإخاء . وإن ديناً يدعو عمر بن الخطاب ليقول لعلى بن أبى طالب وقد اقتضاه غريم أمراً : « ساوِ خصمَكَ يا أبا الحسن » ، فيساوى علىٌّ خصمه فى مجلس القضاء ، وينكر على عمر أن يدعوه « أبا الحسن » لما فى الكنية من تعظيم لا يتفق مع المساواة ، لأثبَتُ أساساً من أن يُقِر تفاوتاً مبلغه من الجور ما ذكرت . ويأبى هذا الدين أن يقر التفاوت الروحى ؛ فهو لا يجعل لطائفة من الناس فضلا على طائفة إلا بالتقوى ، ويجعل العلم وما يدعو إليه من تحابٍّ فى الله وقضاء على غرور النفس ببلوغ المعرفة الحقة أساس الهدى ومنارة الإيمان . لذلك كان العلماء فيه ورثة الأنبياء . والعلماء الصادقون كالأنبياء الصادقين يؤثرون هدى الناس على طمأنينة أنفسهم بل على حياتهم ، ويبذلون من ثم للناس كل أسباب العلم حتى يبلغوا به غاية ما يستطيع المرء بلوغه من الهدى .

بلغنا رابغاً بعد زوال الشمس بساعة أو نحوها ، فبلغنا بذلك حضراً لم نر شيئاً منه منذ تركنا جدة ، وهو على تواضعه حَضَرٌ يقف النظر عنده . فقد وقفت بنا السيارة أمام بناء فسيح يشبه السوق ، فى جانب منه مقاعد لمقهى يجلس الناس فيه يتناولون الطعام والشاى والقهوة . وإلى الجانب الآخر من الطريق قامت مبان أحدها مخفر البوليس ، وبعضها حوانيت تعرض للبيع ألواناً شتى من الطعام وغير الطعام . وسألت أصحابى : أين نلتمس الراحة ونتناول الطعام ؟ فأشاروا إلى بناء متصل بالسوق زعموه فندقاً . . ودرنا نلتمس فى هذا الفندق غرفة نأوى إليها ، فإذا أنا أمام غرف حقيرة لا أدرى مِمَّ بنيت ،

وليس يغطى أرضها حصير ولا ما دون الحصير . على أن أصحاب المقهى توسموا فينا الخير فجاءوا بحصير قديم نشروه فى إحدى الغرف ، وجئنا من متاعنا بسجاجيد الصلاة ففرشناها فوقه . وذكر أصحابى من أهل مكة أن برابغ سمكاً صالحا للطعام يُطهى لساعته ، فطلبت إليهم أن يجيئونا منه بما يكفينا . وإنا لنعِدّ لراحتنا ولطعامنا إذ أقبل علينا رجل الجندية فتقدم بالتحية وعرض علىّ ضيافته . وشكرته وأبديت له أنى مطمئن حيث نزلت ، وأن حاجتى إلى الراحة تمسكنى دون القيام ودون اتباعه إلى شاطئ البحر أو إلى المخفر أو إلى أى مكان غير هذا المكان الذى أنا به . وابتسم الرجل وبادلنى من التحيات ما ضاعف شكرى ، ثم تركنا وانصرف مكرراً ساعة انصرافه أنه يود لو يكون فى خدمتنا فيكون بذلك سعيداً .

وبعد صلاة الظهر تناولنا السمك الذى جاءوا به . ما أشهى الطعام على جوع وما أطيبه وأصحه ! ومِلْتُ بعد أن نلت شبعى فتمطيت على سجادة الصلاة أبتغى الراحة ، فإذا بى أسرع إلى عالم النوم . واستيقظت وقد عاد لى نشاطى ، والتمست الخريطة أقيس عليها ما قطعنا من جدة وما بقى لنا لنبلغ المدينة . قال صاحبى : « وما تجدى الخريطة فى طريق شديد التفاوت بين الاستواء والوعْث ، وتستطيع السيارة أن تقطع عشرات الفراسخ كل ساعة فى بعضه ، وهى تعيى فى البعض عن قطع فرسخ واحد فى ساعة أو ساعات ؛ وإنا لن نبلغ المدينة الليلة ، والمُستَيْجِيد غاية ما نستطيع أن نبلغه إذا بلغ لطف الأقدار غايته ، وقد نبيت بآبار بنى حَصَان وقد لا ندركها . والأمر فى ذلك كله لله ، بيده تصريف الأمور » .

لم يَثْنِنى هذا الحديث عن الاطلاع على الخريطة . يا عجبًا ! كيف نسيت أن الجُحْفة على عهد النبى هى رابغ اليوم ، أو أنهما تتجاوران ! ومذ رأيت اسم رابغ نسيت حديث صاحبى وعدت بذاكرتى إلى عهد الرسول ، وذكرت حديثًا لهند بنت عُتْبة زوج أبى سفيان إذ يتشاور قومها من قريش قُبَيْل خروجهم إلى غزوة أحد ويختلفون أتسير النسوة معهم ، فتصيح هند

بمن يعترض خروج النساء : « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك .
نعم ! نخرج فنشهد القتال ولا يردّنا أحد كما ردّت الفتيات فى سفرهم إلى بدر
حين بلغوا الجحفة فقتلت الأحبة يومئذ ». نحن ها هنا إذاً فى الطريق الذى
سلكته قريش إلى بدر وإلى أحد . ونحن هاهنا فى الطريق الذى سلكه الرسول
عام الفتح . فقد ترك العباس بن عبد المطلب قريشاً وهى فى جدل ماذا تصنع
لاتقاء عدْوة محمد على مكة ، وسار يريد المدينة ، فلقى جيش الفتح بالجحفة .
هذا إذا كان الطريق المسلوك بين مكة ويثرب إلى الشام ؛ وهذه الجحفة التى
نقف الآن بها كانت موقعاً ذا شهرة فيه . أما ولرابغ الشهرة اليوم فقد أنست
الناس الجحفة وما وقع على عهد الرسول بها .

وقمنا بعد العصر ، فانطلقت بنا السيارة إلى مَسْتورة فى طريق مستو
يجاور البحر فهى تجرى فيه تخطفه خطفاً . وفى حذاء مستورة تيامنت السيارة
مُشَرِّقَة نحو بئر الشيخ . ومذ تيامنت بدأ الطريق يتعذر السير فيه . ذلك
أننا كنا نبعد عن البحر إلى داخل تهامة ، وكانت الرمال التى تسير السيارة
عليها خلال هذه الصحراء غير مستقرة لكثرة ما تقلبها السيارات الثقيلة إذ يكثر
مرورها بها فى موسم الحج . وحيثما تعذر السير نبت المتسولون من جوف الأرض
أو انحطوا من المرتفعات .

وبلغنا بئر الشيخ بعد غروب الشمس فجلسنا إلى مقهى بها تناولنا فيه
الشاى وأقمنا حتى سجا الليل . فليس يضيق سائقو السيارات بشىء ضيقهم
بالسويعة التى تلى غروب الشمس حين تختلط موليّات النهار بإقبال الليل
فيَشْتَبِه النور وتنبهم الظلمة ويضطرب ضوء السيارة بينهما . وسأل السائق
عن الطريق بين بئر الشيخ وآبار بنى حصان ومبلغ صلاحها للسير بها ،
فاختلف أهل المقهى رأياً ، وأشار أحدهم إلى أن طريقاً منها لا يزال صالحاً
للسير فيه ، وأن الطريق الآخر أفسدته السيول فلم يبق السير فيه مستطاعاً .

ولم يكن إلى المبيت ببئر الشيخ سبيل إلا أن نظل ليلتنا فى هذا المقهى .
وإن أطقت أنا هذا المبيت وغامرت به فما عسى أن يكون أثره فى صحة

والدقى ؟ ولقد ذكر القوم أن بالمحلة التى تلينا ، محلة آبار بنى حصان ، فُنْدقًا للمبيت فيه . فى ذلك استخرنا الله وقمنا إلى سيارتنا . لكنها لم تَسِرْ بنا إلا قليلا حتى ساخت فى الرمل ولم تستطع حراكًا . وأضاء السائق فنارها فإذا أمامنا ثلاث سيارات أصابها ما أصاب سيارتنا . ولقد جعل سائقوها يتعاونون ويعاونهم ركابها على دفعها للمسير . واللوريات فى مثل هذه المواقف أسعد حظًّا ، لارتفاع جسمها فوق الأرض على عجلاتها الكبيرة ، وسموها لذلك عن أن يغوص بطنها فى الرمال . وأقمنا حيث نحن ، وذهب أصحابى يعاونون الذين تعطلت سياراتهم أمامنا ليقابلونا بالمثل فيعاونوا سيارتنا على الخروج من ورطتها . وقد أقمنا ساعة أو نحوها ، ثم أذن الله بالفرج وخرجت السيارات من هذه العُسرة التى أصابتها . وسرنا منطلقين فى طريقنا وكل رجائنا أن نبلغ آبار بنى حصان قبل منتصف الليل لعل النوم بفندقها يعوضنا عن جهد هذا النهار .

وانقضت ساعة أخرى والسيارة تجرى ونحن ننعم بنسيم ما أرقه وأعذبه ! نسيم البيداء الطلق الجاف الصحيح الذى يبعث إلى النفس النشاط والغبطة ، والذى ينسى المسافر كل نصب وكل مشقة . وفيما نتحدث عن المدينة ومتى نبلغها غدا إذ السيارة تغوص مرة أخرى فى الرمال . وحاول السائق مذ شعر باللُّجَّة الخطرة تحت مزالق العجلات أن ينجو منها بتحريك عجلة القيادة يمنة ويسرة لعل فى تحرك العجلات ما يَتَجَنَّبُها الغوصَ العميق . لكن هذه المداورة لم تُفلح ، وساخت السيارة وجعلت عجلاتها تدور حول نفسها فى حركة رحوية غير مجدية . ونزل أصحابى يحاولون دفع السيارة إلى الأمام لعلها تجاوز منطقة الخطر . ومع ما بذلوا فى ذلك من جهد شاق لقد ذهب جهدهم عبثًا . وخيِّل إلىَّ أنى أستطيع معاونتهم ، ودفعت معهم ولكن على غير جدوى . وبعد ساعتين ذوى فيهما الرجاء وذهب ما أنفقنا خلالهما من جهد سُدى رأيت أن أستريح إلى اليأس من السير هذه الليلة وأن أسلم الأمر لله وأن أنام فوق الرمل على مقربة من السيارة . وسحبت سجادة الصلاة فجعلتها فراشى ، وجئت بغطاء من الصوف التحفته وتمطيت وتغطيت راجيًا أن تعيننا يقظة النهار

على اجتياز هذه العقبة . وطاب لى هذا المقام وذكرت به عشية عرفة لولا غياب القمر وانتشار الظلمة ، وإن آنستنا نجوم السماء ببريقها الجذاب . وإنى لفى أحلام ما قبل النوم ، أحلام حُلوة مسعدة زادها صفو السماء فى هذه الساعة حلاوة وإسعاداً ، إذ جاء إلىَّ من أصحابى من يخبرنى أن السيارة خرجت من لجة الرمل وأنها وشيكة أن تسير . ولما رأى منى الريبة فى قوله ذكر أن عربة كبرى بها مفتش للطرق أدركتهم ، وأن بها أداة خاصة لإنقاذ العربات المنكوبة فى لجة الرمل ، وأنها ردت عربتنا إلى الحياة والسير . وقمت بين مصدق ومكذب . فلما رأيت السيارة انتقلت من مكانها أيقنت أنها خلَصت من براثن هذه الرمال ، وأنها وشيكة أن تسير حقًّا فأسرعت إليها . وسارت بنا تقصد آبار بنى حصان ونحن فى أشد الخوف أن يُنشب الرمل براثنه فى عجلاتها كرة أخرى . ولم تهدأ ثائرة الخوف فى نفوسنا حتى رأينا أنوار آبار بنى حصان . فلما بلغناها نادى مناد أن نميل لننام عنده . ولكن عنده مقهى لا يفضل مقهى بئر الشيخ ، ونحن نريد الفندق ، فندق آبار بنى حصان . وأهبنا بالسائق أن يقصد توًّا إليه وأنا أصور لنفسى غرفتى به وما سأناله بها من نوم مريح .

ووقفت السيارة أمام بناء اشتملته الظلمة قيل إنه « الأوتيل » . ودق أحد الرفاق بابه ونادى أهله وطال به الدق والنداء . ولئن كنا فى الثلث الأخير من الليل لقد عجبت كيف ينام الموكلون بفندق يأوى إليه الناس ساعات الليل وقلما يقفون عنده بالنهار . قال صاحبى : لا تعجب ؛ فالفندق للحكومة والموكلون به عُمالها وهم يقتضون منها لذلك مرتبًا لا يزيد بزيادة من ينزلونه ولا ينقص بنقصهم . وفتح الباب رجل عليه أمارات النوم ؛ فلما عرف أمرنا جاء بمصباح ضئيل النور وتقدم يهدينا إلى غرف المنزل . وخطوت فى أثره من الفضاء الذى كنا به بين جدران البناء وغرفه . ووسوست لى نفسى أن أرجع أدراجى وأن ألتمس تحت العراء مبيتًا . أين هذا الهواء الطلق اللذيذ السائغ ، هواء البادية الجاف الجميل ، من هواء حبيس راكد بين الجدران ! ولكنى رأيت أحد أصحابى ينادى الخادم ليجيء بالطعام من « البكس » .

وأحسست الجوع الشديد ، فأهبت بالقوم أن يفتحوا نوافذ الغرف جميعاً . ومددت بصرى خلال نور المصباح إلى داخل الغرف فارتد يدعونى أن أهم بالعودة إلى العراء وهوائه الحر الطليق . فهذه الغرف الخالية من كل أثاث وفراش إلا من رمل لاشك أن رمل العراء أنقى منه ، لاتشجع على المكث ولا على المبيت . لكن الجوع والجهد وما خافه أصحابى من أثر العراء فى الصحة ، كل ذلك ثنانى عن تنفيذ ما أردت . قال أحدهم : لو أن معنا خيمة نضربها لكان الخير فيما تشير به ؛ وشقادف الجمال تُغنى عن الخيام . أما وليس معنا هذا ولا ذاك « فالأوتيل » خير مكان لمبيتنا .

وتناولنا طعامنا ، وفرشت سجادتى على حصير أكرمنا القوم بإحضاره وأغفيت السويعة التى تفصل بيننا وبين الفجر . فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود قمنا جميعاً إلى فرض الله ثم تناولنا الشاى وبعض الطعام وخرجنا إلى الفضاء الطلق ننعم فيه بالهواء الحر والنور الوليد . وألفينا أمامنا وادياً فسيحاً تكتنفه الجبال وقد انحط بطنه عن الفندق بضعة أمتار ، فالفندق يقع منه على أكمة تتحكم فيه . ورآنى رجل من أهل الفندق أُميل منظارى المقرب أهبط به إلى بطن الوادى تارة وأرتفع به إلى أعلى الجبل أخرى ، وسمع أثناء ذلك حديث صاحبى عما لقينا من عَنَت أصابنا به غوص السيارة فى الرمل ، فقال : إنها سيول هذا العام أفسدت الطريق وكان من قبلُ صالحاً ؛ فقد انهمرت وبلغ انهمارها حداً لا عهد لنا به مذ عرفنا الحياة . وكان من ذلك أن ارتفعت المياه فى هذا الوادى حتى غمرت سيارة من سيارات اللورى فمات بها اثنا عشر من راكبيها ، وأن بلغت هذا الفندق وكادت توهن جدرانه لولا متانة بنائه .

عجبت لما سمعت وقلت : «وماذا كان يفعل آباؤكم الأولون وقد كان هذا طريقهم من مكة إلى يثرب وإلى الشام ؟ »

سكت رجل الفندق ولم يجب . إذ ذاك تولى صاحبى الجواب فقال : قلَّ أن تنهمر مثل هذه السيول الجارفة المخربة . فسيول هذه البلاد هتانة حقاً ،

لكنها سريعة أن تُمسك سرعتها إلى أن تنهمر ؛ فإذا أمسكت ابتلع الرمل الماء فى دقائق . أما آباؤنا الأولون فلم يكونوا يعرفون السيارات . فلو أن سيلا جارفًا كسيل هذا العام نزل بهم لصعدوا بالإبل فى دروب الجبال حتى يبلغوا قُنَنَها إن أعوزهم الأمر .

وأمسك صاحبى هنيهة ثم قال : « هذا طريق ما بين مكة ويثرب ؛ وإنك لحريص مذ هبطت الحجاز على أن تمر ما استطعت حيثما مرّ الرسول عليه السلام . أفتذكر كم مرة مرّ بهذا الطريق ؟ »

قلت نعم ! ووجمت هنيهة أفكر : لقد مرّ بهذا الطريق ولا يزال طفلا فى السادسة من عمره حين ذهب مع أمه آمنة يزور قبر أبيه بيثرب . فلما آن لهما أن يعودا منه ماتت أمّه ودفنت بالأبواء . ومر به حين ذهب فى الثانية عشرة مع عمه أبى طالب إلى الشام ، كما مر به فى الخامسة والعشرين حين ذهب فى تجارة خديجة ؛ وأقام بعد ذلك خمسًا وعشرين سنة تباعًا لا يقطعه . ولما هاجر من مكة والصِّدّيق معه جاوزه إلى طريق يساحل البحر خيفة أن تدركه قريش . لكنه عاد بعد ذلك منه عام الحديبية ، ثم عام عمرة القضاء ، ثم عام الفتح ، ثم فى حِجة الوداع . ما أحفل هذا الطريق بالذكريات !! لقد رأى النبى العربى طفلاً ، ورآه صبيًّا ، ورآه شابًّا ،ورآه نبيًّا ، ورآه مجاهداً ، ورآه حاجًّا بيتَ ربه مستغفراً إياه ضارعًا إليه ؛ ولقد رآه يوحى إليه ربه من كتابه هدى ونوراً . وأنا أسير اليوم فيه ويسير عشرات الألوف من المسلمين فيه كل عام ، وقَلّ من يذكر منا ما يحفِل به أو يذكر هذه الحوادث من أيام النبى ، وكل واحدة منها عبرة ، وفى كل واحدة منها مُدَّكَرٌ . أوَ ليس هذا نسيانًا يجب أن نتنزه عنه إكباراً لذكرى الرسول الخالدة والتماسًا لموضع العبرة والأسوة من سيرته وحياته ؟ !

ولو أن علم هذا العصر الذى سخر لنا قوى الطبيعة ، استطاع أن يحلل ما ينطوى عليه الماضى وأن ينقل إلينا ما نشاء من ذكرياته على موج الزمن كما ينقل إلينا الأصوات التى نشاء من أقصى الأرض على موج الأثير ، إذاً لرأينا

فى هذا الطريق ما تهتز له القلوب وما تطير له الأفئدة تقديساً وإعجاباً .
إذاً لرأينا الصغير محمداً يجلس مع أمه آمنة والبعير يسير بهما وبحاضنة الغلام
أم أيمن قاصداً يثرب بخطاه الهادئة البطيئة ، وآمنة تقص على ابنها نبأ أخوال
أبيه من بنى النجار بالبلد الذى إليه يقصدون ، وتقص عليه كيف ارتحل
أبوه إلى الشام فى تجارته ، وكيف عاد منها ، وكيف مرض ومات ودفن عند
أخواله . والصغير ينصت مأخوذاً يدرى ولا يدرى . لقد رأى القوافل التى تذهب
فى رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام ؛ فهذا الرجل الذى تحدثه عنه
أمه ، عبد الله بن عبد المطلب ، قد ذهب مع قافلة الصيف لا ريب . ترى
كيف كان ؟ وتجيبه الأم الرءوم أنه كان جواداً شجاعاً وشهماً كريماً ؛
بل كأن الشهامة والجود صورا رجلا . وتقص عليه الأم من أخبار عبد الله ما ترجو
أن يكون أسوة للابن ومثلا . فما أكبر أملها أن ترى هذا الصغير يكبر ليكون
كأبيه : محبوباً من قومه ، مقدراً منهم ، عزيزاً عليهم ، حتى ليقفون دون
إرادة جده حين أراد أن يذبحه وفاء لنذره وبره بقسمه . وما له لا يكون كأبيه
وفى نظرته من قوة البريق ما كان فى نظرة عبد الله ، وفى نبرة صوته من الرقة
والقوة ما كان فى نبرة صوت أبيه! وينقضى اليوم ويتلوه غده فينقضى كانقضائه
وهم يقيمون ثم يسيرون لا يعجلون بعيرهم ولا يسأمون طول الطريق . وكيف
يسأمون حياة هى حياتهم وبيئة هى بيئتهم ! وكيف تسأم آمنة وهى تسير
إلى قبر حبيب وهبت له نفسها ، وكان لها فى الحياة منه أمل عريض ، فلم يمهله
القدر أن اختطفه منها ؛ وهى تتعلق ، على رغم القدر ، بأملها وتريد أن تصل
بين الثاوى فى القبر وقلبها . ويبلغون يثرب ، وتزور آمنة القبر وتزيره صغيرها
وتتحدث وإياه عنه ، وتأوى معه إلى دور بنى النجار . وهى ترى فى الطفل محمد
أحب صورة إليها من عبد الله ، وترى فيه الحياة وبهجتها ، والعزاء عن ألم الحياة
وقسوتها ، ولا يجول بخاطرها أنها عما قريب ستلحق بعبد الله . لكنها لا تلبث
حين تتحمل مع ابنها وحاضنته عائدة إلى مكة أن يصيبها المرض وأن يخترم
حياتها ؛ فيتعاون دليلها وأم أيمن على دفنها بالأبواء . ويلتمسها الصغير لتحدثه

عن عبد الله فلا يجدها ، ويلتمس من يحدثه عنها فتسرى عنه أم أيمن لوعة اليتم من أبيه وأمه ، حتى إذا بلغ مكة وجد فى جده عبد المطلب وفى حنوه وعطفه أبًا وأمًّا .

ثم لرأينا محمداً فى الثانية عشرة من عمره يسير مع عمّه أبى طالب فى هذه الطريق التى كنا نسير فيها . لكنه يسير هذه المرة فى قافلة ذاهبة فى رحلة الصيف كالقافلة التى سار فيها أبوه ، ولا يسير وحيداً بل معه عمه كما كان مع أمّه . وتتخطى القافلة سَرِفَ ، وتتخطى وادى فاطمة ، وتُساحل البحر فتبلغ يثرب ثم تتخطاها متخذة دروب البادية إلى الشام ؛ وتحط القافلة رحالها هاهنا وهناك ؛ ويسأل محمد حيثما سار وأينما نزل عما يحيط به ، فيجيبه عمه حينًا ، ويجيبه رفاقه فى القافلة حينًا آخر . وأية وسيلة يقطع بها راكب الجمل طول الطريق كالتحدث وقصص الماضى والتندر بالأنباء ! ولكل محلة تنزل بها القافلة حديث ونبأ ؛ ولكثير من الأماكن قصص تذهب فى بطون التاريخ إلى حيث يكاد التاريخ يضل فيها . ومحمد الصبى ينصت وقلما يتكلم ، ويقلب ما يسمع على أوتار فؤاده ليرى مبلغ اتساقه مع ما يرى . وتبلغ القافلة حدود فلسطين ويرى فيها قومًا غير الذين ألِفهم فى البادية ؛ قومًا عرفوا الحضر وصناعته والاستقرار ونُظُمه ، يتحدثون عن رُومية وعن بزنطية وعن أديانهما ورسلهما ، ويذكرون اليونان والرومان وحكمتهما وتشريعهما ، ويذكرون موسى وعيسى والنبيين من قبلُ ، وليس يشغله من أمر التجارة التى جاء قومه بها ما يصرفه عن التفكير فيما يرى ويسمع وعن استذكاره . ثم ينصرف مع القوم قافلين إلى مكة مارين بيثرب وبوادى فاطمة ، وهو لا يفتأ يسأل عما يرى وإن كان أدنى فى عودته إلى الصمت إمعانًا فى التفكير فيما رأى وسمع .

ويعود فى الخامسة والعشرين إلى مثل هذه الرحلة فى تجارة خديجة مع قافلة الشام . وتربح تجارته ويتزوج خديجة . لكن رحلة الصيف إلى الشام لا تستهويه ليعود إليها كرة أخرى . لقد عرف أنباء الشام واتصل بأهلها ، وفكر فيما وقف عليه من ذلك كله . وهو رجل تأمل فى المثل الأعلى ، وليس

تاجراً يغريه المال والاستزادة منه . فلترسل خديجة فى تجارتها من تشاء وليُقم هو بمكة على مقربة من البيت العتيق مفكراً متأملا منقطعاً إلى تفكيره وتأمله ، ثم ليتحنّث فى غار حراء حتى يوحى إليه ربه الأكرم أنه علّم الإنسان ما لم يعلم .

وينصرف محمد عن هذا الطريق سنوات متوالية حتى يأذن له ربه بالهجرة . فإذا ارتد من غار ثور سلك طريقاً غير الذى نسلكه نحن اليوم نجاةً بنفسه وبصاحبه من مطاردة قريش إياهما واقتفائها أثرهما .

ويعود إلى هذا الطريق بعد ذلك عام الحديبية . يعود إليه شيخاً توجت الرسالة وتوجت السنون رأسه . ويعود مع أصحابه حتى يبلغ منه ذا طوى ، ثم يُضطر إلى الخروج إلى طريق الحديبية حتى لا يصطدم بجيوش قريش .

ويسلك هذا الطريق بعد عام فى عمرة القضاء . يسلكه ملبياً نداء ربه منادياً مع أصحابه : « لبيك اللهم لبيك » . وتتجاوب أودية البادية وهضابها بهذا النداء تنفرج عنه شفاه ألفين من المسلمين يسيرون وراء نبيهم وكلهم شغف بهذا اليوم الذى انتظروه منذ سنين ، فهو اليوم الذى يطوفون فيه ببيت الله ويؤدون مناسك العمرة . والرسول فى مقدمتهم على القصواء تسير به ؛ وهو فى طمأنينته إلى نصر ربه أكثر من كل من معه شكراً لله وإذعاناً . وتُنيخ القافلة ثم تستأنف سيرها حتى تبلغ مكة ، فإذا هى خالية غادرها أهلها . ويجوس المسلمون خلالها طائفين مصلين مهللين مكبرين . أين هم اليوم منهم يوم أخرجتهم مكة منها وأقصتهم عنها وضنت عليهم بدخولها وأنكرت حقهم من الوجود أو أداء شعائر دينهم ! لكنهم صبروا وصابروا فنصرهم الله من فضله ؛ والعاقبة للصابرين .

وينقضى عامان من يومئذ ، فيسلك محمد هذا الطريق على رأس عشرة آلاف من المسلمين ليفتحوا مكة . أين مسيرته اليوم من مسيرته صغيراً ، ومن مسيرته صبياً ، ومن مسيرته تاجراً ؛ ومن مجيئه حاجاً . . لقد دانت له العرب وبقيت مكة على عنادها . لكنها اليوم على أهبة أن تدين وأن تُسلم

مفاتحها وأن تؤمن بالله ورسوله وأن يطهر بيتها من الأوثان وأن تعود إليه قداسة التوحيد والإيمان .

فأما المرة الأخيرة التى سلك محمد هذا الطريق فيها فهى حِجّة الوداع حين سار من المدينة على رأس مائة ألف من المسلمين الذين جاءوا من أنحاء شبه الجزيرة رجالا وعلى كل ضامر يَنْسِلون من كل حَدَب . وأقاموا ليلتهم بذى الحُلَيْفة ؛ فلما أصبحوا أحرموا وانطلقوا جميعاً ينادون : « لَبَّيْك اللهم لبيك » ؛ وتتصل روح الرسول بأرواحهم جميعاً وهو يلبّى على رأسهم فيزدادون إمعاناً فى توجُّههم إلى ربهم وسُمُوا إليه . أين من هذا الرجل الذى أكمل الله له وللمسلمين جميعاً دينَهم وأتم عليهم نعمته ، ذلك الطفل مع أمه ، وذلك الصبى مع عمه ، يسير فى هذا الطريق لا يعرف فى المرة الأولى أنه ذاهب إلى قبر أبيه يزوره ، ويسائل رفاقه فى المرة الثانية عن كل ما يرى ! أين من هذا الرسول الذى نقل العالم من الضلال إلى الهدى ومن الوثنية إلى التوحيد ، ذلك الصغير الذى كانت تنظر إليه أمه نظرة الحب والإعزاز لوحيدها اليتيم الذى فقد أباه ، وغاية ما ترجو أن يكون كهذا الأب أيْداً وكرماً ورجولة ! ! ويصل هذا الجمع الزاخر مكة فيُشاركه أهلها فى الإحرام بالحج وأداء مناسكه متأسِّياً فى ذلك بمثَل الرسول ، سائراً فى خطاه ، داعياً دعاءه ، مستغفراً استغفاره ! ألا إنها الحياة الإنسانية بلغت غاية السمو من إنسانيتها ، ثم سمت فوق الإنسانية إلى حيث رفعتها مراتب النبوة والرسالة ، وبقيت مثلا تحاول الأجيال أن تجعل منه أسوتها ؛ وهيهات هيهات أن تبلغ من ذلك إلا يسيراً .

قال صاحبى : « ما أعظم العبرة وأبلغ الموعظة فيما تذكر ! ولو أن المسلمين الذين يسيرون كل عام فى هذا الطريق ذكروا من ذلك بعض ما ذكرت لازدادت نفوسهم بالحج طهراً . وإنه فى الحق لطريق لو حدثت رماله وحدثت هضابه بما شهدت لأنصت العالم كله بأرضه وبحاره لأروع ما شهد على التاريخ من جلال الحق وانتصاره » .

كان رجالنا قد أعادوا رحالنا إلى « البكس » وإلى السيارة حين أتم صاحبى

عبارته . وشكرنا لأهل (أوتيل آبار بنى حصان) ظرفهم ، وانطلقنا فى طريقنا نبغى المسَيْجيد ، آخر محلَّة نقف بها قبل أن نبلغ المدينة . وبلغناها ونزلنا فندقاً بها يشبه فندق الآبار ، فأخبرنا رجاله أن السيد عبد العزيز الخريجى مضيفنا بالمدينة بعث مساء أمس وصبح اليوم من ينتظرنا . وأقمنا بالفندق ريثما تناولنا الشاى والقهوة ، وشكرنا أصحابه ثم انطلقنا كرة أخرى فى طريقنا إلى غايتنا . يا عجباً ! لقد اختلفت طبيعة البيداء كرة أخرى . لقد كنا نسير من جدة إلى رابغ وإلى مَستُورة على رمال شدت مياه البحر بعضها إلى بعض فهى صلبة متينة . فلما استدرنا من مستورة مشرِّقين إلى بئر الشيخ وآبار بنى حصان تفككت الرمال ولم تبق لها صلابتها ، لذلك غاصت عجلات السيارة ، وغاص بطن السيارة فيها غير مرة . واطرد الطريق على هذا النحو من الآبار إلى المسيجيد . فأما بعد المسيجيد فقد انقلبت البيداء صخرية على رغم ما يكسوها من الرمال . واطمأن السائق إلى أنا لن نغوص فى الرمل فأطلق العنان لسيارته . فلما قضينا بعض الساعة إذا الطبيعة تختلف من جديد وإذا جبال سود تقف منا عند مرمى النظر . وأدركت السيارة سفوح الجبال وتخطت خلالها مرتقية حيناً منحدرة آخر ، ثم انطلقت من جديد فى بيداء تكتنفها الجبال .

ووقفنا عند محلة أناخت بها قوافل للحجاج الذين يقصدون المدينة ، وجاء حسن بماء للسيارة احتياطاً للجبال القريبة منا . وأثار منظر القوافل فى نفسى حنيناً وذكرى : حنيناً لأيام الطفولة حين كنت أمتطى الجمل مع جدتى وأسير فى القافلة الذاهبة فى صحبة جدى إلى السيد البدوى بطنطا أو إلى مولد ابن العاص القريب من قريتنا ، وذكرى أولئك الذين سبقونا من آبائنا وأهلينا إلى هذه الديار قبل أن تُغير السيارة على الجمل فيها ، وحين كان الجمل سفينة الصحراء . وفكرت حين ألح بى الحنين وألحت الذكرى فيما يكتبه الغربيون عن القاهرة وعن الآستانة وعن غيرها من بلاد الشرق ، وما يبدون من أسف أشد الأسف أن أضاعت هذه البلاد طابَعها الشرقى القديم الجميل .

وتحدثت إلى نفسى أسائلها : كم أضاع الحجاز وأضاعت بلاد العرب بغزو السيارة إياها من طابعها ، وكم يضيع منه غداً حين تغزوها الطيارة ، فنجيء على متنها من مكة إلى المدينة فى ساعتين كما فعلت الأميرة خديجة حليم هذا العام ؟ ! ترى ماذا كانت تترك فى نفسى رحلة القافلة من مكة إلى المدينة فى الدرب الطويل أقضى فيها أسبوعين كاملين ؟ . . لقد قرأت ما كتبه كثيرون عن مثل هذه الرحلة فى مختلف الدروب التى تنساب فى البادية . قرأت ما كتبه برتن الإنجليزى ، وبورخارت السويسرى ، وإبراهيم باشا رفعت ، وقرأت رحلة البتانونى . إنهم جميعاً قد أتيح لهم أن يدرسوا من طبيعة البادية ونفسية أهلها ما لا يتسنى لراكب السيارة أن يعرف إلا القليل منه . وهم قد استمتعوا من حياة الصحراء وواحاتها ومن صحبة أهلها بما لم أستمتع أنا بشيء منه ، اللهم إلا حين نزلت رابغاً ، وحين قضيت الليل بآبار بنى حصان . أما راكب الطيارة فلن يرى من ذلك كله إلا ما يراه الطائر من علية سماواته ؛ ولن يستمتع منه بغير المنظر السريع التغيُّر السريع إلى الزوال . ومن الحق إذاً أن غزو السيارة للجمل وتعريضها إياه للزوال وحلولها محله سفينة للصحراء خسارة يأسف لها رب الفن الحريص أن ينعم على هُون بكل ما فى البادية من حياة ومعنى وجمال . أوَ ليس من الحق كذلك أن غزو الطيارة للسيارة يعرّض الإنسانية من ناحية الفن لمثل هذه الخسارة ! أم أنا يجب علينا فى سبيل ما نسميه التقدم ألا نقيم لهذه الخسارة وزناً ، وأن نغتبط أن عوضنا الله خيراً منها وأعظم جدوى ؛ وإذا انقرض الجمل وبقيت السيارة دابّة الحمل واختصت الطيارة بالسفر ، فلا خسارة فى ذلك على الإنسانية ولا على الفن ؟ ولم أجد جواباً على ذلك كله إلا أن محاولة الجواب لهو وعبث ما أشبههما بالأسف لأن الطفل صار رجلا ، أو لأن الهرم الفانى مات ليخلفه غيره ؛ مع أن هذا وذاك سنة الطبيعة . فما حدث اليوم لا مفر منه وهو لابد كائن . ورجل الفن الصادق العاطفة والموهبة لا يأسف على ما فات ، ويجد من آثار الفن فيما حوله خير منزل لوحيه وإلهامه . وميراثنا مما خلفه الأولون من آثار الفن بعض ما هو كائن ، شأنه فى

ذلك شأن ما حولنا من آثار العلم . فإذا نحن أسِفنا على ما فات فلن يجدى أسفنا شيئاً . ولئن دل على شيء لَعَلَّى أنا كسالى فى الفن ، نريد أن ننهج نهج من سبقونا ونتأثر خطاهم ، بدل أن نُبدع جديداً من إلهام الحاضر وحياته . فأما الذين يريدن أن يبقى الشرق الحى متحفاً لصور الماضى فأولئك يجهلون ما فى النفس الشرقية من توثب ونزوع إلى الطَّفرة ، وما تحرص عليه مع ذلك من توثيق عُرى الحاضر بالماضى ، لأن الحاضر والماضى والمستقبل مرتسم فيها منذ الأزل ، مصور فى أطوائها على أنه وحدة تتطور حياتها كما تتطور حياة الكائن الحى ، لا على أنه أجزاء منفصل بعضها عن بعض ، لا تتسق فى كلّ ولا تربطها وحدة الزمان والمكان .

وانطلقنا ، ولم يطل بنا السير حتى كنا ندور فى الجبال مُصعدين نسلك طريقاً لا بأس بفسحتها . وإنا لفى إحدى استدارات السيارة إذ انطلق إلى السماء أمامنا جبلان عن اليمين وعن الشمال لَفَتَ انطلاقهما النظر . قال صاحبى : « هذه جبال المُفْرِحات ، وهى طلائع المدينة المنورة » . هنالك اتجهت بكل ذهنى وجنانى إلى ناحية مدينة الرسول على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وجعلت أحدق بنظرى وحده تارة ، وأستعين بالمنظار المقرب أخرى ، أريد أن أجتلى بشائرها . وكأنما شعر السائق بأنا نستعجل بلوغها والدخول إليها ، فدفع بالسيارة فى طريق استقام حتى كأنه قد نُحِت فى الجبل نحتاً ، ورصف فيه رصفاً . فلما أوفى على غاية هذا الطريق استدار إلى طريق آخر ، ثم وقف فجأة بعد استدارته فيه ومد إصبعه إلى ناحية الشرق مشيراً وقال : هذه القبة الخضراء .

الله أكبر ولله الحمد ! بلغنا إذاً مقصدنا . فالقبة الخضراء قبة الحرم النبوى . وهى الآن أمامى وعلى مرمى نظرى . فليُسرع حسنٌ إذاً حتى نقوم بزيارة الحجرة التى صارت قبر الرسول الكريم بعد أن كانت سكنه فى الحياة والمكان العزيز عليه فى دار عائشة . وليُسْرع حتى نمتّع النفس والقلب بالوقوف خُشَّعاً أمام هذه الحجرة ونسلم على صاحبها ، ونشهد أنه بلغ رسالة

ربه ، ونحاول أن يتصل روحنا الضعيف الرازح تحت أعباء الحياة ومادتها فى عالم الدنيا بروحه القوى الأمين الذى سما بفضل من الله ومغفرة إلى مقام الرسالة الأسنى ، فكان صاحبها الأسوة والمثل فى حياته ، وكان بعد مماته نور الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة والضياء الوضّاء الذى غمر العالم فأنار له السبل وهداه مَحَجَّة الحق . وليُسْرِعْ فالنفس مشوقة والقلب يود أن يطير إلى هذا الموقف يشهد عن كثب منبع هذا النور وأن يمتلىء من إشراق سناه. هذه لذة كبرى بدأت أشعر بها وأريد أن أنهل منها وأبلغ الرى الروحى ريًّا لا أظمأ بعده أبداً .

والسيارة تجرى ، والقبة الخضراء تزداد وضوحًا ويزداد النظر بها تعلقًا . وها هى ذى بشائر المدينة المنورة كلها تبدو . لقد صرنا إذاً منها قاب قوسين أو أدنى .

وحى المدينة

وقف حسن بالسيارة فجأة بعد أن استدار صُعُداً من الطريق المستقيم إلى طريق يليه، ثم مد إصبعه إلى ناحية الشرق مشيراً وقال «هذه القبة الخضراء». وقال صاحبى : « نعم . قبة الحرم النبوى » . ومددت بصرى فإذا هذه القبة أمامى تقوم حولها مآذن ترتفع فى الجو ، وتحيط بها قباب أصغر منها حجماً . ولم يعلق النظر بالمآذن ولا بالقباب الصغرى إلا ريثما ارتسمت فى خاطرى صورة منها . أما القبة الكبرى فقد شُد إليها نظرى ما يكاد يتركها ؛ وقد استرعى انتباهى كل ما جل ودق من أمرها . ووجهت المنظار المقرب نحوها أريد أن أقف على تفاصيلها . ولم يكن ذلك حرصاً منى على اجتلاء ما بها من دقائق الزخرف فى عمارتها ولا أملاً فى أن أستشف شيئاً مما وراء النوافذ التى أحاطت بقاعدتها ، وإنما دفعت إليه حركة نفسية مبعثها الشغف بكل ما يتصل بالرسول وقبره ، وشدة التوق إلى معرفة كل آثاره .

وذكرت أن من ولاة مصر من كان لهم حظ فى هذا الأثر . فقايتباى هو الذى أمر بإنشاء هذه القبة . ومن بنى وطنى رجال العمارة من شاركوا فى تشييدها . وشعرت لذلك بغبطة أفعمت قلبى سروراً ورضاً . على أنى سألت نفسى : « فيمَ الغبطة أن يأمر والٍ مصرىٌّ بتشييدها ! وإنما شأنه فى ذلك شأن كثيرين من أمراء المسلمين وملوكهم ممن لهم فى عمارة هذا المسجد حظ وأثر » . لكن هاتفاً وجدانياً هتف بى : « الأقربون أولى بالمعروف ، وبنو الوطن هم الأقربون الأولون ، وبينك وبينهم مع إخاء العقيدة الزوحى إخاء القربى وإخاء التاريخ والشركة الوثيقة فى أرض الوطن ونهره وسمائه » .

وتنطلق القبة بشاهدها المدبب فى السماء ، ويلمع على سطحها الأخضر وهج الشمس الوضاء ، فيزيدنى منظرها تعلقاً بها حتى ما أكاد أجد لى منصرفاً عنها . وتتقدم السيارة فى الطريق وتتلوى مع بعض أجزائه فتغيب القبة عن

ناظرى وتقوم أمامها أبنية متواضعة حيناً وهضاب قليلة الارتفاع حيناً آخر . ويذكر صاحبى بعض ما يعرف من أمر هذه الأبنية وهذه الهضاب وأسمع له . لكن القبة تبقى مع ذلك مرتسمة أمام ذهنى وكأن لم تغب عن ناظرى . أليست القبة منارة القبر الذى يثوى فيه رسول الله ! أوَ ليست المدينة هى التى أوى إليها فنصرته من يوم هجرته إلى أن اختاره الرفيق الأعلى ! فما الجبال وما الهضاب وما الأبنية التى يحدث عنها صاحبى إلى جانب ما تحدث القبة عنه مما يملأ القلب روعة وهيبة وجلالا !

وذكرت ما دار بخاطرى من يومين وأنا بمجلسى من المسجد الحرام بعد طواف الوداع ، وقلت فى نفسى : إذا كانت مكة مدينة السلام فهذه المدينة لا ريب مدينة الجهاد . كذلك كانت يوم هاجر النبى إليها ، وكذلك بقيت من بعده طيلة عهد خلفائه الراشدين . هذان وصفان أفاء الله أحدهما على مكة ، والآخر على المدينة ، فبقى لهما على عهد النبى ، لم يتغير ولم يتبدل ؛ وكان حقاً أن يبقى لهما ما بقى للمسلمين على الأرض سلطان . ولقد فتح الله مكة على محمد وعلى المسلمين ، فخشى الأنصار العاقبة وقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ وكان جواب النبى حين علم ما قالوا : « معاذَ الله ! المَحْيَا مَحْيَاكم والمماتُ مماتكم » . ولما قسّم محمد فىء حُنَيْن ورأى الأنصار كيف تألف النبى أبناء مكة وكيف أجزل لهم العطاء ، ظنوا أنه سيقيم بينهم وقال بعضهم لبعض : لقى والله رسول الله قومه . فكان مما تحدث به إليهم حين بلغته قالتهم : « ألا تَرْضَوْنَ يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ! » . ومن قبل جنح الرسول إلى السلم عام الحديبية لم يَثْنِه عنه تحرش أوشابِ مكة بالمسلمين ولا غضب أصحابه من تجهز أهل مكة لقتالهم .

أما المدينة فبقيت بعد الفتح كما كانت قبله ، مدينة الجهاد . منها وجّه النبى قواده بعد الفتح إلى ناحية الروم فى غزوة تَبُوك ، ومنها جهز جيش أسامة ابن زيد كى يأخذ بثأر أبيه من قتل الروم إياه فى غزوة مُؤْتة ، ومنها كان

قد جهز قواده قبل الفتح فى بَدْر وأحُد وقُرَيْظة وخَيْبَر حتى ضم العرب جميعًا فى دين واحد وتحت لواء واحد ، أما مكة فبقيت حرامًا كما كانت منذ أقيمت قواعدها لم يُسْفَك فيها دم ولم يُعْضَد فيها شجر وبقى شعار الذين يدخلونها ويؤدون التحية لبيت الله فيها : « ربنا منك السلام وإليك السلام حيِّنا ربنا بالسلام » .

أدت بى هذه الموازنة بين البلدين وما أفاء الله على كل منهما من حظ إلى التفكير فى الإسلام ، أدين سلام هو أم دين جهاد ؟ وأعانني على التفكير ونحن على أبواب المدينة أنا وقفنا ننتظر « البكس » حتى لا يقفه الموكلون بأسوار المدينة عند بابها . فللمدينة ، فيما ذكر لى أصحابى ، سور وأبواب ، ولا يتخطى أحد إليها إلا أن يُبرز جواز مروره لحراس أبوابها . وأدى بى تفكيرى فى هذه السويعة إلى أن الإسلام دين سلام فى بدئه وغايته ، وأنه مع ذلك دين جهاد متصل فى سبيل السلام . فقد نزل الوحى الأول فى بلد السلام على غار حراء ، وقد أكمل الله للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته فى بلد السلام بعد حجة الوداع . وكانت الدعوة إلى هذا الدين عن طريق الجهاد السلمى فى بلد السلام حتى الهجرة . فلما لم يجب أهل مكة داعى السلام ، وأعرض عنه رجال القبائل الذين يجيئون حاجين بيتها ، هاجر النبى إلى يثرب جهاداً فى سبيل السلام . وكانت خطته أن يدعو إلى السلام وأن يذود عن حياضه من يريدون أن يصرفوا الناس عنه، وإن اقتضى ذيادة نضالهم وقتالهم. ومن ثم كان ما حدث من مَغَاز وسرايا أثناء مقام الرسول بيثرب جهاداً فى سبيل السلام لا يبلغ غايته حتى يظل الناس كافة بلوائه . فإذا آمنوا أصبحوا إخوة وتحابوا بنور الله بينهم وبلغوا بالإنسانية الكمال الذى تنشده . وهذا الكمال هو الإيمان عن علم بالله جل شأنه ، والبلوغ عن طريق العلم إلى معرفة سنته فى الكون. فهذه المعرفة هى التى تزيد الإيمان تثبيتًا وتجعل طريق الإيمان ضياء ونوراً .

الإسلام إذاً هو الجهاد فى سبيل السلام : سلام الروح للفرد من طريق

الرضا عن علم ، وللجماعة من طريق التحاب فى الله وبنور الله ، وللإنسانية كلها من طريق الأخوة التى تدعو المرء ليحب لأخيه ما يحب لنفسه. ذلك هو الكمال الذى يدعو الإسلام إليه، وإلى الجهاد فى سبيله . وطريق الجهاد شاق طويل لمن يظنون الحياة تبدأ بميلادهم وتنتهى بموتهم ، وجيز هيّن لمن يبتغون الدار الآخرة دار السلام والرضا ، ويرون للإنسانية كلها من الوحدة فى حياتها ما للفرد من الوحدة فى حياته . أولاء يرون فى الجهاد ما يرون فى السعى والعمل من عبادة لله وتقوى إياه يُثاب العامل عليها ويجزى الجزاء الأوفى .

الإسلام جهاد فى سبيل السلام. وجهادُ المرء نفسَه لينعم روحه بالسلام ليس دون جهاد الجماعة من يحاول العدوان عليها والحد من حريتها فى سعيها وعملها . فحياة الفرد موجز كامل من حياة الجماعة ومن حياة الإنسانية . والسعيد من لم تخدعه المسرة العاجلة ولم تحل بينه وبين إشراق الروح بالمسرة الدائمة وضياء القلب بالمعرفة فى أكمل صورها . والجماعة السعيدة من عرفت طريق الحق والعدل المجرد من الهوى ، ولم تخدعها المذاهب الزائفة ، ولم تدفعها إلى طريق البطش الغَرور الذى يجعل الحياة نضالا على مُتعِ العيش ولذاذاته ، والذى يسخِّر الجيوش ويجند الجنود ليسلب القوى طعام صاحب الحق فى هذا الطعام .

تجلى لى وأنا عند هذا الموضع من تفكيرى ما كان من جهاد الرسول بمكة ومن جهاده بالمدينة . إذ ذاك ادّكرت ما يعقده قوم من الموازنة بين هذا الجهاد وذاك ، ومن تفضيل أحدهما على الآخر ، وادّكرت ما ترويه كتب السيرة عن عهد مكة ومبلغه من الإيجاز بالقياس إلى ما ترويه عن عهد المدينة . وإن جماعة من المستشرقين ليعقدون الموازنة بين الجهادين ، فيُشيدون بجهاد مكة ويرونه دعوة خالصة إلى عقيدة أيقن محمد أنها الحق، وآمن فيما بينه وبين نفسه أن الله أمره أن يبلغها الناس ، وهى لذلك دعوة جديرة بالاحترام ، والجهاد فى سبيلها جهاد مبرأ من كل غاية ذاتية ، وفيه لذلك من مظهر السمو الروحى ما هو جدير بالإكبار ؛ ولذلك سما بمحمد فى نظرهم إلى مرتبة العظماء

الذين خلد التاريخ ذكرهم . أما جهاد المدينة فيراه هؤلاء المستشرقون جهاداً فى سبيل السلطان ، دفع إليه الحرص على الانتقام من قريش لأنها أخرجته ومن تبعه من ديارهم ، وأغرى الظفر فيه على الاستئثار بالقيادة والملك ، وقد كان محمد يَعفّ عنه ويتسامى عليه أيام مقامه بمكة . وهذه غاية ينزل الجهاد فى سبيلها منزلة مثله من جهاد ذوى الأطماع من القادة والغزاة . وفوز محمد فى هذا الجهاد بالانتقام من قريش وببلوغ الملك والسلطان فى جزيرة العرب كلها هو الذى أضفى على تاريخه البريق وجعل الإنسانية تشخص إليه إجلالا وإعجاباً . لكن فوزه فى هذا الجهاد المدنى قد ألقى على غايته من دعوته المكية ألواناً من الشبهة ذهبت بالكثير من جلالها وجمالها وهون من مبلغ الإكبار لجهاده الشاق الطويل فى سبيلها .

ربما خدعت هذه الموازنة من تسحرهم الحجة المنمقة عن تنطس الحقيقة وتصرفهم عن الإحاطة بها من كل نواحيها . وهى فى الحق موازنة خادعة ساحرة . ألم يكن محمد بمكة فقيراً ضعيفاً عاجزاً عن دفع الأذى عن نفسه معرضاً أن يغتاله خصوم دعوته لولا حماية أهله من بنى هاشم إياه . وهو لم يهاجر إلى المدينة إلا بعد أن عقد حلفاً بينه وبين الأوس والخزرج أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . فهم بهذا الحلف قد عاهدوه على أن يقاتلوا دونه وأن يكونوا فى قيادته . وبعد أن هاجر وجّه السرايا والغزوات الأولى ليقطع الطريق على قريش إلى الشام، وليغنم وأصحابه ماتَحمِل قريش فى رحلة الصيف من أموال وتجارة . وغزوة بدر التى أشاد القرآن بها وببلاء المؤمنين فيها ، والتى يعتبرها المسلمون علماً على الجهاد فى سبيل الله ، فهم لذلك يذكرونها ويملأون مواضغهم فخراً بآثارها، إنما تَحرك محمد وأصحابه إليها ليأخذوا على أبى سفيان طريقه من الشام إلى مكة ولينهبوا تجارته . ولم يُخفِ محمد ذلك إذ ندب المسلمين حين بلغه عود أبى سفيان من الشام وقال لهم : « هذه عِيرُ قريش فاخرجوا إليها لعل الله يُنَفِّلُكموها » . وما حدث بعد ذلك فى أحد وفى الخندق وما كان من إجلاء اليهود عن المدينة تمهيداً لإجلائهم عن بلاد العرب

ذلك كله إنما حدث دفاعاً عن العاصمة التى اتخذها محمد مقرًّا لملكه . وفتح مكة وغزاة حُنَيْن وحصار الطائف ، إنما حدثت بعد أن استقرّ لمحمد الأمر واستتب له السلطان . أما ما حدث بعد ذلك وأثناءه من تحطيم الأصنام ومن مداومة الدعوة للدين الجديد فشأن محمد فيه شأن نابليون حين زعم وهو يدوخ البلاد ويفتح الأمصار أنه ينشر مبادئ الثورة الفرنسية ، وشأن الدول المستعمرة اليوم حين تقر النظم القائمة عندها فى البلاد التى تغزوها وتفتحها مستعمرة حاكمة ، زاعمة أنها تقيم الحضارة بين أهل هذه البلاد . فجهاد محمد بعد هجرته إلى المدينة إنما كان جهاد انتقام وغلب ، دفعت إليه العواطف الإنسانية القوية فى هذا الرجل الموهوب ، ولم يكن فى شىء من جهاده بمكة للدعوة إلى حقيقة آمن بها .

كذلك يقول جماعة من المستشرقين حين يوازنون بين الجهادين . وموازنتهم كما ترى خادعة ساحرة ، لكنها خاطئة كاذبة . والحقيقة التى يلمسها من أخلص للتاريخ ولله وجهه أن غاية النبى العربى من جهاديه كانت واحدة . كان بمكة يجاهد للدعوة ، وكان بالمدينة يجاهد لحمايتها والدفاع عنها . ولم يكن له وراء هذا الجهاد بكلتا المدينتين غاية إلا أن يبلّغ رسالة ربه للناس كاملة . ولم يُرد الله أن تشوب هذا الجهاد شائبة . فهو إذ هاجر إلى يثرب بعد بيعتى العقبة إنما هاجر بعد سائر المسلمين إلا من آثر البقاء بمكة . وهو قد نصح للمسلمين أن يهاجروا إلى يثرب كما نصح إلى إخوانهم من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة ، فراراً إلى الله بدينهم حتى يجعل الله لهم فرجًا مما هم فيه . وهو قد اختار الحبشة للهجرة الأولى ، لأن بها ملكًا لا يُظْلَم عنده أحد ، وقد اختار يثرب للهجرة الثانية لأن الإسلام انتشر بين أهلها فآمن به منهم كثيرون كفلوا أن يمنعوا من كان على دينهم أن يناله الأذى أو أن يُفْتَن عن دينه . وقد انتشر الإسلام بيثرب بعد العقبة الأولى حين بايع اليثربيون النبى على : « ألا يشرك أحدهم بالله شيئًا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف ؛ فإن وفى ذلك فله الجنة وإن غشى من

ذلك شيئًا فأمره إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر » . ولما تمت بيعة العقبة الكبرى ، واختار الذين بايعوا النبى من الأوس والخزرج نقباءهم ، قال النبى لهم : « أنتم على قومكم كُفَلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى » . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : « بايعنا على السمع والطاعة، فى عسرنا ويسرنا ومَنْشَطنا ومَكْرِهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » . لم تكن أىّ البيعتين إذًا بيعة حلف على حرب ، بل عهد صدق على نشر الحق والدعوة إليه ، وإن لامهم اللائمون ، أو أذاهم المشركون ، شأنهم فى ذلك شأن من سبقوهم إلى الإسلام من أهل مكة الذين أصلتهم قريش من ألوان العذاب ما تنهدّ له العزائم ، فلم يَلِن لهم عود ، ولم تَهِن منهم عزيمة .

وأراد الله ألا تشوب جهاد المسلمين بيثرب شائبة ؛ فهم لم يخرجوا إلى بدر مقاتلين ؛ وإنما خرجوا ليأخذوا عِير قريش من أبى سفيان جزاء ما فعلت قريش بهم حين أخرجتهم من ديارهم واستصفت أموالهم . وأراد الله أن يفوتهم أبو سفيان وعيره ، وأن تخرج قريش لدفعهم بكل ما لديها من قوة . ولقد كان لهم مندوحة عن قتالها حين لم يبق لهم من وراء هذا القتال مطمع . وفى هذا فكر بعضهم حين رأى المسلمين أقل من قريش عدداً وعُدة . ولو أنهم عادوا إلى المدينة لما كان عليهم جُناح وهم لم يخرجوا إلى قتال كما خرجت قريش ولم يأخذوا للحرب عُدتها . أما وقد فاتت الغنيمة فقد وقف الجيشان فى بدر أحدهما إزاء الآخر فى مثل موقف محمد وأصحابه من قريش حينما كانوا بمكة قبل الهجرة . وقفت الدعوة إلى الدين الجديد تواجه الوثنية وأصنامها وحماة هذه الأصنام . وقف الإيمان بالله وحده لا شريك له فى وجه الشرك والأصنام يتخذها عُبّادها إلى الله زُلْفَى وعباد الأصنام يومئذ أكثر عدداً وأعز نفراً أفيغلب الإيمان الشرك ، أم يغلب الشرك الإيمان ؟ هذه كانت المسألة يوم بدر . لم تبق عير ولم يبق مطمع فى غنيمة ، وإنما يلتقى الإيمان والكفر يقتتلان ، يريد الكفر العتيق أن يسحق الإيمان الناشئ بقوة عدده ، ويرجو الإيمان الناشئ أن يدفع

بغى الكفر بقوة بأسه وسموه بالنفس فوق دنيا الحياة . والعشرون الصابرون من المؤمنين يغلبون مائتين من خصومهم ، والمائة المؤمنون يغلبون ألفًا . وكذلك تم الغَلَبُ للمؤمنين .

ويحاول الشرك من بعد ذلك أن يحطّم الإيمان فى أحُد ، وأن يقضى على المسلمين بالحصار فى غزوة الخندق ؛ والإيمان أثناء ذلك ينتشر وكلمة الله تعلو . ويحاول الشرك أن يصد الإيمان فى الحديبية ، وأن يحول دون دخول المسلمين مكة ، فلا يرضى الرسول أن يقتحم الحرم ويؤثر أن ينتظر عامًا فيدخلها المسلمون آمنين . وتبقى مكة حرمًا للسلام . ويزداد الإيمان قوة ويسير جيشه لفتح مكة ، فلا يرضى الرسول أن تهدر حرمتها ، ويفتحها الله عليه ولا يراق دم ولا تزهق فى حرب نفس ويعفو الرسول عن خصومه جميعًا . فلما استتب للدين الجديد الأمر وآمن الناس جميعًا برسالة محمد ، لم يغيِّر محمد من حياته ولم يعرف الملك وسلطانه ، بل ترك الأمر كما كان فى شبه الجزيرة : ترك كل أمير على إمارته ، وكل رئيس على رياسته ما آمن بالله وبرسالته على لسان نبيه ورسوله .

أين هذا كله مما يقوله أولئك المستشرقون ! وهم قوم أوتوا نصيبًا من العلم وفى مقدورهم أن يميزوا الخبيث من الطيب والحق من الباطل ؛ فما لهم يدعون إلى موازنة كاذبة خاطئة ، كَذِبُها بيِّن وخطؤها صُراح ! إنا لا نحسبهم نقموا من محمد أن يؤمن بالله العزيز الحميد ؛ لكنهم إذ يلتمسون أسرار الكون والحياة يلتمسونها فى الأحياء الدنيا وفيما ألِف الناس من طبقات الإنسانية ، وهم يريدون أن تخضع القوى العليا لسنن هذه الكائنات ، فهم لذلك يخطئون إن حسنت نيتهم ، ويكذبون إن ساءت هذه النية .

أما وهذا مبلغ الخطأ فى تلك الموازنة فمن عجب أن تكون بعض كتب السيرة مثارها . فقد ألِف قوم أن يجعلوا من مغازى الرسول بعد الهجرة موضع عنايتهم كلها ، وأن يظهروه صلى الله عليه وسلم مظهر القائد الذى يستنفره الظفر فى القتال إلى ابتغاء ظفر مثله ، يريد بذلك أن يخضع الناس لجبروته رهبة له .

ولا شيء من ذلك البتة فى مغازى الرسول وسراياه . فمن قبل بدر كانت المناوشات مقصوداً بها إلى إقناع قريش ليرعووا عن غيهم ويكفّوا عن الأذى ؛ وكانت بدر ما رأيت . ومن بعد بدر وقف المسلمون موقف المدافع عن بيضتهم ، وعن عقيدتهم وعن حرية الدعوة إليها . وكلما كانت لهم القوة وتم لهم الغلب جنح الرسول إلى السلم والعفو ، وترك للناس أمور الحكم والسلطان فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، جاعلا كل همه إلى بث تعاليمه السامية ، وإلى أن يكون للناس الأسوة والمثل .

وإنما دعا بعض كتّاب السيرة إلى الإفاضة فى المغازى والحديث عنها أن انتشرت جيوش المسلمين وامتد فتحهم بعد الرسول إلى حيث تضاءلت الإمبراطوريتان الفارسية والرومية صاحبتا الحضارة إذ ذاك ؛ وكان سلطانهما قائماً على الغزو والفتح للاستعمار لا للحضارة ، على نحو ما يحدث فى عالمنا الحاضر . وقد أراد هؤلاء الكتّاب أن يقرنوا الفتوح الإسلامية إلى عمل الرسول فى نشر الدعوة . هذا إلى أن المؤرخين قد ألِفوا إلى عهود ليست بالبعيدة ألا يذكروا من جهاد الإنسانية إلا ما أريقت فيه الدماء أثناء الحروب والثورات ابتغاء الحكم والغلب . أما الجهاد السلمى العظيم المتصل ، والذى قطعت به الإنسانية ما قطعت من الخطى نحو الكمال ، فذلك ما لم يألفه التاريخ ولا المؤرخون . من ثم رأيناهم يقولون : « إن الأمة السعيدة لا تاريخ لها » . فكأنما تاريخ الإنسانية قصة بأسائها وشقوتها ، وكأن ما قام به الأنبياء والمرسلون والعلماء وأرباب الفن والمكتشفون والمخترعون ، وما مكنوا به من صلة الإنسان بالكون واجتلائه سننه وأسراره ، غير جدير بأن يكون فصلا من تاريخ الإنسانية . وهذا هو الخطأ البالغ والضلال المبين . فالحروب ليست إلا نزوات طيش ، أو جهاداً لمغالبة نزوات الطيش ، أو مصرفاً لما فضل عن جهاد الإنسانية لا تستطيع هضمه . أما الحق الذى يجب أن نعرفه وأن نعلّمه أبناءنا وإخواننا ، فذلك أن الجهاد الحق فى سبيل الكمال هو الدأب فى ظلال السلم لمعرفة الحق والإيمان به . والحق هو ما دعا محمد إليه مخاطباً العقل والقلب ،

دافعاً كل وهم يحول دون إدراك العقل والقلب لهذا الحق الذى دعا إليه بأمر ربه بالحجة البالغة والمجادلة بالتى هى أحسن .

مرت هذه الخواطر بنفسى فى مثل لمح البصر ونحن بموقفنا ننتظر البكس ، وكان حسن واقفاً إذ ذاك إلى جانب السيارة ؛ فلما سمع ضجة البكس فى سيره استوى إلى مقعده ودفع السيارة على هون إلى ناحية باب العَنْبرية من أبواب المدينة . ما العَنْبَرية هذه ؟ لا أدرى ! ولكن كذلك قالوا . وتبدت أمامنا القبة الخضراء حين استدرنا كرة أخرى وبدت مبانى المدينة تنكشف كلها . هذا بناء منها بالغ من الجمال حتى لتحسبه من مبانى القاهرة أو بعض المدن الجديدة . وسألت صاحبى عنه فقال : « هذه (الأستاسيون) القديمة » . فهمت إذاً السبب فى جمال بنائها . فهى المحطة الكبرى لسكة الحجاز الحديدية فى بلاد العرب . وقد تعطلت سكة الحجاز الحديدية أثناء الحرب الكبرى وبقيت محطة المدينة أمامها السكة الحديدية تنتظر يوماً تعود فيه إليها الحركة والحياة .

والسيارة تتقدم ومنازل المدينة وطرقها تبدو أمام النظر . فأما هذا الخلاء الفسيح أمامنا فتلك المُنَاخة . وأما ما بينها وبين محطة السكة الحديدية فجبال ومساجد وهضاب حاولت أن أعرف شيئاً من أمرها فاعتذر صاحبى عن ذلك بأنها جميعاً أثرية يجب أن تُزار ، ويجب أن نقف عندها ، وأن يتحدث لى هو أو يتحدث لى العارفون عنها . قلت أين أحُدٌ إذاً وأين سَلْعٌ ؟ قال : هما فى الناحية الأخرى من المدينة ، وستراهما غداً أو بعد غد ؛ وسترى أثر الخندق وما شئت من آثار خالدة يذكرها المسلمون ويزورونها للتبرك بها . وهذه الهضاب والمساجد القائمة عليها والعيون المجاورة لها ثابتة فى بطون الكتب القديمة ثبوتاً يجعلها أصدق نبأ عما تحدّث عنه مساجد مكة ، وأحسبها لذلك ستثير من عنايتك بها أكثر مما أثارت مساجد مكة .

وبلغنا باب العنبرية فاستوقفنا حرّاسه . وباب العنبرية بالمدينة كباب النصر بالقاهرة وباب الساهرة بالقدس وأمثالها من الأبواب التى كانت تحيط

بالمدن فى عصور خلت ، والتى كانت تجعل منها حصونًا منيعة تصد المغير عليها دون اقتحامها ، وهى لذلك قد بنيت من حجر متين بناء محكمًا ، وقامت فوق جدرها السميكة عقود من الحجر تبعث إلى النفس المهابة وإلى القلب الرهبة . ولما عرف الحراس أمرنا بادلونا أحسن التحيات وأخبرونا أن مضيفنا قد أقام بنفسه ينتظرنا ، وأنه طلب إليهم أن يرشدوا السائق إلى داره . وابتسم السائق حسن وذكر أنه يعرف الدار خير معرفة . ومن ذا الذى لا يعرف دار الْخرِيجى بالمدينة أكبر تاجر وأعظم سَرِىٍّ فيها وصهر وزير المالية ! وانبعث حسن بعد أن تخطى العنبرية فى طريق فسيح حتى بلغ بيتًا حديث البناء ووقف قبالته وقال : هذه دار الْخريجى الجديدة ، لكن بناءها لم يتم بعد . واستأنف سيره فمر بميدان أو ما يشبه الميدان ، ثم استدار فى طريق ضيق أدى به إلى زقاق أشد ضيقًا ، تنفس عن رحبة ليست بالفسيحة ، ولكنها تبدو كذلك بالقياس إلى ما يتفرع عنها من الأزقة ؛ هنالك وقفت العربة ووقف البكس ونزلنا . وكأنما شعر أصحاب الدار بوقوفنا فخرجوا إلينا واستقبلونا بأجمل التحية .

عَجَبٌ أمر السفر فى هذه البلاد الإسلامية المقدسة . إن لنا الآن لستًّا وأربعين ساعة مذ غادرنا مكة لم نذق أثناءها للراحة طعمًا . بلغنا جدة أمسية الاثنين ولم أنم بها خمس ساعات . وقضينا طيلة يوم الثلاثاء بين جدة وآبار بنى حصان . ولم نقض ؛ (أوتيل آبار بنى حصان) سوى ثلاث ساعات كان المبيت بالعراء خيراً منها . وها نحن أولاء نبلغ المدينة والعصر وشيك أن يؤذن أو لعله قد أذن المؤذن به . مع ذلك أرانى جم النشاط أود لو أخرج لِتَوّى لزيارة المسجد النبوى والحجرة النبوية فأؤدى بذلك تحية المسلم إلى مقام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

وأفضيت إلى مضيفى برغبتى . قال : بل استرح قليلا وأزل عنك غبار السفر ، فإذا تناولنا الطعام خرجنا للزيارة . قلت : ما بى الآن إلى الطعام حاجة وأؤثر أن أتناوله بعد صلاة العشاء . وصعدت مع ابن المضيف الكريم إلى الطابق

الأول حيث غُرفنا ومتاعنا ؛ هنالك أقمت ريثما اطمأننت إلى دار المقام وتوضأت وأخذت أهبتى للزيارة . ونزلت ونحن من صلاة المغرب على نحو نصف الساعة ، وقمت مع مضيفى فسرنا فى زقاق ضيق استدرنا منه إلى آخر وإلى طريق أكثر سعة ينتهى بعقد من البناء فوقه . وهبطنا درجة واستدرنا إلى اليمين فإذا بنا نستقبل باب السلام من أبواب المسجد .

وسرنا نحو الباب نقطع بضعة الأمتار التى بيننا وبينه . وسرنا فى زحمة جمع جاء يؤم المسجد لصلاة المغرب يريد أن يقضى فيه الفرض والسنة ويجلس فى الروضة النبوية ليثاب عن صلاته أضعاف ما يثاب عنها فى سائر أنحاء المسجد . كذلك عرفت مذ كنت بمكة ، وكذلك ذكر أصحابى وأنا بمصر قبل أن أسافر إلى الحجاز ، وبذلك تجرى روايات كثيرة . أنا إذاً على خطوات من الروضة النبوية ، ومن الحجرة النبوية . وفى هنيهة سأتخطى باب السلام فأكون فى حماها وحرمها .

يا لجلال الموقف ! أخذت به قبل أن أبلغه وأن أقف فيه . . وبلغ من شغلى به أن لم أعْنَ بما حولى ؛ بل أطرقت إلى الأرض وغاب عنى كل شىء إلا ما أنا مقبل عليه . لقد حاولت وأنا بمكة أن أعرف أين ولد الرسول وأين مقامه فلم أجد لشىء من ذلك أثراً ثابتاً . فلما وقفت أمام الغار فى قمة حراء حيث نزل عليه الوحى ، ولما أويت إلى غار ثور حيث اختفى من قريش عند هجرته ، اهتز كل وجودى ورأيت من أمرى عجباً . ترى ما عسى أن يكون من أمرى ساعة أقف أمام الحجرة ، وحين أقف فى الروضة أصلى حيث خطب الرسول وحيث صلى بالمسلمين الأولين ؟ ! هأنذا سأرى ولم يبق بينى وبين أن أراه غير لحظة .

الكتاب الخامس

مدينة الرسول

فى المسجد النبوى

تخطّيت باب السلام أتبع مضيفى وفى ذهنى من هذا المسجد النبوى صورة خيّلها فيه ما اطلعت عليه من كتب الرحلات إلى الحجاز وما فى هذه الكتب من أوصاف وصور شمسية . وتخطيت باب السلام وكلى التّوْقُ للوقوف أمام الحجرة النبوية والسلام على صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام . وكنت أحسب بعد الذى رأيته بمكة والطائف وطريق المدينة من آثار أننى ألفت هذه الآثار ، فلم يبق منها ما أخشى النظر إليه بعين الباحث ، لا أستثنى من ذلك إلا قبره الكريم حين أقف أمامه . لذلك أقمت داخل الباب أنتظر « المزوِّر » الذى أومأ مضيفى إلىّ بانتظاره ، وأكاد أحسب أنى لن أرى فى طريقى إلى الحجرة النبوية إلا ما أعرف . لكننى ما لبثت حين تقدمت فى المسجد خطوات فاشتملنى شَفَقُه الرهيب أن نسيت ما كان ماثلا فى ذهنى من صور المسجد والحجرة مما اطلعت عليه فى الكتب أو سمعته من حديث من سبقونى إلى هذا المكان ؛ فما كان من ذلك فى نفسى إنما كان صورة وعاها خيالى ؛ وهأنذا الآن أواجه الحقيقة ذاتها . أشهدها بعينى وألمسها بجوارحى . وما عسى أن تغنى الصورة عن الحقيقة أو يغنى الخيال عن الحس ! انجابت الصورة وانجاب الخيال وسرت أتبع مزورى نحو الحجرة ، مأخوذاً بما حولى ، منصرفًا مع ذلك عن كل ما حولى . امتدت عن يسارى غابة من العمد الضخمة البديعة الصّقل ، وهبط من نوافذ المسجد الرفيعة فى جداره القائم عن يمينى ضوء مبهم لم يحجب الأشعة المنبعثة من مصابيح الكهرباء منبسطة على السجاجيد الثمينة التى نسير عليها . مع ذلك لم يشخص بصرى إلى العمد ولا ارتفع إلى النوافذ ولا استقر على السجاجيد ، بل سرت مندفعًا أمامى كاسر الطرف خشوعًا ورهبة ، ممتلئ القلب من سيرة الرسول الكريم ؛ تتواتر فى نفسى دراكًا مواقف العظمة والجلال مذ بعثه الله نبيًّا حتى اختار الرفيق الأعلى . ثم تقف

النفس عند هذا المكان الذى أخطو فيه والذى خطا صلى الله عليه وسلم فيه سِنِى مُقامه بالمدينة ، والذى شهد من أمر الله ووحيه إلى نبيه ورسوله ، ومن وقوف المسلمين الأولين حافّين من حوله ، ما جعلنى أنسى كل شىء إلا هذه المواقف التى غيرت وجه العالم بعظمتها وجلالها ، وبفضل الله ومشيئته ، وبإيمان المسلمين الأولين بالله وبرسول الله .

وبلغنا الحجرة النبوية ، ووقف مزوّرى واستوقفنى قبالة قبر الرسول الشريف . فلما اطمأننت مكانى إزاء المقصورة الجميلة أشار إلى فتحة فيها هى شبّاكها ، ثم تلا وتلوت من بعده : « السلامُ عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . نشهد أن نبى الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفّى بوعده ، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » . ثم تحركنا خطوة صغيرة وقفنا بها من المقصورة إزاء قبر الصدّيق أبى بكر وسلّمنا عليه ، وتحركنا خطوة صغيرة أخرى وقفنا بها إزاء قبر الفاروق عمر ابن الخطاب وسلمنا عليه ، ثم تلونا الفاتحة .

أقمت مكانى هنيهة شاخصًا إلى هذه الحجرة ، مأخوذ الذهن عن التفكير ، متجهًا بقلبى إلى هذا الدليل الذى يتلو أمامى ما يقتضى الموقف تلاوته ، حذراً أن يفوتنى منه شىء ، وكأننى فى حضرة ملك أؤدى مراسم الإجلال والإكبار . كلا . بل كان الموقف أكبر من حضرة ملك ؛ فقد لقيت ملوكًا وتحدثت إليهم ، ولقيت بعضهم وما أزال فى صدر الشباب ، فلم أجد للقيام مثل هذه المهابة ولا امتلأت نفسى أمامهم بشىء من هذا الإكبار . ووقفت أمام قبور لملوك وفراعين وأباطرة وعظماء فلم أشعر بشىء من الجلال الروحى الذى أخذ على تفكيرى المسالك وأنا فى هذا الموقف . وأشهد لقد كنت فى حيرة ما أصنع . وإنما أنقذنى من هذه الحيرة أن دعانى المزوِّر لأذهب إلى الروضة النبوية فأؤدى بالصلاة فيها تحية الحرم وأصلى فيها وراء الإمام فريضة المغرب . وتقدمنى مضيفى عائداً نحو باب السلام ؛ فكان جدار المسجد الذى به محراب القبلة إلى يسارى ، وكان إلى يمينى حاجز يرتفع إلى ما فوق قامة الرجل صُنع من أعواد صفر لعلها

من النحاس أو من حديد طُلى بلون النحاس ، واتصل بينها شبك من لونها . وهذا الحاجز يقوم على حدود الرواق الجنوبى الذى نسير فيه فيفصله عن الروضة النبوية ، ويمتد على طول الطريق من الحجرة إلى مقربة من باب السلام . على أنا لم نكد نتوسط هذا الطريق حتّى دخلنا الروضة من باب فى الحاجز لم تُعطِنى الفرصة على الوقوف عنده وإنعام النظر فى صنعه ، فقد ألفيتُنى وسط جمع زاخر جلس فى صفوف متراصة ليس بينها مكان لواقف . أأتخطى هذه الصفوف لعلّى أجد لى فيما وراءها مكانًا ! وهممت أن أفعل لولا أن أومأ إلىّ مُضيفى فوقفت ، وأسرّ حديثًا إلى رجل من خدم المسجد فأرشدنى الرجل إلى مكان أقف به فى الصف الأول من الروضة إلى جوار منبر لم أشك أنه منبر الرسول . وهمّ يناولنى كتابًا فى يده ، فألفانى أسرعت إلى إقامة الصلاة تحية للحرم وللروضة وسلامًا على صاحبها عليه السلام . فلما فرغت من الصلاة مد إلىّ يده بالكتاب ، وفتحه فإذا هو مصحف مخطوط مذهب جميل . والتفتُّ فرأيت فى يد جارى اليمين كتابًا صغير الحجم أدركت أنه دلائل الخيرات ، لأننى عرفت من قبل أن بعضهم يتلوها حينًا ويتلو فى المصحف حينًا آخر كلما جاء إلى الروضة . ومددت البصر إلى اليمين فوقع على مقعد فوقه عدد عظيم من المصاحف والدلائل ، وإلى جانبه كراسى من الخشب يستعين بها بعضهم فيجعل عليها المصاحف أو الدلائل أثناء التلاوة فيها . وتستند المصاحف والدلائل الموضوعة فوق المقعد إلى المنبر النبوى الذى تنتهى الروضة بعده . ولم أحاول التحديق فى المنبر تحديق الفاحص ، لأن حالى النفسية فى هذه اللحظة لم تكن حال فحص أو تحقيق ، بل كانت حال عبادة وتهجد وتوجه خالص إلى الله .

ونادى المؤذن لصلاة المغرب ، فانتظم الناس صفوفًا فى الروضة وفيما أمام الروضة من الرواق الذى به المحراب العثمانى وفيما وراء الروضة لا ريب . وصلينا مع الإمام ركعات المغرب ثم صلى السنّة من شاء ، وأقمت بعد ذلك وبى إلى أن

أطيل المقام بالروضة هوًى ألح بى أن أبقى إلى صلاة العشاء لعلى أجد فى هذه الفترة فرصة التأمل فيما حولى وتدبُّره . لكن مضيفى أقبل نحوى ودعانى فتبعته خلال الروضة نحو باب السلام ؛ على أنه انفتل قُبَيْلَه متجهًا إلى داخل المسجد مجاوراً الجدار الغربى ، فلم تخامرنى الريبة فى حرصه على المرور بى فى أنحاء المسجد كله لأحيط به فى نظرة إحاطة عامة . ووقف عند مكان من الجدار كأنه الباب عليه إطار وكتابة وقال : « هذه خوخة أبى بكر » ، وذكر معى ونحن نتلو الكتابة ونُعْجب بخطها الجميل ما كان لدور الصحابة على عهد النبى من أبواب تفتح على المسجد حتى أمر رسول الله بسدها وقال : « لا يبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر » ؛ فسُدت وبقيت هذه الخوخة التى وقف مضيفى أمامها وقرأ معى هذا الحديث الذى كتب على بابها . على أنه لم يلبث أن قال : « إن هذه الخوخة لا تقع حيث كانت خوخة أبى بكر على عهد الرسول عليه السلام ؛ فقد وسِّع المسجد مرات بعد ذلك ورد هذا الجدار الغربى إلى حيث هو الآن بعد أن كان هناك عند ذلك العمود الذى يحدد مسجد النبى » . وبعد أن أشار إلى عمود عليه إطار مذكور فيه أنه حد المسجد النبوى أضاف : « والخوخة الآن تقابل موضعها الأول تماماً » .

وعدنا نسير بعد الخوخة حتى بلغنا باب الرحمة الواقع فى الجدار الغربى كباب السلام . فلما رأيت مضيفى اتجه إليه لنغادر المسجد رميت ببصرى لعلى أحيط بالمسجد فى نظرة ، فإذا الناس حولى فى زحمة الخروج يدفعوننى نحو الباب ولا يجعلون لى إلى الإحاطة بالمسجد سبيلا ولا من الخروج بدًّا .

أكثرت من التردد من بعد ذلك على المسجد وأحطت بكثير مما فيه خُبْرا . ولقد أعاننى على ذلك أنى اتصلت منذ نزلت المدينة بالأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب كتاب « آثار المدينة المنورة » وأستاذ الأدب العربى بمدرسة العلوم الشرعية ، كما اتصلت بكثيرين كان لهم فى إرشادى ومعاونتى فضل أذكره لهم وأشكره أجمل الشكر .

أول ما يلفت النظر في المسجد موقع الحجرة النبوية ؛ فهى لا تتوسطه كما تتوسط الكعبة الحرم المكى ، بل تقع فى ركنه الجنوبى الشرقى على مقربة من باب جبريل . ولم تكن الكعبة تتوسط الحرم المكى إلى عهد الوليد ابن عبد الملك الذى أصر على أن تكون فى وسطه ولو أنفق فى ذلك ما فى خزائن بيت مال المسلمين . ولعله قد حرص على ذلك فى شأن الكعبة ولم يحرص هو ولا حرص غيره عليه فى أمر الحجرة النبوية ؛ لأن الكعبة قبلة المسلمين من نواحيها جميعاً ، إليها يولون وجوههم حيثما كانوا ؛ فمن الحق أن تتساوى جوانب المسجد الذى بنى حولها . أما الحجرة النبوية فلم تدخل المسجد إلا سنة ثمان وثمانين من الهجرة ، وكان للاعتبارات السياسية دخل فى ضمها إليه . وتقوم دور أثرية على مقربة من الحجرة النبوية كدار عثمان ودار أبى أيوب وديار آل عمر ، رئى لاعتبارات سياسية كذلك ألا تضم إلى المسجد . ويقع باب جبريل فى الجدار الشرقى للمسجد فى موضع ينحدر إلى الشمال بعض الشيء عن مكان الحجرة ، ومكانه متوسط بين باب السلام وباب الرحمة فى الجدار الغربى . ويقع بعد باب جبريل باب النساء فى الجدار نفسه ، وتقع فيما بينهما دكّة الأغوات . وباب النساء فى هذا الجدار يقابل باب الرحمة فى الجدار الغربى . وعلى الخط الموصل إلى هذين البابين أو وراءه قليلا يقع حد المسجد كما أقام النبى بناءه الثانى . وفيما وراء ذلك يمتد المسجد فى مستطيل غير متوازى الأضلاع تزيد مساحته على ضعف مساحة مسجد النبى ويتناول زيادة عمر وزيادة عثمان وزيادة الوليد وزيادة المهدى . وهذا المستطيل مكشوف لا سقف له ، ويسمى الحصوة ، وكان به فيما مضى بعض أشجار من نخيل يطلقون عليها اسم بستان السيدة فاطمة ؛ وبه الآن ساعة زواليّة دقيقة الصنع . وتقوم حول هذا المستطيل المكشوف عمد ضخمة فوقها قباب من طراز عمد المسجد وقبابه تحيط بهاسائر جدران المسجد . وهذا الإطار الذى يحيط بالحصوة تشمل ناحيته الشرقية زيادة الوليد وزيادة المهدى ، وتتناول الناحية الغربية فضلا عن ذلك زيادة عمر وزيادة عثمان . وعمر وعثمان هما اللذان زادا الرواق الممتد من الحجرة إلى باب السلام فيما أمام الروضة .

والزخرف فى عمارة المسجد لا يقاس إليه شىء مما فى الحرم المكى ، وقلّما يضاهيه زخرف فى غيره من مساجد العالم الإسلامى ، سواء فى ذلك زخرف العمارة وزخرف المحاريب ، وزخرف السجاجيد وزخرف الثريات . وما اجتمع بالروضة النبوية من هذا الزخرف يُنسى ما سواه فى سائر أنحاء المسجد . ولا عجب ، فقد تبارى الملوك والسلاطين والأمراء ، فجلبوا إليها من ذلك ما يستهوى اللب وما يزيد الناظر إليها إكباراً وإجلالا . يقول برخارت فى وصفها حين رآها فى سنة ١٨١٥ ما ترجمته[١] : « يجرى حاجز من خشب يبلغ ارتفاعه ثمانى أقدام نقش نقشاً عربياً بديعاً مبتدئاً من أعواد الحجرة الغربية موازياً الجدار الجنوبى على نحو خمس وعشرين قدماً منه ، حتى يبلغ أدنى باب السلام ، ويمتد بذلك من الحجرة إلى عرض المسجد كله تقريباً. وفى هذا الحاجز أبواب عدة ؛ وهو قد أقيم ليفصل بين الروضة والرواق الذى يمر منه الزائرون حين دخولهم من باب السلام متخطين إلى الحجرة خلال العمد القائمة بين هذا الحاجز والجدار الجنوبى . وهذا الجانب الذى تقوم فيه العمد الجنوبية مما يقع شمال الحاجز يعتبر أقدس مكان فى المسجد بعد الحجرة ويسمى الروضة ؛ وهو اسم خلعه عليه محمد لقوله : (بين قبرى ومِنْبَرى روضة من رياض الجنة) . ويقع منبر المسجد على مقربة من هذا الحاجز فى الوسط ما بين الحجرة والجدار الغربى . واسم الروضة مقصور على المكان الذى بين المنبر والحجرة ، وإن غلب اعتبار المكان الذى تقوم به العمد الجنوبية جزءاً منها . ولقد نقشت عمد الروضة بالأزهار إلى ارتفاع خمس أقدام أو ست ليعاون هذا النقش الخيال فلا يعجز عن إدراك الشبه بين هذا المكان ورياض جنة عدن . ويقوم على جانبى المنبر محرابان هما كالمنبر آية فى دقة صناعة التطعيم وبراعة جمالها . وقد أهدى قايتباى أحد المحرابين من مصر إلى المسجد ، وبعث السلطان سليمان بن سليم بالآخر من الآستانة . وأرض الروضة مفروشة بعدد من

---

(١) (Travels in Arabia : Burkhardt) الجزء الثانى صفحة ١٧٤ وما بعدها طبعة هنرى كلبرن بلندن سنة ١٨٢٩ .

السجاجيد الثمينة من صنع الآستانة ، وهى كمثيلاتها بمكة أثمن ما رأيت بالمسجد ، وقد تبلغ قيمتها جميعًا نحو ألف من الجنيهات . ومدخل الروضة من ناحية باب السلام رائع المظهر . فالألوان المختلفة المنبعثة من كل ناحية ، والعمد البراقة الصقل كأنها البلور ، والسجاجيد البديعة ، والرصف الثمين ، والكتابة الذهبية المنقوشة على الحائط الجنوبى ، وتلماع أعواد الحجرة فيما وراء ذلك ، هذا كله يبهر النظر لأول وهلة ، لكنه ما يلبث بعد هنيهة أن يبدو على حقيقته ظاهراً من الزخرف البراق ليس فيه شيء من النفائس الصحيحة » .

ويضيف الحاج عبد الله برخارت : « فإذا ذكرنا أن هذا المكان من أقدس أماكن العالم الإسلامى كله ، وأنه اشتهر بروعته وفخامته ونفاسة حليته ، وأنه زخرف بكل ما اجتمع من هدايا الغُلاة فى هذا الدين ، ازددنا دهشة وعجبًا أن يكون ذلك كل مظهره . فهو لا يقاس إلى مثوى بقية من رُفات قديس ، وإن هان شأنه ، فى أية كنيسة من كنائس أوربا الكاثوليكية . وهو بهذا ينهض دليلا مُقنعاً على أن المسلمين لم يساووا المسيحيين الغُلاة فى هِباتهم الدينية فى أى عهد من العهود . ودع عنك أحوالا كثيرة أخرى تؤيد الاعتقاد أنه مهما يكن من تعصب المسلمين وأوهامهم فإنهم لم يُبدوا قط ميلا للبذل والتضحية المالية من أجل منشآتهم الدينية ، كما يضحى الكاثوليك ، بل كما يضحى المسيحيون البروتستنتيُّون من أجل منشآتهم » .

سقنا هذه الملاحظة الأخيرة للسويسرى المسلم المدفون بالقاهرة لموازنتها بما كتب غيره ممن ولدوا مسلمين . من هؤلاء صاحب الرحلة الحجازية محمد بك لبيب البتانونى الذى رأى الحجاز عام ١٩٠٧ فى صحبة خديو مصر عباس حلمى الثانى . وهو قد تحدث عن الروضة حين حديثه عن المسجد النبوى ، فأشار إلى موضعها من المسجد وإلى أن داربزيناً من النحاس الأصفر يبلغ ارتفاعه نحو متر يفصل بينها وبين زيادتى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، ثم قال : « والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها ، وفيما يلى هذا الدرابزين ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف

الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوار . وفى غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهى آية من آيات الله فى كمال بهجتها ، وجمال صنعها ، وهى على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرّمة . وإلى غرب القبلة المنبر الشريف ، وهو من الرخام المنقوش باللّيقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية فى الجمال ودقة الصناعة ، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثمانى إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع فى مكان المنبر الذى كان به منبر قايتباى ، وهو فى نفس المكان الذى كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ويذكر إبراهيم رفعت باشا فى كتابه « مرآة الحرمين » ما فى الروضة من الأعمدة الجميلة المُفْرَغة ويذكر « نجفة » كبيرة ، ويخص بالذكر نجفتين على أطرافهما تنانير يوقد منها الشمع أهداها إلى المسجد النبوى عباس باشا الأول ، والكبيرة منها معلقة فى السقف القبلى مما يلى الروضة ، كما يذكر أن عبّاسًا هذا أهدى إلى المسجد أربع شجرات على أعمدة من البلور مفرعات بأغصان ماثلة عليها تنانير صافية وضعت بالروضة المطهّرة وما يليها من الغرب فى صف واحد من الأساطين .

ويصف عبد القُدوس الأنصارى اثنتين من هذه الشجيرات الأربع فيقول : وبجانبى المحراب نخلتان صفر ، مثبتتان فى الأرض ، ولكل جذر وجذع وساق وغصون ، وهما مثمرتان وذواتا أكمام . ولكن ثمرهما قطع البلور الصافى ، وأكمامهما المصابيح الزجاجية الملونة » . أما وصف الروضة وما فيها فلم يتناوله صاحب « آثار المدينة المنورة » فى اتساق كما فعل السويسرى برخارت . بل تحدث عن بعض ما فيها فذكر المحراب النبوى وأنه فى شرقى المنبر : « تزينه الآيات المرقومة بماء الذهب . وقطع ملونة من الرخام . وناهيك بجمال العمودين بجوانبه ، فهما من الرخام الأحمر ذى اللون الإثمدى . وفى الجانب الغربى من

المحراب مكتوب : « هذا مصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وشكل بناية هذا المحراب ينبئ على أنه قرين المحراب السليمانى فى تاريخ العمارة . والمحراب السليمانى يقع فى غربى المنبر ، وبظهره كتابة تنبئ أنه بنى سنة ٩٣٨ ﻫ وأن بانيه السلطان سليمان . أمّا المنبر فيقع بين المحرابين ، « وبه اثنتا عشرة درجة ، ثلاث بخارجه وتسع بالداخل ، مصنوع من المرمر ، وظاهره مغمور بالتذهيب وبالنقوش الفائقة ، وفوقه قبة لطيفة قائمة على أربعة أعمدة من المرمر ، وفوق بابه شرفات آية فى الإبداع . وإن لماء الذهب لبريقا حتى لكأن الصانع فرغ من صنعه بالأمس . وتاريخ عمارته وإرساله من قِبَل السلطان مراد هو سنة ٩٩٨ ﻫ . كما تنطق به الأبيات المنقوشة على بابه . وأمام المنبر مقصورة المبلّغين وتسمّى المكبرية ، وبينها وبينه إلى الشمال نحو خمسة أمتار ومنها يقيم المبلّغون الصلوات ، وهى عبارة عن مربّع رُخامى قائم على ثمانية أعمدة رشيقة ، ستة منها محلاة بصِبْغ أحمر عقيقى اللون ، واثنان أبيضان » .

سُقْتُ هذه الأوصاف لما فى الروضة اكتفاء بها عن الوقوف أمام كل أثاث فيها أو زخرف . فهذا الوقوف يقتضى من أراد الإحاطة بجمال الفن فى دقة تفاصيله ساعات طويلة وعلماً مستفيضاً بفنون شتى ، ما لم يكن ممن يكفيهم إبداء الإعجاب بهذا الجمال والبَهْر لمرآه . ثم إنى على كثرة ترددى على المسجد والروضة لم أكن حريصاً على دراسة التفاصيل فى عمارته وزخرفه حرصى على دراسة ما تبعثه الروضة وما يبعثه المسجد كله إلى النفس الإسلامية فى عهدنا الحاضر من أثر فى خشوعها وتعبُّدها . فهذا الرجل الجالس إلى جوار المحراب النبوى ملصقاً نفسه به حتى يكاد يصبح جزءاً منه مخافة أن يزحزح عن مكانه ، مؤمناً أنه يدنو بذلك من رياض جنة الخُلْد ، وهذا الآخر الذى ينفح خادم الحجرة بما ينفحه ليختصَّه بمكان إلى جوار منبر الرسول يجلس فيه كلما جاء إلى الروضة ، وهذه الصفوف الأولى من الجالسين الذين يبدو عليهم أثر النعمة والوجاهة بالقياس إلى الجالسين فى الصفوف التى وراءهم ، هذه المظاهر وأمثالها هى التى عُنيت بملاحظتها ودرسها فى هذا الجانب الأقدس من مسجد النبى

العربى الذى نادى فى الناس بكلمات من ربه: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». «فأينما تولوا فثم وجه الله». ومالى وتفاصيل المنبر والمحاريب والنجف والسجاجيد وما طُعِّمتْ به ومم صُنِعت وأين نُسجت وهى كلها فى نفاسة صنعها ترجمان حالات نفسية فى الروح الإسلامى خلال تطوره على العصور! وما تحاط به اليوم من تقديس، وما تبعثه إلى النفس من أثر فى خشوعها وتهجدها، إنما هو صورة النفس الإسلامية فى طورها الدينى الحاضر. وهذا عندى أجدر بالدرس والعناية من الآثار الفنية لذاتها.

ومما لا ريب فيه أن الأكثرين ممن يجيئون إلى الروضة ويختارون أماكنهم منها يحسبون أنها كانت على الصورة التى يشهدونها منذ برأ الله الأرض ومن عليها، أو أنها كانت كذلك على الأقل منذ عهد النبى عليه الصلاة والسلام، وقلَّ منهم من يفكر فى الأدوار التى مرت بها من حيث العمارة والزخرف. ولا ريب كذلك فى أن لعمارة الروضة ولزخرفها فى نفوس هؤلاء الأكثرين أثراً تعبدياً يتغير إذا تغيرت هذه العمارة وهذا الزخرف، كتغيُّره حين انتقالهم من الروضة إلى المكان المحيط بصحن المسجد مع شدة الشبه بين ما فى هذا المكان وما فى الروضة من عُمُد وما فوق هذه العمد من قباب. ولو أن النفس الإسلامية كانت اليوم كما كانت فى عهد الرسول وخلفائه الأولين صفاءً وطهارة وقوة لما تأثرت فى خشوعها وتهجُّدها وتوجهها إلى الله بمكان، وإن بلغت الذكريات التى يثيرها هذا المكان فيها غاية الطهر والسمو، ولكان الاجتماع بمسجد الرسول أدنى أن يبعث فيها من معانى المحبَّة والقوة والجهاد أسوة بصاحب هذا المكان وأصحابه الأولين ما يزيدها على الحياة قوة، وما يجنُّبُها أن تعبد إلا الله وحده لا شريك له.

يحسب الأكثرون أن الروضة كانت دائماً كما يشهدونها اليوم، أو أنها كانت كذلك منذ عهد النبى عليه الصلاة والسلام. والحق أنها لم تكن إلا فى عصور متأخرة، وأن هذا المسجد النبوى قد مرَّ به من الأدوار التى تمثل التفكير الإسلامى فى تطوُّره أكثر مما مرَّ بالحرم المكى. بل لقد كان

هذا المسجد خاضعًا للتطوُّر السياسي والديني أكثر من الحرم منذ صدر الإسلام وفي عهد الخلفاء الأولين .

فقد كان المكان الذي يقوم المسجد فيه مِربَدًا لغلامين يتيمين في المدينة هما سهل وسهيل ابنا عمرو يوم جاء النبي مهاجراً إليها . والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم انتهى من هجرته إلى قُبَاء على فرسخين من المدينة فأقام بها ومعه أبو بكر أربعة أيام . وفي هذه الأيام الأربعة أسَّس مسجدها . وكان آخر الأيام الأربعة يوم جمعة ، وفيه سار ومعه أبو بكر وعليّ بن أبي طالب حتى دخل المدينة وأهلها في انتظاره يتحرقون شوقًا لمشاهدته . وهناك في المسجد الذي ببطن وادي رانُوناء أقبل عليه مسلمو يثرب وكلهم الإيمان والمحبة الصادقة . وصلى الجمعة معهم ، واعتذر لمن عرض عليه منهم أن يقيم عندهم في العَدد والعُدة والمَنَعَة ، وامتطى ناقته القصواء وألقى لها خِطامها وتركها تسير وأهل المدينة من حولها في حفل حافل . فلما كانت عند مِربْد سهل وسهيل ابني عمرو بركت ، فقال رسول الله : « هذا إن شاء الله المنزل » . وتلا : « اللَّهُم أَنْزِلْنَا مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْت خَيْرُ الْمُنْزِلينَ » ؛ وسأل عن المربد فأجابه مُعاذ بن عَفْراء أنه ليتيمين في رعايته ، وأنه سيرضيهما ، ورجاه أن يتخذه مسجداً ؛ وقبل محمد على أن يدفع ثمنه . وأقام أثناء بناء المسجد في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، وشارك أصحابه في بناء المسجد وعمل فيه بيديه . وبني المسجد يومئذ فناء فسيحًا ؛ جدرانه الأربعة من الآجُرّ والتراب ؛ وسقف جزء منه بالجريد ، وترك الجزء الآخر مكشوفًا ، وخصِّصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لا يملكون مسكنًا .

وقد أورد السمهودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » روايات لا تختلف عن هذه ولكنها تزيدها وضوحًا وتفصيلا . فقد أحاط المسلمون بالناقة في مسيرها حتى وقفت أمام المربد ، وكان يومئذ يصلي فيه جماعة من المسلمين . وكان أبو أمامة سعد بن زرارة ذا آصرة قُربى باليتيمين وكانا في حجره ، وكان قد اتخذ بعض هذا المربد واتخذ أرضًا له متصلة به مسجداً

واتخذ عليه عريشاً . وقد أقام النبي اثني عشر يوماً بعد وصوله إلى المدينة وإقامته بدار أبي أيوب يصلي فيه . ثم إنه سأل سعداً أن يبيعه أرضاً تجاور ذلك المسجد مملوكة لليتيمين سهل وسهيل ليزيد فيه حتى يتسع للمسلمين حين صلاتهم . وكان هذا المربد للتمر يجفف فيه وكان به نخل وغَرْقَد وقبور للجاهلية . فأمر الرسول بالنخل والغرقد فقطعت ، وبالقبور فنُبِشت ، وبعظامها فغيِّبت . وكان به ماء فسيَّره فذهب . فلما تم ذلك بدأ بناءه كأبسط ما يكون البناء باللَّبِن وسَقَّفه بالجريد ، وجعل عُمُده من خشب النخل .

وذكروا أن محمداً لما قدم المدينة قال : « ابنوا لي عريشاً كعريش موسى ثُمامات وخشبات ، وظُلَّة كظلة موسى والأمر أعجل من ذلك » . قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : « كان إذا قام أصاب رأسه السقف » .

وبدءوا يبنون المسجد والرسول يبني معهم ينقل اللَّبِن والبنَّاءون يبنون . لقيه رجل وهو يحمل لبِنَةً فأراد أن يخفف عنه بأن يحملها وقال أعطينيها ؛ فأجابه : « اذهب فخذ غيرها فلست بأفقر إلى الله مني » . وجاء رجل من حَضْرَمَوْتَ يحسن عجن الطين فنحى رسول الله غيره عن هذا العمل وقال للرجل : « الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه ، ورحم الله امرأً أحسن صنعته » . ولما رأى كبار الصحابة إقبال رسول الله على العمل أقبلوا عليه جميعاً ولم يكن لأغنيائهم قبل ذلك بهذا عهد . وكان عليّ بن أبي طالب يعمل ويرتجز :

لا يستوي من يَعْمُرُ المساجدا   يَدْأَبُ فيها قائماً وقاعدا
ومن يُرَى عن الغُبَارِ حائدا

وكان عثمان بن عفان على واسع ثروته وعظيم جاهه ، وعلى أنه كان رجلا نظيفاً متنظفاً ، يحمل اللَّبِنة فيجافي بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفض كُمَّه وما يكون قد أصاب ثوبه من التراب . وكان سائر المسلمين يعملون ويرتجزون :

لئن قعدنا والنبي يعملُ   ذاكَ إذًا لَلْعَمَلُ المُضَلَّل

وسرعان ما تم بناء المسجد ؛ فقد كان بسيطاً ، جُدُره من اللبن ، وسقفه من الجريد ، وعمده من خشب النخل . وقيل إنهم صنعوا من النخل قبلة له إلى ناحية المسجد الأقصى ، وبقيت كذلك حتى عُدِل بها إلى ناحية الكعبة .

وكان هذا المسجد الأول كافياً على بساطته للغاية التى قصد إليها من بنائه . فقد كان الإسلام كما دعا إليه الرسول دين قوة على الحياة وزهد فيها مع السعى للرزق وجنى ثمراته لكيلا ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا . وكان المسلمون يومئذ يدركون هذه المعانى إدراكاً دقيقاً أن كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة . وأين يكون الزهد فى الحياة الدنيا وزخرفها إذا لم يكن فى مساجد الله ودور عبادته ! ! وكيف يقتل المرء غرور النفس إذا لم يشعر ساعة وقوفه مصلياً بين يدى ربه أنه يتصل بخلق الله لا حائل بينه وبينه ؛ تشرق الشمس ويصفو الهواء ، فينعم من هذا ومن ذاك بفضل الله ، ويقصف الرعد ويهتن المطر ، فيحتمل هذا وذاك ساعة عبادته صابراً شاكراً . لهذا لم يكن فى مسجد النبى شىء من الزخرف ، ولم يكن فيه وقاية من قسوة الجو وانهيار السيل . وكثيراً ما هتَنَت السماء والنبى يصلى فى المسجد والمسلمون من ورائه ، فلم يصدهم هتْنُها ولا صدهم ما بالمسجد من طين عن صلاتهم ؛ بل لقد رئى صلى الله عليه وسلم وبه من طين المسجد أثر كان يسرع بعد الصلاة إلى إزالته وتنظيفه .

وبقى المسجد على هذه الحال وجدرانه من اللبن وسقفه من الجريد وأكثره غير مسقوف وعمده من جذوع النخل ست سنوات تباعاً ، لم يغيِّر منه ما كان من انتشار الإسلام ولا غيَّر منه ازدياد الرخاء بالمدينة وما أفاء الله على أهلها من بسطة الرزق . فلما غزا المسلمون خيبر فى السنة السابعة للهجرة وفتحها الله عليهم كانت المدينة قد أصبحت خالصة للمسلمين وكان أهلها قد ازداد عددهم بمن سكنها ممن هداهم الله للإسلام ، فلم يكن من توسيع رقعة المسجد بدٌّ . عند ذلك زاد النبى فى مساحته مائة متر مربع . فقد كان إلى يومئذ خمساً وثلاثين متراً فى ثلاثين . فجعله النبى مربعاً . وفى رواية أنه جعله خمسين متراً فى

خمسين . لكنه لم يفعل أكثر من ذلك ولم يغيِّر من عمارته باللبن والجريد وجذوع النخل شيئًا . وهذا المنبر الذى صار من بعدُ آية فى الفن وإتقانه على ما رأيت ، والذى يسمى منبر رسول الله لم يفكر النبى حين وسَّع المسجد فى تغييره ولا فى زخرفته . وما حاجته صلى الله عليه وسلم إلى هذا الزخرف المادى وكل دعوته إلى كمال الروح وسموها ودأبها للقربى من بارئها ! وهو لم يتخذ لنفسه منبرًا أول الأمر ؛ وما كان ليتخذه لولا أنه شعر بالحاجة إليه . فقد كان يخطب الناس إلى جذع فى المسجد حتى شعر بأن القيام قد شق عليه . فلما عرف أصحابه ذلك منه ، قال تميم الدارىّ : أنا أعمل لك منبرًا كما رأيت يصنع بالشام . وقال العباس بن عبد المطلب : إن لى غلامًا يقال له كلاب أعمَلُ الناس . قال النبى : مُرْه يعمل . فأرسله العباس إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عملها درجتين ومجلسًا .

وقد جعل النبى للمسجد حين بناه ثلاثة أبواب : باب بالجهة الغربية دعى باب عاتكة وهو باب الرحمة الآن ، وباب بالجهة الشرقية دعى باب آل عثمان وهو باب جبريل الآن ، وباب بالجهة الجنوبية بقى سبعة عشر شهرًا حين كانت قبلة المسجد فى جداره الشمالى لتواجه المسجد الأقصى ؛ فلما تحولت القبلة إلى الكعبة سدّ الباب الجنوبى ووضعت القبلة مكانه ، وفتح فى الجدار الشمالى باب مكان القبلة الأولى .

وبقى بناء المسجد على ذلك حتى اختار النبىّ الرفيق الأعلى. ولم يحدث فى خلافة أبى بكر إلا ما روى من أن سوارى المسجد نخرت فبناها . فلما كان عهد عمر بن الخطاب واطَّردت الزيادة فى عدد المسلمين لم يكن من توسيع المسجد كرة أخرى بدّ . ولقد كان الشعور بضرورة الزيادة واضحًا منذ دانت للإسلام بلاد العرب كلها فى عهد الرسول ، حتى لكان يقول : « ينبغى أن نزيد فى المسجد » . ولقد اعتمد عمر إلى هذا الحديث حين استقر عزمه على الزيادة فكان يقول : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ينبغى أن نزيد فى مسجدنا » ما زدت .

ودعا عمر كل من كان له إلى جوار المسجد دار فقال لهم : اختاروا منّى بين ثلاث خصال : إما البيع فأثـمـّن ، وإما الهدية فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله ؛ فأجاب الناس . وكان للعباس بن عبد المطلب دار عن يمين المسجد ، فلما خيـّره عمر بين هذه الخصال الثلاث رفض أن يجيبه إلى شىء منها . قال عمر : إذاً أهدمها . قال العباس : مالـَك ذلك . فاحتكما إلى أبىّ بن كعب وانطلقا إليه فقصا عليه القصة ؛ فقال لهما : إن شئتما حدثتكما بحديث عن رسول الله ، وذكر أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتاً أذكر فيه فخطّ داود خـُطة بيت المقدس ، فإذا تربيعها ببيت رجل من بنى إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إيـّاها فأبى ، فحدثت داود نفسـُه أن يأخذها ؛ فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتاً أذكـَرُ فيه فأردتَ أن تدخل فى بيتى الغضب وليس من شأنى الغضب . إن عقوبتك ألا تبنيه . قال : يا رب فـمِنْ ولدى ؟ قال : فمن ولدك ، وبناه سليمان بن داود » . فلما سمع عمر حديث أبىّ أخذ بمجامعه وسار به حتى دخل المسجد فوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله فناشد أبىّ الحاضرين أن يذكر منهم من سمع هذا الحديث فشهد بعضهم أنه سمعه ، فأرسل عمر أبيـّاً ؛ فالتفت إليه وقال : يا عمر ! أتتـّهمنى على حديث رسول الله ! قال عمر : والله يا أبا المنذر ما اتهمتك ولكنى أردت أن يكون الحديث عن رسول الله ظاهراً . وقال للعباس : اذهب فلا أعرض لك فى دارك . قال العباس : أما إذ قلت فإنى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم فى مسجدهم ، فأما وأنت تخاصمنى فلا . وبنى له عمر داراً بدلها من بيت مال المسلمين .

بدأ عمر توسيع المسجد فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الجنوبية ونقل القبلة إليها ، وزاد نحو ذلك من الناحية الغربية ، وزاد خمسة عشر متراً من الناحية الشمالية . ولم يزد شيئاً من الناحية الشرقية إذ كانت بها بيوت أمهات المؤمنين ، وكن ما يزلن يقمن فيها ، وفى بيت

عائشة منها كان قبرا النبي وأبى بكر . وقد دخلت دار أبى بكر فى هذه الزيادة لوقوعها فى ناحية المسجد الغربية . ويقال : إن هذه الدار خرجت من ملك أبى بكر فى حياته حين احتاج إلى شىء يعطيه بعض من وفد عليه فباعها حفصة بنت عمر أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، وإن جزءاً منها أدخل فى زيادة المسجد أيام عمر وأدخل جزء منها فى زيادة عثمان .

لم يُحْدث عمر حين أنشأ هذه الزيادة فى عمارة المسجد أكثر من أنه زاد فى رقعته وزاد فى عدد أبوابه . فقد بنى الجدر كما بناها رسول الله من قبله . جعل الأساس من الحجارة ، وما فوقه من اللَّبِن ، والعمد من الخشب ، والسقف من الجريد ؛ وجعل للمسجد ستة أبواب : اثنين منها فى الجهة الغربية يحاذيان باب الرحمة وباب السلام الحاليين ، واثنين فى الجهة الشرقية يحاذيان باب جبريل وباب النساء ، وبابين فى الجهة الشمالية غُيِّرا من بعد فى الزيادات التى حدثت .

لم يكن بناء عمر المسجد على هذا النحو حرصاً منه على احتذاء سنة الرسول فى العمارة وكفى ، بل كان كذلك لأن الفكرة فى فن العمارة عند هؤلاء العرب الصميميين كانت مستمدة من الحاجة أكثر مما كانت مستمدة من المتانة أو الزخرف . وحاجة هؤلاء المسلمين الأولين كانت إلى سعة المسجد كى يجمعهم للصلاة؛ فلم يكن يدور بخَلَد عمر أمرٌ وراء ذلك . هذا ، ثم إن الصلاة عندهم كانت توجُّهاً خالصاً إلى الله يطَّهَّرُ الإنسان له بالوضوء ويأخذ زينته عند كل مسجد ، من غير أن يجعل منه وسيلة تأنق أو سبيلا إلى فخر أو كبرياء. لذلك لم يكن الزخرف معروفاً فى العمارة العربية قبل الإسلام ولا فى الصدر الأول منه . كان بناء الكعبة قبل عهد النبي وقبل بعثه أبسط صورة للبناء ؛ وكان مسجد النبي بالمدينة كما كانت مساكنه ومساكن المسلمين جامعة إلى النظافة التقشّفَ ، وإلى الطهر الرغبة عن الحياة الدنيا وباطل غرورها . فإذا كان الفتح الإسلامىّ قد امتد فى عهد عمر وكانت غنائم المسلمين قد ملأت

بيت المال بما سهل معه بناء بيت للعبادة له من الفخامة ما لكنائس الشام فى ذلك العهد ، فما كان الذهن العربى ليتّجه يوم ذاك إلى هذه الناحية ، ولا كان عمر ليبنى المسجد إلا فى هذه الصورة البسيطة البالغة فى تقشّفها والتى جعلها الرسول رمز المودة الجامع للمسلمين فى تحابهم بنور الله بينهم حين قيامهم وركوعهم وسجودهم فى حضرة ذى الجلال والإكرام .

على أن تطوراً حدث يومئذ لا ينبغى أن نُغفله . ذلك أن عمر اتخذ مكاناً إلى جانب المسجد يدعى البُطَيْحاء وقال : « من أراد أن يلغط أو يرفع صوتاً أو يُنشد شعراً فليخرج إليه » . وسبب ذلك أن عمر سمع ناساً من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد فقال لهم : « إنا بنينا هذه المساجد لذكر الله . فإذا ذكرتم تجاراتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع » . وسمع عمر رجلا يرفع الصوت فى المسجد فقال له مغضباً : أتدرى أين أنت ؟ ! كأنه كره الصوت . وتلاحى رجلان فى المسجد فقال عمر : أفى مسجد رسول الله تقولان الهُجر وما لا يصح من القول . . وبينما هو فى المسجد عشاء إذ سمع رجلا يضحك ، فأرسل إليه فقال : من أنت ؟ قال : رجل من ثَقيف من أهل الطائف . فتوعّده قائلا : لو كنت من أهل البلد لنكّلت بك ! إن مسجدنا هذا لا ترفع فيه الأصوات . ومرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد فى المسجد فلحظ إليه ؛ فقال حسان : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . فانصرف عمر وقد عرف أنه يريد النبى . وكان ما قال حسان حقاً . روت عائشة أن رسول الله كان ينصب له منبراً فى المسجد يقوم عليه فيهجو الكفار . وذلك أن رسول الله حين نهى عن تناشد الأشعار فى المساجد لم يَنْهَ عما لا يشغل مَن فيها مما يتصل بالإسلام ويزيد الشعور به قوة . وفى المسجد أنشد كَعْب بن زهَير رسول الله قصيدته : « بانت سعاد » .

هذا التطور الذى أدى بعمر ليأمر من أراد أن يلغط أو يرفع صوتاً أو ينشد شعراً أن يخرج من المسجد إلى البطيحاء يتفق مع روح الإسلام ونص الكتاب وتعاليم الرسول . فإن يكن قد حدث فى عهد الرسول تجاوزُ بإنشاد الشعر ،

فلم يكن ذلك للإباحة وإطلاقها ، وإنما كان استثناء فى أحوال بذاتها . فكعب إنما أنشد « بانت سعاد » يوم جاء مستجيراً بالنبى يُعلن إليه إسلامه . وهجاء حسان الكفّار بقصائده نوع من الجهاد فى سبيل الله جائز فى المساجد. والمسلمون فى عهد النبى كانوا يتحدثون فى غزواتهم وفى شئون خصومهم حين وجودهم بالمسجد فلا يعترض عليهم أحد ، لأنهم يتحدثون فى شئونهم العامة . فلما كثر عددهم تجاوزوا الشئون العامة ، وأراد بعضهم أن يتخذ المسجد مجلساً لأحاديثهم الخاصة فى تجارتهم وشؤون دنياهم : وخشية عمر أن يغلب الحديث فى هذه الشئون الخاصة هى السبب فى أنه أمر من شاء أن يلغط أو يتحدث فى شئونه الخاصة بالخروج إلى البطيحاء .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين من الهجرة كلّمه الناس أن يزيد فى مسجدهم وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة ، فشاوروا أهل الرأى من الصحابة فى ذلك ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه . ولم يكن إحساس الناس بضرورة الزيادة فى المسجد عجيباً بعد أن امتد الفتح الإسلامى وازداد سكان المدينة بامتداده زيادة عظيمة . وصعد عثمان المنبر يوماً بعد أن صلى الظهر بالناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيها الناس إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه . وأشهد لقد سمعت رسول الله يقول : (من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة). وقد كان لى فيه سلف وإمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه وبناه . وقد شاورت أهل الرأى من أصحاب رسول الله فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه »

وحسّن الناس يومئذ ذلك ودعوا له ؛ فزاد عثمان بقدر زيادة عمر فى الناحية الجنوبية من المسجد ، وكذلك فعل فى الناحية الغربية . أما فى الناحية الشمالية فكانت زيادته دون زيادة عمر ، وكانت تزيد على ما أحدثه فى الناحيتين الجنوبية والغربية بما يعدل قرابة الضعف من كل من هاتين الزيادتين. لكنه أحدث من التطور فى عمارته ما لم يحدثه عمر . فهو لم يجدده باللبن ولم يجعل

عُمُده الخشب وسقفه الجريد أسوة برسول الله . بل بنى جدره بالحجارة المنقوشة والقَصّة[1] ، وجعل عمده من حجارة منقورة أدخل فيها عمد الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها ؛ أما سقفه فقد جعله من الساج . وهذا تطور عظيم فى العمارة العربية ، إن لم يخرج بها عن فكرة المسجد على ما صوره رسول الله فقد أحدث فيها فكرة المتانة والبقاء . وقد أنكر جماعة من المسلمين يومئذ على عثمان ما فعل من ذلك ؛ وأرادوا أن يبنوا المسجد على نحو ما بناه رسول الله ؛ فلم يحفل بقولهم .

ولم يزد عثمان فى المسجد من ناحية الشرق ؛ لأن بيوت النبى كانت ما تزال قائمة ، وكان من أزواجه من لا يزلن يقمن بها وكان أقرب هذه البيوت من المسجد بيت عائشة الذى دفن به رسول الله وخليفتاه أبو بكر وعمر . لذلك لم تكن الحجرة النبوية فى المسجد ؛ ولم يكن به موضع معين للروضة النبوية ، بل كان كله مسجد الرسول تتساوى جوانبه جميعاً فى ثواب الصلاة فيه .

وبقى المسجد على ما بناه عثمان إلى سنة ثمان وثمانين من الهجرة لم يُزد فى نظامه وبناء عمر ، إلا المقصورة التى اتخذها عثمان ، والتى ما تزال تعرف بمحراب عثمان ؛ وكانت صغيرة من لَبِن وفيها كوة ينظر الناس منها إلى الإمام . وكذلك تعاقبت عهود علىّ ومعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والمسجد على بناء عثمان لا يفكر أحد فى الزيادة فيه ولا فى تغيير عمارته . وكان مرجع ذلك إلى قيام الثورات عند مقتل عثمان ، وإلى انتقاض أهل الحجاز على معاوية وخلفائه بالشام ، واستمرار الحرب لذلك بين الأمويين والعلويين ومَن شايعهم من الصحابة وأهل بيت النبى ومَن انضم إلى ممثلهم عبد الله بن الزبير من المسلمين حين لحق بمكة وتحصن بها بعد مقتل الحسين بن على بالعراق . فلما قتل ابن الزبير فى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وتم الأمر لبنى أمية فى عهد عبد الملك بن مروان انصرف تفكيرهم إلى تقوية الوحدة الامبراطورية للدولة الإسلامية بعد أن كانوا منصرفين إلى نضال

---

(١) القصة (بالفتح ويكسر) : الجصة .

خصومهم ؛ حتى لقد فكر عبد الملك زمنًا فى اتخاذ قبة الصخرة مثابة لحج المسلمين من أهل مصر والشام والعراق إذا بقى الأمر لابن الزبير بمكة . ومنذ انصرفوا إلى تقوية الإمبراطورية الإسلامية امتد الفتح حتى بلغ الأندلس فى عهد الوليد بن عبد الملك .

لم يقض انتصار بنى أمية الحاسم على اعتقاد العلويين أنهم ، وهم أهل بيت النبى ، أصحاب الحق فى الخلافة . ومتى قضى ظفر ملك بخصومه على إيمان المغلوبين بحقهم ! ومتى قضى ظفر نظام بنظام على رجاء المغلوبين فى أن يكون الظفر لهم من بعد ! إن انتصار الجمهورية فى فرنسا لم يقض إلى اليوم على أنصار الملوكية فيها ، ولم ينزع الرجاء من نفوسهم أن ينتصر اعتقادهم بحقهم على باطل غيرهم . والظافرون يعرفون هذا ويجعلون عيونهم لذلك على خصومهم لكى لا تقوم لهم قائمة . فإذا أبطرهم الظفر وغفلوا ، ثار هؤلاء الخصوم بهم وولوا الأمر مكانهم .

كان ذلك شأن بنى أمية مع بنى هاشم من العلويين والعباسيين . ظفروا بهم ، فلم تنسهم نشوة الظفر أنهم خصومهم رأنهم يتربصون بهم الدوائر . كان أبناء فاطمة ابنة رسول الله وحَفَدتُها يقيمون فى بيت جدتهم إلى جوار المسجد النبوى ، وذلك بعد مقتل الحسين ، وبعد أن استقر الأمر لبنى أمية . وكان الوليد بن عبد الملك قد استعمل عمر بن عبد العزيز على المدينة . وقدم الوليد حاجًّا بعد ولايته أمر المؤمنين ، فزار المدينة . وفيما هو يخطب الناس يومًا على قبر رسول الله حانت منه التفاتة إلى ناحية بيت فاطمة ، فإذا بحسن بن حسن بن على ابن أبى طالب فى يده مرآة ينظر فيها . فلما نزل الوليد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز وقص عليه الأمر وقال : « لا أرى هذا قد بقى بعد . اشتر هذه المواضع وأدخل بيت النبى فى المسجد واسدُدْه » . روى أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين وولدهما أبوا أن يخرجوا من البيت حين علموا بأمر الوليد ؛ فأرسل إليهم إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم . فلما أصروا على إبائهم أمر بهدمه عليهم وفيه حسن وفاطمة وولدهما ، ونزع العمال البيت وهم فيه وهددوهم

قائلين : « إن لم تخرجوا قوضناه عليكم » ، فخرجوا ونفَّذ عمر بن عبد العزيز أمر الوليد بضم بيوت النبي إلى المسجد .

وفي رواية أن الوليد كان يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها . فقال له الرجل يومًا : « لقد رأيت أمراً لا والله مالك معه سلطان ولا رأيت مثله قط » . قال الوليد : ما هو ؟ قال : « كنت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا منزل عليه كِلَّة ؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلَّة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ؛ ثم أرخيت الكلّة وأتى بالغداء فتغدى هو وأصحابه . فلما أقيمت الصلاة فعل مثل ذلك ، وإذا هو يأخذ المرآة والكحل وأنا أنظر . فسألت فقيل . إن هذا حسن بن حسن » . وقال الوليد : « ويحك ! فما أصنع ؟ هو بيته وبيت أمه فما الحيلة في ذلك ؟ » . قال : « تزيد في المسجد وتدخل هذا البيت فيه » . فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة في المسجد وشراء هذا البيت وإدخاله فيه . وأبى حسن ابن حسن أن يأخذ الثمن ؛ فكتب عمر إلى الوليد في ذلك ؛ فأمر بهدم البيت ، وهدم وطرح الثمن في بيت المال ؛ فانتقل حسن وانتقلت فاطمة بنت الحسين إلى دار بالحيرة فابتنتها .

قرر الوليد بن عبد الملك أن يزيد في المسجد وأن يُدخل هذا البيت فيه . لكنه بعد أن فكر في الأمر مليًّا رأى أن يدخل فيه بيوت النبي جميعًا . وكانت هذه البيوت ممتدة من شرق المسجد حيث الحجرة النبوية ، متجهة نحو الشمال إلى موضع ليس تعيينه اليوم بالأمر اليسير ؛ وكانت موضع رعاية كبرى من المسلمين في ذلك العهد . ومذ خلت كلها من ساكنيها بعد أن اختار الله عائشة أم المؤمنين كان الناس يهرعون لصلاة الجمعة فيها مؤتمِّين بإمام المسجد ، ثم يحيطونها فيما وراء ذلك برعايتهم على اعتبار أنها الآثار التاريخية الباقية للنبي الكريم ولحياته في المدينة . لذلك حزنوا أشد الحزن حين علموا بأمر هدمها . روى عن نصار الخُراساني قوله : « أدركت حجرات النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن

عبد الملك يُقرأ ويأمر بإدخال حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يومًا كان أكثر باكيًا من ذلك اليوم . وسمعنا سعيد بن المسيّب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها » . ولعل منهم من فطن إلى أن الوليد أمر بهدم حجرة فاطمة غضبًا على أبنائها ، ثم أمر بهدم سائر الحجرات حتى لا يُتّهم بأنه هدم حجرة فاطمة انتقامًا من أبناء عليّ بغيًا بغير حق متخذاً من توسيع المسجد حُجة له . فقد سبقه عثمان وعمر إلى توسيعه فتركا حجرات أمهات المؤمنين لم يمسساها وزادا فى المسجد من سائر نواحيه .

كيف يقيم الوليد المسجد : هل يكتفى بالزيادة فى نواحيه الشرقية والشمالية والغربية ، فقد بقيت الناحية الجنوبية لم تمسسها زيادة من بعد عثمان ؛ أم يهدمه ويعيد بناءه ؟ لقد شاده عثمان بناء متينًا قويًّا على الزمن ، ولم يكن قد مضى على ذلك ستون سنة . لكن الوليد كان بالشام ، وكان له فى العمارة وزخرفها رأي غير رأى العرب . لم يكن رأيه فى العمارة منتزعًا من فكرة الحاجة كما كان عند العرب يوم بنى النبي المسجد ، بل كانت العمارة عنده فنًّا جميلا مداره رضا النفس من طريق الحس والسمو بها فى درجات هذا الرضا إلى حسن المتاع بالحياة . وقد تأثر الوليد كما تأثر أسلافه الذين أقاموا بالشام بما رأوا من الآثار المسيحية التى أقيمت على طراز ما سبقها من الآثار الوثنية إذ تأنّق مقيموها فى تجميلها إرضاء لآلهتهم وتقربًا بها إليهم . وكان من أثر ذلك أن أقام عبد الملك ابن مروان قُبّة الصخرة ببيت المقدس على نحو من البراعة فى الفن المعمارى عنت له كثير من الكنائس البارعة ، وذلك بعد أن رصد لعمارتها خراج مصر سبع سنين . أما والأمر كذلك فلا بد للوليد من هدم المسجد النبوى وإعادة بنائه متأثراً بالفكرة الفنية التى ملكت نفسه وكانت ذات سلطان عظيم عليها .

ولم يكن فى بلاد العرب ، ولا كان بين رجال المعمار المسلمين ، من يكفى لإرضاء هوى الوليد وذوقه الفنى فى عمارة المسجد . لذلك كتب إلى ملك الروم يقول له : « إنا نريد أن نعمر مسجد نبيّنا الأعظم ، فأعِنّا فيه بعمال وفسيفساء » . وبعث ملك الروم بأحمال من فسيفساء وبعمال اختُلِف فى عددهم ، فقيل

عشرة وقيل أربعون من الروم وأربعون من القبط ، وبأحمال من سلاسل القناديل ، وبقدر كبير من الذهب ، ذهب قوم إلى أنه ثمانون ألف دينار ، وذهب آخرون إلى أنه ألف مثقال .

وهدم عمر بن عبد العزيز المسجد فى سنة ثمان وثمانين أو فى سنة إحدى وتسعين على اختلاف فى الرواية ، ثم أدخل فيه حجرات أزواج النبى وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، فلما صار إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى وقال لهم : « تعالوا احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غيّر عمر قبلتنا » . وجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً . وقد بالغ عمر فى تجميل المسجد وعنى بذلك حتى كان العامل إذا عمل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء فأحسن عملها نفله عمر ثلاثين درهما ، ولما تم بناء المسجد جاء الوليد وجعل يدور فى المسجد مغتبطاً معجباً ويبدى لعمر ما يعن له من الملاحظات . وكان عمر قد عنى بسقف المقصورة النبوية عناية جعلته بدعاً فى الفن . فلما رآه الوليد قال لعمر : ألا عملت السقف كله مثل هذا ! قال عمر : إذاً يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جداً — وكانت نفقة هذا السقف أربعين ألف دينار — قال الوليد : وإن . ولم يكن ما قاله الوليد من ذلك عجباً بعد الذى زخرف عمر به المسجد فى هذه العمارة من المحراب والشرفات والمنابر مما لم يكن للعرب به عهد ، وإنما كان اقتباساً مما فى الكنائس أتمه العمال العرب بوحى ما رأوا فى الشام ، وعاونهم العمال الروم والقبط على إتقانه .

وكان أبانُ بن عثمان يطوف بالمسجد مع الوليد . فلما استنفد الوليد النظر إلى المسجد واطمأنت نفسه إلى عمارته نظر إلى أبان وقال : « أين بناؤنا من بنائكم ! » فكان جواب أبان : « إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس » .

هذه الكلمة التى قالها أبان عميقة المغزى لمن ينعم الرويّة فيها ؛ فهى تصور

تطوراً فى العمارة العربية يقابله تطور من نوعه فى التفكير الإسلامى . انتقلت العمارة فى بناء الوليد المسجد من طرازها البسيط الذى أوحته الحياة العربية فى بساطتها وقوة اتصالها بالطبيعة ، وأوحته الفكرة الإسلامية فى دعوتها إلى الصلة المباشرة بين المرء وخالقه على أساس من الإيمان الذاتى وتحابّ المؤمنين بنور الله بينهم ، إلى هذا الطراز المركب الملىء بالزخرف ركز الإنسان فيه صورة من جمال الطبيعة انتزعها خياله من كل ما يحس ويرى من مظاهر هذا الجمال ، ثم تقرّب بها إلى الآلهة فى العهود الوثنية إرضاء لهم بجلالها واتقاء غضبهم بجمالها . وقد أراد رجال الكنيسة المسيحية أن تقرّب هيبة هذا الفن من النفوس صورة المعجزة التى تقوم المسيحية على أساسها . أما الإسلام فكان فى صفائه بريئاً من هذه المظاهر ؛ فكان المسجد فى بساطته صورة لبساطة الإسلام وقوته . وإنما كان هذا التطور مظهراً لتأثر المسلمين بالتفكير الكنسى الذى أحاط بهم فى الشام والذى تسرع النفس الإنسانية إلى مثله حين لا تجد سنداً من الإيمان بالله يعصمها من الضعف لسلطان الطبيعة . فالنفس الإنسانية محتاجة فى سذاجتها إلى مظاهر قريبة منها يدركها الحس وترى فيها صور الكون والحياة مجتمعين . وهى لا تستطيع السمو إلى الحقيقة المجردة التى تمثل هذا المعنى ، ولا تستطيع امتثالها فى كل صفاتها ، ما لم تكن لها فى ذلك أسوة كما كان للمسلمين الأولين فى رسول الله أسوة ، أو تبلغ من المعرفة التى تؤهلها للاتصال بالكون حظاً عظيماً ، أما وقد انتهى عهد الأسوة واتصل المسلمون بجيرانهم من أهل الحضارات الأخرى ، فكان من الطبيعى أن يتأثروا بما اتصلوا به ، وأن يشغلوا عن تمحيصه بالمنازعات السياسية والثورات التى فرّقت كلمتهم من عهد عثمان بعد أن مهدت لها أسباب سبقتها طوعت للإسرائيليات وغير الإسرائيليات أن تندس إلى الإسلام وأن تشوب صفاءه .

بقى المسجد بعد زيادة الوليد على حاله إلى أن غلب العباسيون الأمويين على الملك وقاموا مقامهم فى الخلافة . إذ ذاك فكر ثانى خلفائهم أبو جعفر المنصور فى أن يكون له من فضل الزيادة فى المسجد ما كان للأمويين . ودار

يومئذ بأخلاد قوم أن يأخذ العباسيون بالثأر من بنى أمية فيهدموا دار عثمان ويدخلوها فى المسجد ، كما هدم الوليد حجرات أمهات المؤمنين وأدخلها فى المسجد . من أجل ذلك كتب الحسن بن زيد إلى المنصور ينصح له أن يزيد فى رقعة المسجد وأن يجعل القبر النبوى فى وسطه ، وبذلك تدخل دار عثمان فى المسجد لمجاورتها للحجرة . لكن المنصور لم يقبل هذا الرأى وكتب إلى الحسن بن زيد يقول : « إنى قد عرفت الذى أردت ؛ فاكفُفْ عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان » . وتُوفّى أبو جعفر ولم يزد فى المسجد شيئًا . ولما خلفه ابنه المهدى على الملك حجّ سنة ستين ومائة للهجرة ، وقدم المدينة مُنصَرَفه عن الحج ، فاستعمل عليها جعفر بن سليمان ، وأمره بالزيادة فى المسجد . ولم يزد جعفر فى نواحى المسجد من الجنوب والغرب والشرق شيئًا ، وحصر الزيادة فى ناحيته الشمالية حيث صحنه المعروف بالحصوة . وكانت الزيادة فى هذه الناحية فسيحة بلغت نحو الثلث من مساحة المسجد كله ، وأحيطت بأروقة من العمد والقباب من طراز ما صنع الوليد . فأما ما خلا هذه الزيادة فقد اقتصر عامل المهدى على التعمير والتجميل ، متخذاً طراز الوليد إمامه ، متأثراً فى الفن بفكرة كفكرته .

واستقرت رقعة المسجد على زيادة المهدى من بعد ؛ لكن بناءه أعيد غير مرة بعد ذلك ، واستمر التعمير فيه إلى يومنا هذا . فقد احترق كله أول شهر رمضان من سنة ٦٥٤ للهجرة ، إذ ترك موقد المصابيح مشتعلا فى مخازن المسجد فامتدت النار منه إلى ما حوله وتعلقت بحصر وبسط وأقفاص وقصب كان فى المخزن . ثم امتد اللهب إلى سقف المسجد وسرى منه إلى المسجد كله ، فلم يبق منه على خشبة واحدة كاملة . ونزل أمير المدينة واجتمع معه معظم أهلها فلم يقدروا على مقاومة الحريق ، وأكلت النار جميع ما احتوى عليه المسجد من المنبر النبوى والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير وما اشتملت عليه من كتب ، وامتدت إلى كسوة الحجرة . وقد عزا القطب القسطلانى هذا الحريق إلى أن الزخارف التى بالمسجد لم ترضه صلى الله عليه وسلم ، وإلى أن القلوب

أحلّت المساجد الثلاثة : الحرام والأقصى والنبوىّ ، منها فوق قدرها ، ونسيت أن عظمته تعالى فوق الجميع ، وأنه الواحد القهار ، فوقع الحريق فى الكعبة وبيت المقدس قديمًا ، ووقع هذا الحريق فى المسجد النبوى . وقيل فى هذا المعنى شعر وجد منه بعد الحريق بيتان على جدران المسجد هما :

لم يحترق حـَرَمُ النبىّ لريبـــة ... تـُخْشَى عليه وما دهاه العـــار
لكنَّها أيدى الروافض لامستْ ... تلك الرسومَ فطهـَّرتها النـــار

ولم يسلم من هذا الحريق سوى قبة كانت أقيمت بصحن المسجد فى القرن السادس الهجرى لحفظ ذخائر الحرم من مثل المصحف العثمانىّ وبعض صناديق أودعتها هذه الذخائر . أما عـُمد المسجد فبقيت قائمة كأنها جذوع النخل تمايل إذا هبت الرياح . وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ، ووقع السقف الذى كان بأعلى الحجرة على سقف بيت النبى فوقعا جميعًا فى الحجرة وعلى القبور التى بها . وكـُتب بذلك إلى الخليفة المستعصم وهو ببغداد فأرسل الآلات مع الصناع من العراق ولم يبد رأيًا فيما يصنعون . فقد كان منصرفًا إلى صد التتار عن بغداد بعد أن استولوا على أعمالها ؛ لذلك اضطرب الصناع وأهل المدينة واختلفوا ما يصنعون بالحجرة ، وهل يذرون بها ما سقط فيها أم يرفعونه جميعًا حتى يبلغوا سطح الأرض إلى التراب الذى فوق القبر . وقد انتهوا إلى ترك ما سقط ولم يزيلوه مهابة لساكن الحجرة عليه الصلاة والسلام . يقول السمهودى : إنه كان يرى « أن الواجب فى سلوك الأدب مع هذا النبى العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقـَمـِّه من حجرته الشريفة » . فلما حضر العمارة الثانية للمسجد شاهد بين الجدارين فى الفضاء الذى خلف الحجرة أمراً مهولا من الهدم نحو القامة ، فعلم أن القوم لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تتأتى إلا بانتهاك الحرمة فتوقفوا عنه ومدوا سقفًا فوقه على رءوس السوارى التى حول الحجرة .

لم تكن بغداد ولا كان المستعصم شرًّا مكانًا من سائر أنحاء الدولة الإسلامية والقائمين عليها فى ذلك العصر ؛ فقد انتشر فيها الاضطراب واستولى

عليها القلق ، فلم تبد أيٌّ منها فى عمارة المسجد رأيًا ، وإن بعث أكثرها من مواد العمارة ما أرضى به هوى عقيدته . وصلت الآلات من مصر بأمر المتولى عليها الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصلت الآلات والأخشاب كذلك من صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن منصور ، وجعل أهل المدينة والعمال فيها يقومون من العمارة بما يستطيعون القيام به ولا يلبثون إذ يتقدمون فيها حتى تبلغهم الأنباء بقتل هذا أو هزيمة ذاك من ملوك المسلمين وأمرائهم . استولى التتار على بغداد وقتلوا المستعصم ، ثم عزل صاحب مصر وقام فيها مملوك ابن الملك المظفر سيف الدين قُطُزُ المُعِزِّى ، وقتل هذا فيما دون السنة من ولايته . وكان لهذه الأحداث أثر واضح فى عمارة المسجد ، فكانت تتقدم حينًا ، وتسير دائمًا على غير خطة مرسومة . فلما تولى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى أمر مصر بعد ست سنوات من الحريق جهّز الأخشاب والحديد والرصاص وجهز الصناع وما يمونهم وأرسلهم بذلك كله إلى المدينة وصار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات حتى أتموا المسجد كما كان قبل الحريق .

لم يزل المسجد على ذلك حتى جدد سقفه فى سنتى خمس وسبعمائة وست وسبعمائة بأمر ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، ثم زيد فى السقف بأمره فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة . وقد أصلح الملك الأشرف بَرْسَبَاى هذه الزيادة فى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة حين طرأ الخلل عليها ، كما جدد الظاهر جُقْمق بعض سُقُف أخرى فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة قام الملك الأشرف قايتباى بعمارة فى المسجد تناولت بعض سقفه وعمده وجدرانه ومآذنه .

لم يبق من أثر لهذه العمارات فى وقتنا الحاضر ؛ فقد انقضّتْ صاعقة على مئذنة المسجد الرئيسية فى سنة ست وثمانين وثمانمائة فلم تبق منها شيئًا ، وانتقلت النار من المئذنة إلى سقف المسجد فالتهمته ، وتخطت من السقف إلى المسجد فتهدمت جدرانه وتداعت أكثر أساطينه ، واحترقت المقصورة والمنبر والكتب

والمصاحف . ولم يسلم من الحريق إلا الحجرة والقبة التى بالصحن . لكن ما بقى من أنباء هذه العمارات يشهد بأن التطور الذى بدأ من عهد الوليد بن عبد الملك استمر مطرداً فى العمارة ، وأكثر اطراداً فى التفكير . لم تكن للحجرة النبوية قبة قبل القرن السابع ، فأقامها المنصور قلاوون سنة ثمان وسبعين وستمائة . ولم يكن ما بين الحجرة والمنبر النبوى يمتاز فى عمارته عن سائر المسجد ؛ فلما حدث الحريق فى هذا القرن السابع ، وأعيدت عمارة المسجد بعده ، بدأ هذا الجزء من المسجد ، وهو الروضة ، يلقى من العناية حظاً تزايد على الزمان . وبعد أن كانت الخصومات السياسية بين الأمويين والعباسيين ذات أثر ظاهر فى تعديل رقعة المسجد والزيادة فيها ، انصرف التفكير فى عمارة المسجد عن السياسة إلى ناحية أخرى يقصد منها إلى المثوبة والزلفى وإلى تصفيد التفكير الإسلامى على الإيمان بهذه المثوبة وهذه الزلفى من غير تمحيص أو اجتهاد .

وقد وقع الخلاف على ما حدث من هذا : أهو يتفق مع روح الإسلام ؟ وبلغ الخلاف من الشدة فى بعض الأحيان ما اقتضى تدخل ولى الأمر لقمعه . لما بنى المنصور قلاوون القبة على القبر النبوى اختلف الناس رأياً ؛ فقال بعضهم : « قصد خيراً وحصل ثواباً » . وقال آخرون : « أساء الأدب بعلو النجارين القبر ودق الحطب » ، وتفاقم هذا الخلاف حتى جعل الوالى عقوبة على من يقول أساء الأدب . وذهب بعض أولى الرأى يومئذ إلى تحريم إقامة القبة لما رواه أبو داود فى سُننه عن أنس بن مالك أن رسول الله خرج فرأى قبة مشرفة أجابه أصحابه بأنها لرجل من الأنصار ، فأعرض عن الرجل مراراً حتى عرف الرجل الغضب فيه والانصراف عنه. ولماشكا إلى أصحابه إعراض رسول الله عنه وسأل عن السبب فى ذلك قالوا : « خرج فرأى قبتك » ، فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض . وخرج رسول الله يوماً فلم ير القبة فسأل عنها فقال من حوله : شكا صاحبها إلينا إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها . فقال صلى الله عليه وسلم : « كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لابد منه » . وهذا الخلاف هو الذى لا يزال قائماً إلى يومنا هذا بين الوهابيين وغيرهم من سائر

المسلمين . وقد كان النصر فى القرون الخمسة الهجرية الأخيرة حليف الذين يقولون بإنشاء القباب تبركًا والتماسًا للمثوبة ؛ لأن هذا الرأى أدنى إلى إدراك الجمهور . ولعل النصر يظل حليف هذا الرأى لاعتبار آخر ؛ ذلك أن العمارة العربية بلغت من دقة الفن وبراعته فى إقامة هذه القباب مبلغًا يدعو حماة الفن الجميل إلى نصرها من غير نظر إلى اعتبار المثوبة أو التبرك .

كان التطور الذى أشرنا إليه أكثر وضوحًا فى عمارة المسجد بعد حريق الصاعقة . لما بلغ خبر هذا الحريق الملك الأشرف قايتباى بمصر وجَّه الأمير سُنقُر الجَـمَـالى إلى المدينة ومعه أكثر من مائة صانع وما يلزم للعمارة ، فبدءوا بالمئذنة ووسعوا المحراب العثمانى وجعلوا فوقه قبة أقاموها على رءوس الأساطين التى حوله ، وجعلوا على جدر الحجرة النبوية وفوق السقف الذى كان عليها قبة شادوا فوقها قبة أخرى أقيمت على الأساطين والدعائم التى زخرفوها ، وبنوا باب السلام بالرخام الأسود والأبيض وزخرفوه ، كما زخرفوا محرابًا مجوفًا للرسول فى دعامة أقاموها بين المنبر والقبر على حدّ مسجده الأصلى ، وزخرفوا هذا المحراب بالرخام الملون ، وأعادوا ما سوى ذلك من بناء المسجد على صورة تأنقوا فيها غاية التأنق ، حتى بلغ ما أنفقه قايتباى على هذه العمارة نحو ستين ألفًا من الجنيهات . والله أعلم كم يعادل هذا المبلغ من نقدنا فى الزمن الحاضر .

كانت مصر فى الفترة التى انقضت بين حريق المسجد فى القرن السابع إلى حريقه بالصاعقة فى القرن التاسع هى القائمة بأمر عمارته . فلما انتقلت الخلافة إلى آل عثمان بالآستانة ودخلت بلاد العرب كما دخلت مصر فى سلطانهم خلفُوا مصر فى القيام على المسجد وعمارته . فنى سنة ثمانين وتسعمائة من الهجرة عمّره السلطان سليم الثانى وشيّد به محرابًا جميلا هو القبلة القائمة اليوم غرب المنبر النبوى . وقد وشى هذا المحراب بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب ، وكتب اسم السلطان سليم على ظاهره بخط الثلث الجميل . وفى سنة ١٢٣٢ بنى السلطان محمود القبة ثم أمر بترميمها فى سنة ١٢٥٥ فرممت ودهنت باللون الأخضر . على

أن العمارة الكبرى التى قام بها سلاطين آل عثمان هى عمارة السلطان عبد المجيد . فقد كتب إليه شيخ المسجد داود باشا بأن المسجد قد انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدث به أثناءها عمارة هامة حتى آل كثير منه إلى التخريب . فأرسل السلطان من قبله من فحص المسجد وعرف حقيقة حاله ، ثم أمر بهدمه وعمارته . وتم ذلك بأن جعل المهندسون يهدمون جزءاً من المسجد ويقيمون مكانه ما يحل محله ، ثم يهدمون بعده جزءاً غيره ويعيدون تشييده ، حتى أتموا عمارة المسجد كله فيما بين سنة ١٢٦٥ وسنة ١٢٧٧ هـ . وقد تناولت هذه العمارة المسجد كله خلا المقصورة وما فيها وبعض الجُدر المتينة البناء القوية الأساس . ولم ينقض محراب عثمان لإتقانه وحسن صنعه . أما العمد القديمة فأبدل منها غيرها ، وأكثرها من قطعة واحدة ، وأقيمت عليها عقود من الحجر الأحمر المنحوت شيدت فوقها قباب جعلت فيها نوافذ يهبط النور خلال زجاجها الملون المحاط بشبابيك النحاس . وأعيد بناء باب السلام بناء غاية فى الفخامة ، وجُعلت أمامه من الداخل قبة عظيمة . أما الجدار الشمالى للمسجد فزيد فيه ما كفى لبناء مخازن ومكاتب ، وبنيت خارجه أحواض للوضوء بها صنابير . وشيدت المئذنة المجيدية على طراز بالغ غاية الروعة والإبداع . وعلى الجملة بذّت هذه العمارة كل ما سبقها حتى بلغت نفقاتها ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية .

ومن خير الآثار التى سجلتها هذه العمارة وحافظت عليها ما كتب على جدران المسجد من سورة الفتح وقصيدة البردة وأسماء الله الحسنى وأسماء النبى عليه السلام . فلقد نفى الإسلام عنه التماثيل والصور منذ حطم محمد تماثيل الكعبة ومحا صُورها فلم يكن إلى بعثها بين الفنون الجميلة سبيل ، على رغم ما رآه المسلمون منها بكنائس الشام وبزنطية . فحرب الوثنية أساس العقيدة الإسلامية ، والتماثيل والصور أقدم آثار الوثنية وأبقاها . لذلك أنشأت الحضارة الإسلامية فنا جميلا يحل محل التماثيل والصور فى التعبير عن الجمال كما يبدو للنظر ، واستمدت هذا الفن من التفكير الإسلامى . لذلك كان الخط العربى

والتفنن فيه والبلوغ به غاية البراعة فى الجمال مما تفرَّدت به هذه الحضارة . ولذلك تقدم السلطان عبد المجيد إلى الخطاط العظيم عبد الله بك زهدى فقضى عشر سنوات فى كتابة سورة الفتح وسائر ما كتب على جدران المسجد مما لا يزال زينة جدرانه البديعة الأخّاذة بالنظر .

بقى المسجد النبوى على هذه العمارة إلى اليوم . على أن محرابيه النبوى والسليمانى رمما عام ١٣٣٦ كما رُممت أرض المسجد بأمر الحكومة العربية السعودية الحاضرة عام ١٣٤٨ هـ . وتقوم الحكومة المصرية بتعمير المسجد فى هذا العهد الأخير منذ عدة سنوات .

حرَصنا على استقصاء الأدوار التى مرت بها عمارة المسجد لأنها تصوِّر التطور الذى حدث فى العمارة الإسلامية وفى التفكير الإسلامى . وهى أدق تصويراً لهذا التطور لأن المسلمين لم يبذلوا لمسجد من العناية ما بذلوا لمسجد المدينة ، ولم يجعلوا للمسجد الحرام بمكة إلا بعض هذه العناية . كان ذلك شأنهم من عهد الوليد بن عبد الملك ، وظل شأنهم فى ذلك يزداد على العصور ، حتى صار مسجد مكة لا يُنظر فى عمارته إلا لما تقضى به الضرورة ، ثم يخلع على مسجد المدينة من الترف الفنّى ما رأيت . فإذا ذكرتَ ما أشرتُ إليه حين الحديث عن مسجد مكة ومغزى التطور فى عمارته فى فصل « الجمعة فى الحرم » ، تبدى لك هذا التطور الآن فى مبلغ من الجسامة يلفت النظر ويستوقف الفكر لتدبره والنظر فى أمره .

ربما وقف القارئ موقف الحيرة لذكرى « العمارة الإسلامية » بديلا من « العمارة العربية » حين الحديث عن المسجد النبوى . والواقع أن عمارة هذا المسجد لم تبق عمارة عربية بعد الوليد بن عبد الملك . فقد احتفظت العمارة العربية بطابع من البساطة ما يزال الإنسان يراه فى الحرم المكى . أما مسجد المدينة فقد تعاقب عليه من ألوان العمارة ما اقتبسه المسلمون من مختلف الأنماط التى وجدوها فى الآثار القائمة بالبلاد التى فتحوها . ولقد رأوا من هذه الأنماط شيئاً كثيراً فى الشام ومصر والروم والعراق وفارس منذ القرن الأول للهجرة ،

ثم رأوا كذلك شيئاً كثيراً فى الهند وصقلّيّة والأندلس وحيث امتد الفتح الإسلامى على توالى العصور. من هذه الأنماط اقتبس المسلمون طرازاً ليس بالعربى المستمد من فكرة الحاجة ؛ فشيدوا العمد وقواعدها وتيجانها على طراز لا عهد للعرب به ، وأنشأوا المحاريب المجوفة وكانت محرمة فى الإسلام ، حتى كره عبد الله بن مسعود الصلاة فيها نزولا على قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا هذه المذابح » يعنى المحاريب ، وقوله : « ما تزال هذه الأمة بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » ، وجعلوا زخرف المساجد وسيلة إلى المثوبة بعد أن كان كعبٌ يقول لأسلافهم فى الصدر الأول : « يكون فى آخر الزمان قوم يزينون مساجدهم ويتخذون بها مذابح كمذابح النصارى ؛ فإذا فعلوا ذلك صُبّ عليهم البلاء » . أما وذلك شأن هذه العمارة فلا حق فى أن تسمى العمارة العربية .

وإنما تأثر المسلمون فى نمط بنائهم بما رأوا من هياكل ومعابد ؛ لأن الفكرة الإسلامية تطورت بحكم الحوادث وتقلّبها فسارت من البساطة التجريدية الأولى إلى تركيب وتعقيد ماديين أدى إليهما الاختلاط بالروم والفرس والنظر فى عقائدهما . وما أكبر الفرق بين هذا التركيب وهذا التعقيد الماديين وبين بساطة الإيمان بالله وحده إيماناً مصدره القلب والعقل . الأعمال فى هذا الإيمان بالنيات ؛ ونية المؤمن فيه خير من عمله ؛ لأن النية متعلقة بالذات الإنسانية ، والعمل خاضع لأحداث الحياة وأهوائها . أما التركيب والتعقيد الماديين فيجعلان من المظاهر المادية كل شىء فى الحياة . قيام المرء وقعوده ، ركوعه وسجوده ، لباسه ومظهره ، هذه وأمثالها من الأمور المحسوسة هى التى يقيم لها هذا التفكير من الوزن أكثر مما يقيم للنية التى صدرت عنها . ومن ثم كان البناء المزخرف أدعى إلى التقرب إلى الله فى رأى ذوى التفكير المادى ، وإن أدت إليه نية الظفر بخصوم سياسيين ، كما كان شأن الوليد يوم ضم بيوت النبى إلى المسجد ، أو دفعت إليه سياسة مرماها شَغل المسلمين عن التفكير والاجتهاد لخيرهم وغايتها حبسهم فى حدود التفكير المادى حتى يسهل حكمهم حكم بغى واستبداد ، كما كان شأن الملوك

والسلاطين منذ بدأت فى العالم الإسلامى عصور الانحلال .

أين هذا من التفكير الصريح يدعو إليه الإيمان الصادق فى مسجد بسيط العمارة مثل مسجد النبي كما بناه هو ، وكما بناه عمر وعثمان ! أين هذا من تفكير خالص لله يتصل فيه الإنسان ببارئه من غير وساطة إلا إيمانه الصادق به ، وحرصه الخالص على التقرب منه بالعمل الصالح وبالتقوى ! وحدثتنى نفسى : أفكنت أفكر فيما تلا القارئ من هذا الفصل لو أن المسجد بقى بناؤه على نمط بناء النبي يجاور قبره ويستضىء الناس فيه بنور الوحى الذى نزل عليه ؟ وهل كنت ألتمس المغفرة لذنوبى بالعكوف على مكان فى المسجد أعتقده أدنى إلى مغفرة الله ذنوب عباده ؟ أم كنت أشعر بروحه الكريم يملأ المكان مهابة وجلالاً وقوة ، ويمد المؤمنين من قوته بما يجعلهم يلتمسون المغفرة فى العمل الصالح أكثر مما يلتمسونها فى دعاء لا يعقبه عمل ؟

اللهم إنى أعوذ بك من الزلل ، وأتوب إليك من الخطأ ، أنت العليم بأنى إلى وجهك الكريم أقصد ، ومن حب إخوانى المؤمنين حقًّا أستمد رضاك وأرجو عفوك ، فاغفر لى وارحمنى ولا تجعلنى من القوم الخاطئين .

المدينة الحديثة

ماذا بالمدينة غير المسجد النبوى ؟ أما الآثار المتصلة بالرسول وأهله وبالصحابة والتابعين فكثيرة نتناولها بالحديث من بعد . لكننى لم أقصد إلى هذه الآثار حين ألقيت سؤالى إلى أهل المدينة الذين أقبلوا إلى دار مُضيفى فى المساء ، وإنما قصدت إلى المدينة الحديثة . فماذا بها من مظاهر نشاط أهلها ؟ وماذا بها من أثر الحياة الحديثة التى يصبو شباب مكة إليها بوجدانهم ؟ قال أحدهم : « وماذا كنت ترجو أن يكون لنا من ذلك وسكان المدينة لا يزيدون على ثلاثة عشر ألفاً ! » دهشت إذ سمعت هذا الجواب . فهذا العدد من السكان متداول فى كثير من قرى مصر ، وهو لا يبلغ السدس من سكان مكة . فكيف يكون عدداً لسكان هذا البلد الذى يجذب إليه عشرات الألوف من المسلمين فى كل عام ! أو لا يجد أهل المدينة كل رزقهم إلا فى موسم الزيارة ، ولولا هذا الموسم لخلت من ساكنيها ! لقد قرأت فى « الرحلة الحجازية» للبتانونى أن عدد سكان المدينة يزيد على ستين ألفاً ؛ فكيف هوى هذا العدد إلى خُمسه ! أفأصاب المدينة وباء أهلكها ، أم أن حرب الوهابيين أتت على خمسين ألفاً من سكانها رجالا ونساء وأطفالا ؟

وأجاب الذى حدثنى : « بل هوى سكان المدينة إلى هذا العدد الذى تراه ضئيلا منذ عُطِّلت سكة الحجاز الحديدية أثناء الحرب الكبرى . ولو أن هذه السكة عادت سيرتها لصارت المدينة فى عداد مدائن الشرق الكبرى . لقد كان سكانها عشرين ألفاً قبل إنشاء سكة الحجاز الحديدية . فلما افتتحت هذه السكة عام ١٩٠٧ ووصلت بين المدينة والشام ، وقربت ما بين المدينة ومصر ، أسرع عدد السكان إلى الزيادة فى سرعة تثير العجب ، إذ ارتفع من عشرين ألفاً عام ١٩٠٧ إلى ثمانين ألفاً أول الحرب ، أى عام ١٩١٤ ، وبذلك زاد إلى أربعة أضعافه فى سبع سنوات . فلما حدثت ثورة النهضة فى هذه البلاد بزعامة الحسين بن على على تركيا خربت السكة الحديدية وبقيت مخربة إلى الآن . من

ثم عاد سكان المدينة يهوى عددهم إلى ثلاثة عشر ألفاً . ولو أن هذه السكة بقيت لم تخرب لأربى سكان المدينة على مائة ألف . ولا عجب ، فهذه السكة شريان حيوى لهذا البلد لا تقل قيمتها بالنسبة لنا عن قناة السويس عندكم لإنجلترا . وحسبك أن تعلم أنا كنا نصرّف حاصلاتنا فى الشام ونبادلها حاصلاتها ، ونتجر مع مصر ونتصل من ثَم بالعالم ، لتقدر الأمر قدره الصحيح . لقد كانت خُضر المدينة ترسل إلى الشام . وكانت فاكهة الشام تجىء إلينا ، وكانت صلاتنا التجارية قد نمت نمواً جلب من الرخاء ما لا يسهل اليوم تصوره ؛ وكثر التعامل وارتفعت الأسعار ؛ فبلغ ثمن قطعة الأرض التى كانت تباع بثلاثة جنيهات قبل السكة الحديدية عشرة جنيهات بعد سيرها ؛ واليوم هبط هذا الثمن إلى جنيهين ولا تجد من يشترى .

« هذا والسكة الحديد لا تزال أكثر أجزائها صالحة ، ولا يحتاج تعميرها إلى مجهود كبير أو نفقة طائلة . وقد فاوضت حكومة البلاد كلا من إنجلترا فى فلسطين وفرنسا فى سوريا للاشتراك مع البلاد العربية فى تعميرها كى تعيدها سيرتها الأولى ، فقامت فى سبيل المفاوضة عقبات سياسية يتصل بعضها بملكية السكة لمن تكون ، وبنفقات التعمير من يتحملها ، ومن يتحمل نفقات التعهد الصيانة ؛ ويجىء وراء ذلك اعتبارات حربية لا نسمو إلى إدراكها . ولو أن هذه الصعاب ذللت لعاد إلى مدينة الرسول من البهجة ما يعيد إلى الذهن صورة العاصمة الإسلامية الأولى . أما ما بقيت فى هذه العزلة المفروضة اليوم عليها فستظل كما هى ، وكما ستراها حين تجوس خلالها ، فقيرة إلى العون الذى يأتيها من الخارج ، مهددة بمثل المجاعة التى هددتها منذ سنين والتى جعلت الحياة فيها بؤساً وضنكاً لولا تبرع المحسنين من المسلمين » .

ألقيت بكل سمعى إلى هذا الحديث الذى حزّ فى نفسى وأثار شجنى . مدينة رسول الله يكون ذلك شأنها والمسلمون ساهون لاهون ! . يا للعار ويا لهوان كل نفس مؤمنة ! أوَ لا يرى المسلمون فى هذا نذيراً من الله لهم كيما يغيروا ما بأنفسهم ليغير ما بهم ! وليس هذا النذير ابن أمس ؛ فقد سمت المدينة شأناً

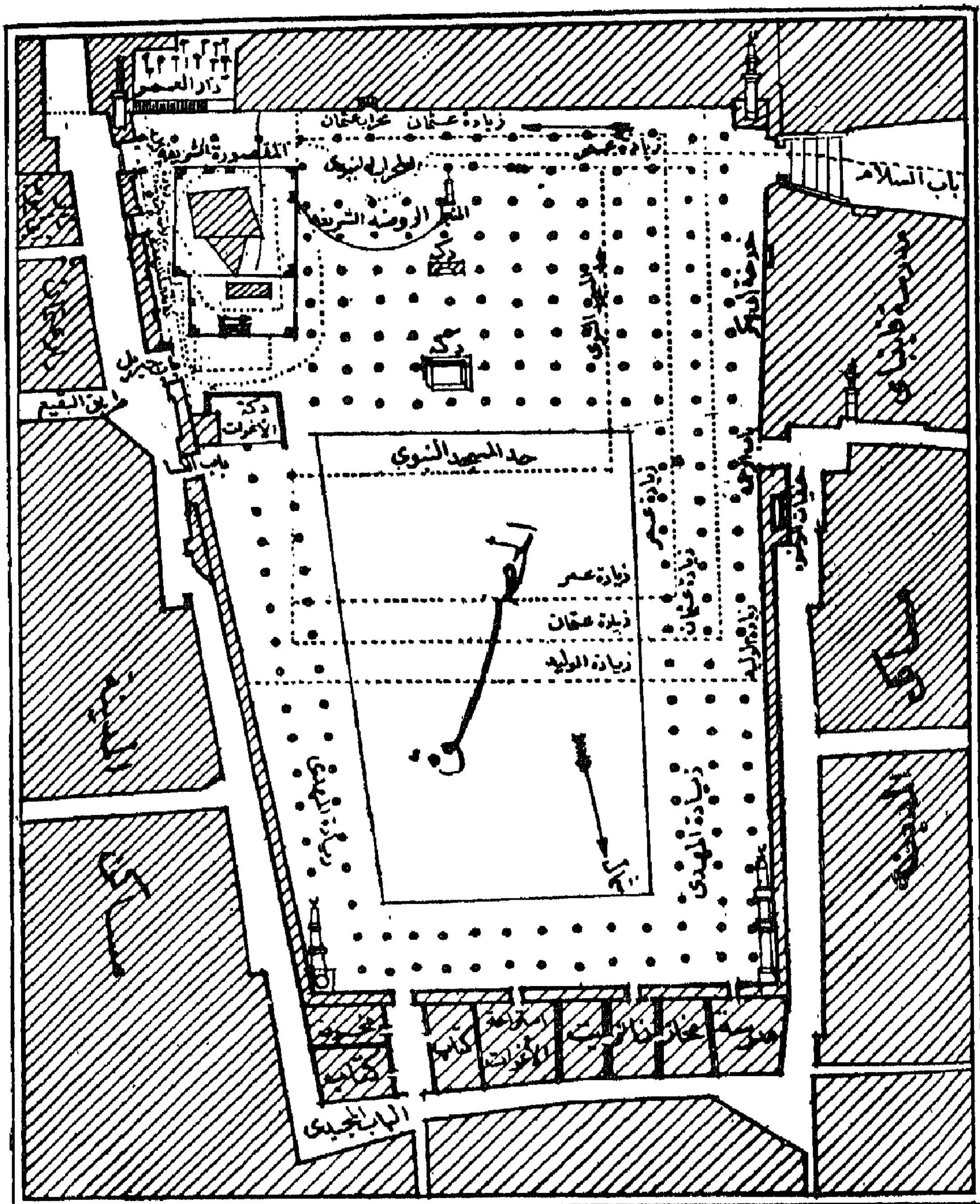
فى كثير من الأحيان ، ثم أصابها مثل هذا الذى أصابها ولما تكن السكة الحديدية هذه قد أنشئت ، ولما يكن التفكير فيها قد بدأ . يقول برخارت فى كتابه الذى وضعه عام ١٨١٥ عن جولاته فى بلاد العرب : « المدينة حسنة البناء ، فكل مبانيها من الحجر . وتتألف منازلها فى أكثر الأمر من طابقين عاليين ، وسقفها مسطح . وهى ليست مبيضة . والحجر الذى شيدت به قاتم اللون ؛ ولذلك كانت طرقاتها أدنى إلى العبوسة ، وأكثر هذه الطرقات بالغة فى الضيق حتى لا تزيد على ذراعين أو ثلاث أذرع . وقليل من طرقاتها الرئيسية مرصوف بأحجار مستديرة كبيرة . وهذا ترف قلما يتوقعه السائح فى بلاد العرب . وهى على العموم من خير البلاد التى شهدت فى الشرق بناء ، وتجىء لذلك فى هذا المضمار ثانية لحلب . على أن مظهرها اليوم يبعث إلى النفس الأسى لما يهدد منازلها من الدمار . ذلك بأن ملاك هذه المنازل كانوا يحصلون على أرباح طائلة من أحشاد الزوار الذين يجيئون إليها على اختلاف فصول السنة . أما الآن وقد نقصت مواردهم لا يقدمون على ما يكلفه البناء من عظيم النفقة وهم يعلمون أنهم لن يستردوا نفقاتهم بتأجير منازلهم . لذلك ترى المنازل الخربة والجدران التى توشك أن تنقض فى كل مكان ؛ ومن ثم كان منظر المدينة كأكثر مدن الشرق مما يبعث إلى القلب الحسرة ولا يعيد إلى الذهن من بهائها القديم إلا صورة ذابلة »[1] .

ليست السكة الحديدية وسيرها وانقطاعها كل السبب إذاً فيما أصاب المدينة من تفاوت الحظ . أفأصاب هذا التفاوت غيرها من مدن الشرق جميعاً ، أم أنها خصت منه بنصيب تفردت به ؟ وإن يكن ذلك حقاً فما سببه ؟ أمسيت أفكر فى هذا أحاول رده إلى موقع المدينة حيناً وإلى تأثير هذا الموقع فى طباع أهلها حيناً آخر . ولقد بدا لى أثناء تفكيرى ما زادنى حرصاً عليه وإمعاناً فيه . فقد كانت يثرب حتى هجرة النبى إليها مقام الأوس والخزرج من أهلها ، واليهود الذين سبقوهم إليها وأقاموا بها . وكان الأوس والخزرج إلى يومئذ

---

(١) برخارت . الجزء الثانى صفحة ١٥٠ .

الحرم النبوي



ما يفتئون يقتتلون فيزيد قتالهم وتناحرهم ما لليهود بالمدينة من سلطان بقدر ما يصيبهم هم من ضعف وانحلال . فلما جمع الدين الجديد الأوس والخزرج بعد أن هاجر إليهم الرسول وأصحابه من مكة وصاروا معهم بفضل الله إخوانـًا متحابين متضافرين انحل سلطان اليهود وضعفت شوكتهم ثم انتهوا إلى الجلاء عن المدينة بقضهم وقضيضهم . لكن الأمر فى المدينة لم يعد إلى الأوس والخزرج من أبناء الأنصار منذ الهجرة . وما كان هذا الأمر ليعود إليهم ورسول الله بينهم وقد آمنوا به واتبعوه ونصروه . ثم إنه لم يعد إليهم بعد أن اختار الرسول الرفيق الأعلى ، على ما كان لهم فيه من مطمع . فقد انحاز حىٌّ من الأنصار عقب وفاة الرسول إلى سقيفة بنى ساعدة يتآلثون على الأمر يريدونه لأنفسهم ؛ فلما ذهب أبو بكر وعمر على رأس المهاجرين قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ؛ فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، قد دفّت دافة من قومكم ، وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر » . لكن أبا بكر لم يرض هذا القول فتحدث وختم حديثه بهذه العبارة القوية : « فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فنا الأمراء ومنكم الوزراء » . ولم يغن عن الأنصار ما طلبوا من أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير بل انتهى اجتماع السقيفة ببيعة أبى بكر بالخلافة . وقبيل وفاته عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب ، فبايعه الناس بها ولم ينازعه أحد من الأنصار فيها . وتولى عثمان الخلافة بعد عمر وقد اطمأن الأنصار إلى أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فلما قتل عثمان وبدأ النزاع على الخلافة بين القرشيين من بنى أمية وبنى هاشم لم يكن لأحد من أهل المدينة فيه مطمع .

وقُتل على بن أبى طالب بالكوفة ، فجعلها أبناؤه موضع نشاطهم على بنى أمية ، وجعل بنو أمية عاصمتهم دمشق ، ثم جعل عبد الله بن الزبير مكة عاصمة ثورته ؛ وانحلت بذلك عن المدينة صفة العاصمة . مع ذلك لم يقم من يطالب بأن تظل المدينة عاصمة المملكة الإسلامية كما كانت فى عهد

النبي ؛ وكان لمن يطالب بذلك الحجة البالغة . فقد تخوف آباؤهم بعد فتح مكة أن يعود النبي إلى أهله وبلده ، فكان جوابه إذ بلغته قالتهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم » . وقد نزل بالمدينة من وحى الله إلى رسوله أكثر مما نزل بمكة وبأى بلد آخر . ولئن يكن بمكة بيت الله لقد مات رسول الله بالمدينة ودفن بها . لكن الأنصار آثروا العافية من يوم سقيفة بنى ساعدة ، وتركوا الأمر لتصريف غيرهم ؛ لذلك جعلت مدينتهم تزدهر حيناً وتبتئس حيناً . فأين ترى موضع السر فى ذلك ؟

لعل هذا السرد الوجيز السريع قد كشف عن شىء من هذا السر . فليس موقع المدينة وما له من أثر فى أخلاق بنيها هو الذى أدى إلى ما أصابها من تفاوت الحظ . ولو أن الموقع كان أعظم أثراً من أحداث التاريخ لكانت المدينة — طيبة الحجاز — أسعد على الزمان حظًّا . فهى ترتفع على سطح البحر أكثر من ستمائة متر ؛ وجوُّها لذلك أدنى إلى الاعتدال على رغم وقوعها على خط العرض الذى تقع عليه الأقصر طيبة مصر الفراعنة . ثم لا ترتفع الحرارة فيها صيفاً إلى ما ترتفع إليه فى القاهرة أو فى الإسكندرية ، وتصل برودة الشتاء إلى القدر الذى يتجمد فيه الماء فى الآنية ساعة الصباح . وسلسلة الجبال التى تنحدر من الشام إلى اليمن تمر شرقيها ويخرج منها جبل أحد فيكاد يجاوز ضواحيها . لكن الشمال والغرب والجنوب منبسطة كلها تنبع فيها مياه الآبار وتجرى إليها مياه العيون فتخصبها وتحيطها بحدائق ونخيل وخضرة يانعة منوّرة فى ابتسامها للحياة . وفى هذه الجبال الواقعة حول المدينة وفى الحرار المحيطة بها يتوسم الكثيرون وجود أحجار نفيسة ومعادن مختلفة . ومهد الذهب الذى استُغل إلى عهد العباسيين والذى يستغل اليوم يقع على مقربة منها . أمّا وذلك خصب الأرض وثراؤها ، فالطبيعى أن تكون المدينة مُتطلع الناس لسكناها . فإذا تفاوت حظها فى هذا الأمر على ما قدمنا فيجب أن نبحث عن السر فى غير الموقع الطبيعى من الأسباب .

وتاريخ يثرب قبل الإسلام وبعد العصور الأولى يؤيد هذا الرأى . فهى

قد كانت فى الجاهلية الأولى وحين هجرة النبى إليها مقصودة لحسن موقعها ، وكانت ذات أسواق وأيام . والسابقون إلى الإقامة بها هم اليهود ، ولعلهم هبطوا إليها كما هبطوا إلى مدن الحجاز الواقعة فى شمالها فراراً من حكم رومية وبزنطية فى فلسطين . فلما حطم سيل العَرِم سد مأرب باليمن وهاجر أزد اليمن إلى الشمال ، مالت قبيلتا الأوس والخزرج منها إلى يثرب وأقامتا بها . ورضيت القبيلتان حكم اليهود أول الأمر ، ثم خرجتا عليهم وأوقعتا بهم بمعونة ملوك غسان . وظل الأوس والخزرج يتنازعان السلطان على يثرب بعد ذلك وتقع بينهما حروب ما يزال التاريخ يحدّث عنها ، حتى كانت هجرة النبى إليها بعد بيعتى العقبة . من يومئذ بقيت يثرب عاصمةً إلى خلافة على بن أبى طالب . هنالك اعتصم معاوية بالشام ، واتخذ علىّ الكوفة عاصمته حتى قتل بها . عند ذلك أتيحت للمدينة فرصة تستّرد بها مكانتها . فكما أدى مقتل عثمان إلى انتقاض كثيرين على علىّ لعدم إسراعه إلى القصاص من قتلة عثمان فقد أدى مقتل علىّ ثم مقتل الحسين ابنه إلى انتقاض كثيرين على بنى أمية . ولقد كان عبد الله ابن الزبير من أشد أعوان الحسين إلى يوم قتله بكربلاء . فلما وقعت هذه المأساة الفاجعة ترك ابن الزبير الكوفة ولحق بمكة ودعا الناس لينضموا إليه ؛ فخرجت مكة وخرجت المدينة على الأمويين وانضمتا إلى داعية بنى هاشم . وقد جرد يزيد جيشاً إلى المدينة وآخر إلى مكة . أما جيش المدينة فغزاها فى وقعة الحَرَّة وانتهك حرماتها وأخضع أهلها وحطم أملها فى أن تعود عاصمة الإسلام كما كانت فى عهد النبى . وأما جيش مكة فظل يحصر أهلها حتى مات يزيد ، ثم فتحها الأمويون وقُتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة . من يومئذ أذعنت المدينة لحكم بنى أمية ومن قام بعدهم مقامهم ، وكفى أهلها أن يكونوا موضع عناية الخلفاء وأمراء المؤمنين . وزادهم قناعة بهذه العناية أن أفنت الحروب والثورات أكثر أبنائها العرب وأحلت غيرهم من شتى الأقطار الإسلامية محلهم فيها ، فلم يكن من هؤلاء من يهتز لمجدها القديم أو يثور لإعادته . وبلغت هذه العناية بالمدينة فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة مبلغاً سما بها أثناءها إلى

مقام محسود من الرقى المادى والرقى الأدبى . ومن يومئذ بقيت تعتمد فى حياتها على حسن توجه الملوك والأمراء والمسلمين جميعاً إليها بسبب مكانتها الدينية ، وفقد أهلها الاعتماد على أنفسهم .

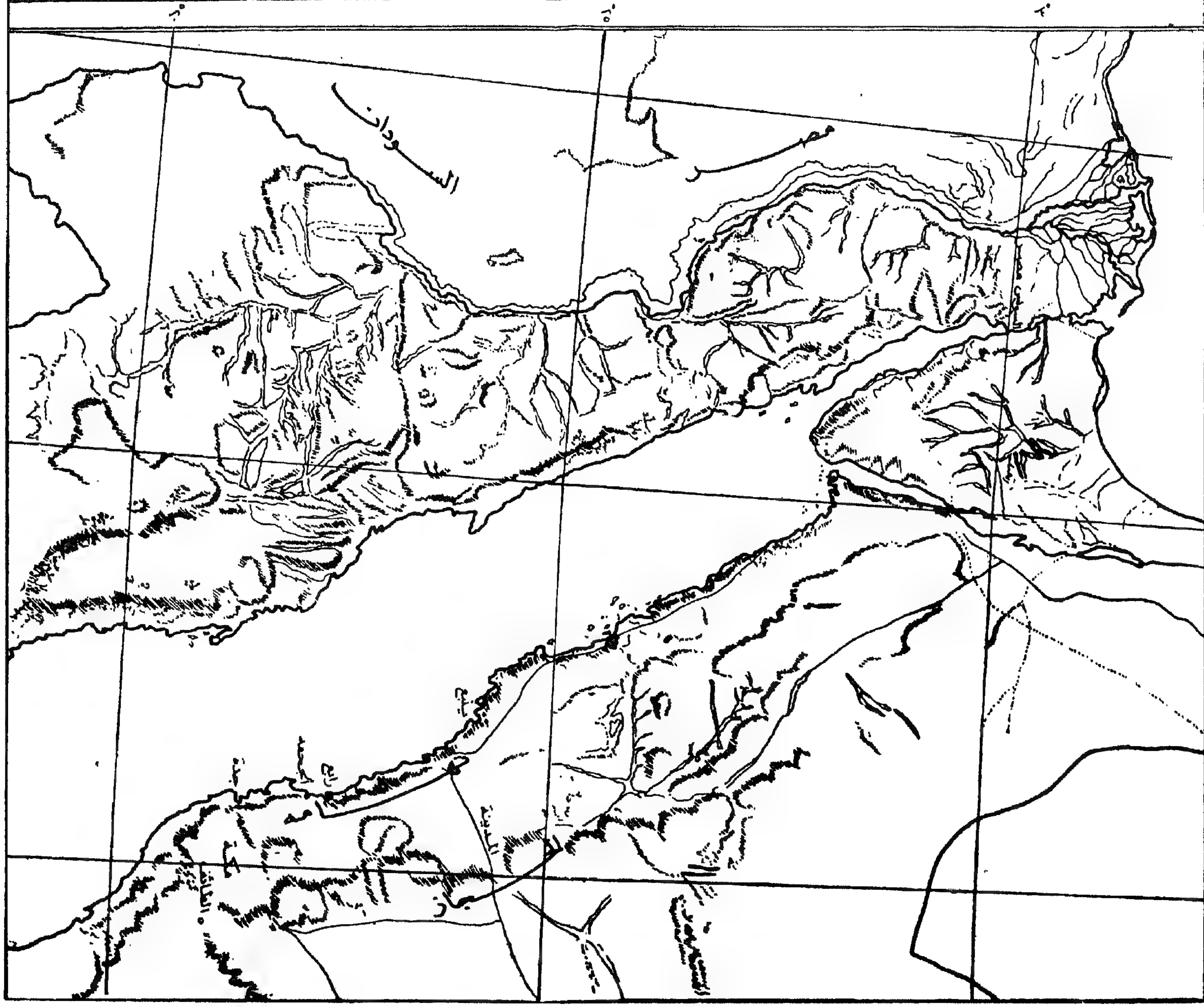
رأيت فى الفصل الأخير صورة واضحة من ذلك الاعتماد على الغير فى عمارة المسجد النبوى من بعد بناء عثمان . فلما بدأت عصور الاضطراب وتداعت أركان الدولة الإسلامية ، كان أهل المدينة قد فقدوا ملكة الاعتداد بالذات وأصبحوا يعيشون كلا على غيرهم من المسلمين . ولهذا السبب بدأ حظ بلدهم يتفاوت من اليسار أيام الاستقرار فى البلاد الإسلامية ، وكثرة زوار المدينة تبعاً لذلك ، إلى الشدة والإعسار أيام الاضطراب وانصراف المسلمين عن أداء فرض الحج وسُنة الزيارة . وما حدث من انكماش سكان المدينة بعد تعطيل السكة الحديدية منذ الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ للميلاد يرجع إلى انقطاع سبيل الزوار أكثر مما يرجع إلى قلة التجارة ؛ فقد انقطع الحج أو كاد أيام الحرب من خوف مفاجآت البحر ، إذ كان يصيب « الطوربيد » السفن ؛ ولما كان من شُغل العالم بالمجزرة المروعة المنتشرة فيه عن كل شيء سواها . فلما انقطعت السكة الحديدية لم يكن عود الناس من أهل مصر والشام إلى الزيارة الرجبية ميسوراً . ولما كانت الثروات التى حصلها أهل المدينة فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب وحين سارت إليها السكة الحديدية لم تستقر ، فقد أصابتها الحرب والأزمة التى أعقبت الحرب بصدمة عنيفة أحدثت هذا الانكماش الذى رد سكان المدينة من ثمانين ألفاً إلى ثلاثة عشر ألفاً . ولو أن أهلها ألفوا الاعتماد على أنفسهم ولم يجعلوا من موسم الزيارة ومن صدقات المسلمين مورد حياتهم ، لما أصابهم من الجهد ما أصابهم ، بل لاحتملوا الشدة بالصبر والتمسوا الخروج منها بالحيلة . لكن الذين جاءوا إليها بعد سير السكة الحديدية إنما جاءوا يبتغون تجارة هينة ورزقاً ميسوراً . فلما تعذرت أسباب الرزق فرّوا منصرفين إلى بلادهم آملين فيها رزقاً أكثر بسطة وتجارة أوفر ربحاً .

ومن عجب أن الذين ظلوا مقيمين بالمدينة من أهلها لم يفيدوا من هذه

الشدة عبرة ولم يذروا ما ألفوا من الاعتماد على الصدقات وما ينفقه الزائرون لقبر النبى ، ولم يفكر أحد منهم فى أن ينزع بها منزع الاعتماد على مواردها الذاتية . ولقد رأيت ذلك بنفسى حين نزلت إليها وجست خلال أزقتها الضيقة وسرت فى أسواقها أشهد حوانيتها الصغيرة فلم أر فيها تجارة غير ما يحتاج إليه زوارها . وأعجب من ذلك أن هذه التجارة مجلوبة كلها من الخارج . فأما ما تُنبته المدينة فليس يتجر منه فى غير البلح الكثير الأصناف ، الذى يبتاعه الناس تبركاً أكثر مما يبتاعونه لجودته ؛ هذا على أن أصنافه الجيدة كثيرة وصالحة للتجارة كل الصلاح . لكن أهل المدينة لم يعن منهم أحد بأمر هذه الأصناف وحسن تهيئتها للتصدير ، لا من حيث اختيارها ، ولا من حيث عرضها فى عُلب أو صناديق تسترعى النظر ، ولا من حيث الإعلان عنها ، ولا من حيث نقلها للتجارة فى بلد آخر .

وليس يسترعى النظر فى أسواق المدينة شىء يقف الإنسان عنده . ولولا التبرك وما له على النفوس من سلطان لما عاد إليها من مرّ بالأزقة الضيقة التى تحويها . فهذه الأزقة أكثر ضيقاً من مثلها فى أصغر القرى بأرياف مصر . وهى مكتظة أثناء موسم الزيارة على نحو يدعو إلى الفرار منها حذر الاختناق بها . ولقد شُقت بعض شوارع فسيحة فى المدينة أثناء الحرب ، لكنها ليست مقصودة كتلك الأزقة . ولعل الناس لا يرون فيها ما بالأزقة من بركة ، أم لعل الحوانيت بها أعلى أجراً وأهل المدينة أحرص على ألا يبسطوا أيديهم كل البسط فى هذه السنين التى أصابت المجاعة فيها بلدهم المقدّس غير مرة . وقد يفسر ذلك بعضهم هذه الظاهرة من التمسك بالأزقة والإقامة بها بقربها من المسجد النبوى قربا يحرص كلٌّ على أن يبلغ منه غاية ما يستطيع .

وضيق الأزقة بالمدينة مضرب للمثل ، فما يكاد يضاهيه مما بمكة شىء على ما أسلفنا من ضيق طرقها . فمن أزقة المدينة ما لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنباً إلى جنب ، فإذا لقيهما غيرهما لم يكن بد من أن ينتحى أحدهما وأن يسير وراء صاحبه ليفسح للعابر بها سبيلا . وهذا على سعة رقعة الأرض فيما حول


السودان
مصر

المدينة سعة تطوع لعشرات الألوف حين الرخاء أن يشيدوا المبانى بها . لكنما ألف الناس من أهل المدينة هذا النوع من العيش فى الأزقة الضيقة . فإذا عضّت سنو الشدة بلدهم وغادرها من ليس أصيلا بها ظل أبناؤها فى الدائرة المحيطة بالمسجد ، لا يفكر أحد منهم فيما يفكر أهل هذا العصر فيه من توسيع الطرق لتهوية البلد كفالة لصحة أبنائه .

يذكر لبيب بك البتانونى فى رحلته الحجازية من أسماء أزقة المدينة : زقاق البقر ، وزقاق الخياطين ، وزقاق الحبس ، وزقاق عنقيني ، وزقاق السماهيدى ، وزقاق البدور ، وزقاق الأغوات ، وزقاق يا هو ، وزقاق الكبريت ، وزقاق القماشين ، وزقاق الحجامين ، وزقاق مالك بن أنس ، ثم يقول : « وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة وضيقها يساعد كثيراً على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف كما هو الشأن فى أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يبتدئ من الباب المصرى إلى الحرم الشريف فى شارع ضيق طوله خمسمائة متر تقريبًا يقطعه على المارة تقابل جملين فيه مع بعضهما . والحركة فيه تكاد تنحصر فى مدة الحج والموسم الرجبى . وهو موسم الزيارة الرسمية فى بلاد العرب » . هذا ما كتبه لبيب بك من أكثر من ربع قرن تغير فيه وجه العالم بالحرب وحلول السيارة محل الجمل وبتنظيم الطيران وبتغيير نظام المدن . مع ذلك بقيت المدينة لم يتغير فيها شيء ، وبقى سوق المدينة على ضيقه من أكثر أزقة المدينة سعة ونشاطًا ، وبقى نشاطه ونشاط المدينة كلها محصوراً فى مدة الحج . أما الموسم الرجبى فلم يبق فى مثل نشاطه الأول .

ولقد أعانت عوامل كثيرة على بقاء الحال فى المدينة لم يصبها تطور خلا حلول السيارة محل الجمل بمقدار ما حدث فى بلاد العرب كلها ، على حين أصابها أذى وشر كثير . من هذه العوامل ما حدث أثناء الحرب وبعدها من قلق واضطراب فى هذا البلد المقدس زاد على مثله فى سائر بلاد العرب . بدأ ذلك حين انتقض الشريف حسين على الأتراك واتفق مع إنجلترا على استقلال العرب . إذ ذاك تحصن الأتراك بالمدينة واتخذوا قلاعها ملاذهم . فلما

رأوا الأمر وشيكاً أن يخرج من أيديهم أخذ فخرى باشا خير ما فيها من نفائس فبعث بها إلى الآستانة : أخذ الجواهر التى بالحجرة النبوية ، وأخذ أنفس ما فى مكتبات المدينة من المخطوطات والكتب النادرة ، وتركها للأشراف يحتلونها مجردة من هذه المفاخر التى كانت لها والتى كانت ذات أثر عظيم فى توجه العالم الإسلامى إليها . ولئن لم يكن هذا الأثر شيئاً مذكوراً إلى جانب المسجد النبوى وقبر الرسول فيه ، لقد كان للكوكب الدرى ولهذه النفائس المتصلة بالحجرة ، وكان لكتب السلف المحفوظة بمكتبات المدينة سلطان على النفوس لا سبيل إلى إنكاره . فلما استقر الأمر للأشراف فى الحجاز بدءوا يفكرون فى الإصلاح . لكنهم لم يلبثوا أن دهمتهم الحرب السعودية التى أصابت المدينة بمثل ما أصابتها ثورة النهضة بل بشر مما أصابتها به . كانت المدينة من ناحية العمارة الأثرية متحفاً نفيساً بالغاً غاية الجمال . كانت القباب المقامة على قبور أمهات المؤمنين وعلى قبور الصحابة بالبقيع بعض ما يشهد لفن العمارة الإسلامية بسبق يغبطه عليه أكثر الناس تقدماً فى العمارة ، حتى لقد كان الأتراك يطلقون على هذه المجموعة البديعة فى فن المعمار اسم « جنة البقيع » . وكان على قبر سيد الشهداء حمزة عم الرسول مسجد وقبة تهوى إليهما النفوس ويفاخر بهما الفن . وكان ثمة من هذه العمارة الفنية كثير كان يشغل الناس عن ضيق الأزقة بالمدينة وعن كثير مما لا يجارى العصر فيها . فجاء الوهابيون من أشياع ابن السعود على هذه الآثار الفنية هدماً وتحطيماً ؛ لأنها لا تتفق مع عقيدتهم الإسلامية من وجوب تسوية القبور بالأرض ومن تحريم التبرك بالقبور وقبابها أو اتخاذ أصحابها إلى الله شفعاء وزلفى ، ففى ذلك إشراك بالله لا يقره التوحيد ولا يرضاه الإسلام فى رأيهم .

وقف أهل المدينة إزاء هاتين الحركتين : حركة الأتراك ، وحركة الوهابيين ، مشدوهين حيارى لا يعرفون ما يصنعون . أنّى لهم أن يعرفوا مدينتهم تضمحل مذ عطلت الحرب مواصلاتها مع الشام ، والرخاء يزايلهم بانقطاع الزيارة أثناء الحرب وبعدها ، وأحوالهم تنحدر سراعاً إلى أسوأ ما يتصور

الإنسان ! . لا عجب إذاً أن تقف المدينة دون التطور الذى أعقب الحرب فى العالم كله ، وأن يكون بقاؤها حتى اليوم عامرة بمن ظلوا مقيمين بها رغم القحط والمجاعة وسوء الحال معجزة من المعجزات لا يفسرها إلا ما يملأ قلوب هؤلاء الناس من إيمان بالرسول ورسالته وإعزاز لقبره وحرص شديد على المقام فى جواره .

لأهل المدينة العذر وهذا ما نزل ببلدهم إذا هم لم يجاروا تطور العالم بعد الحرب . لكن من الواجب ألا ننسى عوامل أخرى كانت فى هذه الأحوال وفيما سبقتها سبباً فى وقوف المدينة دون مجاراة العالم فى تطوره . وفى مقدمة هذه العوامل روح الاعتماد على الغير باسم التوكل على الله ، وروح الإذعان باسم الإسلام لقضاء الله . فقد بقيت المدينة تعتمد ، وقد زالت عنها صفة العاصمة للمملكة الإسلامية ، على حسن توجه الملوك والأمراء إليها بسبب مكانتها الدينية لوجود القبر النبوى بها أكثر من اعتمادها على جهود أبنائها وحسن سعيهم لخيرها ، وترى فيما يبذله المسلمون فى مختلف بقاع الأرض لها من هبات وأوقاف مصدر حياتها ورزقها. وليتها استعانت بذلك على تنمية مواردها أو المزيد من جمالها أو حسن تنظيمها ، بل أمسك الجهل أهلها دون القيام بشىء من ذلك كله وحبسهم فى حدود هذه المعونة الواردة إليهم من غير أن يكون لهم أى فضل فى الإبقاء عليها ، بَلْهَ المزيد فيها .

من الظلم أن نلقى التبعة عن هذه الحال على أهل المدينة وحدهم . ولعل الحظ الأوفى منها يقع على أولى الأمر فى عواصم الإسلام ممن كان لهم على المدينة الحكم والسلطان . هؤلاء حرصوا على أن يظل أهل المدينة فى غيابات الجهل حتى لا يكون لهم من العلم قوة تضاعف بأسهم بمجاورتهم قبر الرسول . فلو أنهم تعلموا وعلموا الحق الذى جاء محمداً من ربه مُبَرَّأً من كل شائبة لكان لهم شأن غير شأنهم منذ انحل سلطان العاصمة عن مدينتهم ، إذاً لعلموا أن الإسلام لله والتوكل عليه أول شرائطهما السعى وبذل غاية الجهد لدرك الغاية التى يجعلها الإنسان هدف حياته، ولأيقنوا أن الله فى عون العبد ما دام العبد

فى عون نفسه وفى عون أخيه ، ولأدركوا أن هذه الحياة الدنيا فترة هيأها القدر ليقوم المرء فيها بواجبه لنفسه ولإخوانه ، فإن هو قصر فى أداء هذا الواجب فقد قصر فى أداء حق الله ولم يبلغ الحظ الذى يتيح له الرضا فى الحياة . لكنهم إن أدركوا هذا وآمنوا به أصبح حكم الاستبداد إياهم محالا ، لذلك حجب الحكام المستبدون عنهم نور العلم وغشّوا دونهم ضياءه .

يدلك على ذلك أن أرقى مدرسة بالمدينة اليوم هى مدرسة العلوم الشرعية . واسم هذه المدرسة ضخم يكبُر حقيقتها . ولقد حسبتها أول ما سمعت هذا الاسم من نوع مدرسة القضاء الشرعى بمصر ، فلما زرتها ألفيتها مدرسة ابتدائية تدرس أحكام الشريعة فى الفصول العليا منها . وزرت مدارس أخرى فإذا هى دون هذا الطراز مكانة ، وإذا هى تعنى بالصناعات اليدوية الأولية كصناعة الجلود والنسيج البسيط أكثر من عنايتها بأمور العلم . وهذه المدارس كلها تجرى عليها النفقة من هبات وأموال تجيء من الهند ، وغاية مطمعها من ناحية الحكومة القائمة أن تنال عطفها ، فكثيراً ما لقيت أمثال هذه المدارس العنت فى العهد العثمانى ، وكثيراً ما اتهمت بأنها أقيمت لأغراض سياسية تناوئ مرامى الدولة ولم تقم لوجه الله ورسوله .

وثم مدرسة أنشئت فى عهد هذه الحكومة الحاضرة ، ولها من رعايتها الحظ الأوفى ، تلك مدرسة الأيتام . ولقد دُعيت إلى حفلة أقيمت لخيرها حضرها أمير المدينة وأعيانها ، عرضت فيها مصنوعاتها لمن يشتريها ، وألقى فيها تلاميذها مقطوعات وخطباً دُربوا عليها . ولقد لمحت فى هؤلاء التلاميذ ، ومنهم بدو لم يألفوا الحضر قبل التحاقهم بهذه المدرسة ، نجابة واستعداداً للعلم يدلان على أن المستبدين لم يخطئوا حين خافوا مغبة العلم على سلطانهم فى هذه البلاد . لكن ما يتعلمه تلاميذ هذه المدرسة لا يزيد على المعلومات الأولية التى تلقى فى غيرها ، ولا يقصد منه إلى أكثر من المعلومات العملية ذات النفع البُدائى فى الحياة .

ماذا عسى أن ينشأ عن هذه الحال من ألوان التفكير وألوان العيش ؟ يذكر

الذين زاروا المدينة وعاشروا أهلها أنهم قوم على جانب عظيم من دماثة الطبع ورقة الخلق . وهذا طبيعى فى البلاد التى تعيش على السياحة والسائحين أيًّا كان سبب السياحة . ويزيد بعضهم أن فى مجاورة أهل المدينة قبر الرسول ومسجده ما يبث فى نفوسهم هذه الدماثة وهذه الرقة . ولست أدرى مبلغ الصحة فى هذه الحجة بعد ما ذكر لى غير واحد ممن اتصلت بهم أن كثيرين من أهل المدينة ينظرون إلى الحياة بعين مستهترة بالحياة مشغوفة بمتعها المادية ولذاذاتها الدنيا ، وأن منهم من ينفق ما يكسبه فى موسم الحج والزيارة فى هذه المتع واللذاذات غير حاسب للغد حسابًا ، مطمئنًّا إلى الموسم المقبل وما تدره عليه أخلافه من رزق . ولست أتهم الذين حدثونى بهذا الحديث وقد دعيت إلى غداء فى بستان المَصْرع على مقربة من قبر حمزة ، فكان مما أراده إخواننا أن يدعو مُضيفنا مغَنِّيًا أو قينة وضارب عود . ولم يتردد مضيفنا فى الأمر بادئ الرأى ، لكنه خشى من بعد غضب أمير المدينة النجدى الوهابى المتزمت عبد العزيز بن إبراهيم ، وذلك حين علم أن الأمير أتاه نبأ من هذه الدعوة وأسماء المدعوين فيها ، وأنه سيقف أغلب الأمر على حديثها وعلى كل ما يجرى أثناءها .

ولقد أذكرتنى الوليمة ببستان المصرع قول البتانونى فى رحلته : « ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه فى البساتين خارج المدينة ، فيخرجون إليها فى يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات ويعودون فى المساء ؛ وقد يخرجون إلى الرياضة من أول اليوم ومعهم غداؤهم فيمضون نهارهم بأحد البساتين التى بضواحى المدينة فى سرور وحبور . ويسمون هذه الفسحة مقيالا » .

والطبيعة المحيطة بالمدينة تعاون على هذا اللون من الحياة ؛ فالبساتين حولها كثيرة ، والخضرة بسامة ، والحياة ضحوك . ولولا أحداث الزمن وما أصاب هذا البلد الطيب من بأساء وما تركه ذلك فى نفوس أهله من أثر لَـمَا تعرضوا لما يصيبهم من تفاوت الحظ . ومُقام أهل المدينة إلى جوار الرسول والحجرة النبوية ، وتأثرهم بالتطور الذى حدث فى التفكير الإسلامى أكثر من سواهم ،

وهذا التوكل المطلق الذى أصبح بعض خلقهم ، يجعلهم أدنى إلى الصبر والرضا وأقل جزعًا لكوارث الدهر . من ذلك ما لا حظه غير واحد من أنهم لا ينوحون على موتاهم ولا يبكونهم ، وأنهم يسرفون فى التجلد والصبر إسراف المصريين فى الجزع لدى الفاجعة والحزن لها . وهم فى توكلهم لا يحسبون لغد حسابًا . وماذا ينفعهم أن يحسبوا وقد ألفوا من فُجاءات الدهر بالسراء والضراء ما يضل معه كل حساب ، وقد علمهم تعاقب الأجيال أن الأمر فى مدينتهم ليس لهم بل للحاكم الأجنبى عنهم ، الذى يعنى بسياسته وتطبيقها عندهم أكثر من عنايته برقيهم ورخائهم ؟

ولقد كان من أثر ذيوع الأمية والجهل بالمدينة أن لم يعن أحد من أهلها بتنظيم المكتبات العامة الموجودة بها . فبالمدينة مكتبات عامة تحتوى من المخطوطات والكتب المطبوعة على ألوف المجلدات . ومكتبة السلطان محمود ومكتبة السلطان عبد الحميد ومكتبة بشير أغا من المكتبات التى يتحدث الناس فى المدينة عنها . فأما أكبر مكتبة بها فكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت . وفى وصف هذه المكتبة يقول البتانونى : « هى قريبة من باب جبريل إلى جهة القبلة . وهذه الكتبخانة آية فى نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها ، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمى الفاخر ، وفى وسط حوشها نافورة من الرخام فيها صنابير للوضوء وفيها كتب ثمينة جدًا لا يقل عددها عن أربعة وأربعمائة وخمسة آلاف كتاب . ولقد رأيت بها شيئًا من غرائب الصناعة النادرة فى بابها ، وهو كتاب أسفار فارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل لملاّ شاهى . وبينا نحن نعجب من جودة الخط وإتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة إلى أن حروف الكتابة إنما هى ملصوقة على الورق ، فتأملناها فوجدنا شيئًا يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته خصوصًا عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ثم يلصقونها على ورقة أخرى » .

ولقد حرصت على زيارة هذه المكتبة لكثرة ما سمعت عنها بمكة . فلما

زرتُها أعجبت بالسجاد العجمى ونافورة المياه التى ذكرها البتانونى . لكننى حرصت مع ذلك على أن أقف على نظامها ، فسألت أمينها عن فهارسها وعن طريقة القراءة والمراجعة فيها . ولم يثر دهشتى نقص الفهارس ولا أثارها عدم العناية بتنظيم الانتفاع بالمكتبة بعد الذى عرفته من انتشار الأمية بالمدينة . والواقع أن أمين الدار ، وهو شيخ حسن الحديث واسع الاطلاع على محتوياتها ، يكاد يكون هو الفهارس وهو المرشد إلى كل ما دق وجل فيها . وقد دلنى حينئذ على قلة رواد المكتبة من أهل المدينة ومن الحجاج ، وأن الذين يجيئون إليها يجيئون يدفعهم التطلع للإحاطة بها فى نظرة عامة أكثر مما يدفعهم الحرص على مراجعة كتبها أو الانتفاع بها . ومعظم ما يطمع الأمين فيه أن يجد من يُعنى بمخطوط من المخطوطات فينقله مأجوراً . وهو لذلك جد حريص على أن يؤكد صحة المخطوطات التى بالمكتبة ودقة اتفاقها مع الأصل الذى نُقلت عنه إن لم تكن هى هذا الأصل بالفعل . وقد أطلعنى على « مُعْجِز أحمد » ، وهو شرح أبى العلاء المعرى لديوان المتنبى ، وأكد لى صحة نسبته إلى الأصل ودقة نقله . وأوشكت أن أطلب إليه استنساخه لولا أننى علمت من أحد أبناء المدينة حين طالعته بما دار من ذلك بخلدى أن هذه النسبة إلى المعرّى موضع ريبة وأن القول بدقة النقل مبالغ فيه .

وتمنيت مذ عرفت تعدد المكتبات بالمدينة أن يبنى لها جميعاً دار واحدة تجمع كل ما فيها وتنظم تنظيماً حديثاً يكفل الاستفادة منها . لكننى إذ عدت إلى نفسى ألفيت أن ما أطلبه من ذلك أدنى إلى المنى التى لا تحقق . فأهل المدينة يحسبون هذه المكتبات زُخرفاً ، وقلّ منهم من يقدر ما تعود به المكتبات من فائدة إذا وجدت المنتفعين بها الحريصين على نشر كنوزها وتبويب ما فيها تبويباً علمياً صحيحاً .

وكيف يتسنى لبلد لا يزيد سكانه على ثلاثة عشر ألفاً ، وهو ليس مركزاً علمياً ، أن يفكر فى مثل هذا الأمر ! وكيف يتسنى له أن يفكر فيه ومبلغه من العلم ما رأيت ! . حسبه أن يكون متحفاً لآثار تظل محفوظة رجاء يوم

يسعد الحظ فيه المدينة فيكون أهلها من العلم أوفر نصيباً ويكون زائروها أكثر على البحث والدرس توفراً ليكون هذا التفكير بعض ما يدخل فى حيز الممكنات .

ولعل هذا اليوم يكون قريباً ! . فقد تعود سكة الحجاز سيرتها ، فيعود إلى المدينة الرخاء ويكثر فيها السكان ويزداد النشاط ويطرد ذلك زمناً تستقر فيه الأمور وتصبح غير ما هى اليوم . ألا ما أكثر ما أتمنى ذلك ! وما أكثر ما يتمناه كل محب لهذا البلد ! بل ما أكثر ما يتمناه كل محب للإنسانية ! . لقد تنقلت خارج أسوار المدينة حيث كانت تقوم الدور والأحياء حين بلغ سكان المدينة ثمانين ألفاً ، فأسفت لحالها الحاضرة ، وعجبت كيف تطاوع ساسة الغرب أنفسهم على التآمر لقتل بلد مثله من اليسير إحياؤه بما لا يضر أحداً وما يعود بالخير على الجميع . ولولا أنى أكبر هؤلاء الساسة وأحسبهم أسمى نفساً من أن يدفعهم التعصب الدينى إلى محاربة المدينة لوجود قبر نبى الإسلام بها لخلتُ هذا الدافع أقوى ما تتأثر به نفوسهم . ومهما يكن من الأمر فما أرانى أسيغ هذه الصعاب التى يقيمونها دون تعمير السكة الحديدية وقد استطاعت السياسة بأوضاعها المرنة أن تحل ما هو أعسر منها وأشد تعقيداً .

والسور الذى كانت هذه المبانى قائمة فيما وراءه والذى يحيط بالمدينة القديمة ما يزال قائماً إلى اليوم ؛ ولقد كان عَضُد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله أول من أنشأه فى سنة ٣٦٠ هـ اتقاء لغزو الأعراب المدينة ، ثم كان الأمراء يقيمونه كلما تداعت أركانه ، حتى عمّره محمد على باشا بعد انتصار جيوشه على الوهابيين . وجدده السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٥ هـ وبنى فيه أربعين برجاً تشرف على ضواحى المدينة للدفاع عنها ؛ وما تزال القلاع قائمة فى بعض نواحيه اليوم على قلة ما ينتظر من فائدتها فى الدفاع ضد الأسلحة الحديثة .

أو يصبو شباب المدينة كما يصبو شباب مكة إلى الحياة الحديثة فى التفكير والعيش ؟ هذا الأمر لا ريب فيه . لكن الناس من أهل المدينة لا تنفسح مطامعهم لما تنفسح إليه مطامع المكيين وبلدهم عاصمة الحجاز ومقر الحكم والسلطان . على أن طبيعة المدينة أدنى إلى الحضر ، وموقعها أدنى إلى مواطن

الحضارة من مكة ، وشبان المدينة شديدو التوق لذلك إلى المعرفة والتزيد منها ، لولا أنهم لا يجدون إليها الوسيلة . ولو أنهم وجدوها ، ولو أن المدينة اتصلت بالعالم اتصالها قبيل الحرب ، لكان لها فى الاندفاع إلى الحياة الحديثة ما يزيد على ما لمكة فيما أظن .

أما وحالها الحاضرة ما رأيت والحكم فيها للنجديين القريبين من البداوة ، فالحديث عن هذا التفوق وعن اندفاع المدنيين إلى الحضارة أدنى إلى أمنية لا يدرى أحد ما كتب القدر لها فى لوحه . وإذا ذكرت حكم النجديين بالمدينة فلا تقس إليه حكمهم بمكة . هم بمكة فى عاصمة أكثر الأمر فيها إلى أبناء الحجاز وليس للنجديين فيها إلا الرياسة العليا . وهؤلاء النجديون لا يقيمون بمكة إلا أيام الحج وبعض أيام أخرى من السنة ، وفيما خلا ذلك تصفو مكة لأهلها . أما أمير المدينة النجدى فيقيم بها طول العام ، وهو فيها الحاكم المباشر النافذ الكلمة المطاع . من ثم يرتقب أهل المدينة إرادته وتدعوهم دماثة أخلاقهم إلى مصانعته . إنه يود من ناحيته لو استطاع أن يدرك الحياة الحديثة وأن يجمع بينها وبين عقائده وميوله النجدية ، وهو بذلك يدنو منهم بعض الشىء . لكن مكانته ، بوصفه ولى الأمر فى البلد ، وطبيعته البدوية الصميمة ، تمسكانه دون بلوغ الكثير من ذلك ، وتدعوان أهل المدينة إلى متابعته أكثر مما يتابعهم .

زرت الأمير عبد العزيز بن إبراهيم غير مرة . زرته فى ديوان الحكم ، وزرته فى داره ، وتناولت طعام الغذاء على مائدته ، وشاركته فى طعام خفيف آخر الأمسية دعانى إليه ابنه إبراهيم . ولم يدهشنى ما رأيت من مظهر حياته النجدية بدار الحكم ولا فى غرفة استقباله بالمدينة . فقد ألفت أن أرى من ذلك فى مصر وفى غير مصر ما لا يدع للدهشة موضعاً . وأنت لا ترى على باب الوزير من مظاهر البأس العسكرى المتبجح ما تراه على باب مأمور المركز . وأنت كذلك لا ترى من مظاهر هذا البأس على باب قصر الملك أو دار وزير المالية أو أمين العاصمة بمكة ما تراه فى مجلس أمير المدينة . فى هذا المجلس جند من النجديين علمهم الأمير الحرص على أن يظهروا للناس بأسه وبطشه .

فإذا دعا أحدهم دعاه فى شدة كما يدعو المأمور أحد جنود المركز ، ولبى الجندى فى اندفاع وتطلع واستعداد لتنفيذ أى أمر . ولقد تناولت على مائدته طعام الغداء فكانت مائدة بدوية يجلس الناس حولها ويتناولون طعامهم بأيديهم، فيجدون منه طعاماً لذيذاً ، فوق شبعهم . أما يوم دعانى ابنه فى الأمسية فقد صعدنا إلى دار الأمير وتناولنا « بسكويتاً » ومربّات وحلوى ، وقد حرص الأمير على أن يتناول الطعام بالشوكة ليدل بذلك على حسن استعداده لحياة العصر . وأهل المدينة يجارونه فى بداوته وفى محاولته الحضارة ، وإن كان أكثرهم قد عرف أيام حكم العثمانيين من مظاهر الحضارة ما لم تعرف نجد البعيدة عن الحضارة العثمانية .

وإبراهيم ابن الأمير فتى لم يجاوز الخامسة عشرة فيما أرى ، وهو وسيم الطلعة فى زيه العربى ، حادّ النظرة من عينين سودوايين فيهما حورٌ، ممشوق القوام ، رقيق المظهر ، ليس فيه شىء من هذه الخشونة وهذا البأس اللذين يبدوان فى نظرة أبيه وفى حديثه ، واللذين جعلا منه مثل القسوة الباطشة فى الحجاز كله . ولم أسمع حديث الفتى لأقف على مبلغه من العلم ، وإن رأيت منه صرامة فى توجيه الأوامر إلى تابعيه هى لا ريب بعض ما ورث عن أبيه وبعض ما يقضى به مركزه وهو ابن الأمير الباطش الشديد .

وتناولت طعام الغداء يوم سفرى من المدينة على مائدة أحد أعيانها ، فرأيت فيها من نظامنا الحديث ما لا يتفق مع هذا الذى رأيت عند الأمير وما أذكرنى أن القوم لم ينسوا بعدُ أيام الأتراك . وهذا الرجل من أعيان المدينة ليس فى سعة من الثروة تعاونه على المبالغة فى بسط العيش . هذا ما قصه علىّ بعض من وثقت بهم ممن عرفت بالمدينة . وإنى لأقرأ يوماً فى كتاب « برخارت » إذ وقفت فيه على ما يقال من أن أهل المدينة أحرص على التظاهر من أهل مكة ، وأنهم يميلون إلى شظف المأكل فى حياتهم الخاصة ، لكنهم ينفقون على أثاث منازلهم وعلى ملابسهم التى يقابلون الناس بها نفقات طائلة .

ترى هل تطوع الأقدار للمدينة أن تبلغ غايتها فيما تتوق إليه من الحياة

الحديثة ومظاهرها ؟ وما عسى أن يكون أمرها إذا بلغت هذه الغاية ؟ إنهم ليتحدثون عن إعادة سكة الحجاز الحديدية سيرتها الأولى . وأهل المدينة يشرئبون بأعناقهم إلى هذا اليوم ويدعون الله من كل قلوبهم أن يكون قريباً . وإنى لأشاركهم فى هذا الدعاء ، وأرجو أن تسمو تقديرات الساسة حين النظر فى هذا الأمر إلى الاعتبارات الإنسانية ، وألا تقف فى حدود التفكير الاستعمارى والتنظيم الحربى . ولئن تأثرت فى هذه الدعوة بأن المدينة من الأماكن الإسلامية المقدسة لأنها مُهَاجَرُ النبى العربى ولأن بها قبره ، إننى لشديد الرجاء ألا يبلغ تأثر ساسة الغرب بميولهم المسيحية حدّاً يحول دون بلوغ المدينة ما يمكن أن تبلغه من أسباب الرخاء والتقدم مما يطوع لأبنائها أن يشاركوا بمجهودهم فى العمل المثمر لرخاء الإنسانية وتقدمها .

ما أشد شوقى أن يتحقق هذا الرجاء وأن يتاح لى إذ أعيد طبع هذا الكتاب أن أشير إلى نجاح المسعى لإعادة السكة الحديدية التى تعاون المسلمون من أقطار الأرض جميعاً على إنشائها ! . يومئذ يتاح للمدينة أن تخطو نحو حضارة العصر خطوة واسعة ، وأن تتصل بسائر أنحاء العالم كما اتصلت من قبل بها ، وأن تجد فى موقعها الطبيعى عوناً على تقدمها السريع فى الاضطلاع بأعباء الحضارة . فهذا الموقع الطبيعى على ما رأيت حَضِرٌ كل الحضر ، لا يدانيه موقع مكة من هذه الناحية ولا يقاس إليه ، وهو لذلك صالح لمقام عدد عظيم جدّاً من السكان يستطيع التعاون والعمل المثمر والاعتماد على خيرات هذه الطبيعة الخصبة الجواد ، ومبادلة العالم مبادلة لا تقف عند المنتجات التى تجود بها هذه الطبيعة بل تتعداها إلى نتاج العقل الإنسانى وآثار الفن والفكر ، وتكون بذلك عظيمة الأثر جليلة الفائدة .

لم أشر إلى شىء من ذلك وأنا أتحدث فى هذا الفصل عن المدينة الحديثة لأن حال المدينة وحظها ما رأيت . لكن رقعتها قد اتسعت حين ابتسم الدهر لها لثمانين ألفاً يقيمون بها ويعيشون فيها عيش رخاء وسعة . لم ينقصها الغذاء يومئذ وقد كان حولها من البساتين والمزارع ما طوع لأهلها أن يعيشوا عيش

الترف ، وأن يقيموا القصور الشاهقة وأن يحيطوها بالحدائق الغناء ، ولا يزال الأثر الباقى من قصر سعيد بن العاص شهيداً بذلك . والتاريخ يذكر قصوراً بوادى العقيق خلد الشعر على حقب العصور أسماءها . ولم ينقص الماء المدينة والعيون والآبار فيها بالغة من الكثرة حداً يثير تطلع « الجيولوجيين » إلى معرفة طبقات الأرض وما تحتوى عليه فيها . ولئن بقيت العين الزرقاء مصدر الماء لسقيا أهل المدينة إلى هذا الوقت الحاضر لقد يقف الإنسان أمام العيون والآبار المنثورة داخل المدينة وفيما حولها دهشاً متسائلا عن منابع هذا الماء أين تكون وكيف تختلف كل هذا الاختلاف الذى يعيد إلى الذاكرة صورة من بلاد المياه المعدنية بأوربا . وأنت تقف من هذه الآبار اليوم عند بئر أريس بجوار مسجد قباء ، وبئر رومة الواقعة بالعقيق قريبة من مجمع الأسيال ، وبئر غرس ، وبئر حاء ، وبئر بُضاعة ، وبئر السقيا ، وبئر أبى أيوب ، وبئر ذروان ، وبئر عروة بن الزبير . ويذكر البتانونى فى رحلته بئر الأعواف ؛ وبئر أنس بن مالك ، وبئر القويم ، وبئر العباسية ، وبئر صفية ، وبئر البويرة ، وبئر فاطمة . ولعل من هذه الأسماء التى ذكرها البتانونى ما يتفق فى مدلوله مع أسماء الآبار التى وقفت عندها ، وإنما اختلفت التسمية باختلاف العصور .

وكانت المدينة تُسقى من هذه العيون إلى أن جرت فيها العين الزرقاء بأمر معاوية بن أبى سفيان فى مستهل النصف الثانى من القرن الأول للهجرة . فى ذلك الوقت أمر معاوية عامله على المدينة مروان بن الحكم فأجرى هذه العين التى سميت الزرقاء لأن مروان كان أزرق العينين فيما يقول المؤرخون . يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فى كتابه « آثار المدينة المنورة : وأصل العين من بئر الأزرق فى بستان الجعفرية غربى مسجد قباء . وقد أضيفت إليها آبار فى أوقات متفاوتة كبئر أريس وبئر الرياض وبئر بويرة ، كما أنها مُدّت بينابيع حفرت فى جنوبى بئر الأزرق أيضاً . وتسير من مصادرها المذكورة إلى بئر الشلالين فتفيض فيها ثم إلى بئر الغربال فبئر جديلة ، وهنا تمدها بئر

السرارة وبئر القلعجية وبئر السيد عبد الرحيم السقاف ، ومن هناك تأتى إلى المدينة ولها بها عدة مناهل ، وتخرج من المدينة إلى الشمال ؛ وحذاء بستان داود باشا تنقطع ويسير فائضها مع الماء الملح الآتى معها من بئر جديلة إلى البركة شمال الجُرف وهناك مغيضها » .

لم ينقص الماء ولا نقص الغذاء المدينة فى أبهى عصورها وأكثرها سكانًا . بل كان الأمر على الضد من ذلك ؛ فكانت أيام الوفرة فى السكان أيام رخاء ونعيم . ولسنا فى حاجة إلى الإيغال فى التاريخ التماسًا للدليل على هذا وإن كان التاريخ خير دليل عليه . وحسبُنا ما يذكره أهل المدينة اليوم عن رخائها بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٤ حين سارت سكة الحجاز الحديدية . فهم يتحدثون عن هذه الأيام القريبة منا وملء قلوبهم الحسرة على ذهابها والرجاء الحار فى عود مثلها لتعود لمدينة الرسول بهجتها وللذين يجاورون الرسول ابتسامة الحياة .

وهم يتحدثون كذلك عما كان لمصر فى عصور كثيرة من شرف المعاونة لبلوغ مدينة الرسول غاية ما ترجو . فقد كانت التكية المصرية بها مصدراً من مصادر خيرها وتقدمها . وهى تقوم اليوم بهذا الواجب كما تقوم تكية مكة بمثله . والمصريون القائمون بأمرها يشاركون أهل المدينة فى رجائهم الحار أن يعود إليها الرخاء وأن يعود اتصالها بالعالم .

وإنا كرة أخرى لنشاركهم جميعًا فى هذا الرجاء . ولو أن العالم الإسلامى كان مسموع الكلمة اليوم كما كان شأنه أيام معاوية وفى العصور الإسلامية الزاهرة الأولى ، وكما كان شأنه أيام بنى عثمان حين كانت للمسلمين عاصمة تتجه إليها أنظارهم ، إذاً لما أصاب مدينة الرسول ما أصابها بعد أن تشتّتت أهواء المسلمين وتفرقت كلمتهم بما أطمع فيهم الاستعمار إذ جعل قلوبهم شتّى . أفيُجيب السميع العليم رجاءنا ويعيد إلى مدينة الرسول مكانتها ، أم أنه — جلت حكمته — يريد أن يُرِى المسلمين من آياته حتى يدركوا أنه لا تبديل لسنته وأنه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؟!

إن لنا فى رحمة الله لأملا أعظم الأمل . ومن رحمته أن يبعث المسلمين بعد طول رقدتهم إلى الحياة . لقد وعد رسوله ، ووعدُه الحق ، أنه سينصر دينه على الدين كله . والمسلمون يتوجهون اليوم إلى ربهم من أقطار العالم جميعاً تائبين منيبين يدعونه تضرُّعاً أن يهديهم سبيل رضاه ، وأن يُلهمهم الهدى ، وأن يُفيض عليهم من فضله ، وأن يُسبغ على مدينة الرسول نعماءه ، إنه سميع مجيب .

آثار المدينة

لما اختار رسول الله الرفيق الأعلى اختلف أصحابه أين يدفن ؟ قال جماعة من المهاجرين : يدفن فى مكة مسقط رأسه و بين أهله ، وقال غيرهم : بل يدفن فى بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله . ثم رأوا أن يدفن بالمدينة التى آوته ونصرته والتى استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام . ترى لو رجح الرأى الأول ودفن بمكة إلى جوار البيت العتيق ، أو رجح الرأى الثانى ودفن ببيت المقدس ، أفكان الناس يزورون المدينة اليوم ؟ وهل كان المسلمون يفكرون فى سكة حديدية تصل بين المدينة والشام ويكتتبون لها بمئات الألوف من الجنيهات وينشئونها ، فإذا عطلتها الحرب فى سنة ١٩١٤ عادوا إلى التفكير فى أمرها ؟ أم كانت المدينة تصير إلى ما صارت إليه الطائف وغير الطائف من مدائن بلاد العرب فلا يقيم بها إلا من تكفى مواردها لقوتهم فى حدود قدرتهم البدوية على استغلال هذه الموارد، وقل أن يزورها أحد من غير أهلها ، وبذلك يبقى أهلها عربًا خلصًا بدل أن يمتوا بأصولهم إلى بلاد العالم الإسلامى المختلفة فى الهند والجاوة وفى مصر والشام وفى تركيا وأوربا وفى غير هذه من البلاد التى يقيم بها المسلمون شأن أهل المدينة اليوم ؟

لست فى حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال وليس يختلف فيها اثنان . على أن السؤال لذاته فرض جدلى . فدفن النبى بالمدينة كان أمراً مقدوراً كما كانت هجرته إليها أمراً مقدوراً . وأحدث الآراء فى العلم تثبت هذا المقدور كما تثبته الآراء المقررة فى الدين . فما يحدث فى الكون أثر من سنة الكون التى لا تبديل لها والتى تنتظم كل عوامل الحياة فيه . ولو أننا ذهبنا نتقصى النتائج التى تترتب على هذا الفرض لطال بنا الجدل . أفكانت الخلافة الإسلامية تقوم بالمدينة إذا دفن النبى بمكة أم كانت العاصمة تنقل إلى أم القرى ؟ أفكان ما حدث من الفتح الإسلامى يسير فى الاتجاه الذى سار فيه أم فى اتجاه

غيره ، وإنما أردنا من هذا السؤال فى أول حديثنا عن آثار المدينة أن يذكر القارئ أن ما بهذه البقعة المباركة من الآثار يتصل كله بهجرة الرسول إليها ومقامه بها ودفنه فيها واتخاذ خلفائه الأولين إياها عاصمة للإسلام كما اتخذها هو له منذ الهجرة مقراً .

والحق أن ما بالمدينة اليوم من آثار يتصل كله بالرسول ، فهو له ولأهله وأصحابه ، والقليل القليل منه لخصومه من اليهود الذين كانوا أولى ثروة وسلطان بالمدينة يوم هاجر إليها ، ثم لم يلبث أن أجلاهم عنها إلا من آمن به منهم واتبعه . وأنت إذ تسير فى المدينة أو بظاهرها تشعر بأن الحياة الباقية لهذه الآثار هى التى تقف نظرك وتسترعى انتباهك ويهتز لها قلبك ، وهى التى جذبتك إليها لتزورها ، وهى التى أمسكتك لتقيم حولها . أما حياة الحاضر بالمدينة فتتعلق بآثارها وتكاد تكون حميلة عليها . من ثَمّ كان تفكير الناس وحديثهم بالمدينة منصرفاً إلى هذه الآثار الخالدة على الزمن لا يغير منها تفاوت حظ المدينة بين الرخاء والشدة والبؤس والنعمى .

أو تحسب أن لهذه الآثار شواهد عليها عُنِى الناس بإقامتها وأسبغوا عليها من صور الفن قوة وفخامة تتفق مع ما تثيره فى النفس من ألوان الذكرى ؟! . لقد تحدثت عن المسجد النبوى وعمارته وما أضيف من الزيادات إليه .. والمسجد كل ما فى المدينة من أثر الفن فى العمارة والنقش ، فأما ما سواه من شواهد الآثار القديمة فلا يعدو أكثره هذا النمط للمساجد القائمة بمكة ، والتى لا تزيد على مربع من الأرض تحيط به جدران غاية فى البساطة ، يعلوه من ناحية المحراب سقف ساذج يستند إلى عمد ليست دونه سذاجة فى بنائها . أما بعضها فخير من مساجد مكة بناء ، ولبعض هذه المساجد الحسنة البناء قباب ومآذن ، وفى بعضها تقام الصلاة أحياناً ، على حين تقام فى المسجد النبوى دائماً ، لما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه صلى فى تلك المساجد . وبالمدينة كما بمكة آثار غير المساجد ، بها آبار وعيون ودور وأمكنة وجبال وأودية مأثورة . لكن هذه الآثار تختلف دلالتها جميعاً عن دلائل آثار مكة اختلافاً ظاهراً .

آثار مكة تتصل كلها بأيام الدعوة الأولى وما أصاب الرسول وأصحابه من الأذى والمساءة فى سبيلها . وليس يشذ عن ذلك من آثار مكة إلا ما اتصل بحياته صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، كمسجد الرضوان الذى أقيم ذكرى لعام الحديبية حين ذهب المسلمون من المدينة إلى مكة حاجين البيت معظمين حرمته ، ومسجد الراية الذى أقيم حيث ركز الرسول رايته حين فتح مكة . فأما آثار المدينة فتكاد تتصل كلها بجهاد المسلمين فى سبيل الله . ولا غرابة فى ذلك والآثار إنما تصور الجلائل من أحداث العصر الذى وقعت فيه ، واتصالها بالعظيم الذى وجّه العالم فى ذلك العصر وجهته ، ثم كان له بعد ذلك الأثر الباقى على الدهر . وقد كان محمد بمكة داعياً إلى الحق الذى بعثه الله به باذلاً حياته فى سبيل دعوته ، وكان بالمدينة مدافعاً عن هذا الحق وحرية الدعوة إليه ، مجاهداً فى سبيل انتشار هذه الدعوة ليُظل الخافقين علمها .

ولست أجد فى العالم بلداً يحوى من جلائل الآثار ما تحوى المدينة . فبيت المقدس مثوى الأنبياء وبلد المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ومبكى اليهود ، وطيبة عاصمة مصر الفراعنة الأقدمين ، والقاهرة عاصمة مصر الإسلامية ، ورومية التى شهدت قيام الإمبراطورية الرومانية العظيمة وسقوطها ، وباريس ولندن وسائر عواصم العالم تقصر آثارها دون التعبير عما تعبّر عنه آثار المدينة من المعانى . هذا ، على أن آثار المدينة لا شىء فيها من عظم العمارة إلا ما فى المسجد النبوى ، أما سائرها فهو البساطة كل البساطة . ولست أدرى لعل أبسط الآثار عمارة أعمقها فى النفس أثراً . فجبل الزيتون وطريق الآلام فى بيت المقدس يهزّان القلب بما يُحدّثان عنه من تاريخ المسيح أكثر مما يهزه كنيسة المهد وكنيسة القيامة وما يحدّث عنه هذان الأثران الفخمان فى العمارة من معجزات . والآثار القائمة فى المدينة والتى انمحى بعضها فما يكاد يبقى إلا اسمه ، تبعث أمام الذهن من صور الجهاد فى سبيل العقيدة والحق ما يهتز له وجود الإنسان كله إشفاقاً تارة وإعجاباً طوراً ، وإيماناً بالله وثقة بنصره الحق فى كل حال .

من هذه الآثار طائفة تحيط بالمسجد النبوى لم تدخل فى عمارته حين

زيادات عمر وعثمان والوليد والمهدى . وأكثر هذه الآثار كانت دوراً لأصحاب النبي أو لجماعة من حكام المدينة تولَّوْا أمورها فى عصر بنى أمية . وما بقى من هذه الآثار اليوم لا يشهد بما كانت عليه أيام أصحابها الذين تنسب إليهم ، بل أصابها من التحول على الزمن ما أصاب كل شىء فى المدينة ، فبعضها اليوم أربطة محبوسة وقفًا على طوائف من الفقراء ، وبعضها أحيلت مدارس فى عصر ما ، ثم أصبحت مخازن أو ما إليها ، وبعضها تهدَّم فما يجد الإنسان من أثره شيئًا يقف عنده .

وأول ما يلفت الذهن من أسماء هذه الآثار دار أبى أيوب الأنصارى . لقد كانت منزل رسول الله أول ما بلغ المدينة فى أثر هجرته من مكة ؛ على مقربة منها بركت ناقته إزاء مِرْبَد سهل وسُهَيل ابنى عمرو حيث كان المسلمون يصلون فى المسجد الذى أقامه ابن عفراء ، وفيها نزل إذ كان صاحبها أبا أيوب أحد بنى النجَّار من الخزرج ، وبنو النَّجار هم أخوال جده عبد المطلب . وقد أقام الرسول من هذه الدار بالسُّفْل ثم انتقل منه إلى العُلْو وظل زمنًا يتراوح بين سبعة أشهر واثنى عشر أوَى بعده إلى مساكنه . فلا جرم وذلك تاريخها أن تكون أول ما يلفت الذهن من كل باحث فى آثار المدينة ومبلغ صلتها بالرسول الكريم .

وتقع دار أبى أيوب شرقى المسجد من ناحيته الجنوبية ؛ فهى بذلك قبالة الحجرة النبوية لا يفصل بينها إلا الطريق . وهى تلاصق دار جعفر الصادق الواقعة فى جنوبها ، ويفصل بينها وبين دار عثمان بن عفان الواقعة فى شمالها زُقاق يعرف بزقاق الحبشة . ويقوم اليوم فى موضعها مسجد ذو قِبَاب ومحراب ، وقد كتب على جداره الخارجى بحروف بارزة مذهبة : « هذا بيت أبى أيوب الأنصارى مَوْفد النبى — عليه الصلاة والسلام — سنة ١٢٩١ » مما يدل على أنها بُنيت مسجداً فى هذا التاريخ . أما قبل ذلك فليس يعرف عنها إلا أن مدرسة أقيمت فى موضعها سميت المدرسة الشِّهابية ، نسبة إلى بانيها الملك شهاب الدين غازى ، وذلك بعد أن بقيت خربة زمنًا طويلا .

أما تاريخها القديم فكل ما جاء عنه فى « الرَّوض الأنُف » للسُّهَيْلِيّ أنها آلت بعد أبى أيوب إلى مولاه أفلح ، وهذا تركها حتى تخرّبتْ ثم باعها للمغيرة بن عبد الرحمن الذى قام بترميمها ثم تصدق بها على أهل بيت من فقراء المدينة أقاموا بها هم ومن بعدهم إلى أن تهدمت ، ثم تركوها عرصة ليس فيها أثر لبناء .

أين الشبه بين هذا المسجد القائم اليوم وتلك الدار التى أوى إليها رسول الله ؟ لا شىء من الشبه ألبتة بينهما ، ومع ذلك يثير هذا المكان فى النفس صورة ما حدث فى اليوم الأول لنزول الرسول دار أبى أيوب ، وما حدث فى الأشهر التى عقبت ذلك اليوم . قف بنا أمام هذا المسجد الذى كان داراً لأبى أيوب وانظر . لقد كان ما حول هذه الدار خالياً من الجهات الأربع ، وكان يجاورها إلى الغرب مِربد سهل وسهيل ابنى عمرو يجفف فيه التمر ، وليس به إلا القليل من النخيل والغرْقَد وقبور جاهلية تركد أثناءها مياه لا يُعْنَى أحد بتصريفها . وكان هذا المكان مقصوداً من مسلمى المدينة الذين اتخذوه مصلى منذ جعل ابن عفراء فيه عريشاً للصلاة . وكان هؤلاء المسلمون ما يزالون فى عدد قليل ، لا يتجاوزون بضع المئات عدًّا ، وهم على ذلك موضع إجلال أهل المدينة واحترامهم ، إلا من أقفل التعصب قلبه من اليهود أو المشركين . وها نحن أولا اليوم يوم الجمعة الذى أقبل الرسول فيه من قُباء ومعه أبو بكر وحولهما جماعة من مسلمى المدينة رجالاً وفرساناً فى جنوبهم السيوف . وها هم أولاء أهل المدينة جميعاً قد خفوا إلى طرقاتها يريدون أن يروا هذا الرجل الذى يتحدث أهلهم المسلمون عنه فى إكبار وإعظام ليس مثلهما إكبار أو إعظام . انظر إلى هذه اليهودية الواقفة هناك فوق ربوة بين صاحبات لها تسأل : « أىُّ الرجلين محمد ؟ » واسمع إلى جارتها الخزرجية تجيبها : « كيف لا تحزُرينه ! أو تَحسبينه هذا الأبيض النحيف الخفيف العارضين الناتئ الجبهة ؟ كلا ! فهذا أبو بكر » . وتُردف اليهودية فى إعجاب : « هو الآخر ؟ إذاً ما أبهى طلعته وما أعظم وقاره ! . إن له لعينين نافذتى النظرة من حدقهما الأسود

اللامع بين أهدابهما السود الطوال » . ورجال المدينة وفتيانها يسيرون حول النبي فى مظاهرة ابتهاج كلها الجلال ، وهى لا تخلو مع ذلك من حوار أيهم يكون له شرف ضيافته . وكلما مرّ بقوم من أنصاره استوقفوا ناقته وعرضوا عليه أن ينزل عندهم فى العدد والعُدّة والمَنَعة ، فيقول لهم : « دعوها بارك الله فيكم إنها مأمورة » .

لقد أدركوا الجمعة إذ هو ببطن وادى رانوناء من أودية المدينة ، فنزل فصلاها بالناس بعد أن خطبهم قائلا : « أيها الناس ، أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام » . وها هى ذى ناقته تنطلق كرّة أخرى فيندفع أتباعه حوله ، وأهل المدينة أشد لأمره عجبًا ، وبه إعجابًا ، وأصحابه الأنصار ما يزالون يتحاورون أيهم يكون منزله منزلا لرسول الله . والآن بركت الناقة عند مربد سهل وسهيل ، واجتمع كبار الأنصار حول الرسول يحتكمون إليه أيهم ينزل عليه ، قال رسول الله حسمًا لنزاعهم : « إنى أنزل على أخوال عبد المُطّلب أكرمهم بذلك فأى بيوتهم أقرب ؟ » . هذا أبو أيوب يُقبل فرحًا مستبشراً يقول وهو يشير إلى داره : « أنا يا رسول الله ، هذه دارى وهذا بابى ! » . ويأخذ رحل النبى إلى داره وينطلق به ليهيئ للضيف الكريم مقيلا .

ما لهؤلاء المتظاهرين لا ينصرفون ! إن عيونهم لا تدع النبي لحظة ، كأنما يزداد شوقهم إليه وشغفهم به . والآن ها هم أولاء يتطلعون إلى ناحية الدور المجاورة . لقد طرق سمعهم صوت لفت نظرهم ، ذلك صوت فتيات من ربّات الخدور صعدن الشُّرُفات يتغنين :

طلع البدرُ علينا ... من ثَنيّات الوَداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

ترى من ذا صاغ لهن هذا القول الحلو ولحّن لهن هذا النشيد العذب ؟ لعله فتى من شعراء المدينة ، أولع بالنبى حبًا من قبل أن يراه ، ولعله أحد

هؤلاء الفتيان المتظاهرين يتدافعون بالمناكب حوله وهم يتنادون نشوة وفرحًا : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، والحبشة يلعبون أثناءَ ذلك بحرابهم فرحًا بقدومه ، فيطلق اسم الحبشة لذلك على الزّقاق المجاور لدار أبي أيوب .

وأولئك جَوارٍ من بني النّجار يُقبلن يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جَوارٍ من بني النجار يا حبذا محمدٌ من جارِ

ويبتسم لهن محمد ويقول : « أتُحبِبْنَنِي ؟ » فيجبن : نعم يا رسول الله . فيُرْدِف : « يعلم الله أني أحبكن ! » .

أية غبطة هذه الغبطة ! وأى فيض من السرور أضاء المدينة فى هذا اليوم الخالد فى صحف التاريخ ! لقد نسى الناس طعامهم فما يزيدون الانصراف إليه . وهم لم ينصرفوا حتى قام النبي إلى بيت أبي أيوب يقيل فيه من حرّ ذلك اليوم القائظ من الصيف . هنالك بدءوا ينصرفون ولا حديث لهم إلا مَقدَم رسول الله وما اختار الله للمدينة من فضل بمهاجرته إليها .

لم يكن هذا اليوم على جلاله هو الذى خلّد لدار أبي أيوب كل مالها من جلال الذكرى ، إنما خلد لها ذلك مُقام النبي بها شهوره الأولى بالمدينة ، وما أتم أثناء هذه الشهور من عمل كان له فى الإسلام وسياسته الأثر الباقى على التاريخ . أثناء مُقام محمد بهذه الدار آخى بين المسلمين مهاجريهم والأنصار ، ووضع سياسة المعاهدة بينه وبين اليهود ، وأقام فى المدينة بذلك نظامًا لم يكن مألوفًا من قبل . ولم يدُرْ بخلَد أحد يوم وُضع أنه يصور سياسة بعيدة المدى تنتهى بالمدينة إلى وحدة أساسها الإخاء والتضامن ، وتنتهى باليهود إلى الجلاء عنها ، ثم تنتهى بالإسلام إلى الانتشار فى بلاد العرب كلها لينتشر منها بعد ذلك فى أنحاء العالم وربوعه جميعًا .

وهذا نوع من التفكير السياسى كان جديداً يومئذ فى حياة محمد . فهو لم يَرْمِ حين مقامه بمكة إلى تنظيم سياسى ، أو أن يجعل من التنظيم السياسى وسيلة إلى الدعوة للدين الذى ألقى عليه تبليغه للناس . لكنه ما لبث حين أقام بدار أبي أيوب واتصل بالمسلمين من أهل المدينة أن قدّر ما بين العقيدة ونظام

الحياة من صلة ، وأن العبادات التى تدعو العقيدة إليها تتصل بنظام الحياة ويتصل بها هذا النظام أوثق اتصال . فالعقيدة أمرٌ فردى من حيث اتصالها بالرأى وتكييفه . فإذا انتقل الأمر إلى مظهرها العام وإلى العبادات المتصلة بها وإلى الفضائل التى يتحلى بها صاحبها ، أصبحت مسألة اجتماعية لا مفر من أن يتناولها التنظيم . وليس يقف تنظيمها عند فرائض العبادة من وضوء وصلاة وصوم وزكاة وحج ، بل يتعدى الأمر هذه الفرائض إلى صلات الناس بعضهم ببعض . والأمر فى تفاصيل هذه الصلات أمر دنيا ، والناس فى كل عصر أعلم بحاجاتهم فيها . لكن المبادئ العامة التى يجب أن يقوم التنظيم عليها ، كالمبادئ العامة التى تقوم عليها صلات المسلمين بغيرهم من الناس ، يجب أن تتسق مع تنظيم هذه الفروض التعبُّدية ، ويجب أن تظل أبداً على هذا الاتساق وإن اختلف تصويرها واختلف تفصيلها باختلاف الزمان والمكان . هذا ما اتجه إليه تفكير الرسول أثناء مُقامه بدار أبى أيوب ، وكان من أثره هذه المؤاخاة بين المسلمين وهذه الموادعة مع اليهود .

تقع دار عثمان بن عفان إلى الشمال من دار أبى أيوب لا يفصل بينهما إلا زقاق الحبشة . والمعروف أن عثمان كان له فى هذا المكان داران متصلتان بناهما فى عهد الرسول عليه السلام ، دار صغرى ودار كبرى . أما الدار الصغرى فيقوم موضعَها اليوم رباط للمغاربة يدعى رباط سيدنا عثمان . وبهذا الرباط اليوم مكتبة تحوى كتب الفقه المالكى وغيره موضوعة فى خِزانات تدل نقوشها على أنها من مصنوعات الدولة العباسية . ويقال إن هذه الخزانات كانت بالحرم وكانت مهداة إلى الحجرة النبوية ثم أخرجت منه ووضعت فى هذا الرباط . أما الدار الكبرى فموضعها اليوم رباط العجم ، وهى مخصصة لشيخ الحرم النبوى ، وبها قبر أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبى وقبر والد صلاح الدين الذى دُفن مع أخيه .

وقد روى ابن جُبَيْر فى رحلته أن عثمان استُشهد فى هذه الدار الكبرى . وذكر السمهودى : أن قَتَلَة عثمان تسوّروا عليه من الدار الصغرى إلى الدار

الكبرى التى كان يقطنها يومئذ . ومن العسير أن يحقّق اليوم المكان الذى تسوّروا منه أو الطريق الذى سلكوه فى انتقالهم بين الدارين بعد أن استحالت هذه الدور غير صورتها الأولى ، وبعد أن أصبح تعيين الموضع الذى قُتل عثمان فيه تعييناً دقيقاً غير ميسور .

لشدّ ما تختلف الذكريات التى تبعثها هذه الدار إلى الذهن عما تبعثه دار أبى أيوب . كانت دار عثمان من أفخم دور المدينة فى ذلك العصر ، على حين لم تكن دار أبى أيوب تختلف عن دور أوساط الناس من الخزرج . مع ذلك توحى هذه الدار إلى النفس ما رأيت من ذكريات . فأما ما بقى من ذكر لدار عثمان فقَتلُه بها واختلاف المسلمين بعده ثم انقسامهم واتخاذ دمه ذريعة لهذا الانقسام . ومع ما رأت دار عثمان فى عهد خلافته من فتح المسلمين بلاد الروم والفرس ومن امتداد ملكهم إلى تونس وإلى قلب إيران ومن استيلائهم على جزر البحر الأبيض المتوسط لقد غَشّى على ذلك كله ما حدث فى آخر هذا العهد حين اتخذ عثمان مروان بن الحكم كاتب سرّه ، وحين آثر بنى أمية على قريش وعلى الأنصار وعلى سائر المسلمين مما أدى إلى الفتنة وانتهى إلى قتله . غشّى ذلك على هذا الفتح الذى انفسحت به رقعة المملكة الإسلامية ، وبقيت صحف التاريخ تقلّب مقتل عثمان أمام الذهن فى صورة تثير النفس وتلذع بالألم كل مسلم لِما ترتب على هذا الحادث من آثار ما زال خَلَف المسلمين يتناقلونها عن سلفهم . وحقّ ما قيل : « إنما الأعمال بخواتيمها » . ولو أن أجل عثمان حُمّ قبل أن تثور الفتنة لإيثاره بنى أمية فمات ولم يقتل ، لتغير وجه التاريخ أغلب الأمر ، ولمّا نجمت فى المسلمين هذه الشِّيَع التى أنشأها قتله والخلاف على دمه ، وما أثاره هذا الخلاف من حفائظ قديمة بين بنى هاشم وبنى أمية .

إلا أن فى هاتين الدارين المتجاورتين — دار أبى أيوب ودار عثمان — العبرة أبلغ العبرة : عبرة الأخوة بين المسلمين وما فى الأخوة من قوة يضاعفها الإيمان الصادق ، والخلافِ بينهم وقيام الحكم فيهم على التنازع والغلب يناجز

به بعضهم بعضًا . ولقد كان هذا التنازع فى صدر الإسلام وحين كانت أسوة الرسول حاضرة فى الأذهان . أفكُتِب على المسلمين أن يظل الانقسام دَيْدنَهم ، وألا يذكروا مؤاخاة النبى بين المؤمنين أول ما جاء المدينة وقبل أن ينتقل من دار أبى أيوب إلى منازله ، وأن ينسوا قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » ؟ أم آن لدورة الزمن أن تدور وأن تُصبح للأمم الإسلامية عصبة تدعو إلى الإسلام والسلام متآخية إخاء المسلمين فى الصدر الأول ، يوم خرجوا من شبه الجزيرة فأضاءوا العالم بنور التوحيد ونشروا فيه أسمى المبادئ ؟

تقع دار عثمان إلى جوار المسجد من جهة الجنوب الشرقى ، وتقع دار مروان ابن الحكم مقابلها من الجهة الجنوبية الغربية فى جوار باب السلام . ولقد ولى مروان بن الحكم إمارة المدينة فى عهد معاوية بن أبى سفيان بعد أن كان كاتب السر لعثمان بن عفان ، فأتم من أعمال الإصلاح فيها ما جعل أهلها يلهجون بحمده والثناء عليه وينسبون باب السلام إليه فيسمونه باب مروان ويظلون على ذلك إلى عهد العباسيين . أجرى مروان العين الزرقاء ، ورصف أطراف المسجد النبوى بالحجارة ، وجعل للمدينة من أموال الفتح الأموى ما لعله أنساها مقتل على بن أبى طالب بالكوفة لولا مقتل الحسين ابنه بعد ذلك بكربلاء . وسخاء مروان هو الذى جعل المدينة أقل مقاومة من مكة فى عهد معاوية وأول أيام يزيد . ومن يومئذ بدأ أهل المدينة من الأوس والخزرج يغادرون مدينتهم إلى بلاد المملكة الإسلامية الفسيحة الأطراف ويقيمون بها ليحل المسلمون من بلاد هذه المملكة محلهم فيها . ولم تنقض إلا أجيالٌ حتى لم يبق فيها إلا الأقلون من أبنائها الأولين .

دار أبى أيوب هى التى نزل رسول الله بها أول مُهاجَرِه إلى المدينة . ويقابلها داخل المسجد موضع حجرات أزواج النبى التى ضُمَّت إليه فى عهد الوليد بن عبد الملك، و يفصل زقاق الحبشة بين دار أبى أيوب ودار عثمان ، وتقع دار مروان بن الحكم فى جوار باب السلام . أليس لأبى بكر ولعمر وعلىّ آثار

باقية اليوم حول المسجد تكمل بها سلسلة التاريخ فى هذه الفترة : فترة نصف القرن الأول من الهجرة ؟ . أما أبو بكر فله بجوار المسجد الغربى الخوخة التى أوردتُ عند الحديث عن المسجد بعض خبرها ؛ وله فيما تذهب إليه الرواية ، دار تجاور دار عثمان بن عفان من الشمال ، ولا يفصل بينهما إلا طريق البقيع ، وهذه الدار هى التى مات بها . وليس حول المسجد مكان ثابت النسب إلى عمر بن الخطاب باعتباره موضع داره ، وإن حاول بعضهم أن ينسب إليه داراً فى شمال المسجد . لكنما تقع فى جنوب المسجد دار تُطل على الحجرة النبوية تعرف بدا آل عمر ، ويقول السمهودى : إنها دار عبد الله بن عمر بن الخطاب ، آلت إليه عن أخته حفصة أم المؤمنين . وكان لهذه الدار نَفَقٌ يصلها بالمسجد حتى سنة ٨٨٨ من الهجرة إذ سُد هذا النفق ورُدم بالتراب .

ولا تعرف باسم على بن أبى طالب دار ولا موضع لدار فيما حول المسجد ، وإنما يعرف باسم زوجه فاطمة ابنة رسول الله مكان من الحجرة النبوية يزعم بعضهم أنها مدفونة فيه ، والرواية الراجحة أنه موضع دارها التى كانت تقيم بها والتى أقام بها أبناء الحسن والحسين من بعدهما حتى ضمها الوليد بن عبد الملك إلى المسجد . أما قبرها فبالبقيع .

أما دار نائب الحرم اليوم ، وهى التى تلاصق دار أبى أيوب من الجنوب ، فتنسب إلى جعفر الصادق الحسينى . والمقيم اليوم بهذه الدار بعد إلغاء وظيفة « نائب الحرم » هو القائم بإدارة أوقاف الحرم النبوى .

ألا ما أكثر ما تثير ذكريات هذه الدور من أثر فى النفس ! إنها تثير عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين كله . ويقع على مقربة منها أثر يثير فى النفس من ذكريات البطولة والإقدام ويرسم أمام الذهن صورة من الفتح الإسلامى تهز القلب إعجابًا وإكباراً . فقبالة باب النساء من أبواب المسجد وإلى جانب الأثر الباقى من دار أبى بكر ، قبة صغيرة مبنية باللبن والطين واقعة بمُقَدَّم رباط يدعونه رباط خالد بن الوليد . هذه القبة تقوم فى الموضع الذى كانت تقوم فيه دار بطل الإسلام خالد ، ويعيد صغرها إلى الذاكرة ضيق هذه الدار

ضيقًا شكا خالد منه إلى النبي ، فقال له : « ارفع البناء فى السماء ، وسل الله السعة » .

أو يظن أحد أن تكون هذه البقعة الضيقة دار خالد بن الوليد ، بطل قريش وفارسها المُعْلَمَ وصاحب لوائها قبل أن يُسلم ، وبطل الإسلام وسيف الله المسلول بعد إسلامه ! خالد الذى ضاقت الأرض بفتوحه شرقًا وغربًا فى فارس وفى بلاد الروم ، والذى كان فى عهد الرسول بطل مُؤتة وقائدها بعد موت أصحابه ، تكون داره بهذا الضيق ! يا للنزاهة ويا للإباء ! حق إن هذا العرض من متاع الدنيا لا وزن ولا قيمة له ، ولا يساوى عند الله جناح بعوضة . كم من ملوك فى زماننا هذا وفيما سبقه من القرون يودون لو حفظ التاريخ لهم قطرة من بحر مما حفظ لخالد من ذكرى فلا يُغنى عنهم مالهم من ذلك شيئًا ولا يجدون إليه الوسيلة . ألا إنها عظمة النفس هى الباقية ، وسلطان النفس على الحياة هو الخالد فى صحف الحياة .

تقع دار خالد إلى جانب زاوية السَّمَّان التى كانت دار رَيْطة ابنة أبى العباس السفاح . وزاوية السمان واسعة فخمة ، وكانت دار ريطة واسعة فخمة كذلك ، فليست دار خالد شيئًا بالقياس إليها . وإذ كانت دار ريطة تقع قُبالة باب النساء ، وكان لريطة ما يجب لابنة أبى العباس السفاح من مكانة ، فقد أطلق اسمها على هذا الباب من أبواب المسجد النبوى ، فسمى باب ريطة زمنًا غير قليل . فلما ماتت ريطة وتوالت القرون ردَّ إلى باب النساء اسمه ، وبنى « يازكوح » أحد أمراء الشام دارها من جديد وجعلها مدرسة للحنفية وجعل فيها قبره .

إلى جوار المسجد مواضع يقال إن دور عمرو بن العاص وسُكَيْنة بنت الحسين كانت بها . وموضع دار سُكينة ينسب إلى تميم الدارى الصحابى المعروف . كذلك يروى أن الدار التى كان يُجرى عمر بن الخطاب فيها قضاءه كانت فى الموضع الذى تقوم به المحمودية الآن . وهذه مجموعة من الدور كانت قائمة فى عهد النبى وفى العصر الذى تلاه تفاخر بها المدينة كل مدينة سواها .

ولعل أهلها إذ يذكرون من الدور ما كان بعد عهد النبي إنما يذكرون بها أيام كانت مدينتهم عاصمة عزيزة الجانب ، تمثل القوة الإنسانية ذات الأثر الخالد فى العالم . فالمدائن كالأشخاص تتغنى بأيام مجدها وعزها ، وإن بعُد فى التاريخ عهد هذا المجد ، وإن أصبح هذا العز الذى تربّع الأجداد على عرشه أقصوصة يتحلب لها ريق من فاته العز بعد أن طال التماسه إياه فى غير جدوى .

تقع هذه الدور كلها حول المسجد النبوى كما رأيت ، وقلما يحدثك أحد عن دور أثرية غيرها بالمدينة ، إنما يحدثونك عن أمكنة تاريخية وعن مساجد وحصون وآبار . ويقع بعض هذه بالمدينة وبعضها بظاهرها ، وإن تعذّر عليك أن ترسم خطًّا واضحاً يفصل بينهما . ويرجع تعذر ذلك إلى أن المدينة انبسطت وانقبضت على التاريخ مما اقتضى أن يبنى لها سوران ، أحدهما باق إلى اليوم ولم يبق من الآخر إلا آثار تراها هاهنا وهناك . ولقد تخطت المدينة السورين فى بعض العصور الزاهرة من أيام رخائها . ومن هذه الأيام ما قبل الحرب العالمية الأولى (١٩٠٧ م — ١٩١٤ م) ، حين سُيِّرت السكة الحديدية الحجازية . من ثَم لا يقف أكثر المؤرخين لآثارها عند تخطيط دقيق . ولم تُتح لى الفرصة الضيقة التى قضيتها بها أن أرسم لآثارها حدوداً دقيقة ، وخاصة أن ليست لها خريطة يمكن الاعتماد على دقتها .

ولقد فكرت أن أجعل الخندق الذى حفره المسلمون فى غزوة الأحزاب أيام النبي حدًّا فاصلا ما بين المدينة وظاهرها . لكنى لم ألبث حين البحث أن رأيت تحديده الصحيح عسيراً . فقد سألت الأستاذ عبد القدوس الأنصارى يومًا أن يرينى إياه ، فلم يخف علىّ أنه يتوهمه ولا يعلمه علم اليقين . وله من العذر عن ذلك ما نقله فى كتابه (آثار المدينة المنورة) عن المطرى الذى أرّخها فى القرن الثامن الهجرى ، إذ قال : « وقد عفا أثر الخندق اليوم ولم يبق منه شيء يعرف إلا ناصيته ، لأن الوادى وادى بُطْحان استولى على موضع الخندق وصار مسيله فى الخندق » على أنه حاول أن يقف بى عندما يعتقده أثره كما بيّنه على خريطة تقريبية ضمّنها كتابه . أما والتحديد الصحيح

للخندق غير ميسور فلأجعل هذا التحديد التقريبى بديلا منه للغرض الذى أتوخاه ، غرض الفصل ما بين المدينة وظاهرها .

والخندق كما صوره الأستاذ عبد القدوس يقع فى شمال المدينة بينها وبين أحد ، وينحدر إلى الشرق بينها وبين حرّة واقم ، ويتصل من الجنوب بوادى بُطْحان ، ومن الغرب بحرّة الوبر . وفيما وراء الخندق من الشرق تقع منازل اليهود فى عهد الرسول : بنى قُريظة وبنى النّضير ، وفيما وراءه من الغرب يقع وادى العقيق ، وتقع قُباء فى جنوبه . وسنتناول ما هنالك فى هذه الجهات جميعًا حين حديثنا عن ظاهر المدينة .

أخالنى غاليًا حين أذكر ما ساورنى من أسف لإهمال أثر كالخندق حفره المسلمون الأولون برأى سلمان الفارسى ، ولم تكن الخنادق معروفة فى حربهم فكان له من الأثر أن حمى المسلمين وحمى الإسلام وكانا عرضة لفتك المشركين بعد أن ألّبهم اليهود بإمرة حُيَىّ بن أخْطَب عليهم . وهل حافظ المسلمون على غير الخندق من الآثار فيلامون على إهمالهم إياه ! . وإذا كانت غزوة حُنين المجيدة لا يُعرف موضعها على وجه التحقيق فى جوار مكة ، فلا عجب أن يصيب الخندق ما أصابه . لقد نزل فى حنين قرآن كما نزل فى الخندق قرآن . ففى غزوة الخندق وموقف الأحزاب من المسلمين فيها يقول الله تعالى : «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا » . أو لم يكن حقًّا على المسلمين أن يقيموا لهذا الخندق أثرًا باقيًا يُذكر به ! أو ليس حقًّا اليوم أن نقوم

بما لم يقوموا به ليكون لنا فى صبر المسلمين حين الخندق على البأساء وعلى مواجهة الموت عبرة ! أم أننا لا يعنينا من تاريخ السلف إلا بركته ، وإن غابت عنا عبرته ! .

والآن ، فماذا وراء الخندق فى داخل المدينة من آثار تذكر اليوم ؟ لا أحسب أثراً لما بعد عهد النبى أبقى ذكراً عند المسلمين من سقيفة بنى ساعدة . وهم لا يذكرونها لجلوس النبى فيها ما يذكرونها لوقوع بيعة أبى بكر بها ، بعد ما وقع من خلاف بين الأنصار والمهاجرين أيهم تكون له الإمارة . وقد ألف الناس أن يذكروا تاريخ الخلاف بينهم أكثر مما يذكرون أسباب اتفاقهم وإخائهم . أترى مكان هذه السقيفة ثابتاً مع ذلك لا يقع عليه خلاف ؟ كلا ! فمن المؤرخين من يقول إنها خارج الأسوار على مقربة من بئر بُضَاعة . وهذا الرأى الأخير رأى المطرى ، وقد انتهى السمهودى إلى ترجيحه . وبذلك تكون السقيفة واقعة عند الباب الشامى من أبواب المدينة قبيل ملتقى الطريق إلى الشام والطريق إلى أُحد .

ولا يزال أهل المدينة يحتفظون للسقيفة بأثر لم يُشِر عنايتى ؛ فهو فضلا عن عدم قِدمه لا يصوّر فى الذهن معنى من حياة الأنصار الأقدمين . وما قيمة الأثر أو النُّصُب إذا خلا من المعنى المقصود منه وفقد مزيّة القدم ! .

هذا ولقد كنت حريصاً على الوقوف بالآثار التى تذكر عهد النبى بالمدينة أكثر من حرصى على سواها . وما تذكره سقيفة بنى ساعدة من ذلك قليل إذ كانت لا تذكره بأكثر من أن النبى جلس فيها . وما ذلك إلى جانب ما تذكره المُناخة الفسيحة التى ما تزال باقية فضاء كما كانت فى العهد الأول ، والتى تأوى قوافل الحجاج إليها إذ تتخذ منها مُناخة إبلها ومضارب خيامها ، كما فعل العرب على عهد الرسول إذ جاءوا زَرَافات ووحداناً ملبّين الداعى لِحجة الوَداع ! وليس يذكر الحجاج اليوم شيئاً من حجة الوداع ومقدَم المسلمين إلى المدينة لأداء فرضها مع رسول الله . هذا وحجة الوداع من أعلام الإسلام التى لا تُنسَى ؛ إذ نزل فى أثرها قوله تعالى :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً » .

وكانت المناخة قبل حجّة الوداع وأول ما جاء الرسول إلى المدينة سوقًا لبنى قَيْنُقاع من اليهود الذين اتخذوا منازلهم على مقربة منها ، وكانت سوقًا للمدينة كلها حتى استحرّ الخلاف بين المسلمين واليهود ، فتحولت السوق عنها . وبنو قينقاع من اليهود هم أول من تحرّش بالمسلمين فى المدينة ، فنشبت العداوة والبغضاء بينهم وبين اليهود . فقد كان بنو النضير وبنو قُريظة يقيمون خارج المدينة فيما وراء موقع الخندق من قبل أن يحفر الخندق . أما بنو قينقاع فكانوا يقيمون بين أهل المدينة ، وكان لهم فيها من سلطان المال ما لليهود حيث نزلوا من أقطار العالم . وكان أول ما بدأت الخصومة بين اليهود والمسلمين بعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر . أما قبل بدر فكان اليهود يدسون بين المسلمين يحاولون الوقيعة بينهم لتبقى لهم هم الكلمة العليا . فلما رأوا كلمة المسلمين تعلو ومكانتهم فى شبه الجزيرة تستقر وتُهاب خافوا المغبّة فأتمروا وجعلوا يُغرون بمحمد وأصحابه ويرسلون الأشعار فى التحريض عليهم . ولم يطق المسلمون ذلك منهم ، فاندفع شباب الأنصار فقتلوا أبا عَفَك وعَصْماء من المنافقين وكَعب ابن الأشرف من اليهود . عند ذلك اشتدت مخاوف اليهود ولم يبق منهم من يأمن على نفسه . لكنهم شعب طويل الأناة كثير المكر ذو مِرَّة فى العناد. أمّا وقد رأوا أن المسلمين لا ينجح معهم الدس والوقيعة فليرهبوهم بالسخر منهم لعلهم يرجعون . أرادوا امرأة مسلمة جاءت سوقهم تُصلح حِلية لها عند صائغ منهم على كشف وجهها فأبت . وجاء يهودى من خلفها على غِرَّة منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت . إذ ذاك وثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه . وأراد رسول الله حسم الشر فطلب إلى اليهود أن يكفّوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة الذى عقده معهم أو ينزل بهم ما نزل بقريش . وكان جواب بنى قينقاع : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت

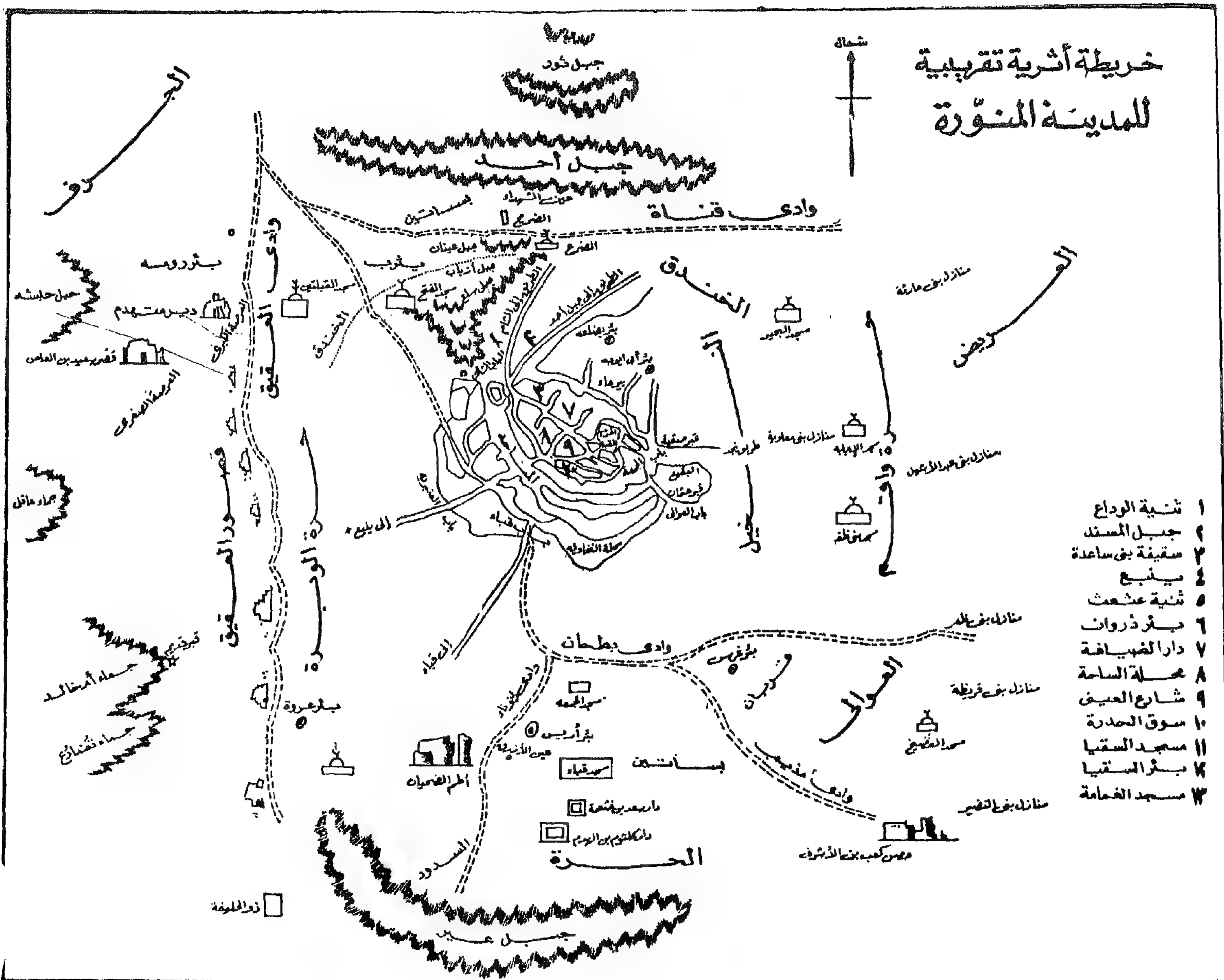
قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس » . فلما سمع النبي ذلك منهم حاصرهم خمسة عشر يوماً لم يخرج منهم أحد ولم يدخل عليهم بطعام أحد، فلم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه . وقام عبد الله بن أبىّ ، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً ، فطلب إلى محمد أن يعفو عنهم وأن يُعفيهم من القتل . وانتهى الأمر بعد خلاف أن غادروا المدينة إلى وادى القُرى ثم إلى أذرعات على حدود الشام وعلى مقربة من أرض المَعاد .

تذكّرنا المُناخة بهذا الحادث فى حياة المدينة على عهد الرسول و بما ترتب عليه من جلاء اليهود عن المدينة ، وما كان بعد ذلك من جلاء اليهود عن بلاد العرب كلها . ويدعونا هذا الحادث إلى التفكير ؛ أيهما خير لحياة أمة من الأمم : أن تكون على عقيدة واحدة ودين واحد ، أم يترك فيها أمر العقيدة جانباً فلا بأس بأن تتعدد فيها الأديان والمذاهب ؟ والجواب أن الناس فى العصور كلها قد حرصوا على أن تكون الأمة رأياً واحداً فى دينها وعقيدتها كفالةً لأمنها وسلامها . وحيثما تعددت الأديان وتشعبت المذاهب كان ذلك مبعث الثورة والاضطراب . ولا يزال الناس من أهل عصرنا على هذا الرأى ، وإن عبّروا عنه بما سمّوه حرية العقيدة. وهم إنما أرادوا بهذا التعبير أن يهونوا من حدّة التعصُّب وما كان يؤدى إليه من سفك الدماء لاختلاف مذهبى قد يكون أهون أمراً من أن يختصم فيه رجلان ، بله أن تزْهَق بسببه أرواح وأن تضطرب له حياة الجماعة . والواقع أن تعدد الأديان فى الأمة الواحدة قد كان أبداً مثار منازعات دموية أو غير دموية لها فى حياة الأمم أسوأ الأثر . وليس ينسى أحد مذبحة « سان بارتلمى » فى فرنسا ولا حروب البروتستنتية والكثلكة قبلا . ولن ينسى أحد ما وقع فى عهود كثيرة بين إنجلترا واسكتلندا بسبب الخلاف الدينى . وعالمنا اليوم ومنذ عشرات من السنين يضطرب بنزعة العداوة لبنى إسرائيل مصورة فى صور عداوة السامية ويَصْلَى من ذلك ويلات وأهوالا . ولقد عانت فرنسا من حادث « دريفوس » وقضيته أشد العناء . وهذه

ألمانيا فى هذا القرن المتمم للعشرين قد أجلت اليهود عنها وضربت بينهم وبينها حجاباً ، وكانت فى شأنهم أشد تطرفاً مما كان محمد والمسلمون الأولون فى بلاد العرب . وما تحاوله إنجلترا اليوم من إنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين على كره من أهلها ليس إلا مقدمة لإجلاء اليهود عن إنجلترا ، وهى مقدمة يدركها تمام الإدراك مَن عرف السياسة الإنجليزية ومراميها البعيدة وأساليبها الخفية . وهذا كله ينهض دليلا على أن العقيدة أساساً للحياة الاجتماعية أكبر شأناً من الأساس الاقتصادى ، وأن تفكيرنا الحاضر فى هذا الشأن لم يخالف تفكير من سبقنا ، وأن ما نسميه حرية العقيدة قد يصدُق بالنسبة للفرد فيما بينه وبين نفسه ، لكنه لا يزيد فى أمر الجماعة على أنه ثوب رياء قد يوارى ما تحته وإن لم يخف الحقيقة التى لم تختلف على الأجيال .

والذين يُلبسون تفكيرهم ثوب الرياء يتهمون غيرهم بالتعصب ، وهم علم الله أشد الناس تعصباً لآرائهم وعقائدهم . وما نعيبهم بذلك وإنما نعيبهم بنفاقهم . ولو أنهم آثروا الصراحة وأنصفوا لقالوا الحق من أن وحدة العقيدة هى المظهر الأول للحياة الاجتماعية، وأن هذه الوحدة تكون أساساً صالحاً حقاً ما قامت على إدراك وفهم ، لا على تقليد جامد يمسك صاحبه فى ظُلَم الضلالة ويأبى أن يخرج به إلى نور اليقين ليسلك سبيله التى تؤدى إلى صراط الله المستقيم .

وإنما تقوم الحياة على هذا الأساس الصالح المتين يوم يسمو الإنسان فى صلته بالإنسان إلى التفاهم عن طريق المجادلة بالتى هى أحسن ، والقصد إلى الحق بالدليل والحجة البالغة ، مع الحرص على بلوغ هذا الحق والمصارحة بالاقتناع به متى حدث هذا الاقتناع . وما تزال الإنسانية، مع الشيء الكثير من الأسف، بعيدة عن أن تقيم صلاتها على هذا الأساس ، وهى ما تزال تلجأ إلى القوة تعتبرها وسيلة مجادلة وسبيل إقناع . وما دام ذلك شأنها فلن يتهيأ لها من وحدة العقيدة بين أهل الأمة الواحدة ما يقيم علاقات الأفراد فيها على أساس من الإخاء الصحيح وحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه . وهذا ما فطن الإسلام له . ولهذا وضع القواعد لمعاملة أهل الذمة وأهل الكتاب وأجارهم وجعل لهم


خريطة أثرية تقريبية
للمدينة المنوّرة
شمال
جبل ثور
جبل أحد
وادي قناة
الجرف
العريض
الخندق
النخيل
وادي بطحان
العوالي
الحرة
جبل عير
وادي العقيق
قصور العقيق
حرة الوبرة
حرة واقم
بئر رومه
بئر عروة
١ ثنية الوداع
٢ جبل المسند
٣ سقيفة بني ساعدة
٤ ينبع
٥ ثنية عشعث
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافة
٨ محلة الساحة
٩ شارع العيف
١٠ سوق الحدرة
١١ مسجد السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامة

ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فيما لا يتصل بالعقيدة وما ترتبه على المؤمنين بها من جهاد فى سبيلها وما تنشئه لذلك من تكاليف وحقوق عامة .

تذكّرنا المناخة سياسة المسلمين واليهود بعضهم إزاء بعض ، وتنشر المدينة القديمة أمامنا بما فيها من دور ومساجد وآبار وأمكنة أثرية حياة المسلمين فى عهد النبى وخلفائه الراشدين وحياتهم أيام كان الإسلام يصور للإنسانية حضارتها وينشرها فى الخافقين . وما تنشره من ذلك فى عهد النبى عظيم حقًّا ، بالغ غاية الجلال . فقد رأيت من حديث دورها حول المسجد ما قصصت عليك . وما تروى الكتب من مستفيض أنبائه يزيد الصورة التى تنشرها المدينة أمام الذهن وضوحًا ، ويزيدها لذلك جلالا ومهابة .

وأقرب هذه الآثار إلى المناخة مسجد الغَمامة . فأنت ما تكاد تتخطى باب العَنْبَرية داخلا إلى المدينة حتى تراه أمامك ، بل إنك لتراه وأنت ما تزال خارج المدينة . فهو اليوم مبنىّ بناء متقنًا ، وله قِباب ست تلفت النظر ، ومئذنة قصيرة يسترعى قصرها الانتباه إذ يقرنها إلى مآذن المسجد النبوى السامقة فى السماء . ولهذا المسجد فضلا عن اسم الغمامة اسم المصلَّى . ذلك بأن رسول الله كان يصلى العيدين فى المكان الذى يقوم به وظل على ذلك إلى أن لاقى ربه . لكن هذا المكان لم يكن فى ذلك العهد مسجداً ، بل كان فضاء من الأرض شأنه شأن سائر المناخة . ويذكر السمهودى رواية عن ابن شبّة عن أبى عثمان الكنانىّ أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس أن المصلَّى بُنِى مسجداً فى القرن الثانى للهجرة .

وبداخل المدينة خلا مسجد المصلى : مسجد السُّقْيا ، ومسجد الفتح ، ومسجد ذُبَاب ، ومسجد الإجابة ، هذا إلى مساجد أخرى ليس يذكرها أكثر المؤرخين . فأما المساجد القائمة بظاهر المدينة فسنتحدث عنها من بعدُ .

ومسجد السُّقْيا أقرب المساجد التى ذكرنا إلى المناخة وإلى مسجد الغمامة . وهو لا يزيد اليوم عن قبة يسمونها قبة الروس قائمة عند باب العنبرية فى جوار بئر السقيا ، وإنما يفصل بينهما طريق مكة . ويذكرون أن النبى

صلى بهذا المسجد ودعا فيه بالبركة لأهل المدينة وذكر أن بلدهم حرام كمكة .
وهذا الذى يروونه من حرمة المدينة موضع جدل طويل أسهب السمهودى
فى بيانه فى أول كتابه « وفاء الوفا » . والسمهودى هو الذى اكتشف هذا
المسجد فى القرن التاسع وكان دارساً ، ولما اكتشف أعيد بناؤه ثم تهدم كرة
أخرى وأقيمت قبة الروس موضعه .

أما مسجد الفتح فيقع فى شمال المدينة على قطعة من جبل سَلْع ، فهو
بذلك أدنى إلى ظاهرها ، وهو يقع حيث كان الخندق . وهو من المساجد التى
بنيت فى عهد الرسول . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا الله فيه ثلاث مرات
استجاب له ربه فى الثالثة منها ، فعُرِف البِشر فى وجهه ، وكان دعاؤه أن
يصرف الله الأحزاب . فلما استجاب الله له وصرف الأحزاب عاد النبى
بالمسلمين إلى المدينة وكلهم حمد لله وثناء عليه . وقد جدد الحسين بن أبى
الهيجاء بناء هذا المسجد سنة ٥٧٥ للهجرة ثم جددته الدولة العثمانية بعد ذلك .
ولقد كان فى عهد رسول الله مبنيًّا بالحجارة واللبِن والجريد . أما اليوم فهو مبنى
كله بالحجارة . وقاصده يرتقى إليه على سفح سَلْعَ .

وعلى مقربة من مسجد الفتح يقع مسجد ذُباب على سفح جبل ذباب فيما
بين سَلع وأحُد . وكل ما يؤثر عن هذا المسجد أن رسول الله صّلى فى موضعه .
وأنه ضرب قبّة له على جبل ذباب فى غزوة الخندق .

ويقع مسجد الإجابة شمال البقيع بضاحية المدينة الشرقية . وسمى هذا
المسجد مسجد الإجابة فيما يذكر السمهودى لأن رسول الله دعا ربه فيه وطلب
إليه ألا يهلك أمته بالغرق ، ولا بالجدب ، وألا يجعل بأسهم بينهم ، فأجاب
الدعوتين الأولى والثانية ومنعه الثالثة .

هذه هى المساجد المأثورة بداخل المدينة . أو يستطيع المؤرخ أن يقطع
بأنها تؤرخ الحوادث التى أقيمت شاهداً عليها ؟ لعله يستطيع ذلك فيما له
اتصال بحوادث معينة كغزوة الخندق . وإنى لأوثر أن أرجئ الحديث فى
هذا الأمر إلى أن أستكمل هذه الآثارحين الحديث عما يوجد منها بظاهر

المدينة . فما بالمدينة وما بظاهرها يتصلان من حيث دلالتهما على حياة الرسول وأصحابه بالمدينة وما يرسمانه لهذه الحياة من صور .

تناولت من آثار المدينة دورها المحيطة بالمسجد النبوى ومساجدها التى تذكر حادثاً بذاته ، وتناولت من الأمكنة سقيفة بنى ساعدة والمُناخة والخندق وسور المدينة . وثَم من الأمكنة كذلك ثنيّة الوَدَاع التى دخل النبى منها المدينة . وهى ثنيّة فى الجبل كالثنية التى تقابل الشرائع فى طريق الذاهب من مكة إلى الطائف . والنُّقَا وحاجر كانا من متنزهات المدينة فيما مضى وهما اليوم عامران بالدور الأنيقة . والمُنحنَى الذى يجرى اليوم طريقاً أمام التكية المصرية وتقوم على جانبيه دور الحكومة .

ولست أستطيع أن أختم هذا الفصل دون الإشارة إلى أمر لعل له من الخطر عند علماء الحفريّات والتنقيب عن آثار المدينة أكثر مما يدور بخلَد من لا عهد لهم بهذه الشئون. ذلك أن المدينةالحالية تقوم فوق أطلال قديمة لمدينة سبقتها . صحيح أنه لم تجرحفريات علمية لإثبات هذا الأمر ، لكن حفريات قصد بها إلى تهيئة أسس المنازل أو الأنصاب شهدت به ودلَّت عليه ، أو شهدت على الأقل بأن الشبهة عليه بالغة غاية القوة . وقد روى الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فى كتابه « آثار المدينة المنورة » حوادث من ذلك جديرة بأن تسترعى نظر العلماء . فبينما كان العمال يحفرون الأساس بالقسم الشمالى من مدرسة العلوم الشرعية الواقعة قرب باب النساء عثروا بمصباح زيت قديم على عمق أربعة أمتار من سطح الأرض ، كما عثروا ببركة صغيرة ومجارى مياه وقطع من فَخَار . وفى عام ١٣٣٥ كان العمال يحفرون موضع الأساس لنصب تذكارى أمر حاكم المدينة التركى فخرى باشا بإقامته تذكاراً لتولية الشريف على حيدر على إمارة مكة ، إذا هوّة انفتحت وكشفت عن بيوت سقفها تحت طبقة هذه الأرض . وقد نزل العمال إليها ووجدوا بها ثياباً معلقة على حبال محتفظة بهندامها . فلما مسّوها بعد دخول الهواء إليها تناثرت . وكان العمال يحفرون فى بستان لآل السيد محيى الدين بالطرناوية إذ انفتحت

أمامهم هوة واسعة عميقة متصلة بنفق واسع . وقد هبط إليه بعضهم وسار فيه ثم ارتد فزعاً لظلمته . وعثروا فى هذا البستان كذلك بآثار لبناء قديم من الآجُرّ المربع الكبير . فإذا صح أن كانت لهذه الحفريات دلالة على أن المدينة قائمة فوق أطلال مدينة سبقتها كان ذلك جديراً بمباحث الأثريين والجيولوجيين لمعرفة التاريخ الذى ترجع إليه هذه الآثار والسبب الذى أدى إلى طمرها .

وأكبر الظن عندى ، وإن لم أكن من رجال الآثار أو طبقات الأرض ، أن السبب فى ذلك يرجع إلى طبيعة هذه الأرض التى تقوم المدينة عليها . فكل ما حولها يشهد أنها طبيعة بركانية سكنت منذ أزمان بعيدة . وهذه الحِرار السوداء التى حولها إنما هى حِمَم اختلط بتراب الأرض ورمالها وارتفع إلى بعض الهضاب فيما يُخيَّل إلى . فإن لم يكن ذلك حقّاً ، والحكم به يحتاج إلى مباحث علمية دقيقة ، فلا بد أن تكون البراكين قد ثارت بهذه البقعة فطمَرت الرمال والأتربة والحمم مساكنَها فى عصر سبق ، وذلك عندى تفسير ما يقصه صاحب « آثار المدينة المنورة » من الأنباء .

ولكن متى حدث هذا ؟ أفحدث بعد عهد الرسول أم حدث قبله ؟ وهل كان وحده السبب فى أن طُمرت بالمدينة دور وآثار شتّى ؟ يتعذر القول برأى حاسم فى هذا الأمر . فقد رأيت على مقربة من ذى الحُليفة آثار مسجد ذكر لى الأستاذ عبد القدوس أنه كان مطموراً ، وأنه كُشف عنه من عهد غير بعيد . أما والمساجد لم تُعرف إلا بعد الإسلام فقد طُمِر هذا المسجد إذاً فى عصور متأخرة . لكن مؤرخى المدينة لم يذكروا لنا شيئاً عن البراكين والثورات البركانية ، وإن ذكروا هذه الصاعقة التى أحرقت المسجد النبوى وامتد لهبها إلى بعض نواحى المدينة . فما اكتشف إذاً فيما حول المسجد وعلى مقربة منه لابد أن يكون قد طمر قبل عهد الرسول . وهذا احتمال ليس بمستحيل حدوثه ، وليس بمستحيل أن تكون الثورات البركانية سببه . وقد يؤيد هذا القول بقاء الآبار المأثورة منذ عهد الرسول كبئر السُّقيا وبئر بُضاعة اللتين أشرنا إليهما ، وكبئر حاء وبئر أبى أيوب وبئر ذَرْوان وغيرها من الآبار

التى سردت أسماءها فى فصل المدينة الحديثة . لكن هذا التأييد لا يعدو أن يكون ظنياً أقرب إلى الحدْس المنطقى . فأما السبيل إلى الإجابة عما سألنا عنه وإثباته العلمى ؛ فالحفريات الأثرية والجيولوجية دون سواها .

وأكرر أنى أرجئ الحديث فيما تدل عليه هذه الآثار من حياة المسلمين بالمدينة فى عهد النبى إلى فصل « ظاهر المدينة » . فظاهر المدينة قد كان ميداناً لنشاط الرسول وأصحابه كالمدينة سواء ، ولا سبيل لذلك إلى حديث مستقل عن حياتهم فى ناحية دون الأخرى من هاتين الناحيتين المتصلتين . ونحن إنما جعلنا الخندق فاصلا بينهما لنيسر تقسيم البحث ونهيئ للقارئ تكوين صورة من المدينة أبعد ما تكون عن الاختلاط والاضطراب . أمّا الواقع من الأمر اليوم ، كالواقع من الأمر فى أعقاب الهجرة وإلى وفاة الرسول ، فالمدينة وظاهرها كلٌّ متصل ليس من الميسور تجزئته .

جنة البقيع

إن تَعجَبْ فقد عَجبتُ قبلك من عنوان هذا الفصل. عجبت حين قرأت الكلمتين اللتين تؤلِّفانه على صورة شمسية للقِباب التى كانت قائمة بالبقيع ثم هدمها الوهابيون . وإنما هوَّن من عجبى أن الذى أطلق على المكان جنة البقيع ووضعه على الصورة رجل من الأتراك فى عهد بنى عثمان . فلما انقضى العجب وعدت أتدبر الكلمتين رأيتهما تعبران عن معنى دقيق ، فاخترتهما عنوانًا لهذا الفصل من الكتاب .

فالبقيع ، أو بقيع الغَرْقَد كما تسميه كتب السيرة ، هو مقبرة المدينة . كان مقبرتها فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وما يزال مقبرتها إلى اليوم . ولم يَعنِ التركى صاحب الصورة الشمسية هذا البقيع كله فى جاهليته وإسلامه ، وإنما عَنَى جزءاً منه هو الذى بقى موضع عناية الناس به وزيارتهم إياه ، وهو موضع حديثى الآن . فى هذا الجزء من البقيع مقابر أزواج النبى وقبر ابنه إبراهيم وقبور بناته ، وقبر عثمان بن عفان ، وقبر جعفر الصادق ، وقبر مالك بن أنس وقبور شهداء واقعة الحرّة التى هاجمت فيها جيوش يزيد بن معاوية المدينة سنة ثلاث وستين من الهجرة . هذا إلى كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت المؤلفات القديمة عدداً كبيراً من أسمائهم ، وأغفلت مع ذلك ذكر أسماء أكثرهم .

المسلمون جميعًا على اتفاق أن أصحاب هذه الأسماء التى أسلفناها من أهل الجنة ، وأن كثيرين غيرهم ، لم أذكر أسماءهم ، من أهل الجنة كذلك ، فمنهم جماعة من أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله صلى الله علية وسلم : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر يوم بدر فقال اصنعوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » . ومنهم جماعة وهبوا حياتهم لله ولإخوانهم المسلمين فاستشهدوا فى سبيل الحق وشهد الناس لهم فى حياتهم بالتقوى ، فلهم عند ربهم مغفرة وأجر كريم .

ومن بينهم جماعة من العلماء الذين توفروا حياتهم على العلم مخلصين له وجوههم لا يبغون به غير الحق مرضاةً لله . من هؤلاء مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى وعالم المدينة العظيم . والعلماء ورثة الأنبياء ما أرادوا بعلمهم الحق وهداية الناس له . أما وذلك شأن الثاوين فى هذا المكان فلم يَغْلُ من سماه جنة البقيع ، ولم يغل من رفع القباب على قبور أصحابه لو أنه قصد منها إلى الإشادة بذكرهم لتكون للناس على كرّ العصور مدّكراً وعبرة .

يقول « برخارت » فى كتابه وصفاً لهذا المكان[1] : « فى اليوم الذى يلى أداء الحاج واجباته للمسجد والحجرة تجرى العادة بذهابه إلى مقبرة المدينة تكريماً لذكرى القديسين الكثيرين المدفونين بها . وهى تجاور أسوار البلد على مقربة من باب الجمعة وتسمى البقيع . صورتها مربع مكون من بضع مئات من الأذرع يحيط به جدار يتصل من الجنوب بضاحية المدينة وتحيط به من سائر نواحيه مزارع النخيل . وهذا المكان حقير جداً بالنظر إلى قداسة الأشخاص الذين يحتوى رُفاتهم . ولعله أشد المقابر قذارة وحقارة بالقياس إلى مثله فى أية مدينة شرقية فى حجم المدينة . فليس به قبر واحد حسن البناء ، كلا بل ليست به أحجار كبيرة عليها كتابة اتُخذت غطاء للقبور ، إنما هى أكوام من تراب أحيطت بأحجار غير ثابتة . وقد اتهم الوهابيون بأنهم الذين دمّروا القبور ، واتخذ الدليل على ذلك من بقايا قباب ومبان كانت على قبر عثمان والعباس وفاطمة وعمّات محمد قيل إن هؤلاء المتعصبين دمروها . لكنهم من غير شك ما كانوا ليزيلوا أى قبر بسيط مبنى من الحجر هاهنا وهم لم يصنعوا من ذلك شيئاً بمكة ولا بغيرها من الأماكن . فما عليه هذه المقبرة من سوء الحال لابد أن قد سبق عهد الغزوة الوهابية ، ويرجع سببه إلى ضيق التفكير الذى جعل أهل المدينة يَضِنّون بأى نوع من البذل إكراماً لرُفات العظماء من بنى موطنهم . فالمكان كله مُضْطَرِب يجمع أكوام التراب إلى جانب الحفر الواسعة والحثالة من غير أن يكون به حجر قبرىّ واحد . ويُطاف

---

(١) راجع الأصل الإنجليزى لجولاته فى بلاد العرب جزء ٢ صفحة ٢٢٢ وما بعدها .

بالحاج لزيارة عدد من القبور ولتلاوة الأدعية المألوفة حين وقوفه بكل قبر منها . وإن كثيرين ليقصرون أنفسهم على حرفة هي الوقوف طيلة النهار على مقربة من أحد القبور الهامة وفي يدهم منديل منشور في انتظار الحجاج الذين يجيئون للزيارة . وهذه الحرفة امتياز خاص ببعض الفراشين من خدام المسجد وأسرهم ، إذ قسموا المقابر فيما بينهم ليقف الواحد منهم عند أحدها أو يبعث خادمه بديلا منه » .

هذا ما يصف به الحاج عبد الله برخارت جنة البقيع . ولقد زرتها بعد خمس وعشرين ومائة سنة من زيارته إياها فلم أجد بها بقية لبناء أو قبة على الأجداث ، مما حمل التركي على أن يسمى هذا المكان جنة البقيع ، ولم أجدبها أكواماً من التراب ولا حُفَراً ولا حثالة ، إنما وجدت قبوراً مُسوَّاة بالأرض يحيط بكل قبر منها أحجار صغيرة تُعْلِمه . فقد أزيل في هذا العهد الحاضر كل ما بقي من أثر لُقبة أو بناء وسُوِّيت القبور بالأرض . فلولا أنك تعرف أن هذا المكان هو البقيع وأن به رُفاتًا خلّف أصحابُها على التاريخ أعظم الذكر ، ولولا هذه الأحجار المحيطة بكل قبر ، لخلتها فضاء مسوّاً لا شيء ألبتة فيه . لكن ما تعلمه عن الثاوين بها يجعلك تقول مع برخارت : « لقد بلغت المدينة من الغنى برُفات القِديسين العظماء حتى لقد كاد كل من هؤلاء يفقد جلال العناية بذاته ، على حين تكفي بقية من رفات أي من المدفونين بالبقيع لتجعل لأية مدينة إسلامية أعظم الشهرة » .

زرت البقيع وتخطيت أثناء القبور ووقفت على كل قبر وصليت على صاحبه واستغفرت الله له ، ثم وقفت متأملا أتدبر ما أمامي وتناجيني نفسي : « أو يموت الذين يسبقوننا إلى القبور ! أم أنهم يُنقلون من عالمنا هذا إلى العالم الآخر فتنحل أجسامهم إلى عناصرها الأولى وتبقى أرواحهم بين يدى بارئها يحاسبها على ما قدمت . وما قدّم الذين قبلنا لا يزول بزوالهم بل ينتقل إلينا ويُصبح ميراثنا عنهم ، تتأثر به حياتنا حتى لكأنهم بيننا . وحسبي أن أذكر ما في نفسي أنا المصري من ميراث هؤلاء المؤمنين المدفونين بهذا البقيع ليثبُت يقيني

باتصال الوحدة بيننا وبين الذين سبقونا . ليكن مذهبي الإسلامى شافعيًّا أو حنفيًّا أو حنبليًّا فأنا قد تأثرت وتأثر أمثالى لا ريب بمذهب هذا الفقيه العظيم مالك بن أنس الراقد فى هذا البقيع . وليكن هواى السياسى فى الحياة الإسلامية علَوِيًّا أو أمويًّا فأنا تأثرت بلا ريب بهذا الخليفة الكبير عثمان ابن عفان، وبزوج هذه الراقدة هاهنا فاطمة ابنة النبى وبابنيها الحسن والحسين . وهذه الأسرة الكريمة أسرة رسول الله، وهاهنا منها رُفات زوجاته وبناته وعمّاته، قد تركت من الأثر فى حياتى أبلَغه وأعمقَه . تغير اتجاه تفكيرى على السنين غير مرة ولم يتغير ما ترك هؤلاء جميعًا فى النفس من أثر آيتُه أنى كنت وبقيت أحنى الرأس إكباراً وإجلالا لدى ذكرهم وحين الحديث عنهم .

كم مرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا المكان ؟ عشرات المرات . فقد كان يجيء إليه كلما مات صاحبٌ من أصحابه يصلى عليه ويقف حتى يوارى جثمانه التراب . وكان يجيء وحده أحيانًا ومع أصحاب له أحيانًا أخرى، لغير شيء إلا للصلاة على من فى البقيع والاستغفار لهم ومناجاتهم . فقد كان يرى الحق من أن الموت انتقال من حياة الدنيا إلى حياة الآخرة ، وأن الذين ينتقلون من بيننا يبقى اتصالهم بنا حتى ليسمعوننا وإن كانوا لا يتحدثون فلا يستطيعون أن يجيبونا ، لذا سمعه أصحابه جوف الليل بعد أن نصر الله المسلمين ببدر يناجى المشركين الذين قتلوا فى المعركة ودُفنوا فى القَليب الذى حفره المسلمون لهم وهو يقول : « يا أهل القليب ! يا عُتبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام ، يا . . " واستمر يذكرهم بأسمائهم"، يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ! فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا » . قال المسلمون : « يا رسول الله أتنادى قومًا جيَّفوا ! » . فكان جوابه : « ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم ، لكنهم لا يستطيعون أن يُجيبونى » . وكثيراً ما ناجى أهل البقيع من أنصاره الذين استُشهدوا فى سبيل الله . وكان آخر ذلك حين مرض مرضه الذى اختار الرفيق الأعلى على أثره . فقد أرِق ليلةً أول ما بدأ يشكو فخرج ومعه مولاه أبو مُوَيْهِبة وذهب إلى البقيع

فوقف بين المقابر وقال يخاطب أهلها : « السلام عليكم يا أهل المقابر . ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . . » ثم استغفر الله لهم . وهذه آية من رسول الله فى السمو بالتفكير على الزمان والمكان ، وفى مقدرة مَن وهبه الله ما وهب رسوله أن يتصل بمن يشاء الله أن يتصل بهم ممن يحجبهم الزمان والمكان . ولقد يسّر لنا العلم أن ندرك اليوم شيئاً من هذا حين يسر لنا أن نصل على المكان بمن شئنا عن طريق الأثير والإذاعة ، وما يزال علماء يحاولون حل مشكلة الزمان بالاتصال بأرواح الذين سبقونا . ومَن يدرى ! فلعل العلم يطوِّع لنا أن نتصل بهم يوماً فى يُسْرٍ كما نتصل اليوم بمن فى أقصى الأرض ، وأن نراهم طى القرون كما نرى عن طريق « التلفزيون » من تحجب البحار والجبال والقارات بيننا وبينهم .

ومع تسوية قبور البقيع بالأرض اليوم وعدم إعلامها إلا بهذه الأحجار الموضوعة حولها ، لقد شعرت إذ وقفت أمام بعضها بهِزَّة نفسية كأنما بينى وبين ساكنيها أقرب الأواصر ، وكأنهم دُفنوا لأمْسهم ولما تجف العبرة عليهم . من هذه القبور قبر إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة والسلام . فلقد وقفت لديه وأطلت الوقوف وذكرت عنده هذه الفترة الوجيزة من حياة محمد مذ وُلد هذا الطفل إلى أن مات ولمّا تنتصف السنة الثانية من عمره . كان الله قد فتح أم القرى مثابة بيته العتيق على المسلمين ، وقد أمنهم جانب الروم ، وكان النبى قد جاوز الستين بعد أن اطمأن إلى نصر الله إياه ، تفِد عليه القبائل من انحاء الجزيرة كلها تعلن إليه إسلامها وتستظل بلوائه الروحى وبأخوّة المؤمنين . كان إلى ذلك قد فقد أبناءه وبناته فلم يبق له منهم إلا فاطمة ، وقد أقام عشر سنوات بعد وفاة خديجة وبعد زواجه من عائشة سائر أمهات المؤمنين لا يَعْقِب . فلما ولدت له مارية القبطية المصرية إبراهيم فاضت بالمسرّة نفسه ووجد فى هذا الطفل أُنس قلبه وزينة حياته، فجعل يمر كل يوم بدار أمه يمتع بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ويغذى بضمه إلى صدره شعوره الإنسانى الذى

بلغ من السمو أن شمل الناس جميعاً ، وهو يجد مع ذلك فى توفره على هذا الطفل نعيماً وغبطة . وتأخذ الغَيرة أمهات المؤمنين لهذا الحب الذى رفع أم إبراهيم عن مقام السرارى إلى مقام الزوجات ، فيأتمرن بالنبى ويخرج بهن الغضب إلى ما لم يعوِّدنه ، فلايصرفه ذلك عن الطفل ، بل يزداد به تعلقاً كلما ازداد نمواً ، وكلما رأى فى ابتسامته وفى ضحكته ما تَسعد به أبوّته وتستريح له نفسه من عملها العظيم المُضْنى . ويترعرع الطفل وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضوحاً فيزداد له حباً وبه تعلقاً ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده . وإنه لكذلك إذ مرض الطفل وأسرع فيه المرض ، فذبلت نضارتُه وذهب لونه ، ولم ينفعه تمريض أمه ، ولم يبعث عطف أبيه إلى جسمه النحيل الشفاء . ويشتد الألم بمحمد لما يرى من حاله ويبلغ منه الألم أن يأخذ بيد عبد الرحمن ابن عوف يعتمد عليه فى مسيرته من المدينة إلى النَّخل بجوار العالية من ضواحى المدينة حيث تقيم مارية تمرِّض ابنها ، وتُعينها أختها سِيرين فى تمريضه وتواسيها فى بأسائها . ويرى النبى الطفل فى حِجر أمه بنفسه ، فيملأ الألم قلبه وتَنْدَى بالدمع عينه ، ويجلس إلى جوار مارية الملهوفة وهو أشد ما يكون وجلا وخوفاً وجزعاً ، ويأخذ الطفل إلى حجره وينظر إليه بعينين مُلِئتا ألماً ويقول : « إنا يا إبراهيم لا نُغنِى عنك من الله شيئاً » فتصيح الأم وتصيح أختها والطفل فى غيبوبة الموت لا يوقظه صريخ أمه ولا تنبهه الدموع الحارة المنهلة من مآقى أبيه ! . ويقبض هذا الروح البرىء وينطفىء بموته أملٌ تفتحت له نفس النبى زمناً ، فتزداد عيناه تهتاناً ويأخذ منه الحزن كل مأخذ ، ويقول والجثة الصغيرة الهامدة ما تزال فى حجره : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنّا عليك بأشد من هذا » . ثم تخنقه العَبْرة فلا يستطيع أن يتابع القول فيعلوه الوجوم وقد ارتسم الحزن على قَسمات محيَّاه فى أبلغ صورة للهفة اللاذعة العميقة . ويشعر بأنه مفارق هذه الفلذة من كبده فيهز رأسه ويقول : « تَدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنّا يا إبراهيم عليك محزونون » .

ويحس محمد ما به من جوى الحزن وما يلفحه من حرقتـــه ويقدر ما بمارية وأختها منه فتأخذه الرأفة بهما فيكفكف من دمعه ويتوجه إليهما يريد تعزيتهما فيذكر لهما أن له لمرضعا فى الجنة . ويقوم ومعه عمه العباس وطائفة من المسلمين يشيعون إبراهيم بعد ما غسلوه وحملوه على سرير صغير . ها هم أولاء قد جاءوا به إلى هنا ووقفوا به حيث أقف . ولعله صلى الله عليه وسلم كان واقفاً مكانى حين صلى عليه وحين سوَّى على قبره بيده بعد دفنه وحين رش الماء على القبر وأعْلَمَ عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تُقِر عين الحى . وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يُتْقِنه » .

وحدثتنى نفسى وأنا بموقفى : كيف يبلغ الحزن من محمد هذا المبلغ وقد حمل فى الحياة ما ينوء به من لم يؤته الله من فضله ما آتى نبيه ورسوله ، وقد حمله قويًّا صابراً مستهيناً بالأذى والموت ! وذكرت إذ ذاك أنه صلى الله عليه وسلم بشرٌ مثلنا ، وأن لنا فيه الأسوة والمثل ، وأنه فى حزنه على إبراهيم قد كان الأبوة البرّة والعاطفة السامية التى ركبها الله فى الناس إبقاءً على الحياة وصورة لوحدتها المتنقلة على الأجيال . وهل فى الحياة كعاطفة الأبوة البرة نعمة وسعادة وزينة ! . وهذه العاطفة التى نسعد بها هى التى تبعث إلى قلوبنا حبَّ الغير وتخفف من أثرتنا وتعلمنا الإيثار وتدعونا إليه، وهى التى تدفعنا بذلك إلى السعى فى الحياة ابتغاء الرزق لبنينا ومن يلوذ بنا وابتغاء الخير بعد ذلك للناس جميعاً . ولولا هذه العاطفة لقَضَت الأثرة على الحياة ولأسرع الفساد إلى الكون .

ويخرج الناس من البقيع بعد موت إبراهيم فإذا الشمس تُكْسَف ، وإذا آية النهار تُمْحَى ، فيحسبون ذلك معجزة شارك الكون بها رسول الله فى حزنه . لكنه صلى الله عليه وسلم ما يلبث حين يسمعهم يتهامسون بذلك أن يقول لهم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » . ويهرع المسلمون إلى المسجد يصلون وقد زادتهم كلمة رسول الله إيماناً بأن الله جل شأنه لا يغير سنته ، وأن كل ما يقع فى الحياة إنما هو من أمره .

وقفت على كل قبر بالبقيع وصليت على صاحبه واستغفرت الله له .

وكذلك كان يفعل الذين رأيتهم يزورونه ساعة زيارتى إياه . على أنى عجبت لقوم رأيتهم يُطيلون الوقوف عند قبور أهل البيت ويبكون أحر البكاء ، فإذا مروا بقبر عثمان استحثوا الخُطا فلم يقفوا عنده . قال أصحابى حين سألتهم فى ذلك : أولئك جماعة الشيعة ، فهم ما يزالون يذكرون أن دم عثمان هو الذى أذْكى الفتنة بين على ومعاوية ، وبين بنى أمية وآل البيت ، وأنه الذى أدى إلى مقتل على والحسين ، وهم لذلك يمرون بهذا القبر سِراعاً لا يصلّون على صاحبه ولا يستغفرون الله له . وزاد فى عجبى أن أهل بيت النبى أنفسهم لم يبلغوا من الموجدة على عثمان بعد موته هذا المبلغ . لقد رأيت كيف أراد الحسن ابن زيد أن ينتقم من بنى أمية لإدخالهم حُجرات أزواج النبى فى رُقعة المسجد ، فكتب إلى المنصور أن يزيد فى رقعة المسجد وأن يجعل الحجرة النبوية فى وسطه لتدخل دار عثمان فى رقعته ، وكيف أجابه المنصور : إنى قد عرفت الذى أردت فاكفُف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان . ولم يخالف أحد من العباسيين المنصور فى تفكيره هذا على طول ملكهم . أفتبقى الموجدة فى نفوس الشيعة أكثر مما بقيت فى نفوس بنى العباس وهم أقرب الناس إلى على وإلى الحسين نسباً ، أم أنها ليست المَوْجِدة ولكنها العقيدة التى يتوارثها الأجيال من غير تفكير فى سببها ومنشئها ، والتى تنشأ أول أمرها متأثرة بأهواء شُعوبية أو سياسية أغلب الأحيان ؟

ترى أفيبقى البقيع كما هو اليوم مسوّاة قبوره بالأرض لا يقوم على قبر منها قبة ولا يقام للعظماء والصحابة المدفونين به أثر يذكـّرون به ؟ لعلك تحسب الأمر يبقى كذلك ما بقى الوهابيون بالحجاز . وقد يكون فى التاريخ ما يرجح ظنك ؛ فقد غزا الوهابيون الحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى فحطّموا قِباب البقيع كما حطموا غيرها من القباب بمكة والمدينة وغيرها من بلاد الحجاز . فى هذا الوقت زار السويسرى « برخارت » الحجاز ووصف البقيع بما رأيت . فلما أجلَت جنود مصر الوهابيين عن الحجاز وعاد الأمر فيه إلى بنى عثمان أعادوا بناء كثير من القباب وشادوها على صورة من الفن التى تتفق مع ذوق

العصر . ولقد ذكر صاحب مرآة الحرمين من هذه القباب ما لأهل بيت النبى ، والقبة التى بناها السلطان محمود سنة ١٢٣٣ للهجرة على قبر عثمان ، ونشر صورها الشمسية . فلما عاد الوهابيون إلى الحجاز بعد ذلك بأكثر من مائة سنة هدموا هذه القباب كرة أخرى . أفيُعيد التاريخ نفسه ، فإذا جلا الوهابيون من الحجاز ودخل فى حكم أهله أو فى حكم غيرهم ممن لا يرون بإقامة القباب فى الدين بأساً أعادوا تشييدها ، وإذا عاد الوهابيون بعد ذلك إلى الحجاز هدموها ، أم يظل البقيع كما هو اليوم بقِىَ الوهابيون فى الحجاز أو جلَوْا عنه ؟ أم ترى يبلغ الأمر بين الوهابيين وغيرهم من طوائف المسلمين إلى التفاهم على إقامة أثر يذكر به هؤلاء الأبطال الذين دُفنوا بالبقيع ، على ألا يكون هذا الأثر موضع تبرُّك وألا يتخذ إلى الله زُلفى ؟

لا أريد أن أجازف بحكم ، فأمر ذلك للمستقبل ، والمستقبل غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله . لكنى مع ذلك أرجو ألا يظل هذا البقيع وليس به أثر يذكر به أصحابه ، ويذكر به أعلام من دُفنوا طى صحائفه . فلقد دفن به أكثر من عشرة آلاف من كرام الصحابة كان لهم فى الإسلام وتاريخه وتعاليمه أثر أىّ أثر . وإن قلت الإسلام وتاريخه وتعاليمه قلت : الحضارة الإنسانية فى الشرق والغرب ، ونحن لانقيم الآثار لمن سبقونا متاعاً لهم بها ، فمتاعهم فى عالَمهم بما قدّموا من عمل صالح . وإنما نقيمها ذكراً ومعتبراً للأجيال فى تعاقبها حثا لأبنائها على أن يجدوا فى السابقين الأولين الأسوة والمثل . وأنّا إذ ندخل « البانتيون » فى باريس أو كنيسة « وستمنستر » فى لندن ، أو أيّا غير هذين من مدافن العظماء لا تجول بخاطرنا عبادتهم ، ولا يدور بخَلَدنا تقديسهم ، إنما يدفعنا ذكرهم إلى الوقوف على أخبارهم وما خلّفوا من أثر جليل وعمل صالح . وفى هذا خير مشجِّع على متابعة هذا العمل ، وهو خير مظهر للصلة بين الحاضر والماضى صلة لا قيام لأمة ولا قيام للإنسانية إلا بتوثُّقها .

وما لنا نذكر باريس ولندن وبالمدينة من آثار الإسلام ما رأيت ! . ما أعظم الأثر الذى تثيره دار أبى أيوب الأنصارى فى النفس ! وما أعظم الموعظة

فى قبة خالد بن الوليد وشهادتها على ضيق رقعة داره ! وما أشد ما تهتز مشاعرنا حين نقف على قبر حمزة عند سفح أحد . دَعْ عنك موقفاً كله الإجلال والعظة أمام قبر الرسول ومثوى صاحبيه أبى بكر وعمر فى الحجرة النبوية . أيّة نفس لا تحس فى هذه اللحظات الباقية الأثر على الحياة أصدق الرغبة فى السمو إلى غاية ما تؤهّلها ملكاتها أن تسمو إليه، تشبهاً بهؤلاء الذين تركوا على الحياة أثراً أخلد الأثر وأبقاه ! وإذا صدقت الرغبة واستقر العزم وامتلأت به الإرادة لم يكن لقوة أن تصدّنا عن بلوغ ما نبغى . فالإرادة الصادقة أعظم قوة فى الحياة . ومن عرف كيف يريد قدر على بلوغ ما يريد .

وإنما قعد بالمسلمين عن إدراك هذه المعانى ودعاهم أن يتخذوا من القباب مواضع للزلفى إلى الله توسلاً إليه بأصحابها ما هَوَوا إليه من جهل حَجب عنهم جلال ما صنع الذين تُخلّد القباب أو تُخلّد الآثار ذكرهم . وماذا يذكر سوادُهم عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ! وماذا يذكر هذا السواد عن خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم من أبطال المسلمين ! ثم ماذا يذكر من عمل علمائهم وذوى الفضل والكرامة منهم ! ليس يذكر من ذلك شيئاً لأنه يجهل ذلك كله . وغاية ما يتصوره أن هؤلاء رجال اصطفاهم الله بكرامته ، أو نساء أكرمهن الله بمن أعقبن من ذرّية صالحة ، فهم بذلك أولياء الله ، ومن ثم يتخذهم هذا السواد إلى الله زلْفى ويُسبغ عليهم من صفات ما فوق الإنسانية ما يسوّغ عنده هذه الزلفى .

فإذا أراد المسلمون ألا يكون للقباب ولا لغيرها ما يدعو الوهابيين إلى هدمها وما يجعلهم يتهمون غيرهم من المسلمين بعبادتها فليست الوسيلة إلى ذلك هدم هذه القباب ، وإنما الوسيلة إليه هدم ما فى النفوس من حجب الجهل وقبابه ، وتفتيح مغالقها بإظهارها على ما صنع السّلف وما خلفوا من علم وفن وحضارة. فالعلم هو النور الكشاف الذى يهتك حجب الزمن ويُرينا ما خلفه آباؤنا وأسلافنا للإنسانية من أسباب المعرفة ، وما تؤدى إليه المعرفة من فضل وخير ، وما تنير به سبيل الإنسانية لمستقبلها على هدى الماضى وما تم فيه . يومئذ لا يعبد

الإنسانُ الإنسانَ ولا يتخذه إلى الله زلفى ، وإنما يعبد الإنسان الله وحده لا شريك له ، ويتخذ من علمه ومن عمله ومن تقواه الزلفى إلى الله .

فكرت فى هذا إذ عدت من البقيع ماراً بدار عثمان ، فأويت إلى غرفتى وجعلت أقلب فى بعض كتب ألتمس فيها للبقيع وأهله ذكراً . ولم أجد من ذلك سوى أن الذين دفنوا به يزيدون على عشرة آلاف من كبار الصحابة ، لا تعرف قبور أكثرهم وإنما يعرف من هذه القبور ما لإبراهيم ورقية وفاطمة أولاد النبى ، وفاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعد بن زرارة ، وخُنَيْس بن حُذافة السَّهْمى ، والحسن بن على ، وابن أخيه زين العابدين بن على بن الحسين ، وأبى جعفر الباقر محمد بن زين العابدين ، وجعفر الصادق بن الباقر ، والعباس بن عبد المطلب ، وأخته صفية ، وابن أخيهما أبى سفيان ابن الحارث ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن مَعاذ الأشْهلىّ ، وأبى سعيد الخُدْرى ، وزوجات رسول الله خلا خديجة التى دفنت بمكة وميمونة التى دفنت بسَرِف . وهؤلاء جميعاً وألوف الصحابة الذين دفنوا معهم ؛ يثوون فى بقعة ضيقة من الأرض لا يزيد مسطحها على مائة وخمسين متراً فى الطول ، ومائة متر فى العرض ، ترتفع عما حولها ، ويحيط بها سور لا شىء من الجمال فى بنائه .

قلت فى نفسى : أولا يهدى الله رجلا من المسلمين إلى كتابة تاريخ لهذه البقعة والذين دفنوا بها ينشر فيه ما عملوا ويحلله تحليلا علمياً ويرده إلى أصوله ويبين ما كان له فى الوجود من أثر ! . إن فى قصص ما صنعوا وما كانوا عليه لأبلغ العبرة ، وهو بعد يكشف من تاريخ هذا العالم عن شىء كثير ما أحوج العالم إلى أن يقف عليه . فهؤلاء جميعاً من أصحاب رسول الله ، وهم عرب من أبناء شبه الجزيرة ، فما اتخذوه فى حياتهم من عمل أدنى إلى تصوير الروح الحق لهذا الدين الحنيف وإلى هداية الناس لهذا الروح . وما أشد حاجة الناس إلى هذه الهداية .

ألا لو أن عملا ضخماً كهذا العمل أتمه رجل أو رجال لأسدوْا إلى الإسلام وإلى التاريخ وإلى الإنسانية خدمة جُلّى ، ولمهدوا لأولى الفن أن يقيموا فى هذا المكان أثراً خالداً يصور هذا الروح روح الإقدام فى سبيل الحق والإرادة الصادقة فى سبيل الله .

ما أقصر سِنِى الحياة ! فلو أن لى من القدرة على القيام بشىء من هذا العمل الجليل أمهد به الطريق لإتمامه لأقدمت غير مبتغ إلا رضا الله وحسن ثوابه . وكفى بالله وليًّا ونصيراً .

ولكن ! مَنْ لى بأن أقوم أنا الضعيف العاجز فأجمع من شتيت الأسفار ما يؤرخ البقيع ورجاله من أصحاب رسول الله ! . فلأذَرْ هذا الأمر يهيئ الله له من شاء من عباده . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

على قبر حمزة

صَه ! فأنت هنا أمام عرين الأسد . وهذه الجبال والأودية مما حولك كلها مجاله . فيها كان يجول ويصول ، أثناءها كان يصيح بفرائسه من شجعان قريش ، فإذا هي تنهد إلى الأرض رعبًا وفزعًا . هذا جبل أحُد أمامك ، وهذا جبل سَلْع من خلفك ، وهذا وادى قَنَاة يجرى بينهما ، وهذه البساتين تمتد ها هنا وهناك عن يمين وعن شمال وراء هذا المَهْمه الذى ظل خلاءً من هيبة صاحب العرين . مالى أراك الآن حاسر الرأس خاشعًا ، وما يبكيك ؟ أتراك كأهل هذه المدينة لا يبكون فقيداً لهم إلا بكوا قبله حمزة أسد الله وأسد رسوله ! أم تراك ادّكرت مصرعه على مقربة منك وهذا دمه الذكى تتراءى لعينيك فى كل قطرة منه معانى النبل والكرامة والاستبسال والشجاعة ، فأنت تبكى لهذه الخصال غالها وحْشى فى غير مصاولة أو مبارزة ! إبْكِ ما طاب لك البكاء ، وامتثل من صفات حمزة ومن شممه وإقدامه ومن إيمانه وسمو نفسه ما شئت ، فما أنت ببالغ من بكائك ومن امتثالك إلا ما يزيدك شوقًا إلى هذا القبر ، تعود إليه لتقف عنده فتبكى صاحبه وتتمثل فيه الأسد الذى صرع فى غزوة أحد لا كما تصرع الأبطال فى ميدان القتال ، بل كما يغتال الكرام فى حلك الظلام . وهل كان أحد من شجعان العرب جميعاً يحسب نفسه كفؤاً لحمزة ونزاله ! وهل كان يظن أحد أن يطالع الموت حمزة فى معركة على طول ما مشى بين صفوف الموت مختالا ! ولكن ما عسى تُغنى الشجاعة والنبل حين يختبئ الاغتيال فى حِنْدِس الليل فيورد صاحبهما حتفه .

كان حمزة بن عبد المطلب عم النبى وأخوه فى الرضاع الإباء والشمم ، وكان البطل المُعْلَم والمغوار الذى تهابه الشجعان منذ نشأته . لما افتدى عبد المطلب ابنه عبد الله من الآلهة بمائة من الإبل فكر فى تزويجه . وكان عبد المطلب يومئذ فى السبعين من عمره ، فخرج بعبد الله حتى أتى به منازل

بنى زهرة وخطب آمنة بنت وهب إلى أبيها زوجا لابنه ، وخطب ابنة عمها هالة زوجاً لنفسه . وولدت آمنة محمداً ، وولدت هالة حمزة . والروايات تختلف أى الطفلين سبق صاحبه إلى الحياة وإن أرضعتهما جميعاً ثُوَيْبة جارية أبى لهب . وشب محمد يهيئه الله لما أراد من رسالته ، وشب حمزة فتى أبيًّا قويًّا رضى الخلق وسيم الطلعة مفتول العضل محبًّا للقنص يخرج له فى الفلاة ويرمى بقوسه ، فإذا عاد منه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، ثم لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث مع من فيه . وكانوا جميعاً يحبونه ويهابونه أن كان أعز قريش وأشدها شكيمة .

ولما بعث الله ابن أخيه نبيًّا ورسولا وبدأت قريش تناوئه وتؤذيه ، لم يطب حمزة بما يصنعون نفساً ؛ لكنه ظل يكظم غضبه حتى لايخرج على الجماعة فى عقيدتها . ولقد كان كلما رأى من ذلك شيئاً جعل يفكر فى أمر ابن أخيه وما يدعو إليه فيرى فيه الحق لا سبيل إلى إنكاره . لكن قومه من بنى هاشم لم يتابعوا محمداً ، ولم يتابعه أخوه أبو طالب الذى كان من محمد فى مقام الأبوة ، والذى كان يحميه من قريش وأذاها . ولكن حمزة أخ لمحمد وليس عمًّا له وكفى ، وهو بعد أصغر إخوته سنًّا وأشدهم بأساً وأكثرهم لذلك صراحة ، وهو من لا يُطيق أن يرى الحق فيما يقول محمد ولا يصارح الناس جميعاً بتصديقه إياه وإيمانه به . وإنه يوماً لفى قنصه غائب عن مكة إذ لقى أبو جهل محمداً جالساً عند الصفا . وكان أبو جهل رجل حديد الوجه واللسان لا يفتأ ينكر على محمد دعوته ويتهمه فيها . فلما لقيه فى مجلسه ذاك آذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له . ولم يكلمه محمد بل إنصرف عنه إلى بيته ، وعمد أبو جهل إلى جماعة من قريش عند الكعبة فجلس معهم . وكانت مولاة لعبد الله بن جُدْعان فى مسكن لها فوق الصفا تسمع ما كان بين الرجلين ، فلم تلبث حين رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا من قنصه متوشحاً سيفه أن وجهت إليه الحديث فسلمت وقالت : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً قبل أن تأتى من أبى الحكم بن هشام ! وجده ها هنا

جالساً فسبه وآذاه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه محمد ولم يكلمه . هنالك احتمل حمزة الغضب فخرج سريعاً لا يقف على أحد ، كما كان يصنع ، يريد الطواف بالكعبة ، معدًّا لأبى جهل بن هشام إذا لقيه أن يقع به . فلما بلغ الكعبة نظر إليه جالساً فى القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة فشجه شجة منكرة ، وقال له : أتسبه وأنا على دينه أقول ما يقول ! فرُد ذلك علىّ إن استطعت . وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل ، فمنعهم حسما للشر ومخافة استفحاله بين عشيرته وقومه ، واعترف أنه سب محمداً سبًّا قبيحاً .

من يومئذ أصبح حمزة أسد الله وأسد رسوله ، وحسبت قريش لمحمد وأصحابه حساباً لم يكن يدور لها بخَلَد من قبل .

لما اتخذ محمد دار الأرقم مجلساً له مع المسلمين وحمزة من بينهم ضرب الباب عليهم يوماً رجل يبتغى الدخول . وقام أحد المسلمين ونظر من خلل الباب ثم عاد فزعاً يقول : هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . ولم يكن يود أن يأذن النبى له ، أما حمزة بن عبد المطلب فقال : بل ائذن له ! فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه . وأذِن النبى لعمر فدخل وأسلم .

هذان حادثان يصفان لك حمزة بن عبد المطلب وخُلقه ، ويصوران لك مبلغ جرأته وإقدامه واعتداده بنفسه .

ولما هاجر رسول الله إلى المدينة وآخى فيها بين المهاجرين والأنصار آخى بين حمزة وزيد بن حارثة مولى النبى . وكان لهذا الإخاء حكم إخاء النسب أول أمره . ومع ما حدث من عود الأمور إلى طبيعتها بعد أن استقر مقام المهاجرين بالمدينة لقد حفِظ حمزة هذا العهد فأوصى إلى زيد يوم أحُد . وفى هذا من الوفاء والكرم ما يصور لك ناحية أخرى من حياة حمزة .

ولقد كان حمزة أول من بعثه رسول الله على رأس أول سرية قامت من المدينة لمناوأة قريش : بعث به فى ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار ،

فلقى أبا جهل بن هشام عند شاطئ البحر فى ثلثمائة راكب من أهل مكة . وكان حمزة على أهبة مقاتلة قريش ، على ما بين الفريقين من تفاوت عظيم فى العدد ، لولا أن حجز بينهم مَجْدى بن عمرو الجُهنى وكان مُوادِعًا الفريقين جميعًا. فلما كان شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة ووقعت غزوة بدر كان حمزة فارسها المُعْلَمَ وبطلها المغوار ، وكان مُعْلَمًا يومئذ بريشة نعامة . ولقد كان المسلمون وكانت قريش تترددان أول المعركة فى خوض غمارها حتى وقف عامر بن الحضرمى يصيح : واعَمْرَاه ! يذكر قتل المسلمين أخاه عمراً قبل ذلك بأسابيع فى سرية عبد الله بن جحش ويطلب الثأر له . هنا لك اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومى من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين ، فعاجله حمزة بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى الأرض تشخب رجله دمًا ، وأتبع حمزة الضربة بأخرى قضت عليه . بذلك بدأت المعركة . وأعجل الالتحام فيها أن خرج عُتْبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد وخرج إليهم من المسلمين حمزة وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث . ولم يمهل حمزة شيبة ولا أمهل علىٌّ الوليد أن قتلاهما ، ثم أعانا عبيدة وقد ثبت له عُتْبة . عند ذلك تزاحف الفريقان ، لم يمنع المسلمين منه أن قريشًا ثلاثة أمثالهم عدداً وعدّة. وخاض حمزة الغمار يضرب بسيفه عن يمينه وشماله يقُطّ الرقاب ويُطيح برءوس الشجعان ، ولا يجرؤ سيف أن يمتد ناحيته ، ولا يدٌ أن ترتفع إليه . ومتى استطاع الفرسان أن يحدقوا فى وجه هذا الأسد الكاسر ، أسد الله ورسوله ! .

فلما أتم الله النصر للمسلمين ببدر وعادوا إلى المدينة فتحرش بهم اليهود وأزمع محمد محاصرة بنى قينقاع ، كان حمزة حامل لوائه . ولما استدار العام وخرجت قريش تريد الثأر من بدر ، كان حمزة الموت الذى تخشى ، والنقمة التى تريد أن تتخلص منها . وكانت هند بنت عتبة أشد قريش كراهية له ورغبة فى موته . لقد قتل فى بدر أباها وأخاها ونكل بكثيرين من الأعزة عليها . لكنها كانت تعلم أن قتله مواجهةً ليس بالأمر الهين ، ومَنْ ذا فى قريش

بل فى بلاد العرب كلها يستطيع أن يواجهه ! لذلك وعدت وحشياً الحبشىّ خيراً كثيراً إن هو اغتال حمزة . وكان وحشى مولى لجبير بن مُطْعِم. وكان حمزة قد قتل عم جبير ببدر . فلما عرف ما وعدت هند مولاه قال له : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق ، والتقى الجيشان بأحُد فإذا حمزة يخوض الغمار كيوم بدر ، يَهُدُّ كل من لقى بسيفه فتفيض من جسده روحه . قتل سِبَاع ابن عبد العزى الغُبْشانى ، وقتل أرطأة بن شرحبيل ، وقتل كل قرشى لقيه . ولم يكفه سيف يمينه ، بل أمسك بيساره سيفاً آخر وجعل يقبل ويدبر ويصيب بسيفه فى إقباله وإدباره . وإنه لكذلك وأبطال قريش يولون منه فراراً إذ عثر عثرة فوقع على ظهره فانكشفت درعه عن بطنه . وانتهز وحشى هذه الفرصة فهز حربته حتى رضى عنها ثم دفعها عليه فوقعت فى ثُنَّته وخرجت من بين رجليه ، وتركه وإياها حتى مات . روى وحشى قال :ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت بها إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكة أعتقت .

وأقبلت هند بنت عتبة فى أعقاب المعركة ، فلما رأته مبقوراً بطنه لم يكفها أنه مات بل مثلت به ما لم يمثَّل بأحد فى غزاة : جدعت أنفه ، وقطعت أذنيه وشقت بطنه ، وأخرجت كبده تمضغها وتلوكها تشفياً وسخيمة . وبلغ من فظاعة ما صنعت أن خجل أبو سفيان زوجها ورئيس قريش فقال : إنه كانت فى القوم مُثْلة ، وإن كانت على غير ملأ منى . ما أمرت ولا نهيت ، ولا رضيت ولا كرهت ، ولا ساءنى ولا سرنى .

ولقد أحزن قتل حمزة النبى وحزّ فى فؤاده . فقد عاد المسلمون إلى الميدان بعد المعركة وخرج محمد يلتمس عمه ، فلما رآه قد بقر بطنه ومثل به غلبه الحزن وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، وما وقفت موقفاً قطُّ أغيظ إلىّ من هذا » ! وأمسك هنيهة مُوجَعَ القلب ثم أردف :« يرحمك الله يا عم ! لقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات » . وغلبه الحزن فأمسك مرة أخرى ، وهو أثناء ذلك ينظر لما أصاب حمزة من مثلة شنعاء . فلما سكن عنه الحزن قال وما زال مغضباً :

« والله لئن أظفرنى الله بالقوم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مُثْلة لم يمثلها أحد من العرب : وفى رواية : « لأمثلن بسبعين منهم » . . وفى هذا نزل قوله تعالى :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِين وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » . وفى حمزة وفى قتلى أُحُد نزل قوله تعالى : « وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » . فلما نزلت هذه الآيات قال رسول الله : « بل الصبر » وكفَّر عن يمينه .

ولم يكن المسلمون أقل جزعاً لمقتل حمزة من رسول الله . أقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب بعد الموقعة تطلبه لا تدرى ما صنع . ورآها على والزبير مقبلة فخشيا لقياها . قال علىّ للزبير : اذكر لأمك . . وقال الزبير : بل اذكر لعمتك . ولما بلغتهما سألت : ما صنع حمزة ؟ فأرياها أنهما لا يدريان ، إشفاقاً عليها وعلى نفسيهما من حزنها . ورآها النبى مقبلة عليه فقال : إنى أخاف على عقلها . ثم وضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت وقد رأت المصاب فى صوته . فلما انصرفت قال : « لولا جزع النساء لتركته يحشر من حواصل الطير وبطون السباع » .

ولما أراد المسلمون دفن القتلى وقف النبى على جثمان حمزة ، وجعلوا يجيئون بالقتلى واحداً بعد الآخر فيضعونهم إلى جانب حمزة فيصلى النبى عليهم ، وكذلك صلى على حمزة سبعين مرة .

وبكت نساء المدينة القتلى وسمع رسول الله نساء بنى عبد الأشهل يبكين قتلاهن ، فقال متوجعاً : « لكن حمزة لا بـوَاكى له » ، فسمع ذلك معاذ بن عبد الأشهل فساقهن إلى باب رسول الله فبكين على حمزة ، فدعا لهن وردهن . فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك إلى اليوم على ميت إلا بدأت بالبكاء على حمزة ثم بكت ميتها .

هذا حمزة الذى نقف الآن على قبره تجاه أُحُد . والذى يؤمه كل من

قصد المدينة للزيارة . وقبر حمزة ليس كغيره من القبور فى هذا العهد الوهابى . فهو ليس مسوًّى بالأرض ، بل يقوم فوقه بناء أسطوانى من حجر ضارب إلى السواد يرتفع عن الأرض نحو الذراع . ولم أعجب إذ عرفت أن الحكومة الحاضرة أقامت هذا البناء بعد أن هدمت القبة التى كانت قائمة على القبر . فهذه الصفات فى حمزة : صفات البطولة والإباء والاستشهاد فى سبيل الله ، تثير فى كل نفس أسمى المعانى ، وتقفها أمام صاحب هذه الصفات موقف الإجلال والإكبار . ذلك ما يتفق فيه الناس جميعاً ، لا تفاوت بين البدوى الذى يقضى حياته مرتحلا فى البيداء ، ومن بلغ من الحضارة والعلم وتهذيب النفس كل غاية . ولم يختلف اثنان على ما كان لحمزة من هذه الصفات ، ولم يكن حمزة يوماً موضعاً لدعاية سياسية طمعاً فى حكم أو سلطان . لذلك كانت المعانى المتصلة بصفاته طاهرة مبرأة من كل غاية ، ولذلك أثارت الإعجاب من كل نفس والإكبار فى كل قلب ، وكانت شفيعاً لقبره حتى عند الوهابيين .

وذهبت أمتثل حمزة وهذه الصفات فيه وأنا واقف على القبر أجيل بصرى فى الميدان الفسيح حولى . هذا رجل آتاه الله من فضله بسطة فى القوة ، ومهابة فى القلوب ، ونعيماً بالحياة ومحبة من الناس ، وكان له أن يستمتع وهذه صفاته برفه العيش وطمأنينة البأس ، وأن يستريح إلى مكانته من قومه واحترامه فيهم . لكنه لم يطب نفساً بعبادة قومه الأصنام ، ولم يطق أن يسبَّ أبو جهل الوثنى ابن أخيه الداعى إلى الله . فضرب أبا جهل فشجّه وأعلن على ملأ الناس إيمانه . ولا يقولن أحد إن النعرة العصبية أو العزة العربية هى التى دفعته إلى ما صنع . فلقد كان أعمام النبى جميعاً عرباً لهم عزة وفيهم نعرة ، وطالما آذت قريش ابن أخيه فغضبوا ومنعوه ولم يؤمن مع ذلك منهم أحد . لكنه الإيمان الذى امتثلته نفس حمزة هو الذى دفعه إلى ما صنع . وهل مثل حمزة فى بسالته واستهانته بالموت من يقول لأبى جهل وهو مَنْ هو مكانةً فى قومه بعد أن شجه لسبه محمداً : « أتسبه وأنا على دينه أقول ما يقول ! » إلا أن يكون صادق الإيمان ، بلغ من امتثال قلبه رسالة الله إلى نبيه ألا يطيق تعريض أحد به ! ومن يومئذ

وهب حمزة حياته لله وللدفاع عن دينه ، لأنه أيقن أن هذا الدين هو المثل الأعلى الذى توهب الحياة فى سبيله .

وكل يفتدى بحياته مثله الأعلى فى الحياة . فالبخيل الذى يعبد المال يضحى بحياته دفاعًا عن ماله . والمدله بالعشق يضحى بحياته دفاعًا عن محبوبته . والفلاح أو الصانع يضحى بحياته دفاعًا عن رزقه . والأب البار يضحى بحياته لأبنائه ، والحيوان يضحى بحياته دفاعًا عنها وعن كل ما يُقيمها . وإنما يتفاوت الناس فى درجات السمو بتفاوت مثلهم الأعلى فى درجاته . فما اتصل بالطعام والشراب وكل ما يقيم الحياة مثلٌ أعلى للحيوان ولمن لم يسم على مرتبته إلا قليلا من بنى الإنسان . وكلما ازداد المرء سموًّا ازداد مثله الأعلى تنزُّهًا عن الأثرة واتصالا بالغايات الاجتماعية والوطنية والروحية . والإيمان الصادق أسمى صورة للمثل الأعلى . فلله المَثَلُ الأعلى ، بنوره يتحابّ الناس بينهم ، لا تفرقهم الألوان ولا الأوطان ولا اللغات ولا الأجناس ولا الأديان . والاستشهاد فى سبيل الله استشهاد فى سبيل هذا المثل الأعلى ، يريد صاحبه أن تبلغ الإنسانية غاية ما يستطاع من السمو الروحى ، وأن يبلغ بها تبادل الحب غاية الرضا ، وأن تصبح بذلك وحدة تعمل لغاية مشتركة وإن اختلفت أممها وأجناسها ، كما تعمل أعضاء الجسم كلها لغاية واحدة وإن اختلف شكلها واختلفت وظائفها . أين مَنْ يدرك هذا المعنى ثم لا يستشهد فى سبيله ! وقد أدركه حمزة بن عبد المطلب فاستُشهد فى سبيله .

والموت فى سبيل هذا المثـــل الأعلى هو وحده الاستشهاد ، والذين يهبون أنفسهم له هم دون غيرهم الشهداء . ذلك بأن الملأ جميعًا يشهدهم ويشهد أنهم يؤثرونه على أنفسهم وعلى هذه الحياة الدنيا . والله يرضى عنهم ويقول لهم : «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» . وحياة هؤلاء عند ربهم ليست كحياة هذه الدنيا : طعام وشراب وأثرة وشحناء ، بل حياة روحية راضية مرضية ، مضيئة بالحب متصلة بالله ، مشرقة بنور وجهه الكريم . أليست حياةٌ سبيلها وغايتها للمثل الأعلى ؟

أو ليس المثل الأعلى لله ؟ وأولئك الشهداء ضى الله عنهم ورضوا عنه . ذلك لمن خشى ربه .

قلّ من الناس من يذكر هذا أو يدركه حين يزور قبر حمزة ويقف عليه ، بل إن منهم لمن يشرك حمزة فى قدرة الله ، أو يتخذه وسيلة إليه . كان لحمزة قبر ومسجد هدمهما الوهابيون . ولقد كان على القبر الذى بالمسجد لوحة فيها هذان البيتان :

قِف على أبوابنا فى كل ضِيق واطلُب الحاجات وابشِرْ بالمنى
فحِمـَانا ملجــأ للطالبين وبنا تُجلى الكروب والعنا

وضعف هذين البيتين يصف قائلهما ومبلغ ثقافته . لكن هذه العقلية تصور عقيدة كثيرين من زوار قبر حمزة ، وعقيدة كثيرين من المسلمين فى أنحاء الأرض المختلفة. ولهؤلاء جميعًا من العذر أن الذين خيم على عقولهم الجهل قد طبعوا على عبادة القوة ، وعلى عبادة البطولة ، فهم يخلعون على أبطال الماضى من صفات العبادات ما يجعلهم فى حكم الأرباب ، وما يدعو هؤلاء الضعفاء أن يتخذوهم إلى الله زلنى ، وهذا أمر ينكره الإسلام حين ينكر على الناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ، الأموات والأحياء فى ذلك سواء . والإسلام ينكره لأنه ينكر أن يتجه إنسان بالعبادة لغير الله . اليكن غيره من الناس بطلا وليبلغ من البطولة كل ما يتصوره الخيال ، فهو إنسان مثلنا ، عبدٌ لله كعبوديتنا له ، ونحن وهو أمام الله سواء ، أكرمنا عند الله أتقانا . بل ليكن الإنسان أعظم من بطل ، ليكن نبيًّا ورسولا وداعيًا إلى الخير بإذن الله وسراجًا منيراً ، فهو بعد إنسان ، له إكبارنا وإكرامنا واحترامنا ، وعليه صلواتنا ، لكنه بشر مثلنا ، عبد لله كعبوديتنا له ، وهو أقرب إلى الله الذى اصطفاه ، لكنه فى حاجة إلى مغفرة الله له كحاجة الإنسان إلى مغفرة الله له .

ينكر الإسلام إذاً عبادة القوة وعبادة البطولة ، وكل عبادة لغير الله . وإنما يدعو الإسلام إلى الأسوة . والله تعالى إذ يتحدث عن رسوله صلى الله عليه وسلم يقول : «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . والإسلام

إذ يدعو إلى الأسوة إنما يدعو إلى مجاهدة المرء ضعف نفسه وإلى دأبه للسمو بها كى تبلغ مكانة القديسين والأولياء المقربين ، وتطهيرها لذلك من كل أسباب الحوبة والإثم . والإسلام يفتح الباب واسعاً لكل من أخلص لله وجهه أن يصل بالتقوى إلى هذه المكانة ، حرًّا قرشيًّا كان أو عبداً حبشيًّا . ومعرفة الله معرفة حقة هى باب التقوى . والمعرفة لا تجعل التقوى فى الضعف ولا فى الخوف ، بل فى العلم بسنة الكون والوقوف على أسراره والاتصال بما جل ودق منه وإدراك حكمة الله لذلك فيه . ولنا فى الذين بلغوا من هذه المعرفة أسمى درجاتها الأسوة . فإن أضلهم علمُهم فلن يُضل العلم مسلماً عرف أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن معرفتها عبادة له هى خير أنواع العبادة . وذلك ما كان يفهمه المسلمون الأولون من الأسوة الحسنة . لذلك لم يلبثوا حين طوّع لهم إيمانهم فتح الأمصار وحكم الأمم أن اتخذوا من علمائهم أساتذة عهدوا إليهم بنقل علوم الطب والفلك وتقويم البلدان ونقل كتب الفلسفة اليونانية والوقوف من ذلك كله على كل ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية فى عصرهم . بذلك أقاموا منارة الحضارة فى العالم ، وعملوا لهدى الإنسانية إلى نور العلم وما يهدى هذا النور إليه من توحيد الله الحق .

أما والإسلام ينكر عبادة القوة وعبادة البطولة وكل عبادة لغير الله ويدعو إلى الأسوة الحسنة ، فمن الواجب على الذين يزورون قبر حمزة أن يلتمسوا فيه هذه الأسوة ، وأن يعلموا أن الله يجزيهم بجهادهم لبلوغ الغاية منها ، ولا يجزيهم لمجرد الزيارة والتبرك والدعاء . فإنما يجزى الله العامل بعمله ، فمن يعمل صالحاً يُجْزَ به . وأسوة حمزة هى الجهاد فى سبيل الله ، له المثل الأعلى ، وبذل الحياة لدفع من يصد عن سبيل الله ابتغاء العاجلة من حكم أو سلطان .

نسى المسلمون هذا المعنى فى كثير من العصور ، ولا يزال أكثرهم ينساه . واتخذت بعض الأمم الإسلامية ملوكها أرباباً ، وجعلت من بعض الصالحين فيها أولياء اتخذتهم إلى الله زلفى . ولهؤلاء وأولئك بنت القباب وأقامت عليها المساجد ، لا تقصد تخليد ذكراهم ليكون فى الذكرى للأجيال أسوة ومثل ،

بل تقصد أن تكون القباب والمساجد محاريب لعبادتهم والتوسل بهم إلى الله .
إلى ذلك قصد الذين أقاموا على قبر حمزة قبّة ومسجداً ، وكتبوا عليه من الشعر ما أثبتنا هنا بعضه وتركنا سائره . ولو أنهم أقاموا القبة والمسجد للأسوة والذكرى لكان ذلك خيراً ، ولحق لهم الثناء على نيتهم وعملهم . وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

لم يبق لقبة حمزة ولا لمسجده اليوم أثر . فقد عفا الوهابيون عليهما ثم أقاموا مكانهما القبر الذى وصفت . وكان المسجد قبل هدمه مُحكم البناء خالياً من الزخارف ، به قبة فوق مقصورة أسدل عليها ستر من أستار الكعبة . كذلك يقول صاحب مرآة الحرمين فى وصفه . وأم الخليفة الناصر العباسى هى التى شيّدت مسجد حمزة عام ٥٩٠ للهجرة . وقد أمر الأشرف قايتباى فزاد شاهين الجمالىّ فى جهته الغربية وحفر له بئراً يرتفق بها المارة وجعل لها درجاً ، وأتم ذلك فى سنة ٨٩٣ . وكان المسجد قائماً فوق القبر حيث يقوم البناء الأسطوانى الوهابى اليوم .

وقد اختلف فى موضع القبر : أهو اليوم فى المكان الذى دفن به حمزة بعد مصرعه فى أحُد أم هو فى مكان غيره ؟ وتذهب رواية إلى أن حمزة دُفن فى المكان الذى صُرع به ، حتى إذا كان القرن الرابع انحط من جبال الطائف سيل جارف اجتاز المدينة ومرّ بقبر حمزة وكشف عن ساقيه ، فنقل إلى الربوة التى بها القبر اليوم وكان عليها المسجد حتى هُدم . وتذهب رواية أخرى إلى أنه صُرع تحت جبل الرماة ، وهو جبل عينين ، وأن النبى أمر بجثمانه فنُقل من بطن الوادى إلى الربوة التى عليها القبر الآن ، فالمدفن غير المصرع . ويريد بعضهم التوفيق بين الروايتين فيذكر أن الربوة التى نقل الجثمان إليها فى أعقاب الغزوة قد تكون غير الربوة التى نقلت إليها الرُّفات فى أوائل القرن الرابع . وهذا التوفيق ليس له عندى ما يقتضيه . فلئن كان جثمان حمزة قد نقل فى أعقاب الغزوة لهو اليوم فى المكان الذى نقل إليه يومئذ ، فهو قريب من المقبرة التى دفن بها سائر شهداء أحد . وهم قد دُفنوا فى ميدان المعركة .

وليس بين مقبرتهم والمكان الذى يقال إنه مصرع حمزة ما يدعو إلى نقل جثمانه غير مرة .

كنت أحاور الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فى هذا كله ونحن وقوف على الهضبة التى اشتهرت باسم جبل الرماة ، نسبة إلى رماة المسلمين فى أحد ، والتى تسمى جبل عينين . فقد أشار لى إلى مكان بأسفل هذا الجبل قال : إنه موضع المصرع ، وأشار إلى موضع من أحُد وقال : إنه المِهْرَاس الذى احتمى به رسول الله بعد فرار المسلمين حين خالف الرُّماة أمره وبرحوا مكانهم ، فحل خالد بن الوليد على رأس فرسان قريش محلهم فيه . وعجبت أن يكون المصرع بأسفل هذا الجبل ، إلا أن يكون وحشىٌّ اغتال حمزة بعد أن أخلاه المسلمون وأسرعت إليه خيل قريش فسار وحشىٌّ على أثرهم .

ووقفت أصور ميدان المعركة كيف كان . فقد جاءت قريش من مكة إلى المدينة فى الطريق الموازى لشاطئ البحر الأحمر ، ثم انعطفت مشرّقة إلى ناحية قُباء وذى الحُلَيْفة من جنوب المدينة ، واتخذت طريق وادى العقيق إلى شمالها ، حتى كانت عند البساتين والزروع القائمة أسفل أُحُد فعسكرت . وخرج المسلمون من المدينة بعد الذى كان بينهم من جدل : أيتحصنون بها أم يلقون المشركين فى الميدان الذى اختاروه . ونزلوا قبالة قريش عند أحد وجعلوه إلى ظهورهم . وأمر النبى خمسين من الرماة أن يلزموا هذا النتوء من سلع ويصدوا فرسان قريش ، وقال لهم : «احموا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا . إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » . فلما دارت المعركة وحالف النصر المسلمين فى أولها بعد أن قتل أصحاب اللواء من المشركين ، تبع المسلمون عدوهم فى فراره يضعون فيه السلاح وينتهبون ما خلف من غنيمة . وهنالك برح الرماة مكانهم ليكون لهم من الغنيمة نصيبهم ، فاهتبل خالد بن الوليد الفرصة فشدّ برجاله على مكان الرماة فأجلى من بقى منهم وصاح صيحة

أدركت قريش معها ما فعل . إذ ذاك عاد منهم كل منهزم فأثخنوا فى المسلمين ضرباً وقتلا ، وتمزقت صفوف المسلمين وصاح صائح بالناس : « إن محمداً قد قتل ! » . وتشجع المشركون حين سمعوا نبأ قتله . وكان رسول الله قد أصابه حجر رماه عتبة بن أبى وقاص فوقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلِمتْ شفته ودخلت حلقتان من المِغفرَ الذى يستر به وجهه فى وجنته ، وسار كبار المسلمين من حوله يدفعون عنه ، فصعد أحُداً واحتمى بشعب من شعابه فى جوار المهراس الذى كانت تقوم عليه قبة اشتهرت باسم قبة الثنية ثم هدمها الوهابيون . وقد سميت تلك القبة بقبة الثنية لما قيل من أن ثنية رسول الله وقعت عندها .

وألقيت نظرة إلى ناحية أحُد فذكرت قول رسول الله عنه : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ، واستقر نظرى على صخوره الحمراء وعلى الرءوس الكثيرة الناتئة على سطحه . قال الأستاذ عبد القدوس : يخيل إليك أن أحُداً أحمر اللون كله . أما أنا فقد وجدت فيه حين تنقلت بين شعابه وقننه وهضابه صخوراً وعروقاً مختلفة الألوان يضرب بعضها إلى الزرقة . وبعضها إلى الخضرة ، ومنها الأسود الأثمدى والرمادى لون التراب . وقد ذكر لى صديق أنه عثر فيه بحجر من الأثمد زنته مثقالان ، وآخر زنته سبعة مثاقيل ، وأن صديقاً له عثر بحجر كبير كسره فانفلق عن زبرجدة عظيمة الحجم . ولطالما تساءلت : أكشف عن شىء من هذه النفائس بأحُد فى عصر خلا ؟ ولم أجد جواباً فيما قرأت من كتب تاريخ المدينة . ولست أدرى أتيسر الأقدار لأهل هذا الجبل أن يقوموا من ذلك بما لم يقم به أسلافهم .

لم أقف طويلا عند هذا الحديث عن طبيعة الصخور فى جبل أحد ، فلقد كنت أحرص على معرفة الطريق الذى سار فيه النبى نجاة بنفسه من أعدائه بعد أن خالف الرماة أمره . ونزلنا على جبل الرماة ومررنا على مقربة من قبر حمزة وقبور الشهداء وتخطينا إلى أحد وسرنا أثناءه بين صخور ضخمة تلوَّيْنا خلالها هنيهة ، فإذا نحن قد ابتلعنا الجبل فحجبنا عن كل ما وراءه . لم يبق

أمامنا وادى قناة ولا جبل سَلْع ولا هضبة الرماة ، بل كنا خلال جبل تتلوى الطرق على سفوحه إلى حيث لا أدرى . قال عبد القدوس بعد أن سرنا زمنًا : هذا المهراس الشرقى الذى جىء للنبى صلى الله عليه وسلم بالماء منه يوم أحد . قلت : وما المهراس ؟ فكان جوابه : تلك نُقَرٌ كبار وصغار يجتمع فيها ماء المطر . وكان النبى فى الشعب القريب من هذا المهراس حين جاءه على بن أبى طالب بماء يُرْوى به ظمأه ؛ ووجد بالماء ريحًا فكرهه ولم يشرب منه ، وإن غسل به الدم الذى أصابه أثناء المعركة . وصمت هنيهة ثم أردف : وهذا ، هنا ، المهراس الشرقى . وثم مهراس غربى طريقه وعْرٌ لا سبيل إلى ارتقائه إلا بتسلق بعض الصخور . ولم يرد فى أنباء التاريخ أى المهراسين جىء منه بالماء لرسول الله . لكن بيتًا من الشعر لعبد الله بن الزبَعْرَى يدل على أنه هذا المهراس الشرقى ، ذلك قوله :

فَسَلِ المِهْراسَ مَنْ ساكنُه ... بين أقحاف وهام كالحَجَلْ

والمهراس الغربى لا سبيل إلى أن ترتقيه الأفراس لوعورته وملاسة صخوره . أما وابن الزبعرى يشير إلى المهراس الذى جىء بالماء للنبى منه فهو إذاً هذا المهراس الشرقى لا ريب .

عدنا بعد ذلك أدراجنا نقصد الوادى لنستقل سيارتنا إلى المدينة . واستوقفنا جند من النجديين يقيمون ببنْية موضعها بين القبور والمصرع ، فدعينا إلى قهوة وشاى عندهم . وتناول الحديث أثناء ذلك فى كلمات مقتضبة هؤلاء الذين مررنا بهم من زوار حمزة وشهداء أُحُد . فهم اليوم يقفون يصلون ويستغفرون ، وكانوا قبل العهد النجدى يجدون فى القبة وفى المسجد وسيلة للزلفى وللعبادة ويقيمون لذلك مع من يخرجون إلى هذا المكان من أهل المدينة ثلاثة أيام تنصب فيها سوق وتجرى فيها تجارة ، ولا بأس بأن يقع أثناءها لهو ومجون . وانطلقنا بعد الشاى والقهوة نلتمس سيارتنا ؛ فلم يَحُلِ انطلاقنا بينى وبين الالتفات إلى وراء لألقى نظرة أخيرة على قبر حمزة ولأحيط كرة أخرى بهذا الوادى المترامى الأطراف إلى جوار عرين الأسد ، ولأرى فيه المسجد الذى يسمونه المستراح ،

ويذكرون أن النبي كان يستريح موضعه إذ كان يزور مثوى الأسد .
وعدت من بعد إلى التفكير فى الاستشهاد والشهداء ، وفى حمزة الذى مات فداء لدين الله وللمسلمين إخوانه فيه . وناجتنى نفسى : لماذا يذكر الناس هؤلاء الشهداء فى تقديس وإجلال وإن بعد بهم العهد وحجبهم الماضى فى غيابات الدهور ؟ فكلنا نذكرهم فى تقديس وإجلال ؛ وإنما يتفاوت مظهر إكبارنا إياهم بين العبادة وما هو منها بسبب من الجاهل ، والإعظام الحق من المهذب النفس ذى العلم . ونحن إنما نكبرهم لأنهم وهبوا أنفسهم وحياتهم للإنسانية كلها وتمنوا الموت صادقين ليبلغوا بالإنسانية أسمى الأغراض التى تصبو إليها . لم يفكر حمزة فى نفسه ولا فى أبنائه يوم خاض الغمار فى بدر ، ويوم حاصر بنى قَيْنُقاع ، ويوم استشهد فى أحُد ، ولم يُرد من أحَد من الناس جزاء ولا شكوراً ، إنما كان تفكيره فى الله وجزائه ، وفى نصر الله دينه الحق لتهتدى الإنسانية إلى الصراط المستقيم وتشرق روحها بنور ربها . هو إذاً قد آثر إخوانه على نفسه ، وحرص على الموت ليهب لهم الحياة ، فوهبه إخوانه الحياة الخالدة على الأجيال جزاء وفاقاً . وأية حياة باقية على الدهر كحياة المرء فى قلب الإنسانية ما تعاقبت أجيالها وما نسخ الليل فيها النهار ! وأى جزاء للمرء عن عمله أكبر من اعتراف الناس له على تعاقب الأجيال بالفضل عليهم ، وما يكون له بسبب ذلك من حسن الأحدوثة فيهم ! . هؤلاء الذين وهبوا حياتهم فى سبيل الحق لهدى إخوانهم إنما وهبوها لله ربهم فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ؛ وهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون .

أجل ! هؤلاء حرصوا على الموت ليهبوا للناس الحياة ، فوهب الله لهم الحياة . وقديماً قيل : « احرِصْ على الموت تُوهب لك الحياة » . وهى كلمة حق لم تتغير على القرون ، ولن تتغير ، وهى من سنة الله التى لا تبديل لها . فمن تمنى الموت صادقاً بما قدمت يداه فاختاره الله إلى جواره فهو حىٌّ عند ربه . ومن تمنى الموت وبقى حياً ضاعف الله له أجره فى هذه الحياة الدنيا . ذلك شأن الأفراد ، وهو شأن الأمم ؛ حياتها فى أن تهب الحياة لمن بعدها وإن ضحت

بحياة آخر فرد منها إذا هى أريدت على نقص فى مقومات حياتها : فى كرامتها ، فى عزتها ، فى سيادتها ، فى استقلالها ، فى حريتها التامة أن تنظم كما تشاء شئونها . والأمم التى يعرف أبناؤها كيف يموتون أعزة كراماً هى الأمم التى تحيا أبداً عزيزة كريمة .

هذه الأمم التى تحيا عزيزة كريمة ، والتى يعرف أبناؤها الحق والاستشهاد فى سبيل الله ، هى الأمم التى رفعت فى الإنسانية منار الهدى وبينت لها طريق الحضارة فى أسمى صورها . وذلك ما فعله خلفاء حمزة من شهداء المسلمين . وإنما آفة الإنسان أن يطغى أن رآه استغنى . هى آفة الأفراد وآفة الأمم . وكم أمة عزت وكرمت ورفعت منار الحق والعدل وهدت الإنسانية سبيلها فآمنت بها الإنسانية ، وسارت فى خطاها ، وجزتها بذلك خير ما يجزى المعترف الشكور ؛ ثم استغنت هذه الأمة فطغت فجزت الإنسانية بطشاً واستعماراً . يومئذ يمد الله لهذه الأمة بحكم سنته فى طغيانها ، ثم ينالها بعد ذلك من جرائها ما ينال كل طاغية كفور .

ربنا إننا آمنا بك ما آمن بك عبدك حمزة بن عبد المطلب . ربنا فهب لنا من فضلك بعض ما وهبت له ! هب لنا الإيثار على أنفسنا وأن نحب بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات إخواننا ، وأن نتمنى الموت بما قدمت أيدينا ، وأدخلنا ربنا فى عبادك الصالحين ! ربنا اهدنا صراطك المستقيم ، ربنا إنك من تهد لا يضل ؛ وخير ما نرجو من هداك أن توجهنا وأن توجه الإنسانية بفضلك إلى الحق والخير والسلام .

أمام الحجرة النبوية

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفى بوعده ، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له .

وقفتُ أمام الحجرة النبوية وتلوت هذه التحية يوم دخلت المدينة وذهبت مع مضيفى إلى المسجد وتبعت مزورى من باب السلام إلى حيث وقفت مأخوذاً لا أدرى ما الله صانع بى . وسلمت على الصِّدِّيق أبى بكر وعلى الفاروق عمر المدفونين فى هذه الحجرة إلى جوار رسول الله وتلوت الفاتحة ، ثم أقمت مكانى شاخصاً إلى الحجرة وإلى عمدها النحاسية الدقيقة الصنع ، وإلى النسيج الأصفر الذى يصل بين هذه العمد ، وإلى الطاقات الثلاث المفتوحة فيها إزاء القبور الثلاثة ، كأنما كل طاقة منها عين تحدق فى كل زائر وتنفذ إلى أعماق نفسه وطيات قلبه . أقمت مكانى مأخوذ الذهن عن التفكير متوجهاً بكل انتباهى إلى كل ما يجب أن أقوم به من الشعائر حذر أن يفوتنى شىء منها ، وكأننى فى حضرة ملك أؤدى فروض الإكبار والإجلال . وشعرت بنفسى تحيط بها هالة من الجلال الروحى الذى أخذ على تفكيرى المسالك وجعلنى فى حيرة ما أصنع ، وكذلك بقيت حتى تقدمنى مزورى إلى ناحية الروضة النبوية لأؤدى فيها تحية الحرم وأصلى وراء الإمام صلاة المغرب .

وعجبت حين غادرت موقفى من الحجرة وأتممت صلاتى بالروضة . لقد امتلأت روحى إكباراً وتقديساً وإجلالا ، ولقد شعرت بما لم أشعر قط من قبل به . لكنى لم أبك ولم تفض عبراتى . وكنت قد سألت قبيل سفرى من مصر إلى الحجاز بعض من سبقونى إلى الحج والزيارة عن موقفهم أمام قبر الرسول ، فحدثنى بعضهم عن اهتزاز أنفسهم وانهمار الدمع من أعينهم ، ولم يأبوا أن يذكروا أنهم كانوا أشد تأثراً حين وقوفهم أمام الحجرة منهم حين

وقوفهم أمام الكعبة وحين طوافهم بها . وهؤلاء الذين حدثونى هم من خير من أعرف ثقافة وأكثرهم بعداً عن الغلو فى الدين أو التزمُّت فيه . مالى إذاً لم تنهمل عبراتى كما انهملت عبراتهم، ولم يزد تأثرى أمام قبر الرسول عن تأثرى أمام بيت الله، وما أحسبنى دون أحد منهم إيماناً بالله وتصديقاً لرسوله صلى الله عليه وسلم وحبّاً إياه! أتراهم أرهف منى حساً وأدق شعوراً، أم أنّا نختلف رأياً وتفكيراً؟ ولم أطل تقليب النظر فى هذه الأمور بادئ الرأى، وكفانى أن ذكرت أنى توجهت إلى الله بالحج مخلصاً ، فلى فى مغفرته ذنوبى أعظم الرجاء ، وأننى جئت ألتمس بزيارة نبيه الكريم الذكر والأسوة مزيداً فى الرجاء أن يهدينى الله سبيله الذى دعا إليه محمد عبده ورسوله. هذا إلى أنى خلقت عصىّ الدمع لا تُسعفنى العبرات ما تسعف غيرى ، فإن أوشكت ضننت بها ضنّاً بكرامتى وإبائى . وما أدرى لعلى كذلك خشيت أن يكون فى البكاء مظهر عبادة وقد قال عليه السلام : (اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعْبد) ؛ وإنما تفيض دموع المؤمن من خشية الله .

عدت بعد ذلك مرات إلى المسجد ووقفت أمام الحجرة . لشد ما يبعث هذا الموقف إلى النفس من آى الحكمة ومعانى الجلال ! إنه ينشر أمامها حياة الرسول وصاحبيه ، وجهادهما معه فى سبيل الدعوة إلى دين الله ، وجهادهما من بعده لتثبيت دعائم هذه الدعوة ونشرها فى الخافقين . إنه يصور أمام الذهن من حياته وحياتهما بساطة فى العيش ، بل خشونة فيه اتخذوها لهم سنة وشعاراً مذ تولوا أمر الناس ، فآثروا الناس على أنفسهم وأهليهم ، وعافوا متُع الحياة وما لها حذر أن يدخل عليهم منه ما ليس لهم بحق ، وضربوا بذلك للناس مثلا فيما يجب أن يكون عليه من يلى أمر غيره . وهم قد اتخذوها شعاراً وكان لهم فى أموالهم سعة ، وفيما رزقهم الله متاع . كان محمد غنيّاً بتجارة خديجة ومالها الكثير . وكان أبو بكر غنيّاً بتجارته وإلف الناس إياه . وكان عمر غنيّاً بسعيه واتصال كده . فلما بعث الله رسوله هدى للناس ونوراً أنفق مال خديجة ولم يُبق منه على شىء . ولما آلت خلافة رسول الله إلى أبى بكر كان الزهد فى الدنيا والرغبة عنها ، وكان التقوى وخوف الله أن يُصيب ظلمٌ رجلا ممن ولى

أمرهم . أما عمر فكان مثال العدل الصارم لا يعرف الهوادة مع غيره ، وهو أشد قسوة على نفسه وأهله. أليس عجباً أن يكون ذلك شأنهم وأن تكون هذه سيرتهم وعبرتهم ، ثم تكون هذه الحجرة النبوية وهى ما هى اليوم جمالا وتألقاً فى النقش والزخرف والعمارة حتى لتُزرى بأكثر الحُجر فى أبهى القصور فخامة وروعة ، وحتى لكانت تُزرى إلى عصر قريب بكل قصر ثراء ونِعْمة ، لما اجتمع فيها من نفائس قدرها بعضهم بسبعة ملايين من الجنيهات !

بذلك حدثتنى نفسى يوماً وأنا بمجلسى من المسجد بعد وقفة طويلة أمام الحجرة . وذكرت لهذا الحديث ما كانت الحجرة عليه قبل أن تضاف إلى المسجد يوم دُفن بها الرسول ، ويوم دفن بها أبو بكر ، ثم يوم دفن بها عمر . كانت هذه الحجرة فى بيت عائشة أم المؤمنين . فلما مرِض النبى انتقل إليها ومرّضه أزواجه فيها حتى اختار الرفيق الأعلى . وكانت هذه الحجرة كالبيت كله من جريد ، مستور بمسوح الشعر ، أو كان البيت فى قول من اللبن له حُجرٌ من جريد . فلما تُوفى رسول الله وانتهى المسلمون بعد خلاف إلى دفنه حيث قُبِض حفروا له فى هذه الغرفة مكان السرير الذى كان يمرض عليه ، ودفنوه بعد أن ودّع المسلمون جثمانه رجالا ونساء وأطفالا . ودفن أبو بكر بعد سنتين وثلاثة أشهر من موت الرسول ، والحجرة على حالها لم يغير فيها شىء ، ولم يقم على القبر قبة ولا مقام . وبعد عشر سنين من موت أبى بكر دفن عمر بالحجرة وهى على حالها لم يزد عليها إلا جدار أقامه عمر بينها وبين سائر الدار التى كانت عائشة تقيم بها . ذكروا أن ابن الخطاب أرسل إلى عائشة لما طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة يسألها أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ، لأوثرنه اليوم به . وأوصت أن تدفن مع صواحبها بالبقيع . ولعلها إنما فعلت بعد دفن عمر حتى لا تدفن إلى جواره وهو منها غير ذى رحم محرم . فهى قد كانت تزور حجرة القبر سافرة حين لم يكن بها غير زوجها وأبيها ؛ فلما دفن عمر إلى جانبهما لم تكن تدخلها إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها .

وبقيت حجرة القبر على بساطتها إلى أن أمر الوليد بن عبد الملك عمر

ابن عبد العزيز واليه على المدينة أن يزيد فى المسجد وأن يضم حجرات أزواج النبي إليه . وكل ما قيل إنه حدث قبل ذلك أن وضعت على القبور الثلاثة حجارة مسنَّمة وكانت فى العهد الأول مسواة بالأرض . وانقض جدار من الحجرة حين أمر عمر بن عبد العزيز ببنائها ، فانكشف أحد القبور عن ساق وركبة ، فتولى عمر الفزع أن تكون ساق رسول الله وركبته . فلما تبين أنها ساق عمر وركبته زايله الفزع وهدأ روعُه ، وأمر مولاه مزاحم فقام فستّرها وسوى التراب عليها . وبعد ذلك أقيمت الحجرة فخيمة البناء فخامة أعجبت الوليد بن عبد الملك ودعته أن يقول لأبان بن عثمان: « أين بناؤنا من بنائكم! » . وكان جواب أبان : « بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس » .

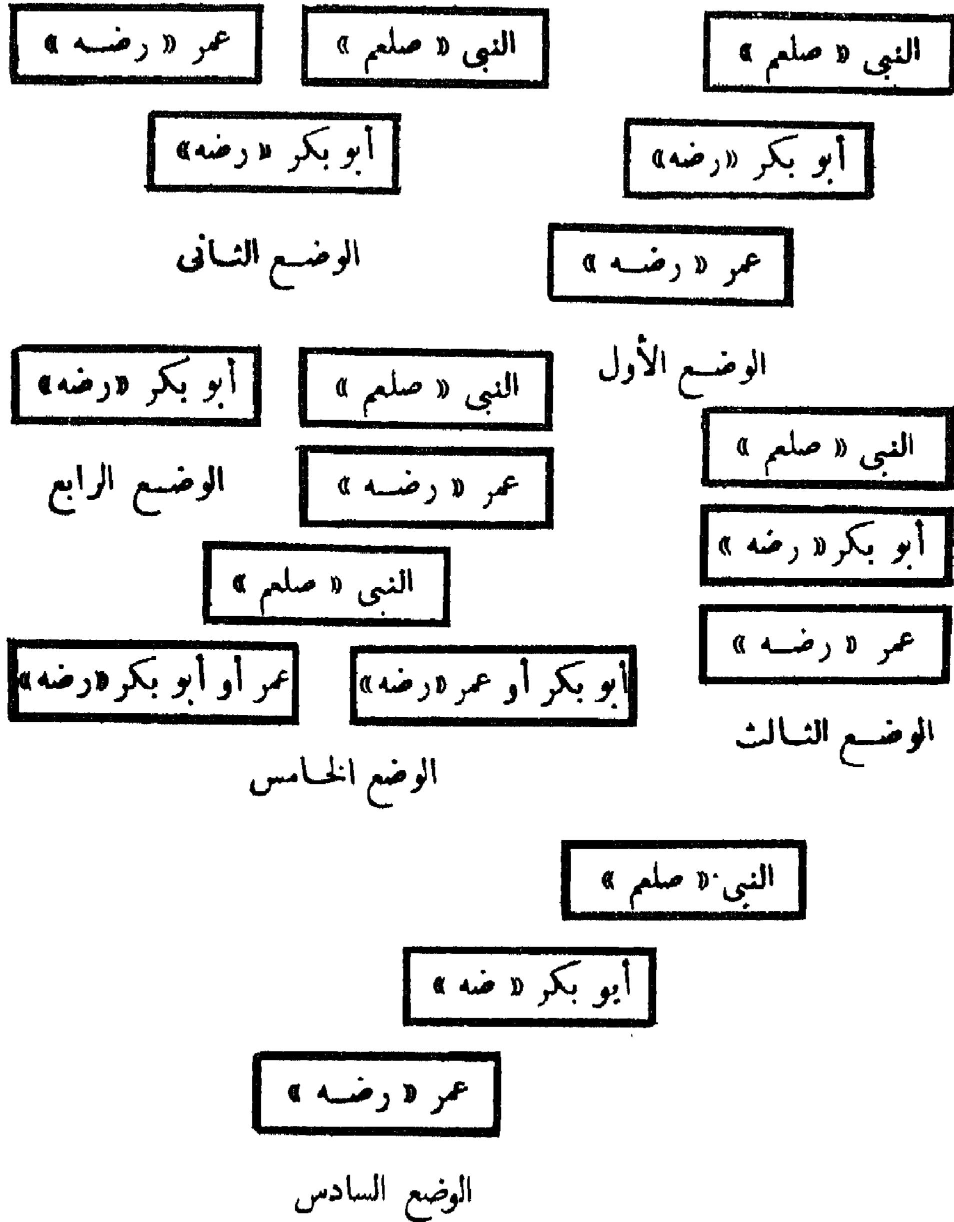
بنى عمر بن عبد العزيز الحجرة سنة ثمان وثمانين ، وقيل سنة إحدى وتسعين للهجرة . هى إذاً قد ظلت ثمانيا وسبعين أو ثمانين سنة بعد وفاة الرسول فى مثل بساطتها حين وفاته لم يزد عليها إلا ما قيل عن هذه الأحجار المسنَّمة . ولم يكن الناس إذ ذاك أقل إكباراً لها وذكراً لصاحبها عليه السلام مما كانوا بعد أن بنيت وأقيم عليها سقف أنفق عمر أربعين ألف دينار ذهباً فى إقامته وتزيينه . ولئن تفاوت تقدير الناس إياها ، لقد كان المسلمون الأولون فى عهد الخلفاء الراشدين والأيام الأولى لعهد بنى أمية أدنى إلى التقدير الصحيح . أولئك كانوا الصحابة والتابعين ، وكانوا لذلك يُدركون روح الرسالة وأغراضها إدراكاً سليماً . لم يكن الخيال ولا كان الهوى السياسى قد عبث بأفئدتهم ولا بمنطق عقولهم ، ولم يكونوا لذلك قد اضطربوا بين الإفراط والتفريط ، والغلو فى ناحية أو العكوف على نقيضها . كانت حياة الرسول وصاحبيه ماثلة أمامهم على حقيقتها التى رأوها ، وكانوا لذلك يكبرونها ويلتمسون فيها الأسوة ، ولم تكن نفس أحد لتطاوعه على عبادة غير الله مما ينكر الإسلام . لذلك لم يتحمس أحد من أهل المدينة لما صنع الوليد من بناء الحجرة ، بل أنكره كثيرون من أتقيائهم ، وبرئوا منه ، ورأوا فيه خروجاً على الأسوة الحسنة . وحق لهم يومئذ أن يفعلوا وقد أنكر بعض إخوانهم وآبائهم على عثمان بن عفان

أن يبنى المسجد بالحجارة وأن يخرج به لذلك عن بناء النبي إياه باللبن والجريد وخشب النخل يجعلها له عمداً .

أراني أشد ميلا لرأى هؤلاء المسلمين الأولين فيما صنع الوليد بن عبد الملك . فلو أن الحجرة بقيت كما كانت يوم دفن بها رسول الله لكان منظرها أقوى إلهاماً من منظر الحجرة المزخرفة البديعة النقش الجميلة العمد الثمينة الأثاث ، والتى تبعث إلى النفس من الروعة أكثر مما تدعو إليه من الأسوة والعبرة . كانت تلك الحجرة الأولى صورة حية من حياة رسول الله ، ومن جهاده ، ومن آلامه ، ومن مرضه ومن دفنه . أين يرى الإنسان اليوم حجرة الرسول التى كانت مثل التقشف ومظهر الخشونة فى العيش والبراءة من كل زينة وبهرج ؟ أين موضع فراشه فيها ، وكان أدماً حشوه ليف ؟ أين هذه الصورة التى تملأ النفس روعة ، صورة الرسول فى بيته وفى مهنة أهله ، ينظف ثوبه ويرقعه ويحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويأكل مع الخادم ؟ أين هذا المكان الساذج يجلس محمد فيه إلى أهله وهو اللطف بهم والدعابة معهم ، والبر والرأفة والرحمة ؟ أين هذا الباب الذى لم يكن عليه قفل ، والذى كان محمد يفتحه لديك مريض فيترفق به ويمرضه ! ترى أين كانت الغرفة التى أقام بها رسول الله حين هجر نساءه شهراً لما لجت الغيرة بهن بعد أن ولدت مارية ابنه إبراهيم ؟ وأين من حجرات أزواجه كان مجلسه المفضل للتفكير والتأمل ، ولتنظيم سياسة المسلمين وتوجيههم فى مختلف شئونهم ؟ وأين من هذه الحجرات نزل عليه الوحى ؟ وأين فيها سرير مرضه وحيث كان به من لهب الحمى ما يعانى منه أشد الكرب ؟ وأين منها المكان الذى مر به المسلمون بعد موته وغسله ، رجالا ونساء وأطفالا ، يودعون جثمان نبى الله ورسوله ، ويشهدون أنه بلّغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ؟ لم يبق من ذلك كله أثر بعد أن ضمت الحجرات إلى المسجد ، فلم يبق لزائر المدينة أن يقف على تفصيله أو أن يستمد إلهامه ، وقد كان له فى الإسلام وفى حياة المسلمين أبلغ الأثر . ألا لو أن ذلك كله بقى إلى اليوم لألهم المؤرخين والكتاب والشعراء ورجال الفن

ما لم تلهمهم الحجرة البديعة الزخرف مذ شادها عمر بن عبد العزيز . لم يفكر الوليد فى شىء من هذا يوم أمر بهدم الحجرات وإدخالها فى المسجد ، وإنما فكر فى حسن بن حسن بن على بن أبى طالب وفاطمة بنت الحسين وفى الدعوة العلوية وفى هذه الخصومة التى استحرّت بين بنى هاشم وبنى أمية بعد مقتل عثمان . ولو أنه فكر فى شىء مما ذكرت أو وجد من يذكّره به لما عدل أغلب الأمر عن رأيه ؛ فالهوى السياسى أعنف من أن يذرنا نفكر فى أمر سواه ؛ وهو كذلك خاصة إذا اتصل بالمُلْك وما يحيط به من شهوات أهواء .

بذلك حدثتنى نفسى يومًا وأنا بمجلسى من المسجد بعد وقفة طويلة أمام الحجرة . وذكرت لذلك ما حدث من عمارة الحجرة بعد الوليد ، وكيف نهج غيره نهجه فى البناء والزخرفة . وكيف نسى المسلمون العهد الأول وقرّ فى نفوسهم أن كل زخرف يضيفونه إلى الحجرة يقربهم إلى الله . ولقد بلغ أمرهم من ذلك أن اختلفوا على موضع المدفونين بالحجرة بعضهم من بعض . هذا وأبو بكر وعمر وزيرا رسول الله فى حياته وخليفتاه بعد موته ، وهما اللذان ثبتا قواعد الإسلام ونشرا فى الخافقين لواءه . ولقد بلغ من اختلافهم على هذه المواضع أن روى السمهودى عنها سبع روايات اعتمد فى كل منها على راوية لروايته مبلغها من القوة أو الضعف . ونقل السمهودى ما صورت به هذه المواضع فى مختلف الروايات على النحو الآتى :


النبي « صلم »
أبو بكر « رضه »
عمر « رضـه »
الوضع الأول
النبي « صلم »
عمر « رضـه »
أبو بكر « رضه »
الوضع الثاني
النبي « صلم »
أبو بكر « رضه »
عمر « رضـه »
الوضع الثالث
النبي « صلم »
أبو بكر « رضه »
عمر « رضـه »
الوضع الرابع
النبي « صلم »
أبو بكر أو عمر « رضه »
عمر أو أبو بكر « رضه »
الوضع الخامس
النبي « صلم »
أبو بكر « ضه »
عمر « رضـه »
الوضع السادس

هذه هي الأوضاع التي ذكرها السمهودي ، وهي سبعة يمكن أن ترد إلى ستة . وأنت تستطيع كما ترى أن تعتبرها ثمانية . على أن الوضع الأول منها هو المأثور . والرواية فيه أن رأس النبي وضع إلى ناحية الغرب ، وأن رأس أبي بكر وضع إزاء منكبي النبي ، وأن رأس عمر وضع إزاء منكبي أبي بكر وهذا الخلاف على وضع أبي بكر وعمر من النبي يقع مثله على بناء الحجرة حين شادها عمر بن عبد العزيز . فقد ذكروا أنه بناها مخمسة ولم يبنها مربعة خيفة أن يتخذها المسلمون قبلة يتوجهون إليها في صلواتهم . أما السمهودي فيقول : إنه رآها حين عمارة المسجد في عصره ، أي في القرن التاسع الهجري ، وأنه ألفاها مربعة ، وأن تخميسها كان بعد ذلك . وقبر النبي معلم اليوم بمسمار من الفضة موضوع في الجدار القبلي من الخارج . والمأثور أنه قبالة الرأس . وقد وضع هذا المسمار في عهد متأخر . ولكنه يشير إلى موضع الرأس لا ريب ؛ فالمسلمون قد حرصوا على الدقة في تحديد قبر النبي وإن لم يحرصوا على مثلها في تحديد قبري صاحبيه .

وهذا الخلاف على تحديد مواضع القبور من الحجرة إنما حدث في عهد متأخر . فقد رأيت أنه لما انقض جدار وانكشفت بذلك ساق وركبة في ولاية عمر بن عبد العزيز المدينة عرفوا أنها ساق عمر وركبته ، مما يدل على أن مواضع القبور كانت محددة يومئذ أدق التحديد . فلما أقيمت الحجرة حولها ولم يكن يدخل إليها إلا الموكلون بها ، وقلّ منهم العلماء ، بدأ هذا الخلاف ، ولا نعرف من الذي بدأ بإثارته . ولو أن الحجرة بقيت على صورتها الأولى لما حدث خلاف ؛ ولما ترتب على هذا الخلاف ما ترتب عليه من جدل طويل .

فاتني أن أشير إلى ما يذكرونه عن قبر رابع موجود بالحجرة إلى جانب القبور الثلاثة ، وما يروى من أن هذا القبر لعيسى بن مريم ، وما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث تؤيد أن المسيح سيدفن به . ولست أريد أن أخوض مع الخائضين في هذا الأمر . وكل ما أذكره أن النبي لم يعين مكاناً يدفن به ، ولذلك اختلف أصحابه : أيدفن بمكة أم ببيت المقدِس ؟ ثم

اتفقوا على دفنه بالمدينة حين قال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما قُبِض نبيٌّ إلا دُفن حيث يقبض » . ولم يكن بدار عائشة يومئذ قبر ، ولم يحفر بها قبر غير قبر النبى إلا بعد أن دفن بها أبو بكر وعمر ؛ ولم يذكر رسول الله أنهما سيدفنان بها ، ولم يكن أحد يعلم ذلك . بل لقد دفن عمر بها بعد أن سأل عائشة أن تأذن به ، وبعد أن آثرته عائشة على نفسها فأذنت أن يدفن فى دارها .

تجدد بناء الحجرة بعد ذلك غير مرة . ولقد أشرت إلى شىء من ذلك حين الحديث عن المسجد النبوى وتجديد بنائه على أثر الحريق الذى أصابه فى القرن السابع وامتد إلى الحجرة كما امتد إلى المسجد كله ، وعلى أثر الصاعقة التى نزلت به فى أواخر القرن التاسع الهجرى . ولقد عدل بناء الحجرة أثناء ذلك فخمست بعد أن كانت مربعة وزيد عليها ما لم يكن منها حين بناها عمر ابن عبد العزيز . يقول السمهودى فى حديثه عن عمارة القرن التاسع : « إن متولى العمارة ومن كان معه خبّرونى أنهم وجدوا عند نقض جدار البيت الشامى — أى الشمالى — من داخله رأس جدار فى محاذاة الأسطوانة المذكورة يشهد الحال أنه كان آخذاً من الشامى إلى ما يحاذيه من القبلة ، فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة الشرق ، وكأنه لما انهدم زيد فيها ذلك القدر . قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلى الشرق لم تبن مع الجانب الآخر منه ، بل هى ملصقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم تدخل أحجار أحدهما فى الآخر ولا هى مرتبطة كما هى عادة البناء الواحد . ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى مما يلى الشرق ، فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبنى بالحجارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الموجودة المنحوتة . وأنا لم أشاهد ما قدمته مما حُكى لى فى أمر الجدار الشامى لأننى اجتنبت حضور الهدم احتياطاً لنفسى »[1] .

(١) السمهودى : وفاء الوفاء . جزء أول صفحة ٤٠١ .

ويقص السمهودى فى فصل عقده وجعل عنوانه « فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف ومشاهدة وضعه المنيف وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة » — يقص صورة ما حدث فى عهده حين جاء شاهين الجمالى إلى المدينة مُنْصَرَفَه من جُدة فأراه وجوهها ما تكسر من أخشاب المسجد ، وأروه ما فى الحجرة من تصدع قديم فى جدارها الشمالى ، رأى معه إصلاح عمدها وإعادة بنائها . وقد اختلف يومئذ فى ضرورة ذلك ورأى كثيرون الخير فى عدم التعرض له ما دامت الحاجة لا تدعو إليه . لكن شاهينًا وزير سلطان مصر الأشرف قايتباى ، كان له غرام بإصلاح الحرمين لا يعدله غرام. لذلك كان دائبًا على تعمير ما يرى الخير فى تعميره منهما. فلما استقر الرأى على تعمير المسجد والحجرة بدءوا بإزالة ما كان من تراب الهدم الذى سقط بها حين الحريق الذى وقع فى القرن السابع . يقول السمهودى : « بعث إلىّ متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول : ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً . فحثنى داعى الشوق وغلبة الوجد ، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله عائشة رضى الله عنها أن تريه القبور الشريفة . . فعزمت على الإقدام وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها غُبَارُ ثرى ليلى لجدَّ وأسرعا
لعل يرى شيئاً له نسبةٌ بهـا يعلِّـل قلبًا كاد أن يتصدَّعا

فتطهرت وتوجهت لذلك مستحضراً عظيم ما توجهت إليه ، وموقع المثول ببيت أوسع الخلق كرمًا وعفواً ، وذلك هو المعول عليه ، واستحضرت قول بعضهم :

عصيت فقل لى كيف ألقى محمداً ووجهى بأثواب المعاصى مبرقعُ

ثم أنشدت الذى يليه :

عسى الله من أجل الحبيب وقُرْبِه يُداركنى بالعفو فالعفـوُ أوسعُ

وسألت الله أن يمنحنى حسن الأدب فى ذلك المحل العظيم ، ويلهمنى ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقنى منه القبول والرضا ، والتجاوز عما سلف ومضى . فاستأذنت ودخلت من مؤخر الحجرة ولم أتجاوز ذلك المحل فشممت رائحة ما شممت فى عمرى أطيب منها ، ثم سلّمت بوجل وحياء ، على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء . . . ودعوت بما تيسر من الدعوات ، وتشفعت بسيد أهل الأرض والسماوات ، واستنزلت به فى بيته من الأزمات ، واغتنمت هذه الفرصة فى جميع الحالات . . . فلما قضيت من ذلك الوطر ، متعت عينى من تلك الساحة بالنظر ، لأتحف بوصفها المشتاقين ، وأنشر من طيب أخبارها فى المحبين . فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هى أرض مستوية وتناولت من ترابها بيدى فإذا به نداوة وحصباء . . ولم أجد للقبور الشريفة أثراً غير أن بأوسط الحجرة موضعاً فيه ارتفاع يسير جداً توهموا أنه القبر الشريف النبوى ؛ فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا . ومنشأ ذلك الوهم جهل من كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة . وذلك المحل ليس هو القبر النبوى قطعاً ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه . . لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريباً من الجدار وكان اللحد تحت الجدار »[1] .

وكان مهرة الصناع قد نقضوا قبل تنظيف المكان ما رأوا حاجة إلى نقضه من العمد ، ثم أعادوها بعد صب الرصاص فيها وجعلوها قوية قوة دهش لها السمهودى . وبعد التنظيف أقاموا بناء الحجرة حول مربعها الذى كان عمر بن عبد العزيز أقامه ، وجعلوا عليها قبة مكان القبة التى سبقتها والتى لم تقاوم عمل الزمن لأنها كانت من خشب . أما فى هذه العمارة فقد بنيت من الحجر الأسود وكملت من الحجر الأبيض .

وبعد زمن من تمام بناء الحجرة سقطت الصاعقة التى ذكرنا نبأها فى فصل المسجد النبوى على مئذنته الرئيسية فامتد الحريق إلى المسجد كله . أما الحجرة فلم تحترق . على أن هذا الحريق قد ترك أثراً فى القبة إذ تشققت أعاليها .

(١) السمهودى : الجزء الأول صفحة ٤٤٨ .

وقدأعيدبناؤها محكماًبعد أن أخذ لها الجبس الأبيض من مصر ،وتم ذلكفى سنة ٨٩٢ هجرية . وكتب على طرازها من الناحية الغربية : « أنشأ هذه القبة الشريفة العالية المعترف بالتقصير ، الراجى عفو ربه القدير ، قايتباى » . وبقيت القبة من ذلك العهد إلى أن جددها السلطان محمود بعد أن هدم أعاليها فى سنة ١٢٣٣ ، وهو الذى أمر بصبغها باللون الأخضر .

ليس يسعنا وقدتحدثنا عن عمارة الحجرة أن نغفل أمراً حدث أثناء ذلك له بهذه العمارة اتصال . ذلك ما تذكره الروايات وتنسبه إلى نور الدين الشهيد محمود بن زنكى الذى كان يحارب الصليبيين فى القرن السادس الهجرى . فقد ذكروا من أنباء سنة ٥٥٧ ﻫ أنه رأى فى نومه رؤيا أفزعته : رأى النبى صلى الله عليه وسلم يشير إلى رجلين أشقرين وهو يقول : أنجدنى ، أنقذنى من هذين ، ثم توضأ نور الدين وصلى ونام فرأى ما رأى من قبل وقام فزعاً ؛ وتوضأ وصلى ونام فرأى ذلك مرة ثالثة . وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين الموصلى أرسل فى طلبه وقص عليه ما رأى . قال الوزير : وما قعودك ! اخرج الآن إلى المدينة النبوية واكتم ما رأيت . وتجهز الملك بقية ليلته وخرج على رواحل خفيفة ومعه وزيره وعشرون رجلا فوصلوا المدينة فى ستة عشر يوماً . وبعد أن اغتسل الملك وتوضأ وصلى ركعتين بالروضة جلس لا يدرى ما يصنع . واستدعى أهل المدينة وأخبرهم أنه جاء للزيارة ومعه مال كثير للصدقة ، وسألهم بعد أن وزع المال : أبقى أحدٌ لم يأخذ منه حظه ؟ قالوا : لم يبق إلا رجلان مغربيان صالحان غنيان لا يأخذان من أحد شيئاً ، ويكثران الصدقة على المحاويج . وجىء بالرجلين فرآهما يشبهان من أشار إليهما النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام .

وتظاهر الرجلان بالصلاح وبأنهما جاءا المدينة يجاوران القبر النبوى وشهد أهل المدينة بأنهما صائمان الدهر ، ملازمان الصلوات فى الروضة ، وزيارة الحجرة كل صلاة ، وزيارة البقيع كل يوم بكرة ، وزيارة قباء كل سبت ، وأنهما لا يردان سائلا . لكن نور الدين لم يطمئن إليهما وذهب إلى

بيتهما فرأى فيه مالا كثيراً . ثم إنه جعل يجوس خلاله إذ رفع حصيراً فيه فرأى سرداباً محفوراً متجهاً صوب الحجرة . وارتاع الناس حين علموا ذلك وأحاطوا بالرجلين لما جيء بهما إلى نور الدين يسائلهما أن يصدقاه . وضربهما ضرباً مبرحاً فإعترفا بأنهما نصرانيان بعثهما الصليبيون فى زى حجاج المغاربة وأمالوهما بأموال عظيمة وأمروهما بالتحيل لسرقة جثة النبى . هنالك أمر نور الدين فضُرب عنقاهما ، ثم أمر بحفر خندق عظيم حول الحجرة من كل جوانبها حتى بلغ الحفر الماء ، وأمر بإذابة رصاص ملأ به الخندق ، فصار منه حول الحجرة إلى الماء سور متين لا يستطيع أحد اجتيازه .

هذه رواية السمهودى عن هذا البناء . ويروى البتاتونى فى الرحلة الحجازية أن نور الدين زنكى بلغه أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر بإحاطة الجثة ببناء آخر نزل بأساسه إلى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائرة حتى صار بحيث لا يمكن أن تنال منه يد الزمان . وذكر صاحب مرآة الحرمين مثل هذا . وقد وضع على هذا البناء ، على ما ذكر البتاتونى ، ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ ٱللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحيط بهذا الستر المنسدل على بناء الحجرة حزام من الحرير الأحمر مكتوب فيه اسم السلطان الذى أمر بعمل الستر .

وقد تُخيّل الطريقة التى سرد بها صاحب الرحلة الحجازية نبأ كسوة الحجرة أن لهذه الكسوة اتصالا بما صنع نور الدين الشهيد . والواقع أن كسوة الحجرة أقدم عهداً من نور الدين ، والرحلة الحجازية نفسها تشير إلى هذا . فأول من كساها الخيزران أم هارون الرشيد حين حجت ، كستها الزنانير وشبائك الحرير ، ثم كساها ابن أبى الهيجاء وزير ملك مصر الديباج الأبيض

عليه الطرز والجامات المرقومة ، وجعل عليه زناراً من الحرير الأحمر كتبت عليه سورة يس. وأرسل المستضيء بعد سنتين من ذلك كسوة من الديباج البنفسجى مطرزاً عليها اسمه ووضعت مكان كسوة أبى الهيجاء . وكساها الخليفة الناصر بالديباج الأسود . ثم صارت كسوة الحجرة ترسل من مصر كل ست سنوات ، كما كانت ترسل منها كسوة الكعبة كل عام . وكانت هذه الكسوة من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض وعليها طراز منسوج بالذهب والفضة . فلما استقرت الخلافة فى بنى عثمان بالآستانة صارت كسوة الحجرة ترسل منها كلما جلس سلطان على العرش ، وبقيت كسوة الكعبة ترسل من مصر كل عام . فلما انتقضت بلاد العرب على سلطان الأتراك ، ثم لما زالت الخلافة بعد ذلك ، تولت حكومة البلاد الإسلامية المقدسة أمر هذه الكسوة . وقد جرى التقليد من زمان بعيد كلما وردت كسوة جديدة أن تقسم القديمة ، شأنها فى ذلك شأن كسوة الكعبة .

كنا نود أن نقف عندما حدث من التطور فى بناء الحجرة قبل أن نتناول بالحديث أمر كسوتها . فهذا التطور أوضح دلالة على تطور التفكير الإسلامى مما حدث فى بناء المسجد . أما وقد تتبعنا (الرحلة الحجازية) فى استطرادها إلى حديث الكسوة فإنا نؤثر أن نتم أنباء الحجرة بحديث الهبات التى قدمها الملوك والأثرياء إليها ، والتى تتضاءل الهبات التى قدمت إلى المسجد بجانبها . فحديث هذه الهبات يزيد التطور الذى حدث فى التفكير الإسلامى وضوحاً . ولعله كذلك أبلغ ما يقال فى نقض ما رواه الحاج عبد الله برخرت السويسرى عن رغبة المسلمين عن التبرع لمنشآتهم الدينية ؛ إذ قال تعليقاً على وصفه الروضة : « إذا ذكرنا أن هذا المكان من أقدس الأماكن فى العالم الإسلامى كله وأنه اشتهر بروعته وفخامته ونفاسة حليته ، وأنه زخرف بكل ما اجتمع من هبات الغلاة فى هذا الدين ، ازددنا دهشة وعجباً أن يكون ذلك كل مظهره . فهو لا يقاس إلى مثوى بقية من رفات قديس ، وإن هان شأنه ، فى أية كنيسة من كنائس أوربا الكاثوليكية . وهو بهذا ينهض دليلا مقنعاً على أن المسلمين

لم يساووا المسيحيين الغلاة فى هباتهم الدينية فى أى عهد من العهود . ودع عنك أحوالا كثيرة أخرى تؤيد الاعتقاد بأنه مهما يكن من تعصب المسلمين وأوهامهم فإنهم لم يبدوا قط ميلا إلى البذل والتضحية المالية من أجل منشآتهم الدينية ، كما يضحى الكاثوليك ، بل كما يضحى المسيحيون البروتستنتيون من أجل منشآتهم »[١] .

وإنه مع ذلك ليجمل بى قبل تناول هذه الهبات بالحديث أن أشير إلى خلاف وقع بين علماء المسلمين فى عصور مختلفة على جواز تحلية الحجرة بالذهب والجواهر النفيسة ، مع العلم بأنها مكروهة شرعاً حليةً للأفراد ولمنازلهم وللمساجد . أما الذين يقولون بالجواز فيستندون إلى ما كان يوهب للكعبة ، وأن رسول الله لم ينكره ، وأن أبا بكر لم يفكر فى التصرف فيه ، وأن عمر فكر فى ذلك ثم عدل عنه تأسياً برسول الله . وأما الذين يقولون بعدم الجواز فيذكرون حديث النبى لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض » . فهو عليه السلام لم يفعل وما منعه اعتبار من الشرع وإنما منعته اعتبارات السياسة . ويذهب قوم إلى أن المسجد النبوى لا يجوز تحليته بالذهب والفضة أسوة بالمساجد جميعاً . ويذهب آخرون إلى أن الحجرة غير المسجد ويبلغون حد القول بأن المدفن الشريف بالحجرة له شرف على جميع المساجد وعلى الكعبة ، فلا يلزم من المنع فى المساجد والكعبة المنع هنا[٢] ! . وقد كان لهذا الخلاف أثره فى الهبات ونوعها فى القرون الأولى من الإسلام ، وله اليوم أثره والحجاز فى حكم الوهابيين ، أما ما بين ذلك فقد بلغ التفانى فى الهبات حداً سترى شيئاً منه فيما نقص الآن عليك ، وسترى منه مبلغ خطأ الحاج عبد الله برْخَرْت .

فقد ظلت الحجرة وليس بها من الزينة إلا دفن الرسول وصاحبيه بها إلى

(١) راجع ما نقلناه من كتاب برخرت « جولات فى بلاد العرب » فى فصل المسجد النبوى صفحة ٤٤٣ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفاء . الجزء الأول صفحة ٤٤٥ .

أن ضمت للمسجد فى سنة ثمان وثمانين للهجرة ، ثم بقيت وليس بها إلا هذه الزينة ومن حولها زخرف البناء البديع بعد أن ضمت للمسجد بناها عمر ابن عبد العزيز بالحجارة السوداء القوية زمناً طويلا . بعد ذلك ألف الناس أن يروا قناديل الذهب والفضة المعلقة حول الحجرة ، وفى ذلك يقول السمهودى ما نصه : « لم أر فى كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : وفى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزوار إذا وقفوا معلق نيف وأربعون قنديلا كباراً وصغاراً من الفضة المنقوشة والسادة وفيها اثنان بلور وواحد ذهب ، وفيها قمر من فضة مغموس فى الذهب وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال » . وقد بقيت القناديل ومعاليقها ترسل إلى الحجرة أجيالا متعاقبة حتى بلغ من كثرتها أن رفع خدم المسجد بعضها ووضعوه بالقبة التى فى صحن المسجد حتى اجتمع فيها منه شىء كثير .
وظل الأمر كذلك إلى أن كان القرن التاسع الهجرى إذ كان جمّاز بن هبّة أمير المدينة عام ٨١١ هجرية . فى هذا الحين صدرت المراسيم بتولية ثابت بن نُعَير إمرة المدينة وأن يكون أمر الحجاز لحسن بن عجلان . ومات ثابت قبل توليته وشعر جمّاز بأن الأمر يفر من يده فأعلن العصيان ، وأباح نهب بعض بيوت المدينة ، وأهان شيخ خدام الحرم ورفع عليه وعلى من معه السيف ، وكسر باب القبة وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التى اجتمعت على تعاقب السنين من جميع الآفاق وفر بها ثم أخفاها وقتل . وقد وضع بعض علماء ذلك العصر قائمة بما نهبه جماز جاء فيها أن وزن ما كان بالحجرة من قناديل الذهب تسعة قناطير . وقد شجع جماز هذا غيره من المعتدين ، فأخذ الأمير غُرير بن هيازع بن هبة الحسينى الجمازى جانباً مما وضع بالقبة زنته سبعة عشر ومائة رطل من الفضة زاعماً أنه على سبيل القرض ثم فر به إلى القاهرة حيث مات مسجوناً . وفى آخر سنة ستين وثمانمائة عدا عليها برغوث بن بُتَير ابن جريس الحسينى ، إذ تسور جدار المسجد ودخل بين سقفيه ونهب منه ما استطاع فى ليال متكررة .

على أن ما حدث من ذلك لم يصرف المؤمنين عن إرسال الهدايا من الذهب والفضة من جميع أقطار العالم الإسلامى .

ولما آل الأمر إلى بنى عثمان زادت هذه الهدايا نفاسة وقيمة . يقول البتانونى فى « الرحلة الحجازية » : « فى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلنتى فى حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به إطار من الذهب المرصع ويقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما فى شرف نسبته إلى الحجرة النبوية فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه . وهو مثبت فى لوحة من الذهب ، ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان فى مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر ، فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه إليه السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب المنقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلنتى : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أهدته إليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية . وفى هذه الحجرة الشريفة غير هذا كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن . منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء » . وبعد أن ذكر البتانونى ما هنالك من نفائس أخرى كمصاحف مجوهرة وشمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ومكانس من اللؤلؤ ، قال : « وبالجملة فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات » .

لم تبق هذه النفائس اليوم بالحجرة . وليس يرجع ذلك إلى ما أخذه الوهابيون منها فى غزوتهم الأولى للحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى . فقد رد محمد على باشا والى مصر الشىء الكثير مما أخذوا ، وبقيت هذه النفائس

التى ذكرها البتانونى ، والتى رآها فى أول العقد الثانى لهذا القرن العشرين .
فلما كانت الحرب الكبرى وثار العرب بسلطان آل عثمان نقل الأتراك الكوكب
الدرى وقطعة الماس التى كانت معلقة تحته وأنفس نفائس الحجرة إلى الآستانة
ولم تُردّ إلى الآن .

كنت واقفاً أمام الحجرة يوماً وأحد أصحابى يقص علىّ نبأ هذه النفائس
وما سلب منها ويبدى لذلك أسفاً ولوعة . وأطرقت ملياً أسمع له ؛ فلما أتم
حديثه قلت : وهل أغنت هذه النفائس قبر النبى الكريم شيئاً ؟ ونظر إلىّ
الرجل بعينين واسعتين فتحهما وكأنما ملئتا مما أقول عجباً . ولم يصدنى
عجبه ولا صدتنى نظرته عن الاستطراد فى بيان فكرتى فأردفت : « ما كان قبر
محمد النبى العربى بحاجة إلى جواهر تضىء جوانبه وهو مضىء بالحقيقة العليا التى
جاء بها صاحبه من عند الله هدى للناس ونوراً . وليس البهرج الذى يخدع
الناس به هو العبرة التى تلتمس فى هذه الحجرة ، وما سلب من جواهرها
ولآلئها إنما سلب يوم أراد الله لدينه أن يعود فيملأ النفوس سمواً على كل زينة
وبهرج ؛ وإنما العبرة الكبرى التى تملأ النفوس رهبة وجلالا ، ويخشع أمامها
القلب مهابة وإكباراً ، فتلك ما تتحدث هذه الحجرة عنه من سيرة خاتم الأنبياء
والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، ومن سيرة صاحبيه ووزيريه وخليفتيه : أبى بكر
وعمر . ومن وقف أمام الحجرة وشغل عن سيرة صاحب الرسالة وبلاغه إياها
الناس ، وعن سيرة صاحبيه وجهادهما فى سبيل الله ليُظلل لواء الإسلام العالم كله
وكان شغله عن ذلك بزخرف البناء وما كان فيها من تحف وجواهر ، فقد
فاتته العبرة ولم يبلغ من زيارة قبر الرسول ما يجب أن يجعله كل مسلم غايته
من هذه الزيارة » .

وخلوت يوماً إلى نفسى ، وعدت أفكر فى هذه الجواهر وفى إهداء أصحابها
إياها إلى الحجرة وفى قوله عليه السلام لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد
بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله » . أترى المسلمين اليوم ما يزالون
حديثى عهد بكفر فلا ينفق أحد كنز الحجرة فى سبيل الله ؟ أو ليس إنفاقه

فى هذه السبيل الكريمة خيراً من تركه تعدو عليه الأيدى ولا يفيد منه أحد شيئاً ؟ إن الذين وهبوه للحجرة التماساً للقربى قد بلغوا من هبتهم غايتهم ، فحسب المرء أن ينفذ صادقاً ما نواه مخلصاً لتتم له نيته . فإذا خرج عمله أو ماله من يده وأصبح ملكاً عاماً فقد أصبح حقاً لبيت مال المسلمين ، يتصرف فيه صاحب الأمر ما يتصرف فى بيت مال المسلمين : يجعل منه للحجرة وزينتها ما يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المسلمين ، وينفق سائره فى سبيل الله .

ولو عرض الكوكب الدرى بعد أن بقى فى الحجرة النبوية زمناً ليحوزه من يقدر على ثمنه لأقبل أصحاب الملايين من أمراء الهند وغيرهم يتنافسون فى اقتنائه ويبذلون فيه أضعاف قيمته . ويومئذ ينفق هذا المال فى سبيل الله تيسيراً للحج أو إعلاء لكلمة الله ورفعاً لمنار الإسلام . وما كان لأحد أن يغضب لذلك بعد إذ تكرر الاعتداء على نفائس الحجرة فسلبت غير مرة . هذا ، وما دار بخلد النبى عليه السلام أن يكون قبره يوماً من الأيام متحفاً للجواهر ، وهو الذى أراد أن ينفق كنز الكعبة فى سبيل الله . لكن قوماً رأوا هذه الهبات وقفاً على الحجرة لا يجوز التصرف فيها بحال . فشرط الواقف عندهم كنص الشارع . وليس يجوز فى رأيهم صرف شىء من قناديل الحجرة فى عمارتها وعمارة المسجد . وعند كثيرين أن هذا غلو فى تقديس إرادة الفرد بعد موته ، والشرع الإسلامى الحنيف لا يجيز إرادة الإنسان إلا فى حدود حياته .

ومهما يكن الرأى فى ذلك كله فهذه الهبات أوضح شاهد على تطور التفكير الإسلامى إلى ناحية الأثرة ، مع أن كتاب الله وأسوة رسوله كلهما الدعوة الخالصة للإيثار . وماذا يبتغى من يهب القناديل أو الجواهر للحجرة ؟ إنه لا يريد بذلك سد حاجة للمسلمين . وآية ذلك أن القناديل كانت تبلغ من الكثرة أن تخزن قناطير الذهب منها فى القبة التى تتوسط المسجد ، وأن إضاءة الحجرة لا تقتضى هذا الذهب ولا هذه النفائس . إنما يهب الواهبون يبتغون القربى إلى رسول الله وشفاعته لهم عند ربه . هم لا يفكرون فى المسلمين ولا فى

أخوتهم ومحبتهم حين يفتنّون فى زخرف هذه الهبات وإنما يفكرون فى أنفسهم . وكم من ملك أو أمير وهب النفائس ثم لم يصرفه ما وهب عن الاستبداد بغيره وابتزاز حقه والطمع فى ماله ، والطمع مع ذلك فى شفاعة رسول الله من أجل ما قدم من قناديل الذهب أو نفيس الجوهر ! هذه عقيدة تدهور إليها المسلمون مذ نسوا أن المرء مجزىٌّ بعمله ، وأن قيمة العمل بالنية التى تبعث عليه ، وأن هذا العمل أقرب إلى الله ما كان البر والتقوى والجهاد فى سبيل الله .

عدت إلى التفكير فى هذا التطور يوماً إذ كنت بموقفى من الحجرة أستعيد أمام ذهنى هذه الصورة الأخاذة بالنفس لأيام مرض الرسول ووفاته ودفنه . فقد أقبل رجل مندفعاً نحو الحجرة كأنما أراد أن يلقى بنفسه على أبوابها وأن يقبّل أعتابها . ودهشت لمرآه فى اندفاعه بعد إذ حالت حكومة الوهابيين بين زوار الحجرة وما وراء السلام على ساكنها عليه السلام ، ومنعت أن يقبل الناس الأعتاب أو أن يتمسحوا بالمقصورة كما كانوا يفعلون من قبل ، لما تراه فى هذه الأعمال من مخالفة قواعد الإسلام الصحيح . دهشت حين رأيت هذا الرجل فى تحمسه وفى اندفاعه وأيقنت أن خدام الحجرة لا ريب مانعوه من غرضه . لكن الرجل لم يلق بنفسه إلى الأرض ولم يقبل الأعتاب ، بل اندفع يدعو ويبتهل ويستغفر ، ويطلب إلى رسول الله الشفاعة يوم الحساب . وكان يطلب ذلك فى صوت مسموع وفى ضراعة وإنابة انهمل لهما دمعه وفاضت معهما عبراته . فلما فرغ من دعائه وتضرعه وابتهاله اقترب منه رجل يقول له : ألم تقرأ قوله تعالى : «وَلاَ تُجْزَوْنَ إلاما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ؟ أولست تعرف أن الحسنات يذهبن السيئات ؟ فعليك بالحسنات يغفر لك الله من ذنوبك وتكن أعمالك خير شفيع لك . ووقف المستشفع مأخوذاً لأنه لم يكن يتوقع أن يسمع ما سمع ، لكنه مع ذلك صاح حين أتم صاحبه كلامه : الشفاعة يا رسول الله ! وانطلق إلى الروضة النبوية يلتمس أقرب مكان من منبر الرسول .

عدت إلى التفكير فى تطور النفسية الإسلامية على أثر هذا المشهد . قلت فى نفسى : ألا يغلو الذين يحولون بين زائر الحجرة وما سوى السلام على نبى الله

ورسوله غُلوٌّ الذين يتمرغون على أعتاب المقصورة يلتمسون العفو والمغفرة ؟
إن هذا الموقف ليبعث فى النفس من العبرة والذكرى ويثير فيها من معانى الحكمة العليا ومن أسباب الأسوة الحسنة ما لا يثيره موقف سواه . إننا نقف أمام قبور العظماء من فلاسفة وقواد وملوك وكتاب وحكماء فتحدثنا صفائحها بأبلغ ما تحدثنا عنه أكثر الكتب بلاغة وأدقها منطقاً . ما بالك بهذا الموقف أمام قبر النبى العربى وما يبعثه إلى النفس من دواعى الحكمة والإيمان وحسن الرأى وجميل الأسوة ! حسبك أنه منارة الهدى إلى التوحيد فى قوة بساطته وصفاء جوهره ، وإلى الإيمان بهذا التوحيد عن معرفة وبصيرة ، وإلى سلوك سبيل العلم لبلوغ أسمى مراتب الإيمان بملاحظة خلق الله واستنباط سنته جل شأنه فى الكون ، ليكون لهذه الوقفة أمام الحجرة أبلغ الأثر فى الحياة ؛ أثر يجعلنا نسمو بأنفسنا فوق الزائل من المنافع العاجلة لهذه الحياة الدنيا لنحدق فى الوجود وجهاً لوجه نبتغى فيه آية الله ونرى خلاله أسرار عظمته جل شأنه .
أليس غلوًّا أن نمنع الناس من هذه الوقفة مخافة أن يغلوا فى تقديس هذا القبر إلى حد العبادة ! والذين يعبدون القبر أو صاحب القبر غلاة كذلك ينكرون تعاليم صاحبه وما جاء به من عند الله فيشوبون صفاء التوحيد بما يصنعون ، ويشوهون جلاله بما لا يرضى الله ورسوله ، تعالى الله عما يصفون .

ومثلت أمام ذهنى صورة هذا الرسول الكريم دفن بهذه الحجرة ، فرأيته فى أكفانه ، ورأيت أبواب هذه الحجرة تفتح للمسلمين من ناحية المسجد فيدخلون فيلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلون عليه . هذا أبو بكر وهذا عمر يدخلان وقد امتلأت الحجرة بالمسلمين وهم يصلون صلاة الجنازة كما كان يصليها رسول الله على موتاهم ، لا يؤمهم فى صلاتهم أحد . ويتم القوم جميعاً صلاتهم ويقفون صموتاً كأن على رءوسهم الطير حتى يسمعوا أبا بكر يقول : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد أن نبى الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفى بوعده وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » . وأبو بكر يتلو هذا السلام جملة جملة ،

والمسلمون يجيبون عند كل جملة آمين ! آمين ! فى هيبة وخشوع . ويفرغ الرجال من صلاتهم ويدخل النساء ثم الصبيان من بعدهم . وهؤلاء وأولئك جميعًا كلٌّ واجف قلبه محزون فؤاده يفرى الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين ويساوره على دين الله أشد الخشية من بعده .

ترى كيف كان دفن أبى بكر إلى جانب النبى ، وكيف كان دفن عمر إلى جانب أبى بكر ؟ لقد مات أبو بكر فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى للسنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فتولت غسله ابنته أسماء يعاونها ابنه عبد الرحمن إجابة لرغبته قُبيل وفاته ، ثم إنه كفن فى الأثواب التى مات فيها ، لأنه أبى أن يكفن فى جديد من الثياب ، فالثياب الجديدة تنفع الحى. ونَقَله الصحابة من بيته إلى بيت ابنته عائشة ، وصلى عليه عمر والمسلمون من حوله ، ودفن إلى جوار رسول الله ، رأسه عند منكبى صاحب الرسالة . ولقد مات عمر فى السادس والعشرين من ذى الحجة فى السنة السادسة والعشرين من الهجرة ؛ فتولى صُهَيْب والصحابة نقله من داره إلى دار عائشة حيث دفن فى جوار صاحبيه ، ورأسه إلى منكبى أبى بكر ، فصلى صهيب عليه وأنزل عبد الله بن عمر جثمانه إلى مقرّه الأخير .

ما أبلغ العبرة فى دفن خليفتى رسول الله الأولين فى حجرته ! وأول ما يدل ذلك عليه إجماع المسلمين على أنهما تأسيا بالرسول وسارا على نهجه وسنته ، فحق لهما أن يكونا فى جواره . وهما قد سارا على نهج الرسول وسنته فى سياسة المسلمين ، فنسى كل منهما نفسه وجعل وحدة المسلمين وعظمة الإسلام والجهاد فى سبيل الله غرضه . لم يفكر أحد منهما حين خلافته فى مال أو جاه أو سلطان يكون له أو لذويه وأهله ، بل رأى فيما ولى من أمر المسلمين عبئًا وواجبًا ألقاه الله على عاتقه ؛ فكان كل همه ألا تعلق به فيما ولى من ذلك ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدى فى ولايته لكل مسلم حقه . كان الفقر فخر كل منهما ، كما كان فخر صاحب الرسالة . وكانت التقوى لباسهما ويجب أن تكون لباس كل مؤمن . وكان الحرص على رضا الله بطاعته

غاية رجائهما . بذلك استقر الإسلام بعد أن قمع أبو بكر من حدثته نفسه بالخروج عليه ، ثم مد عمر راية الإيمان على بلاد الروم والفرس بعد أن حسب الروم والفرس أن الله أورثهم إياها إلى يوم الدين ، ونسوا أن الله إنما يورث الأرض من يشاء من عباده الصالحين .

بهذا سما أبو بكر وسما عمر ، فحق لهما أن يجاورا رسول الله فى جوار الله ، فكانت للمؤمنين فى ذلك عبرة أن من أطاع الله ورسوله وجاهد فى سبيله التماساً للمثل الأعلى كان جديراً أن يسمو إلى مكانة المقربين وأن يرقد رقدته الأخيرة فى جوارهم . لقد سأل الوليد بن عبد الملك عن قبر عثمان يوم زار المدينة بعد أن ضمت الحجرة إلى المسجد فقيل له : « إنه مات فى فتنة » ولولا ذلك لدفن فى الحجرة كما دفن أبو بكر وعمر . وقد يكون عجيباً ألا ترى عائشة دفنه بها وقد كانت مع معاوية بين المطالبين بدمه . ولكن لا عجب ؛ فلم يُجمع المسلمون على تأسى عثمان بالرسول ما أجمعوا على تأسى الخليفتين الأولين به ، ولو أنه فعل لسما سموهما ولحقّ له أن يرقد معهما فى جوار رسول الله .

وما كان المسلمون ليأبوا عليه ذلك يومئذ لو أنهم أقاموا على سنة الرسول يؤثرون على أنفسهم ، ويحرصون على العدل ولا يميل بهم الهوى . لكن سيرة الرسول تقتضى من يبتغى الأسوة فيها مجهوداً إنسانيّاً كبيراً . تقتضيه أن يسمو على المادة ، وأن يمحو من آثارها كل ما يغشى ضياء الروح ، وأن يعالج ذلك بالمعرفة والعلم ، وأن يثابر فى هذه السبيل غير وانٍ ولا قانع . فالقناعة فضيلة فى طلب المادة ، والونى دون الطمع فى هذا الطلبِ خير . لكن أجواء السمو الروحى لا حدود لها ؛ ودوام السمو فيها يقتضينا ألا نقنع بما بلغنا ، وألا ننثنى عن مواصلة الجهد لبلوغ غاية ما نستطيع منه . وهذا ما شغل المسلمون عنه من عهد عثمان بما شجر بينهم من خلاف .

اللهم إنى أضرع إليك أن تهيئ لى وللمؤمنين فى هذا السبيل ، سبيل السمو الروحى ، ما هيأت لمن ارتضيت من عبادك ، وأن تيسر لنا اتباع رسولك الكريم ؛ نتأسى به ونتبع سنته ، ونسير فى خُطاه ! اللهم إن هذه الحجرة التى

أقف أمامها ألتمس فيها المثل والعبرة لتلهمنى من ذلك ما أرجو أن تهدينى صراطه، فهو صراطك المستقيم! اللهم بك العون فأعنّى، ومنك الرضا فارض عنى! ربنا لا تُحمّلنى ولا تُحمل إخوانى المؤمنين ما لا طاقة لنا به! ربنا اعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا وأنت نعم المولى ونعم النصير!.

ظاهر المدينة

عُدْ بذاكرتك إلى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونية سنة ٦٢٢ م . فني ذلك اليوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ من هجرته أن أصبح على أبواب يثرب لم يبق بينه وبينها غير ثلاثة فراسخ . أفيدخلها وليس يعلم ما أعده أهلها لمقْدمه ، وهو بعد متعب كصاحبه ودليله بعد أن قضوا ثمانية أيام يحف بهم الخطر أثناء مسيرهم فى الصحراء خلا ثلاثة الأيام الأولى التى قضاها مع أبى بكر فى غار ثور ؟ أيستريح إلى ظل جبل عَيْر الذى يفصل بين البادية وبينها ؟ هذا بُريْدة شيخ قبيلة بنى سهم قد جاء يحييه ويذكر له أن أهل يثرب على أحر من الجمر فى انتظاره ، وأنهم يخرجون إلى أعالى الجبال والحرار كل يوم يتلمسونه بظاهر مدينتهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال فى هذه الأيام التى بلغ فيها القيظ حَمَارته . خير له مع ذلك أن يعدل إلى قُباء على فرسخين من يثرب حتى يرى ما الله صانع به ؛ وحتى يستطلع بنفسه جلية الأمر فيما هو مقبل عليه .

وتخطى الرجال الثلاثة جبل عير على رواحلهم فى موضع تستطيع الإبل أن تتخطاه . فلما بلغوا ذروته وتنسموا نسيم أعاليه انكشف أمامهم سفحه المواجه يثرب ، وامتدت أمام أبصارهم جنات النخيل والبساتين ذات الرواء والبهجة . ما أكرمك ربى ! أية طمأنينة يبعثها هذا المنظر الساحر لنفوس أجهدتها المشقة ، وقلوب لولا يقينها أن الله معها لانقبضت من الفزع طول هذه الرحلة ! . هذا وادى العقيق عن يسار عير تبدو فيه أمام النظر منازل هى للنظر أنس وسكينة ، وتفصل بينه وبين يثرب حرّة الوبرة . وهذه حرّة واقم عن اليمين تفصل بين يثرب والعُرَيْض ، وتقوم منازل بنى قريظة وبنى النضير أسفلها . وهذه قُباء على مقربة من سفح عير تحيط بها البساتين تجرى خلالها المياه متفجرة من الآبار فتزيدها رواء وبهجة . وأنِس الرسول إلى هذا المنظر

وود لو يطيل المكث فوق الجبل لولا حرصه على أن يتحرى أنباء بُرَيْدة وأن يعرف مبلغ الحق فيها . وانحرف القوم عن عيْر متجهين إلى قُباء ؛ فلما بلغوها ألفَوْا عدداً غير قليل من المسلمين أسرعوا إليها يستقبلون نبى الله ورسوله وكلهم النشوة والجذل . لقد انتظروه يومهم هذا كما انتظروه فى الأيام التى سبقت ، فلما غلبهم القيظ عادوا إلى منازلهم . وإنهم لكذلك إذ سمعوا يهوديًّا على أطُم له يصيح بهم : يا بنى قيلة هذا صاحبكم قد جاء . إذ ذاك أسرعوا إليه يسألونه ! أين رآه ؟ فأشار إلى ناحية قباء . وحث القوم إليها المسير حتى بلغوها قبل أن يبلغها محمد وأبو بكر . فلما رأوهما أحاطوا بهما إلى دار كُلْثوم بن الهِدْم إذ نزل رسول الله كما نزل بها قبله كثيرون من المسلمين الذين سبقوه إلى الهجرة من مكة . ولما استقرّ به المقام ذهب أبو بكر إلى السنح على مقربة من قباء فنزل بدار خارجة أحد زعماء الأوس . وفى قباء قضى رسول الله أربعة أيام يقيم الليل بدار كلثوم ويجلس معظم النهار بدار سعد بن خَيْثَمة الأوسى ، فيستقبل أنصار الله بيثرب يسألهم عن حالها ويفكر وإياهم فى الانتقال إليها . وبينما هو فى قباء بلغها على بن أبى طالب قادمًا من مكة بعد أن أدى إلى أهلها ما كان لهم عند ابن عمه من ودائع . وفى أربعة الأيام التى أقامها النبى بقباء بنى مسجدها ، وكان يعمل فيه بيده ويشاركه المسلمون . فلما اطمأن إلى أنباء يثرب دخلها وأهلها فى لهفة وشوق لرؤيته بينهم ، ودخلها على النحو الذى تعرفه والذى قصصته عليك فى فصل (آثار المدينة) .

هذا المسجد الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء هو أول بناء أقيم فى الإسلام ليكون مسجداً . ولذلك اتفق جمهور المفسرين على أنه المسجد المقصود بقوله تعالى فى سورة التوبة : « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » ، وإن ذكر بعضهم أن هذه الآية تتناول كذلك مسجد المدينة ، واستند إلى أحاديث رواها تؤيد رأيه . وأولية هذا المسجد فى الإسلام وقيامه بقباء ، أول منزل للنبى بعد هجرته من مكة ، يجعل لضاحية قباء ولمسجدها

من المكانة فى نفوس المسلمين ما يجعل زيارتها مستحبة يوم السبت من كل أسبوع . وكان الناس من أهل المدينة وزوارها يقومون بهذه الزيارة منذ قرون ، وما زالوا كذلك يفعلون . وهم كانوا لا ريب ولن يزالوا يفعلونه تبركاً بالمسجد والآثار النبوية التى به ، أو التماساً للعبرة فى آثاره .

والأثر النبوى الذى يذكرونه فى مسجد قباء ولا يختلفون عليه هو مَبْرك الناقة . فالمتواتر أن هذا المسجد أقيم حيث بركت ناقة النبى أول ما بلغ قباء ؛ والراجح أن يكون هذا صحيحاً . ومؤرخو المدينة متفقون على أن دار كلثوم ابن الهِدم كانت منزل الرسول ودار سعد بن خيثمة التى كانت مجلسه كانتا تجاوران المسجد ، وكانت الداران موجودتين ومعروفتين فى عهد المطرى فى القرن الثامن والسمهودى فى القرن التاسع . ويذهب الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فى تعليل زوالهما وعفاء آثارهما الآن إلى أنهما بنيتا قبتين إشادة بهما وإبقاء لذكرهما ، وأنهما كانتا تقومان حيث تقوم القبتان البَيْضيّتان الواقعتان اليوم على اثنى عشر متراً من جنوب المسجد . ورقعة المسجد كانت فضاء مجاوراً لدار كلثوم بن الهدم مملوكاً له ، وكان قد جعله مِرْبداً يجفف فيه التمر ، فأخذه رسول الله وبنى به هذا المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، والذى ظل رسول الله يذهب إليه طول مُقامه بالمدينة يذكر فيه هجرته وبلوغه منها مأمنه ، ويذكر فيه دخول يثرب ونصر الله إياه فيها وإعلاء كلمة الله بانتشار الإسلام بين أهلها .

زرت قباء صبح السبت الثامن والعشرين من شهر مارس فى صحبة بينهم الأستاذ عبد القدوس الأنصارى . وإن السيارة لتجرى بنا فى طريق واسع مستو إذ قال عبد القدوس : هذا طريق استحدثه فخرى باشا عام ١٣٣٦هـ (١٩١٥ م) ، لكنه سد بعد الغزوة الوهابية وظل مسدوداً حتى اشتراه أمير المدينة اليوم عبد العزيز بن إبراهيم فوقفه طريقاً لقباء . أما قبل ذلك فكان طريقها معوجاً يتعرج من الشرق إلى الغرب وتحيط به نخيل صغار ، كثيراً

ما اختبأ فيها الأشرار فآذوا سالكيه . وأغلب الظن أن يكون رسول الله قد سلك هذا الطريق المتعرج بين قباء والمدينة وأن يكون قد استمتع بجمال نضرته ومرأى المياه الجارية خلاله وبهوائه العذب الرقيق .

وبلغنا قباء ونزلنا أمام المسجد . ما أفسح رقعته ! فهو مربع ضلعه أربعون متراً . وما أعلى جدرانه وأمتنها ! . فهى تعلو الأرض قرابة ستة أمتار ، وتدعمها دعائم مبنية وراءها تزيدها قوة . وتخطينا باب المسجد فإذا صحن مكشوف فرش بالحصباء تتوسطه قبة يقابلها محراب قيل إنها أقيمت حيث بركت ناقة النبى ، ويسمونها لذلك مَبْرك الناقة . وزوار المسجد يقفون عندها يعيدون من الأدعية ما يتلوه (المزورون) عليهم . وفى جانب من الصحن بئر تنسب لأبى أيوب الأنصارى لم أعرف لنسبتها له سبباً مذكوراً فى التاريخ وإن روى عنها المزورون الروايات المختلفة . وعلى يمين الداخل من الباب جانب مسقوف ممتد طول ضلع المسجد ويزيد عرضه على عشرة أمتار . فى هذا الجانب يقيم الناس الصلاة ، وفيه تقوم عمد وقباب ويفرشه حصير نظيف ويتوسطه محراب هو قبلة المصلين . وفى نهاية الجدار الذى يقوم فيه هذا المحراب محرابٌ آخر يقال له طاقة الكشف . والمزورون يذكرون أن النبى رأى الكعبة من موضعه . وهذا قول ينكره الحس وبين قباء والكعبة أكثر من ثلاثمائة ميل . ولذلك يقول صاحب (مرآة الحرمين) : « وفى المسجد موضع يقال إنه طاقة الكشف يزوره الناس ولا أدرى كشف أى شىء » .

ليس يشبه هذا البناء الذى نراه اليوم ذلك المسجد الذى بناه الرسول بقباء . فقد كان ذلك المسجد الأول من اللبن والجريد . فلما كانت خلافة عثمان بن عفان جدده وزاد فيه على نحو ما جدد المسجد النبوى وزاد فيه . وكما هدم عمر بن عبد العزيز المسجد النبوى وشيده بناءً بالغاً غاية الروعة ، هدم كذلك مسجد قباء ووسعه وبالغ فى تنميقه وأقام له مئذنة وجعل له رحبة وأروقة . وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة عمّره أبو يَعْلَى الحسينى وكتب على حجر يوجد اليوم فوق محراب طاقة الكشف « بسم الله الرحمن الرحيم . إنما

يعمُرُ مساجد الله . . الآية . أمر بعمارة مسجد قباء الشريف أبو يعلى أحمد ابن الحسن بن أحمد بن الحسن رضى الله عنه ابتغاء ثواب الله وجزيل عطائه فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة » . وأحدث عمارة فى هذا المسجد أجراها السلطان محمود الثانى سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين ونقش تاريخها فى حجر لا يزال على بابه .

على مقربة من المسجد مقبرة يزعمون أن مسجد الضرار الذى ورد ذكره فى القرآن كان يقوم موضعها ، ويذكرون أنها اليوم مقبرة الشيعة والرافضة والنخاولة . ونسبة مسجد الضِّرار إلى هذا المكان وهمٌ . وحسبُك أن تعلم أن مسجد الضرار الذى أحرقه رسول الله كان بذى أوان شمال المدينة ، وأن قباء فى أقصى جنوبها ، لتدفع هذا الوهم .

قَلَّ من يُعنى بهذه المقبرة وما يروى عنها ؛ وإنما يعنى الزائرون ببناء مظلم يجاور مسجد قباء ويسميه بعضهم مسجد على ، ويروى الأكثرون أنه دار زوجه فاطمة ابنة الرسول ، ويزيرون الناس حجراً فى داخله يقولون إنه الرحا التى كانت فاطمة تطحن بها الحنطة . وليس لهذا الكلام سند من الثبوت العلمى وإن كان فى روايته من الخير أنه يعلم الناس شرف العمل اليدوى وخدمة المرء نفسه والمرأة بيتها .

فأما الأثر الثابت بقباء ثبوت المسجد ، والذى يستّرعى لذلك الانتباه والعناية ، فبئر أريس ومنبع العين الزرقاء . وهما يقعان قبالة باب المسجد وعلى مقربة منه ، ويلفتان مثله نظر الباحث المحقق كما يلفتان نظر الزائر المتبرك . فأنت ترى أمامك قبة تحسبها مزار ولىٍّ أو صحابى ، وتعجب كيف لم يهدمها الوهابيون ؛ ثم تسمع حين تسأل عنها أنها قائمة على بئر أريس ، وترى إلى جانبها قبة أخرى ذات محراب بها طاقة تطل على البئر ويستقى منها . فماء البئر عذب سائغ والزائرون يشربونه تبركاً لما يقال لهم من أنه كان أُجاجاً فتفل النبى فيه فعذُب . وهذه رواية لم يُثبتها ثقات المحدّثين ، ونفاها نقاد الحديث ولم يتجاوز عنها إلا أقلهم .

ولهذا القول الضعيف تسمى بئر أريس بئر التفْلة . وهى تسمى كذلك بئر الخاتم لما يقال من أن خاتم رسول الله سقط فيها . ورواية سقوط الخاتم ليست منسوبة إلى النبى . فقد بقى هذا الخاتم فى حياته وطول خلافة أبى بكر وعمر . وفى السنة السادسة من خلافة عثمان سقط الخاتم من يده فى هذه البئر ، بئر أريس وعبثاً بحث الباحثون عنه لاستخراجه منها .

وقد أضيفت بئر أريس بعد ذلك إلى العين الزرقاء الواقعة فى جوارها كما أضيفت إليها بئر الرباط وبئر بويرة . ومياه الآبار تُحْدث حين انحدارها فى العين الزرقاء دوياً كدوىّ الشلالات ، ولذلك يسميها أهل المدينة شلالات العين الزرقاء .

هذه هى البقعة التى نزل بها رسول الله أول ما بلغ يثرب حين مُهَاجَرِه من مكة . وتحيط بها إلى مرمى النظر من كل جانب طبيعة متفاوتة الألوان تصف ظاهر المدينة وتعيد إلى الذاكرة صورة من تفاوت حظها . ذكرنا ما يراه القائم بأعلى عَيْر من هذا المحيط إذ يرى يثرب أمامه ووادى العقيق إلى يساره ، ممتداً غرب المدينة فيما وراء حَرة الوَبَرة إلى ما بعد بئر رُومة فى شمالها ، والعُرَيْض وعوالى المدينة إلى يمينه من شرق حرة واقم ، وهناك فى الشمال من أقصى المدينة أحد . وتبدو هذه الأودية منحدرة من الجنوب إلى الشمال تسيل فى انحدارها مياه الأمطار فتجعل منها جنات ذات زرع زاهى الخضرة وبساتين تنبت من الفاكهة ما لذ وطاب ، إلا التفاح والكمثرى مما لا يجود فى البلاد الحارة . لقد كان وادى العقيق حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ممرعاً بالمزارع ذات البهجة ، فلما انتشر الإسلام وامتد لواء عاصمته إلى مصر والروم والفرس وانهالت الأموال إلى المدينة أصبح العقيق قصوراً كله ، يفاخر فى ترف الحضارة قصور بزنطية ورومية . ولقد كانت عوالى المدينة زاهرة عامرة بعد أن أجلى اليهود عنها وأصبحت خالصة للمسلمين ، بها منازل بنى عبد الأشهل وبنى معاوية ، حولها البهاء والنضارة والرواء . فلما تنكر الحظ للمدينة بعد أن تركها أبناؤها الأولون ليقيموا بدمشق وبغداد والقاهرة ولينعموا فى رياض

الأندلس بما حسبه آباؤهم فى العهد الأول حلماً من الأحلام ، بدأت قصور العقيق تندك وبدأت نذر التدهور تمد يدها القاسية المدمرة إلى كل ناحية من المدينة . وأنت اليوم لا ترى فى طريقك إلى قباء من غراس أو بساتين تلفت النظر بعض ما ترى من يباب بلقع لا زرع به ولا ثمار . ومتى كانت الأرض تأخذ زخرفها وتزدان لقوم هجروها فلم يعكفوا على استغلالها والإفادة من خصبها مكتفين بأن يعيشوا كلا على غيرهم لا يأتون بخير من سعيهم ودأبهم .

وهذه المنطقة بين قباء والمدينة من أخصب مناطقها ، بل لعلها أخصبها ، وهى لذلك تثمر جل فاكهتها وخُضرها . ومن ثم كانت متنزه المدينة ومصحّها فى مختلف العصور ، يخرج إليها الناس للتروض ويقيم بها الناقهون استعادة للنشاط والقوة . ولقد كان رسول الله كثيراً ما يخرج فى أصحابه إليها ؛ فهى قد تركت فى نفسه أجمل الأثر مذ نزل أول مهاجره بها ؛ فلما أزمع إذ ذاك الانصراف إلى المدينة سار فى مظاهرة من المسلمين متخطياً بئر أريس بوادى رانوناء متجهاً إلى وادى بُطْحان فنخيل يثرب . وإنه لبوادى رانوناء إذ أذنت صلاة الجمعة ، فنزل فصلاها بمن معه . وذكراً لهذا الحادث أقيم على طريق قباء مسجد الجمعة يقوم اليوم على يمين الذاهب من قباء إلى المدينة . وكان موضع هذا المسجد يوم صلى به النبى واقعاً فى منازل بنى سالم من الأنصار . ولا تذكر كتب التاريخ المدونة أول من بنى هذا المسجد . أما بناؤه الحالى فأقامه بايزيد السلطان العثمانى الذى تولى السلطنة من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩١٨ هجرية . يدل على ذلك نقش لا يزال موجوداً على حجرين من الرخام الأبيض مثبتين فى جداره . وقد عفت الأيام على منازل بنى سالم وتركت المسجد يقوم اليوم فى أرض مهملة إلا من بستانين قلت العناية بهما ، يقع أحدهما فى شماله ، والآخر فى جنوبه .

ذكرت فى فصل « آثار المدينة » ما حدث حين دخول النبى إليها بعد صلاة هذه الجمعة وخطبته فيها فلا حاجة إلى العود لذكره . وإنما أقف هنا فيما بين قباء ومسجد الجمعة ليحدثنى الأستاذ عبد القدوس عن أطُم الضَّحيان وحصن

كعب بن الأشرف . يقع أولهما على مقربة من قباء إلى ناحية الغرب ، ويقع الآخر إلى ناحية الشرق وبينه وبين قباء أربعة أمثال ما بين الضحيان وبينها . وذكرت لحديث الأستاذ عبد القدوس ما كان بيثرب حين هجرة الرسول إليها من آطام وحصون تحميها غائلة المعتدين عليها، وتجعل عبد الله بن أبيّ بن سلول يقول إذ يتحدث القوم فى أمر قريش قبيل غزوة أُحد : لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصِي ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فإذا أقبل العدو رمته النساء والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضّتْ علينا قط وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه » . وشاقنى أن أرى هذه الحصون والآطام كيف كانت . وانطلقت بنا السيارة حتى كنا عند أطم الضحيان ، فإذا أحجار سود من حجارة الحرار مركوم بعضها فوق بعض ، ولم يبق من الأطم إلا جدار هو القائم يحدث سمكه وارتفاعه عما كان عليه من عظمة وقوة ومنعة . وهو بالغ الدلالة على ذلك كله ، يبعث ما بقى منه إلى النفس رهبة ومهابة . تسلقنا بعض هذا الجدار السميك ورميت بنظرى إلى الفضاء حولى ، فخلتنى أرى ما كان عليه من قبل بما تبينت من نوع عمارته ، تدل عليها الآثار القليلة الباقية منه . وهبطت أسأل عن حصن كعب بن الأشرف ، فعلمت أنه ليس خيراً من هذا الأطم صيانة وأن ما بقى من آثاره لا يزيد عما بقى من الضحيان . على أن كعباً وحصنه أثارا فى ذاكرتى مقتل الرجل على عهد الرسول ، فى حين لم يثر الضحيان شيئاً أعرفه . فقد كان كعب عدواً للمسلمين شديد اللدد فى عداوته ، يهجوهم يرسل فيهم الأشعار ويعيبهم بمقذع القول . هنالك ائتمر به جماعة من شبان المدينة فاحتالوا عليه واستدرجوه ليلا من حصنه وقتلوه . وكعب هو الذى قال بعد غزوة بدر ومقتل سادات قريش بها : « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطنُ الأرض خير من ظهرها » ؛ وهو الذى ذهب إلى مكة يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ، قليب بدر ؛ وهو الذى

رجع بعد ذلك إلى المدينة وجعل يتشبب بنساء المسلمين . ومقتل كعب هو الذى أدى إلى حصار بنى قينقاع وإلى تجويعهم فتسليمهم وإجلائهم عن المدينة .

وليس يسعنى وأنا الآن فى طريق قباء إلى المدينة أن أغفل الحديث عن مشربة أم إبراهيم . ولست أخفى ما كان بى من شوق إلى زيارة هذه المشربة والوقوف بها مذ نزلت المدينة . ولا عجب فأم إبراهيم هى مارية القبطية ، وهى المصرية التى بعث المقوقس بها وبأختها سيرين هدية لرسول الله حين بعث رسول الله إليه يدعوه إلى الإسلام . أما وهى ابنة وطنى مصر ، وهى التى وصلت بين وطنى ونبينا عليه أفضل الصلاة والسلام بصلة خالدة على التاريخ إذ ولدت له ابنه إبراهيم ، وهى التى أبقت لذلك فى مدينة الرسول آثاراً يزور الناس جميعاً منها قبر إبراهيم بالبقيع ؛ فلا جرم أن أحرص أنا المصرى الصميم على زيارة المكان الذى اختاره الرسول مقاماً لمارية ، والذى كان مقامه كلما ذهب إليها ، والذى شهد عبراته تتساقط يوم مات إبراهيم حزناً وجزعاً ؛ ولا جرم أن يكون بى إلى هذا المكان هوى لا يشعر به غيرى ما أشعر أنا به .

ومشربة أم إبراهيم تقع بالعالية من ضواحى المدينة . وقد يكون تجوزاً نسبتها إلى قباء وطريقها ؛ فأنت تسير إليها من المدينة سالكاً طريق قباء حتى تبلغ ملتقى وادى بُطحان بوادى رَانُوناء ، إذ ذاك تتياسر مع وادى بُطحان متجهاً إلى شرق المدينة ميمماً وادى مُذَينِب ووادى مَهْزُوُر . والعوالى تقع بين هذين الواديين . هناك يأخذ بنظرك مسجد قائم بين خضرة نضرة وزرع بهيج ، وبيئة طبيعية تثير فى النفس ذكرى البيئة المصرية . وهذا المسجد يقوم اليوم حيث كانت تقوم المشربة فى عهد رسول الله .

أفأقامت مارية بالمشربة مذ أهداها المقوقس إلى رسول الله ، أم أقامت بها بعد مولد إبراهيم أو قبيل ذلك بعد الحمل به ؟ لم يرد عن ذلك نبأ صريح . وكتّاب السيرة الذين يجيبون عن هذه المسائل يذهبون فى جوابهم مذهب الظنون . وأحسب مارية أقامت بالمشربة بعد قليل من مجيئها من مصر وأنها

ظلت بعد ذلك بها . وأحسبها أقامت بها قبل أن تسلم . فهى إنما أسلمت بعد حملها أو بعد مولد إبراهيم ، ولذلك لم تضم إلى أزواج النبى ولم تكن أول أمرها بين أمهات المؤمنين ، فلم تبن لها حجرة إلى جانب حجراتهن . ولعل النبى حباها بها إكراماً لها لأنه صلى الله عليه وسلم كان كريم الطبع ، ولأن مارية كانت يومئذ نصرانية ، وأقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ولعله اختار لها هذا المكان مقاماً لأنها ألفَت فيه شبهاً بطبيعة بلادها .

ونمط مسجد المشربة كنمط مساجد مكة والمدينة التى أقيمت للذكرى لا للصلاة . وهو خير فى بنائه وفى صيانته من كثير من المساجد التى من نوعه . وفى صحنه إلى جوار الجدار المقابل للمحراب بئر ما يزال الماء بها ، لكنها لم تُبنْ فوهتها ، ولم تعلق عليها دلوٌ ، مما يدل على أن ماءها غير مأثور للشرب ولا للتبرك .

أقمت طويلا عند مسجد المشربة ، ودرت حوله من نواحيه جميعاً ، وحاولت أن أصور لنفسى تلك المصرية التى سكنت هذا المكان كيف كانت ، وهل كانت تعيش هاهنا كما كانت تعيش فى مصر ؟ أم أنها آثرت حياة أهل المدينة فسارت سيرتهم ونسجت على منوالهم ؟ وإن المؤرخين ليذكرون أنها كانت جميلة حلوة القسمات قمحية اللون يتوج رأسها شعر أسود متموج ، وأنها كانت تعيش فى مشربتها بين الحدائق التى أهداها مُخَيْريق إلى الرسول بعد جلاء بنى النضير عن المدينة ، عيش طمأنينة ونعمة . أما بعضهم فيذكر أنها أقامت أول عهدها فى دار بالمدينة تجاور حجرات النبى وأنها لم تنتقل إلى المشربة إلا بعد مولد إبراهيم ، وحين ظاهرت حفصة وعائشة على النبى بعد أن عادت حفصة يوماً من دار أبيها فوجدت مارية فى بيتها مع النبى . وهذا قول مرجوح ؛ لأن مارية لم يعرف لها بالمدينة بيت قط ، ولأن مظاهرة حفصة وعائشة لا ترجع إلى سبب واحد [1] .

على مقربة من مسجد المشربة يقع مسجد الفَضِيخ شرق قرية العوالى .

---

(١) راجع « حياة محمد » فصل (إبراهيم ونساء النبى) صفحة ٤٧٩ وما بعدها من الطبعة الثانية.

وهو أوسع رقعة من مسجد مارية ومن كثير من المساجد الأثرية . له شرفات وخمس قباب ومحراب يجاوره منبر من حجارة يرتفع عن الأرض درجتين . وقد سمى هذا المسجد الفضيخ لما يروى من أن أبا أيوب أراق به الفضيخ ، وهو خمر التمر ، إذ بلغه وهو فى نفر من أصحابه نزول تحريمها . ويسمى هذا المسجد كذلك مسجد الشمس لأن الشمس تطلع عليه أول شروقها . وهو مسجد مأثور لصلاة النبى بموضعه ست ليال حين حصاره بنى النضير .

ليس يقابلك إذ تسير شرق الخندق من ظاهر المدينة أثر غير ما قدمنا خلا مسجد بنى ظَفَر ومسجد الإجابة . وقد ذكرنا مسجد الإجابة حين تحدثنا عن آثار المدينة . أما مسجد بنى ظفر فيقع شرق البقيع ويؤثر عنه أن رسول الله أتى بنى ظفر فجلس على الصخرة التى فى مسجدهم فى جماعة من أَصحابه وأَنه أَمر قارئاً فقرأ حتى أَتى على هذه الآية : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشهِيد وجِئْنَا بِكَ على هَؤُلَاءِ شهيدًا » فبكى رسول الله وقال : « أى رب ! شهيد على من أنا بين ظهرانيه ! فكيف بمن لم أره ! » . ويذكر صاحب مرآة الحرمين أن هذا المسجد يسمى كذلك مسجد البغلة لوجود أثر بجوار المسجد فى حرة واقم يزعم المزورون أنه لحافر بغلة النبى ، كما يزعمون فى تأويل انخفاض فى حجر هناك أن رسول الله اتكأ فى هذا المكان بمرفقه فترك فى الحجر هذا الأثر ، كما تركت أصابعه أثراً فى حجر آخر . ويُضيف إبراهيم باشا رفعت : « ولم يثبت شىء من ذلك وإنما هو محض افتراء زوره المرشدون للآثار ليستدروا بذلك أموال الدهماء » .

تقع هذه الآثار كلها بحرة واقم . والحرة كما أسلفنا منْطقة سوداء من الحجارة المحترقة اختلط بها أكثر الأمر حمم بركانى . وحرة واقم تحد المدينة من الشرق كما تحدها حرة الوبرة من الغرب . ولقد كانت واقم أكثر عمراناً من الوبرة أول ما جاء رسول الله إلى المدينة . كانت منازل اليهود من بنى النضير تقع فى جنوبها ويليها إلى الشمال منازل بنى قريظة منهم ؛ ثم كان بها ثلاثة منازل للأوس : منازل بنى ظفر واقعة إلى الشمال من وادى مهزور ، ومنازل

بنى عبد الأشهل فى أوسط الحرّة ، ومنازل بنى حارثة فى شمالها . وفى منازل بنى عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم الذى سمّيت الحرة باسمه . وقد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود والأوس آثاراً فى الحرة تدل على حضارة ونظام : تركوا بها آثار مصانع وصهاريج مياه لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس . ولا عجب وقد كانت هذه الحرة ميدان حرب منذ استقر الإسلام بالمدينة . حاصر رسول الله بنى النضير فى منازلهم بها وقد ائتمروا به ليقتلوه ، وذلك حين خرج إليهم بعد مقتل كعب بن الأشرف يريد أن يقر السلم باحترام عهد الموادعة بينه وبينهم . وقد أدرك ائتمارهم فانسحب من ديارهم ، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة يبلغهم : « أن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجّلتكم عشراً . فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » . وتحيرت بنو النّضير ما تصنع ؛ ثم انتهت بتحريض عبد الله بن أبىّ إلى عدم النزول على حكم هذا الإنذار النهائى الذى أبلغ إليهم . هنالك حاصرهم المسلمون وقاتلوهم عشرين ليلة وقطعوا نخيلهم . فلما بدا لهم اليأس من المقاومة سألوا محمداً أن يؤمنهم حتى يخرجوا من المدينة ، وخرجوا منها تاركين وراءهم مغانم كثيرة . وحاصر رسول الله بنى قريظة بعد أن نقضوا عهده وغدروا به وانضموا إلى الأحزاب فى غزوة الخندق . فلما تولى الأحزاب عن المدينة بعد أن خلع الإعصار خيامهم وقلوبهم ، قاتل المسلمون بنى قريظة فى منازلهم خمساً وعشرين ليلة حتى سلّموا وحكّموا سعد بن معاذ فى مصيرهم ، فحكم بأن تقتل المقاتلة ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرية والنساء ؛ وكذلك كان . من بعد ذلك ظلت المدينة آمنة إلى مقتل عثمان ؛ ثم بدأت الثورات والحروب الداخلية بين علىّ ومعاوية . فلما قُتل علىّ بالكوفة وانقضى عهد معاوية وتولى يزيد ابنه إمارة المؤمنين انتقض عبد الله بن الزبير والحسين بن على . وأقام عبد الله بن الزبير بمكة وبايعه الهاشميون ؛ فجهز يزيد لمحاربته جيشاً مؤلفاً من اثنى عشر ألفاً من الفرسان وخمسة آلاف من المشاة وجعل على رأسهم مسلم بن عُقبة المرّى . وبلغ مسلم المدينة سنة ثلاث

وستين فوجدها محصنة حولها الخندق ، لكنها لم تقاوم غير أربعة أيام ثم سلّمت . وكانت هذه وقعة الحرّة المشهورة فى التاريخ الإسلامى . وإنما سميت هذه الوقعة الحرّة لأن جيوش يزيد جاءت من حرة واقم .

تحد هذه الحرة المدينة من الشرق وتحدها حرة الوبرة من الغرب . وتبدأ حرة الوبرة قُبالة قباء من الجنوب عند ذى الُحليفة ، ميقات الإحرام لأهل المدينة ، وأول الطريق منها إلى مكة . وليس بذى الحليفة اليوم غير بئر ومسجد: بئر توضأ منها رسول الله وتوضأ منها المسلمون للإحرام للعمرة والحج عام الحديبية وعام حجة الوداع ، ومسجدها قائم بالمكان الذى كانوا يصلون فيه للإحرام . والمسجد القائم اليوم أثرى لا يتسع لمائة أو لمائتين من المصلين ، وبه محراب كتب أعلاه :

بمسجد سيّد الأبرار كــرر سجودك بالغــداة وبالعشى
لعلك أن تَمَسَّ بحُرِّ وجهٍ مكانًا مســه قــدمُ النبى

وكتب كذلك : « بات رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأه وصلى بمسجدها » فى صحيح مسلم عن ابن عمر . وفى الصحيح أن مبدأه أى فى أول حجة له .

وأغلب الظن أن تكون هذه الكتابة قد نقشت بأعلى المحراب فى عصر متأخر من عصور الانحلال ؛ فهذان البيتان من الشعر يدلان على ذلك بلفظهما ومعناهما .

وعلى مقــربة من مسجد ذى الحليفة آثار لجدران ذكر لى الأستاذ عبد القدوس الأنصارى أنها جدران مسجد المعرّس ، وأن هذه الجدران بقيت مطمورة إلى أن كشف عنها السيل عام ١٣٥٢ هـ ، وأن المأثور أن هذا المسجد كان يعرّس به النبى ؛ أى يبيت به عند عوده من مكة . ولم أعنّ نفسى بالبحث فى صحة هذه الرواية .

وطريق المدينة إلى ذى الحليفة مستوٍ يحاذى حرة الوبرة ، يبتعد عنها حيناً ويقترب منها حيناً آخر ، ويقف الكثيرون أثناءها عند بئر عروة يستقون من مائها العذب الرقيق ، بلغ من عذوبته ورقته أن كان حكام المدينة يُهدون منه للملوك والأمراء وكبار المسلمين . ويقال : إن مياه هذه البئر تُصلح الكُلَى . ولعلهم فى ذلك غير مخطئين . وهى تنسب إلى عروة بن الزبير ، وإن ذكر الأستاذ عبد القدوس فى كتابه « آثار المدينة المنورة » : أن رجلا له مقهى إلى جانبها يذكر جهلا منه أن عروة امرأة يهودية هى التى حفرت البئر .

بأعلى حرّة الوبرة من ناحية الشمال مسجد وبئر مأثوران، ومأثوران بحق ؛ ذلك مسجد القبلتين ، وتلك بئر رومة . أما مسجد القبلتين فيقع على ربوة مرتفعة من الوبرة ، وهو من طراز مساجد مكة التى لا يصلى فيها . وبه محرابان محراب داخل الجانب المسقوف منه يتجه إلى الكعبة ، أى إلى الجنوب ، ومحراب فى الجانب المكشوف يتجه إلى بيت المقدس ، أى إلى الشمال . والمأثور أنه صلى الله عليه وسلم صلى فى هذا المسجد إلى بيت المقدس حتى أمره الله أن يجعل الكعبة قبلته ، وذلك على رأس سبعة عشر شهراً من هجرته إلى المدينة ، وحين نزل قوله تعالى: « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ». وقد كان تحول القبلة إلى الكعبة بعض ما زاد فى خصومة اليهود والمسلمين ؛ حتى لقد ذهبت يهود إلى محمد يسألونه أن يعود إلى قبلتهم فيتّبعوه فأبى ؛ فهو لم يحول الكعبة عن هوًى منه بل إجابة لأمر ربه .

أما بئر رومة فكانت ليهودي تسمت باسمه وكان يبيع ماءها للمسلمين ، فاشتراها منه عثمان بن عفان إجابة لرغبة رسول الله ، ودفع له فيها عشرين ألف درهم . وهى تقع بمجتمع أسيال المدينة ؛ إذ تلتقى بُطحان ورانُوناء فى مسيل العقيق ثم يتصل بها مسيل قناة .

وهذه بئر مقصودة حتى اليوم . أقيم عليها بناء أمامه بركة يسير فيها ماؤها عذبًا سائغًا للشاربين ، وتتدفق إلى حيث تُروى المزرعة المحيطة بالبئر وبالبناء القائم فى جواره . وقد يكون تجوُّزاً أن يسمى هذا البناء مسجداً وإن كان الناس يصلون فيه ؛ فهو ليس كهيئة المساجد فى عمارته ؛ بل هو أدنى إلى أن يكون إيوانًا مشرفًا على البركة والبئر والمزارع حولهما .

تفصل حَرّة الوبرة بين المدينة ووادى العقيق . وإذا ذكر العقيق من أودية المدينة نسى الناس كل واد للعقيق سواه . فقد كان له فى أنباء التاريخ من الذكر ما جعله وادى النّعْمة وخفض العيش والترف ، يترنّم الشعراء بمحاسنه ويقص الرواة أنباء ما انطوت عليه قصوره . كان هذا الوادى الخِصب الدافق بجداول المياه وبالعيون والآبار خاليًا من البناء لمّا قدم النبى المدينة . وقد أقطعه بلالا بن الحارث المُزَنى بحجة نصُّها : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث ، أعطاه من العقيق ما أصْلَح فيه معتملا . وكتب معاوية » . ولم يُصلح بلال من العقيق شيئًا . فلما كانت خلافة عمر نزعه منه وأقطعه للناس ، وترك له قسما صغيراً لعله يصلحه . ولم يكد عمر يفعل حتى تنافس الذين ملكوا العقيق فى غرسه بساتين وجنات جعلته بهجة للناظرين . وتدفقت أموال الفتح فى عصر الدولة الأموية ، فبدأت القصور تقوم فى عَرَصاته تُزرى بقصور الشام وما افتنّ الرومان فى تشييده منها ، وأصبح العقيق بذلك ضاحية الكبراء المُتْرَفين . ولا تزال آثار قصر سعيد بن العاص القائم بالشمال الغربى منه تشهد بذلك وتدل عليه . وكان هذا القصر مبنيًّا بالحجارة المطلية بالجص من الداخل والخارج بناء أبقت متانته من آثاره ما نرى منه اليوم . وكانت تحيط به بساتين غناء ورياض ممرعة ونعمة وارفة الظل ؛ حتى لقد قال أبو قَطيفَة الشاعر يصفه ويفضّله على قصور دمشق وبساتينها ورياضها :

القصرُ فالنخل فالجمّاء بينهمــا ... أشهى إلى النفس من أبواب جَيْرُون

وجيرون : دمشق . وسعيد بن العاص صاحب القصر كان أميراً للمدينة فى عهد معاوية . فهذا القصر يرجع إذاً إلى أكثر من ثلاثمائة وألف من السنين . وقد جعله سعيد موضع رياضته ونزهته وكان يدعو إليه أصحابه وندماءه ينعمون فيه بالحياة كخير ما ينعم إنسان بين الرياض الفيحاء والبساتين الغنّاء ومفاتن الفن المختلفة التى نافس بها أجمل قصور الشام .

وإنما كان قصر سعيد واحداً من قصور العقيق الكثيرة التى جعلها أصحابها مرابع تَرَف وجنات نعيم . كان به قصر عُروة بن الزبير على مقربة من بئره ، وقصر سُكَيْنَة بنت الحسن وكان يسمى الزينبى ، وقصر مروان ابن الحكم ، وقصر عبد الله بن عامر ، وقصر جعفر بن سليمان ، وقصر إبراهيم بن هشام ، وغيرها من القصور الكثيرة القائمة بين بساتينه وآباره ومزارعه وَجمّاواته . وجمّاوات العقيق مرتفعات سود كبار قائمة على شفيره الغربى دون الجبال وفوق الهضاب . وأقرب هذه الجمّاوات إلى المدينة جمّاء تُضَارِع القريبة من بئر عُروة . وتجاورها جمّاء أم خالد وتكاد تتصل بها من ناحية الشمال . أما جماء عاقل فتبعدُ عنها إلى الشمال كذلك ، وهى أقرب الجمّاوات إلى قصر سعيد بن العاص .

بدأنا الحديث عن ظاهر المدينة من جنوبها حيث تقع قُباء فى سفح عَيْر ، وتناولنا الشرق موقع حرة واقم ، والغرب موقع حرة الوبرة ووادى العقيق . ونحن فى غنى عن أن نتناول بالقول شمال المدينة ، فشمالها أُحد يفصل بينها وبينه وادى قناة ، وقد تحدثنا عنهما حين حديثنا عن قبر حمزة . وهذا التحديد لظاهر المدينة يرسم أمامنا صورة منها ومما يحيط بها من نواحيها الأربع ، ويفسر لنا الأحاديث المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى تحريمها كحرمة مكة . فقد روى أنه قال : « إن إبراهيم حَرَّم مكة ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة » . أو قال : « إن إبراهيم حرّم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لا بَتَيْها لا تقطع عضاهها ولا يُصاد صيدها » . أو قال : « إنى أحرّم ما بين جبليها مثل ما حرّم إبراهيم مكة » .

وجبلا المدينة المقصودان هنا هما : عَيْرٌ وأُحد ، أو عير وثور الواقع وراء أُحد ليدخل أُحد فى الحرم . ولابتا المدينة هما الحرّتان : واقم والوبرة . ولسنا نقف بطبيعة بحثنا عند مناقشة ما قيل فى إثبات هذه الأحاديث أو نفيها ، وفى حرمة المدينة أو عدم حرمتها ، ولا نريد أن نضع هذه الأحاديث إلى جانب خطاب النبى على أثر فتح مكة إذ قال : « إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة » لنقول إن حرمة مكة مرجعها إلى البيت العتيق . إنما أردنا أن نظهر القارئ على ما يراد بجبلى المدينة ولابتَيْها لتكمل أمامه صورتها ، وليرى أن العقيق الواقع أمام لابة الوبرة يقع بعد ظاهر المدينة على التحديد الذى اخترناه حين جعلنا الخندق الحد الفاصل بينها وبين ظاهرها .

هَبْ هذه الأحاديث صحت وكان رسول الله قد حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، أفيجدر بنا أن نستنبط من ذلك أن الذين شيدوا قصورهم بالعقيق إنما تخطوا حرم المدينة ليكون لهم من الحرية ما ليس للمقيم داخل هذا الحرم ؟ أم أن الأمر لا شىء من ذلك فيه ، وإنما بنى ذوو الثراء بالعقيق لجودة جوه وعذوبة مائه وجمال مناظره ولما يوحيه ذلك إلى النفس من معانى النعمة فى الحياة ؟ أم أن الأمر لم يكن هذا ولا ذاك وإنما بنى بالعقيق من بنى لأن المدينة انفسحت رقعتها وكثر أهلها حين كانت عاصمة الإسلام وحاملة لوائه ، فلم يكن بدٌّ من تجاوز حدودها لمن أراد الابتعاد عن ضجة الحاضرة وجلبة الحياة فيها ؟

لا أخالنا قادرين على أن نقطع أى هذه الأسباب الصحيح . وربما كانت كلها قد تضافرت فأخرجت الناس من حرم المدينة إلى وادى العقيق . فلما انحلّت الحضارة الإسلامية ولم تبق المدينة عاصمة الإسلام وحاملة لوائه عاد العقيق فأقفرت عرصاته ، وكثرت جَمّاواته ، واضطرب مسيل الماء فيه ، فارتد اليوم قفراً كما كان قبل أن يعطيه رسول الله بلال بن الحارث المزنى ، ويوم كانت يثرب موضع نزاع دائم ودسائس متصلة بين الأوس والخزرج واليهود .

أرجأنا الحديث عن حياة رسول الله وأصحابه بالمدينة حين حديثنا عن آثارها حتى نُتم الحديث عن ظاهرها . أما وقد أتممناه فحقّ علينا أن نصف طرفاً من هذه الحياة الإسلامية الأولى فى عاصمة الإسلام . ولعلك صورت لنفسك طرفاً من هذه الحياة بما قصصنا عليك من أمر المدينة وطبيعتها وآثارها وظاهرها . فقد بلغ رسول الله المدينة أول هجرته إليها وأهلُها من الأوس والخزرج مشوقون لحياة روحية جديدة تسمو بهم على الأصنام وعبادتها مما كان اليهود المقيمون بين أظهرهم يعيبونهم عليه ، وتقيم لمدينتهم وحدةً طالما جنت عليها المنازعات والحرب الداخلية جناية دعتهم إلى التفكير فى إقامة رجل منهم أميراً عليهم جميعاً . فلما جاء النبى إليهم وأقام بين أظهرهم والتف حوله من الأوس والخزرج كثيرون بدأت الحياة فى المدينة تتجه اتجاهاً جديداً ، وبدأ الأوس والخزرج الذين أقاموا على شركهم ينظرون إلى هذا التطور الجديد بعين الريبة والحذر ، وينسون لذلك ما كان بينهم وبين اليهود من عداوة وبغضاء . وبدأ رسول الله حياته السياسية فى المدينة ، وجعل سياسته فيها سياسة قوة لا يتطرق إليها الضعف ، وإن لم تشبها شوائب العدوان على الغير . وسياسة القوة هذه كانت مقدّمة حياة الجهاد الذى اندفع إليه المسلمون من يومئذ إلى أن بدأت نُذُر الانحلال أيام الدولة العباسية . وأنت إذ تعود بذاكرتك إلى ما قصصنا من أمر الآثار بالمدينة وبظاهرها ترى هذا المعنى واضحاً جلياً . ذلك حديث المساجد والآطام والقصور ، بل هو حديث الجبال والآبار والعيون . لم أذكر مسجد السبق بين المساجد التى تحدثت عنها لأنى لم أقف له على أثر . لكن الروايات تجرى بأن هذا المسجد أقيم شاهداً على المكان الذى اعتاد المسلمون الاستباق فى ميدانه الفسيح رجالا وعلى الجياد ، وفى هذا مظهر قوة وإقدام . ومسجد القبلتين يذكر حادثاً روحياً استقلّ به المسلمون عن غيرهم من أهل الأديان التى تتجه إلى بيت المقدس ، ويحدّث لذلك عن استهانة المسلمين باليهود ودسائسهم التى جعلت أهل المدينة قبل هجرة الرسول إليهم يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب . ومسجد الفتح ومسجد الإجابة والمساجد

الواقعة على مقربة من أحد والقائمة حول الخندق تحدّث كلها عن غزوات اشتبك المسلمون فيها واستهانوا بالموت أثناءها ثم كانوا أبداً الغالبين. وكثير من الآبار يحدث عن إيثار المسلم إخوانه على نفسه ؛ فبئر رومة اشتراها عثمان ابن عفان بعشرين ألف درهم لتكون خالصة للمسلمين ولم يكن له منها إلا حظ رجل منهم . والعيون التي ضُمت للعين الزرقاء كانت كلها مملوكة لأفراد من المسلمين ، فنزل كثيرون منهم عن مالهم لله وفى سبيل الله . وما كان لنفس تعرف الجهاد فى سبيل الله وتقبل عليه راضية مرضية أن تعرف الأثَرة أو ترضاها ، أو أن تعرف الضعف فتذل له . والقوة والإيثار لا يجتمعان فى نفس ما يجتمعان فى نفس المجاهد . وليس يسمو أحد إلى ما يسمو إليه المجاهد المؤثِر من أمثال الحياة العليا . فإذا بلغ المؤثِر من إيثاره أن نسى نفسه فى إخوانه وأن أحب إخوانه فى الله لم تغلبه قوة فى الأرض حيّاً ، فإن مات بقى من ذكر جهاده ما يكفل لمثله الأعلى النصر لا محالة .

هذا اللون من حياة المسلمين فى المدينة وما كان لهم فى رسول الله من أسوة حسنة هو الذى طوع للمسلمين فتح الأمصار وحكم الأمم ونشر لواء إيمانهم فى الخافقين . وفى ذلك الدليل على أن الحياة فكرة أولا وآخراً ، وأن قوة المرء وضعفه ، كقوة الأمة وضعفها ، رهن بقوة فكرته فى الحياة أو ضعفها . فمن آثر الحياة خوفاً من الموت ، راضياً من الحياة بما تريد الحياة منه لا بما يريده هو منها يبلغه أو يموت دونه ، فهو ضعيف وإن بلغ من الجاه والسلطان أعظم مبلغ . ومن غرّته الحياة بزينتها فخدعته عن المثل الأعلى من الجهاد فى سبيل الله ، فقد ذل للحياة ابتغاء عرض زائل وأوهام خاطئة كاذبة . فأما من أراد الحياة لمثل أعلى يبتغى تحقيقه لخير إخوانه فهو سيّد الحياة العزيز الجناب ، وإن كان بين الناس الفقير الضعيف الذى يُحاربه الناس .

هذه كانت حياة المسلمين الأولين فى المدينة ، وبهذا تُحدث آثارها ويشهد ظاهرها . فلما نسى المسلمون ما لله من المثل الأعلى وعكفوا على أنعم

الحياة وتوهموها الغاية من الحياة ، بدأت نذر الانحلال يدب دبيبها فيهم وتسرى جراثيمها إليهم . وغرّهم ما فعل أسلافهم وما أورثوهم من قوة ، كما يغتر القوى العضل بقوة عضله فيُقبِل على اللهو مستهيناً بالنُّذُر ، ناسياً أن لليوم غدَه ، وأن للشباب كهولةً وشيباً . ولو أن المسلمين فطنوا إلى النُّذُر من أول عهد الانحلال لأغنتهم ولما أصابهم من الهوان ما أورثوه أبناءهم ، فما يزالون حتى اليوم يَصْلَوْن من أثره ذلة تَرْهَقُهم وتجعلهم أسوأ عنوان لدين هو دين الكمال والمثل الأعلى .

إن يرد المسلمون خروجاً من هذا الهوان فليعيدوا سيرة السلف الأولين فى القوة على الحياة والإيثار على النفس وفى البر والتقوى وليذكروا قوله تعالى : «لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» ؛ وقوله جل شأنه : «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ ٱللهِ ، فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» .

إنهم إن فعلوا فآثروا على أنفسهم ، وذكروا الجهاد فى سبيل الله ، وتحابوا بنور الله بينهم ، واتخذوا من مثل السلف الأول أسوتهم ، غفر الله لهم وغيَّر ما بهم ، وأنزلهم مكان العزة ، ورفع عنهم مقته . تلك سنته فى الكون . فمن تدبرها فاز فى الآخرة والأولى ، ورفعه الله مكاناً علّيا .

زيارة الوداع

فى غد نبرح المدينة لأزور بدراً وشهداءها ولأدرك الباخرة التى تُبحر من يَنْبُع إلى السويس . فغدٌ الجمعة ، والباخرة تبحر ظهر الأحد . ولست آمن إن بقيت إلى صبح السبت بالمدينة أن يبغتنى الوقت فتفوتنى زيارة بدر وأنا عليها جِدُّ حريص . كفى أن فاتتنى زيارة خَيْبر بعد إذ يسر لى الملك ابن السعود الوسيلة إليها . فقد دفع إلىّ كتاباً برسم أمير المدينة ليعاوننى فى سلوك طريقها وإلى الوقوف بها . وأظهر لى الأمير عبد العزيز بن إبراهيم رغبته فى المعاونة ، لكنه ذكر أن الطريق إلى خيبر ليس ممهداً كله للسيارة ، وأن الإنسان يبلغ بها منتصفه فى يوم ، ولابد له بعد ذلك من امتطاء رِكَاب يومين كاملين ، والعود يقتضينى مثل هذه المشقة وهذا الوقت . أما ولم يكن بين بلوغى المدينة وإبحار « زمزم » من ينبع غير اثنى عشر يوماً يقضى الإنسان اثنين منها فى الذهاب من المدينة إلى مرفأ السفر ، أما وآثار المدينة وما بظاهرها يقتضى الإنسان أسبوعاً كاملا للطواف به والوقوف عنده ، فلا مفرّ من إرجاء زيارة خيبر إلى فرصة أخرى أرجو ألا تضَنّ الأقدار علىّ بها .

غدٌ الجمعة ، فلأجعل زيارة الوداع للحجرة النبوية عقب صلاة الجمعة ، ولأبْرَح المدينة بعد صلاة العصر ، ولأؤدِّ سائر اليوم بالمدينة واجب الشكر لأميرها عبد العزيز بن إبراهيم ، ولمضيفى الشيخ عبد العزيز الخريجى وأخيه الشيخ محمد ، وللكثيرين من أهل المدينة وشبابها الذين كانوا اللطف بى طول مُقامى بينهم ، والذين بذلوا من معاونتى فيما سألتهم المعاونة فيه غاية ما يستطاع بذله . وشكرُهم حَسْبِى ، فهو كل ما أستطيع أن أجزيهم به عن جميل طوقوا به عنقى ولن أنساه .

وأصبحت فأعددت للرحيل متاعى . ولما دنا موعد الجمعة قصدت إلى المسجد فألفيته امتلأ بالمصلين . ولقد كنت على ثقة من أننى لن أجد بالروضة

منه مكاناً ، فالكثيرون يقصدون إليها قبل موعد الصلاة بساعات ولا يبرحونها ، ومنهم من يقصد إليها من بكرة الصباح ليؤدى فيها فرض الفجر ويظل بها إلى صلاة الجمعة . وتخيرت مكاناً قريباً من باب الرحمة ، فإذا جار يمينى رجل ممن عرفت بالمدينة ، وجار يسارى حاجٌ مغربى من أبناء مراكش . عرفت من جار اليمين أنه يتردد على المدينة إذ يجيء إليها مرة كل عام أو كل عامين فى أشهر الحج . وقد حيانى الرجل بتحية الإسلام بعد أن أتممت ركعتى السنة أول مقدمى ، ثم جلسنا جميعاً ننتظر الأذان لصلاة الجمعة كى نؤدى فرضها مع الإمام .

وذكرت ، وأنا بمجلسى أنتظر الأذان والصلاة ، أول جمعة صليتها فى المسجد الحرام بمكة . ذكرت عشرات الألوف الذين أحاطوا بالكعبة من جهاتها الأربع ، وما أثارته فى نفسى موازنتهم بالمسلمين الأولين الذين جاءوا مع رسول الله فى حِجة الوداع ، وما بدا لى من فرق عظيم بين هؤلاء وأولئك فى تصوُّر الحياة . كان المسلمون الأولون يُقبلون على صلاة الجماعة يدعوهم إليها روحٌ مبعثه الإيمان ، ونظامٌ قِوامه الأخوة . وكانت الحياة لذلك عندهم فكرةً يستهينون فى سبيلها بالموت ويرونه استشهاداً فى سبيل الله . وكانوا يدركون إدراكاً عميقاً معنى كلمتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية مذ وجدت : « الله أكبر » . وكانت صلاتهم لذلك ابتهالاً خالصاً لله جل شأنه وتوجُّها إليه ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ويسمو بالنفس على غرور الحياة . أما اليوم فقد غاض الروح من هذا المجتمع وصار الإيمان فيه تقليداً ، يكتفى صاحبه بأن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن منها بشىء ، ثم يحسب بعد ذلك أنه أرضى الله ورسوله . فإذا طمع فى مزيد من الرضا خُيِّل إليه أنه بالغ من ذلك مطمعه بألوان من الزلفى لا تتصل بالعمل الصالح فى شىء ، وليس فيها من حب المؤمن إخوانه وإيثاره إياهم على نفسه كثير ولا قليل . بل إن المصلِّين اليوم لا يفكر أحدهم فى أخيه ولا يحب إلا نفسه . وهو إنما يحضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير فى المؤمنين ممن حوله . وهذه

الأثَرَةُ التى فتكت بالجماعات الإسلامية هى التى جعلتها تتعلق بالحياة لذاتها ، ولا تعرف المثل الأعلى فيها وتُذعن لذلك خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة فى الحياة . وهذه الأثَرة هى التى أبقتها فى غيابات الجهل ؛ لأن كبراءها وسادتها أمسكتهم الأثَرة فى دنيا مراتب الحياة فحجبوا عن إخوانهم نور العلم وما يدعو إليه العلم من إيمان حق ، وبذلك أضلوهم السبيل .

ذكرت ما ساورنى من هذا التفكير بحرم مكة وأنا بمجلسى من المسجد النبوى أنتظر الأذان والصلاة ، وأجلت طرفى فى هذه الجموع الجالسة حولى فحزّ مرْآها فى نفسى . فهذه الجموع تمثل العالم الإسلامى بمئات ملايينه المنتشرة فى أطراف العالم كله ، وهى على ضخامة عددها كمية مهملة أو فى حكم المهملة . مصر . بلاد المغرب كلها . بلاد العرب . العراق . مسلمو الهند . مسلمو الملايا . مسلمو الصين . المسلمون فى أوربا . أى أثر لهؤلاء جميعًا فى عالمنا الحاضر ؟! . أرقام ضخمة لاتعدو أن تكون أرقامًا . واليهود لايزيدون فى العالم كله على خمسة عشر مليونًا . مع ذلك يلتفت العالم إذا ذكروا يريد أن يعرف مايريدون . تهتز لمطالبهم جوانب البرلمان البريطانى ،وأرجاء عالم المال فى أمريكا ، وتقوم عصبة الأمم لمطالبهم وتقعد . وكان العالم أشد تلفُّتا لما يريده المسلمون فى عهدهم الأول حين لم يكونوا يبلغون ثلاثةالملايين عدًّا . أما اليوم فمئات الملايين من المسلمين أرقام لا يقام لها وزن ولا يحسب لها حساب . وإذا قيل العالم الإسلامى سخر الناس وقالوا : ما يزالون متعصِّبين ، يحسبون الأديان وحدةً تُقيم أمة أو أممًا . فإذا قيل : شعب صهيون أو قيل بنو إسرائيل ، سمعت الأصداء تتجاوب من أنحاء العالم : شعبٌ مضطهد يجب على العالم أن يبحث له عن وطن يلجأ إليه احتماء من مضطهديه . أى شىء يحز فى كبد المسلم ما يحزّ هذا الجمع الذى أراه أمامى فى المسجد النبوى يمثل المسلمين جميعًا وهم يعانون الذلة والهوان صابرين ! وقد كان المسلمون الذين يحضرون الصلاة فى هذا المسجد أيام بساطته الأولى حين كان قائمًا من اللّبِن وجذوع النخل يهزون العالم كله ، لفتةٌ منهم تُزعزع

العروش ، فإذا تنادوا « الله أكبر » تفزعت الأفلاك والتفت الدهر .

أذن المؤذن للصلاة وخطب الخطيب هناك عند محراب عثمان ، فلم نسمع مما قال كلمة لبعدنا عنه ، ولأن الروضة تحجب ما بيننا وبينه . وصلينا الجمعة وصلى السنّة من شاء ، وبدأ الناس ينصرفون من المسجد . أقمت مكانى ، حتى إذ خلت أروقة المسجد أو كادت ذهبت أؤدى للحجرة النبوية ولقبر الرسول زيارة الوداع ووقفت أمام شباك التوبة ورفعت صوتى قائلا : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . أشهد أن نبى الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم النصر لدينه ، وأنه وفىّ بوعده وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » . ومكثت هنيهة واقفًا أحدّق فى هذه الحجرة ، وأذكر من تحوى قبورها رُفاتَهم : محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأبا بكر الصديق صفى النبى وخليله ، وعمر الفاروق من أعز الله به الإسلام يوم أسلم ، ومن نشر لواء الإسلام فى الخافقين أيام خلافته ، وأذكر ما حدث بعدهم بين المسلمين من حروب أهلية وما تطورت إليه العقلية الإسلامية بعد ذلك حتى هوت إلى دَرَك الانحلال فأصبحت مقلّدة تنفر من الاجتهاد وتحاربه ، أثِرَةً لا تعرف أخوة المؤمنين وتنزوى لذلك أمام كل قوة . وإنى لأقلب فى صحف نفسى وأنا حسير الطرف كسير القلب حياء وخجلا إذ انفجرت شفتاى عن هذه النجوى :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! أشهد أنك رسول الله الواحد الأحد حقًا وصدقًا ، وأنه بعثك للناس كافة بالهدى ودين الحق . هديتهم بأمره ألا يعبدوا إلا إياه مخلصين له الدين حُنفاء ، وألا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله . سمّاك ربك عبده قبل أن يسميك رسوله ، حتى لا يضل قوم فيحرفوا كلام الله عن مواضعه فيؤلهّوك أو يعبدوك كما ألّه رسل من قبلك وعبدوا ، وبلّغتنا من وحى ربك أنك بشرٌ مثلنا يوحى إليك إنما إلهنا إله واحد ، ليعلم الناس أن الله يصطفى لرسالاته من يشاء من عباده ، فيظل من اصطفاه عبده وإن فضله على الناس إذ جعل بعضهم فوق بعض درجات .

والله وحده ، جل شأنه لا شريك له هو الذى تجب على الناس جميعاً عبادته . لذلك خلقهم ، وإليه مرجعهم ، وعليه حسابهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

«أشهد أنك رسول الله بعثك بالهدى ودين الحق . علّمتنا بأمره ووحيه أن عبادة الله ليست خضوعاً ، إنما هى إسلام لله عن إيمان صادق ابتغاء رضاه عن صالح ما نعمل ، والتماساً لعفوه عما نضل فيه السبيل ، أو تحدثنا به النفس الأمّارة بالسوء . فمن أسلم لدعوتك مذعناً غير مؤمن لم يدرك ما تدعونا إليه ، ومن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك الذين رضى الله عنهم ، ورضوا عنه والذين يخشون ربهم بالغداة والعشى ، فإذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا رأوا آياته زادتهم إيماناً ، ينظرون فى خلقه يريدون أن يعرفوا من طريق العلم سنته ، ويسعون فى مناكب الأرض ليزدادوا علماً ، وليزدادوا إيماناً .

« أشهد أنك رسول الله حقاً وصدقاً . علمتنا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن المؤمنين إخوة حق عليهم أن يتحابوا بنور الله بينهم ، وأن نور وجهه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة هادينا إلى البر والرضا ، وأن الحياة محبّة أساسها الإيثار على النفس ، وقوامها إنكار الذات ، وغرضها المثل الأعلى ، ووسيلتها الأسوة الحسنة ، خير رداء فيها الصبر ، وخير سلاح فيها العلم ، وخير شفيع فيها الصدق ، وخير كنز فيها الثقة بالنفس ، وخير أنيس فيها ذكر الله .

« أشهد أنك رسول الله القوىُّ الأمين . علّمتنا المثل الأعلى لله ، وأن الجهاد فى سبيل الله سبيلنا إليه ، وأن الاستهانة بالموت من خلق الجهاد ، وأن ما فى الحياة مما دون المثل الأعلى لن يبلغ أن يصد عنه أو يقف دونه ، وأن الخوالف والقواعد دون الجهاد هم الذين يبتغون بإيمانهم ثمناً قليلا ، ويؤثرون العاجلة وإن هانت ، ويرضون من أجلها أن يبيعوا آخرتهم بدنياهم . أولئك نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أما الذين جاهدوا فى سبيله فقتلوا فليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون .

« أشهد أنك رسول الله أوحى إليك الكتاب بالحق ، لا ريب فيه هدى للمتقين . فيه آيات بيِّنات يتذَّكر بها الذين آمنوا وتزيدهم إيمانًا ، هو يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، فيه شفاء ونور للذين آمنوا ، يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل الذين ارتابوا بالتى هى أحسن ، وينذر الظالمين والمعاندين عذابًا عظيمًا . تزله عليك ربك بالحق ، فبلغت رسالته ، وكنت فيها الأسوة الحسنة للذين يريدون وجه ربهم مخلصين .

« وأشهد أن لا إله إلا الله لا نشرك به شيئًا ولا نعبد من دونه أحداً ، محمداً رسول الله بلغ رسالات ربه وجاهد فى سبيله ، حتى أتم الله النصر لدينه ، صلى الله عليه وسلم .

« السلام عليك يا رسول الله ! السلام عليك يا أبا بكر ! السلام عليك يا عمر ! » .

أتممت نجواى وبقيت مكانى مأخوذاً يهتز قلبى وتضطرب مشاعرى ويضىء بصيرتى نور أحسه فى أعماق نفسى فأرانى أسمو فوق ما ألفت ، وأذكر موقفى من حراء ويتمثل أمامى كرة أخرى يوم الوحى الأول فى سناه وبهائه ، ثم أذكر موقفى من غار ثور وتتمثل لى هجرة النبى إلى هذه المدينة التى أقف الآن بها أمام قبره . وتمثلت أمامى غزواته ، وحياته ، وأصحابه ، كأنما تتتابع هذه المواقف جميعًا أمام باصرتى مليئة بالحياة ، مضيئة بالإيمان ، وبما يدفع الإيمان إليه من جهاد فى سبيله . وانقضت فترة آن للنفس فيها أن تهدأ ، فانسحبت من موقفى أمام الحجرة فى إكبار وإجلال ، وسرت خافض الرأس حتى بلغت منبر رسول الله فى الروضة ، فصليت ركعتين واستغفرت الله لى وللمؤمنين ، وانصرفت من المسجد راضيًا عن نفسى ، طامعًا فى مغفرة الغفور الرحيم ذنبى ، هو غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب .

وعدت إلى الدار وتناولت طعامى وأتممت عدة سفرى ، ثم ذهبت إلى التكية المصرية أؤدى لأصحابى المصريين فيها وأؤدى لناظرها حق الشكر للطفهم

كلطف أهل المدينة بى . وسرنى ما ذكروا من قيام طائفة من بنى وطنى فى هذا الوقت الذى أزمعت القيام فيه لقضاء ليلهم بالمسيجيد مثلى . فلما تنصف الوقت بين العصر والمغرب كنت بالدار أودع أهلها وأودع الذين جاءوا لوداعى من أهل هذه المدينة المباركة ، مدينة النبى العربى ، وأرجو الله لى ولهم أن يجمعنا بها كرة أخرى عما قريب . وسبقنا البكس بعد أن حمل متاعنا ، وأقلتنى السيارة وأقلت أصحابى معى ،وانطلقت تبتغى المُسَيْجيد لتنطلق منها بكرة الصباح فى طريق بدر .

وداعًا مدينة رسول الله ! وداعًا قبر النبى الكريم ! وهبْ لى ربِّ من لدن برك ورحمتك أن أعود إلى هذه المدينة فأزور هذه الحجرة المباركة أذكر فيها أشد الناس حبًّا لهدى الناس ، وأشهدك على حبى إياه أكثر من حبى نفسى . لقد اصطفيته وفضلته وجعلته أسوتنا إلى رضاك وعطفك ، فهب لنا من فضلك ما يسمو بنفوسنا إلى هذه الأسوة ، وهيئ لنا ربنا من أمرنا رشدا ! لك العتبى حتّى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الكتاب السادس

أوبة الرضا

بدر وشهداؤها

خرجنا إذاً من المدينة عصر الجمعة ، الحادى عشر من شهر المحرم ، الثالث من شهر إبريل ، نقصد المسيجيد لقضاء الليل « بأوتيلها » والقيام بكرة الصباح إلى بدر . لقد فاتنى السير فى أثر الرسول إلى خيبر ، ولم يكن فى المقدور أن أذهب إلى حيث ذهبت جيوش المسلمين بأمره إلى مؤتة وإلى تبوك ما دامت سكة الحجاز الحديدية معطلة ، وسير القوافل إلى هذه الجهات غير منتظم ، وصحبة القوافل التى تطرد أحياناً مغامرة لا أطيقها . فلأختم جولاتى خلال الحجاز بزيارة بدر والوقوف على آثارها وعلى قبور شهدائها . فبدر هى الغزوة الأولى فى الإسلام ، التقى فيها الإيمان والشرك ، فنصر الله الإيمان بجنده وعززه بأيده ، ووقف فيها رسول الله يستنجز ربه النصر الذى وعده ويقول فى دعاء وابتهال : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . فلما أتم الله النصر للمسلمين فيها على خصومهم كان ذلك الفتح الأول الذى استقر به الأمر للمسلمين من بعد ، فكان مقدمة الوحدة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية ، ومقدمة الإمبراطورية الإسلامية فى العالم كله . !

ومررنا إذ خرجنا من المدينة ببئر عروة فملأت من مائها (ترامسى) ، وافتقدت فى هذه اللحظة الخرائط التى أهداها إلىّ المستر فلبى فإذا بى نسيتها بدار مضيفى ففكرت فى العودة لأحضرها . لكن صاحبى آثر أن نبقى حيث نحن وأن يعود حسن بالسيارة فيردها على . وبقينا نتفيأ ظل الجبل بظاهر المدينة وننعم من هواء الصحراء الجاف الرقيق بما كنت فى حاجة إليه أشد الحاجة بعد أن قضينا بالمدينة عشرة أيام كاملة .

وعاد حسن بالخرائط وعدنا إلى انطلاقنا فبلغنا المسيجيد بعد العشاء، فألفينا جماعة من مواطنينا قد سبقونا إليها . أولئك أعضاء البعثة الطبية المصرية الذين

غادروا المدينة يبتغون يَنْبع ليدركوا الباخرة المصرية الأخيرة العائدة إلى أرض الوطن . وقضينا شطراً من الليل أتحدث وإياهم عن الحج والحجاز . وسألت بعضهم : ألا يـ يدون أن يروا بدرًا معى ؟ وكان جوابهم أن ابتسموا معتذرين . قال أحدهم : « لو أن الطريق إلى بدر كان معبداً لفكرنا فى الاستجابة إلى صحبتك ! . أما وأنت أدنى أن تكون مكتشفًا فى ذهابك إليها فـاْ عـذرنا . وسنقرأ يومًا ما تكتبه عنها ، فيكون لك ثواب المشقة ولنا متاع القراءة ، وسنجد فى وصفك بدرا غنى عن الضرب فى تيهاء الطريق إليها » .

إذ ذاك ناجيت نفسى : أين نحن اليوم من المسلمين الأولين ! أولئك كانوا يذهبون إلى بدر وغير بدر لا تصدهم مشقة ولا يقعد بهم تكاسل . وكانوا يذهبون لا يعنيهم أواجههم الموت فواجهوه ، أم أقاموا حين موسم بدر — وكانت من مواسم العرب — فنحروا الجـُزُر وسقوا الخمر وعزفت عليهم القـيان . أما نحن فنرغب عن بدر وزيارتها حـَذر مشقة الطريق ، وإن ذهبنا إليها فى السيارة ، لأن بدرا لم تبق موسما ، ولأن الكتب لا تذكر لزيارة شهداء بدر والسلام عليهم ، إدكارًا لعبرتهم وتأسيا بمثلهم ، ثوابًا نقتضيه كما يقتضى المرابى ربا ماله . والفرق فى ذلك بيننا وبين السلف الأول أنهم كانوا ينفقون من جهدهم ويبذلون حياتهم ابتغاء رضا ربهم يرجون ثوابه ويخشون عقابه ، وعند الله حسن الثواب ، وأننا لا نبذل جهداً ، ونضن بحياتنا إلا على أهوائنا ، فإذا دعينا لخير أو بر اقتضينا المثوبة عنه معجلة ، أو اقتضينا بهذه المثوبة على الله صكًّا يسجله عالم فى كتاب من كتبه ، نزعم أنه يكون حجتنا على الله يوم الحساب .

وقضينا بفندق المسيجيد ليلة كليلتنا بفندق آبار بنى حـَصَّان ، فلما تنفس الصبح قمنا وقام أصحابنا ، فأعاد كل متاعه إلى سيارته . وذرّ قرن الشمس ونحن على الطريق إلى الحمراء . والطريق يجرى فى واد فسيح تنبت فيه بين حين وحين أغراس من أشجار شتّى . تلك خيوف منثورة بين المدينة وينبع على طريق بدر . (وقد تواضع القوم فى بلاد العرب اليوم على أن الخيف

مجموع بساتين تأخذ وجبتها من الماء كل أربع وعشرين ساعة ثم يقطع الماء عنها ليصرف إلى خيف غيرها . والخيف فيما تروى المعجمات : ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء) . ويمر الإنسان فى ذهابه إلى الحمراء بخيف الحزامى وأم ديان .

ومن الحمراء يسير الذين يقصدون ينبع فى طريق عُبِّد للسيارات يؤدى إلى منطقة نقب الفار ، وقد سمى الطريق باسمها . أما ونحن نقصد بدراً فلنا طريق آخر . أين هو ؟ وكيف يتجه ؟ سألت الجندى الدليل الذى أوفده أمير المدينة معنا فلم يكن أكثر علماً بالأمر منى . لا سبيل إذاً إلا أن نسأل أهل المنطقة . وفى أمثالنا المصرية : « من سأل لا يضل » . وسألنا صغيراً هناك هدانا طريقاً لم نلبث حين سرنا فيه أن رأينا من موج رماله ما ذكرنا بليلتنا بين بئر الشيخ وآبار بنى حصان . ولم يكذبنا حدسنا ، فسرعان ما غاصت السيارة واضطررنا إلى النزول منها وإلى التعاون على دفعها . وفيما نفعل مر بنا بدوى خاطبه الجندى النجدى فى لهجة الآمر فجاء يعاوننا ، ثم ذكر لنا أن هذه الطريق تؤدى إلى بدر حقاً ولكنها طريق أفسدها السيل ولم تمر بها طول العام سيارة واحدة .

نبتت فى هذه الرمال أشجار وحشائش دلتنا على أن الماء منها قريب . لكن ما عسى يجدى الماء واقترابه إذا لم يستعن به الإنسان على حاجاته ، ومنها تعبيد الطرق ! . على أن للحكومة العذر ألا تعبد طريقاً قلّ من يمر به . وإنا لنتبادل هذه الملاحظات ونتعاون على دفع السيارة إذ مر بدوى يتبع بعيراً له . فلما علم أنا نقصد بدرًا بدت على وجهه الأشعث شبهة ابتسامة ، ثم قال فى لهجة غريبة قولا لم أفهم إلا قليلا منه ، فسره أصحابى بأنا نغامر باختيار هذا الطريق للسيارة وللبكس . ووقعت عين بعيره على نبات فى الأرض فأقام يرعاه ، ووقف البدوى فى جانبه صامتاً لا يشترك فى معاونتنا ولا يدفع بعيره ليسير . وعجبت لأمره ، ورأى صاحبى عجبى ، فابتسم وقال : وما تعجبك ومرعى بعيره أثمن ما فى الحياة عنده ! فهو يحمل عليه الحاج ومتاعهم ويرتزق من حمله ، وهو يقف إلى جانبه كلما وجد البعير مرعى ينال منه رزقه . وأمسك صاحبى هنيهة

ثم أردف : تلك حياة البادية !

« تلك حياة البادية » ! أثارت هذه الكلمة فى نفسى صورة العيش فى هذه البلاد منذ القدم ، وصورة العيش فى البادية حيثما وجدت من أرض الله . ولطالما رأيت البدو فى مصر يجيئون إليها من الشام أو من المغرب ويرتحلون عنها أو يقيمون بها ولا تتغير فى الحالين عاداتهم ما بقى الارتحال فى طبعهم . فالجلوس فى خيامهم إذا أقاموا ، والارتحال وراء دوابهم إذا تحملوا ، والحديث المتصل ما اجتمعوا ، يقص كل أثناءه من مبالغات الخيال ما لا يجد فى الطبيعة المترامية أمامه حدًّا . أليست الطبيعة المترامية مصدر الإلهام الوجدانى للمهذب ، وهى مصدر المبالغة الحمقاء للجاهل الذى يرى بعين خياله من الجن فى أطوائها ما لا تقع عليه عين بصير ! . وفيم عسى أن يفكر هذا البدوى الواقف الآن إلى جوارنا إذ يقضى الأيام وحيداً مع بعيره ثم لا يجد من يخاطبه إلا أن يلقى إنساناً مصادفة كما لقينا ؟ إنه لا ريب يدع لهواجس خياله العنان تسعده حيناً فتمد أمامه حبال الأمل ، وتشقيه آخر فتضيق عليه نطاق اليأس ، ثم لا يجد متنفساً ليأسه ولا لأمله إلا فى مناجاة نفسه والتحدث فى خياله إلى من لا يراهم من أحبته وأعدائه ، وذلك هو الشعر عند أهل البادية الأقدمين ، وهو هذه المقاطيع التى سمعت منها بالطائف الشىء الكثير ؛ والتى تصور النظم الشعرى عند أهل هذا الجيل فى شبه الجزيرة .

وأنقذ تعاوننا السيارة من ورطتها فى الرمال كى تقف بعد قليل من مسيرها أمام أشجار متشابكة فى الطريق . وقطع أصحابى من فروع الأشجار ما أتاح لنا المرور ثم إذا بنا نقف بعد دقائق أمام غدير لا مفر للسيارة من عبوره علّها تسير بعده فى طريق خلناه مستقيماً . وخاض دليلنا مياه الغدير وجعل يتحسس قاعه ليرسم للسيارة المكان الذى تمر به . وبعد لأى قذفنا فى الأمكنة التى أشار إليها أحجاراً ترتكز عجلات السيارة عليها حين انحدارها إلى الغدير . وبذلك نجحنا فى التغلب على هذه العقبة الثالثة ، وانطلقنا نسير فوق أرض صلبة لقربها من الجبال . ويرى الدليل ما بى من سخط لهذه العقبات التى تصادفنا والتى كنت

أعزوها لجهله الطريق ، فلا يضيق ذرعاً ولا يبدو عليه التأثر ، بل يهوّن عليّ الأمر فيذكر أنا اجتزنا أشق الطريق ولم يبق أمامنا إلا أيسره . ونمر بين آن وآن بخيف من الخيوف وبخضرته الناضرة وشجره النامى ، فيهدأ لمرأى الخضرة والماء سخطى ، وأكاد أصدق الدليل وأقتنع بأن المشقة انتهت . وزاد فى أملى أن طال بالسيارة المسير دون أن يقفها موج الرمال أو أن يعترضها شجر أو غدير . وإنا لكذلك فى واد بين جبلين إذا السيارة تغوص إلى بطنها ولا يبقى لها إلى حركة من سبيل . وما أدرى لماذا استشطت غيظاً هذه المرة . وبلغ الغيظ منى أن قلت : فلنعد إلى المسيجيد أو إلى الحمراء لنسلك طريق نقب الفار إلى ينبع حتى لا تفوتنا الباخرة بعد غد . فلما رأيت الدليل ورأيت أصحابى منهمكين فى إخراج السيارة من مغرزها أمسكت عن القول وإن استمسكت بعزمى على العودة من حيث أتينا . فقد زالت الشمس ومالت إلى الغرب وما نزال نضرب فى طرق لا يعلم إلا الله أيان منتهاها . وقضى القوم ما يزيد على نصف ساعة حتى أخرجوا السيارة ، ثم التفت إلىّ الدليل فى هدوئه وقال : لم يبق من الطريق إلا أقله ، وبلوغ بدر أيسر من العودة إلى الحمراء وكنت قد سكن روعى وقد حمدت للقوم ما بذلوا من جهد شاق فلم أجادل . وانطلقنا فإذا بنا بعد قليل أمام منحدر وعر لم أدرك كيف يهبط السائق بالسيارة منه ، وكيف يتبعه صاحبه بالبكس . على أن حسناً لم يتردد . وكل ما طلبه أن نغادر السيارة وأن نهبط هذا المنحدر على أقدامنا مخافة أن ترتطم رءوسنا بسقف السيارة فيصيبنا من ذلك أذى . وفعلنا وهبط بعدنا والسيارة تكاد تنقلب به ظهراً لبطن . وعدنا وإياه ، فإذا نحن على طريق صخرى معتدل ، وإذا أمامنا أشجار عالية ما لبث حسن حين رآها أن دفع بالسيارة إلى غاية سرعتها وخلفنا البكس وراءنا . فلما طال بنا السير ولم نبلغ بدراً بدأت المخاوف تعاودنا . ووقفنا مترددين عند أشجار عالية ، ثم تخطينا خلالها فإذا ضيعة مطمئنة بينها . وسألنا أهلها عن بدر فقالوا : إنها منا قريب ، فرجوناهم إذا ما رأوا البكس أن يهدوه السبيل ، وعدنا منطلقين حتى اجتزنا منطقة الأشجار إلى البادية

الجرداء . آنذاك بدا لنا عن بعد سراب لم أحسبه شيئًا . ولكن الدليل أشار بإصبعه إلى ناحيته وقال : هذه بدر .

وهدأ حسن لعل البكس يدركنا . ورميت ببصرى إلى الناحية التى أشار الدليل إليها ألتمس فى أطواء جوها صورة غزاة بدر من المسلمين الأولين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسهم ، وألتمس كذلك جمع المشركين بجحفله وبعديده وعدته . وقلت لصاحبى : « هل ترى سلك النبى عليه السلام بجيش المؤمنين هذه الطريق التى سلكنا من المدينة إلى هنا ؟ » . وسكت صاحبى هنيهة يفكر ثم قال : « لا أدرى ! ولكننى لا أحسبهم سلكوها . وأكبر ظنى أنهم جاءوا من ناحية آبار بنى حَصان وبئر الشيخ . على أنى لا أقطع بشىء من ذلك ، بل لا أرجحه ، فالطرق فى هذه البادية بين المدينة وينبع كثيرة ، وقد اختلفت فى الأزمان الأخيرة غير مرة . فتعيين الطريق الذى سلكه رجال بدر الكبرى ليس أمراً ميسوراً » . وأجبت بعد أن فكرت مليًّا : « إنك لعلى حق . ورواية التاريخ تشهد بأن هذه المنطقة من الحجاز كانت كثيرة الثمر على عهد الرسول ، وكانت لذلك مقام قبائل كثيرة اتخذت منها حضرًا وموئلاً . وما أحسبنا نصادف اليوم فيها هذه البطون والقبائل التى كان النبى يوادعها أو يحالفها كلما خرج إلى سرية من سراياه أول عهده بالمدينة . فقد جنت الأحوال السياسية والاجتماعية على هذه البلاد وحضارتها وطرقها ، فما يكاد شىء مما بها اليوم يشبه ما كان بها فى صدر الإسلام . أما وذاك شأنها فحسبنا أننا بلغنا بدراً ، ولعلنا نجد بها للاستشهاد الحق فى سبيل الله ذكراً حسنًا » .

وبدأت منازل بدر تتضح معالمها للنظر ، فلم أصدق من أمرها ما رأيت . لقد أحيينا بمصر ذكرى بدر منذ عام ، فبدت لنا يحيطها التاريخ بهالة من جلال وإكبار . هذا إلى أنها كانت قبل الغزوة الكبرى سوقًا من أسواق العرب وموسما من مواسمهم . وفى غزوة بدر نزل قوله تعالى : «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » . ألا يجدر بمكان ذلك شأنه فى الإسلام ، وكان فى الجاهلية سوقاً وموسماً أن تهوى إليه الأفئدة وأن يجتمع الناس حوله وأن يكون مدينة ذات شأن ! فما هذه المنازل التى نرى ، وهى أدنى إلى الأكواخ منها إلى المنازل ، بل إلى الآثار الدارسة منها إلى الربوع المأهولة ! .

لم تضن الطبيعة على بدر بما يُصلحها للمقام والحضر . فالماء بها وعلى مقربة منها وفير . وهذه المنطقة بين بدر وبين المدينة تكاد تعدل منطقة الطائف خصباً . لقد مررنا بين الحمراء وبدر بخيف الحرمان ، وخيف الواسطى ، وخيف دغْبَجَ ، وخيف الحسينية ، وخيف القارعة ، والخيف الجديد ، وكلها ذات مياه ونبات وشجر ، وبها ضياع تحدث عن شىء من النعمة وخفض العيش . فما بال بدر تبدو دونها جميعاً حياة ونضارة ! . أم بلغ من إكبار الناس للغزوة الكبرى أن آثروا ترك المكان الذى حدثت به لا يقربونه ؟ ! إن يكن ذلك فلعل لهم فيه بعض العذر ؛ فللاستشهاد مهابة وقداسة . وفى طبيعة المهابة أن تباعد بيننا وبين ما تمتلئ له نفوسنا إعظاماً وإكباراً .

وناجيت نفسى : « ترى أية صورة لذكرى بدر أقامها أهل هذه البلاد حيث وقعت » . وأراد خيالى أن يتمثل هذه الصورة . لكننى ما لبثت أن ابتسمت حين ذكرت ما مررت به من المواقف الجليلة فى تاريخ الرسول مما لم يخلّد سوى التاريخ ذكرها . أم ترى أقام الخلفاء والملوك ببدْر مسجداً تحدّث قبابه ومآذنه الذاهبة فى السماء عن بعض ما حدث يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين وجمع المشركين ! إننى لا أرى أمامى قباباً ولا مآذن . فلأنتظر فى هنيهة سأرى .

استدارت السيارة حول المنازل المبعثَرة هاهنا وهناك ، فهى بذلك أدنى فى نظامها إلى الآثار الدوارس منها إلى مقام الأحياء . ولم يطل بنا السير إذ وقفنا أمام بناء متواضع قيل لنا إنه زاوية السنوسى . ولقينا هناك رجلا عرفنا أنه سادن الزاوية والموكل بأمورها جميعاً . فسأله صاحبى عن أمير بدر ،

وعلمنا منه أنه غائب عنها . وعجبت لاسم الأمير يطلق على رجل فى قرية بل ضيعة شأنها ما رأيت . لكن عجبى زال حين علمت أنه كلمة الأمير تطلق فى بلاد العرب على كل وال لمدينة أو قرية أو ضيعة . لو أن هذه التسمية طبقت فى مصر لقيل لعمدة القرية إنه أميرها ، ولشيخ العزبة إنه أميرها ، ولكان فى مصر ألوف وعشرات الألوف من الأمراء ، ولفقد هذا اللقب ما له فى نفوس المصريين اليوم من إجلال ! وهل للألقاب والأسماء قيمة إلا بقيمة مسمياتها وما تبعثه فى النفس من أثر ! .

وسألنا سادن الزاوية : « أنبغى وكيل الأمير ؟ » وأرسل فى طلبه حين أجابه أصحابى بالإيجاب ، وألح على الرسول فى استعجاله حين رأى دليلنا الجندى الوهابى ينبهه إلى واجب أمير بدر ووكيله . وفتح السادن زاوية السنوسى فتخطينا باباً فى مثل تواضع البناء وقلة ارتفاعه إلى فناء ضيق امتد بهو الزاوية عن يمين الداخل إليه . وبهو الزاوية مستطيل يكاد يبلغ طوله خمسة عشر متراً ، وعرضه خمسة أمتار ، وقد فرش بحصير قديم هو أكثر ما فى المكان تواضعاً .

وجلسنا أول ما رأينا الحصير وطلبت إلى أصحابى أن يجيئونا بالطعام . فقد أذّن العصر ولم نتناول مذ تركنا المسيجيد وجبة ، وقد أجهدنا ما لقينا فى سيرنا من مشقة مرهقة . ولا شىء ألذ من طعام السفر البسيط ولا أصح منه . ثم توضأنا بالزاوية . وقمت أدور حولها لعلى أجد فى ناحية منها ما يصلح رمزاً لها أوجه إليه عدسة « الفوتوغرافيا » . فلما لم أجد ما يصلح لذلك وقفت عند ركن أسرح الطرف منه إلى ما حولى ، وأفكر وأنا بموقفى فى هذه الزاوية ومن بناها ، وفى تصوره وأمثاله الرواقيين المسلمين للحياة ، وفى بُعْد هذا التصوُّر عما أفهم من روح الإسلام . فهذا الدين يدعو إلى عدم الاكتراث بالدنيا ومادتها ، لكنه لا يدعو إلى الرغبة عنها ، بل هو يدعو إلى السعى للرزق وإلى الجد فى العمل . يقول الله جل شأنه فى كتابه العزيز :

« وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللهُ الدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِن الدنْيَا

وَأَحْسِنْ كَمَا أَحسَنَ ٱللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ ٱلْفَسادَ فِى ٱلْأَرْضِ » .

فالذين يبتغون الدار الآخرة وينقطعون لذلك عن الحياة وما فيها ينسون نصيبهم من الدنيا ولا يسعون فى مناكب الأرض ليأكلوا من رزق الله وليحسنوا كما أحسن الله إليهم. أم ترى الذين ينقطعون إلى العبادة ويدعون إلى الفقر يبتغون بهما التطهُّر إنما يفعلون ذلك على أنه خير نصيب يناله الإنسان من الدنيا . وأن إحسان هؤلاء إلى الناس كإحسان الله إليهم إنما يكون بدعوة الناس إلى الفقر والعبادة ؟ . هذا رأى له قدره واحترامه ، لكنى أراه بعيداً عن روح الإسلام كما أفهمه من كتاب الله الكريم .

وانطلقنا نبتغى ميدان بدر وقبور شهدائها . وليس يحول بين الزاوية وهذا المكان حائل من بناء ، بل يفصل بينهما فضاء فسيح منبسط هبطت عليه هذه الساعة من موليات النهار ظلالٌ لم أُعَنِّ نفسى أكان سببها غمام حجب الشمس ، أم أن الشمس توارت وراء الآكام . وفيما نسير فى هذا الفضاء الفسيح نبتت أمام النظر أحجار قائمة فى صفوف متراصة . قال صاحبى : « هذه قبور الذين قُتِلوا هاهنا فى الموقعة التى حدثت بين الأشراف والسعوديين من عشر سنوات » . فجأنى هذا النبأ فوقفت هنيهة مشدوهاً أسائل : « أغزوةٌ فى هذا المكان بين طائفتين من المسلمين ! يا للعار! إن بدراً لحرية أن تكون حراماً على المسلمين جميعاً كحرمة مكة وكحرمة البيت العتيق . وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ولم يجدوا من يصلح بينهما ويقاتل التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فحق عليهما أن يجتنبوا القتال فى مكان له على التاريخ من الحرمة أنه أول مكان انتصر فيه الإيمان على الشرك وحقت فيه كلمة الله على الكافرين » . قلت هذا والغضب لما فعل الوهابيون والأشراف آخذٌ منى مأخذه ، فلم يجد صاحبى بُدًّا من أن يُقر رأيى ، وإن كنت أحسبه قد تولاه العجب أن يثير الأمر من حماستى ومن غضبى ما أثار .

وزاد فى عجبى وفى غضبى أنهم يطلقون على هذه الغزوة بين الأشراف والنجديين اسم غزوة بدر ، وكأنها وقعت كما وقعت بدر الكبرى بين المؤمنين

والمشركين . قال صاحبي : «هوّن عليك ! فالوهابيون الغُلاة الذين غزوا الحجاز غزوه باسم العقيدة ، مدعين أن من خالف مذهبهم مشرك كافر . أما وذاك رأيهم فلا تثريب عليهم أن يغزوا فى بدر وأن يذهبوا إلى أن الله نصرهم فيها كما نصر الرسول على أعدائه» . وصمت هنيهة ثم أردف : «ولم يكن بدٌّ أن يدافع أبناء الحجاز عن أنفسهم وقد هاجمهم خصومهم فى هذا المكان وشنوا عليهم الغارة فيه» .

وتخطينا مصعدين هضاباً تقع عندها قبور الشهداء الأولين ، شهداء بدر الكبرى . وما لبثت حين اقتربت من هذا المكان أن نسيت الوهابيين والأشراف وغزوتهم وأن هان عندى أمرها ، فقد تعلق كل حسى بهذا المكان الذى طالما رسمته من قبل أمام ذهنى ، واستيقظت فى ذاكرتى أدق التفاصيل من هذه الغزوة الأولى بين محمد وخصومه ، وكدت أرى أبا بكر وعمر وحمزة وعلياً حافّين من حول الرسول . وتابعنا تقدُّمنا وتصعيدنا حتّى كنا عند هضبة حفرت أمامها فى الأرض فجوة أحيطت بسياج من بناء . هنالك وقف القوم جميعاً حول السياج ، وقال سادن زاوية السنوسى : «هنا قبور شهداء بدر رضى الله عنهم» . وسادنا لسماع هذه الكلمات صمت رهيب شعرت من هيبته بأن قلبي يزداد خفقاً ، وأن جوارحى كلها تزداد تنبهاً ، ثم رأيتنى أحدق فى قاع الفجوة ، كأنما أرى هؤلاء الشهداء رأى العين وأقول : «السلام عليكم شهداء بدر ، رضى الله عنكم ، وغفر لنا ولكم !» . وانطلقت أتلو الفاتحة ويتلوها أصحابى جميعاً . ثم انطلقت ألسنتنا بالدعاء والاستغفار صادرين من قلوب صادقة فى دعائها ، مخلصة فى استغفارها ، أُشْربت للراقدين فى هذا المكان حبّاً وإعظاماً ، وللذين جاهدوا فى سبيل الله إكباراً وتكريماً .

وبعد فترة لا أدرى أطالت أم قصرت تحدث أحد أصحابى مشيراً إلى لوحة ثُبِّتت فى الصخر حيث كان يقف وقد كتبت عليها هذه الآية الكريمة :

«يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا» .

يا للعجب ! لقد سمعنا هذه الكلمات قبل اليوم عشرات المرّات ، وكنا فى

كل مرة نسمعها فى إكبار وتقديس كإكبارنا وتقديسنا كلما سمعنا آى الذكر الحكيم . أما اليوم فكان لها فى نفوسنا من عظيم الأثر ما اهتز له كل وجودى من شعر رأسى إلى أخمص قدمى . وتمنيت صادقاً لو كنت قد أبليت مع الذين أبلوا فى بدر فاستشهدت مثلهم وثويت فى قبر من هذه القبور معهم . ما أعظمه فى الحق فوزاً وفخراً ! وما أجلها غاية يهنأ الإنسان بها أن يستشهد فى سبيل إيمانه بالله . فما الحياة إذا غاض منها الإيمان وتضعضعت فيها العقيدة ! إنها تفقد إنسانيتها ويصبح الشخص فيها حيواناً شأنه شأن سائر الحيوان ، همه أن يأكل ويشرب ويتناسل إجابة لدواعى الغريزة ودوافع الاحتفاظ بالنوع . وإذا استوى الإنسان والحيوان فلا خير فى الحياة . فإنما يتميز الإنسان على الحيوان بحياته المعنوية . والعقيدة والإيمان هما سر هذه الحياة المعنوية وقوامها ، فإذا غاض هذا السر وضمر ضمرت إنسانيتنا حتى تغيض ، وزُددنا بذلك حيواناً كل الفرق بينها وبين غيرها من الحيوان أنها تنطق ، ولكن كنطق الببغاء ، نطق تقليدى لا اجتهاد فيه ، وأنها تسير على قدمين بدلا من أن تزحف أو تسير على أربع .

العقيدة والإيمان سر الحياة الإنسانية وروحها ومظهرها ، بل هما الحياة الإنسانية وسبب وجودها ، ولولاهما لما كان لهذا الكون بالإنسان حاجة ، ولما كان لوجود الإنسان فيه سبب . وقيمة الحياة الإنسانية أن يتحققا فيها ، أو تصبح هذه الحياة عبثاً يجب أن يتنزه مبدع الكون عنه . والعقيدة والإيمان أعظم قوة فى الحياة . أمامهما تندك الجبال وتضطرب الرواسى وتخر تيجان الملوك ساجدة وتتحطم تحطماً . وهما اللذان سارا بالكون والحياة إلى ما بلغنا من تقدُّم . وهما لذلك الجديران دون سواهما بأن يُضَحى بالحياة فى سبيلهما . أما ما سواهما فى الحياة فأهواء ومطامع لا تساوى عندالله جناح بعوضة ، ولا قيمة لها فى التقدير الإنسانى السليم . فالمال والجاه والحكم والسلطان أوهام باطلة وضلال يُمليه الغرور ، لذلك لا بقاء لها على الحياة . وماذا خلف الإسكندر للإنسانية بملكه الطويل العريض ؟ وماذا خلف قارون بماله إلا المثل المأثور يطلقه الناس

على المال المتكاثر فيقولون إنه مال قارون ؟ وماذا خلّف أولو الحكم والسلطان ؟ فأما أرباب العقيدة والذين ملأ الإيمان قلوبهم فخلّفوا تراثًا تتناقله أجيال الإنسانية ، ضخمًا كان هذا التراث أو ضئيلا . ولا يزال الناس يتذاكرون حتى اليوم آراء سقراط وأفلاطون وأمثالهما من حكماء اليونان وفلاسفتها كما يذكرون أولى الرأى المؤمنين برأيهم فى غير اليونان من الأمم القديمة . وأصحاب المذاهب الأربعة الإسلامية أبقى فى الحياة أثراً من ملوك المسلمين وأمرائهم جميعًا . وأولو الرأى هؤلاء لم يجاهدوا فى سبيل آرائهم ولم يبذلوا لها روحهم وحياتهم . أما الذين آمنوا وافتدوا إيمانهم بحياتهم من شهداء بدر ومن إليهم ، وأما الذين جاهدوا فى سبيل الله بأرواحهم لنصر كلمة الحق ، فأولئك جميعًا أحياء عند ربهم يرزقون ، وأولئك تذكرهم الإنسانية فى إجلال وإكبار ويقول كل واحد من أبنائها البررة كلما ذكرهم : « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيمًا » .

وشهداء بدر القدوة والمثل فى افتداء الإيمان بالحياة ، وفى قوة المؤمن بإيمانه وفى سمو الإيمان بالحياة إلى المثل الأعلى . فهؤلاء ثلاثمائة من الرجال جاءوا بدراً لا يريدون حربًا ، بل يريدون أن يأخذوا عِير أبى سفيان لقاء ما أخرجت قريش صفوتهم من مكة بعد أن آذتهم وأبعدتهم عن أموالهم وأهليهم ، فإذا أبو سفيان فاتهم ونجا بنفسه وبعِيره ، وإذا قريش خرجت إلى بدر بقَضِّها وقضيضها وألقت إلى قتال المسلمين بأفلاذ أكبادها ، حتى لم يبق بمكة بعد خروجها متخلف قادر على القتال ، أفيُقاتل المسلمون هذا الجيش ورجاله ثلاثة أمثالهم عدداً وعُدة ، وليس لهم من وراء هذا القتال بعد نجاة أبى سفيان مأرب ؟ لكن قريشًا جاءت تناجزهم ، فلم يبق الأمر أمر أبى سفيان وعِيره ، بل صار أعظم من ذلك وأجل خطراً ، صار الإيمان والشرك يلتقيان . ولقد أدرك المسلمون هذا الموقف مذ عرفوا خروج قريش تحمى تجارتها ، وأدركوا أنهم إن تقاعسوا أو تضعضع ركنهم علت كلمة الشرك وعادوا من أذى قريش إلى شر مما كانوا فيه بمكة ، فهان على يهود يثرب أمرُهم ، ولم يبق للدين الذى بعث الله به رسوله أيد ولا قوة . لذلك تمثلت كلمة المهاجرين حين شاورهم النبى

فى قول المِقْدَاد بن عمرو : « يا رسول الله ! امْضِ لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » . وتمثلت كلمة الأنصار فى قول سعد بن معاذ محدثاً النبى : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثقنا على السمع والطاعة . فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً . إنا لصُبر فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللّقاء . لعل الله يُريك منا ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله » .

لم يكن موقف المسلمين من قريش أمر مال وغنيمة إذاً ، بل كان الإيمان والشرك يلتقيان . لذلك لم يلبث القوم حين نظموا صفوفهم وأخذوا للقتال عُدتهم أن بدت بينهم قوة الإيمان وضعف الشرك : بدت قوة الإيمان المتصل بالله وحده سامية على كل قوة ، فلا يغلبها فى الأرض غالب . ولقد استعرضت أمام ذهنى وأنا بموقفى من قبور الشهداء هذا المنظر الفذ من مناظر التاريخ ، فبهرنى ما للإيمان من قوة لا تغلب . نزل الفريقان منازل القتال ، والمسلمون فيما رأيت من بأس وعزم ، وقريش ما يزالون مترددين يقول لهم عُتْبة بن ربيعة : « يا معشر قريش ! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلّوا بين محمد وسائر العرب . فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون » . ولولا حِدة أبى جهل ودفعه عامر بن الحضرمى ليأخذ بثأر أخيه الذى قتله المسلمون فى سرية عبد الله ابن جحش ، ولولا أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومى من صفوف قريش إلى صفوف المسلمين فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دماً فلم يبق بعد الدم من القتال مفر ، إذاً لغلب التردد قريشاً ولارتدوا على أعقابهم كاسرى الطرف فى غير قتال

خاسئين . والآن تبدأ المعركة . انظر ! إننى أراها بعينى فى هذا الوادى المنبسط أمامى تحيط به الهضاب والكثبان من كل جانب . فهذا عتبة بن ربيعة الذى كان يهيب بقومه منذ لحظة أن يرجعوا قد خرج فى سلاحه بين أخيه شيبة وابنه الوليد يدعو المسلمين للمبارزة . ويخرج إليه فتيان من المدينة فيأبى قتالهم وينادى المنادى : « إنما نريد أكفاءنا من قومنا » ، فيخرج حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث . ألا تراهم ! ما أشد ما ترمى عيونهم بالشرر ! واعَجَبًا ! هؤلاء قوم لا يريدون قتالا بل يريدون استشهاداً . لقد انقض حمزة على شيبة وانقض علىّ على الوليد كما ينقض البازى على فريسته ، فإذا المشركان مُجَنْدلان ضرجتهما دماؤهما . أما عتبة فيحاول أن يثبت لعبيدة ، فإذا حمزة وعلى قد فرغا من خصميهما يجهزان عليه كما أجهزا على أخيه وابنه . يا لَعار هذا الجحفل اللّجِب ! أفقدر لهؤلاء الذين أجلتهم قريش عن مكة أن ينتصروا عليها وأن يهزموا جموعها . فلتزحف هذه الجموع إذاً حتى لا يبقى لمحمد ولأصحابه باقية .

رفقك اللهم ! هذه جموع قريش تزحف ، وهذه جموع المسلمين تزحف . رفقك بى ورحمتك ! ماذا يصنع ثلثمائة من المسلمين بألف من قريش ! وهذا رسول الله بين المسلمين يعدل صفوفهم . لكن زحف قريش يزيدها بأساً ، وتفوق عديدها على المسلمين يجعلها تحيط بهم وتكاد تغرقهم فى لجتها . رب ماذا كتبت فى لوحك المحفوظ مصيراً لهذا اليوم العصيب ؟! هذا رسول الله يعود إلى المؤخرة ويقف فى العريش الذى بناه له أصحابه قبل الموقعة وهو أشد ما يكون إشفاقاً من هذا المصير ومن خاتمة المعركة . أين وعد الله النصر إذاً ؟ وهل أثم المسلمون فجزاهم الله بإثمهم هذا الموقف الرهيب ؟

انظر كرة أخرى ! فالآن يتخذ كل فريق فى زحفه مواقف الاشتباك بخَصْمه ويكادان يلتحمان . والآن يقف رسول الله وجلاً مشفقاً مستقبلا القبلة متجهاً بكل نفسه إلى ربه يناجيه ويخاطبه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخُيَلائها تحاول أن تكذّب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن

تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعْبَد ! » . ألا تراه ! إنه يمد كلتا يديه ويهتف بربه مستغفراً تائباً داعياً مبتهلا : وهذا رداؤه يسقط عن منكبيه لشدة توجهه إلى ربه وهتافه به . ويرد أبو بكر الرداء على منكبيه ويهيب به : « يانبي الله ! بعض مناشدتك ربك ! فإن الله منجز لك ما وعدك » . لكن نبي الله لا يزال يتضرع إلى الله ويستعينه . ها هو ذا جلس في العريش صامتاً وأغمض عينيه كأنه نام . انظر إلى وجهه ! إن أساريره لتنبسط وثغره لتضيئه ابتسامة الظفر . إنه لا شك يرى في هذه الساعة ما لا يراه غيره ، لقد كشف الله عنه الحجاب فرأى نصر الله منه قريباً . والمعركة تدور هناك في الميدان رحاها لا يدرى أحد عم تنكشف . إن قريشاً لعلى ثقة بعددها وعدتها ، فهي تحسب النصر وشيكاً أن يتم . والمسلمون يزيدهم الإيمان في كل لحظة قوة على قوتهم فهم يبطشون بكل مشرك تصل إليه أيديهم بطش عزيز مقتدر .

عد بنظرك الآن إلى العريش ، لقد انتبه رسول الله من نومه . إنه يخرج إلى الناس فينادى فيهم : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . ألا ترى إلى وجوه المسلمين ساعة طرق سمعهم صوت الرسول ونداؤه إياهم بهذه العبارة . ومن من المؤمنين من لا يريد الجنة ! من منهم من لا يريد نعيم الرضوان في رحاب الله بديلا من هذه الحياة الدنيا وكاذب غرورها ! والجنة للصابرين على البأساء والضراء وحين البأس . والجنة لمن أحسن البلاء في سبيل الله ومن غمس يده في العدو حاسراً . والله ولى الصابرين والذين يستشهدون في سبيله ، يمدهم بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم تثبيتاً وإيماناً .

لا أرى أمامى إلا غباراً ثار نقعه فحجب الميدان وما فيه ، وكأنما اقتطعه من نطاق الزمان والمكان ليجعله على الدهر آية لقوة الإيمان المتصل بالله له الملك وله الأمر كله . وهذا هو الجو الآن ينكشف فأرى . نعم ! أرى الواحد من المسلمين إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوه إنما تحرك قوة الله يده ، وإذ يحدق بنظره إلى شرذمة من المشركين في إقبالهم عليه يردهم على أعقابهم

فيتلقاهم مؤمن من إخوانه يحز رقابهم حزًّا ، ويرديهم فى حفرة الموت هلكى ، وأرى رسول الله يأخذ حفنة من الحصباء يستقبل بها قريشًا وينفحهم بها وهو يقول : « شاهت الوجوه » ، فيولون أمام الحصباء فراراً ويمتلئون من رميها رعبًا . وكيف لا يولون وقد تجسمت أمامهم قوة الإيمان فهم لا يعرفون لها مدى ولا حدًّا ! ويرون إخوانهم فى الكفر صرعى فيأخذهم الهول ويلتمسون النجاة هربًا ! . وتتم كلمة ربك وينجز رسوله وعده فتفر قريش ويطاردهم المسلمون ويعودون بالأسرى وقد امتلأت نفوسهم طمأنينة ورضا .

رأيت هذا كله وأنا بموقفى أجيل الطرف فى ميدان بدر . فلما تم للمسلمين النصر تنفست الصعداء وملأ الرضا قلبى ، ثم رجعت بصرى إلى ناحية الهضبة التى تحتضن قبور الشهداء وانفجرت شفتاى عما سمعه أصحابى : « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيمًا » .

وعاد لى بعد هنيهة هدوء نفسى ، فسرت الهوينى حتى استوقفنى رجل من بدر عند مكان ذكر لى أنه القَليب الذى دُفن المشركون من صرعى بدر به ، وأضاف : « إن لون الرمال فوقه داكن لما يلفحه من نار جهنم ، وإنك تحسه دافئًا أبداً فى الصيف وفى الشتاء » . ولم أرد أن أمسك هذه الرمال بيدى وإن مد محدثى إلىَّ يده بحفنة منها لأنى خشيت ألا أشعر بدفئها فيتهم القوم حسى ، ولأنى كنت شَغِلاً عن ذلك بتعرف ميدان بدر وحدوده ومواقف المتقاتلين منه وموضع اشتباكهم فيه .

فمن أى ناحية جاء المسلمون إليه ؟ ومن أى ناحية جاء المشركون ؟ وأين العُدْوة القصوى ؟ وأين العُدْوة الدنيا ؟ وأين مكان الماء الذى أشار الحُباب ابن المنذر بن الجموح على رسول الله فنزله المسلمون ؟ وأين مكان العريش ؟ وأين التقى الجمعان ؟ هذا هو الذى كان يعنينى وعنه كنت أسأل . وقد أجابنى القوم بما لا أعرف مبلغه من الدقة . ذكروا أن القليب الذى دُفن المشركون به يقع بين العُدوة القصوى وبين قبور الشهداء . وقد رأيت أنا تخطينا من زاوية السنوسى فى سهل منبسط حتى بلغنا هضبة الشهداء ثم سرنا لم نغير اتجاهنا

حتى كنا عند القليب . فالعدوة القصوى هى إذاً هذه الهضبة القائمة هناك فى الطرف المقابل إلى حيث تقوم زاوية السنوسى . أما العدوة الدنيا فتقع فى رأيهم بين زاوية السنوسى وقبور الشهداء . وتقوم على مقربة من هذه العدوة الدنيا هضبة أشار إليها دليلنا وقال : هذا قَوْزُ على . وسألت ما القوز[1] ؟ فقال : إنه الجبل القليل الارتفاع ، وأن هذا الجبل هو الذى رأى علىّ منه المشركين وأخبر النبى بهم . وقد دلنى ذلك على أن القوم يذكرون السيرة ذكراً حسناً ، وإن لم يبلغ غاية الدقة . فقد بعث رسول الله على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه حين نزلوا بدراً إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه . وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان . عرف الرسول منهما أن قريشاً وراء الكثيب الذى بالعدوة القصوى . لكن ذكر القوم للسيرة لم يكفنى للاقتناع بصحة ما يعيّنونه من مواقع الغزوة . فقد رأيت الأماكن التى يذكرونها لا يتفق تحديدها مع ما تصفه الروايات الواردة فى كثير من كتب السيرة .

فأما العريش الذى بناه المسلمون لرسول الله ففى مكانه الآن مسجد يسمى مسجد العريش . وهو قد بنى على طراز مساجد مكة بساطة وضيق رُقعة ، مع أن موقف الرسول فيه من أجلّ مواقف حياته . والمسجد يقع اليوم بين دور بدر ، كما يقع مسجد عداس بالطائف بين دور المثناة .

وآن لنا أن نعود إلى زاوية السنوسى لنستقل السيارة إلى ينْبُع . وفيما نحن فى الطريق سألت سادن الزاوية : أيجىء إلى بدر زوار يقفون عندها ؟ وأجابنى : إن الذين يجيئون إليها قليلون ، وإنهم لا يقفون عندها كثيراً كما فعلنا ، وإن منهم من يكتفى بزيارة قبور الشهداء للتبرك بها وقراءة الفاتحة . وقليلون يسألون عما سألت عنه من أمر الغزوة وميدانها ومواقعه فيجيبونهم بما أجاب كثيرون به .

---

(١) رجعت فى قاموس المحيط فرأيته يذكر أن القوز هو المستدير من الرمل ، والكثيب المشرف ، والجمع أقواز وقيزان . فعلمت أن دليلنا النجدى لم يخطئ فى اللغة حين ذكر قوز على .

وتبسمت من قوله وذكرت ميدان « واترلو » حيث كانت الموقعة بين نابليون وولنجتون ، وكيف صور القوم نموذجاً مصغراً للميدان ومواقف الجيوش المتحاربة منه وأطوار الموقعة فيه تصويراً بارزاً يسهل معه لمن شاء أن يحيط بدقائق الموقعة خُبْراً . وليس لموقعة « واترلو » فى حياة الإنسانية بعض ما لغزوة بدر من أثر . لكنه العلم وما يُكبره من عبرة التاريخ قد أدى بأهل الغرب إلى تصوير هذا النموذج البارز لموقعة « واترلو » ، وهو الجهل الذى خيم على العالم الإسلامى منذ عصور الانحلال هو الذى أدى بهم إلى ألا يفعلوا من مثل ذلك شيئاً يرسمون به لزوار البلاد الإسلامية المقدسة صورة صحيحة لما حدث فى عهد الرسول النبى العربى .

ليس لموقعة « واترلو » ولا لأية موقعة غيرها بعض ما لغزوة بدر من أثر فى حياة الإنسانية . فغزوة بدر رمز صادق للاستشهاد الصريح فى سبيل العقيدة استشهاداً مبرأ من كل غاية أو غرض إلا الدفاع عن هذه العقيدة والإيمان بها والدعوة إليها . وهو استشهاد صريح لأنه يتم فى ميدان الشرف بين جموع المؤمنين الذين يواجهون خصومهم . ليس يذهب طالبه فى غسق الليل ولا فى غفلة الناس ليغتال إنساناً أو طائفة من الناس لأنهم خصوم إيمانه وعقيدته ، بل يدعو ثم يدعو ويستعذب الأذى ويضحى بمنافع الحياة فى سبيل دعوته . فإذا اجتمع حوله قوم أنسوا فى نفوسهم القوة على الدفاع عن عقيدتهم فى وجه خصومهم ، وهبوا حياتهم فى سبيل هذا الدفاع ومشوا إلى الموت حريصين عليه . ومَنْ حرص على الموت وهبت له الحياة ، حياة خالدة فى نعيم الرضا لمن استشهد ، وحياة راضية سعيدة مطمئنة لمن لم تكن الشهادة نصيبه . بدر هى الرمز الخالد السرمدى لهذا المعنى السامى ، أبلغ المعانى الإنسانية سمواً وأعظمها جلالا . أما وذلك شأنها فليس « لواترلو » ولا لأية موقعة غيرها بعض مالها فى حياة الإنسانية من أثر .

ترددت هذه العبارة الأخيرة فى نفسى والسيارة تنهب بنا الأرض إلى ينبع . فقد خرجنا من ملتويات الطرق ومنعرجاتها إلى بيداء منبسطه ذاهبة فى انبساطها إلى حدود الأفق . ولم تكن رمال هذه البيداء منحلة يخشى أن تغور فيها العجلات ،

بل كانت رمالا شاطئية تتسرب إليها مياه البحر إلى أميال بعيدة فتكسبها تماسكاً وتجعلها صلبة صلابة الأسفلت ، وإن بقيت تحت عجل السيارة أكثر ليناً ومرونة . ولم تكن هذه البيداء مطروقة ، فلم يخط عجل السيارات فيها دروباً واضحة للسائرين ، ولم يقلب بعض الأماكن القليلة التماسك منها ظهراً لبطن. كيف لنا أن نعين اتجاهنا فيها حتى لا نضل الطريق إلى ينبع ؟ ما كان هذا الأمر ليعنيني لولا أن « زمزم » تبرح هذا المرفأ بعد غد . لكني ما لبثت أن اطمأننت حين رأيت دليلنا الجندى النجدى يذر مجلسه من البكس ويتخذ لنفسه مجلساً فى سيارتنا ليهدى السائق طريقه . وأشهد لقد رأيت من مهارته ما أعاد إلى ذاكرتى صورة ما كنا نحفظه من الأدب العربى القديم عن دقة العرب فى قص الأثر . بدأ فصور لنفسه موقع ينبع وجعل يُصدر أوامره للسائق بالسير إلى اليمين أو إلى اليسار كما يفعل رُبان السفينة إذ يصدر الأوامر من مجلسه فوقها إلى الذين يديرون المحركات فى قاعها . والسائق يسير بأمره منطلقاً فى هذه البيداء المترامية مطمئناً إلى أنه لم يضل طريقه . وبعد ساعة وبعض الساعة من خروجنا من بدر ، بدت على الرمال آثار مبهمة لم أحسبها شيئاً ، وأيقن دليلنا أنها الدروب إلى ينبع . وأقر حسن رأيه فزاد فى سرعة السيارة إلى غاية ما تُطيقه . وم نخشى وليس فى طريقنا إنس ولا أثر لحياة ، وليس فيها شبهة حجر تمر السيارة فوقه ! . واطمأن الدليل إلى أنه أدى واجبه فألقى إلىّ بنظرات راضية من عيون دعجاء شديدة البريق ، وكأنما يسألنى العفو عما سلف فى طريقنا بين الحمراء وبدر . وشكرته وأبديت عظيم إعجابى بمهارته ونسيت له ما قال عن أهل بدر ممن يقيمون اليوم بها .

فقد ذكرت إذ عدنا من ميدان الغزوة الكبرى إلى زاوية السنوسى متخطين مقابر الأشراف والنجديين ممن دنسوا هذا المكان بالقتال فيه ، أن هذا البلد يجب أن يكون حراماً ، ويجب أن يعرف المسلمون لأهله من الحرمة مقامهم عند الشهداء . فنظر النجدى إلى سادن زاوية السنوسى وإلى أفراد من القرية جاءوا إلينا وانضموا إلى جمعنا نظرة كلها الازدراء لهم وعدم الاكتراث بهم

وقال : « أهل بدر قوم ضعفاء » . يريد بذلك أن الضعيف غير جدير بحرمة ، وإنما الجدير بها من يقدر على الدفاع عنها . ولم أعقب على عبارته هذه وانتظرت تعقيباً ممن وجهت إليهم فإذا هم سكوت لا ينبسون . ومع ما دلني ذلك عليه من أن الرجل على حق حزَّ فى نفسى أن تُصيب أهل بدر هذه المهانة وقد شهدت أرضهم فوز الإيمان على الشرك فى غزوة بدر الكبرى .

أنستنى مهارته قالتَه ، وأنسانيها هذا المساء المقبل البديع . فقد بدأت الشمس تتوارى بالسحب ناحية الغرب ، وبدأت هذه البيداء تكسوها ظلال رقيقة تزيد بسطتها بهاء وروعة ، وتزيدنا بها وبصحبتها متاعاً وسعادة . وقال صاحبى مشيراً إلى ناحية اليمين : « هذه جبال رَضْوَى » . لم أر أنا بالعين المجردة إلى ما وراء الأفق جبالا ، ولم أفكر فى الاستعانة بالمنظار المكبر . فقد كنت سعيداً بأننا على هدى فى طريقنا ، وكنت أشد حرصاً على أن أرى طلائع ينبع منِّى على أن أرى أشباح رضوى وما يثيره فى النفس من ذكريات .

« هذه الآن طلائع ينبع » . كذلك قال الدليل مشيراً بيده إلى ناحية اليسار فيما أمامنا . وأسرعت إلى المنظار المكبر فصدَّق الدليل وكشف لى عن موج البحر . وانطلقت السيارة تنهب الأرض فى سرعة كأنما جُن جنونها . وفى دقائق تبدَّى البحر وتبدت طلائع الثغر للعين المجردة . وبعد دقائق أخرى كانت السيارة تدور حول أسوار المدينة تبتغى مدخلها لتبلغ بنا دار مُضيفنا .

وتلقانى القوم فى هشاشة وترحيب ، وأشفقوا مما لقيت طيلة نهارى من وصب حين وصف أصحابى طريقنا من الحمراء إلى بدر . لكننى لم أكن أشعر بمشقة ولا بتعب . لقد كنت سعيداً بما رأيت ، وبما أثار فى نفسى من المعانى البالغة غاية السمو . فلما آن لى أن أطمئن إلى مضجعى زدت بما انتشر أمام ذهنى من ذلك سعادة ورضا . رضى الله عن أهل بدر وغفر لهم ، فهم جديرون حقاً بقوله صلى الله عليه وسلم : «لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً !

أوبة الرضا

أصبحت بينبع مطمئناً سعيداً . وهبطت إلى غرفة الاستقبال فألفيت بها قوماً من أهل البلد تفضلوا بزيارتى . فلما تبادلنا الحديث عجبت أن تكون لهجة أحدهم أدنى إلى المصرية ، وحسبت السبب فى ذلك محاذاة ينبع مصر . لكن الرجل أسرع فذكر لى أنه مصرى المولد . وأن له بينبع بضع سنوات احترف فيها مهنة التعليم ، وأن به إلى مصر هوى لولا ما يمسكه من لطف أهل البلاد به ومن شغفه بالأماكن المقدسة . وشعرت لحديثه كأنما هزنى إلى مصر شوق زادنى هوًى إليها . يا عجباً ! ألذلك سر ؟ لقد رأيت من أمثاله كثيرين بمكة وبجدة وبالمدينة فلم تحرك لقياهم هذا الشوق فى نفسى . ترى أفى نبرة هذا الرجل سلطان على هذه الناحية من النفس لم يكن للذين لقيتهم قبله ، أم السر فى هذه المدينة التى نتحدث فيها ؟ إذ ذاك ذكرت ما يحرك اقتراب الأوبة إلى الوطن من حنين النفس إليه وما يشتد بنا من الشوق إلى الأعزة فيه عند وقوفنا على شاطئ البحر الذى يصل بيننا وبينهم ، وكأنما تحمل إلينا أمواجه من روحهم ما لايحمل إلينا الأثير ونحن نضرب فى الأرض . أم أن اقتراب اللُّقْيا يحرك فى النفس لواعج تظل حبيسة لا تثور ما كان الأمل فى اللقاء بعيداً ، فإذا تنسمنا ريح الوطن يدنو تمثلنا صدور الأعزة تقترب من صدورنا ، وقلوبهم تمتزج بقلوبنا ، فرفت فى جوانحنا عواطف الود والمحبة تريد أن تطير بنا إليهم وتخلف وراءها ما بقى بيننا وبينهم من أيام ! .

وخرجت من الدار مع أصحابى لزيارة أمير ينبع ، فعلمت منه أن « زمزم » رست فى المرفأ وأنها قيد النظر . وشربنا القهوة النجدية والشاى واجتمرنا بذلك العود الذكى الرائحة والذائع اليوم فى البيئات الرسمية بالحجاز . وتناول حديثنا سفر « زمزم » ومرفأ ينبع وما يجده المنتقل منه إلى البواخر الكبيرة من مشقة إذ تنقله الزوارق الصغيرة من الشاطئ إليها فى بحر مضطرب الموج

أكثر الأحايين . وتابعنا الحديث فى اتصال البلاد التى تتكلم العربية جميعاً ، وفى سهولة المواصلات بينها ، وفيما أدى ذلك إليه من ارتباطها من قبل فى الوحدة الإمبراطورية الإسلامية ، وأسفنا لجناية الدهر على هذه الروابط ولتفريط المسلمين فى العمل على إعادتها ، وانتهينا من ذلك إلى حلو الأمانى . ولم يكن حديثنا فى هذا كله ليتعمق فى الأمور أو يقصد إلى شىء من الوقوف على أسرارها . فينبع بلد صغير ، وأهله وأميره وحاشية الأمير فيه أكثر عناية بشئونه المحلية الخاصة منهم بشئون التاريخ وأطوار الحياة . وهم كأعيان ريفنا المصرى كرماً وترحيباً وحسن لُقْيَا . ولقد غادرتهم شاكراً لطفهم ، شاكراً للأمير ما أبدى من حرص على طمأنينتى حتى أبلغ الباخرة : ذاكراً له أن مُضيفى وأهله قد بلغوا من هذا الحرص ما طوقوا به عنقى وما جعل لهم عندى يداً لا تنسى .

وانطلقنا فى ميادين فسيحة من أرض ينبع نبتغى الشاطئ حيث ضربت البَعْثة الطبية المصرية خيامها ، فشربنا قهوة مصرية وقضينا من الوقت ما بقى إلى الظهر . وعدنا إلى الدار فأقمنا بها فلما اقترب المساء أقبل علينا فيها إخوان من المصريين تحدثوا فى سفرنا ظهر غد . وكان حديثى معهم حديث طمأنينة ورضا وشكر لله على توفيقه إيانا فى سفرنا ومُقامنا مذ عزمنا الحج حتى أتممنا مناسكه وزرنا قبر رسوله الكريم فصلينا وسلمنا عليه ، ورجونا الله واثقين من إجابته رجاءنا ، أن ييسر عودتنا كما يسر سفرنا ، وأن يهدينا بفضله صراطه المستقيم .

وأصبحت فأعددت متاعى للسفر ، وودعت مضيفى شاكراً ، وذهبت ومن صحبنى إلى « الجمرك » ، ثم أقلنا زورق صغير إلى الزورق البخارى « السويس » ليُقِلنا إلى « زمزم » . ونحن فى شوق أى شوق إلى ركوب ظهرها . ولقد كنا السابقين إلى الزورق البخارى فلم يصله غيرنا إلا بعد ربع ساعة من مجيئنا له . ووقفت عند مؤخرته أحدق فى الشاطئ وما عليه . ما أعظم هذا الحشد الهائل هناك ! ما أشدهم تدافعاً بالمناكب . أولئك الحجاج

المصريون الذين عزموا العودة على زمزم وعلموا أنها تُبحر بعد ساعات ، فهم مشفقون أن تفوتهم ، وهم لذلك يقتتلون يريدون النزول إلى البحر لإدراكها قبل أن تطلق لمحركاتها أعنتها . انظر إلى هؤلاء الجنود حولهم يريدون تنظيمهم فيأبى أقوياؤهم إلا أن يتقدموا الضعفاء ، وكأنما نسوا الحج وما يجب عليهم بعده من حماية الضعيف وعدم الاعتداء على حقه ! هذه معركة تقوم بين بعضهم وبين الجند . لكنها ليست حامية . إنها سرعان ما هدأت وعاد القوم إلى احترام النظام . ويجيء بعد ذلك إلى زورقنا بعض ذوى المكانة من العائدين إلى مصر فنلقاهم بالترحاب وقد عرفناهم جميعاً أو عرفنا أكثرهم بمكة أوبالمدينة. أما ذلك الجمع الحاشد على الشاطئ فقد أعدت لهم « صنادل » فسيحة الرحاب تتسع لهم جميعاً ويسحبها زورقنا بعد أن يتم عليها جمعهم . ولو أدرك أقوياؤهم ذلك ما تدافعوا بالمناكب ولا اشتبكوا بالجند مادام آخرهم سيلحق على الصندل بأولهم ثم يبلغون الباخرة جميعاً فى وقت واحد . أم أن الناس درجوا على أن يتنافسوا وأن يستبقوا وإن فى غير موضع لمنافسة أو سبق ، وألفوا أثناء تنافسهم أن يشتبكوا وأن يقتتلوا ثم لا يصيبهم من ذلك خير وقد يصيبهم منه الضر والأذى!

وإنا لفى موقفنا نشهد ما يجرى على الشاطئ إذ أقبل علينا ممثل شركة مصر للملاحة البحرية ينبئنا بأن « زمزم » لن تُبحر اليوم بسبب هياج البحر ، وأن من الخير أن نعود إلى ينبع نقضى بها إلى بكرة الصباح . وفيما هو يحاورنا ونحاوره فى ذهاب « السويس » بنا إلى زمزم لنقيم بها ، أبحرت اليوم أو أبحرت غداً ، أقبل مضيفى وطلب إلى أن أعود معه . وشكرت له دعوته واعتذرت إليه عن إجابتها بأنى وقد ركبت البحر معتزماً السفر فلن أعود إلى الشاطئ ، ولن أذَرَ البحر حتى أبلغ غرضى أو يقضى الله قضاءه . وألح الرجل فى الدعوة حرصاً على راحتنا وطمأنينتنا . ورأيت بعض الذين معنا يميلون إلى العود لينبع حَذَرَ البحر وهياجه . أما أنا فأصررت على البقاء ما دمت قد عزمت السفر ، ولم أنزل عن رأيى . وذلك دأبى . أذعه عناداً أو أدعه ما شئت ، فهكذا خلقت : لا أرجع عما بدأت حذر مشقة أو خوف عناء . فالمشقة لا قيمة لها

عندى . وأنا اليوم أكثر استهانة بها بعد أن قضيت بالحجاز ستة أسابيع أصعد فى الجبال وأجوب البادية وأقضى الليل بالمُستَيْجِد أو ببنى حَصَّان فى منازل خير منها العراء . وليس فى ينبع ما تهوى إليه النفس من أثر يزار أو علم يستفاد . ومهما يبلغ البحر من هياجه فالمقام على ظهر « زمزم » والتمتع بنسيمه الجميل خير من كل ما يدعوننى إليه . ولم يجد مضيفى بدًّا آخر الأمر من الإذعان لمشيئتى ، وكل الذى صنعه فضاعف به لطفه وثنائى عليه أن ترك من السجائر ما يكفينى يومين كاملين .

وغادرنا مضيفى ومندوب شركة الملاحة إلى زوارقهم يصحبهم من آثروا العودة إلى الشاطئ انتظار الغد . وانتقلت أنا إلى قمرة على الزورق جلست فيها وحيداً أفكر فى هذا التأجيل لسفر « زمزم » من ينبع ، وأذكر حادث « كوثر » إذ نحن بمرأى من جدة أول ما بلغنا الحجاز ، وألتمس فى الحادثين آية من الله وعبرة لنا . ولم يطل بى التأمل إذ رأيت الحجيج على الشاطئ وما يزالون فى تدافعهم بالمناكب وفى تنافسهم وحرصهم على السبق إلى « السنابك » . ألم يأتهم نبأ البحر وهياجه وزمزم وإرجاء سفرها ؟ أم أنهم مثلى لا يريدون الرجوع عن أمر عزموه ؟ وسألت رُبَّان زورقنا الذهاب بنا إلى « زمزم » كيما نقضى الليل بها ، فاستمهلنى حتى يرى ما يكون من أمر زملائى الذين يفدون إلينا ، ولا يحول دون وفودهم إرجاء السفر . فلما أذّن العصر لم ير بدًّا من الذهاب إلى « زمزم » حتى لا يشق علينا المبيت بزورقه وليس فيه من أسباب العيش ما ألفنا . ووقف فى غرفته التى كنت أرقب الشاطئ منها وصفر لينبه رجاله بصفيره إلى أنه سيُصدر إليهم أوامره ، وبدأ يلقى بهذه الأوامر من بوق فى الغرفة بلغة لم أفهم أكثر ألفاظها لأنها اصطلاحات فنية لا تقيدها مجامع اللغة فى المعجمات ولا يفهمها لذلك إلا أهل الفن ! .

وبعد سويعة انطلق الزورق ميمماً شطر زمزم ، وربانه فى موقفه يلقى أوامره ويمسك بيده عجلة القيادة . وبعدنا عن المرفأ ومبانيه وانكشف أمامنا البحر فى جلاله ورهبته وجماله وسرى إلينا نسيمه وارتفع إلينا رشاش موجه

فبعث إلى النفس السرور والغبطة . وأية غبطة وأى سرور كاتصالنا بالكون فى فسحته وعظمته ، ننهل من نوره وهوائه ، ويشتمل نظرنا سماءه وماءه ، ونندمج فيه بكل حواسنا ، ونشعر بأننا ذرة منه سابحة فى نظام أثيره سبّح الكواكب والأفلاك وسبح الأحياء والخلائق كافة . وإنا لفى منتصف الطريق إلى « زمزم » إذ بدأ الزورق يعلو مع الموج يمنة ويسرة ، ويشعرنا بتمايله وارتفاعه وهبوطه من شدة هياج البحر ما أرجأ سفرنا . هنالك أخذتنى نشوة غلبت فى نفسى عبث الموج بزورقنا وبطمأنينتنا . هى نشوة ساذجة كثيراً ما يأبى الناس الإفصاح عن مبعثها ، وهى التى تحركهم مع ذلك فى كثير من مواقف الحياة تلك نشوة الظفر بالبحر واقتحام موجه على ظهر زورقنا الصغير ، وإقدامنا بذلك على مغامرة خشيت « زمزم» الضخمة العظيمة أن يقدم الناس عليها . ها هى ذى أمامنا وها نحن أولاء نقترب منها . واستعان الربّان بمنظاره الكبير ليرى رجالها على سطحها ، وأطلق صفارة « السويس » فى أنغام مختلفة لينبههم إلينا كيما ينزلوا السلم لنرقى عليه إلى الباخرة . والموج يزداد تقلباً كلما ازددنا من الباخرة قرباً ، فيزيد فى تمايل الزورق وفى ارتفاعه وهبوطه على نحو يبعث إلى النفس الرهبة لولا أننا كنا مأخوذين بنشوة الظفر . وإنا لكذلك إذ علا فى الجو صفير « زمزم » فى أنغام مختلفة كأنما تجيب بها أنغام زورقنا المختلفة . ولم نعن بالأمر بادئ الرأى وحسبناه تحية تبادلها الباخرة الكبرى زميلتها الصغرى ، وتابعنا اندفاعنا نشق عباب الموج لا نحفل هياجه . لكن ضجيج « زمزم » انقلب زئيراً ، وجعل يزداد علواً ، وتتقطع أنغامه ويبدو فيها صوت النذير . ماذا يعنون ؟ سألت الربان فى ذلك فأجابنى : إنهم ينذروننا بأمر البحر وشدة هياجه . قلت : فنحن أشد من البحر بأساً ، فلنقتحم ما بقى منه إليهم . . ولم نزل فى اندفاعنا نحوهم نجيب صفيرهم بصفير مثله ، وأنغامهم بأنغام ليست دونها نذيراً . لم تبق هذه الأصوات التى ملأت جو البحر أصوات تحية إذاً ، بل انقلبت أصوات إرهاص كأنما تهاجم بارجةٌ بارجةً ، أو كأنما نحن مدمرةٍ تدنو من « زمزم » . وهبطت فى الجو كِسَف من السحب حجبت

الشمس ، واشتدت الريح فزادت زورقنا على الموج اضطراباً . ويشتد فى صفير « زمزم » صوت النذير فيبدأ ربابنا يتردد ماذا يصنع على حبه الإقدام والمغامرة ، فأشجعه وأدفعه إلى مزيد من الإقدام وأصور له الظفر وشيكاً يمد إلينا يده . ويزداد صفير « زمزم » عناداً فى النذير ولا ينزل القوم لنا سلماً . هنالك غلب اليأس الربان ، وكأنه ذكر النظام وأنه فى إمرة « زمزم » وليست زمزم فى إمرته ، فبدأ دوراناً يمهد به للنكوص مدبراً . وثرت به وذكرت له أنا إذا بلغنا « زمزم » لم يكن لرجالها بد من معاونتنا على الرقى إليها . لكن نذير « زمزم » المتصل كان أقوى فى نفسه أثراً فلم يعقب واندفع مسرعاً نحو موقفه الأول فى المرفأ معتذراً بأنه لن يجازف فيعرضنا لخطر تكون عليه تبعته .

سُقِط فى يدى حين فاتنا الظفر بغايتنا . مع ذلك لم آسف لهذه الموقعة الصغيرة التى غامرنا بها . فقد قضينا أثناءها أكثر من ساعة قطعنا بها هذا التشابه المملول الذى أظلنا مذ جئنا إلى الزورق قُبيل الظهر فثقل علينا ظله . وما كان أجملها ساعة وأشدها روعة وأكثرها إثارة لمختلف إحساسنا ومشاعرنا ! ولم نكن أقل بها متاعاً أثناء عودنا بعد الموقعة . فسرعان ما اطمأنت النفس إلى حظها حين استدار « السويس » مدبراً ، وفتحت صدرى أستنشق فيه هواء البحر الرقيق الصافى واشتملتنى غبطة راضية عقبت ثورتى لفرارنا . ووقف الزورق مكانه الأول والنهار وشيك أن يولى ، والسنابك الراسية عند الشاطئ قد امتلأت بالحجيج ، فلم يبق منهم من ينزل إليها إلا نفر قليل .

وبدأ رُبان « السويس » يفكر فى أمر هؤلاء وما يصنع بهم . لقد أقبلوا لركوب « زمزم » فإيواؤهم وإطعامهم فرض على أصحابها . استقر رأيه مع ممثل الشركة على أن يجيئوهم بالخبز من ينبع وأن يسحبوا الصنادل إلى جوار « السويس » وأن يمدوا إليها النور الكهربى ، وأن يفتحوا قاعاتها لينام هؤلاء الحجاج فيها . وفعلوا ، وكان مشهداً ظريفاً جرّ هذه السنابك الضخمة وعليها هذا الجمع الغفير وربطها بالزورق البخارى الصغير جداً بالقياس إليها . وأضاءتها من الكهربا أنوار ساطعة أرتنا القوم فيها وهم المرح والغبطة والجذل

والرضا . . فهم لم يكادوا يطمئنون إلى مكانهم ، وينعمون بالنور يلقى شعاعه عليهم ، حتى أحسوا كأنما يبعث نور الوطن شعاعه إلى قلوبهم ، وكأنما تسرى إليهم من مصر العزيزة المحبوبة نغمة أنس وهناءة . انفجرت شفاه الكثيرات من الحاجات عن أغانى الحجاج يرتلنها ويرددنها فى صوت لا يخلو من رخامة الأنوثة وإن خلا من جمال النغم . يا ما أُحَيْلَى هذا الغناء ! سرت إلينا منه ما اهتزت له الجوانح ، لا من طرب بل من أشواق فى النفس ثارت لواعجها وذكريات قريبة بمكة والمدينة انتشر أريجها . ونسمع إليهن يرددن « إمتى نعود لك يا نبى ؟ » يقلنها صادقات ، تصدر من قلوبهن قبل أن تتحرك بها ألسنتهن فتهتز قلوبنا وإن لم تتحرك ألسنتنا . وهل شىء أكثر هزًّا للعواطف من كلمة صادقة صادرة من قلب مخلص عن إيمان سليم ! .

ترك الرُّبان غرفته تلطفًا منه ، فقضينا بها ساعات الليل . وما إن تنفس الصبح حتى استيقظ هؤلاء المئون والألوف جميعًا وقد أذَّن فيهم مؤذِّن الفجر أن الصلاة خير من النوم . وتحرك « السويس » فى الساعة الخامسة من بكرة الصبح يجر معه صندلين ، وسار يقصد « زمزم » فى بحر هادئ لا موج فيه بل لا حراك به ، وكأنه لما يستيقظ من هدأة نومه . وبلغنا « زمزم » فأرسينا إلى جانبها وقد أنزلت سلَّمها وأسرع الذين فى الصنادل يرقَوْنها . فلما خلت الصنادل نزلت ومن معى بالسويس وتخطيناه إلى زمزم . وبادلت رجالها التحية ثم آخذتهم بما صنعوا حين صدونا أمس عن الصعود بصفيرهم الملىء بالنذير ، فاعتذروا بأن البحر بلغ هياجه ساعتئذ وبلغ اضطراب « زمزم » فوقه ، فلم يكن اقتراب السويس منها ممكنًا . فإن أمكن حف صعودنا إلى الباخرة وهى فيما هى فيه من هذا الاضطراب خطرٌ لا قِبلَ لأحد باحتمال تَبِعته .

وما لبثت حين اطمأن بى المقام فى غرفتى أن شعرت كأنى عدت إلى مصر ، فاستبدلت باللباس البدوى لباس المصرى . أليس علم مصر خفاقًا على سارية هذه الباخرة ، فلأعُد إذاً كما كنت يوم غادرت مرفأ السويس . وكيف لا أفعل ! ألست الآن فى مصر ! يا لرضا النفس وطمأنينة القلب ! لقد غادرت

مصر أبتغي أداء فريضة الحج فأديتها ، وأبتغي زيارة الرسول الكريم فى قبره فزرته ، وأبتغي القيام بدراسات فى منزل الوحى فقمت بها ، كل ذلك وأنا بحمد الله فى صحة موفورة وبنفس راضية ، فماذا أبتغي وراء ذلك ! وهأنذا الآن تقلنى جارية يرف عليها علم مصر وطنى العزيز المفدى . والعلم هو الوطن ، وليس رمزاً له وكنى ، وإن يكن رمزاً فهو كذلك كما أن اسمى رمز لى ، واسمك رمزٌ لك . وأنا إذ أسمع اسمك ترتسم صورتك أمام بصيرتى وأحسبنى أراك كما لو ناديتك فأجبتنى . ذلك شأنى إذ أرى العلم : ترتسم لرؤيته صورة مصر كاملة أمامى ، مصر بحدودها المترامية وبنهرها ووديها وصحاريها ، مصر بسمائها الصافية ونسيمها العذب وتربتها الخصبة وأزهارها المنبعثة الأريج وثمارها الحلوة الشهية . وترتسم أمامى مصر على التاريخ بحضارتها العتيدة وآثارها الخالدة ، وبفنها وعلمها وبآمالها وآلامها . كيف لا أشعر بنفسى إذاً فى مصر وأنا على باخرة مصرية تحمل علم مصر ! ألا لو أن هذه الباخرة جابت بحار الأرض شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً فبلغت بى القطب ودارت بى حول الأرض لما شعرت يوماً على ظهرها أنى غريب عن بلادى ووطنى ، ولرأيتنى أتنقل عليها وكأنما أتنقل من بقعة فى مصر إلى بقعة غيرها فى مصر ، ولكنت بذلك مغتبطاً دائماً ، سعيداً غاية السعادة .

وتحركت « زمزم » مبحرة حين تكبدت الشمس السماء ساعة الزوال . تحركت ميممة أرض الوطن ، مودِّعة بلاد النبى العربى ، وقلوب السَّفْر عليها يتنازعها الحنين إلى الوطن والأعزة فيه ، والتعلق ببلاد النبى العربى والحرمين بها . وانقضت ساعة الغداء والقيلولة ، وعاد الناس يلتقون جماعات يتحدثون عن حجهم وما رأوا أثناءه راضين شاكرين فضل الله عليهم ، تطوِّق ثغورهم جميعاً بسمات طمأنينة وفيض من نعيم ، ويُسعدهم سكون البحر ورقة نسيمه . وأقبل الليل وأوينا إلى مضاجعنا ، فإذا بى أستيقظ بكرة الفجر على أصوات جماعة جعلوا حلقتهم إلى جوار النافذة من غرفتى . ولقيت أصحابى بعد الإفطار وتحدثت إليهم فى ذلك ، فذكر كل منهم أنه استيقظ إذ سمع مثل ما سمعت ،

وزاد بعضهم أنه خرج إلى القوم يرجوهم أن يخفضوا من أصواتهم فابتسموا ، وقالت سيدة : صَلِّ يا أخى على النبي ! . وأضاف أحد أصحابى : « لقد جئت من مصر على "زمزم" فلم يكن من ذلك شيء ، بل لزم القوم الأماكن التى عيِّنت لهم لم يبرحوها . فما لهم كذلك اليوم يفعلون ، فيخرجون على النظام ولا يرعون ما لغيرهم فى الدرجات الأخرى من حرمة ؟ » . وابتسمت لملاحظة صاحبى وعقبت عليها بقولى : « التمس يا صاح لهم عذراً . إنهم يوم غادروا مصر كانوا لا يزالون يذكرون النظام وسلطانه ، والقانون وأحكامه ، والطبقات وتفاوتها ، ويرون ذلك كله ماثلا فى عمدة البلد وجندى البوليس وفى جبروت الأغنياء وذوي الجاه والمكانة . لم يكونوا بعد قد نسوا ما ألِفوا سماعه من هيبة الحكومة ومن بطش القانون وشدة أحكامه ، وكانوا يرون القانون منقوشاً بأحرف من بأس على بندقية الجندى فى الطريق وسوط عذابه فى السجن . لم يكن أحد منهم يحسب المساواة التى تحدثهم عنها حقيقة لها فى الواقع وجود ، فكانت نفوسهم تغلى حفيظة ، وكانت صدورهم تضيق ثم لا ينطق لسانهم من العجز والخوف . لذلك كانوا يحافظون على النظام الذى رسم لهم لا عن رضا وطواعية ، ولكن حذَرَ العقاب الذى يحل بهم لمخالفته . فلما حجوا البيت كما حججناه ، ولبسوا الإحرام مثلما لبسناه ، وطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة كتفاً معنا إلى كتف ، ثم لمَّا صعدنا جميعاً عرفات مُحرمين ملبِّين داعين ، رأوا صورة فى الحياة لم يألفوها ، ولن يألفوها فى غير الحج . رأوا أننا جميعاً سواسية حقًّا ، إخوان حقًّا ، وأنا جميعاً ضعاف غاية الضعف ، صغار كالذرات أمام عظمة الله وجلاله ومهابته . هنالك أصغروا ما بينهم وبين غيرهم من تفاوت ، وأيقنوا أن الفقر فخر لمن عرف أن يسمو فوق هوان الغنى ، وأن الضعف قوة ما آزره فضل فى النفس وخلُق عظيم ، وأن الشحناء ليست من طبع الكرام . بهذا الروح عادوا من حجهم . فإن كنت يا أخى فى ضيق من حريتهم وكنت حريصاً على أن يعودوا لما ألِفوا فى مصر من نظام ، فأنْظِرْهم أياماً فسيرون بعدها من هيبة الحكومة وبطش القانون وسلطان

النظام ، وما يتمثل ذلك فيه من بندقية الجندى فى الطريق وسوط عذابه فى السجن ، ما يردهم إلى حمى هذا النظام الذى يمقته الإسلام ولا يرضاه الله » .

وأمسك أصحابى عن القول بعد أن فرغت من حديثى . وإنا لفى هذه الفترة من سكوننا إذ حمل الهواء إلينا حُداء وترديداً : « متى نعود لك يا نبى ؟ » ، وفى نبرتها من حلاوة الإيمان وعذوبة الصدق فى التوجه ما جعل قلوبنا تهتف مع القوم : « متى نعود لك يا نبى ؟ » . ترى هل غَيَّر هذا الهتاف من حبها النظام الذى ألِفتْ وتوجيهها النقد إلى الذين تغنوا فحركها غناؤهم إلى التوجه لله بالأمل الصادق فى العودة إلى بيته وقبر نبيه حيث الناس سواسية إخوان ، لا يفاوت بينهم مال ولا جاه ولا سلطان .

وفيما نحن سكون نسمع مرَّ بنا طبيب السفينة فحيانا وجلس معنا ودعا الخادم ليجىء بقهوة ، وأنبأنا أنا نرسو بالطور ظهر غد وطمأننا إلى أن الحج نظيف هذا العام ، وأنا لن نأتى لذلك بالطور عَنَتا . ونقلنا الحديث عن الطور من صمتنا إلى الحديث عن مصر وما يجرى فيها . وبذلك انتقلنا خطوة جديدة نحو حياتنا الأولى .

وأرسينا بالطور ظهر الأربعاء الثامن من إبريل ، فتناولنا طعام الغداء على ظهر السفينة ، ثم نزلنا إلى المحجر فذهبت وبعض أصحابى إلى حِزاء (١٠) وجىء إلينا بمتاعنا بعد تبخيره . والحزاء لفظ لا تعرفه اللغة العربية بمعناه المعروف بالمحجر . فهو مكان قبيح محاط بالأسلاك به مبان غاية فى البساطة لمبيت الحجاج . أما الحزاء (١٠) فحزاء أمير الحج ، ولأمير الحج به بيت ينزل فيه حين مرور المحمل بالطور ، وهو بهذه المثابة أول مظهر للنظام والتفاوت يشعر به العائد من الحجاز .

وقضينا بالطور ثلاثة أيام : محجوزون فى الحزاءات بحكم القانون ، وعلينا من الحراس أمثال حراس السجون . مع ذلك كانت أيام نَعْمة ورخاء . فقد كنا فى حاجة إلى استجمام النفس بعد الذى صادفنا فى الحج من هزات مختلفة الأطوار . وكنا فى حاجة إلى راحة الجسم بعد مشقة السير والركوب فى

البادية والصعود فى الجبال والانحدار عنها . وكنا فى حاجة إلى استعادة صورة الحياة فى مصر وما تضطرب به من منافع وأهواء حتى لا نعود إليها وفى النفس نبوٌّ ظاهر عنها . وكان بعضهم فى حاجة إلى هذه الأيام الثلاثة لينظم فيها مظهره حين عوده إلى بلده ومقابلة الناس فيها بوجه الحاج التقى النقى . ولقد حصلتُ من استجمام النفس والجسم على ما كنت فى حاجة إليه ، واتصلت بالحياة المصرية بمن لقيت من معارفى المصريين فى المحجر وما كان يرد لى كل يوم من الصحف به .

فلما آن لنا أن يُفْرَج عنا وأن تقلنا « كوثر » من الطور إلى السويس ، تفضل الدكتور هريدى مدير الحَجْر فدار بى أثناءه وأرانى ما فيه من مواطن الماء الصالح المستشفيات وغرف التحليل والمباخر وما إلى ذلك من آثار العلم وما يطوّع لمصر أن تكون الحاجز الصحى بين الشرق والغرب . ولئن سرنى أن يكون للعالم بمصر هذه الثقة : لقد ساءنى أن تكون البلاد الإسلامية المقدسة هى سبب الحجر الصحى دون سواها من بلاد العالم ، وألا تكون كذلك إلا فى أعقاب أشهر الحج ، كأنما العالم الإسلامى متهم فى نظر الغرب بأنه حين الحج مثابة العدوى بالأمراض القتالة . فأما البلاد الأخرى فى أواسط إفريقية وفى غيرها فلا خوف منها . وأما البلاد الإسلامية منفردة كل منها عن الأخرى فلا خوف كذلك منها ، وإنما الخوف من هذه البلاد مجتمعة صادقة التوجه إلى الله وفى سبيل الله .

خرجنا من المحجر إلى « كوثر » ظهر السبت الحادى عشر من إبريل . فلما وقع نظرى عليها وتخطيت رصيف المرفأ إليها هزنى إحساس كذلك الذى يهزنا حين نلقى صديقاً ، تركناه والخوف يساورنا على حياته ، ثم لقيناه يمرح فى صحة وعافية . وجعلت أكرر وأنا فى طريقى إلى غرفتى : «حمداً لله على سلامتك يا كوثر » ! فلما اطمأننت إلى متاعى عُدت إلى ظهرها أنعم بهواء البحر الجميل .

وبلغنا السويس صبح الأحد . وفى الساعة التى انقضت بين وقوف

محركات الباخرة وإرسائها على الرصيف تولانا السأم الذى يتولى المسافر دائمًا فى مثل هذه الحال . فلما قرُبنا من الشاطئ ألفيت قومًا من أهلى وألفيت والدى فى انتظارنا . ونزلنا من « كوثر » وتخطينا الجمرك وركبنا السيارة . فانطلقت بنا فى طريق السويس إلى القاهرة . هأنذا على أرض الوطن . لك الحمد ربى ولك الثناء ! وشعرت وقد رأيت أهلى من حولى برضا النفس وطمأنينة القلب إلى أنى أديت واجبًا وقضيت فرضًا وعدت إلى الوطن سالمًا ، ففاض القلب شكراً لله على جميل رعايته وعظيم نعمته . وبلغنا مصر الجديدة فازداد القلب اطمئنانًا وألِفت العين كل ما حولها من المناظر . فلما بلغنا الدار ألفيت أهلى وأبنائى وقوفًا فى انتظارى وكلهم فى لباس العيد ، وألفيت لدى الباب عِجلا ينحره القصاب ساعة دخولنا ليوزع على الفقراء قربانًا إلى الله أن غنمنا السلامة .

هذه هى المرة الثانية التى يلقانى فيها أهلى بمثل هذا الترحاب وهذه الحفاوة حين أوبتى من سفرى . أما المرة الأولى فكانت سنة ١٩١١ حين عدت من أوربا لأول مرة بعد سنتين من مُقامى بها طالبًا أدرس بجامعة باريس . ولقد سافرت فيما بين ذلك إلى أوربا وإلى السودان وإلى الشام وإلى تركيا مرات كثيرة ، وقضيت فى بعض هذه الرحلات زمنًا يزيد على ضعف ما قضيته بالحجاز . مع ذلك كنت أعود إلى مصر فيخف أصحابى وأهلى للقائى ، لكن فى غير ضجة وفى غير قربان ، ولا عجب . فقد كنت فى المرة الأولى فى فورة الصبا وبدء الشباب ، وكنت قد اغتربت لأول مرة عن وطنى ، وطالت عنه غربتى ، ثم عدت إليه وأهلى فى شوق لرؤيتى ، فرحون لذلك بمَقْدَمى . وكنت فى هذه المرة الثانية قد قضيت لله فرضًا ، ووقفت بين يديه تائبًا منيبًا ، ضارعًا إليه أن يعفو عنى ، وأن يغفر ذنبى ، ولى فى الله كبير رجاء .وقد ذهبت إلى بيته المحرّم خاشعًا خاضعًا متجرداً من زينة الدنيا مُقِرًّا بضعفى وعجزى ، أن يقبل توبتى ويعفو عن حوبتى ويدخلنى بفضله فى عباده الصالحين . وهم من أجل هذا الرجاء يحتفلون بمقدمى فرحين متهللين . وهل الحياة إلا رجاء أن يُعيننا الله على أداء واجبنا فى الحياة ؟

ولو علم أهلى ما فتح الله به علىّ حين سرت حيث سار رسوله ، وحين وقفت حيث وقف ، وما رأيت من آيات الله فى مسيرى وفى وقوفى ، لزادوا بمقدمى تهللاً وفرحًا . ولقد رأيت حقًّا من آياته الكبرى . فسمت هذه المواقف بنفسى إلى حيث لم تسم من قبل قطُّ . رأيت نور الله ماثلا فى كل دقيق وجليل من خَلقه . ورأيت آية الهدى متجلية يشهدها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته . ورأيت سنته فى الكون تتبدى لكل من أخلص إلى الحق وجهه ثابتة لا تبديل لها . رأيت هذا كله رأى العين ، وآمنت به إيمانى بما يقع عليه حسى وما تلمسه يدى . وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية . نعم ! كذب الظن من يحسبون التكاثر بالمال والجاه والسلطان شيئًا فى وجودنا . إنما الشيء الذى هو كل شيء فى الحياة فذلك إيماننا بالحق عن بيِّنة . وسموُّنا بهذا الإيمان فوق منافع الحياة جميعًا ، وازدراؤنا هذه المنافع أن يصيب الحق من جرائها مساس . وهل يعدل كل ما فى الكون من مال وجاه وسلطان قَبَسًا من نور الحق وضياء الهدى ! وهل يبقى على الحياة غير الحق وضيائه ! والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ مردًّا .

ربنا لك الحمد على ما أنعمت وتفضلت . ربنا فاهدنا صراطك المستقيم . ربنا ثَبِّت إيماننا واجعل تقواك رداءنا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

خاتمة الكتاب

بين الحياتين : المادية والروحية

أما وقد شهدت من مظاهر الحياة الروحية حيثما سرت فى أثر النبى العربى ما شهدت ، ورأيت كيف فعل الإيمان الأعاجيب فى مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة ، فما بال قوم فى عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان ؟ أفكان ذلك عماية منهم وجهلا ، أم أنهم أضلهم هواهم وغرهم بالله الغرور ، ولولا ذلك لرأوا من آيات الله ومن فضله على عباده المؤمنين مالا يغيب عمن تأمل فى خلق الله ومن ألقى السمع وهو شهيد ؟ !

حق علينا إذ نلتمس لهذا السؤال جواباً أن نذكر أمراً نعرفه جميعاً وينساه أكثرنا . فقلّ من الناس من ينكر وجود الله ، وأشد الملحدين غروراً وإمعاناً فى الضلال يقولون بالطبيعة وسننها أو بالدهر وأحكامه . هؤلاء يمسكهم غرورهم حين تأملهم فى الكائنات دون أن يحيطوا بالكون الذى لا يُعْرَف للزمان ولا للمكان فيه بدء ولا نهاية ، وإن عرف الناس جميعاً أن الكون يحول ويتطور إلى ما نعرف أقله ، وما يغيب عنا أكثره . أما من خلا هؤلاء الطبيعيين والدهريين فأولئك يؤمنون بالله وإن أقروا كلهم مسلّمين بأن عقلنا المحدود أضيق من أن يدرك كنهه تعالى ، وسع كرسيه السماوات والأرض . من هؤلاء فى عصرنا كثيرون يثورون بتعاليم أورثتنا إياها عصور الانحلال ، لانصراف الحظ الأوفر من هذه التعاليم إلى الجانب المادى من الحياة ، ولأنها تُلْبس الجانب الروحى ثوب المادة وتنحدر لذلك به إلى حيث تأبى العقول التى تثقفت بالعلم فآمنت وزادها العلم إيماناً . هؤلاء جديرون بأن تسمو حياتهم الروحية فوق حدود المادة وقيودها ، وبأن يكونوا لذلك من أشد الناس إيماناً بالله ، لا يُشركون به شيئاً ، ولا يلتمسون الثواب أو المغفرة إلا من فضله .

انصرف الحظ الأوفر من تعاليم عصور الانحلال إلى الجانب المادى من

الحياة وإلى تنظيمه ، وإلى اعتبار هذا التنظيم من قواعد الإيمان . فكيف نسير ، وكيف نستحم ، وكيف نأكل ، وكيف نشرب ، وكيف نلبس ، وما اللباس الحلال وما اللباس الحرام ، وكيف نعاشر أزواجنا ، وكيف نعالج مرضانا ، وكيف نعلِّم أولادنا ، وكيف ندبر أموالنا ؟ هذا وما إليه قد صار فى هذه التعاليم مقدماً على الإيمان وعلى الحياة . وهذه التعاليم تذهب إلى أن مخالفة ما جاءت به معصية يأثم مجترحها لأنها من أمر الله ، وليست رأياً لأصحابها ، ولا نصيحة للناس من حق الناس أن يزنوها بالعقل وبما توجبه المنفعة فى العصر الذى يعيشون فيه . كأنما نسى الذين أورثونا هذه التعاليم أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر ، وأن الخلفاء الأولين والصحابة والتابعين كانوا يختلفون فى الأمر الواحد رأياً ثم لا يطعن هذا الخلاف فى إيمان أحدهم ولا فى عقيدته ، لأنه لا يمس جوهر العقيدة ولا يخالف ما جاء فى كتاب الله .

والواقع أن المسلمين فى عصور اجتهادهم وتقدُّمهم وسيادتهم حضارة العالم لم يختلفوا إيماناً ولا عقيدة ، وإنما اختلفوا رأياً ومذهباً فى شئون الحياة الدنيا . هم جميعاً يؤمنون بالله وما جاء من عنده ، لكنهم اختلفوا فى أحكام ما يجرى بين الناس من معاملات ، لم يمنعهم من الخلاف رأىٌ رآه من سبقوهم فى أمر هذه المعاملات .

فالناس تختلف أحوالهم من عصر إلى عصر ، ومن مصر إلى مصر ، وقد تختلف فى العصر الواحد والمصر الواحد باختلاف طبقاتهم وأسباب كدهم وعيشهم . فإذا اختلفت الأحكام فى شأنهم فلا جناح فى ذلك ولا عجب فيه . ولذلك اختلف الأئمة الأربعة مذهباً وهم مع ذلك الأئمة المؤمنون أولو الورع والتقوى . واختلف مع الأئمة أصحابهم فى كثير من الرأى ، فأخذ أهل العصر فى بعض الأمور برأى الصاحب وتركوا رأى الإمام . وخالف الأئمة وأصحابهم مجتهدون لم يقيموا مذهباً وإنما عرضوا لمسائل بذاتها اجتهدوا فيها ، فلم يطعن ذلك فى إيمانهم ولم يخرجهم من عالم البررة المتقين .

كان ذلك حين كان الناس يقدرون العلم ويحترمونه لذاته ، ويحترمون لذلك

رأى صاحبه ما قصد به وجه الحق . وكان ذلك والأمة الإسلامية فى أوج مجدها وعظيم سلطانها تدوى كلمتها فى الشرق والغرب ويحسب العالم كله لها حساباً . فلما حلت بالأمة الإسلامية نكبات الشقاق وقام الثائرون فى أنحائها يبتغى كلٌّ متَجَنْدَ نفسه وسلطانها بدأ الجهل يفتك بالعقول ، والجمود يفتك بالأرواح ، وبدأ الناس يرتابون فى مقصد صاحب الرأى ويحسبونه لا يدين به عن عقيدة حرصاً منه على خير إخوانه المؤمنين ، وإنما يبديه دعاية لنفسه ، ويتخذ من النداء به وسيلة إلى السلطان . هنالك عم الناس الفزع من اجتهاد هؤلاء المجتهدين وقعد بهم هذا الفزع عن تبين الحق فى آرائهم ، فرموا الاجتهاد بالمنقصة ، وطرحوه وراءهم ظهرياً ، وقالوا لا رأى إلا ما رأى الآباء ، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمهتدون .

نشأ عن الجهل والجمود أن جهل الناس الحياة الروحية وغاب عنهم معناها فصوروها صورة مادية لا يزيد مداها عما يقع عليه الحسُّ وينحصر فى حدود إدراكه . وفى هذه الحدود أجروا عليها الأحكام التى أجروها على الحياة المادية وقضوا فى أمرها بما يوجبه تصورهم للمادة وشئونها . هذا مع ما هوى إليه تصورهم لشئون المادة بما يتفق مع جهلهم حقيقة أمرها وسنة الله فيها .

دار الزمن دورته ، ولم يكن مفرٌّ من أن تنتج الأسباب نتائجها : خضعت الأمم الإسلامية لغيرها وأذعنت لسلطان من آتاهم العلم مفاتيح السلطان . وبدأ هؤلاء يعلمون الناس مبادئ العلم فى الحياة المادية نقيض ما أورثتهم عصور الانحلال . علّموهم أن الأرض كروية ، وكانوا قد ورثوا من تلك العصور أنها مسطحة مستوية . وعلموهم أن الأرض تدور حول الشمس وكانوا قد أورثوا أن الشمس تدور حول الأرض : تشرق من المشرق وتغيب فى المغرب ، وتنخسها الشياطين حتى لا تقف سيرها . وعلموهم أن كسوف الشمس وخسوف القمر من سنن الكون سببهما تعرّض القمر فى دورته بين الشمس والأرض ، أو تعرُّض الأرض فى دورتها بين الشمس والقمر ، وكانوا قد ورثوا أن الخسوف والكسوف من آيات رضا الله وغضبه . وعلموهم أن لا شىء مما يقع فى الكون إلا له سبب

يدركه العقل إذا استوت لديه أسباب العلم لإدراكه ، وكانوا قد ورثوا أن ما يقع فى الكون أبعد من أن يدركه العقل لأنه متعلق بإرادة الله ، وأن إرادة الله لا تخضع لسنة يقع عليها إدراكنا . وعلموهم أن لصحة الأفراد والجماعات ولأمراضها أسباباً ، وأن التماس هذه الأسباب يطوّع معالجة الأمراض والمتاع بالصحة ، وكانوا قد ورثوا أن الصحة والمرض من عند الله ، وأن من إسلام الأمر لله ألا نناقش قضاءه . هنالك بدأ كثيرون يتساءلون : ما قيمة ما أورثتنا عصور الانحلال ؟ أو لا يجب علينا لعقولنا أن نجادل فيه وأن نسأل أهل العلم عن أسبابه ودواعيه ؟

رأى جماعة ممن يعلّمون الناس الدين فى هذا العصر الأخير أن الناس يجب أن يخاطبوا بلغة زمانهم ، وأن ما كان الجاهل يقنع به من قبل لم يبق مقنعاً لمن نال من العلم فى عصرنا الحديث حظاً ، والأمر كذلك خاصة بعد أن أصبحت كلمة العلم الحديث صاحبة السلطان فى الأمم التى توجّه مصاير غيرها وتتحكم فى شئونها . أولئك رأوا حقاً عليهم أن يلتمسوا حكمة الله فى الأشياء ، وأن يلتمسوا حكمته فى أوامره ونواهيه ، وأن يعلموا الناس هذه الحكمة ، وأن يجادلوهم بالتى هى أحسن . لم يبق كافياً فى نظرهم وفى نظر المتعلمين أن يقولوا للناس : إن الله فرض الصلاة والصوم والزكاة والحج وفرض العقاب على من لا يؤديها ، بل رأوا أن يعلموا الناس لماذا فرض الله الصلاة والصوم والحج وماهى الحجج العقلية الدامغة التى تقوم هذه الحكمة عليها ، ومن ثمّ يترتب الجزاء العادل لمخالفتها . ولم يبق حقاً عندهم أن الحكم فى أمور هذه الحياة الدنيا ، ما جل وما دق منها ، قد نزل الوحى بصيغة الأمر فيها ، بل أصبح الحق عندهم أن ما جاء فى كتاب الله من أمر لا ريب فى أنه الأمر القاطع ، لا النصيحة ولا التفضيل ، هو وحده الذى يجب أن يأخذه المسلمون على أنه الأمر . فأما ما وراء ذلك من منافع الحياة الدنيا فهم أعلم بما يصلح لهم فى العصر الذى يعيشون فيه . ولذلك وجب عندهم التفريق بين شئون الحياة ما تعلق منها بالروح والإيمان ، وما تعلق بالخلق ، وما تعلق بالحياة المادية ومعاملات الناس فيها مما يجرى لهم فى أمور دنياهم .

وهذا تقسيم يتفق مع مباحث العلم الحديث وما يقره . فهذا العلم يرى ميادين المعرفة الإنسانية فسيحة لا يكاد يحدها أفق ، وأنها مع ذلك ضيقة محصورة بالقياس إلى الكون وما يترامى إليه إلهامنا من مداه الذى يتجاوز الزمان والمكان ، وأنا لن نستطيع ، وإن بلغنا من العلم أبعد المدى ، أن نظفر بهذا الغيب الذى تتمثله أرواحنا وتتمثله أرواح البعض وتعجز أرواح الكثرة عن امتثاله . لذلك فرق العلم بين ما تقع عليه المعرفة العلمية وما لا تقع عليه ، وجعل ما وراء المادة مما لا تقع عليه هذه المعرفة العلمية . على أنه لم يحدد المادة التى تقع عليها المعرفة وإن قسم العلوم إلى بسيطة مستقلة بذاتها ، ومركبة تحتاج إلى ما تقرره العلوم التى تسبقها من قواعد وسُنَن . وهو كذلك لم ييأس من أن يمتد يوماً إلى بعض أنحاء الحياة النفسية بل إلى بعض أنحاء الحياة الروحية ، مع التسليم بأن ما سيظل غيباً لا يخضع لقواعده سيظل أفسح أمداً بمقدار لا سبيل إلى الإحاطة به عن طريق الإدراك ، وإن سبق إليه الإلهام الإنسانى فى حرصه على أن يعرف مكان الإنسان من هذا العالم فى فسحة مداه ، إذ لا يعرف للزمان ولا للمكان بدء ولا نهاية .

وكانت النظرية السائدة فى العلم إلى زمن غير بعيد تنكر حاجة الإنسان إلى ما وراء مقررات العلم ، وترى فيما لا يمتد العلم إليه خيالاً لا يستقيم مع تنظيم العلم الحياة . لكن أكثر العلماء فى هذا العصر قد عدلوا عن هذا الرأى وأصبحوا يرون فى مقررات الإلهام مما لم يصل العلم بعد إليه ما لا غنى للإنسان عنه . ذلك بأنهم رأوا الحياة المادية وحدها أقصر من أن تبلُغ بالإنسان غاية ما تصبو الإنسانية إليه من كمال ونعيم . فالحياة المادية وثنية بطبعها . والوثنية أنانية يغلب لذلك فيها الخوف والفزع . الوثنى يخشى صنمه وهو يملكه ، ويخاله قديراً على نفعه وضره وهو قادر على تحطيمه وإبادته ، وإنما يمسكه الوهم والخوف وتقعد به الأنانية فلا يفعل . والوثنية لا تقف عند عبادة الصنم الذى تصوره أيدينا ، بل تتناول كل عبادة المادة فى أى مظهر من مظاهرها . فعبادة المال وثنية ، وعبادة السلطان وثنية ، وعبادة القوة المادية وثنية . وما تجر إليه الوثنية من

أنانية ومن خوف وفزع قد كان مصدر شقاء العالم ومصدر الحروب المدمرة التى تنشب فيه بين حين وحين . فما لم تلتمس الإنسانية فى غير الحياة المادية وفيما وراء ما يقع عليه الحس وإدراكه مثلا أعلى تصبو إليه . فستظل فيها الحروب المدمرة وسيظل نصيبها الشقاء .

أما ولم يبق فى ذلك ريب فلا مفر من تضافر مقررات العلم ومقررات الإلهام لتنظيم الحياة ، ولا مفر من الإحاطة عن طريق العلم والإلهام جميعاً بحياة الكون إلى غاية ما ندركه من مدى الزمان والمكان ، لنعرف موضع الإنسانية منهما وما تطيقه من نشاط فيهما ، لتؤدى رسالتها فى الكون على خير وجه ، بأن تبذل فى الإنتاج العقلى والروحى أخصب مجهود وأحكمه وأعظمه ، ولتؤدى هذه الرسالة عن إيمان بها هو الحافز الصحيح للعمل المثمر . وتعاليم الإسلام تقتضى صاحبها أن ينظر فى خلق الله ليكمل بهذا النظر إيمانه . فواجب علينا أن نقف على كل ما بلغه العلم وأن نحيط به إحاطة معرفة وتدقيق ، لنُرشد الناس عن بينة ولنميط لهم عن وجه الحق ، حتى يؤمنوا على علم وليكون علمهم هادياً لهم إلى هذا الإيمان . أما أن نقول لهم إن الله أمر أن تؤمنوا به فآمنوا وليس لكم أن تناقشوا أو تجادلوا ، فذلك ما لا يتفق مع ما قام الإسلام على إساسه من النظر فى الكون ومشاهدة آيات الله فيه وتأملها والوصول من ذلك إلى الإيمان به جل شأنه .

والإسلام صريح فى هذا ، فهو يقتضى الناس جميعاً أن ينظروا فى الكون ليؤمنوا عن بينة ومن غير إكراه . لم يفرق فى هذا الأمر بين الرجل والمرأة ، ولا بين العربى والأعجمى ، ولا بين العبد والحر . ولم يجعل لأحد فضلا فى ذلك على غيره إلا بمقدار ما أوتى من العلم وما يطوّع العلم من إرشاد إلى الحق والهدى . ولا يعرف الإسلام نظام الكنيسة ولا يعرف الرؤساء الروحانيين ولا يعلق إيمان أحد على كلمة غيره ، ولا يجعل المغفرة لغير الله . وهل كأبى بكر الصديق فى حسن إيمانه ودقة معرفته بما جاء الرسول من عند الله به ، وهو يقول للمسلمين يوم اختاروه خليفة رسول الله : « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت

الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » ! .

الإحاطة بالعلم فى أحدث ما وصل إليه واتخاذه وسيلة للنظر فى آيات الله ، ذلك سبيل الهدى إلى الإيمان الحق ، وذلك سبيل الحياة الروحية الصحيحة. فالروح تنكر العقل إذا قُيِّد النظر وقيِّد العقل معه . من ثَم كان الجمود العقلى عدو الحياة الروحية ، لأن هذه الحياة لا تتفتح لتمتثل الكون إذا فُرض عليها قيد أيًّا كان نوعه . وهى لا تستطيع أن تمتثل الكون إلا أن يكون العقل حرًّا والحواس حرة فى الإلمام بكل ما فيه . وملاك حرية الحواس سلامتها . والحواس المريضة يضطرب ما تقع عليه ، فتنتقل منه إلى العقل صورة فاسدة . فإذا أسلمت الحواس السليمة ما تُلِم به إلى عقل سليم ينتظمه ليبلغ منه غاية ما نستطيع لمعرفة سنة الكون ، كان ذلك خير معوان للحياة الروحية فى تطلعها إلى آفاق أسمى من هذه التى تحدُّ حواسَّنا وإحساسنا . عند ذلك يتضافر العقل والقلب والوجدان وكل ما فى الإنسان من قوة مدركة ليمد الروح بعرفانه ، وليستمد من الروح ضياءه .

وضياء الروح يهدينا إلى وحدة الكون ووحدة الحياة فيه ، وإن تعددت المظاهر التى نحسبها مستقلة لنسبية إدراكنا . من ثَم كانت الحياة الروحية السليمة فى تطلُّعها إلى الحق تصبو دائمًا إلى الوحدة : إلى الوحدة بالحب والوحدة بالرجاء فى الله ونوره الذى يضىء الكون كله . وإلى وحدة الزمان والمكان . وهذه الصبوة الروحية هى التى تصور لنا وحدة الخالق جل شأنه وتجعلها أمامنا حقيقة ملموسة نؤمن بها عن يقين إيمان كل إنسان بما يقع عليه حسه . أما الحياة المادية فانفصالية بطبيعتها . ومهما يعمل قانون الجاذبية لضمها وحدةً مؤتلفة الأجزاء ، فما فيها من طبيعة التوالد يدعوها إلى الانقسام والتقسيم . ولذلك جعل التفكير المادى وجعلت الحياة المادية من الانقسام والتقسيم أساس الحياة وأساس السعى فيها . وعلى هذا الأساس صورت المثل الأعلى للطوائف والأمم والشعوب . والانقسام داعية النضال والحرب ، وهو من ثَم سبب الشقاء .

فأما صبوة الحياة الروحية إلى الوحدة فتجعل المثل الأعلى مثل تعاون

وتضامن ومحبة . وهذا المثل لا يعرف النضال ولا الحرب . وكيف يعرفهما والغاية التي يتوجه إليها . وهي رضا الله ، تسع الجميع وتفيض عنهم على تعاقب أممهم وأجيالهم ! لا خوف من أن يضيق هذا الرضا بمن هو أهله ، كما تضيق الأرض بسكانها ، وكما تضيق المواد الأولية دون إمداد الصناعة ، وكما تضيق أسباب الترف فى العالم بمتاع أهله جميعاً بهذا الترف . ولذلك يدعو الداعى إلى الحياة الروحية الناس كافة بلا تفاوت بينهم ، ويدعوهم إليها فى حمى السلام والإسلام والرضا ، لا فرق بين شرقى وغربى ، ولا فرق بين أبيض وأسود وملون ، ولا فرق بين أمة وأمة ، بل هم فى هذا الحمى سواسية ، جزاؤهم بعملهم وعملهم بنيتهم ، وأحبهم إلى الله أشدهم حبًّا للناس ، وأمتنهم إيماناً أكثرهم معرفة لخلق الله وعرفاناً لسنته فى الكون وعلماً بكل ما يهيئ الله لنا أسباب العلم به .

والناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية ، لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم . ولولا ما يمد لهم فيه دعاة المادة من أسباب الضلال إذ يغرونهم بمتع الحياة ولذاتها لانهارت فوارق كثيرة ليس يبقيها إلا هذا الضلال ، ولآمن كلٌّ بأن واجبه الأول أن يهدى غيره طريق الحق ، ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد ، ولأخلصت القصدَ فى سعيها إلى الإسلام بدل أن تجعل من نذر الحرب هياكل عبادتها ، ولكانت خطا الإنسانية فى سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى سبيلا . ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لنعموا اليوم بما يلتمسونه من سعادة . ولعلهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم لا يزالون بعدُ فى جهالتهم . ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هداهم ، والعلم الناقص داعية ضلال .

وحسبُك لتدرك الحق فى ذلك أن تصوّر لنفسك أن المسلمين الأولين لم يختلفوا بينهم شيعاً ، وأنهم تابعوا وثبتهم الأولى إلى غايتها ، وأنهم نشروا التوحيد فى ربوع العالم كله على أساس من النظر فى خلق الله ومن معرفة سنته ، وأن الناس جميعاً التمسوا العلم فى حمى التوحيد ليزدادوا إيماناً ، وأن هذه

الاثنى عشر قرناً التى انقضت منذ خلافهم قضتها الإنسانية فى التماس حقيقة الكون ومعرفة أسراره . أية إنسانية كانت تعمر الأرض اليوم لو أن ذلك حدث ؟ إنسانية بالغة من السمو ما لا أحسبنا نُدرك مداه ونحن فيما نحن فيه من فرقة وتنازع على أسباب العيش ، ومن حروب لا تهدأ ثائرتها منشؤها هذه الفرقة وهذا التنازع .

أليس جديراً بنا ، وذلك ما تدعونا الحياة الروحية إليه وما بلغه سلفنا فى ظلالها ، أن ننهل من وِرْدها وأن نشهد من آثارها فى بلاد النبى العربى ومنزل الوحى إليه عليه السلام ، لعلنا نعود سيرة السلف فنشب وثبتهم هدًى لإخواننا بنى الإنسان ! . لقد شهدت من ذلك ما سطرته فى هذا الكتاب . ويعلم الله أنى أود لو أنهل من هذا الورْد فى كل حين ، وأن أقف حيث وقف الرسول وأن أسير حيث سار ، ملتمساً فى سيرته وفى مواقفه الأسوة والعبرة . فإننى لعلى يقين من أن التأمل فى السيرة ومواقفها ، وفى التعاليم التى جاء بها الرسول ، خير ما يهدى الإنسانية سبيل الحق والخير والجمال ، وما ينهض بها من دَرَك أمسكتها المادية فيه عن السمو إلى مراقى الروح حيث العيش إخاء ومحبة وحرص على العلم بما فى الكون ، ليضىء العلم بنوره إخاءنا ومحبتنا ، ويزيدهما إنسانية وسمواً ، ويصل بنا فى ظلهما إلى حمى السلام .

لقد حالت الحوائل دون مسيرى فى أثر الرسول إلى الشام حيث ذهب صبياً ، وإلى خيبر حيث ذهب نبياً . فلعل الله يهيئ لى من بعدُ أسباب هذا السير فأستكمل به غرضاً هو اليوم أجل أغراض الحياة عندى ، وأزداد به إيماناً وتثبيتاً ، وأنعم به فى ظلال الحياة الروحية الوارفة ، وأبلغ من ذلك ما سعِدت به من الرضا حين جاورت البيت الحرام وحين زرت قبر النبى عليه الصلاة والسلام.

« إِنَّ ٱللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

ب

ت

ث

ج

ح

خ

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

فهرس الأماكن

ت

ث

ج

ح

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ك

ن

هـ

فهرس الغزوات والأيام والوقائع

فهرس الكتب

فهرس الموضوعات

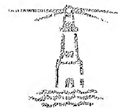
رقم الإيداع		٤٠٥٢ / ١٩٨٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٢١-٢	ISBN

١٤٨ / ٨٦ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Mohammad Ḥosayn Hīkal

Fī Manzil Al-Waḥy



DAR AL-MAAREF